

روایات (الهلال)

الاکبری و شیرازی و اکبر

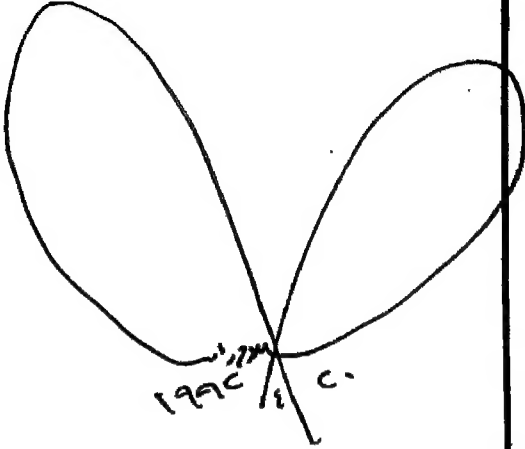
نیقوس کا زانترا کیس

عدمیتاز



العدد ٥٢٠

إبريل ١٩٩٢ • شوال ١٤١٢ هـ
No . 520 . AP . 1991



الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ٢١ جنيهاً في ج . م .
ع . تسدد مقدماً نقداً او بحوالة بريدية غير
حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولاراً - أمريكا وأوروبا
وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً - باقي دول العالم ٤٠
دولاراً .
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمير مؤسسة
دار الهلال .. ويرجى عدم إرسال عملات نقدية
بالبريد .

الكويت : السيد عبدالعال بسيوني زغلول
ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤
بـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتدیان
٣٦٢٥٤٤ (٧ خطوط) المكاتب : ص . ب :
لقاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا :
قاهرة ج . م . ع .

TELEX 92703 hilal L
FAX 3625٤

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal



سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمية

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال



رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم



ثن النسخة

اهداءات ٢٠٠١

اصلاح راتب

القاهرة

الحرية أو الموت

تأليف
نيقوس كازانتزاكيس
ترجمة
سعد زغلول نصار

★

دار الهلال

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية «كابتن ميخائيليس .. التي نشرت»
بالفرنسية تحت عنوان
La liberté Ou la mort
تأليف

Nikos KAZANTAZAKIS

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحة حسنين

أخذ الكابتن « ميخائيليس » يجز على أسنانه كما هي عادته كلما استشاط به الغضب ، ثم رفع أصابع يده اليمنى وكأنها مخالف ، إلى شاربه الاسود يعبث به ، كان جديرا بلقب « الخنزير البرى » الذى يعرف به فى ميجالوكاسترو ، فقد كان ما يتصف به من ثورات الغضب ، وكانت عيناه العميقتان الداكنتان المستديرتان ، وعنقه القصير الصلب وأصابعه الطويلة كالمخالب وجسده الثقيل العريض .. كل ذلك كان يشبه بحق خنزيرا برياً انتصب على ساقيه فاتحا ذراعيه للربيع .

كان الكابتن مطبقا بقبضة يده على رسالة مالبث أن دسها فى ثنايا حزامه العريض بعد أن أمضى وقتا طويلا وهويتهجى حروف كلماتها ويبدل جهدا خارقا فى فهم معانيها .. إنه لن يحضر هذا العيد أيضا (هكذا فهم) : وهكذا فإن أمه المريضة التى تحتضر وأخته المسكينة .. لن تتاح لهما رؤيته لأنه - كما يقول - لا يزال يدرس .

بحق الشيطان .. ماهو الذى يدرسه ؟ أسيظل يدرس هكذا إلى الأبد ؟ ! أم أنه لم يعد له وجه يعود به إلى كريت بعد أن تزوج من يهودية ولم يتزوج من امرأة قروية من بلدنا ؟ هذا ما وصل إليه حال ولدك المفضل يا شقيقى كوستا ! أه لو كنت حيا لترى ! أه لو كنت حيا لتمسك به من كاحليه وتعلقه فى دعامة خشبية ورأسه إلى أسفل وكأنه غرارة حبوب ! .

وانتصب واقفا كمارد مشوق فكادت رأسه تلمس سقف الدكان ، وكانت العصابة السوداء التى يعصب بها جبينه قد ارتخت فوق ظهره فجذبها وأعاد تثبيتها حول جبهته البارزة العظام ثم اتجه نحو الباب باحثا عن نسمة هواء .

وكان الصبى القروى شاريتوس الذبت البرى ذو الشعر البنى والعينين المرتعتين الراعشتين والأذنين المطرقتين ، متقوقعا خلف لفة من حبال السفن ونظراته تطوف بأشربة السفن والأواح الخشب وعبوات الدهان والقار والسلاسل الثقيلة والخطاطيف الحديدية وكل مايلزم السفن من عدد والآلات ، ولكنه - من شدة خوفه - لم ير سوى « الرئيس » الذى كان يقف على عتبة الدكان وقد ملأ كل فراغ الباب وهو يحدق صوب الميناء ، كان الكابتن ميخائيليس معه ، .. ولكنه لم يكن يتأديه إلا بكلمة « الرئيس » .. وكان يرتعد بمحضره .

وقف الكابتن يغمغم فى غضب : « كأنما لا يكفينى مالقيت اليوم من منغصات ما الذى يريد هذا الكلب حين يطلب منى أن أتوجه إلى منزله التعس هذا المساء ، ويجئ ابن أخى أيضا ليزيد طين المنغصات بلة ! سوف تطلب منى أمه أن أكتب إليه .. ولقد سبق أن فعلت ذلك ، ولكنه لم يكلف نفسه عناء الحضور ! » .

ثم التفت إلى اليسار نحو الميناء شاخصا ببصره تجاه البواخر والسفن والبحر ، وكانت الأصوات تتناهى من حاجز الأمواج مختلطة بأصوات الباعة والبحارة ، بينما كان الحمالون المنتشرون بين براميل الزيت والنيذ وأكوام المخلفات يصيحون ويلعنون أثناء قيامهم بالشحن والتفريغ وهم فى عجلة من أمرهم لينهوا أعمالهم قبل غروب الشمس وقبل أن تغلق أبواب القلعة ، وكان البحر يشيع جوا حارا رطبا فى المكان الذى تفوح منه روائح البرتقال المتعطن والشلجم (اللفت) والنيذ والزيت ، بينما كانت هناك اثنتان أو ثلاث من السيدات المالطيات يثرثرن بأصوات مبحوحة وقد ابتلت ثيابهن برذاذ الماء وهن يلوحن لباخرة مالطية عريضة الصارية كانت قادمة وهى تحمل شحنة من الزجاجات .

واختفت الشمس وراء سماء حمراء ، وانتهى آخر يوم فى شهر مارس ، وهبت ريح شمالية باردة رعشت لها ميجالوكاسترو ، فأخذ أصحاب الحوانيت يدلكون أياديهم ، ويصكون أقدامهم .. ويتناولون الأشرية الدافئة أو « الروم » . وعلى مدى البصر كانت تبدو قمم جبال « استرومبولاس » مكسوة بالثلوج ، وجبل « سيلورتيس » وردى اللون تتخلله زرقعة معتمة ، وكتل الثلوج المتجمدة تلمع بيضاء بين الأخاديد العميقة التى تقيها

الرياح .. بينما السماء صافية زاهية .

والقى الكابتن ميخائيليس بنظرة إلى برج « كيول » .. ذلك البرج العتيق الضخم الرابض إلى يمين مدخل الميناء ، وفي مواجهته أسد فينيسيا الرخامى ضاماً أجنحته . كانت ميجالوكاسترو محاطة بأكملها بالأسوار المنيعه والأبراج الحربية التى أنشأها حكامها فى العصور الذهبية للبندقية . والتى خضبتها دماء البنادقة والأتراك واليونانيين ، وفى كل مكان كانت بقايا الطابع القديم لاتزال واضحة ، فهذه هى الأسود المنحوتة من الحجارة تحمل الانجيل بين فكيها ، وتلك آثار ضربات الفئوس التركية تبدو واضحة على الحصون منذ ذلك الخريف الدامى الذى سحق فيه الأتراك ميجالوكاسترو بعد أعوام طويلة من الحصار اليائس .. وفى كل مكان - وبين الأطلال - تنتشر أشجار التين والأعشاب الشوكية والشجيرات الجرداء .

وخفض الكابتن فيخايليس بصره وأخذ يحدق فى أسفل برج « كيول » وقد نفرت العروق فى جبينه وأخذ يتنهد بعمق : هناك ، وفى داخل هذا القبر الذى تتكسر عليه الأمواج كان السجن اللعين الذى قضى فيه أجيال من المحاربين نحبهم مكبلة أيديهم وأرجلهم بالسلاسل : « حقا إن أجساد أبناء كريت قوية ، ولكنها أبدا لاترقى إلى قوة مشاعرهم » .. واسترسل يقول لنفسه وكأنه يهذى : « إننى اتهم الله .. اتهمه بأنه لم يمنح أبناء كريت أجسادا من فولاذ تمكنهم من الصمود مائة عام أو مائتين أو حتى ثلاثة حتى تحرر كريت .. وبعدها ليكن مايكون .. حتى ولو تحولنا إلى تراب أو رماد » .

ثم ارتفع غضبه عندما تذكر ابن أخيه الذى يعيش فى الخارج كافرنجى ، يقول إنه متعلم .. ما الذى يتعلمه بحق الشيطان ؟ .. سوف يعود ولاشك مثل عمه تيتوريوس المدرس ! .. مخلوقا عليلا .. بعوينات وأرداف .. خنزيرا ممتازا .. اللعنة ! .. ميوعة .. ! » .

ويصق بصقة بعيدة .. ثم تردد لحظة قبل أن يتجه إلى حانوت للعطارة يملكه « ديمتريوس » ..

ومضى يحدث نفسه : « لقد جئت إلى هذه الدنيا جسورا .. من صلب جدنا الجسور ميخائيليس المجنون الذى لم يكن يخشى الأتراك ! » .. وفقرت إلى ذاكرته صورة جده التى كانت تبعث الرعب فى القلوب ، كيف

تموت ذكرى هذا الرجل الذى ترك كل هؤلاء الأولاد والأحفاد ؟ . إن كبار السن هنا وهناك يعرفونه ويذكرون كيف كان يقف على شاطئ كريت محدقا مظلا عينيه بكفه ، كان يتربع ظهور إحدى السفن الروسية فى البحر عند خط الأفق وهو يحرك طربوشه فيميله إلى ناحية من رأسه ، ويظل يسير فى تكاسل جيئة وذهابا بحذاء أسوار ميجالوكاسترو وينحنى أمام برج « كيول » اللعين ويغنى فى وجوه الأتراك : « الموسكوف قادمون ! » .. كان شعر رأسه طويلا ولحيته مسترسلة ، وكان ينتهل حذاء برقبة طويلة تصل إلى حزام الوسط ، ويقال إنه لم يكن يخلعه عن قدميه ، ويرتدى قميصا أسود طويلا علامة على الحداد على كريت التى ترسف فى الأغلال ، وكان يخرج عقب القداس فى أيام الأحاد ويتجول هنا وهناك وفى يده قوس جده وعلى كتفه جعبة مملوءة بالسهم .

وزمجر الكابتن ميخائليس ، وقطب عن جبينه وهو يقول : « كان هؤلاء رجالا حقا ، كانوا جبابرة ، ولم يكونوا مثلنا كالديدان . وهكذا كان نساؤهم أيضا ، بل لعلهن كن أكثر منهم توحشا ! أه .. ! ، لكم تنحدر طبيعة الرجل مع الزمان .. تنحدر إلى الشيطان ! » .

وارتسمت صورة جدته - بعد صورة جده - بأظافرها المتسخة ، كانت قد غادرت بيتها ذا الجدران الخشبية عندما بلغت من السن عتيا ، وخلفت فيه أولادها وأحفادها وأولاد أحفادها ، ومضت إلى واحد من الكهوف العميقة التى فى أعلى القرية .. ودفنت نفسها فيه وظلت بداخله طوال عشرين سنة ! .. وكانت إحدى حفيداتها - ممن تزوجن من رجال قرية « يسيلوريتيس » .. تحضر لها كل صباح قطعة من خبز الشعير وقليل من الزيتون وقنينة من النبيذ (وكان الماء متوافرا بالكهف) ، وكانت تحضر لها فى كل عيد فصح ، بيضتين مصبوغتين باللون الأحمر فى ذكرى السيد المسيح .. وكانت العجوز تظهر كل صباح على مدخل الكهف بوجهها الأبيض الشاحب كالشبح ، وبشعرها وأظافرها الطويلتين وثيابها المهلهلة .. وتظل تحديق الشمس ملوحة بذراعيها النحيلين طويلا .. داعية أولاعة ، ثم تعود تدلف إلى كهفها فى بطن الجبل .. هكذا .. طوال عشرين سنة ! حتى إذا كان صباح يوم ما .. لم يرها أحد .. وأدرك الجميع ماحدث . فاستدعوا قسيس القرية الذى صعد إلى الكهف وفى يده شعلة مضيئة ليجد عظام العجوز قابضة فى إحدى الحفر وقد تشابكت ذراعاها .. ودفنت رأسها بين ركبتيها ..

وهز الكابتن ميخائيليس رأسه وهو يبعد عينيه عن السجن فى محاولة
لأن يبعد عن ذاكرته صورة الأموات .

وفى حانوت صغير على جانب الطريق : كان « ديمتريوس » يجلس
ناعسا فوق أريكة ضيقة وقد أمسك بمذبة من شعر حمار يحركها فى خمول
من ناحية لأخرى ليطرد الذباب عن الأكياس الصغيرة التى تحتوى على
القرنفل وجوز الطيب واللادك والقرفة .. وعند الزجاجات الصغيرة المملوءة
بزيوت شجر الغار والريحان .. وكان ديمتريوس هذا يبدو دائم الكآبة
بسحته الصفراء وأنفه الذى يشبه الخيار ! .. وبينما كان يتتأهب ويرمش
بعينه من حين لآخر - إذا لم يكن قد استغرق فى النوم بعد - لاح له
الكابتن « ميخائيليس » كما لو كان متجها نحوه .. فرفع يده بتحية المساء
ملوحا بمذبته ، إلا أن هذا الجار النشيط أدار وجهه فى الاتجاه الآخر ..
فعاد ديمتريوس إلى نعاسه ..

دس الكابتن ميخائيليس يده فى حزامه العريض فوجد الخطاب
المكرمش ، فانتزعه ومزقه إلى مئات القطع .. وأخذ يحدث نفسه :
- « كان مدرسا واحدا ليس كافيا لكى توصم أسرتنا بالغباء ! الآن
أصبح لدنيا الثانى .. وابن من يكون ؟ ! .. إنه ابنك يا شقيقى كوستا - أنت
الذى انتزع شعلة وأضرم بها النار فى الحانوت فالتهمت دير « أركادى »
بقديسيه وصلبانه ورهبانه وكل من فيه .. مسيحيين وأتراكا ! » ..

وكان « فيندوسوس » فى ذلك الحين يقف على رصيف الميناء مرتديا
سترة من الصوف .. كان قد أوصى « كيزاموس » أن يوافيه ببرميل من
النبيذ لحانته وهو الآن فى انتظار أن يتسلمه ، ولكنه حين رأى الكابتن
ميخائيليس على بعد وقد أسدل غطاء رأسه على حاجبيه ، تبين ماهو عليه
من غضب فاستدار وقال لنفسه : « إن التثنين فى حالة هياج هذا المساء ..
وخير لى أن أسلك طريقا آخر » ..

وبدأت الشمس تغيب خلف مرتفعات « استرومبولاس » .. وبدأت
الظلال تملأ الشوارع .. وبدأت المآذن البيضاء فى لون وردى ، وأخذ عمال
الميناء والتجارون وعمال الشحن والبحارة ينهون عمل اليوم .. وأخرج
الكابتن ميخائيليس كيس التبغ من حزامه ولف لنفسه سيجارة .. وبدأ
غضبه يهدأ مع نفاثات الدخان .. وأخذ يداعب ذقنه الداكنة بأصابعه
المخيلية البيضاء وهو يحدث نفسه :

- « يجب أن يعيش ولدى « تراساكي » لكي يعيد وجوهنا نظيفة من جديد .. لابد وأن يضرب مثلاً لعمه « تيتيروس » ولابن أخى .. ذلك الحكيم جدا الذى لم يخجل من خلط دماثنا بدماء المرابين ، لابد أن يرتفع ولدى بمستوى أسرتنا ! » .

وفجأة أحس بأن الحياة بخير .. وأن الله عادل .. وأنه لا عتبى عليه بعد الآن .

واقترب تركى عجوز حليق الرأس يرتدى ثيابا بالية ، ورفع بصره إلى الكابتن ميخائيليس وهو يرتعد .. فبادره هذا فى حدة : « ماذا تريد يا على أغا ؟ » .

وكان « على أغا » أحد جيران الكابتن ميخائيليس الذى لم يكن يطبق رؤية وجهه الذى تشتمز منه نفسه ، فقد كان يبدو له هشا كالفقعة الرقيقة ، نصف رجل ونصف امرأة .. يقضى أمسياته مع جاراته من النساء اليونانيات ويشاركهن ثرثرتهن .

وتمتم العجوز قائلا :

- سيدى .. لقد أرسلنى « نورى بك » .. وهو يحييك ويسألك ما إذا كان من الممكن أن تسعده هذا المساء بزيارته فى قصره ..

- حسن .. سبق أن تلقيت هذه الرسالة من خادمه الاسود ، وتستطيع أنت أن تتصرف .

- إنه يقول : إن الامر عاجل للغاية ..

- قلت لك أغرب الآن عن وجهى :

فقد كان يضايقه سماع الصوت النسائى لذلك المملوك ..

وعض « على أغا » على لسانه واستدار لاثذا بالحائط .. ثم مضى من حيث أتى .

- وماذا أفعل فى بيوت الاتراك ؟ .. ماذا يريد منى هذا الكلب ؟ ..
ولماذا لم يأت إلى بنفسه ؟ .. لن أذهب إليه .

والتفت فجأة .. ونادى : « شاريتوس ! أدخل وأسرج فرسى » ..

فقد خطر له فجأة أن يمتطى فرسه في نزهة تنسيه جدته وجدده وابن عمه ونورى بك أيضا ! ولعله بذلك يزيح عن كاهله الكثير .

وبينما هو يمد ذراعه ليلتقط المفتاح ويفلق حانوته ، إذا بصهيل فرح منعش يتناهى إلى سمعه داويا فى الشارع ، إنه ليميز هذا الصوت تماما .. صوت ذلك الجواد الأسود المتألق ذى الملمس الناعم الرقيق ! !

والتفت الكابتن ليرى ذلك الجواد الأصيل الأنقى يتقدم فى خيلاء وقد أمسك بلجامه غلام تركى عارى القدمين ليقوده فى مسيرة بلا سرج فى شوارع ميجالوكاسترو ليهدى من أنفاسه اللاهثة .. لابد أنه كان يعدو قبل قليل ، فلا يزال الزبد ظاهرا على فمه وصوره ، وتحت كتفيه ، ولكن قوته لم تكن تبارى .. كان لا يزال ينفر بقوة فيتناثر الزبد رذاذا حول عنقه وهو يقفز متبخترا بين اللحظة والأخرى ضاربا الأرض بساقيه الاماميتين الرشيقتين .. وهو يصهل :

وصاح أحد الواقفين خارج حانوت الحلاق « پاراسكيفاس » .. الرجل القادم من جزيرة « سيرا » :

- انظروا يا أولاد .. ها قد أقبل جواد نورى بك !

واندفع إلى باب الحلاق خمسة أو ستة لم يطلقوا بعد ذقونهم ، وواحد غطت ذقنه رغوة الصابون .. وأخذوا يحدقون فى الجواد بأفواه فاغرة وأعناق مشربئية .. وصاح شاب رخو ذو لحية شعناء كلحية الجدى ..

- بحق روحى ذاتها ، لو أن أحدا سألنى ما إذا كنت أختار جواد نورى بك أو زوجته .. لاخترت الجواد .

وصاح « ياناروس » معلم البياض - والذى كانوا يسمونه بـ « قرون الخنزير » .. بسبب شاربيه الكث - صاح ضاحكا :

- إن لك عقلا مثل عقل فرشاة البياض تماما .. ! أيها الأحق ، إن أمينة هاتم جميلة وفى العشرين من عمرها .. امرأة متوحشة .. فليقع اختيارك إذن عليها هى فقط أيها المسكين حتى تمنع جسدك شيئا من المتعة ! . وأجاب الشاب :

- قلت لك إننى أفضل الجواد .. ولا أحب الدنس .

وتدخل السنيور « پاراسكيافاس » الذى كان قد اندفع بدوره نحو الباب والمقص فى يده .. وقال بصوت مرتفع :

- لا أيها القروى الطيب .. لا الجواد ، ولا الهانم ، إن المتاعب التى تكمن وراءهما أكثر مما يستحقان .

واستدار الشاب ذو اللحية التى تشبه لحية الجدى .. وقال :

- أيها التافه من « سيرا » ! إن الحياة كلها متاعب ، وليس يريح المرم سوى الموت .. أنا أريد الخير لك - لا تتكلم بهذه الطريقة أمام الكريتين ، فقد نسىء فهم ما تقصد فندفئك حيا ..

وارتعش رجل « سيرا » المسكين ، إنه - وهو العاقل - لم يعد يذكر ما الذى قذف به إلى كريت ليحلق ذقون هؤلاء الوحوش ، كل حين يقدم إليه واحد من هؤلاء الكريتين الذين يعيشون فى الجبال .. ويدلف إلى الحانوت فيقفز هو فى ذعر ليرى ما يريده .. من أين يا ترى يبدأ المسكين ؟ لعل شهورا طويلة قد مضت منذ آخر مرة اغتسل فيها أو حلق ذقنه مثل هذا الرجل الجبلى ؟ ولعل سنتين كاملة قد مضت منذ آخر مرة قص فيها شعره .. ! وإنه ليعد المنشقة ، ويمسك بمقصه ويتحرك فى نشاط حول المقعد الذى يجلس فيه مثل هذا الكريتى وهو يتطلع فى إعجاب إلى وجهه المضحك فى المرأة : وإنه ليبدو أمامه كما لو كان Wether ، أو كما لو كان القديس « ماماس » الراعى الضخم الذى رآه السنيور « پاراسكيافاس » مرة فى إحدى الصور المقدسة بلحية كهذه وعوارض لا يستطيع عشرة من الحلاقين أن ينالوا فيها حقا أو باطلا .

إن مقصه ليتضامل فى يده فجأة .. من أين يبدأ فى هذه اللحية الخنزيرية ؟ .. ثم إنه ليتنهد .. ثم يستقر رأيه فى النهاية على أن يبدأ بإسم الله برغوة الصابون ! وتراجع المسكين فى ذعر وهو يتساءل :

- حيا ؟ .. ولماذا يا صديقى الطيب تدفننى حيا ؟ ..

- هل تعرف بم نسمى أولئك الذين يتكلمون بهذه الطريقة ؟ .. موتى ! ..

وابتلع رجل « سيرا » المسكين لعابه ، وتظاهر بأنه لم يسمع شيئا .. واستدار يدخل حانوته .

وفى تلك اللحظة وصل الكابتن « ستيفانس » ، ريان السفينة « داردانا »
التي أغرقها الأتراك خلال ثورة ٧٨ .. كانت إحدى قذائف سفينة تركية قد
اخترقت سفينته وحطمت ركبته ، ومنذ ذلك الحين لم يعد يصلح لشيء
سوى أن يضغط على الأرض الصلبة بعصاه ويعرج فى مشيته حول حى
الميناء ، وكان له عصوان : إحداها مستقيمة يستخدمها عندما تسير
الأمور فى كريت سيرا عاديا ، والأخرى مقوسة يستخدمها عندما تضطرب
الأمور وتشتت رائحة البارود فى الجو ، وإنه اليوم ليستخدم العصا
المقوسة وهو مقبل يستمع إلى ما يقال :

قال « ستيفانس » :

- لا تتشاجروا يا شباب .. فالأمر يسير .
- قل لنا أنت يا كابتن « ستيفانس » : أيهما تختار لنفسك ١٩ .
- أيها الحمقى ، أنا أختار الاثنين معا ! جواد نورى لكى امتطيه ،
وأمنية هانم لتركب خلفى فوق مؤخرته - مثل القديس جورج !
وصاح الكريتيون ، الحليق منهم وغير الحليق :
- ونحن أيضا .. نحن أيضا .. نحن أيضا يا كابتن ستيفانس ، وعسى
الله أن يستجيب !

ورفع الكابتن ميخائيليس بصره : كان الجواد قد أصبح قريبا منه
رائعا .. ناريا كبجعة سوداء بعنقها ترفعه عاليا .. واستدار الجواد نحوه
وبرقت عيناه كما لو كان قد عرف الكابتن ميخائيليس ، واهتز لحظة وصهل
وتقدم الكابتن نحوه بالرغم منه - ومرت لحظات وهو واقف أمامه ويده
تتحرقان لأن تلمسه وتتحسس حرارة جسده والزبد حول فمه .. ورأه
الصبى التركى ووقف ساكنا .

وبدأت يد الكابتن ميخائيليس تجوس خلال الصدر العريض الذى بلله
العرق وأحاطته قلادة من الأحجار الزرقاء الخفيفة محلاة بهلال من العاج ..
وأخذت يده فى لهفة تربت العنق والخياشيم والرأس ، وتضرب بحنان
معرفة العنق ، وتنتقل فى اشتياق إلى الظهر والفخذين (crupper) ،
وتدور حول البطن المضطربة دون أن تكتفى ، كانت يده كأنما تريد أن
تبتلع الجواد كله .

اما الجواد الرائع المدل بروعته ، فقد أحنى عنقه وهو يحس بمتعة شرهة فى دغدغة اليد الحانية ، ثم أدار رأسه ذات العينين الداكنتين الواسعتين كحبتى خوخ (plum) .. ونفري حرارة فوق رأس الرجل وبدأ فجأة يتراقص .. واندفع يرفع عصا رأس الكابتن ميخائيليس السوداء ، ويلوح بها فى الهواء دون أن يدعها تسقط ، وعيناه تتابعانها فى غنج ودلال ، وأحس الرجل بقلبه يرق ، أبدا لم ينظر إلى آدمى بهذه السعادة الرائقة .. ألفى نفسه وقد بدأ يهمس فى أذن الجواد بكلمات الود والاعزاز ، وخفض الجواد عنقه كما لو كان يستمع ثم مسحه فى كتفى الرجل ، وفجأة رفع الكابتن ميخائيليس يده وجذب عصا رأسه السوداء من فم الجواد .. وقد علاها الزيد ، ووضعها حول رأسه ثم استدار نحو الصبى التركى وأشار إليه أن ينصرف .

وقال وهو لا يزال يتابع الجواد ببصره وقد اقترب من البوابة الرئيسية :

- سوف أذهب ..

كان قد قرر رؤية فجأة ، واستدار ليطلق دكانه وليأخذ طريقه نحو قصر نورى بك ولكن الكابتن ستيفانس الذى كان يراقبه وهو يربت على الجواد بذلك الاشتياق الزائد .. وقف أمامه متكئا على عصاه المقوسة يرجو له أمسية طيبة ، لم يكن ستيفانس يخشى هذا الصنف من الرجال الذين يكرهون الناس ، فقد كان هو نفسه رجلا بمعنى الكلمة .. كلب بحر قويا استطاع خلال ثورات ١٨٥٤ ، ١٨٦٦ ، ١٨٧٨ ، أن يخترق الحصار التركى بسفينته « داردانا » مرات لا يحصى عددها وينقل الطعام والذخيرة لكريتيين فى موانئ طبيعية منعزلة ، وعندما أصابوه وأغرقوا سفينته ، نزفت الدماء من ركبته المنسحقة ولكنه سبى فى خليج القديسة هيلاجيا وهو يمسك بين أسنانه فوق الأمواج بالرسائل التى بعثت بها اللجنة الاثينية إلى القائد الشهير كابتن « كوراكس » .. زعيم مقاطعة « ميسارا » ومنذ ذلك التاريخ .. عاد إلى الأرض أخرج فقيرا مهلهل الثياب منتعلا حذاءه الذى رتب مرة ومرات ، يدور كل يوم حول الميناء وهو يتطلع إلى السفن الأجنبية فى إعجاب ، ولكن بقلب مكلوم ، ويشم رائحة القطران ويسمع أصوات التحية المتبادلة وضجة الخطاطيف المرتطمة بالأعماق البعيدة ، كان الجسد ضعيفا .. والجيوب خاوية .. ولكن الروح كانت شامخة داخل صدره

وهو يحدق فى صفحة البحر كأنه رأس وحش خرافى .

واستند إلى عصاه المقوسة ، ووقف ثابتا فى مواجهة الكابتن ميخائيليس وتكلم :
- هيه .. كابتن ميخائيليس .. هل التقطت أذنك ما يقوله الناس فى الميناء ؟ .. إنهم يتسألون ! إذن أنت خُيرت بين جواد نورى بك .. وبين أمينة هانم .. فأيهما تختار ؟ ..

وقال الكابتن ميخائيليس :

- أنا لا أهتم بهذه الثرثرة المخجلة :

ثم اتجه إلى مكانه دون أن ينظر إلى ربان السفينة ، ولكن البحار العنيد لم يستسلم .. ظل يتفحص الكابتن .. وقال وكأنه لم يسمع شيئا :
- لقد جلبها نورى بك من القسطنطينية ، وهى شركسية كما يقولون ، جمالها يكفى خمس نساء .. متوحشة - من أكلات لحوم البشر بحق ! .. إن جارأتى « العوانس العجائز » يسمعن من جاريتها السوداء التى أحضرتها معها ، عما يجرى خلف أبواب القفص الذى وضعها فيه البك ، ثم ينشرن حفظ الله السننهن الصغيرة ! - مايسمعن ..

وقال الكابتن ميخائيليس فى شىء من الغضب :

- كابتن ستيفانس .. قلت لك إننى لا ألقى بالا إلى هذه الثرثرة المخجلة .. ولكن البحار العنيد لم يتزحزح .. لا .. لن يجبره على أن يغلّق فمه .. إن الخوف لم يعرف إليه طريقا وهو فى مواجهة البحرية التركية ، فكيف يخاف إذن من هذا الرجل ؟ .. سوف يسمعه كل مايريد أن يقوله سواء أراد أم لم يريد .. تابع كلامه فقال :

- إن نورى بك أخوك فى الدم يا كابتن ميخائيليس ، لاتنس ذلك ، ومن ثم فإنه من حَقك أن تعرف ما يجرى داخل بيته .. إنهم يقولون إن هذا البك المتوحش يجلس إلى أقدامها محدقا فى عينيها ، وإنها تضغط سيجارتها المشتعلة فى عنقه وهى تهقه ، ويقولون أيضا إنها تتذكر بلادها أحيانا .. تتذكر الخيام ورائحة الروث واللبن وصهيل الخيول - وتستبد بها الذكرى فتحطم أكواب « البورسلان » وتسكب زجاجات العطر على الأرض .. وتلهب ظهر جاريتها بالسوط

وأمسك الكابتن ميخائيليس بالمفتاح وأزاح بيده الذئب البحرى العجوز عن الباب وهو يهدر مثل كلب مسعور ، حتى يتمكن من إغلاق دكانه .. ولكن البحار لم يكن يستطيع الآن أن يمسك لسانه ، صحيح أنه كان من الأفضل ألا يدخل فى نقاش مع وحش مفترس كهذا ، ولكن الأمر كان قد انتهى وأصبح متورطا فى الحديث .. فلتفض السفينة إذن ناشرة قلاعها وليكن ما يكون ! وليسرع فى إنهاء حكايته ..

- ويقولون أيضا .. إن الهانم تغار من جواد نورى بك ، وأنها دفعت نورى بك بعيدا مساء أول من أمس عندما حاول هو أن يحتضنها وقالت له : « افعل أولا شيئا من أجلى » ، وقال هو : « كل ما تطالبينه يا عشيقة قلبى .. كل ما تطالبينه مجاب » .. « أحضر جوادك إلى القناء ، واشعل المصابيح حتى أستطيع أن أراه .. وأذبحه أما عيني ! » .. وتنهّد البك وأحنى رأسه وانطلق يعدو خارج الحجرة وأغلق على نفسه باب حجرته وظل طوال تلك

الليلة يذرع أرضها جيئة وذهابا وهو يهدر ، أنا أحكى لك ما سمعته حتى يكون لديك به علم ، فقد أرسل يطلبك لأنه محتاج إليك ، لا تحاول أن تنكر فقد أخبرنى على أفا ، ومن ثم فمن الأفضل قبل أن تذهب ، أن تعرف حال الزوجين العاشقين فى تلك المقلاة !

ومسح ستيفانس يديه الجامدتين ، سعيدا بأنه قال كل ما يريد دون أن يغلبه الخوف ..

- نعم يا كابتن ميخائيليس ، هذه هى الحقيقة ، وإذا كان ما قيل كذبا ، فالأفضل إذن أن تتحرى العوانس العجائز الأمر ! .

وتحرك الكابتن ميخائيليس ، وصفق باب الدكان فأغلقه ، ودس مفتاحه فى حزامه ثم استدار إلى الكابتن الصفيق وقال فى غضب :

- أنت أيها المخلوق البحرى لا تعرف شيئا عن احترام النساء . وانطلق فى طريقه :

وصاح ستيفانس يرد فى ضيق :

- وأنتم يا فرسان الأرض تعرفون كل شيء فى هذا الصدد ! دائما تجدفون وسط روث الخيل !

.. قالها واندفع يتوكأ ليختفى خلف الناصية وكأنما استبد به الخوف فجأة .

شد الكابتن ميخائيليس عصابة الرأس السوداء إلى جبهته حتى غطت ذؤاباتها عينيه كأنما لا يريد أن يراه أحد أو أن يرى هو أحدا ، واتجه نحو الحى التركى وهو يتنفس بقوة .

كانت الشمس قد غابت ، وبدأت الطبول تدق .. وكان الحراس قد أحكموا إغلاق بوابات المدينة الأربع بالمفاتيح حتى لا يخرج أحد خارج حدود « ميجالوكاسترو » حتى شروق الشمس ، وليبقى الأتراك والكريتيون داخل أسوارها معاً طوال الليل .

واشتدت الظلمة وامتدت لتغمر الأزقة ، واختفت النساء من الطرقات ، وأضيئت المصابيح داخل البيوت .. وصفت الموائد وهرع الرجال المحترمون إلى منازلهم ليتناولوا العشاء ، بينما توقف الرجال المرحون فى الحانات ليتناولوا كأساً أو كأسين ، وبدأت ميجالوكاسترو وسط الظلام كأنها جوعى تهيب نفسها لوجبة المساء .

وكانت تلك هى الساعة التى تبدأ فيها الشقيقات الثلاث المعرفات بالعوانس العجائز فى الوقوف خلف بابهن متجاورات ، كل تنظر من خلال واحد من الثقوب الثلاثة التى جعلت فى الباب ، يتطلعن إلى المارة ويعلقن على حسن هذا وقبح ذاك ، كن عجائز شعرهن ناصع البياض ، وكذلك حواجبهن ورموش عيونهن الحمراء منذ يوم ولادتهن وكأنها عيون أرانب ، ولم يكن يخرجن من البيت طوال اليوم ، وقيل إنهن لم يكن يحسن الرؤية فى ضوء الشمس ومن ثم يترقبن المساء بفارغ الصبر حيث يقف ثلاثتهن إلى الثقوب الصغيرة الثلاثة ويشاهدن من خلالها العالم يمر أمامهن ، ومن خلال هذه الثقوب لم تكن ذبابة تستطيع أن تفلت من نظرهن ومن السننهن الحادة المسمومة ، وكان بيتهن يقع على ناصية شارع السوق فى النقطة التى ينتهى عندها الحى التركى ويبدأ حى الكريتيين ومن ثم فقد كن يشاهدن كل شخص .. ويطلقن على كل شخص اسماً لا يستطيع بمرور الوقت أن يفلت منه ، هن اللانى أطلقن على الكابتن ميخائيليس اسم « الدب المفترس » ، وهن اللاتى أسمين شقيقه المدرس « تيتيروس » ، لأن أباه أحضر معه فى إحدى المرات قطعة جبن كبيرة من القرية ، فسأله ابنه

المتعلم باللغة اليونانية الكلاسيكية *It rups eiuai apros , natep* (أى صنف من الجبن هذا ، يا أبى ١٩) .. وسمعت العجائز العوانس الثلاث .. وأصبح الاسم .. « تيتيروس » ١ .

وطوال النهار ، كن يطبخن أو يحكن الثياب أو يكتسن ، فلم يكن لديهن شىء آخر يقلقهن ، ليس هناك رجال أو أطفال يولينهم عنايتهن ، أما شقيقاتهن ، الرجل الذهبى - هبة الرب لهن - السيد / أريستوطوليس الكيماوى .. فبالرغم من أنه لم يكن متزوجا . فقد كان يقضى اليوم كله مشغولا فى صنع المساحيق أو المراهم ، مريضا ضيق النفس مصفر الوجه متورم القدمين من طول الوقوف .. ثم يعود إلى شقيقاته حاملا معه سلة مثقلة بكل ما فى السوق ، وقد اختيرت له يوما ما - أيام كان شابا - فتاة من عائلة طيبة تملك دويلة محترمة ، وكان من الممكن أن يصبح السيد أريستوطوليس زوج ابنة ممتازا وسط هذه العائلة ، فقد كانت صيدليته تقع فى قلب ميجالوكاسترو وفى الميدان الرئيسى لها ، وكانت زاخرة بالزجاجات والقوارير والروائح وأنواع الصابون .. وكان المدرسون والأطباء يتجمعون عنده كل مساء يناقشون كل مشكلات الدنيا ، فلا يفعل السيد أريستوطوليس أكثر من أن ينصت إليهم بعينيه الصغيرتين الزرقاوين المرهقتين ثم يهز رأسه الجريئة وكأنما يقول لكل واحد منهم : أنت على حق .. أنت على حق ؟ بينما هو فى الحقيقة لم يكن يفكر فى غير أن حياته على ظهر هذا الكوكب فى الطريق إلى الاختفاء ، كان يريد أن يتزوج حقا ، ولكن ليس لأنه يهتم بالنساء ، فإله لا يحب ذلك ! كلا .. وإنما لمجرد أنه كان يريد أن ينجب ولدا يستطيع أن يدير الصيدلية بعده ، ولكن : .. أين تذهب شقيقاته ؟ لا بد أولا أن يتزوجن - فذلك هو المألوف .. ومن ثم ، فقد مرت الأعوام ، وأبيض شعره .. وتخلخلت أسنانه .. وانحنى ظهره وتهدل خداه اللذان كانا يوما ما شابين حمراوين ، أصبح السيد أريستوطوليس عجوزا .. وأصبحت حياته فارغة ، وأصبح لا يشغله سوى مضغ المصطكى .. وهكذا ، أصبح صانع المراهم يمضغ ويمضغ طوال اليوم ، وعندما يأتى المساء يستمع إلى المعلمين والأطباء وهم يتناقشون ويتجادلون حول الإرادة الحرة والروح الخالدة وما إذا كانت عوالم النجوم مسكونة .. بينما هو لا يفتأ يهز رأسه ويقول لنفسه : حتى لو أننى تزوجت الآن ، فليس باستطاعتي أن أنجب ولدا .. لا أستطيع هذا الآن .. لا

استطيع أن أنجب ولدا .. ! ثم يضع الهاون فوق المائدة ، ويتابع مضغ المصطكى .. وهو يدق مساحيقه حتى ساعة متأخرة فى حرص وعناية .

واليوم ، .. بكرت العوانس العجائز فى الوقوف فى مراكزهن ، كان البرد شديدا ، وكانت شعورهن غير ممشطة وأذرعهن وسيقانهن غلب عليهما التعب .. ولكنهن رغم ذلك ظللن واقفات فى « رجولة » على أقدامهن ينتظرن وقد الصقن أعينهن الياقوتية بثقوب التلصص وشبتن نظراتهن على الباب الأخضر لقصر نورى بك .

وقالت « أجلاجا » - وهى أوسطهن :

- ثبتن عيونكن هناك .. هناك شىء يطفى ، تذكرن ما قالت المرأة البربرية أمس !

- لقد عاد البك من قريته هذا المساء غاضبا مهتاجا ، أنا رأيته كذلك ، رأيته يندفع عبر الباب بعد أن فتحه بعنف بالغ .. وبعدها مباشرة سمعت صيحات وصرخات وتأكدت أنه يضرب خدمه مرة أخرى .

وأدلت « فيروسين » بدلوها :

- ومن هناك غيرهم ليضربهم ١٩ .. الجواد ١٩ أمينة ١٩ .. وليس بجسده براغيث فيصرخ ! ..

وبينما كانت العجائز العوانس الثلاث يتهاوسن ، بدا الشارع أمامهن فجأة وكأنه قد ازداد ظلمة ، وتراجعن ، وقلن .

- الكابتن ميخائيلس ! !

ثم اندفعن ثانية نحو ثقوب التلصص .

وفى مواجهتهن فى الشارع ، كان الرجل ذو اللحية الرمادية الداكنة المجعدة يسير فى مهل ولكن فى نشاط وخفة .. يتنفس بعمق ، وقد تدلت ذؤابات عصا به رأسه فوق عينيه ، كان يسير بحذاء الحائط ويده تستريح على حزامه العريض وقد أمسكت فى صلابة بخنجر ذى مقبض أسود ، واحتك جسده أثناء سيره بالباب الذى كانت العوانس العجائز يراقبنه من خلال الثقوب فيه ، وعندها استدار لحظة وكأنما أحس بأن هناك ست أعين تراقبه ، وبرقت عيناه فى الظلام ، وأصاب العجائز رعدة وهن يحبسن

أنفاسهن .. ولكن الرجل تابع سيره فى ببطء حتى إذا توقف فى مواجهة البوابة الضخمة رمى بنظره حوله ! وكان كل شيء ساكنا ولا مخلوق هناك ، وفى قفزة واحدة عبر الزقاق الضيق دفع بوابة قصر نورى بك .. ودخل . وتراجعت العوانس الثلاث .. ورسمت « أجلاجا » علامة الصليب وهى تقول :

- « كبرى إليسون ! » .. « هل رأيتما كيف دخل ؟ مثلما يدخل اللص ! »
- ماذا يريد « الدب المفترس » من البك ؟ لا بد أن فى الأمر شيئا ،
أراهن على أنه يريد أن يبيع له الجواد ..
- .. أو أمينة !

وبدا الثلاث : أجلاجا وثاليا وفيروسين يثرثن مرة أخرى

تقدم الكابتن ميخائيليس يجتاز عتبة الباب بقدمه اليمنى وهو ينظر حوله فى كل اتجاه ، وحدق فى الزنجر الذى كان ينتظره خلف الباب .. ذلك العجوز الأسود الذى ورثه نورى بك عن أبيه ، والذى يظل قابعا خلف الباب كالكلب طوال النهار وحتى منتصف الليل .. ولمسه الكابتن ميخائيليس بأطراف أصابعه فتراجع الرجل وسمح له بالدخول ، وسار الكابتن فى ببطء بين صفتين من الأصص الضخمة المليئة بالورود ، ولا بد أنه كانت فى مكان ما من الحديقة شجرة ليمون مزهرة . فقد انتشر أريج أزهار الليمون يعبق الجو مختلطا برائحة الأرض المسمدة بالروث والمروية حديثا وفى أقصى الحديقة حيث يقوم المنزل العتيق متلالئا فى الفسقى تنهى صوت مجلجل كان لايزال يشقشق داخل قفصه ، وبدت أضواء من خلال الشباك الخشبي المرتفع وسمعت ضحكات نسائية .. وتنفس الكابتن ميخائيليس الهواء التركى بالرغم منه ، وقد أحنى رأسه وهو يحدث نفسه :

- ما الذى جاء بى إلى هنا ؟ .. الفتن التركى !

ووقف ساكنا لايزال أمامه وقت كاف : لم يره أحد سوى الزنجى ، ولا يزال فى مقدوره أن يعود من حيث أتى ، ولا بد أن « شاريتوس » قد أسرج الفرس الآن ، ويستطيع هو إذن أن يمتطى صهوتها ويسابق بها الريح حتى الميدان الكبير لكى يهدئ من غضبه .. ولكنه أحس بالخجل .

- سوف يقولون إننى خائف .. تقدم .. تقدم يا كابتن ميخائيليس !

وتابع سيره فى خفة حتى أصبح أمام الباب الرئيسى الذى كان مفتوحا ، وقد تدلى من أعلاه مصباح كبير مضاء ذو زجاج أخضر وأحمر اللون وقف تحته نورى بك وقد انعكست عليه الأضواء الخضراء والحمراء ، كان قد سمع صوت الباب الخارجى وعرف لمن الخطوات المقبلة فتقدم ليحيى ضيفه :

رجل جسيم وقور جليل الايماءات ، تطل من رأسه المستدير ، عينان لوزيتان داكنتان ، وقد أضفت عليهما أضواء المصباح بريقا أخذا .. شارب الكيف تتضح فيه الصبغة السوداء ، كانت الاناقة الشرقية ممثلة فيه ! كان يشبه ذلك الأسد ذا الوجه القمري الذى كانت النساء التركيات فى الماضى يطرزن رسمه فوق الأقمشة الفارسية ، كان يرتدى سروالا طويلا من الصوف الأزرق ، ولكن حزامه كان أحمر قانيا ، وعمامته التى تغطى شعره بيضاء كالثلج ، وكانت كتفاه معطرتين بالمسك وكانت رائحته هو كرائحة وحش مفترس فى حر ربيعى ..

تقدم خطوة إلى الامام ماذا يده بأصابعها القصيرة .. وهو يقول :

- لا تغضب منى ، يا كابتن ميخائيليس لأننى كلفتك المجيء إلى بيتى ، ولكن الأمر هام ، وسوف ترى بنفسك أنه كذلك ..

وهمهم الكابتن ميخائيليس وتقدم خلف البك إلى مجلس الرجال دون أن يتكلم ، ثم توقف لحظة قصيرة عند المدخل وكأنه يفكر فى غضب ثم اختلس نظرة إلى الخلف وتأكد أن أحدا لم يكن هناك .. وكان ثمة مصباح ضخم مضاء أمام الديوات ، وفحم مشتعل داخل جرة برونزية كبيرة الحجم تنتشر من داخلها رائحة قشور الليمون وعلى المائدة المستديرة فى ركن من أركان المجلس جرة من البورسيلان ذات عنق طويل مليئة بشراب « الراكى » .. وكوبان .. وبعض الحلوى ..

وجلس الاثنان متجاورين فوق مقعد صغير ، وكانت جلسة الكابتن ميخائيليس بالقرب من النافذة المطلة على الحديقة ، وأخرج نورى بك من داخل حزامه صندوقا حديديا داكنا مليئا بالطباق ومحلى فى وسطه بهلال منقوش بحبات اللؤلؤ .. فتحة وقدمه لصديقه .

ولف الكابتن ميخائيليس لفافة (سيجارة) وكذلك فعل نورى بك ، وأخذ الاثنان يدخان وقد صمت كلاهما بعض الوقت ، ثم تنحى نورى بك وكأنه لا يدرى كيف يطرح الموضوع دون أن يجعل ضيفه يخطئ فهمه فيفقد أعصابه ، فقد كان يعرف أن ضيفه هذا ليس بالرجل الذى يقبل أن يدع ذبابة تروح وتجىء فوق سيفه ! وكان يدرك فى الوقت نفسه أن ذلك الذى يريد أن يقوله هذا المساء .. شئ ليس سهلا الدخول إليه ..

- هلا شربنا بعض الراكى يا كابتن ميخائيليس ؟ إنه صنف معتق وجيد مصنوع من الليمون أحضرته خصيصا من أجلك .
ووضع يده فوق الكوبين علامة على أنه لا يريد أن يشرب .. ثم تساءل :
- ماذا لديك لتقوله لى يا نورى بك ؟ .

وسعل البك وسحق سيجارته وسطرماد المجرمة وهوينحنى فوقها فيبدو وجهه فى مواجهة الفحم المشتعل كالنحاس الأحمر ..

- إذا كان لابد أن أتكم ، فلا تسمى فهمى يا كابتن ميخائيليس .
وتوقف قليلا حتى يحث اليونانى الأسمر على أن يقول شيئا ، ولكن الكابتن ميخائيليس ظل صامتا فوقف البك واتجه نحو الباب وفتح قميصه عند العنق ثم عاد فجلس ، وأحس فجأة بأن حذاءه أصبح ضيقا .. فتخلص منه بخلعه ووضع قدميه عاريتين فوق الأرض فأحس بالراحة .

واستدار إلى زميله الأبكم ، وقد استقر رأيه على أن يتكم ، ورفع يده ليبرم شاربه ، ولكنه مالبث أن أنزلها .. الحرص ! فإن الكابتن السريع الهياج قد يسيء فهم هذه الحركة ، أخيرا قال وهو يتنهد :

- أخوك مانوساكيس يجعل من تركيا أضحوكة وسخرية : فأول من أمس - الخامس والعشرين من مارس - كان ثعلا كعادته وأدخل حمارا إلى المسجد ، ولقد جئت من القرية فوجدت رجالى وقد تجمعوا ، ورجالكم أيضا تجمعوا مسلحين ، وقد بدت بوادر متاعب خطيرة ، أنا أقول لك ذلك يا كابتن ميخائيليس حتى لا تنفجر فيما بعد ، لقد رأيت من واجبى أن أقول لك ومن واجبك أن تسمع ، فافعل ما يقودك إليه الله سبحانه .

وقال الكابتن :

- صبب الشراب ..

وصب البك الشراب .. وانتشرت رائحة الليمون .

- فى صحتك الطيبة يا نورى بك .

وأجاب نورى بك فى هدوء وهو ينظر إليه ..

- وفى صحتك ..

وضربا كاسيهما أحدهما بالآخر ووقف الكابتن ميخائيليس وأزاح ذؤابات عصا به رأسه إلى الخلف .

أهذا ما كنت تريد أن تقول يا نورى بك ؟ ! .. أمن أجل هذا أرسلت فى طلبى ؟

وأمسك به البك من حزامه فى رقة :

- إذا كنت حريصا فلا تذهب ، هذه شرارة .. نعم ، مجرد شرارة .. ولكنها قد تسبب نارا يمكن أن تحترق بها قريتنا ، مر أخاك ألا يهين حكومتنا ، نحن أبناء قرية واحدة ، أبناء أرض واحدة ، فاجلس ودعنا نبحث الأمر .

- إن أخى أكبر منى بستة عشر عاما ، وله أولاد وأحفاد ويستطيع أن يدرك ما يفعله وأمامه سبع سنوات أخرى على الأقل يحسن فيها التبصر أنه يفعل ما يريد ولن تجدى معه أبدا كلماتى .

- أنت فارس القرية .. إن الناس فيها ينصتون جيدا إلى ما تقول .

- الكلمات عزيزة يا نورى بك .. ولا تخرج بسهولة من بين أسناني !

عض البك شفتيه ولكن قلبه قسا فجأة ، وأخذ يتفحص الكابتن ميخائيليس الذى كان قد نهض وبدأ ينظر نحو الباب متهيأ للخروج ، « هذا الكافر قد جاء سلالة من جذع وحشى منتصب ، ولأبناء جنسى ثارات قديمة عند هذا الرجل ، اليس كوستاروس - دنس الله بالقار جثته ! - هو أخوه الذى ذبح أبى عند الصخرة ؟ ! كنت لا أزال طفلا .. ووطنت نفسى على أن أصبر حتى أصبح قادرا بعد على أن أثار للدم ، ولكنى كنت سبىء

الحظ ، فقد قتل الرجل الملعون فى (أركادى) - نصف نسفا ، بينما كان ابنه لا يزال جروا صغيرا من العار أن أفكر فى قتله ، ولقد انتظرت حتى يكبر هذا الجرو ، ولكنه ما إن طر شاربه حتى هرب ، ذهب بعيدا .. قالوا إنه ذهب إلى الفرنجة لكى يتعلم .. فمتى يعود يا ترى ؟ ! .. إن دماء أبى تصرخ ! ..

ونهب واقفا واتجه نحو الباب فوقف تجاهه والغضب فى أعماقه يعلو ويهبط وهو لا يدري من أين يبدأ ، وأضاعت لحية الكابتن ميخائيليس الشائكة فى ضوء المصباح .. اللحية التى قيل إنه أقسم ألا يخلقها حتى تتحرر كريت ، ولمعت عينا نورى بك فى احتقار ، فلينتظر إذن هذا الكافر إذا لم يكن ذلك يضايقه ، ولتطول حتى تصل إلى ركبتيه أو حتى إلى الأرض .. نعم ، .. لتصل إلى الأرض ولتضرب بداخلها جذورا .. ولكن كريت - أبدا لن ترى الحرية ! منذ خمسة وعشرين عاما قتل منا من قتل أمام حوائط فيجالوكاسترو قبل أن تسقط فى قبضتنا ، وإن ندعها تغلت ، وإن تدعنا هى تذهب ، لقد أصبحت جزءا من أجسادنا .

وتذكر أباه .. تذكر المسلمين الذين لقوا حتفهم فى الخنادق حول ميجالوكاسترو . إن نهرا من الدماء يجرى بينه وبين الكابتن ميخائيليس .. وقال الكابتن ميخائيليس وهو يرفع يده ليزيحه جانبا ويخرج :

- دع الموتى يهدأون يا نورى بك وكف عن هذا الفحيع ! - إن ما تريد أن تفعله محال تحقيقه .

ولكن نورى بك كان رجلا ثابتا قويا ، فكظم غضبه ، وقال فى صوت رقيق :

- لا تذهب يا كابتن ميخائيليس .. لا تذهب هكذا بهذه الأفكار الوحشية كما لو كنا قد تشاجرنا ، وإذا كنت ترى كلماتى قاسية فإننى أسحبها ، اعتبر أننى لم أقل شيئا وأنت لم تسمع شيئا ، ألسنا صديقين لها لقد أرسلت فى طلبك لكى نشرب معا ونتذوق معا لقمة لذيذة ، إنها فطيرة من قريتنا - أحضرتها معى الآن ، ورأيت أن نأكلها معا ونحن نتذكر الأيام الخوالى .. أيام كنا صغارا .. أيام كنا نلعب معا .. الأيام الخوالى الحلوة فى قريتنا يا كابتن ميخائيليس ..

- أنا لن أكل .. فهي أيام الصيام عندنا .

وأمسك به نوري بك بكلتا يديه وقال فى اعتذار شديد :

- أقسم لك بالرسول محمد أننى لم أكن أعرف ذلك ، ولو كنت قد عرفت
إذن لكنت أعددت لك بعض الكافيار الأسود .

وملا الكأسين .. وقال وهو يرفع كأسه :

- فى صحتك يا كابتن ميخائيليس ، أنا سعيد لأنك قبلت المجيء هنا إلى
بيتى لتشرب معى بعض الراكى .. انظر .. ! فليسلى دمنى مثل هذا إذا كنت
أضمر لك أى شر .

قالها وهو يسكب بضع قطرات من الشراب على الأرض وتراجع الكابتن
ميخائيليس وجلس مرة أخرى فوق المقعد الصغير إلى جوار النافذة .

- أنا أيضا لا أضمر لك شرا يا نورى بك ، ولكن من الشرف أن يزن
المرء كلماته .

ثم أفرغ كأسه فى جوفه .

وساد الصمت مرة أخرى .. وأحس البك بالحرارة فنهض وفتح
النافذة ..

وفى الخارج - فى الحديقة - كانت نافورة صغيرة تنثر رذاذا باردا
منعشا فيحمل معه إلى الداخل رائحة الورد وأشجار الليمون ومرة أخرى
سمعت ضحكات نسائية من الحرملك ..

وظل الرجلان صامتين ، وأجهد نورى بك نفسه لكى يجد وسيلة يستأنف
بها حديثا آخر جديدا بينما كان الكابتن ميخائيليس ينصت إلى خرير الماء
وإلى الضحكات .. ويستنشق أريج الحديقة - ومرة أخرى عاد قلبه يدق
بقوة .. أهذه هى كريت ؟ ضحكات وعطر .. وأنت تشرب الراكى مع
الأتراك ؟ .. كان يفكر .. وفجأة أغلق النافذة ..

وقال نورى بك وهو يملأ الكاسات :

- لا تغضب يا كابتن ميخائيليس ، لقد فتحتها دون أن أسألك .

وانتبه الكابتن ميخائيليس .. وحقق فى التركى ، لقد ولدا فى نفس القرية ، الأول بك له كل شيء ، والآخر « رعية » - أدنى من كلب ! .. كان أبوه - كابتن « سيفاكاس » يملك البيت المصنوع من الحجارة ، ولم يكن مسموحا له فى تلك الأيام بأن يمتطى صهوة جواده ، فكان يركب حماره الصغير ويسرع بالنزول من فوق ظهره كلما رأى عددا من الكريتيين - هانى على « والد « نورى » هذا .. لكى يسمح للرجل العظيم بالمرور وفى إحدى الأمسيات كان الكابتن سيفاكاس معتل المزاج فلم يترجل ، وهكذا ، رفع « هانى على » سوطه فنزفت الدماء من الرأس التى حاولت التحدى .. ولم يقل الرجل العجوز شيئا ! ولكنه ضم جوانحه على ألمه وظل ينتظر أن الكريتي ليس كالألبانى .. الكريتي يفكر جيدا ! وسوف يأتى اليوم الذى سيدفع فيه الثمن .. ولم يكد يمر عام واحد حتى اندلعت ثورة ١٨٦٦ ، وحتى تصدى ولده الأكبر « كوستاروس » فى إحدى الليالى للسفاح « هانى على » خارج « ميجالوكاسترو » فذبحه كما تذبح الشاة فوق صخرة فى كهف « بينديفيس » ، ولكن : هاهو ذا ولده : يأخذ مكانه على العرش فى ميجالوكاسترو داخل هذا القصر الضخم ذى التحف والنافورات والشبابيك الخشبية ذى الضلف الشبكية ، يأكل ويشرب ويقبل النساء ويمتطى صهوة جواده فى الأمسيات الرائقة عبر الحى اليونانى وحوافر جواده تخرج الشرار من الأرض .

وأخرج صندوق الطباقي ولف لنفسه سيجارة ، وامتلات خياشيمه بالدخان ، ترى ، أهو يكره هذا التركى الجالس إلى جواره ، أم هو معجب به ! ! أهو يشمئز منه ؟ ! لقد طالما سأل نفسه هذا السؤال دون أن يصل إلى إجابة عليه وعندما يتقابل الاثنان مصادفة داخل أزقة ميجالوكاسترو الضيقة ، أو خارجها وهما على ظهور الخيل .. كان الكابتن ميخائيليس يتطلع إلى وجه نورى بك الصافى السمح فيحس قلبه بالبهجة ولا يدرى كيف .. أبقته أم لا - أبحثه كصديق قديم بأحسن لقاء ؟ !

كانا يوما ما طفلين صغيرين يلعبان معا فى قريتهما ، يثيران غبار الأرض ، ويتسابقان ويتصارعان ويلقى أحدهما بالآخر ويضحكان .. ويتشاجران .. وفى إحدى الأمسيات - عندما أصبحا رجلين - تقابلا وكل على ظهر جواده عند هذا الجانب من إقطاعية نورى بك التى تبعد ساعة عن ميجالوكاسترو وبالذات عند كهف « بينديفيس » .. لاحظتها سارا صامتتين

بعض الوقت .. ولكن فى تبرم وضيق ، ففى تلك الأيام كان الأتراك الكريتيون يقتلون ، وكانت كريت قد اشتعلت نارا مرة أخرى حين حاولت « الرعية » مرة أخرى أن ترفع رأسها ..

سارا دون أن ينطق أحدهما بكلمة حتى لاحت للأعين تلك الحوائط القينيسية المشهورة وقد اكتست بجمرة الشمس الغاربة ، ولحظتها قال الكابتن ميخائيليس لنفسه : « هذا الكلب .. لم أعد أستطيع أن أتحمل منظره وهو يمتطى فرسه ليلهو داخل الحى اليونانى ويفتن النساء فيه » .. ولحظتها أيضا كان نورى بك يقول لنفسه : « لم أعد أحتمل هذا الكافر .. فى كل مرة يستبد به السكر يخرج من بيته ، ويمتطى صهوة جواده ، ويهين الأتراك ، فى العام الماضى أمسك بى من الوركين ورفعنى مثل الغرارة حتى وضعتنى فوق سقف دكانه ، وجاء الناس يتقاطرون .. ! ووضعوا سلما كيما أنزل بينما ضحكاتهم ترتفع !

واحمرت وجنتا نورى بك .. واستدار فى غضب نحو الكابتن ميخائيليس :

- كابتن ميخائيليس .. إما أن أقضى عليك ، وإما أن تقضى أنت على ، لا مكان لنا نحن الاثنين معا فى ميجالوكاسترو .

- اختر إذن سلاحك يا صديقى نورى بك ، هل أترجل حتى نبدا ؟ !

ولم يجب نورى بك ، فقد استقرت نظراته فوق اليونانى الراكب إلى جواره ، وامتلات عيناه بمنظره البطولى « ياله من رجل » ! ، ياله من كبرياء وياله من شجاعة ! إنه أبدا لا ينطق بما لايلزم النطق به ولا يدعى ! إنه لا يتشاجر مع من هم أقل منه ، وهو لا يعرف الغدر ولا يحترم حتى الموت ، سعيد ذلك الرجل الذى عدوه من هذا الصنف من الرجال !

أخيرا .. تكلم :

- ليس بهذه السرعة يا كابتن ميخائيليس ، سوف يكون ذلك مؤسفا ... أنا اسحب ماقلت ، نعم : أنا أؤمن بأنه لا محمد ولا المسيح يريدان ذلك ، أنا أؤمن بأنك محارب أصيل ، وكذلك أنا .. وينبغى بالفعل أن تسيل دماؤنا .. ولكن بطريقة أخرى .

- طريقة أخرى ؟ !

- نعم .. لنصبح اخوين فى الدم ..

وتابع الكابتن ميخائيليس سيره وقد أحس كأنما قلبه ينتفخ ويصعد إلى حلقه ، وظل لحظة لا يكاد يسمع سوى اختلاج الدم فى عروقه حتى إذا هدا .. وعاد يدرك حقيقة ما سمع ، اجتاحه هياج شديد .. ربما كان سرورا لفكرة امتزاج دمه بدم هذا البك الشاب الذى تربى وبسط رائحة المسك ، فكرة الا يصبح بعد مجبرا على قتله ، وأن يقاوم دوما الاغراء الذى يفتابه كلما وقع عليه بصره .. بأن يشدد قبضته على خنجره .

كان الرجل رائعا حقا بصرف النظر عن كونه من الاتراك ، كان حقا فخر ميجالوكاسترو دون أن يعدو أحد الحقيقة فى ذلك ، كان عطوفا ، كريما ، نبیلا .. كان رجلا .. نعم رجلا عليه اللعنة !

ويشد إليه العنان فتوقف الفرس لحظة ، والهيب نورى بك جواده فأدرك الفرس وراكبه ..

وقال الكابتن ميخائيليس دون أن ينظر إليه :

- لا بأس ..

وتابع الاثنان سيرهما دون أن ينطقا بكلمة حتى بلغا أقطاعية البك ، ودخلا إلى فناء أسرع إليهما فيه أحد الخدم فساق الجوادين إلى الاسطبل بينما صفق البك بيديه فظهر خادم آخر .. وانحنى ..

- اذبح ديكا .. هذا الديك الكبير الذى يكسوه الريش تماما ، واحضر لنا بعض الخمر المعتقة .. وجهز سريرين وافرشهما بملاءات من الحرير ، سوف نأكل هنا وننام ليلتنا ، واذهب واغلق الابواب ..

وأصبحا وحدهما ، وركع الاثنان متجاورين ومتقابلين تحت شجرة الزيتون المثقلة بالبراعم والتى تنتصب فى شموخ وسط الفناء .. وكانت الشمس قد غابت ، وبدأت النجوم تتلالا ويلوح لالأوها خلال أوراق الزيتون .

ونهض نورى بك واتجه إلى البئر يبحث عن الكوب البرونزى المعلق هناك ليشرّب فيه المسافرين ويرفعوا الأكف بالدعاء لبانيه ، هانى على ، ثم عاد وجلس القرفصاء ، وقال وهو ينزع خنجره من حزامه :

- باسم محمد وباسم المسيح ..

ورفع الكابتن ميخائيليس كم سترته الأيمن وكشف ذراعه المفقولة التي لوحتها أشعة الشمس ، وانحنى نورى بك إلى الامام وغرس طرف الخنجر فى أحد عروق الذراع الثابتة فانجس الدم حارا داكنا وتلقاه نورى بك بالكوب البرونزى حتى إذا بلغ سمك أصبع ، رفع عن رأسه عصابتها ولف بها الذراع المجروحة ..

- وهذا دورك يا كابتن ميخائيليس ..

- باسم المسيح ومحمد ..

وأخرج خنجره وغرسها فى ذراع البك ، فانجس منها الدم يتلقاه بالكوب البرونزى ، ثم نزع عصابتها رأسه ولف بها الذراع .. ووضع الكوب بينهما .. وبدأ يمزجان الدماء معا بخنجرهما - دون أن ينطق أحدهما بكلمة ..

وكان الليل يتقدم ، وارتفع الدخان من مدخنة الضيعة فقد كان الخدم يتناولون طعامهم فى المكان المخصص لهم .. ومسح كل منهما خنجره فى ثنايا شعره ثم وضعاهما فى حزاميهما ..

- إننى أشرب فى صحتك يا كابتن ميخائيليس يا شقيقى فى الدم ! وأقسم لك - نعم أقسم بمحمد أننى أبدا لن أؤذيك ، لا بالكلمة ولا بالفعل ، لا فى الحرب ولا فى الرخاء ، الشرف بالشرف ، الرجولة بالرجولة ، الولاء بالولاء ! أمامى يونانيون كثيرون أخذ بثأرى منهم ، وأمامك أنت أترك كثيرون تأخذ بثأرك منهم !

ورفع الكوب إلى شفتيه وبدأ يشرب الدم المختلط .. قطرة قطرة ، حتى إذا أتى على نصفه مسح شفتيه ، وقدم الكوب إلى الكابتن الذى أمسك به بين يديه وقال :

- إننى أشرب فى صحتك يا كابتن ميخائيليس ، يا شقيقى فى الدم ، وأقسم لك - نعم أقسم بالمسيح ، أننى أبدا لن أؤذيك ، لا بالكلمة ولا بالفعل ، لا فى الحرب ولا فى الرخاء ، الشرف بالشرف ، الرجولة بالرجولة

بالرجولة ، الولاء بالولاء ، أمامى أترك كثيرون أخذ بثأرى منهم ، وأمامك يونانيون كثيرون تأخذ بثأرك منهم !

ثم شرب ما تبقى من دم فى الكوب دفعة واحدة .

فتح الكابتن ميخائيليس النافذة وألقى بسيجارتة فبدت كنجمة حمراء صغيرة ، فى إصيص ورود ، واضحة وسط السبخة المروية حديثا ، ثم نهض واقفا وقد بدا وجهه كالحا .. بينما مال البك بجسده إلى الوراء ثم نهض واقفا هو الآخر ..

- أنا لم أنس ، ولعل ذلك هو السبب فى أن أحدنا لا يزال حيا حتى الآن .. فقد عادت إلى ذاكرته كالبرق تلك الامسية التى أمضيها تحت الزيتونة .. ودور الشراب السعيد مع النبيذ المعتق .. والنوم العميق تحت الملاءات الحريرية .. ورفع الزجاجاة ، وملا كأسه وشرب .. وعاد فملأها وشرب .. ثم جلس وهو يقول :

- اليس عندك قزم فى هذه الدار ؟ مهرج ؟ فاطلبه إذن ومره بأن يرقص لنا أو يدق طبلة أو يغنى .. سوف انفجر إذا لم يكن ذلك ..

وسعد نورى بك ، فقد رأى أن الهياج بدأ يأخذ مجرى طيبا ، ولعله أن يغرق فى الشراب ويدفن فيه ، لابد من رقية تقذف به بعيدا !

وأحس برغبة فى أن يفعل شيئا كبيرا ، شيئا من أجل شقيقه فى الدم لم يسمع بمثله من قبل .. شيئا يتجاوز الصداقة والحب يستطيع عن طريقه أن يستأنس هذا الرجل المكتئب ويبسط به أسارير وجهه ، وأخذ يعصر ذهنه ويجول وهو فى مكانه بكل ركن من أركان الدار لعله أن يعثر على شيء من أجل شقيقه فى الدم ، ماذا يعطيه يا ترى ؟ ! قطع ذهبية أثرية يخرجها من صناديقها أم أسلحة مفضضة من المعلقة فوق الحوائط ، أم قطع من القماش من الصوف والحريد ، أم دنان خمر معتقة من مخزن الخمر ؟ ! وفجأة استقر ذهنه عند تلك المشربيات التى ضربها حول أغلى كنوزه على الإطلاق ، واستدار إلى ضيفه وهو يضحك :

- سوف أفعل من أجلك الليلة شيئا يسرك .. شيئا لم يفعله تركى واحد من قبل إلا لأخيه ..

ونظر إليه الكابتن ميخائيليس ولكنه لم يقل شيئا ، وعاد يملأ كأسه من جديد ، ووقف نورى بك ، واتجه إلى الباب القصير الذى يؤدى إلى الحرمك وصاح :

- ماريا !

وجاءت امرأة بربرية تهوول هابطة الدرج .. امرأة عجوز بلا أسنان . جافة كقش البقول وحول عنقها صليب .

- قولى لسيدتك أن تحضر الماندولين وتنزل إلينا .

ورفعت المرأة البربرية بصرها دهشة فزعة ، وحدثت فيه .

وصاح نورى بك وهو يدفعها :

- هيا !

وأعاد الكابتن ميخائيليس الكأس التى لم تكد تلمس شفثيه ، واستدار نحو نورى بك وهو يغتمم :

- ماذا ؟

- أريد أن أسعد شقيقى فى الدم .. إننى أثق بك ..

- ليس فى هذا شيء يسر ، ليس فيه سوى العار لك ، والعار لزوجتك كذلك .. العار فى أن تسمح بظهورها أمام شخص غريب ، والعار لى أن أيضا حين أرفع بصرى لأنظر إليها ..

وقال نورى بك فى شيء من الاضطراب :

- أنا أثق بك .

وكانى أحس لحظتها بالأسف لما أمر به ، ولكنه خجل من أن يتراجع عن قراره .

ووقف .. ووضع وسادة من الريش فوق أريكة فى ركن المكان ، وأخرى إلى الحائط من أجل الهائم لتستند إلى شيء ناعم ، ووقف الكابتن ميخائيليس هو الآخر وخفض ضوء المصباح حتى يغمر الحجرة ضوء

هاديء رقيق ، ثم أخرج من منطقته مسبحة من الأبنوس أخذ يداعب حباتها فى عصبية وقد جعل بصره إلى الأرض .

وتعالت أصوات نسائية فى الطابق العلوى مختلطة بوقع اقدام سريعة وأبواب تصفق ، وهرولة ، وماء يصب .. ثم ساد الصمت لحظة .

ورفع الكابتن عينيه وهو يفكر : « لن تأتى هذه الكلية ، إنها متوحشة ، شركسية نافرة ، هذا أفضل .. أفضل تماما .. أى روح شريرة تبقىنى هنا ؟ سوف أخرج ! » .

وفى ذات اللحظة التى قرر فيها أن ينهض ليخرج ، سمع صرير درجات السلم ، درجة بعد درجة ، ولمع لآلاء عقود وأقراط ، وهرع نورى بك ليفتح الباب القصير .. ويضع يديه فوق صدره ثم ينقلها إلى شفثيه وجبهته مرحبا وهو يقول فى رقة :

- مرحبا بأمانة هانم .. مرحبا .. مرحبا ..

وفى إطار الباب ، وعلى الضوء الخافت الرقيق ، برزت فى لالائها سيدة شابة وجهها مستدير كالقمر مثل وجه نورى بك كشف لون جسدها الأبيض المشوب بالحمرة ، بعينين واسعتين ناعستين ، ووجنتين وشفثين علتها الحمرة .. واهداً مكحولة .. ولوحت أظافرها ويدها مخضبة بالحناء وهى تمسك بماندولين براق كأنه الطفل بين ذراعيها ..

وتقدمت فى خطوات رشيقة بقدميها الصغيرتين بخفهما الأحمر الرقيق .. وهى تدير عنقها لترى ظل الرجل قريباً من النافذة ، ثم تصرخ فى فزع .

وأمسك بها نورى بك فى رقة وهو يقول :

- لا تخجلى يا حبيبة قلبى ، إنه شقيقى فى الدم الذى طالما حدثك عنه ! الكابتن ميخائيليس ! إن قلبينا مثقلان الليلة ، فهيا حبيبتى ومتعينا بالعزف على المندولين ، وغنينا من أغنيات بلادك من أجل هذا رجونا أن تنزلى إلينا يا حبيبة القلب .

وانصت الكابتن ميخائيليس وعيناه لاتزالان مثبتتين إلى الأرض ، وقد قبض بمخالبه على المسبحة وكأنه يريد أن يفقت حباتها ، إنه طالما سمع

بجمال هذه البنت الشركسية وبوحشيتها وبغنائها فى الأعياد يتسلل عبر المشربيات الخشبية ويثير الاضطراب بين الجيران فيزحف الأتراك والكريتيون ذوو الجرة إلى إركان الشارع وسط الظلام كى يستمعوا إليها وهم يتنهدون كالمراهقين حتى يبعدها نورى بك عن المشربيات وهو يضم صدرها إليه فيحس كأنه يضم الدنيا بأسرها !

وتناهت إلى خياشيمه رائحة المسك التى غمرت المكان بمجرد أن تقدمت الهانم نحو الركن الذى أعده البك لجلوسها .. ومرت بحذائه وهى ترميه بنظرة خاطفة فى نفس اللحظة التى رفع فيها الكابتن ميخائيليس عينيه .. والتقت النظرتان ، ثم انحسرتا على الفور .. كلاهما وحشية ! وجلست الهانم القرفصاء فوق الوسائد .. ثم غمغت تريد أن يراها الاثنان جيدا :

- يا له من ظلام ..

ونفض نورى بك واقفا .. ورفع ضوء المصباح ، وغمر الضوء الحجرة ، وسقط رقيقا فوق وجنتى الشركسية ويديها وأحاطها بهالة من النور الأحمر .. واختلس الكابتن ميخائيليس نظره إليها ، ولكنه سرعان ما خفض بصره وحيات المسبحة تئز تحت أصابعه .

وقالت الشركسية وقد ارتعشت خياشيمها :

- مساء الخير يا كابتن ميخائيليس .

وجاء صوت الكابتن من ذات حلقة مرتعشا :

- مساء الخير يا أمينة هانم .. معذرة !

وضحكت الهانم ، فهناك فى بلادها تعمل النساء غير محجبات جنباً إلى جنب مع الرجال ، ويمتطين صهوات الخيل ، وهناك يستمتع الرجل بالمرأة وتستمتع المرأة بالرجل حتى يكتفى الاثنان ! .. ولكنها أخذت من هناك صغيرة حين باعها أبوها لأحد الباشوات المسنين فى القسطنطينية ، حتى اشتراها هذا البك الكرىتى ، وكانت قد هيات نفسها لثلا تعيش مع الرجال أولمراهم بهذه الصورة ، ومن ثم فإن خياشيمها كانت تهتز كحيوان جائع كلما التقت بأحد الرجال .

كانت طوال النهار ، تقبع خلف نوافذ المشربيات وتربق الشبان من الأتراك أو الكريتيين وهم يروحون ويجيئون فتحس بالآلم فى صدرها ، وحينما كانت تخرج للنزهة فى حجابها الحريري ويجانبها وصيفتها البربرية تتعثر خلفها .. كانت تستمتع بالمرور بحذاء المقاهى المليئة بالناس أو فى منطقة الميناء التى تزدهم بالحمالين واليخارة ، أو عبر بوابات القلعة حيث يمر الفلاحون الشعث الغبر الذين يسيل عرقهم ، وعندها كانت الشركسية تتنفس بعمق وقد أحست بأنها لم تعد تحتل رائحة الرجل أكثر من ذلك !

ومرة استدارت إلى وصيفتها وهى تقول :

- بحق الله يا ماريا : لولا تنتهم لما كنت أجيء إلى هنا لأراهم !

- من تعنين يا طفلى ؟ !

- الرجال . الرجال ! ترى ، كيف كان حالك معهم أيام كنت شابة ؟ !

وقالت المرأة البربرية وهى تتنهد :

- كنت أومن بالمسيح يا طفلى ! !

ونظرت إلى الكابتن ميخائيليس فى صمت ، لطالما حدثها البك عن الكابتن فى لهجة إكبار .. وها هو ذا يجلس أمامها ! أى شيء لم تسمع به عن أعماله الخارقة وسكره ووحشيته ؟ ! .. وعن أنه لا يحب الحديث عن النساء أو الاستماع إلى أحاديث عنهن .. وها هو يجلس أمامها - زوجها نفسه هو الذى جاء به إلى هنا ..

وقال نودى بك :

- أمينة يا حبيبة القلب ، غنى من أجلنا أغنية شركسية تنسينا هموم الدنيا . نحن رجلان .. فاشفقى علينا ..

وقهقهت الهانم ، وأرست الماندولين إلى حجرها ، وأصدرت عنه نغمات عالية سريعة .. ثم ألقت برأسها إلى الوراء وسألها البك فى سعادة :

- ماذا ستعزفين لنا يا زوجتى .

- سوف ترى .

وبدأت نغمات الماندولين تصبح أكثر سرعة ، وأخذت هي تتمايل وتقرنح في الضوء الخافت مثل وحش حبيس وهي تلهث ، وفجأة ، انطلق من أعماقها - وعبر حلقها المنتفخ - صوتها الهادر ! .. واهتزت الدار .. وأحس الكابتن ميخائيليس بأن شيئاً يخرق جسده .. أى ثورة ؟ ! .. أى نار يحس بها فى قبضتيه وفى حلقه وفى كل حنايا جسده ؟ ! الجبال ضحكت ، والسهول غدت قرمزية بالجنود الأتراك الذين يملأونها ، وفوقهم كان ينطلق الكابتن ميخائيليس كالعاصفة وهو يمتطى صهوة جواد نورى بك ، وخلفه آلاف من أبناء كريت وحول جباهم عصابات الرأس السوداء ، ولا أحد أمامه ! القرى صاحت ! .. المآذن تقصعت مثل أشجار سرو ساقطة ! .. الدماء ارتفعت حتى بلغت بطن جواده ..

وشد الكابتن ميخائيليس بقبضتيه على جسده ، وسكتت الشريكسية فجأة ، وفجأة أيضاً وقف العالم ثابتاً أمام ناظريه ، كانت هناك كريت ، وكانت ميجالوكاسترو ، وكانت ضيعة البك ، وحدق البك هو الآخر فى أمينة .. وتنهَّد .. وشرب .. لقد نسيت الروح تهويمها ، وعادت مرة أخرى إلى سجنها .

وساد الصمت لحظات ، وأخيراً ، تلملمت أمينة وهي تربت بيدها على المندولين المستقر فوق ركبتيها ، ثم قالت :
- كانت هذه أغنية شركسية قديمة ، الناس يغنونها هناك عندما يمضون إلى الحرب .

ونفض نورى بك واقفاً وقد أخذت ركبته ترتعشان رعشة خفيفة واتجه نحو زوجته ورفع كأسه :

- فى صحتك يا أمينة ، هناك ثلاثة أشياء أحبها ، الرائحة الطيبة ، والمرأة والغناء ، وأنت يا أمينة تسعديننا بها كلها ، فلتعيشى لنا ألف سنة - بل ألفى سنة ... !

وأفرغ كأسه فى جرعة واحدة ، وممص شفتيه واستدار إلى الكابتن ميخائيليس ، وقال وهو يملأ له كأسه :

- اشرب يا شقيقى فى الدم ! إشرب أنت أيضاً فى صحتها .

ولكن الكابتن ميخائيليس وضع أصبعين داخل الكأس المترعة ثم ضغط

بهما إلى الخارج فتحطم الكأس إلى قطعتين : وسالت الخمر فوق المائدة ..
وصاح فى ضيق وعيناه مضطربتان :

- كفى !

وصرخت أمينة ، وقفزت من فوق الأريكة وهى تحرق فى الكابتن
ميخائيليس والدموع فى مآقيها ، أبدا لم ترمثل هذه القوة فى يد رجل من
قبل . واستدارت إلى زوجها فى تحد وهى تقول لاهثة الأنفاس :

- هل تستطيع أن تفعل مثل ذلك ؟ .. هل تستطيع ؟

وشحب وجه نورى بك ، واستجمع كل قوته فى أصابع يده اليمنى ،
وأوشك أن يضع أصبعين داخل الكأس الأخرى ليحطمها ، ولكنه تراجع
والعرق البارد يتصبب منه ، فقد أحس بأنه يهان أمام زوجته ، وحجج
الكابتن ميخائيليس بنظرة حالكة .. ها هو مرة أخرى يجعل منه سخرية ! ..
شئ لم يعد يحتمله !

وجذب أمينة من ذراعها وهزها بعنف كالمجنون .. وصاح :

- اصعدى إلى غرفتك .

وعادت أمينة تكرر ووجنتاهما ملتهبتان :

- هل تستطيع أنت أن تفعل ذلك ؟ هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟ .. هل
تستطيع أنت أيضا أن تفعل ذلك ؟ !

وعاد البك يأمرها :

- اصعدى إلى غرفتك !

ثم جذب المندولين وضرب به الحائط فتناثر قطعاً ..

وضحكت الشركسية ضحكة جافة ساخرة ..

- نعم ، هذا ما نستطيع أن تفعله - تحطم المندولين ، نعم ، « هذا » هو
ما نستطيعه يا نورى !

وانسلت من فوق الأريكة وهى تمس الكابتن ميخائيليس وثوبها يلامس
ظهره ومرة أخرى فاحت رائحة المسك ، وأحس الكابتن ميخائيليس كأنما

يده تحترق ، بينما رسمت هي بيدها الساخرة وهي تبتسم - دائرة حول نوري - مرة ومرتين - ثم دفعته مداعبة وهي تضحك .. وفجأة انطلقت تعدو نحو الدرج .. ثم اختفت .

وظل الرجلان واقفين تجاه أحدهما الآخر في وسط الغرفة ، وداعب البك شاريه وصدره يعلو ويهبط في عنف بينما كان الكابتن ميخائيليس يعض على شفتيه الجافتين عابسا وهو ينظر إليه وقد وضع كل منهما يده على مقبض خنجره .

وأخيرا تكلم نور من بين شفيتين حاققتين نصف مفتوحتين .. قال في فصيح :

- كابتن ميخائيليس .. أخرج .

نوري بك .. سوف أخرج في الوقت الذي يناسبني .. خذ الكأس الصحيحة وأملأها لي ..

وضغط البك على مقبض خنجره ورمى ببصره إلى المصباح ، وفكر لحظتها في أن يطفئه ليصبح الاثنان وسط الظلام ، ثم يتصارعا حتى يموت أحدهما ، ولكن قلبه لم يحزم الأمر بعد .

وعاد الكابتن ميخائيليس يقول في بطء :

- خذ الكأس الصحيحة وأملأها لي .. وإلا ، فلن أخرج ..

واستدار نوري بك إلى المائدة .. وتقدم خطوة واحدة ثقيلة كأنما رصاص يثقل ساقيه ، والعرق يغرقه .. ثم ملا الكأس ويده ترتعش والشراب يسيل فوق الفطيرة .

وأشار إلى الكأس :

- اشرب ..

وقال الكابتن ميخائيليس .

- ناولني الكأس ..

ورفع البك الكأس وهو يئن من الغضب ، ودفع بها إلى راحة الكابتن ميخائيليس الذي رفعها إلى فمه وهو يقول في فتور :

- فى صحتك يا نورى بك سوف أفعل ما طلبته منى ، وسوف أخبر أخى
بألا يتعرض لتركيا بالاهانة ..

ثم بلل شفتيه ، وأحكم عصابة الرأس فوق جبهته واتجه إلى عتبة
الباب ..

والقى المصباح ضوءاً أخضر وأحمر فوق الحديقة الساكنة المظلمة ،
بينما كان الكابتن ميخائيليس يسير فى هدوء وبطء فى اتجاه الباب المؤدى
إلى الشارع دون أن ينظر حوله .

ساد الظلام .. وكانت ميجالوكاسترو تتناول وجبة العشاء وهى ، تتأهب
وترتفع وتغلق نافذة اثر أخرى .. وترسم علامة الصليب .. وتدلج إلى
الفرش ، وكان هناك بعض الذين أخرتهم أعمالهم لايزالون يتحركون فى
الطرق .. وبعض العشاق يتعانقون تحت النوافذ المغلقة .. وهنا وهناك ،
كانت الثرثرات المنهكة تسمع من الأقباء المسكونة ، عمال الليل ..

وكانت العوانس الثلاث قد تجمدن من اثر وقفتن يتلصصن خلف بابهن
بينما كان الكابتن ميخائيليس يسير الهويناً عائداً والظلام يشدد حلقة ، أما
شقيق العوانس الثلاث فكان قد عاد إلى بيته عابساً منهوك القوى وجلس
الأربعة إلى المائدة يتبادلون بضع كلمات قليلة ، ماذا سيأكلون غداً .. ليس
هناك فحم كاف .. لازيت للسلطة .. ولا زيت للمصباح .. كيف ينبغى على
أريستوطوليس أن « يرم » عظامه ! .. تكلموا ، وأكلوا ، ثم رفعوا المائدة ،
وأعدوا الشاى ليساعد على الهضم ، وارتدوا ملابس النوم الطويلة ..
ورسموا علامة الصليب ، ولكن أفكار العوانس الثلاث كانت عند الباب
الأخضر !

وتابع الكابتن ميخائيليس سيره إلى البيت عن الطريق الأطول ، وقد
أحس بأن الجدران الأربعة لن تقدر على احتوائه فى ليلته تلك ، وبأن قلبه
منفوخ لم يعد فى جسده مكان له ، وبأنه حتى ميجالوكاسترو أصبحت
أضيق من أن تتسع له .. تابع سيره والبيوت والأزقة والناس تبدو كما لو
كانت جميعاً تخنقه ، ثم أوسع الخطى وقد كشر عن أسنانه كوحش مطارد
حتى وصل إلى الشارع الرئيسى الذى كان خالياً ومصابيح البترول على
طوله تلقى بأضوائها الحمراء الشاحبة على الأرصفة ، ومر بجذاء السوق

وكان ثمة مطعم تركى لايزال يفتح أبوابه ، وكذلك مقهى وحانة أو حانطان ، وسمع شخصا يناديه ، وبدأ الصوت كما لو كان صوت الكابتن بوليكسيجيس فأوسع الخطى أكثر حتى أصبح بحداء باب قصر الباشا والنافورة المرمرية ذات الطراز البندقى والأسود المنحوتة عليها .. رفع بصره ورأى الأشجار العالية - الأشجار اللعينة ! .. واقترب .. ولم يكن ثمة أحد سواء ، ورسم علامة الصليب وهو يغمغم قائلا : « إلى أن نلتقى مرة أخرى فى بهجة أيها الآباء ! » .. منذ أجيال والباشوات يجعلون من هذه الأشجار مشانق للكريتيين الذين تجرأوا على أن يرفعوا رؤوسهم ، وطوال الشتاء والصيف كانت الحبال ذات الخية تعلق إلى فروعها القوية ..

وأخذ يحدق فى غضب فى الأشجار وكأنما هى أمامه شخص أترك ، ليلة ما .. ككريتى ، سوف أثور ... سوف أرفع رأسا وأقطعك أيتها الأشجار الملعونة .

واختصر طريقه ، ودف إلى زقاق طويل مظلم حتى وصل إلى الأقباء الثلاثة ، لا أثر لمخلوق ! .. حل أضرار قميصه الذى كان يخنقه وتنفس بعرق وهو يتطلع حوالبه ، هناك إلى الشمال . تتلأأ صفحة البحر ويتناهى هديره .. وجبال أيوختاس وسيلينا وبسيلفورتيس تبدو على مرمى البصر ، وفى السماء كانت تتلأأ النجوم ، وظل الكابتن ميخائيل يروح ويجيء فى دائرة كأنه جواد ترى وصل إلى الخندق الذى يحيط بميجالوكاسترو ورأى أكواخ الطين المتناثرة التى تعلو ذلك التل المنعزل هناك ، تلك كانت « ميسكينا » .. قرية المجزومين ، وعلى الشاطئ كان ثمة تل وأطىء يسمى « تل الفئوس السبعة » وهو التل الذى اندفع منه الأتراك كالعاصفة ليحتلوا ميجالوكاسترو قبل مائتى عام .. وكانت هناك فئوس سبعة من فئوسهم لاتزال مغروسة فى الأرض ، وعلى مرمى البصر خلف هذا التل كانت تبدو جزيرة « ديا » المهجورة كأنها سلحفاة بحرية .

وسمع أصواتا نسائية خلفه ، وحفيف أثواب حريرية ناعمة ، ثم برز تركى أحذب يمسك بيده مصباحا ضخما وخلفه سيدتان تركيتان تثرثران خلف الحجاب الأسود .. وتناهت رائحة المسك .

- كل الشياطين يتعبوننى الليلة ..

ثم أدار بصره تجاه البحر حتى لا يرى الهوانم التركيات ..

- كل الشياطين - ولكنهم لن يفلحوا ..

وأحس لحظتها باشتياق إلى بيته ، ولكنه لم يكن يريد أن يرى أحدا هناك ، لسوف يسمعون وقع خطاه من بعيد .. وسوف يسعل ، فيفهمون ما يريد فيختبئون .. وسوف يكون ذلك شيئا طيبا ، وما إن يضرب الباب بقدمه فيفتحه حتى يصبح وحده تماما ، لا زوجة ، ولا أولاد ، ولا كلاب .. وحده تماما ! .. ولحظتها ، سوف يتخذ قراره .

وتحت ضوء المصباح كانت زوجته كاتيرينا وابنته « رينيو » تنتظران « خلفهما - وعند حافة النافذة التي تأخذ الجانب الأكبر من حائط الديوان - المكان الذى يجلس فيه الكابتن ميخائيليس ولا أحد سواه ، فعندما يكون خارج البيت لم يكن أحد يجروء على الجلوس هناك أو مجرد الاقتراب منه ، لزوجته ، ولا ابنته .. فقد كانا يحسان كما لو أنهما تلمسان جسده إذا هما اقتربتا من ذلك المكان .. فترتعبان وترتدان إلى الخلف فى دعر .

كانت الأم تحيك جوربا ، وكان ضوء المصباح يسقط منحرفا فوق شعر بنى كث مسترسل ، وحاجبين فيهما كبرياء .. وخدين متماسكين .. ويكشف عن قم حزين ، وذقن عريض عنيد . كانت تلك المرأة تحمل سحرا غريبا - سحرا وصلابة وإرادة قوية ، كانت ابنة الكابتن « ثراسيبولوس روفاس » أحد الأبطال المرموقين الذى لم يبرز بغيرها فتمتعت هى بحرية وخطوة كذلك التى يتمتع بها صبي ، ولكن ما إن تزوجت حتى سقطت فى براثن أسد ، وفى السنوات الأولى لزوجها كانت تبدى تمردا ومقاومة ، ثم مالبت مع السنين أن أحنت رأسها ، كان الكابتن ميخائيليس ! .. ومن ذا الذى يستطيع أن يواجهه ؟ ! أنتهت القوة .. وانتهت الإرادة الحرة وأصبحت رقيقة هادئة .

كانت تشتغل فى حياكة الجورب .. وتفكر . كانت حياتها تعبر من بين يديها مثل الماء .. وكانت أحيانا ترفع رأسها وتنظر حولها حيث علقت على الحوائط صفوف أبطال عام ١٨٢١ - وحوش برية ، بذقون كأنها فروة الاسد .. وفى منتصف الحجرة - وأمام صورة واحد من هؤلاء - أضىء مصباح فضى ..

وهزت كاتيرينا رأسها فى صمت .. حياتها كلها - فى بيت أبيها أو فى بيت زوجها - عاشتها تحت السلاح ! قبل زواجها ، وخلال ثورة ١٨٦٦ ،

خرجت هي أيضا وقد تمنطقت بحزام رص فيه الرصاص .. وحملت بيدها
بنديقية واشتركت في القتال لتمنع الأتراك من اجتياح قريتها ، حتى وهي
طفلة ، كانت تمزق الكتب التي أحضرها القساوسة من الأبرشيات وتصنع
من أوراقها صناديق لطلقات الرصاص مع غيرها من الفتيات الصغيرات ،
كانت تعرف جيدا رائحة البارود .. وتحبها .. وكان الكابتن ميخائيليس رجلا
طيبا .. نعم الرجل - وكانت هي تحبه ، ولكن حياتها التي كانت تحياها رغم
ذلك .. كانت حياة قاسية بالنسبة لامرأة .. وكانت تحس في مكان ما
بداخلها أنها غير سعيدة .

وتركت الجيوب من يدها ورفعت بصرها مرة أخرى ، فوق الديوان علقت
صورة لشمشون مكبلا مهانا من الفلسطينيين ، كان يرى في الوسط مكبل
اليدين والقدمين بالحبال والسلاسل ، وخلفه جمع من الشباب يتجادونه
ويضربونه ويسخرون منه ، وبأعلى الصورة - في البرج - كانت « دليلة »
تنحني خلال فتحة مشربية صغيرة ناهدة الصدر ، تنطلع في ضغينة
واحترار وتشف .

وكانت كاتيرينا تنقل بصرها من صورة إلى أخرى وكأنها تراها جميعا
لأول مرة .. ثم تنهدت وهي تنحني مرة أخرى على الجيوب .

اما ابنتها السمينية النضرة ذات الخمسة عشر ربيعا حاجبيها الكثيفين
مثل أبيها وذقنها العريض العنيد كامها .. فقد تركت ما بيدها ، ومضت
تربت على ظهر القطة العجفاء المتوحشة التي تكومت عند قدميها كالكرة .

- لماذا تتنهدين هكذا يا أمي ؟ فيم تفكرين ؟

وفيم أفكريا ابنتي ؟ في حياتي .. وحياتك أيتها المسكينة .. حياتينا
اللتين سقطتا في برائن وحش مفترس .. في الطفلة الذي ظلت أهددها
حتى تنام وحتى لاتصبح فتوقظ كل الأرواح الشريرة داخل أبيك .. إ ..
ثراساكي .. هو وحده الذي اطمئن إليه - لأنه مثل أبيه تماما ! ..

ونظرت إلى الدثار .. وأرهفت السمع :

- لقد نام .. الحمد لله ! .. إنه صورة من أبيه ! .. هل ترين كيف
يغضب ؟ .. أو الطريقة التي يزوى بها حاجبيه ؟ .. كيف يضرب
أصدقاءه ... ؟ .. كيف ينظر إلى النساء بوحشية ؟ ..

ولم تعلق « رينيو » .. كانت تخاف من أبيها ولكنها كانت تحبه وتفخر به ، وكان كل ما يفعله يبدو لها حقا ، وكانت تحس بأنها لو كانت رجلا لفعلت نفس ما يفعله أبوها ، كانت هي أيضا تتمنى أن يكون ابنها وحده هو الذى يجعل الفتيات يزحفن بعيدا كلما سمعن الباب يفتح عندما يحضر هو ! كان والدها قد منعها من أن تظهر أمامه بمجرد أن أصبحت فى الثانية عشرة .. ونما جسمها وتكور صدرها .. ومنذ ثلاث سنوات لم يقع بصره عليها .. وكانت هي دائما تجلس فى المطبخ أو تحبس نفسها فى حجرتها الصغيرة بالطابق العلوى مادام أبوها فى البيت . وأصبحت تميز وقع خطاه على بعد فتختلى على الفور .. حتى القطة كانت تفعل ذلك بأسرع مما تفعل « رينيو » .. ذلك واجب .. وأبوها على حق .. لم تكن « رينيو » تفكر فى كلمة « لماذا ؟ » ولكنها كانت واثقة من أن أباه على حق !

أمها أيضا كانت ترى ذلك ، ولكنها لم تكن ترتاح له ، إن زوجها صورة طبق الأصل من أبيها ، وكم من السنين ظل فيها الكابتن « روفاس » لا يرى ابنته ! كانت فى العشرين ولم تكن قد تزوجت بعد حين اقتحم الجنود الأتراك البيت : وقتل أبوها من قدر على قتله منهم .. ولكنهم كانوا كثيرين أخذوه معهم .. وأخرجوه إلى الفناء ، ثم وصلتهم الأوامر بأن يسلموه لباشا ميجالوكاسترو وخرجت كاتيرينا مع أمها إلى الفناء ورأته ممزق الثياب دامى الجسد .. ويومها رفع يديه وقال : « وداعا » .. ثم قال : « لاتحزن يا نساء .. وأخبرنك كحك الجنازة بطريقة طيبة ، إننى أموت فى سبيل الحرية فلا تبكين ! واهتممن بأنفسكن ، اهتمى بنفسك يا كاتيرينا ، واحملى فى أحشائك طفلا ذكرا - وسوف يكون عندك إذن ثراسوس .. رجل مثلى ! »

وأخذوه إلى ميجالوكاسترو حيث أوقفوه أمام باب الباشا تحت الأشجار الطويلة ، ثم جاء حلاق تركى حلق له رأسه .. وبعدها ، أصبح مصطفى باشا يملك صندوقا للطابق مصنوعا من عظام جمجمة !

ذلك كله مر بخاطر كاتيرينا وهي تحيك الجورب وتتندد ، إن حياتها تمضى مع الكابتن ميخائيليس على ما يرام ولم يكن هناك ما تشكو منه ، كان فارسا شريفا مشرفا .. وكان رجلا جادا .. لم يكن يلهث وراء النساء أو يلعب الورق ، ولم يكن شحيحا .. وكان يسكر مرتين فحسب كل سنة ليطامن من حدة ما يعتمل بداخله ، كان رجلا ، وليس فى ذلك عيب وليس منه ضرر ، الآخرون كانوا يرتكبون الحماقات ، بينما هو يسكر فحسب .. ولكن

الأمور في هذه السنة كانت تجرى صعبة .. الطفلة التي ولدت له في السنة السابقة - رفض الكابتن ميخائيليس مجرد النظر إلى عينيها ! وكان يصيح كل صباح وهو يفتح باب البيت متوجها إلى دكانه :

- لا أريد أن أراها .. لا أريد أن أسمعها .. أى شيطان جعل لها هاتين العينين الزرقاوين ؟ !

إن أحدا في عائلته ليس له مثل هاتين العينين الزرقاوين ، ولكن عيني هذه الطفلة زرقاوان ! من أين لها هاتان العينان ؟ ! .. لكان شاة سوداء قد ضلت فدخلت بيته ولكان دماغه قد دنست ، والكابتن ميخائيليس لا يستطيع أن يحتمل هذه الفكرة ..

وابتلعت الأم سيئة الحظ دموعها ولم تنقل شيئا ، فماذا يمكن أن تقول له ؟ ! .. صبرت ، وركعت أمام المذبح - أمام القديس ميخائيل ذى الأجنحة الذهبية والسيوف الملتهب ، والروح الجديدة التى يقبض عليها بيده تبدو كحفل مرتعد .

.. كانت تنحني أمامه فى ذل وضراعة - أليس هو حامى حمى بيتها ؟ ! - وتتوسل إليه أن يحدث زوجها .. أن يقتحم عليه أحلامه بالليل ويعاتبه .. ويطلب منه أن يكون قلبه رقيقا ولو قليلا ..

وكان الكابتن يقضى اليوم بطوله فى الدكان ، وكانت هى تبعث إليه بوجبة الغداء مع شاريتوس صبى الدكان .. ثم تضع الطفلة فوق ركبتيها وتظل تهددها وهى تبكى وتصرخ ، وعندما يقترب المساء تطعمها شيئا لتنام وحتى لا تستيقظ قبل صباح اليوم الثانى .

وسمعت الأم وابنتها صوت « ثاراساكى » وهو يحلم فى الغرفة الأخرى ، وضحكت الأم :

- باركه الله ، إنه لا يبيع نفسه حتى وهو نائم ! .. إنه يحلم دائما بأنه يصطاد ويقتل أو بأنه على رأس جنود يشبعون ذبحا فى الأتراك .. عندما يكبر سوف يفعل ما يحلم به الآن .. تماما مثل أبيه ومثل جده .. أه .. ! إن أحزان كريت لا نهاية لها ..

وساد الصمت .. وحدثت « رينيو » فى ظلام الليل من خلال النافذة ، وكانت تهب ريح شمالية تهز إحدى ضلف النافذة .. ولو أن المرء توقف عند

كل بيت من البيوت فى تلك اللحظة لسمع صوت أم تهدد طفلها ، وأغلقت « رينيو » عينيها .. وأرهفت السمع وصدرها يرتجف .. ثم قالت بعد لحظة وكأنها تريد أن تقطع على أفكارها الطريق ..

- لقد تأخر هذا المساء .

- قالوا إن نورى أرسل فى طلبه ، ترى ماذا يريد منه هذا الكلب ؟
وضحكت « رينيو » ..

- سوف يرفعه أبى من حزامه الأحمر مرة أخرى ويضعه فوق السطح !
وهزت الأم رأسها :

- ولكنه بعدها سوف يقتنص عشرة من الكريتيين ويأخذ بثأره منهم ،
قلت لك إن الأم كريت لا نهاية لها ..

- لقد قلت نفس الشيء عن أبى ، ولكن فى ليلة من الليالى » .

وتوقفت وقفرت جوسيب - هكذا كان اسم القطة - على كتف رينيو ..
ودغدغت أذنها .. وأرهفت الاثنان السمع .. وسرعان ما التقطت « رينيو »
الخيط والابر والمقص بينما كانت القطة قد اختفت داخل المطبخ .

وقالت رينيو :

- لقد وصل ..

ولحظتها سمع سعال خارج الباب .

- نعم .. هو ..

ثم وقفت وقالت :

- سوف أسخن العشاء ، فربما يريد إلا يرى أحدا ، من أجل هذا
يسعل .. !

وفتح الباب الخارجى .. وخطا الكابتن ميخائيليس إلى الداخل ثم أغلق
الباب وراءه بالمزلاج وعبر الفناء ، ودخل وهو ينظر حوله : لا أحد .. رفع
عصاة الرأس وخلع سترته التى بللها العرق ، وجلس فى مكانه على حافة

المقعد بالقرب من النافذة المطلة على الحديقة ، ثم أخرج من حزامه منديلا جفف به عرق جبهته وعنقه وصدره ، وفتح النافذة ليتنسم الهواء ..

وسمع صوت زوجته وابنته وهما تشعلان النار لتسخين العشاء ، وخيل إليه للحظة أنه سمع صوت الطفلة .. وأحس على الفور بأن دماغه تقور ، فأرشف السمع أكثر .. ولكنه لم يسمع سوى الصمت ! فأخرج علبة الطبايق ولف سيجارة وأشعلها .. ولكنه أحس بمرارة فمه وكأنما هو ملء بالسم فطوح بالسيجارة من خلال النافذة ..

ودخلت زوجته بالعشاء .. وقال الكابتن ميخائيليس دون أن يرفع رأسه :

– لست جائعا ، خذى الطبق بعيدا !

ولم تقل الزوجة شيئا رفعت الطبق .. وخرجت .

وساد صمت ثقيل .. ونهض الكابتن ميخائيليس وتناول سترته مرة ثانية ، وعاد فوضع العصاية حول رأسه واتجه نحو الباب ثم توقف لحظة يتطلع إلى صف المحاربين المعلقة صورهم على الحوائط من أبطال ١٨٢١ .. بسلاحهم .. أحزمة ذخيرتهم .. ومسدساتهم وشواربهم النافرة كالإبر وشعورهم المسدلة إلى اكتافهم ..

نسى للحظة ما كان يريد أن يفعله ، وظل يحدق في كل واحد منهم ويحييه .. ولم يكن يعرف تماما هذه الوجوه ، ولا الأماكن التي حاربوا فيها .. ولا الأعمال التي قاموا بها .. ولا الأماكن التي جاءوا منها – روميليا ، أم موريا ، أم الجزر أم كريت ! ولكنه كان يعرف على وجه اليقين شيئا واحدا ، هو أن كل هؤلاء الرجال حاربوا الأتراك ، وكان ذلك يكفيه ، أما من عداهم فقد كانوا من طراز المدرسين ! .

وخرج إلى فناء الدار .. وأحس بالانقباض وهو يرى البئر وغصون الكرم وأصص الزهور .. واقترب من الحظيرة الصغيرة الملحقة بالفناء حيث الفرس الأبيض يلمع جسده في الظلام ، وأرھفت الفرس السمع ثم أدارت رأسها ورات سيدها فصهلت في سرور .. واتجه الكابتن ميخائيليس نحوها وأخذ يمسح على عنقها وبطنها وعجزها بيديه المفتوحتين .. مخلوقة دافئة معبودة .. مستعدة دائما بمجرد أن يأمرها سيدها .. مترفعة ومطبعة

لاتفسد أبدا عليه مزاجه ، معه دائما كما لو كانت جزءا من جسده حتى الموت .

وابتعد عن الفرس .. ثم تحسس حذاءه الطويل ثم رفعه إلى الركبتين ثم الفخذية .. وشد صدره كأنما يستقبل الربيع ، ووضع الحذاء داخل السرج ثم صاح :

- شاريتوس !

وخرجت زوجته .

- إنه نائم ..

- ايقظيه !

ثم لف وانتظر مكانه لا يتحرك ، وأخذ يدخن وهو لا يعود يحس بمرارة في فمه .. وينفث الدخان من أنفه وينتظر في هدوء ..

وخرج « شاريتوس » يدعك عينيه النائميتين .. بشعره المشعث وعنقه الطويل وقدميه العاريتين مثل عنزة برية في الثانية عشرة ، كان ابن أخيه ، فانوريوس الراعى ، وكان قد قدم من قريته بعد أن بعث به أبوه ليتعلم القراءة والكتابة ، ولكن الكابتن ميخائيليس رأى أن تعلم الكتب عمل الحمقى الأغبياء ، هل تريدنى أن أجعل منك نبيلًا جائعا ؟ أم مدرسا ؟ ألا ترى التعاسة التى يعيش فيها عمك المدرس « تيتوريوس » الذى جعلت بلاده المدرسة من حياته عبئا ؟ سوف يضعف بصرك أيها الصبى ، وتضع على عينيك عوينات وتجعل من نفسك أضحوكة الناس ، أبق فى الدكان إذن .. وسوف تكبر .. وسوف يكبر مخك ، وسوف أمنحك أنا دفعة إلى الأمام حتى تستطيع أن تفتح لنفسك دكانا خاصا بك وتصبح رجلا » ..

وقال نفس الشيء لأخيه « فانوريوس » الذى أجابه بقوله :

- أفعل ما يحلو لك ، لك فيه اللحم وللى أنا العظم ، صفه على النحو الذى يروق لك واجعل منه رجلا ..

وامسك به الكابتن ميخائيليس من قفاه ، وهز قائلا :

- اذهب إلى البئر واغتسل وافق جيدا .. ثم عد إلى وتلق أوامرى ..

واتجه «شاريتوس» إلى الفناء ، وأخرج ماء من البئر واغتسل به
ومشط شعره بأظافر يديه ثم عاد إلى عمه :

- ها أنذا ..

وضرب الكابتن ميخائيليس بيده على كتفه ، وقال :

- أمض إلى البيوت الخمسة التي تعرفها ، وأقرع باب كل منها حتى
يفتح لك .. أقرعها بحجر إذا لزم الأمر . مفهوم ؟

- مفهوم ..

- فيندوسوس ، وفوروجاتوس ، وكاجابيس ، وبيتروودولوس .. وإلى
« التكية » حيث يعيش أفندينا ...

- أفندينا « روث الخيل » ؟

- وقل لهم : تحيات عمى إليكم ، وهو يخبركم أن غدا السبت .. وأن
عليهم في صباح الأحد المبكر أن تتفضلوا بالحضور إلى بيته .. مفهوم ؟

- مفهوم ..

- اذهب .

ثم نادى زوجته :

- اذبحي ثلاث دجاجات واطبخيها ، نظفي القبو ، وجهزي المائدة
الكبيرة والمقاعد والكنوس ..

وودت زوجته لحظتها لو تكلمت وقالت : « إنها أيام الصيام الأربعة
عشر ، ألا تخشى الله ؟ » ، ولكنه رفع يده ، فلم تقل شيئا ، وانصرفت وهي
تتنهد .

وقالت لابنتها « رينيو » :

- سوف يكون عندنا لسوء الحظر عيد آخر ! .. علينا أن نذبح ثلاث
دجاجات ونهيئ القبو كما أمر ..

وقالت رينيو :

- ما الذى حدث له ١٩ إن الشهور الستة لم تنته بعد !

ولكن قلبها كان يقفز فى سرور ، فقد كانت تحب مشاهد البيت عندما يصير كل شيء فيه مضطربا ، وعندما تروح وتجيء لذائذ الطعام وعندما يجلس الرجال فى الحجرة السفلية ويسكرون .
وغمغمت الأم :

- ها هو ذا قلبها مثقل من جديد .. إن الأرواح الشريرة قد دخلته مرة أخرى .

ثم رسمت علامة الصليب وقالت :

- أنا مخطئة يا ربى ، أنا أقول أشياء لم يكن ينبغى أن أقولها ، ولكننى لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك ، إنه يمتحن أيام الصيام الأكبر .. إنه لم يعد يخشى الله !

وتذكرت فى ثورة القديس ميخائيل هناك فى المذبح كم مرة قدمت ندمى أمامه وتوبتتى ، كم صلاة قدمتها فى حضرته ؟ كم مرة ملأت مصباحه بالزيت وكم شمعة من أجله أشعلت ؟ ! .. وذلك كله ضاع هباء .. حتى « هو » أصبح الآن فى صفه !

ثم غمغمت :

- أه لو أننى كنت رجلا ، أقسم بخلاص روحى ، أننى كنت سأفعل نفس الشيء ، أنا أيضا كنت سأأخذ لنفسى خمسة أو ستة من الأصدقاء ، وعندما يضيق صدرى أدعوهم إلى القبر .. وأسكرهم .. وأطلب منهم أن يغنوا ويعزفوا على القيثارة ويرقصوا .. حتى أبعث السعادة إلى قلبى ، هذا حقا .. ما يفعله الرجل ! » ..

الفصل الثانى

هبط على « ميجالوكاسترو » ليل مشبع بجو ربيعى رطب وحر ، وكانت نسيمات الشمال الباردة قد هبت قبيل منتصف الليل ، ثم مالبت أن حلت محلها ريح رطبة دافئة تخللت فروع الأشجار فانتفخت ، ريح قادمة من الجزيرة العربية ، عبرت البحر الليبى واكتسحت سهول « ميسارا » من « تيباكى » و« جودهاربور » إلى « سانت بارابره » تاركة وراءها كروم « أرشانى » الشهيرة تتسلق أسوار القلعة وتتخلل شقوق الأبواب والنوافذ ، وتهبط فوق النساء كالرجال ، وفوق الرجال كالنساء .. تمنعهم جميعا من النوم . ابريل المؤذى حل بجزيرة كريت مثل لص ليل !

حتى الباشا - حاكم « ميجالوكاسترو » الرجل المسن القوى البنية - طار النوم من عينيه وهو يحس بالحرارة وبالشهوة تسريان فى جسده ، فصفق بيديه وبرز له خادمه العربى سليمان .

- افتح النافذة أويغمى على ! .. ماذا أصابنى يا ترى ؟ وأى ريح هذه يا سليمان .

- ريح قادمة من الجزيرة العربية يا أفندينا الباشا .. ريح حارة ولكنها لا تضر . فلا تخش شيئا .. نحن أبناء كريت نسميها ريح « الخيار » .. لأنها تنضج الخيار .

- ريح الخيار ؟ .. لم أعرف مثلها قط ! اذهب الآن ومر الجارية فاطمة بأن تكون مهياً إذا احتجت إليها .. واحضر لى معك ابريقا من ماء الحوض ومروحة تمنحنى بعض الهواء البارد .. « كريت » هذه سوف تكون السبب فى موتى !

وحتى مطران « ميجالوكاسترو » المهيب الذى يخشى الله ذو الثمانين عاما والحية البيضاء الناصعة كان يحترق من شدة الحر .. خلع ملابس النوم ونهض متجها إلى النافذة التى تطل على قصر الأسقف واستند إليها يتلمس بعض الهواء ، السكون موحش وعميق ! وكل البيوت غارقة فى ظلام دامس ، وشجرة الليمون العجوز تقف مزهرة فى الميدان الذى تطل عليه الكنيسة وتنتشر حولها أزيجا حلوا ، وفى قبة السماء مصابيح لا يحصرها العد تضئ أمام عرش الرب ، وغاب المطر عن ذاته أمام المشهد المهيب للسماء الزاخرة بالنجوم ، وظل لحظة واقفا بجسده الفارع الثقيل محوطا بسكون عميق من صنع الله ، ثم مال بث أن عاد مرة أخرى إلى الأرض ليجد نفسه لا يزال متكئا على حافة النافذة ، فرسم علامة الصليب على صدره وهو يحس بأن ريح الربيع الدافئة قد سكنت ، وبأن جسده أصبح باردا خفيفا ، فعاد إلى فراشه ليغرق بلا خطيئة فى أحضان الرب .

جذب الكابتن « ميخائيليس » الملاء وجلس على فراشه غاصبا : لابد أن الوقت الآن قد تجاوز منتصف الليل ، انحنى فى لهفة وأمسك بالابريق القريب منه وضغطه فوق شفتيه وجرع جرعتين كبيرتين أو ثلاثا حتى يفيق ويبعد ذلك الحلم المخجل الذى أثقل عليه نومه ، ولكن الحلم ظل يتشبث به كامرأة لا يريد أن يطلقه ، ودمدم الكابتن « ميخائيليس » : « لعن الله النوم ! .. اللعنة عليه .. إنه يفتح الأبواب للأرواح الشريرة .. ومن خلالها تنفذ » .

ونهض واقفا وهبط الدرج حافى القدمين حتى أصبح فى الفناء فأخرج ماء من البئر وغمر رأسه فى الدلو ليطفىء اللظى ولكن اللعب الحلو ظل داخل فمه والنعاس يثقل جفونه فعاد ليجلس مرة أخرى فوق الفراش وفتح النافذة القريبة ، ظلام حالك ! .. وأرهف السمع : ميجالوكاسترو ، غارقة فى النوم لا يسمع لأنفاسها صوت .. وريح غربية حارة ترف وهي تمس الأرض والماء وأوراق الكروم وعريشها فى حفيف رتيب متصل .

واستند الكابتن ميخائيليس بظهره إلى الحائط وبدأ يدخل وفى نيته ألا يستسلم للنوم مرة أخرى ، كان مخلوقا تركيا ذلك الذى راه فى الحلم .. مخلوقا مجنونا لا يوثق به ، أخذ يدخل وهو يحدق فى أيقونة « ميخائيل كبير الملائكة » .. حامى قومه : غضب السماء بجعبته فوق ظهره ، وعلى يمين

الصورة تبرق غدارته الفضية التي ورثها عن أبيه وعلى يسارها الكيل الشرف الذى وضعه فوق رأسه يوم زفافه .. إكليل مصنوع من أزهار الليمون المكسوة بالشمع . وسمع للحظة زوجته « كاتيرينا » تتنهد فى الحجرة المجاورة .. ومن أعلى .. ووسط عروق الخشب - كان فأريقرض .. وفجأة اندفعت قطة إلى الخارج تصعد الدرج فى خفة دون أن تحدث صوتا .. ثم ساد صمت عميق .

ظل الكابتن ميخائيليس يدخن دون أن يزيله القلق أو الخجل - ظل هكذا وهو يتنفس بعمق وقد ثبت نظراته بالنافذة .. ينتظر طلوع النهار ..

وفى الطرف الآخر من « ميغالوكاسترو » قريبا من « البوابة الجديدة » كان العم « يانيس » متجها إلى بيته غارقا فى عرقه وقد شمر أكمامه وأمسك بيده قنديلا يضاء بالزيت تتراقص ذبائله ، ومضى يتعثر على طول الزقاق الضيق وهو ينعى حظه ، فالتناس يصرون على أن يحرموه من الشيء الوحيد الذى بقى له بعد وفاة زوجته ، النوم ، فهو لا يفتأ يكذب ويكدح منذ الصباح الباكر وهو ينقل الماء لسكان « ميغالوكاسترو » فى الشتاء يوفر لهم مياه « ساليبي » العذبة الصافية لتبعث فيهم الدفء ، وفى الصيف يوفر لهم الشراب البارد ، فهل نعم فى حياته باغفاءة ؟ لقد كان يؤدى أيضا عمل القابلة ! فربما يجيء المخاض إحدى جاراته أو قريباته : « أسرع يا عم يانيس المسكين .. أسرع بتوليدها ! » .. لقد تعلم هذه الحرفة عن أبيه المرحوم الذى كان حدادا .. وكان يقوم بتوليد الأفراس وإناث الحمير ، ولكن العم « يانيس » نقل فن أبيه من الأفراس وإناث الحمير إلى النساء ! ومساء أمس فقط ، قام بتوليد ابنة اخته المسكينة « بيلاجيا » ولم يكن الأمر سهلا ظلت ثلاث ساعات تعاني آلام الطلق ، ولكنه استطاع فى النهاية أن يخرج الطفل ، طفلا ممتلئا أسود فى لون القار .

وها هو الآن يحدث نفسه وهو ماض فى طريقه يلعن حظه ، وتنتهى إلى سمعه وقع حوافر جواد خلفه ، ولكنه لم يكن واحدا من هذه الجياد التى نعرفها والتى تأكل الشعير ! ... وقد عرف العم يانيس هذا الجواد من وقع حوافره التى كأنما كانت مكسوة بالقطن ، ومن الشذا المقدس الذى انتشر فى الهواء .. وفهم العم يانيس ، فلم تكن تلك أول مرة ، والتصق بالحائط ورسم علامة الصليب على صدره .. وانتظر ، واقترب الضوء ، واقتربت الخطوات السابحة أكثر وأكثر ، وأصبح الشذا أكثر نفاذا ..

وتمتم العم « يانيس » : « اذكرنى أيها الرب ، عمت مساء يا قديسى
« ميناس » ، عمت مساء يا قديسى .

وفتح عينيه فى سعادة ، فهناك فى الطريق ظهر القديس « ميناس »
حامى « ميچالوكاسترو » - البطل ذو الشعر الرمادى - ممتطيا صهوة جواد
أحمر اللون فى سمرة ، يتلألا وسط الظلام كعادته كل مساء حين يقوم
بجولته وهو يرتدى صديريته المدرعة الفضية ويضع حربته الطويلة
الحمراء فوق كتفه ، ففي منتصف الليل ، وعندما تخلد المدينة إلى النوم ،
يخطو القديس « ميناس » خارج ضريحه ليطوف بالحي اليونانى يفلق
أبواب البيوت إذا كانت مفتوحة ، ويتوقف إذا لمح ضوءا ينبعث من نافذة
أحد الكريتيين المرضى .. يدعو الرب من أجل شفائه ، وليس لعيون الناس
قدرة على أن تتعرف عليه ، ولكن الكلاب فقط هى التى تهز ذيلها ، ورغم
ذلك فهناك رجلاّن فقط فى المدينة استطاعا أن يرياها رؤية العين :
« باربايانيس » ، وه أفندينا روث الخيل « ضعيف العقل .

وعندما كان القديس ميناس ينتهى من جولته عند مشارف الفجر ، كان
يعود مرة ثانية إلى أيقونته ومزاره ، ولايشك أحد فى أن أمورا خفية قد
حدثت بالليل إذا اكتشف « مورزوفلوس » - الذى يضيق المصابيح
وينظف الكنيسة فى الصباح - العرق يبيل جسد جواد القديس
« ميناس » ..

شاهد العم « يانيس » القديس « ميناس » وهو يختفى فى الظلام فرسم
علامة الصليب وهو يتمتم : « الليلة رأيته مرة أخرى ، عظيما فى جلاله
ولسوف تتحسن أحوالى ولاشك » .. ثم جذب من سترته كعكة حصل عليها
كأجر مقابل جهده فى توليد « بيلاجيا » وبدأ يقضمها فى ارتياح حتى
وصل إلى كوخه فأطفأ القنديل .

وظل الكابتن « ميخائيليس » يدخن وهو يروح ويجىء وذهنه يطن مثل
الخنفساء وهو يسترجع كل مارأه وعاناه وأحبه وكرهه فى حياته : قريته
ووالده وبيته والناس والأترار والكريتيون ، ثم استجمع كريت كلها من
« جرابوسا » إلى « توبلوموناسترى » .. من الصخرة إلى الأخرى .. ومن
تمرد إلى تمرد . ولكن أفكاره لم تكن تتوقف ولو لحظة عند شىء معين ،
وإنما كانت تلهث فحسب ثم ترتد كل مرة إلى فم يجلله العارف فلا تغادره ..

وظل يذرع الحجرة فى احتياج وهو يرمق صورة الملاك ميخائيل فى وحشية وكأنه يسأله أن يتخلى عن وجوده السلبى فى الصورة ليخرج ويفرض النظام ، ثم استدار على عقبه وحقق فى السماء من خلال النافذة وقد بدأ الظلام ينحسر شيئا ما ، ثم قال وكأنه يخاطب السماء : « بدأ الضوء يظهر .. وسوف يكون فى مقدورى أن أرى إلى أين أذهب » .. وأسرع يهبط إلى الفناء ، وغمر رأسه مرة أخرى فى الدلو ، ثم استراح قليلا .. ثم جلس القرفصاء عند عتبة البيت .. وانتظر ..

كان الكابتن ميخائيل فى صراع مع نفسه مثل الثور ، ولكن « نورى بك » هو الآخر أمضى الليل بطوله يذرع جناح الرجال ، ويخرج مرات إلى الحديقة ليشم بعض الهواء ثم لا يلبث أن يعود ، ويدخن سيجارة فى عقب أخرى ، ويشرب كوبا بعد آخر .. ويجأ بصوته ، ثم رفع بصره إلى الباب الخشبي وكانت المرأة الشركسية قد أغلقتة دونه ورفضت أن تسمح له بالاقتراب منها وصاحت فيه من خلال ثقب المفتاح : « لا أريدك لقد جللت نفسك بالعار .. ولم تعد تصلح لى » ..

كانت هى الأخرى عاجزة عن أن تغلق عينها ، فقد اتجهت إلى النافذة وهى نصف عارية ومدت ذراعها فى لوعة تجاه الحى اليونانى ، ورأت وسط الظلام حاجبى الكابتن « ميخائيل » الداكنين ولحيته ويديه القويتين ، ثم أنت مثل أنثى الخيل .

وغغم « نورى بك » وقد بدأ يبكى : « إنها على حق .. وسوف أذهب أنا إلى الكلاب مثل أفندينا ، وسوف يستدعيني الكافر أنا أيضا كلما أولم وليمة لكى لعب من أجله دور القرة قوز » .. وفى الصباح وجد الخادم البربرى سيده مكوما على عتبة البيت وقد غاب عن الوعي من كثرة ما شرب ، بينما كان شاربه وصدره وسترته جميعا ملوثة بالقىء والخمر ورماد السجائر المحترقة .

وفى اللحظة التى خطر فيها ببال « نورى بك » كان « أفندينا » نائما على ظهره يبتسم فى سعادة ، فقد تناهت إليه الأنباء فى وقت متأخر من المساء ، هناك عيد آخر سوف يستغرق ثمانية أيام ، وسوف يأكل لحم الخنزير والسجق الذى سينزلق إلى داخل بطنه مثل الزبد ، وسوف يكون هناك خمر .. وسوف ينسى بؤسه طيلة ثمانية أيام .. نعم .. وإلى الجحيم

كل شيء ! .. إلى الجحيم أيضا .. الحرام والحلال ! .. وأغلق عينيه وأخذ يتحسس ذقنه بيده حتى راح فى النوم .

وفى نفس اللحظة التى خطر هو فيها ببال « نورى بك » كان أفندينا يحلم .. فتح الباب ودخل خنزير سمين أحسنت تغذيته وفوق رأسه طربوش مثل الأتراك وقد تدلت من رقبتة مدية كأنها تميمة ، وعندما نظر إليه « أفندينا » وقف على قدميه الخلفيتين وقدم له التحية على الطريقة التركية ، ثم مالبت أن تناول المدية وغرسها فى عنقه وأخذ يتدحرج فوق الأرض ، بينما انحنى « أفندينا » فوقه ، ثم مالبت أن راه مشويا طازجا مكسوا بأوراق الليمون وقد انبعثت منه رائحة شهية ، وأطلق أفندينا صيحة فرح .. واستيقظ من حلمه ولعابه يسيل !

وهناك ، فوق الأرض .. كانت مخلوقات بشرية بائسة تحترق وتبحث متعاقبة فى عذاب عن وسيلة تخمد بها النيران .. كان قبو السماء يدور ، والنجوم تسبح فى مداراتها . وفجأة ، وخلف قمم « لاسيثنى » ، قفز نجم الصباح إلى الأمام وأخذ يطن وسط الريح ، وفتح الديك الكثيف الريش فى فناء بيت الكابتن « ميخائيليس » عينيه ليرى ما يدور فى السماء ، ثم أخذ يضرب بجناحيه وينفث بصدرة .. ويصيح وهناك ، بعيدا فى فناء المزارع الثرى « كراسوجورجيس » كان الحمار القبرصى الشهوانى يستنشق الهواء بقوة ويتشمم رائحة العشب اللذيذ المندى .. بينما رفعت الحمارة الكريتية ذيلها فى صلابة وبدأت تنهق !

استيقظت « ميجالوكاسترو » من أول الشارع إلى آخره ، ومن بئر « إيدومينا » إلى مخبز « تولوپانا » ، وبدأت الحياة تدب فى حى الكابتن « ميخائيليس » .

بادىء ذى بدء، حررت زوجة « ماستراباس » زوجها - ذلك الرجل المقدس - من قوائم السرير الذى تعودت أن تربطه إليها بإحكام كل مساء من شدة غيبتها عليه ولكى تمنعه من الهبوط ليلا يتحسس طريقه إلى الخادمة السمينية « أنيسينا » بصدورها البقرى ! حيث تنام فى المطبخ الكائن فى الطابق السفلى ، كانت تربطه جيدا كل مساء ولا تخفف قيوده قليلا إلا إذا استيقظ لقضاء حاجة بالليل ، وحتى فى مثل هذه الحالة كانت

تبقى الحبل حول كاحله وهى تمسك بطرفه جيدا حتى لا يحاول سجينها الإفلات !

وكان الكابتن بوليكسيجيس قد عاد قبل قليل من مغامرته الليلية مرهقا تفوح منه رائحة المسك ، أما السيد « ديمتريوس » فقد كان يتنأب وهو مستلق إلى جوار زوجته « بنيلوب » التى كان مزاجها معكرا مرة أخرى ! .. وقد ألقت جانبا بملابس النوم وهى تدمدم : « أحقا أنا فى الخامسة والعشرين ؟ أحيانا أحس بأن جسدى يحترق ، وأحيانا أحس كما لو كنت سلحفاة ! » وفى هذه اللحظة بالذات من الفجر الرمادى ، كان جسدها يحترق ! .. وجلست فى حدة وحدجت زوجها المتنأب « ديمتريوس » بنظرة جانبية مليئة بالكراهية .. ثم نهضت .. وخرجت ..

وبدأت صفحة السماء تشحب ، واستيقظت الطيور المغردة فوق حواف الأسطح وتحتها ، وفى بيت « كراسو جورجيس » كان الطائر الأسود يفنى فى قفصه ، وغمقت « بنيلوب » وهى تتنهد « محظوظة » زوجة كراسو جورجيس .. فهو مزارع غنى .. ولكنه لا يزال يحتفظ بحيويته ونشاطه ، وهو أبدا لا يخيب أمل زوجته ! » ..

وأرهقت السمع ، وتناهت إليها أصوات من البيت القريب حيث كان « كراسو جورجيس » السمين مستلقيا على ظهره وقد ارتفع شخيرُه وانبعثت من شاربِه رائحة النبيذ والبصل ، وارتفعت أنفاسه الثقيلة ، وكأنها صادرة من أعماق قبو ، وإلى جواره زوجته الصغيرة « كاتينيسنا » لاتزال نائمة « كاتينيسنا » ابنة « باربايانيس » .. المخلوقة الطروب البادية الصحة التى تعشق الشراب ، كانت تبتسم وهى تناغى مثل القمرى ، فقد كانت تحلم لحظتها بأنها فى رفقة شاب تمسك هى بيده ويخطران معا داخل حديقة ذات أسوار وهو يضع ذراعه حول كتفها ، ولم يكن ذلك الشاب زوجها السمين ! ولكنه كان ممشوق القوام .. لبقا .. ذا شارب دقيق وشعر مسترسل أسود ، وفى منطقته غدارتان فضيتان .. ومع أنفاسه تنبعث رائحة القرقة .. كان شبيها بهذه الصورة التى يعجب بها كل من يزور بيت الكابتن « ميخائيليس » والتى كتب تحتها « اثاناسيوس دياكوس » - وهو اسم بطل مشهور من أبطال النضال من أجل الحرية - وكان يضع ذراعه حول كتفها تحيط بهما مثل سياج أثقلته عناقيد داكنة ، وكانت هى تسير إلى جواره وقد أفعمتها السعادة وهى تبتسم وتناغى كالقمرى .

ولكن الشيطان أفسد كل شيء ! سمعها « كراسوچورچيس » ، فاستدار نحوها وفتح عينيه وصاح :

- هيه .. يا زوجتى ! .. ما كل هذا الابتسام والمناغاة فى الصباح الباكر ؟ أهى قطعة من خبز الجنزبيل تلوكينها ؟ .. اعطنى إذن قطعة منها ! ..

ولكنها أولته ظهرها غاضبة وهى تقول :

- لاتقلبنى .. دعنى لحالى فأنا نائمة !
ثم اغمضت عينيه وحاولت أن تجد حلمها مرة أخرى .. مع رجلها الصغير ! .

وفى مخبز « تولوباناس » ارتفعت سحابة إثر سحابة من الدخان الأول الأذيق الشاحب ، واستيقظ الخباز العجوز المتجهم الوجه الصامت أبدا ، وبدأ العمل وحده فى معجته حتى ينسى متاعبه ، ولكن أيا له النسيان ؟ كان له ولد عزيز وحيد فى العشرين من عمره أشقر وسيم تقانى هو دائما فى كسوته ورعايته ، وفجأة ، ومنذ ثلاث سنوات ، بدأ يصاب بالأورام ، واكتسى وجهه بالبثور ، وتعقنت أطراف أصابعه .. وسقطت أظافره .. والأن ، بدأت شفتاه تتقيحان ، وأبوه وأمه يرفضان إرساله إلى ميسكينيا حيث مستعمرة المجذومين ، فكيف يطيقان فرقة ولدهما الوحيد ؟ ومن ثم فقد فضلا أن يبقياه رهين حجرته حتى لاتقع عليه عين إنسان .. كيف إذن يستطيع « تولوباناس » العجوز أن يهنا بالنوم .. ولماذا يفتح فمه ليتكلم ؟ ينحنى فوق المعجنة .. ويدفع بالعجين إلى داخل الفرن .. ويخرج الخبز الذى نضج ، ثم يبدأ جولته فى الشوارع لبيع الارغفة المستديرة كالحلق ، والبطائر المحشوة بالسبانج ، وليجهد نفسه فى عمله لعله ينسى ، ولكن كيف ينسى ؟ كيف ينسى وهو فى كل صباح يدخل لرؤية ولده .. فيضطر إلى أن يرى كيف تسوء حالته .. وكيف يزداد التهرق والتعفن يوما بعد يوم ؟ !

مضى « تولوباناس » العجوز فى عمله أمام الفرن وهو يتنهد ، وعندما رفع بصره لحظة ورأى الضوء لايزال ينفذ من خلال نافذة فى طابق أعلى .. هز رأسه وتنهد : « مسكينة أيتها المرأة الفرنسية .. ! أنت أيضا تعانين .. تعانين سوء حظك .. لا.. أبدا لا تستطيع قلوب الرجال أن تجد الراحة .. »

والحق أن الضوء لم ينطفئ طوال الليل ، فالمرأة الفرنسية المسكينة لم تذوق طعم النوم ، كانت تسعل وتبصق وتئن ، جاء بها الطبيب « كاساپاكيس » يوما ما زوجة له من باريس ثم زرعها في هذا العش التركي في آخر الدنيا ! كانت في البداية تتنهد ثم أصبحت تسعل .. ثم انتهى بها الأمر الآن إلى أن تبصق دما ، وقيل إن زوجها الطبيب لم يكن يستطيع أن يقربها ، ومن ثم فقد كان على علاقة بخادمته الشابة القادمة من « أوركالوخورى » .. وعندما قدمت المرأة الفرنسية لأول مرة ، ظلت تعول وتصيح طيلة أسابيع : « أين الخط الحديدي الذى قلت لى إنه يمر أمام بيتنا ؟ .. ليس هذا ما وصفته لى ونحن فى باريس ؟ » ، وكان زوجها الطبيب السمين يضحك ويقول : « فى ميجالوكاسترو » نحن نسمى حميرنا .. السكة الحديد !! » .

جلس الكابتن « ميخائيليس » القرفصاء صامتا ساكنا وسط الفناء .. ينتظر مرة أخرى أن يزداد ضوء السماء ، وعندما سمع صياح الديك رفع بصره ، وكانت السماء قد بدأت تشع بالضياء ، فقفز واندفع إلى حجرته وارتنى ملاپسه على عجل ، ولف الزنار الواسع حول جسده عدة مرات ، ودفع بالشئ الأسود الملفوف داخله ، ثم تناول زجاجة الزيت الصغيرة المعلقة أمام إطار الأيقونة وملا المصباح الصغير الذى كانت ذبالبته قد بدأت تخفت ، وحدث فى ميخائيل كبير الملائكة زعيمه ورئيسه .. وهو يقول له : « أنا ماض الآن .. وكل ما ينبغى أن يقال .. قلناه ، وهكذا فأنا ماض الآن .. فتول أنت رعاية البيت ! » .

ثم هبط إلى الفناء وفتح الباب المؤدى إلى الشارع ، وأسرج جواده وامتطى صهوته متجها إلى المستشفى وقد طلع النهار .. وأخذ الجنود المفاتيح ، وتهيأوا لفتح أبواب القلعة الأربعة ، وكانت البيوت لاتزال مغلقة ، ولكن بعض المواقد كانت تخرج دخانها ، وكان « باربايانيس » قد خرج ينادى على ما معه من ماء الشعير الممزوج فى وفرة بالفلفل .

وكز الكابتن « ميخائيليس » مهرته وانطلق مارا بالشجرة الضخمة المنزوع لحاؤها - أكلة أبناء كريت ! - ثم استدار متجها إلى ميدان السوق حتى وصل إلى « الأقباء الثلاثة » فتوقف لحظة وأجال البصر حوله ، كانت خطوط الجبال تتوهج باللون الأحمر الوردى ، وفى مواجهته كان « الجبل

الغاضب « هوة عارية ، وخلفه جبل « سيلوريتيس » السيد الجليل بقمته الثلجية .. وعلى يمينه التين الرخامي « لوختاس » ، وهناك بعيدا ، لاح البحر أزرق متألقا فى شحوب .. مرقطا قليلا هنا وهناك بالزبد الأزرق المخضوضر ، والسفن المالطية السوداء ذات الشراع الأحمر قد بدأت عملها فى البحر ، والشمس تبرز من بين الأمواج لترتفع وسط ضباب متوهج ، وأدارت المهرة رأسها ورأت الشمس ، فتألفت عيناها ومالت إلى الخلف بعنقها .. وصهلت تحيياها .

ارتفعت دقات الطبول وارتفع العلم التركى فوق ساريته ، وفتحت أبواب القلعة الحديدية فى صريف مسموع ، واندفع الفلاحون الذين ظلوا ينتظرون بالخارج منذ لحظات الفجر الأولى .. اندفعوا إلى الداخل على الفور يطأون أقدام بعضهم البعض ، وحيرهم وبغالهم محملة بالأخشاب وفحم الحطب وزجاجات الخمور والزيت وسلال الخضراوات والفاكهة والجرار النحاسية المملوءة بعسل النحل ، وكان عليهم لكى يدخلوا القلعة أن يمرؤا عبر السرداب المظلم الذى يخترق كل الجدران الفينيسية الكثيفة ، وفى داخل هذا السرداب ، وتحت الأقباء الصخرية ارتفعت الأصوات واللعنات والنهيق ووقع أقدام الحيوانات والبشر ، وامتزجت أصداؤها جميعا ، وعادت هذه الرقبة الأرضية تضج بالطنين .

وشق الكابتن « ميخائيليس » طريقه وسط هذه القافلة الصاخبة حتى خرج إلى الحقول وامتطى فرسه منحدرًا إلى الساحل ، فأصبحت « ميجالوكاسترو » خلفه وسلك طريق الشاطئ متجها إلى « الجبل القاسى » مارا « بالتلال الحمراء » ، وعلى يمينه أرض خضراء داكنة تنتشر عبقها ، وعلى يساره البحر والشمس لماتزل قريبة من خط الأفق ملعقة كأنها تيممة ذهبية فوق صدر المدينة .

وغمغم الكابتن « ميخائيليس » وهو يرسم فوق صدره علامة الصليب ، « باسم السيد المسيح .. وباسم ميخائيل كبير الملائكة » ..

ارتفعت الشمس وقاضت بأشعتها على « ميجالوكاسترو » فى البداية ، انعكست أشعتها على المآذن ثم على قبة القديس ميناس ثم على أسطح المنازل ، ثم مالبثت حداثها أن خفت وسط الأزقة الرطبة ، وفتحت الفتحات نه اذهن ليستقبلنها .. ومن خلالها نفذت الأشعة ، وانطلقت النسوة

العجائز إلى أفنية دورهن يلتمسن الدفء ، ورسمن علامة الصليب ، وقدمن الشكر إلى الرب على انتهاء مارس .. ذلك الشهر الملعون من الرب والذي تبلى به العجائز .. لقد بدأت أطرافهن الآن تثبت قيهن الدفء ، مرحبا بإبريل .. ومرحبا بالقدّيس جورج ..

ومرت حمير كريت عبر كل بوابات القلعة وهي مبتهجة خفيفة الحركة ترفع ذيولها ، وتنهق وكأنما تعلن للسكان عن مقدم الربيع .

وعادت « بنيلوب » إلى الفناء .. وتمطت في قوة حتى « طرقت » عظامها ، كانت امرأة نصفاً ، صدرها وعجزها ذوا حجم مضاعف ! .. تاكل جيداً - فهي ممتازة الشهية ! - تغسل بنفسها جسد زوجها السيد / ديمتريوس وتحك جلده وتطعمه وتطمره مثل الحصان ، وفي كل مساء تحاول جاهدة أن تنعشه ! ولم يكن لديها أطفال ، فكانت تحب القطط وطيور الكناريا وقبرات الربيع .

وفي هذا الصباح كانت « بنيلوب » تحس بما يشبه وخز الإبر والدبابيس في ظهرها ، ولو كان لها ذيل هي الأخرى لرفعته مثل الحيوان لتعلن لكاترينا عن قدوم الربيع ! ولتعلنه أيضاً لزوجتي كراسو جورجيس وماستراها س ولزوجة الطبيب ولكل الجيران لماذا لايزلن نائمات إلى الأبد ؟ لا بد أن ينهضن لكي يدعن الشمس تلمسهن ، وتجعلن جميعاً ينهقن ويعفرن أنفسهن في الحقول ! .. الربيع جاء ! واليوم لن تسعها جدران حجرتها الأربعة ، أعدت طبيخها بسرعة .. وأرسلت خادمتها الصغيرة لتطرق باب « كاترينا » زوجة الكابتن التي تسكن في مواجهتها .. وتقول لها : « تحيات سيدتي بنيلوب زوجة ديمتريوس .. وهي تقول لك - إذا أنت أحببت - فسوف نحمل غداً ونخرج إلى الحقول ونتناول هناك .. » وهي تقول لك ، لقد جاء الربيع .. ولكن كيف تغادر زوجة الكابتن بيتها وهي تعدّه لاستقبال خمسة رفاق بشوشين في الصباح الباكر لليوم التالي ؟ لقد كانت تعد الدجاج كوجبة لذيدة للمأدبة ، واحدة ستسلق ، والثانية سوف تتبل بالدقيق المسكر ، والثالثة سوف تشوى على السفود .

- لن نستطيع ، قول لسيدتك إننا لن نستطيع ذلك اليوم ، ونرجو أن تعذرنا ولكن إذا أحببت أن تتفضل بزيارتنا هذا المساء ومعها أدوات الحياكة ، فسوف الجارات أيضاً .. وسيحضر كذلك (على أغا) لكي

يسلينا ، قولى لها إن الكابتن سوف يغيب عن البيت اليوم بطوله ، فلا تخشى شيئا .

وقطبت « بنيلوب » جبينها ، وأرسلت خادمتها الصغيرة إلى جارات أخريات ، إلى زوجة « ماستراياس » وزوجة « كراسوجورجيس » إلى شقيقه « بوليكييسجيس » .

الكابتن ميخائليس اليوم بطولة .. فلا ينبغي أن تخشى شيئا .

وقطبت بنيلوب جبينها وأرسلت خادمتها الصغيرة إلى جارات أخريات ، إلى زوجة ماستراياس وزوجة جراسوجورجيس وإلى شقيقة « بوليكييسجيس » ، ولكن الأولى قالت أنها تتوقع قدوم الأسقف ليترد الأرواح الخبيثة من بيتها ، وقالت الثانية أنها تعاني من الصداع والدوار ، أما شقيقة « بوليكييسجيس » فقد قالت أنها تخبز مسبقا للعشاء ، وإن قدمها متورمتان ولا تستطيع الحركة ..

وزمجرت بنيلوب فى هياج : « سحقا لكم أيتها الغيبات الفاسدات .. ! ألا تفتحن أبدا جحوركن لترين مايدور خارجها ؟ أم أن ذلك يجعلكن تشعرن كما لو أصبحتن عرايا ؟ تعالى يا ماروليو ، واذهبى إلى « مارسىلا » زوجة الطبيب ، بالرغم من أنها فريسة فسوف تفهم ماذا يعنى قدوم الربيع ، وسوف تحضر ! .. »

كان اسمها « مارسيل » وليس « مارسىلا » ولكن بنيلوب كانت تمزح معها بسبب يونانيتها « المكسرة » ! ولأنها كانت تتميز بأدعاء أبناء المدينة الكبيرة ، كانت « ياريسيا » - وهكذا كانت تنطقها - أكبر من « ميجالوكاسترو » .. وهناك نهر يجرى وسط شوارعها ، ونساؤها يغشين المقاهى ويتبادلن الحديث فى جراحة مع الرجال .. ويظهرن أقدامهن حتى كواحلها ، وكانت تلك حكايات أشبه بالأساطير ، ولكن هذه الفرنسية الضالة لها أسلوب رشيق فى الحديث عن ذلك كله .. أسلوب يدل على أنها هى نفسها تصدق ما تقول ، كثيرا ما رأيت عينيها كابيتين .. ما الذى يمكن أن تأخذه من زوجها هذا الوقح بنعمته وإدعائه ؟ ، يا للعار ! إلى الجحيم هذا الزوج ! إنه لا يخل من أن تكون له علاقة بفتاة من أركالوخورى .. لابد أن تخرج هذه المرأة المسكينة إلى الحقول ، ولسوف نطلق فى سرعة القديسة (إيرين) قديسة الجداول الأربعة ، ولسوف يزيل هذا سأمها » .

ولكن الخادمة الصغيرة عادت مطأطئة الرأس : « إنها لا تستطيع .. قالت إنها ظلت تسعل طوال الليل ولم تذق طعم النوم ربما تستطيع فى يوم آخر .. ولتعذريها ! » ..

وسبت بنيلوب ولعنت ، واستعرضت فى ذاكرتها كل جاراتها ، هل - لا سمح الله ! - تدعو زوجة « كوليفاس » ؟ ، إن زوجها حفار قبور .. وهى نفسها ممسوسة ترى الأشباح ، وكل الموتى يرفرفون فوق وسادتها ويخدمونها بإخلاص ، لماذا يجردهم زوجها من أكفانهم ويكسب بها زوجها ونفسه ويترك الموتى عرايا فى رطوبة الأرض غضباناً ولهم كل الحق فى أن يغضبوا ؟ .. كلا .. لا ينبغي أن تدخل بيتها زوجة « كوليفاس » فهل تبعث مرة أخرى إلى « أركوندولا » .. هذه البندقة المرة لتسألها إذا كان من الممكن أن تتفضل بالخروج مع بنيلوب زوجة البقال ! وهذه أيضاً يقولون إن أباهما كان ترجماناً فى القسطنطينية ، وكان يلعب الورق مع البطريك : وعندما مات أبوها أصبحت تتلقى من البطريك كل عام حقيبة مملوءة بالجنيئات الذهبية من البطريك ، وكانت تأكل الكافيار بالمعلقة ! كلا .. إن طعام الآخرين لا يناسب وزيارات الموظفين والباشا لم تكن تفيدها ! .. وعندما كانت لاتزال صغيرة ، وجدت أن رجلاً قد تبخر وأخر تعفن ، هذه المخلوقة المغرورة ! فلتنضخ الآن فى عصاريتها وهى تجلس فوق الصندوق الذى يضم جهاز عرسها ، ولتدفع الثمن عن نفسها .. ولتدفع الثمن عن أخيها أيضاً هذا الأصم الأبكم ، فالآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون ، فقد حدث أن سيق كريتى إلى القسطنطينية ليشنقوه هناك حيث قيل أنه قتل رجلاً تركيا .. ولقد كان أبوها الترجمان - اللعنة على عظامه ! - يعرف الحقيقة ، فالقاتل لم يكن ذلك الكريتى ولكنه كان شخصاً آخر .. كان أحد البكوات .. ولكن هل هناك شيء يمكن أن يجعل هذا الترجمان الثلاث يفتح فمه ليتكلم ؟ ، كان مذعوراً .. وظل كالأخرس لا ينطق .. ومن أجل هذا فإن ولده الوحيد أصبح أخرس لا ينطق .. لا .. لن تخرجى مع الأنسة « أركوندولا » .. لا .. حتى ولو أرادت هى ذلك .

وقفزت خواتمها بعيداً عن هذا البيت الكبير المتعالى .. بعيداً .. « فهل ياترى اسأل قانجيليو ؟ ولكنها هى الأخرى لن تحضر ولأنها مشغولة ولاشك بإعداد جهاز عرسها ، ففى عيد الفصح سوف تتزوج من « تيتريوس » المدرس بحق الشيطان ، كيف اختارت الفتاة هذا الرجل ؟

هذا الرأس الأصفر .. هذا المعلول ذا العوينات ؟ أحقا هي تحبه كما كانت تقول ؟ ولكن لا غرابة فهناك لعنة حلت عليها هذه المسكينة ، فاخوها هذا الوسيم الفاسد بساعته الذهبية ، قد أهدر كل نقودها على الحلوى والفجور » ..

وبعد طول بحث وتمحيص ، وصلت بنيلوب إلى قرار ارتقت حوض الأعلاف وامسكت قبضة من أوان التكميية واتجهت إلى المطبخ ولفت الطعام في أوراق العنب وملأت سلة بالخبز والزيتون وبرتقالتين وزجاجة صغيرة من النبيذ وبرقوق بيضاء بالكحول وبن وسكر وسكين وشوكة ومنشفة ، ثم خرجت إلى الفناء وصاحت في خادمتها الصغيرة : « تعالى معي يا ماروليو » .

وأغلقت الباب المطل على الشارع .. وانحدرت نحو الميناء بجسدها السمين وكتفيها العريضين ومشيتها المترججة وكأنها نوع خاص من الخراف ذوات « اللية » السمينية التي وصلت أخيرا إلى كريت من آسيا الصغرى ! وتملك الارتباك السيدة المسكينة وهي تحس بنصفها الأسفل يتأرجح ، ولكن ماذا كان بمقدورها أن تفعل ؟ .. هكذا قالت وهي تشعر بشيء عن الارتياح ، فحتى هذه « الغريبة » من صنع الله ! ..

من حسن حظي أن ساقى ليستا متورمتين مثل قدمي الانسة « كريسانتي » شقيقة « يوليكسيجس » ولأزلت والحمد لله قادرة على استخدأهما ، ولأزلت أصدر أوامري إلى هذا الخنزير زوجي أنا التي أقوده وليس هو الذي يقودني ، فانا أساوى عشر فتيات ، وعشرة شبان لا يستطيعون اسقاطي على الأرض ، أنا حقا كما وصفوني .. السيدة القوية » ..

وبعد طول تعثر وانحدار عبرت الشارع العريض الذي كان يعج بالحمالين والعمال والمزارعين أي ضجة هذه وأي صخب ! يا للكريتين وأعناقهم الغليظة كأعناق الحمير ! هكذا كانت بنيلوب تقول لنفسها وهي تزم شفتيها ، ذلك لأنها كانت من « ريثيمنو » .. وكانت تفخر بذلك : « كايينا » للأسلحة ، و« ريثيمنو » للكتب .. و« ميجالوكاسترو » للكيكز ! وفي كل مساء لا يكاد أبناء ميجالوكاسترو ينتهون من أعمالهم حتى يترهلون داخل الحانات ويشربون بشراهة ويزدردون الاسماك المجففة واللحوم المشوية

على السفافيد وقد فاحت منهم رائحة النبيذ والعرقى واللحوم ، أما أبناء « ريثيمنو » فهم على النقيض من ذلك بمشيتهم المحترمة وانحناءاتهم العميقة ، واحتفالاتهم الرفيعة ! زوجها ديمتريوس فقط كان يختلف عن باقى أبناء « ميجالوكاسترو » ولكنه - باركه الله ! - كان نصف جسد ! .. لماذا لا تستطيع أن تبعثه إلى الحياة بالليل ؟ .. كل محاولتى ضاعت هباء ! .. نعم أه لو كان من أبناء « ريثيمنو » » .

تنهدت وتابعت سيرها حتى أصبحت قريبة من الميناء : « سوف يكون جالسا هناك كمادته يلهو بمذبتة ، نعم .. » ..

ولكن ديمتريوس كان قد تعب من اللهو بمذبتة منذ فترة ، وغرق بين دفقتى مجلد ضخيم كان يسجل فيه بلونين من الحبر - أحمر للحوم .. وأزرق للباقي - الطعام الذى يأكله كل يوم . وكان قد استغرق فى مراجعته ، يقرأ عن الأطباق .. ويتذوقها بخياله حتى سال لعبه وبدأ يتصفح صفحات بضعة أيام مضت .. يتهجى ماكتب فيها ببطة ويستطعم وكأنه يمضغ الطعام ، ٢٠ مارس ١٨٨٩ فاصوليا طازجة بالخرشوف والبصل الأخضر ، كمية من الزيت تخلط جيدا ، ٢١ مارس ، خيار بالثوم يشويه البأس « تولوباناس » ..

واقبلت فتاة صغيرة إلى مدخل الدكان :

- « سيدى ديمتريوس : أرسلتنى سيدتى زوجة كريستوفاكاس » - لكى تعطينى ست أوقيات من المصطكى لزوم الطهو » ..

- أعرف ما تريدينه يا ابنتى .. ولكنه هناك .. فى مكان عال .. ! ومط الكلمة الأخيرة كأطول ما يستطيع حتى يشير إلى أن المصطكى هناك فى مكان ما فى آخر الدنيا ! ..

وانصرفت الطفلة بينما عاد السيد ديمتريوس ليغرق مرة أخرى فى دراساته ، ٢٥ مارس العنوان : السمك البكلاه بالليمون .. البكلاه بالبقدونس ، البكلاه المشوى بالثوم ، سلاطة الخيار ، لذيد الطعام للغاية ..

ولكنه الآن كان قد « درس » بما فيه الكفاية ، فعاد إلى المذبة وهويتند

ويغمغم : « أنا ، ابن الكابتن لينبوتوم الشهير ، الأم انتهى بى الأمر ؟ كان جدى يمتلك سفينة حربية يضرب بها سفن الأتراك ، وكان أبى يمتلك بندقية وكان يقتل بها الأتراك ، أما أنا ، فلا أملك سوى هذه المنشة .. أقتل بها الذباب ! لعن الله وجهى ! » .. ثم لطم وجهه الصبوح براحته وهو يرى دكانه قد أصبح ضئيلا بالنسبة إليه بعد أن خطر أبوه بذاكرته .. وبسط ذراعيه ولمس بأصابعه الحوائط يمينا ويسارا ومثل شمشون ، ود لودك هذه الحوائط حتى يجعل الدنيا أمامه أكثر اتساعا لا يحس هو .. « ديمتريوس لينبوتوم » بالضيق ..

وفى ذات اللحظة التى كان ينذر فيها نفسه ليدك الحوائط إلى شطرين ، أظلم الدكان ، فقد وقفت ببابه « بنيلوب » طويلة مستديرة سمينة لاهثة الأنفاس ، وعندما رآها مستر « ديمتريوس » أغبر وجهه : « ماذا تريد منى بحق الشيطان ؟ .. ألا يكفى الليل بطوله ؟ من أين لها هذا النشاط .. هذه المرأة التى لا تستحي ؟ هل وضع أحد ما يترولا فى أردافها ؟ .. أه ! أين هى من سيدات ريثيمينو المحترمات ! » ..

ثم قال فى صوت عال وهو يفتح الكتاب بسرعة « مرحبا » ! ..

وصاحت زوجته : « انهض يا ديمتريوس .. انهض ! سوف نمضى معا إلى الريف ! لا تتعفن هكذا ، أعط عظامك فرصة الدفاء ، بارك الله فيك ! ها أنت مثل الضفدعة بمستنقع هيا وأخرج نفسك من هذا المستنقع ! لقد أحضرت غداءنا معى .. طبقك المفضل ... » ..

ثم أنحنت نحوه تهمس فى أذنه : « كفته ملفوفة بورق العنب .. وضعت فيها كمية كبيرة من الفلفل .. سوف ترى كيف يلذ مذاقها فى الريف ! » ..

وهز السيد ديمتريوس كتفيه وصاح : « لن أذهب .. لن أذهب .. » .. ثم تشبث بمقعده ..

- « قم يا ديمتريوس .. يا عروستى الصغيرة .. قم ! اعمل معروفًا ، وأعدك بالأنا انتهرك » ..

ولكنه أشاح بقوة كما لو كانت « بنيلوب » ذبابة ، أو خادمة يريد أن يطردها من الدكان ، ثم صاح ثانية : « لن أذهب ! لدى عمل كثير اليوم ألا ترين بعينيك ؟ أنا أسوى حساباتى .. مالى وما على حتى أعرف فوق أى أرض نقف .. اذهبى أنت .. فهناك ملاك فى رفقته ! » ..

وامسكت « بنيلوب » خادمتها من عنقها وصاحت « هيا ياماروليو ! .. سوف تمضين معى وكأنك جارتى وزوجى ! .. هيا بنا .. وسوف نتناول غذائنا معا تحت أشعة الشمس ، ثم ادارت ظهرها للسيد / ديمتريوس وانسحبت وهى تغغم :

« كان أفضل لو تزوجت سكيراً ، هاوى محظيات » .. أنجب له ستة أطفال قبل أن يستطيع ترويضى ، وكان أفضل لو عشت فى ريثيمو ، حيث يعيش عليه القوم ، وليس هنا مع هؤلاء الحمير ، أبناء ميجالوكاسترو ! وتحركت فى هياج : وكان الجوع قد استبد بها .. ورات الشمس ترتفع أكثر فى كبد السماء .. وأحست بخياشيمها ترتعش - لقد بدأت تشم رائحة العشب .. وكانت لاتزال ممسكة بخادمتها الصغيرة « ماروليو » من قفاها تجرها معها بقوة والفتاة تتعثر معها وهى تلهث وتشتت تحت ثقل السلة الموسوقة .. وبين الحين والآخر ينزلق « شبشبها » من قدميها .. حتى اضطرت إلى أن تخلعه وتضعه فوق الخضراوات فى السلة .. وبعدها بدأت تركض إلى جوار سيدتها ..

وعندما وصلت « بنيلوب » إلى كنيسة القديس « مينا » توقفت ثم رسمت علامة الصليب وغمغمت : « عزيزى القديس مينا .. أنت تعرف ما أريده .. ساعدنى ! » ..

وارتفعت صرخات وضحكات ، وامتلات الساحة بالأطفال .. فقد دق الجرس .. اندفع التلاميذ إلى المدرسة ، وقفز قلب « بنيلوب » . وظلت واقفة مكانها تنظر إلى الأطفال فى اعجاب ، وتقول : « آه .. لو لم يكن ذلك عيب ديمتريوس وليس عيبى أنا ! سامحنى يا رب ! » ..

وغامت عيناها للحظة ، مر بخاطرها أولئك الشبان الذين رأتهم فى الشوارع وفى القرى وفى الأحلام .. وتمتمت لنفسها : « سامحنى الله ، ولكنى أظن أن زوجة باربايانيس برجالها الذين يعدون بالآلوف .. على حق .. ترى كم من الرجال أنجبت منهم ! الله وحده يعلم وممن أنجبت جارتى كاتينيسا زوجة كرا وچورجيس ! وباربايانيس يحاول أن يسد أذنيه ، ولكن برغوثاً يظل يطن فى أذنيه على الدوام ، كان يرى قرينه بعينيه ! ويلمسهما .. ويحس بهما ! .. ولكن .. ماذا كان بوسعه أن يفعل ؟ مرة واحدة فقط - عندما كان مريضاً - استدعى زوجته وقال لها : « يا

زوجتى .. بحق الرب .. وبحق ما تؤمنين به .. أصدقيني القول : هل كل الأطفال الذين أنجبتيهم .. أولادى ؟ ..

ولكن زوجته لم تحر جوابا ..

- « أخبريني يا زوجتى .. أنت ترين أننى أموت .. مم تخشين إذن ؟ » ..

فقالَت الزوجة :

- « وماذا لو لم تمت ؟ .. لنفرض أنك لم تمت ؟ » ..

وضحكت بنيلوب وهى تتذكر ذلك .. ثم أفسحت الطريق جانبا لكى يمر أطفال المدرسة ، ونظرت إلى « تارسوس » الصغير ، ابن جارتها زوجة الكابتن ، ونادته وهى تنتظر نحو السلة لكى تعطيه برتقالة : « تارساكى .. تارساكى ! » ..

ولكن كيف يستطيع تارساكى أن يسمعها ؟ لقد كان يضع يده فوق كتفى زميله .. « مانوليس » ابن « ماستراياس » عن يمينه .. و« أندريكوس » ابن « كراسوچورجيس » عن يساره .. وكانوا جميعا يغدون وهم يثرثرون ويضحكون وكانهم لا يتعبون من اللهو ، بالأسف فقط قذفوا خردقة صغيرة على مدخل المدرسة فى اللحظة التى أدار فيها « تيتيروس » ظهره وتهايا لتعليمهم الاغنية التى كان ينبغي أن يغنوها يوم الأحد التالى : « جاء الربيع ومرة أخرى عادت الزهور ! » ولحظتها ارتفع صخب التلاميذ .. ووجد « تيتيروس » فيها صوت مادة للدعابة الهامة ، فرفع مقرعته وقال : « يا أولاد .. هيا بنا إلى الفناء .. جميعا .. ولتغنوا هناك ، حتى إذا كان بعد غد وذهبنا إلى الأقباء الثلاثة » .. لم نفصح أنفسنا .. إلى الأمام ! ..

وقادهم بنفسه رافع الرأس .. ولكن ما أن خطا خطوتين فى صرامة عند مدخل المدرسة تزلحق وسقط فوق الأرض مثل الجرة .. وانسحقت عويناته الى قطع صغيرة ..

وتسأل أندريكوس ألم تحطم عظامه أيضا ؟ ... وكأنه يريد أن يطمئن على أنها لم تخرج سليمة ! ...

ولكن كارساكى أجابه مؤكدا : « لقد مات .. أقول لك إنه مات .. ألم

تسمع وقع السقطة ؟ .. لقد كان صوت عظامه » ..

وقال مانوليوس وهو يفرك يديه فى سرور : « وهل سمعت صرخته ...
اوه ! .. لابد أن عظام وركه قد تحطمت - فهو لم يستطع النهوض ، لقد
صرخ .. أه .. أه .. ، ثم أخذ يبحث عن نظارته » ..

- « ذلك يعنى أننا أحرار الآن نستطيع أن نفعل ما نريد .. اتفقنا ؟ » ..

وصاح الزميلان « اتفقنا ! » .. ومرتبحذائهم كلب ، فالتقطوا حجارة من
الأرض وانطلقوا خلفه ..

... وقريبا من « التكية » المجاورة للباب المؤدى إلى القديس ميناس ،
سمعوا ضجيجا وصخبا .. فتوقفوا ...

وقال تارساكي : « حميده مولا تضرب أفندينا ؟ فلنتنظر فقد نرى شيئا
مسلما » ..

ووقفوا على أطراف أصابعهم ليتمكنوا من الرؤية من خلال الشباك فى
الحائط .. وكان الغناء الفسيح المزروع بالأعشاب يمتد أمامهم .. وفى
الوسط منه يقوم قبر القديس مزيئا بأشرطة من أقمشة ملونة ، وبالقرب من
الضريح كانت الأم المرسله الشعر بأنفها الممتد كطرف حربة .. كانت
تقبض على عنق ابنها بإحدى يديها .. وبالأخرى عصا ذات أطراف
كالشوكه .. كانت تصيح فيه مهددة :

- « ألا تخاف الله ؟ أنت لازلت تتردد على بيوت هؤلاء اليونانيين حيث
يقدمون لك لحم الخنزير ويجعلونك تشرب النبيذ ويدنسوك ، سوف أحبسك
أيها الغبي الملعون وسوف أضربك بلا شفقة .. ولن تذهب ! » ..

وحاول أفندينا التملص والفكك من مخالب أمه .. وصرخ كما لو كانت
مقبلة على قتله وصاحت الأم وهى تهزه بعنف :

- « لن تذهب ! أنسيت العار الذى جلبته على نفسك فى كل مرة ذهبت
فيها إليهم ؟ وعندما تفيق تعتذر وتعوى ! ثم تلقى قبعتك فتبدو القرحة ،
فتلوتها بروث الخيل وتجرى فى الشوارع وتنهق كالحمير ، وهؤلاء
اليونانيون يرمونك بقشر الليمون ويطلقون عليك اسم امرأة .. انهم
يسمونك أفندينا « أفندينا روث الخيل » ! .. ألا تخجل وأنت أمام هذا
القديس .. أمام جدك » ..

هكذا كانت تهيئه بحدّة وهي تشير إلى الضريح بخرقه الملونة البراقة
وصاح أفندينا ويداه مرفوعتان :

- أنا أفكر فيه ليلا ونهارا .. أقسم انه لا يغيب عن بالى ليلا أو نهارا .
- لماذا إذن تدنس نفسك ! ..

- ألا تريد أن أصبح قديسا ؟ قديسا مثل جدى ؟ كيف بحق الشيطان
تتوقعين أن أصبح قديسا إذا أنا لم أمارس الخطيئة ؟ إذا أنا لم أقع فى
الخطيئة فكيف أعرف الندم ؟ وكيف أبكى ؟ وكيف أتوجه إلى الرب ؟ وكيف
أظهر قروحي ؟ كيف إذن بحق الشيطان أصبح قديسا ؟ ..

ووقفت حميده مولا فاغرة فاهها ، وبدأت تحديق فى أبنها ، ثم فى الضريح
ثم لزمت الصمت ، ربما كان ابنها الاحمق هذا على حق .. ربما كان حقا
هذا الذى سمعته عن الرجل العجوز .. القديس .. جد أفندينا .. لقد سمعت
أنه قضى حياته منغمسا فى اللذات وعندما تغض وجهه وأصبح عاجزا عن
تناول الخمر واللحم والنساء .. سقط فى القدسية ! .. وقد ارتقى مئذنة
« أجاكاترينا » ورفض أن يهبط أو يأكل ويشرب ، وظل يبكى ويضرب نفسه
ويبتهل إلى الله ، ظل يصبح سبعة أيام بلياليها ، ثم صرخ صرخة قوية
وقف لها شعر سكان « ميجالوكاسترو » وطارت الغربان فى السماء ، وأنزل
الله عليه رحمته فأرسل اليه الطعام حتى يبعد عنه الموت .. الا يمكن أن
تكون هذه أيضا هى نفس سبيل ابنها الى أن يصبح قديسا ؟

وأحست « حميده مولا » بالحيرة ولم تعد تدرى أتستمر فى ضرب
عزيرها أو تجلس القرفصاء فى ركن فناء بيتها لتستمتع بالشمس وهى التى
بدأت ترتعش .. وألقت العصا بالقرب من الضريح ، واسترخت أظافرها
التي كانت تقبض عنق أفندينا ، ثم رفعت قبضتها ملوحة له .

- أغرب عن وجهى ! ليتخطفك الشيطان . افعل ما شئت .. كل واشرب
وارقص هنا وهناك ، ثم عد وضع روث الخيل فوق قروح رأسك .. !

قالت ذلك واندفعت فى قلق نحو ركن الفناء المشمس ..

وقال « أندريكوس » :

- يا لسوء الحظ ، إنها لم تمزقه إريا ..

وقال « تاراساكي » :

- فقط انتظر .. وسوف يقوم ابي غدا بهذه المهمة ..

ثم وكز صديقه بكوعه وقال :

- هيا .. وغدا عند الغروب سوف نبرم ما اتفقنا عليه أنا أدعوك ، ولا تنس أن تحضر المقلع وسوف أحضر أنا حبلا ..

قال « أندريكوس » :

- سوف أحضر عصا .

وقال « مانوليوس » :

- وأنا سأحضر وتدا .

- وسوف ندعو « نيكولا » ابن « فورد جانوس » أيضا فإن يديه قويتان ،
وتساعل « مانوليوس » وقد توقف مكانه :

- ولكن ماذا يحدث لو أن أباهما رأنا ؟

وقال « تاراساكي » فى ضيق :

- أف .. ! وماذا لو رأنا ؟ .. أهو قادر على أن يضرب أى شخص ! ..
إنه ليس كريتيما ولكنه من « سيرا » ..

فقال « أندريكوس » :

- ولكن .. هل سنقدر على الإمساك بها ؟ إنها تزن طنا كاملا .. هب انها
صرخت ؟ ..

وعبس « تاراساكي » وقال :

- اسمع يا أندريكوس ، أمور كهذه تحتاججج إلى قلب ثابت ، اليس لك
قلب ثابت ؟ إذا لم يكن لديك فإخرج من اللعبة .. وسوف أرى من يحل
مهلك .

فقال « أندريكوس » وقد أحس بأنه قد جرح :

- أنا ؟ إن قلبى مثل الجبل ..

فصاح تاراساكي وهو يحث الخطى :

- سنلتقى غدا ..

وأصبحوا قريبين من المدرسة فقال « تاراساكي » أمرا :

- اهدعوا الآن .. ولا تبج بكلمة واحدة ، وإلا فسوف تندم ! غدا يسكر أبى ، وأصبح أنا حرا وأستطيع الخروج .. وقل أنك ستخرج للخدمة المسائية ، وسوف تعطيك أمك نقودا ، توقد بها شمعة ، وسوف نشترى بها حمصا ..

وقال « ماتوليوس » مقترحا :

- ونأخذه معنا إليها ..

فصاح « تاراساكي » :

- غبى ... ! ولماذا نأخذه لها ؟ .. نأكله .. !

فى نفس اللحظات كان الكابتن ميخائيليس يمر بمهرته بحذاء الجبل الظالم والعصابة التى يعصب بها رأسه قد انحدرت حتى حاجبيه ، وعلى يساره البحر المزبد ، وعلى يمينه صخرة .. صخرة كأنها الحديد .. الجبل الموحش العارى .. الجبل الملعون الذى حين يمر به الكريتي فيرسم علامة الصليب وهو يسب تركيا .. ذلك أنه فى أى ثقب منه ، وفى شق تبحث فيه ؟ .. سوف تجد عظام كريتيين ذبحهم الأتراك ..

ورسم الكابتن ميخائيليس علامة الصليب على صدره ، فمئذ ثمانية أعوام مضت قتل أخوه « كريستوفيس » وولده ، وبعدها ظل الناس أياما يتتبعون الغربان حتى وجدوا جثثهم الثلاث داخل ممر صخرى ضيق ملقاة أحداها فوق الأخرى ، وكانت السننتهم مفقودة .. كانوا يركبون دوابهم كل إلى جانب الآخر فى المساء وهم سعداء ينشدون نشيد موسكو ، كان ذلك يوم تعميد « تاراساكي » وكان الأخوة وأولادهم فى الطريق إلى بيوتهم بعد أن شربوا وسعدوا بوقتهم ، ولحظتها لوحوا نحو الأفق ، وصاحوا يطمنون أن يدركهم الموسكوفيون .. وكان الأتراك فى انتظارهم .. قوئوا عليهم من كمين أعدوه ، وقطعوا السننتهم .

وغمغم الكابتن « ميخائيليس » وهو يلکز مهرته : « أيتها المنبوذة كريت !

كم من الأجيال انقضت وأنت تبكين أيتها الأرض سيئة الحظ .. ومن ذا الذى استمع إلى بكائك ؟ حتى الرب محتاج إلى تهديد لكى يصنع معجزته .. إن الأقوياء فوق هذه الأرض يحتاجون إلى تهديد جيد .. اقبط بيدك بندقيتك مرة أخرى أيها الأحقق ، فهى وحدها التى ستصبح الموسكوفيين المنقذين ! .. ولاشئ غيرها ! » ..

وتتهدد .. أتابع سيره بعينين كابيتين ، بعيدا وفى بطنه عن البحر داخل السهل ، ومن السهل داخل الجبل ، ثم مالبت خياشيمه أن تمددت ، لقد تعطرت وهاد كريت بالصعتر والمريمية .

وغمغم الكابتن : « كم هى جميلة كريت .. كم هى جميلة ! .. أه .. أه لو كنت فسرا كيفما استمتع بمنظرها الشامل من ارتفاع شاهق .. » ..

والحق أن النسر يمكن أن يشاهد جمال كريت ويعجب به .. يعجب بالطريقة التى يرتفع بها جسدها المحبوك فى اتزان .. الطريقة التى يبرق بها سواحلها .. مرة فى رمل أبيض .. وأخرى بين رمل أحمر كالدم ، جبال خالصة داخل البحر ، ولسوف تغمره البهجة وهو يرى القرى والمزارع الضخمة والأديرة والكنائس الصغيرة التى تتوهج فى مواجهة الصخرة الحديدية الداكنة أو التى تقف ثابتة فوق التربة .. وفوقها كاتيا ، وريثمينو وميجالوكاسترو .. مدن ثلاث معذبة ظلمها الأتراك بحوائطهم الفينيسية وبأعمالهم التتريك فى الكنائس ..

والله أيضا - وهو أعلى من كل بشر - لابد أن يرى نفس المشهد إذا لم يكن سبحانه قد نسى كريت أجيالا وراء أجيال وأسلمها روحا وجسدا إلى أيدي الأتراك !

لا .. بل أسلم الجسد فحسب ، فقد قاوم الكريتيون ، وغلوا دائما بالغضب .. ورفضوا أن يضعوا خاتمهم تحت خاتم الله الخلم يكن ذلك من العدل فى شئ ! ورفعوا أيديهم إلى السماء وصاحوا « ظلم ! » ووطنوا أنفسهم كمسيحيين طبيين على أن يرفعوا ذلك الظلم الإلهى الذى لا يحتمل ، والله ذاته محارب أيضا .. أ يكون مشغولا عنهم لأنه يدير حربا فى مكان ما ، فوق كوكب ما ، ضد أتراك آخرين ؟ ! .. لسوف نظل نتأديه سبحانه حتى نسمعنا ..

هناك شعوب وأدميون يدعون الله بالصلوات والدموع أو بضبط النفس المنظم والمعقول .. بل ربما لعنوه .. أما الكريتيون فقد دعوه بالبنادق ، وقفوا أمام بيت الله وأطلقوا بنادقهم حتى يسمعهم سبحانه ، وأصاب « التمرد ! » السلطان فى الصميم عندما سمع لأول مرة صوت الطلقات .. وسرعان ما انتابه الهياج والغضب وأرسل الباشوات والجنود والعصابات ، وصاح الفرنجة « إهانة ! » ، وأطلقوا سفنهم الحربية ضد اللحاء الهزيل الواقع بين أوروبا واسيا وأفريقيا الذى خاض فى شجاعة حرب الموت وأعلنت « هيلاس » الأم المتسولة وهى ترتعد ، تذرعوا بالصبر ، ولا تلقوا بى فى مذبحه ! .. وأجاب الكريتيون فى صوت يصم الأذان وهم أمام باب « الرب » « الحرية أو الموت » ..

فى البداية مدت ذلك مرة واحدة فى جبل واحد ، ولكن فى النهاية - وبعد الثورة الكبرى فى عام ١٨٢١ ، ارتفعت حدة الصخب ، وأسرع السخط خطاه ، وابتلع قلب كريت الإهانة والاحساس بالظلم ، والمعاناة حتى اتضح وقاض الكيل فى النهاية فانفجرت كريت فى وجه الوحش المخيف الذى تقبض مخالفه على سجينه ، فافنت جسدها وأحرقت قرارها وخربت حقول زيتونها وعينها ، وتكومت الجثث فوق سهولها العارية مرتفعة تصل إلى أعقاب الله ، ثم عادت .. تنزف من آلاف الجراح .. عادت إلى مخالف الوحش . كان ذلك فى سنة ١٨٦٦ فى زمن أركادى .. ثم حدث انفجار ثان فى سنة ١٨٧٨ وعادت كريت لتسقط مرة أخرى فوق الأرض ، وبدأت تصبح أكثر استعدادا لابتلاع الظلم واليؤس .. والآن - وفى بداية عام ١٨٨٩ - بدأ قلب كريت يقترب من الانتفاض والفيضان ، فى القرى كان الكريتيون يديرون وجوههم ويرفعون قبضات أيديهم ويحدثون فى اتجاه الشمال .. فى اتجاه اليونان .. وإلى أبعد من ذلك فى اتجاه موسكو ، استيقظ الآباء فى صدورهم فتململوا ولم يعودوا يحتملون البقاء داخل بيوتهم وقراهم فى راحة وسكون ، كان النوم قد جفاهم ، فى كل يوم أحد كانوا يستدعون المدرس والقسيس وعازف القيثارة ليغنى لهم همومهم هموم كريت ، ولكى يذكرى أوار غضبتهم ويقفز بها إلى الرؤوس ، ودائما عندما كان يهجم الربيع .. وعندما تمتلئ الحقول بالدفاء ، وعندما تدفعهم القوة الفائضة .. كانت قلوب الكريتيين تزداد ضراوة .. وكان الاتراك يعرفون ذلك ويبعثون بالأوامر - وبالجنود - لابقائهم داخل بيوتهم .

وتورم قلب الكابتن ميخائيليس ، ولم يعد قادرا على احتمال يؤس
« كريت » أكثر من ذلك ، غرس المهماز فى بطن المهرة وركض بها بحذاء
« الجبل الظالم » حتى وصل إلى تربة حمراء ، ثم اتجه فى طريق
الشاطئ ، وأحس بالجوع ، فانهدر نحو فندق الأرملة ، وجاءت صاحبة
الفندق - أرملة حاذقة طروب كثة سميكة فاحت منها رائحة الرطوبة .. رائحة
البصل والكراوية وعبرها الكابتن ميخائيليس بنظرته ، فلم يكن يحب النساء
المتقلبات اللأى يهززن أردافهن ، وظل يحدق فى الطريق أمامه وفى
البحر ..

وقالت الأرملة وهى تغمز له بفن : « مرحبا بالكابتن ميخائيليس نحن
لانراك إلا لماما ! إذا لم تكن على عجلة من أمرك فعندى أرنب مطبوخ
بالبصل الطازج والكراوية » ..

وانحنت تجهز له مقعدا فأنكشفت خطوط صدرها المرحب .. متدليا
رطباً ..

قالت وهى تغمز له مرة أخرى :

- يجب أن تأكل لحما يا كابتن ميخائيليس ، فأنت على سفر وهذه ليست
خطيئة ولكن الكابتن ميخائيليس كان غاضبا ، كان يكره هذه المرأة
وطعامها .. وكره لحظتها حتى جوعه ، وقال :

- لن أكل شيئا لست جوعان !

ثم قفز فوق ظهر المهرة .. وحث الركض أسرع .. ترك الجبال خلفه ،
وأصبح فى السهل ، بخضرتة الأمانة الجلييلة ، وطنين النحل فيه ، وزقزقة
الطيور وهى تعود فى ثقة إلى أعشاشها الكريتية نفس أعشاشها فى العام
الماضى ، اليوم أول أبريل تشع كريت بالبهجة تحت أشعة شمس الربيع
الناعم ، ولكن الكابتن ميخائيليس لم يكن يرى ذلك حث الخطى إلى أين يا
ترى ؟ من الذى كان يقتقى أثره ؟ لقد غطت مشاعره سحابة داكنة ، كان
الساحل الذى تغمره أشعة الشمس مظلما ، وكان الطريق يمتد أمامه وكأنه
النهر ، وكانت جبال « لاسيثنى » تبدو أمامه متبخرة متماوجة كالدخان ، ومر
به فلاحان فوق ظهري حماريهما ، ورفعا أيديهما إلى صدريهما يحييانه ،
« أطال الله عمرك يا كابتن ميخائيليس ! » ولكنه لم يرد على نظراتهما

وتحيتهما ، فقد كان ذهنه مشغولا وبقصر « نوري بك » - كان ذهنه يحوم حوله يسمح حوائطه العالية مثل اللص .. كان يحسب كيف وأين يستطيع أن يقفز من فوقها ليصبح في الداخل ، ولكن ذهنه تعب ، ولم يعد يستطيع أن يعرف ماهي خطوته التالية إذا هوقفز وتسلل داخل الحديقة ! .. تحدر العرق على حاجبيه ، ودس يده في زناره ولمس مقبض الخنجر وغمغم يقول لنفسه : « هذا الكلب على حق ، واحد أو آخر منا يعني الكثيرين » ..

وعندما استل الخنجر وتسلق السور المرتفع في جراءة وانحدر إلى الحديقة متسللا بين أواني الأزهار حيث كان المصباح الأحمر الأخضر لا يزال مشتعلا ، سمع فوق رأسه وخلف سلك الشباك ضحكة ، وفي الحال تصبب العرق غزيرا ، فوق عنقه من حاجبيه ومن كتفيه ووضع أمامه شيء أنه لم يقتحم المنزل ليقتل إن شيطانا قد تلبسه ! .. شيطانا جديدا يختلف تماما عن الشياطين من جنسه ، شيطان حقير يجله العار وتفوح منه رائحة المسك ووجهه - يا للعار ! - وجه امرأة .

وغمغم في أنين : « ألا تخجل من نفسك يا كابتن ميخائيليس ؟ .. ماذا جئت تفعل ! » .

ورأى أجداده يقومون من قبورهم ليلعنوه فانكمش إلى الوراء ورفع قبضته وصاح : « أيها الأجداد فلتظلوا داخل حفركم في الأرض ! أما أنا فحي أنا قائد ! .. لا تصرخوا في وجهي ! » .

ومسح العرق من فوق حاجبيه بعصابة رأسه وتماسك ، وعادت الجبال أمامه واضحة المعالم ثابتة ، وعاد الساحل يتلالا ، وانتصب النهر أمامه فأصبح مرة أخرى طريقا كما كان ، وعاد فتذكر لماذا اتجه إلى باب المستشفى وما الذي أراد أن يفعله ، لقد أعطى وعدا للبك ، وينبغي أن يفي ، كان في طريقه ليرى شقيقه ماتوساكاس في « آي - حانى » إلى هذه القرية الفسيحة بجذائرها والتي تبعد مسيرة ساعة من القرية الكبيرة ، « بيتروكيغالو » التي جاءت أسرته ، ألقت المقادير بشقيقه « ماتوساكاس » منذ عدة سنوات مضت ، مثل حبة نبات وهناك ألفى جذوره وأينع ، والآن - ومثل شجرة البلوط بفروعها وأغصانها ، أصبح له أطفال وأحفاد يفرخون على طول القرية وعرضها ويستمدون الغذاء من تربتها ..

لى يوم لا ينسى - في الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٨٦٦ - وكان

« مانوساكاس » يمسح الأرض مع رفاقه بحثا عن الأتراك ، اقتحم قرية « آى - جانى » ووجد فى بيت فلاح هناك امرأة صغيرة مسدلة الشعر ، راكعة فوق الأرض ، وكان الأتراك قد ذبحوا زوجها للتو على عتبة البيت ، وكانت حديثة الزواج وكانت تلعن الرب ، إنه ظالم ، إنه يحب الأتراك ، وحدق « مانوساكليس » الذى كان فى الأربعين من عمره وكان قد فقد زوجته منذ سنتين ، حدق فى الأرملة الصغيرة .. وأحس بأن قلبه قد ضاع منه ! ترك رفاقه ليستريحوا ويأكلوا فى الغناء بينما اتجه هو إلى البيت وقد لوثة البارود الأسود .. وطال شعره كالمتوحش . وعندما رآته الأرملة تملكها الفزع ، وصاحت وهى ترتعش وتخفى وجهها فى حجرها : « يا إلهى المقدس ! » .

ولكنه حاول قدر طاقته أن يبدو رقيقا .. ثم اقترب منها وقال :
« أبك يا امرأة .. أبك نفسك وخففى عن قلبك ، أنا الآخر كانت لى زوجة وقتلها هؤلاء الأتراك الكلاب ، أنا أيضا أعولت وذرفت الدموع وخففت من قلبى » ..

ثم تهالك بالقرب منها ، ولاحظ كيف أنها كانت تلمطم وتعوى ، فانتظر ، ثم حدق فيها وبدأ يحس بقلبه يرتجف بالحنين ، آه .. آه لو استطاع أن يضمها بين ذراعيه ! .. لم يشعر « مانوساكاس » من قبل بشوق إلى امرأة مثلما أحس به وهو يرى هذه المرأة بعنقها العارى الساخن المهتز وهى

راكعة وألقى بيده فوق كتفها فى نعومة وجذر فى رقبة :

« حسبك .. حسبك ، سوف تؤذين عينيك يا امرأة .. أأست أسفة عليها هاتان الجميلتان اللتان ، لم يخلق مثلهما فى الدنيا .. أعلمى يا امرأة أنني عرفت الدنيا - أنا الكاتب مانوساكاس ، الذى يركع الآن أمامك لن أكون مدعيا ، ولكن تستطيعين أن تسألى عنى أى مخلوق ابتداء من كيساموس حتى سيثيا ، وسوف يخبرونك من أكون » ..

ثم سكت فقد خشى أن تبعد عنه كلمة زائدة واحدة ، هذه الأرملة إذا تملكها الرعب مرة أخرى ، ولكنه لم يكن يستطيع الاحتمال ، فاقترب منها أكثر وانحنى فوقها وبدأ يحكى فى صوت هامس كالغناء عن الأشياء التى رأها والتى عاناها وكيف أن كثيرا من الأرامل واليتامى تركوا يعانون نفس

العذابات ، وكيف أن دموعا عزيزة ذرفت .. من طرف كريت إلى الطرف الآخر - دموعا كالنهر .. كانت تلك محاكمات كريت ، وكل من ولد كريتيا ينبغي أن يعلم بها ولا يجفل .

ورفعت المرأة رأسها فى بطن .. وكأنها تافت إلى أن تسمع عن المحاكمات وعن الآلام التى فى الدنيا ، وكان ذلك قد أسكن من روعها ، فمسحت عينيها ونظفت رقبتها وبدأت بدورها تحكى كيف قتلوا زوجها ، ثم رفعت يدها وأشارت إلى الدماء التى كانت لاتزال على عتبة البيت وقالت انها تنوى ألا تغسل هذه الدماء حتى تظل دائما أمام بصرها .. فتذكرها .. وتبكي امامها ..

ولمسها « مانوساكاس » فى رقة .. لمس كتفها .. ثم شعرها .. ثم ركبته .. فى رقة بالغة ثم قال :

- « أنت على حق يا امرأة ، أنا أيضا فعلت نفس الشيء على زوجتى الحبيبة ، لقد اغتالوها فى فناء البيت انتقاما منى لأن زوجها قاتل ، وامتلا الفناء بالدماء ، ولكن الأمطار جاءت وغسلت الدماء ، وعادت الصخور مرة أخرى بيضاء » ..

ثم تنهد وانحنى فوق الأرملة :

- « إن روح الرجل أيضا مثل الحجارة يا امرأة ، وشيئا فشيئا ، سوف تغسل الدماء .. وينسى كل شيء » ..

وعندما رأى المرأة وقد بدأت تغضب لمثل هذه الكلمات ، أمسك بعباءته الدافئة التى كانت تتصاعد منها رائحة البارود ، ثم وضعها حول كتفها ، وقال :

- « لقد برد الجو .. دفئى نفسك حتى لاتصابى بالبرد » .. ونظرت إليه .. وأحسست بالخجل كما لو أن رجلا قد وضع نفسه فوقها ، وودت لو ألقت العباءة ولكنها كانت تخشى أن تؤذى مشاعره ، فانحنى وأحسست فى البداية برعشة ، وشيئا فشيئا بدأت تحس باحتياج عاطفى عذب وهى تشم رائحة رجل تنفذ إليها من الرداء الصوفى وتتسلل إلى جسدها .. من كتفها إلى ظهرها .. إلى فخذها .. إلى كل قطعة من جسدها ، وتذكرت زوجها ، وأول عناق بينهما ، وذراعيه وكيف تسللت فى

نعومة وابتهاال داخل جسدها فى الليلة الاولى ، واحست بمزيد من الدفء والارتياح والعبادة تدثر كتفيها ، واحست بأنفاس الرجل فوقها لاهثة بعنف وغلبتها عاطفة حلوة فاستدارت نحوه وقالت :

- « ليس لدى شىء تأكله - ولابد أنك الآن جوعان ، أنت قادم لتوك من القتال ، ولكن هؤلاء الكلاب الاتراك سلبوا كل شىء .. »

- « لا أريد أن أكل يا امرأة .. الله يابى ذلك ! كيف أكل أنا وأدعك جائعة ؟ إذا لم تتذرعى أنت بالشجاعة وإذا لم نأكل معا فأقسم بالله الذى به أومن - أن أموت من الجوع معك .. »

وخشى أن تبعده عنها مثل هذه الكلمات القوية ، فسعل ، وهو يحس بأنه قد عجز عن أن يصلح ما قد يكون أفسده ، ثم مال بث أن قال :

- « لاتغضبى منى لحديثى معك بهذه الجراءة ، ولكن : ماذا أقول لك ؟ وكيف أقول ما أريد ؟ لن تصدقينى ! »

ثم عاد فتنهد وبدأ يلف سيجارة ، ولكنه مال بث أن توقف فقد أحس بالحيرة والضياح ، ورفعت المرأة أهدابها الطويلة المبللة بالدموع وحدقت فيه ، كانت تريد أن تسأل ، ولكنها كانت خائفة ، وتاقت نفسها إلى أن تسمع ما يريد أن يقوله ، ولكنها كانت تحس بالخجل .

وعاد « مانوساكاس » يتكلم :

- « إنه لشىء مخجل حقا ، ولكنى لا أستطيع معه صبرا ، سوف أقول لك الحقيقة كل الحقيقة .. وبأمانة ، وأرجوك بحق الله ألا تسيئنى التفسير ! وإذا كنت كاذبا فليعجل الله بصاعقة تحرقنى ! بمجرد أن جئت إلى هنا ورأيتك تبكين ، أحسست كما لو أن سكيناً قد انغrust فى قلبى ، أنا أقول الحق يا امرأة ، لقد أصابنى الشلل فلم أرفى حياتى مثل هذا الجمال ! أنا أعنى تماما ما أقول ، لاتغضبى ، ولاتقومى وتهربى من أمامى ، هاك ، لن المسك ، معى ما أريد أن أقوله هو أن زوجك العزيز قد مات .. انتهى ، وزوجتى العزيزة أيضا ، قد ماتت وانتهت ، ولكن كلينا باقى وحده فى هذه الدنيا .. تعالى حتى أركاك .. »

وبكت الاملة الصغيرة .. ومالت منكبة فوق ركبتيها .. وكانت أسنانها

تصطك وجسدها يرتعش ، ونهض مانوساكيس واتجه إلى الباب ليدع المرأة وحدها لحظة يمنحها فيها الفرصة لتتماسك ورأى رفاهه معدين في الفناء ، وقد فتحوا زكائبهم ، وجلسوا يأكلون ، ووراء الفناء ، رأى الحقول الخصيبة ، وأشجار الزيتون ، أثقلتها الثمار ، وطواحين الهواء تدور وهي تنز في سلام ، وغمم «مانوساكاس» وقد وصل إلى قرار :

- « ... هنا سوف ألقى جذوري ، هذه التربة جيدة ومثمرة ومثلها هذه الأرملة ، هي أيضا جيدة ، رطبة ومثمرة ، وسوف تلد أطفالا أقوياء ، أنا أحب هذه المرأة ، وهنا سوف ألقى جذوري أفيحق هذه الشمس التي ترى فوقى كل شيء .. لن أتحرك من هنا » ..

وعندما عاد ليرى حال الأرملة الصغيرة ، وجدها قد أحكمت أزارها ونظمت شعرها ، وعضت شفتيها وبللتها بلسانها لتبدوا حمراوين ، بينما العباءة لم تغادر كتفيها ..

قالت في خبث وهي تدير عينيها :

- « كابتن «مانوساكاس» .. ا هذا الذي قلته لم يكن ينبغي أن تقوله ، كذلك فاصنع عما قلته أنا أيضا ، وإذا كان ذلك صحيحا فهي خطيئة كبرى ، إن دم زوجي العزيز لايزال دافئا على عتبة البيت .. » ..

وتتهد «مانوساكاس» وخطا خطوتين ثم قال وهو يتهرب من ذلك الحديث :

- « لو كان لدى فقط قضة خبز أو جرة نبيذ ! - كذلك - إذا سمحت - فانا قادرة على أن أفعل ذلك بنفسى - ثبتى هذا الزرار المتدلى من سترتى » ..

وصمتت المرأة ، وأحست بالأسى من أجل الرجل ، فنهضت وأحضرت إبرة وانحنى الرجل قليلا أمامها ، ومسحت هي عينيها لترى أفضل ، ثم بدأت تثبت الزرار .. وبينما كانت تفعل ذلك كانت تحس بقلب «مانوساكاس» يدق بعنف ورعشة داخل سترته ، وبأنفاسه الملتهبة فوق ركبتيها ..

وأحست بالخلج ، وانتهت بسرعة. تثبتت الزرار ثم نهضت واقفة ،

وفتحت الصندوق .. لم يكن صحيحا ما قالت ، فلم يسرق الأتراك شيئا ! وأخرجت غطاء منسوجا وبسطته فوق مائدة غطاء أبيض ناصع البياض كأنما أضاء البيت ، ثم مضت وأشعلت نارا وبدأت تطهو ، أما مانوساكاس فقد أشعل سيجارا وجذب مقعدا جلس فوقه بالقرب من عتبة البيت كما لو كان هو رجل البيت ، ثم القى بنظرة إلى الخارج ، ولكن أذنيه كانتا مرهفتين إلى داخل البيت ، سمع المرأة تروح وتجيء في انشغال قلب النار ، وتطهو الطعام ، ثم تعود فتجهز السكاكين والشوك والأطباق ، وتعد المائدة سمع ذلك كله وسر قلبه ، ولم يحس في حياته كلها بمثل هذه الراحة ومثل هذا الجوع .. ومثل هذا الصبر . إذن الآن يقينا ! أن هذه المرأة التي لوثها الدقيق .. والتي تطهو من أجله .. والتي سيجلس معها بعد لحظة ليتناولوا وجبة طعام ، سوف تشاركه الطعام والفرش طوال العمر بعد أن تنتهى فترة الحداد على زوجها الميت ! .

هكذا كسب « مانوساكاس » زوجته « كريستينا » وهكذا ثبت جذوره في قريتها ، كانت زوجة صالحة انجبت له أطفالا ، انجبتهم له تواما بعد توام ، وامتلا فناء البيت ، بل أنه الآن أصبح جدا - أصبح له أول حفيد - وشرب كثيرا في الاحتفال بمقدمه .

لاحت « بيتروكيغالو » على بعد - في سفح الجبل وبأعلى المضيق ظهرت « أى - جاثى » قرية « كريستينا » محوطة بالخضرة وحث الكابتن ميخائيليس مهرته ، فصهلت وبدأت تعدو في الطريق .. فقد عرفت القرية هي الأخرى ..

كان باب بيت « مانوساكاس » مفتوحا ، وأشراب الكابتن « ميخائيليس » برأسه ، واندفع بمهرته ، ثم توقف في الفناء وصاح :

- « أخى مانوساكاس »

وكانت الأسرة كلها تجلس بالداخل حول مائدة منخفضة تتناول الطعام ، وكان « مانوساكاس » يستند إلى الحائط وقد علق سوطه قريبا منه ، وفي مواجهته جلست زوجته « كريستينا » القرفصاء سعيدة شاكرة ، وبدأت أسمن قليلا وإن كان صدرها قد تهدل ، فقد أرضعت أطفالا كثيرين ، ولكن وجهها كان لا يزال يتوهج مثل وردة كاملة الإزهار .

سمع « مانوساكاس » صوت شقيقه فقفز واقفا وخرج إلى الفناء مادا

يديه الضخمتين ، وهو يقول : « مرحبا بأخى ، المائدة جاهزة .. زوجة أخيك تحبك .. انزل » ..

فقال الكابتن ميخائيليس :

- « أنا على عجلة من أمرى ، أغلق الباب وسأتحدث معك .

وأغلق « مانوساكاس » باب البيت ليمنع أولاده وبناته من الاستماع إلى حديثهما ثم اتجه إلى شقيقه .

« استمع إلى ما أقوله يا « مانوساكاس » يا أخى ، إذا لم تكن تستطيع أن تصمد للخمر ، فلا تشرب منها شيئا » ..

واكفهر وجه « مانوساكاس » ..

- « لماذا توجه لى هذه الكلمة ؟ » .

- « لأن الله لم يخلق الحمار ليركب الرجل .. ولكنه خلق الرجال ليركبوا الحمير .. أفهمت ؟ » ..

- « نعم .. لابد أن أخاك فى الدم نورى بك غاضبا ، وقد أرسلك إلى لتقوم بعمله القذر .. أم لعلك أنت أيضا يا كابتن ميخائيليس ؟ » ..

- « أنا لم اغضب ، ولا تحاول أن ترد كلماتى فى وجهى - أنت تعرف حقيقة ما أشعر به ، ولكن ذلك لا يخدم قضية كريت ، فالوقت لم يحن بعد لنرفع الراية » ..

ولكن « مانوساكاس » كان قد استشاط غضبا .

- « وعندما تسكر أنت وتغنى أغنية موسكو ، وتقتحم مقاهى الأتراك وتوجه الامانات إلى البكوات وتطرحهم أرضا فهل تفكر لحظتها فى قضية كريت ؟ .. وهل قدمت الأوسمة إلى بيتى لتقوم بدور المدرس ؟ » ..

ثم انحنى والتقط قطعة من الحجارة قذف بها إلى الأرض بعنف وجذب عنان المهرة وقال :

- « ماذا تقول إذن يا كابتن ميخائيليس ؟ هل أنا على حق ؟ لاتلعب على دور القديس أونوفريوس ! » ..

وسكت الكابتن ميخائيليس فماذا ترى يستطيع أن يقول ؟ لقد كان « مانوساكاس » على حق ، فهو نفسه يسكر وحين يسكر فهو لا يفكر فى كريت ولا فى غيرها . إلى الجحيم هذا الاعتدال اللذيذ ! فى مثل هذه الأحوال يمتلئ صهوة فرسه ، ويبدو أمامه العالم كله صغيرا ، وتافها أشبه ما يكون بقشرة بندقه ، ويظل لحظتها يركض هنا وهناك ، ويحس كما لو كان يدوس هذه القشرة بحوافر فرسه إلى الجحيم هذه القشرة !

وقال « مانوساكاس » وهو ينظر إلى الفناء ثم إلى أخيه وقد قطب جبينه وأخذ يحدق فى الجبل :

- « لماذا لا تتكلم ؟ ما الذى يضايقك الآن ؟ .. أنا أعلم ما يدور الآن بداخلك ، استقر على رأى الست ثائرا ؟ قلت لك استقر على رأى .. فذلك هو مصير كريت دعنى أنا أيضا أخذ بثأرى وليحترق هذا العالم ! فى عيدهم الأضحى سوف أخذ بغلتى وأقتحم بها مسجدهم .. ويستطيعون وقتها أن يقتلوني إذا هم أرادوا » ..

- أنا لا يهمنى أن يقتلوك .. ولكن يهمنى ألا تنسحق كريت .

- أحمق ! لن تنسحق كريت فلا تخف ، نحن الرجال الذين انسحقنا ، وليست كريت الخالدة . انتظر لحظة .

ثم قال بعد تفكير :

- « أخى » ...

ثم صمت لحظة وعاد يتكلم ..

- « هذه هى الحقيقة . أنا مختنق داخل هذه القرية ، ألا تفهم ؟ ظللت زمتا لا أستطيع أن أفهم سببا لذلك ، ولكن عندما أشرب .. يصفو عقلى .. ويطفح قلبى مثلك ، أنا لا أستطيع أن أذهب إلى القسطنطينية لأقتل السلطان فدعنى إذن أوجه ضرباتى وأحقق ذاتى كبطل فى قريتى الصغيرة .. دعنى أعمل » ..

وجذب الكابتن ميخائيليس عناق المهرة وأدارها نحو الباب الخارجى وهو يقول :

- « فكر جيدا فيما قلته لك يا « مانوساكاس » يا أخى ، فكر فيه جيدا

عندما تخذل إلى نفسك ، ثم أفعّل بعدها ما يلهمك به الله وما تراه مناسباً
لكريت ، ليس لدى ما أقوله لك بعد هذا .. وداعاً ... » .

- « انزل قلت لك ، وكل شيئاً معنا ولا تكن متعجلاً هكذا ، أى شيطان
يتعقبك ؟ أبق الليلة فى بيتى ، انه متسع والحمد لله وفيه مكان لك .. ابق
لترى أولادى وترى كريستينا .. ولترى أيضاً أول أحفادى .. سأسميه
« ليفتيزيس (الحرية) » فلعله يرى الحرية .. » .

- « انقل إليهم عنى جميعاً التحية ، فأنا فى عجلة من أمرى » ..
- « ألن تدخل القرية لتزور أباك العجوز ؟ » .

- لا وقت لدى قلت لك أننى فى عجلة من أمرى . لدى عمل أقوم به فى
الصباح الباكر .. متعكم الله بالصحة والسعادة » ..

- « أنت عنيد صلب الرأس كالخنزير . دائماً تتفخذ الذى يدور فى رأسك
وإلى الجحيم كل شيء .. ! » .

وغطس كابتن « ميخائيليس » فوق ظهر مهرته وخرج من الباب الرئيسى
وركض بجواده متجهاً نحو السهل ، كان سعيداً ، فقد أعجبه كلام
« مانوساكاس » ، وأعجبه أنه واجهه فى ثبات وكرجل ، وأولا التهاب
المشاعر ، لاحظته كابتن ميخائيليس بذراعيه ، نعم ... أنت على حق يا
« مانوساكاس » فافعل ما تؤمن به وإلى الجحيم كل شيء .. ومهما كانت
النتائج ..

وانطلق مثل البرق حتى عاذ إلى « ميجالوكاسترو » وقلبه يقفز بين
ضلوعه ، فقد وضع لحمه ودمه مرة أخرى موضع التجربة ، ووجده كما كان
يريد أن يجده ..

كان الوقت قد تجاوز الظهيرة وبدأت الشمس تميل ، وعندما علمت نساء
الحى أن الكابتن « ميخائيليس » سوف يغيب طوال النهار ، تجمعن فى فئانه
ومعهن أشغال الابرة ، والمغازل .. والخضراوات ليقشرنها ، بنيلوب
وكريسانتى ، وشقيقه بوليكيديس ، وكاتينيسا زوجة كراسو جورجيس ،
وزوجة ماستراباس كلهن اجتمعن فى أمسية فكهة من أيام السبت ، لقد
انتهى اسبوع ، وغدا يوم راحة وطعام جيد ، وحياة اجتماعية حافلة ،
والحمد لله سبحانه الذى خلق يوم الأحد ..

بدأت « كتيبيستا » الحديث بصوت كالغناء :

- هل سمعت الأنباء الحزينة يا عزيزتى أريقتوزا ؟ مرة أخرى فى الليلة الماضية كانت هناك صيحات وصرخات عند الجيران .. فى منزل « فوروجاتوس » ، كانت زوجته تضربه من جديد ..

وقالت بنيلوب :

- الحمد لله أن زوجى ليس له شارب كشارب فوروجاتوس ، حين تنظرين إليه تحسين بخوف لذيذ - فقد برمه جيدا ، وهذا الشمع الذى يستخدمه يجعله منتصبا مشربا .

وقالت زوجة « ماستراباس » التى تبقى زوجها مربوطا من كاحليه طول الليل :

- « لماذا لا يتبادلان مكانيهما ؟ ينبغى أن يعطى شاربه لزوجته ، ويرتدى هو ملابسها .

وضحكت الأنسة كريسانتى وقالت :

- أمس عند منتصف الليل تقريبا ، كان يبكى مرة أخرى ، وأقام الجيران كلهم على صوت عويله ، وكان أخى يمر قريبا منهم .. فسمعه ، وفى الصباح زاره وقال له : يا فوروجاتوس يا أخى ، لماذا تدع زوجتك تشرط جسدك إلى شرائح ، وأنت لاترفع يدك لتلزمها حدودها ؟ أنت تجعلنا نحن الرجال جميعا نبدو حمقى ، ألا تخجل من نفسك ؟ فماذا تظنون كانت اجابته ؟ .. قال : أنا أحس بالخجل يا كابتن أنا أحس فعلا بالخجل ، ولكننى .. استمتع بالضرب ! .

وضحكت النسوة .. ونهضت « رينيو » وأحضرت الطعام والشراب ، قهوة وطعاما محفوظا وبسكويتا بالسهمسم ، وبينما كانت تخدم شاهدت على عتبة البيت جارهم على أغا بجواريه وأبر الخياطة وحقيته الخضراء التى أعطته أياها « رينيو » وقد وضعها فوق كتفيه .. كان أصلع - بلا شعرة واحدة - وكان يلعب من كثرة الاستحمام .. وكان قميصه الشاحب المرتق مرارا .. ناصعا ، وساقاه الرقيقتان بقباقبهما .. تلمعان .. واستقبلته « كاترينا » فى أدب وقالت :

- « مرحبا على أغا جازنا العزيز .. تعال وتناول قدحا من القهوة » ..

وأجابها على أغا وهو ينحنى لكل واحدة منهم :

- « شربتھا لتوى .. شكرا ، ومعى بسكويت أيضا ومربة كريز ممتازة ..
شكرا جزيلا يا سيدى » ..

وصاحت النسوة فى صوت واحد :

- « أوه .. ماذا دهاك يا على أغا ؟ أشرب قدحا آخر معنا صحبة » ..

وكن يعلمن جيدا أنه عفيف بالرغم من فقره .. كان فقيرا مثل فأر الكنيسة ، ولم يكن عنده لا قهوة ولا بسكويت ولا مربة ، ولا شيء ، كل حياته كانت جوعا فى جوع ، وكان الطعام شاغله الوحيد ، كان دائما يتحدث عن أشياء رائعة يأكلها ، وكان يتلمظ دائما وهو يتحدث ، وجذبت النسوة طرف الحديث فورا فى موضوعه المفضل .. ليتفكهن .. سألته « كيت » وهى تلقى بالكرة إلى الأخريات :

- « وى أشياء جميلة أخرى سوف تأكلها فى الغذاء يا على أغا ؟ يعلم الله أنك ذواقة ممتاز ، وأخالك ستأكل اليوم شرائح من صدور الدجاج » ..

وابتسم على أغا فى ارتياح ، وبلل شفتيه بلسانه وغرس ابرته فى زناره ، ثم بدأ الرجل التنظيف العجوز يصف فى شراهة كيف أصبح الدجاج هزيلا هذه الايام .. وبأى شيء يتبله ، وى « صلصة » ابتكرها .. وكيف حمرها الفرن جيدا فأصبحت فى لون بنى رائق .. تكلم .. وتكلم .. وبلل شفتيه كثيرا .. ثم تنهد :

وكانت النسوة يكتمن ضحكاتهن : يلحفن فى الأسئلة ، ثم يدعنه يستمر فى كلامه :

- ألا تكف عن أكل اللحوم والصلصات يا على أغا ؟ سوف تقسد صحتك ، تناول أيضا بعض الخضراوات من حين لآخر ، أن كثرة اللحم تضرک ..

وقالت زوجة « ماستراباس » :

- سوف أحضر لك هذا المساء طبقا من الكرنب يا جارى ؟
وسوف ترى كيف سيفيد الهضم ، فهذا الخبز الأبيض الذى تأكله لابد

أن يكون ثقيلًا على المعدة .

وأضافت « بنيلوب » بسرعة :

- كذلك فإن كثرة الكافيار يا جارى تتعب الرجل ، سوف أعطيك أنا أيضا طبقا من الزيتون المشرح ، وسوف ترى أنه أفضل ، وأنه سوف يفتح شهيتك كثيرا .

هكذا كان الرجل العجوز المتعفف الفقير مع جيرة من اليونانيين ، يعيش على مثل هذا الاحسان الممزوج بالفكاهة ، وهكذا أمضى النسوة أمسيتهن ، وعندما انتهين من تدبير عشاء « على أغا » بدان حديثا طويلا حول بشائر الربيع فى الريف .. وحول الرجال وكلهم فاسقون .. و- هكذا قالت زوجة « ماستراباس » وهى تتنهد - ولا يجدون لذة إلا فى اللحم الحرام ! أما « كاتينيستا » فقد شكت من أن زوجها يأكل كثيرا ويعلو شخيريه عند النوم فيمنعها هى عنه ! .

كان « مورزوفلوس » حارس الكنيسة واقفا هناك فى برج الجرس بكنيسة « القديس مينا » منذ وقت ليس بالقصير ، وقد وضع يديه بالقرب من أذنيه ينصت إلى طنين « ميجالوكاسترو » وكأنه صادر عن خلية نحل ، وكان فى مقدوره أن يميز صيحات الرجال الوحشية وهم ينادون على بضائعهم ، وطرقات مطارق الحدادين ، وأصوات الشحاذين وهم يغنون بطريقة تبعث على الشفقة ويدقون أبواب الدور ، والكلاب وهى تنبح ، والخيول وهى تصهل ، وذكر الماعز الصغيرة قادمة إلى « ميجالوكاسترو » فى مساء السبت لتذبح .

وفجأة أحس بالخجل لانصاته إلى هذه الأصوات والضوضاء ، فقبض على حبل الأجراس الثلاثة المعلقة فوقه وهو يقول لنفسه مدمدا : « كفى ! .. لقد حان الوقت لكى أتكلم : خمسة وسبعون سنة وأنا أستمع إليك حسبي ذلك » ..

كان من النادر أن يفتح « مورزوفلوس » ليتكلم ، فماذا لديه ليقوله ؟ فكل مالم يكن يقدر على أن يقوله كان ينطق به عن طريق أجراسه الثلاثة فهى افواه ، ولها السنة .. وهى تصيح ، وسرا .. ودون أن يخبر أحدا أطلق عليها ثلاثة أسماء مسيحية : فالأوسط وهو أكبرها سماه « القديس مينا » حامى وسيد « ميجالوكاسترو » وعلى اليمين كان « اليفتيريا »

(الحرية) وعلى اليسار كان « ثاناتوس » (الموت) وكان صوت « أى - مينا » دائما يذق عميقا أمرا يتبعه على الفور « اليفتيريا » حائا مستبشرا لعوبا كأنه الماء البارد ، ثم يجيء « ثاناتوس » متثاقلا شديد الوطأة ، وكانت هذه الأصوات الثلاثة تنبعث من جوف هذا الخادم الأشيب - لتصب فى جوف كريت وتعلن فوق أسطح الكريتيين ، وشوارع الأتراك وقصر الباشا عن الشوق إلى الانتقام وعن تحفز المظلومين المنسحقين .

كانت روح « مورزوفلوس » بأصواتها الثلاثة من الفضة والبرونز ، تجلجل فى انتصار وتبث الشجاعة فى « كاسترو » برغم عبوديتها للأتراك لتحفل بالمهرجانات الأربعة فى السنة ، رأس السنة والفصح ، ويوم القديس مينا (١١ نوفمبر) .. وفى المقدمة يوم القدس جورج .. يوم ميلاد ملك اليونان ..

وجل « مورزوفلوس » خيالاته ، بأكاليل الفارليحيى « القديس جورج » وقد وصل إلى « كريت » وهو يمتطى جوادا أبيض مطهما ، ويرتدى ثوبا وصدرية حريرية وحول وسطه حزام جلدى وغدارتان فضيتان ، وينتعل زجا من الأحذية المنقطة أيضا « بشراريب » حمراء وخلفه على ظهر الجواد جلست فتاة صغيرة .. ابنة الملك .. الحرية ، وهى ابنة من أثينا ، وفى كل عام وفى الثالث والعشرين من ابريل على وجه التحديد ، يهبط القديس جورج أرض ميجالوكاسترو ويكون مورزوفلوس هو أول من يراه وهو معلق أجراسه الثلاثة كالراقص .. يراه قادما من الميناء فيحييه برقة يذهل العقل من أجراسه الثلاثة ، القديس مينا .. والحرية .. والموت .

ولكن « مورزوفلوس » كان مكتئبا اليوم ، فاليوم هو أول ابريل ، وقد مضت خمسة وسبعون سنة - كيف مرت يا ترى ؟ - منذ أن ولد . وأحس لأول مرة أنه بدأ يكبر ويشيخ ، وخشى أن يدركه الموت دون أن يشهد يوم تحرير كريت ، ترى ايجىء أحد غيره ليدق هذه الأجراس فى مثل هذا اليوم المقدم ؟ .. أبدا .. إن روح مورزوفلوس لا تستطيع أن تتحمل ذلك .. أبدا .. حتى لو قبضنى الشيطان فسوف انطلق فى هذا اليوم من قبرى اللا متناهى العمق وسوف اتعلق بالأجراس وأبدا الرنين .

ورطب جبهته المعجدة اليابسة الجلد ، عرق بارد ، ترى هل سينطلق فى

وقت مناسب ؟ .. وارتعشت يداه وبدأ يلهث بعنف وهو يدق أجراس المساء .

وهناك فى أسفل .. فى فناء الكابتن ميخائيليس حيث كانت النسوة يثرثرن عن الرجال والنساء ، وحيث كان على أغا يشرح للنسوة اليونانيات كلمات النبى محمد .. دق جرس المساء .. وعلى الفور جمعت النسوة معا أدوات الحياكة ! .. وتوقفن عن العمل .. ورسمن علامة الصليب .. ونهضن لتمضى كل واحدة منهن إلى بيتها .. وفى كل بيت فى مساء السبت كانت توقد النيران لتدفئة المياه للاستحمام ، وكانت الفتيات الغضات يدعكن عتبات البيوت وأقدامهن عارية ، ويفركن الأفنية المتسخة ويسقين أوانى الزهور .. وكانت النسوة العجائز يأخذن المبخار من قدس الايقونة ، ليخزن الدور ويتذكرن الموت وهن يتمتن بعيون نصف مغلقة .

وفى هذه اللحظة التى تدق فيها الأجراس ، يدخل الأب « مانوليس » لاهثا داخل بيته ، فمئذ الصباح الباكر وهو مشغول بتوزيع البركات فى البيوت فى بداية الشهر .. وهو يزور كل البيوت المحيطة .. وبعد أن يحتسى الزبيب يتخير إلذ ما فى الأطباق من طعام التقدمة اللذيذ ويدسه فى مباحكة داخل أعماق جيبه .. وهو الآن كالمستحم فى عرقه .. ولكن مزاجه كان راثقا ، صفق بيديه وصاح « أنت يا زوجتى ! ..

وبرزت زوجة المطران الراضية السمينية بلا أسنان فى فمها وهى تجر قدميها اللتين تشبهان جذعى شجرتين ، وتنتعل شبشبيا باليا ، وكانت جميلة فى شبابها ، وكانت منشدة عظيمة ، وكان فى ذقنها تؤلول صغير يشبه حبة الزيتون سحر عيني المطران فى ذلك الزمان ! .. أما الآن فقد نما هذا التؤلول وتضخم وبرز منه شعر كثيف ، ولكن عينيها كانتا لاتزالان تشعان بتلذذ وميل للحب ! ونظرت إلى ثوب زوجها المنتفخ وقالت :

- « مرحبا ياعجوز .. هل أخلع ملابسك ؟ » ..

وفى وسط الفناء رفع الأب يديه المشعرتين فوق رأسه وقال :

- « اخلعى .. وأحضرى طبقا » .

وأحضرت زوجة الأب طبقا ضخما وبدأت تفرغ الجيوب التى لاتكل والتى تمتد من خصره إلى ساقيه ! .

ومضت الزوجة تعمل .. وتعمل .. تضع فى الطبق اللحوم والسجق
والقطائر الملفوفة والخيار واللوز والبلح وكعك البندق والبشملة والحمص
المشوى والكعك بالجبن .

- « أستمعين هذا الملعون مورزوفلوس ؟ إنه يصم أذانى .. اسرعى يا
امراة ! » ..

وامتلأ الطبق وقالت الزوجة وهى ترفع الطبق إلى صدرها فى نهم :
- « لقد انتهيت من خلع ملابسك ياعجوز .. والآن أسرع من أجل خير
روحك ! » ..

مد الأب ساقيه .. وقد خف حمله .. ثم انطلق ليؤدى خدمة المساء ..
فى هذا الوقت كانت « كريسانتى » شقيقه « بوليكسيجس » قد عادت
إلى بيتها ، وألقت شالها الهندى المفضل فوق كتفها القويتين
المنحنتين ، ووضعت ندرين صغيرين ، زجاجة نبيذ صغيرة وزجاجة زيت
صغيرة داخل سلة ، وبينما كان « مانوليس » يمر بالقرب منها وجيبه لا يزال
منتفخا ، خرجت « كريسانتى » من الباب واتجهت إلى الكنيسة فى خطوات
ثقيلة .. كانت هى الأخرى لينة رطبة رشيقة فى شبابها ، ولكنها أصبحت
الآن ثقيلة العينين ، وأصبحت شفتها العليا وذقنها وخداها تنبت شعرا
طويلا كشعر الحمار ! .

ونظر الأب إلى السلة فى جشع وقال محيا : « باركك القديس ميناى يا
أنسة كريسانتى » ..

ولكن الأنسة « كريسانتى » كانت تلهث تحت وطأة جسدها السمين
وساقها الثقيلتين المنتفختين ، وكانت مفاصلها الاثنتان والسبعون قد
يبست ! وكان ذهنها يسرح بعيدا ، وقالت لنفسها فى صمت : « أى -
ميناى » ها أنت ترى أننى أجيء مساء كل سبت وأحضر لك هداياك ،
نبيذك وزيتك ، فهلا صنعت لى بدورك المعروف الذى سألتك أياه منذ سنين
طويلة ؟ دعنى أمت قبل أختى ، إنه كريم وإذا ظل حيا بعدى فسوف يقيم لى
جنازة لائقة ، بل انه سوف يجعل فى مقدمة جنازتى هذه المصابيح
الكبيرة » ..

وكانت المصابيح الكبيرة قد أحضرت منذ زمن ليس بالبعيد ، من

القسطنطينية عن طريق المسؤولين عن كنيسة « القديس ميناس » ، وكانت رائعة معلقة بسلاسل مفضضة مزينة بزجاج ذى ألوان عدة وحبال من الحرير الأسود ، ولم تكن تستخدم إلا فى جنازات الأثرياء فقط ، وعندما كانت « كريسانتى » صغيرة ابتهلت إلى « القديس ميناس » حتى يبعث لها بزواج طيب ، زوج وسيم ، ورجل بيت نشيط ، وأخيرا ، يمر بعد أمل وراء أمل ، ابتهلت إلى القديس ميناس أن يساعد شقيقها الكابتن « بوليكسيجيس » فى أشغاله ، فعندما كانت الأحوال هادئة ، وكان بوليكسيجيس عاطلا ، افتتح دكانا بالقرب من بوابة كانيا كان يجلب إليها النبيذ والزيت والعنب والليمون واللقت من الفلاحين ليعود فيبيعها مرة أخرى إلى تجار الجملة ، أو التجار الجشعين كما كان يدعوهم ، ويملا صندوقه بالجنبيات التركية .. وجنيهات نابليون الذهبية .. « كن مع أخى فى تجارتى أيها القديس ميناس حتى تزدهر فإذا أنت أديت لى هذه الخدمة فلن تنقطع عنك الشموع ، وإن ينقطع عنك النبيذ والزيتون ، وكل ما يحتاج إليه قديس . ولتزرعنا دائما بمزيد من الطعام .. مزيد من أجود أصناف الطعام ، فهو كما تعلم شىء طيب مثل الزوج والأولاد ، يطمئن البشر ، إن على أغا على حق أيضا عندما يقول : « أنا لن أصير ضخما لا تمدد فى النهاية سميئا من أجل الديدان » .. مسكين أنت يا أغا ! يا خادم الله ، تصوم لأنك لاتجد شيئا تأكله .. »

كانت قد كرس كل حياتها من أجل شقيقها ذاك القوى الشكيمة .. من أجله كانت تغسل وتخييط وتمسح وتطبخ .. وتحن : « ياله من رجل قوى .. وسيد حقيقى لا أحد يستطيع أن يصفه بأنه خامل الذكر لا يصلح لشيء » ، ان النساء يصنعهن الرجال ، فليأخذ بحظه من المتعة ! « كانت تعيش معه وحدها ، فقد ولدا لنفس الأبوين فى اليوم نفسه وإذا كانت هى تكبر سريعا فذلك لايهم على الاطلاق - مادام هو يظل صغيرا رشيقا ! : « نعم ، أنا سعيدة معه - مسكينة أنا ، أجلس من أجله طول الليل فأحس بمعنى لحياتى ، حتى ولو كنت أنا فى النهاية وحدى » .. وفى كل يوم كان يصل الى البيت فى غيش الفجر ، عائدا من جولاته ، وكانت الأنسة كريسانتى تحقق فيه فى سعادة وقد طار النوم من عينها تنزع عنه حذاه .. وتدفع المياه ليغتسل .. وتعد له فنجانا من القهوة شديدة المرارة لينعشه ، وعندما تقترب منه كانت تتنشق فى اشتياق شاربته وشعره ، وتتشنق الرائحة التى

تركتها فيهما النساء ، هكذا كانت الأنسة « كريسانتى » تستمتع بالحب فى هذه الدنيا !

ولكنها فى النهاية - وقد كبرت فى السن وتضخمت وانتفخت ساقاها أكثر وأكثر - كانت تبتهل إلى « القديس ميناس » من أجل شىء واحد وهى تحضر إليه مساء كل سبت هداياها ليرضى عنها ، كانت تبتهل إليه أن يهيبه بفضل منه موتها قبل أن يموت أخوها ، حتى يستأجر فى جنازتها هذه المصابيح الكبيرة التى وصلت أخيرا ! ..

أما أخوها على الطرف الآخر من ميجالوكاسترو بالقرب من بوابة كانيا ، فقد سمع جرس المساء ، فرسم بلا تفكير علامة الصليب على صدره الحريرية وهو لا يزال يعزف على المندولين ، ثم قفز برشاقة ليغلق دكانه .

كان رجلا وسيما قوى البنية « متغندرا يرتدى دائما ملابس شاب فى العشرين ، سراويل من الصوف ، وصدرية حريرية مشغولة ، وزنارا حريريا عريضا وطماقا فى لون القشدة مما يرتديه الأتراك والكريتيون المتأنقون على السواء ..

وكان الطماق مشقوقا فى وسطه من أعلاه إلى قمته ومربوطا بأشرطة حمراء لتضفى قيمة كاملة إلى القدم الرشيقية .. وكان « بوليكيجييس » يضع طربوشه الكبير على جانب بحيث يسقط زره فى لا مبالاة فوق كتفه الأيسر ، ثم يأخذ طريقه فى خطوات واسعة يقفز من حجر إلى حجر متجها نحو حلاقه الممتاز « بارسكيافاس » حيث كان يحلق شعره كل يوم سبت .

وكان وهو فى طريقه إلى الحلاق يتوقف باستمرار ليحى أصدقاءه من أصحاب الدكاكين وليلقى بأحدى نكاته هنا وهناك أو يشرب « الراكى » ثم يمضى فى طريقه بطربوشه المائل وخطواته الخفيفة .. ولقد كان يستمتع بأحاساسه بجسده الطافح بالقوة ، وبأن كل أعضائه الداخلية تعمل مثل الساعة ، وكان يستمتع أيضا بأن شيئا فى الدنيا لا يشغل باله ، لقد قرأ يوما فى كتيب شيئا أثر فى نفسه تأثيرا كبيرا ، « كاناريس » المحارب من أجل الحرية : سئل ذات يوم كيف أمكنه أن يحقق كل هذه الأعمال البطولية ؟ فأجاب ذلك الصياد .. وقائد السفن المربية بقوله : « يا أولادى ، لقد كنت دائما أقول لنفسى : كونستانتنس لابد أنك ستموت يوما ما .. ومنذ ذلك اليوم والكابتن « بوليكيجييس » يميل طربوشه إلى جانب وسواء

اكان فى حرب أو فى حفل كان دائما يقول لنفسه : « بوليكسيجس » لابد
أنك ستموت يوما ما ، ومن ثم فقد كان دائما أول من يخطو للأمام ، ولقد
صاحب العمال ، فهم الذين بنوا له نصبا ذا حجرات من الحجارة والرخام ،
فى ساحة الكنيسة ، قبوا تحت الأرض زوده بأرفف ووسائد ، ومائدة
منخفضة فى الوسط ، ودولاب غائر فى الحائط ملئ بالزجاجات والأكواب ،
وكان حين يدعو مزاجه ، يملا سلة بكل مالد وطاب ويصطحب معه بعض
أصدقائه ذوى الجسارة فيذهبون جميعا إلى هذا النصب ، وهناك يبدأون
فى الشرب بشراهة ، ويتكلمون عن الحرب والمرأة والموت .

وهكذا .. كان الكابتن « بوليكسيجس » يمضى فى طريقه ، وريشتان
حمران تزوقان صدغيه ، متوقعا أن يقضى أمسية ممتعة ، لم تكن هناك
ورقة شجر واحدة تتحرك ، ومن صحون الدور كانت تهب رائحة ورود
ابريل ، وكانت الميازيب رطبة والأرض ذكية الرائحة ، ولكن ذلك كله لم يكن
يكفى « بوليكسيجس » ان هى الا لحظات حتى يعمل السنيور براسكيكفاس
فى ذقنه رغاوى الصابون ، ويحلق ويلمع شعره بزيت عطرى ، وبعدها
يخرج « بوليكسيجس » من دكانه فلا يكاد يعرفه أحد فسوف ينقلب إلى
صبى فى العشرين ! .. ثم بعدها يستدير ليدخل فى أزقة مظلمة ليمر على
أصدقائه المرحين وعلى صديقاته العاهرات ..

تنهد الكابتن « بوليكسيجس » وهو يقول لنفسه : « أه .. لو كان هناك
إله .. فليضع الآن معجزة .. فأنا أريدها الآن .. فأنا الآن فى عنفوانى ..
والآن هو وقت المعجزة ! من سنوات قليلة مضت كنت مهرجا لا أفهم
شيئا ، وكيف كان لى أن أدرك ماتعنيه النساء والخمر والحرب ؟ وبعد
سنوات قليلة قادمة أكون قد انتهيت تقريبا .. فكيف أستطيع الاستمتاع
بالدنيا وليس لى أسنان أولدى شهية ؟ لسوف أمضى .. أتطلع إلى النساء
وأحدث مثل الثعلب عن عنقايد العنب .. أعتقد أن القديس جورج هو
القديس الذى يفهمنى أكثر من غيره .. أنا أعجب بك دائما فوق الأيقونة ،
أعجب بطريقة ركوبك صهوة جوادك ، وامرأة تجلس خلفك ، أيها القديس
جورج يا قديسى يا بن عمى ، ساعدنى ولا تخف ...

قال ذلك .. ودفع طربوشه إلى جبهته واستدار فى الشارع الرئيسى ..
كان الشارع العريض واحدا من شارعين رئيسيين فى « ميجالوكاسترو » .
وكان يمتد من بوابة « كانيا » فى الغرب حتى بوابة المستشفى حيث

الميدان الفسيح : ميدان السراييب الثلاثة وحدائق الباشا ، وهناك ، تحت عدد من الأشجار المترية ، كان يقوم « كشك » خشبي تعزف الموسيقى فيه كل يوم جمعة فرقة موسيقية عسكرية ، أما الشارع الرئيسي الثاني فقد كان يمتد من البوابة الجديدة حتى الميناء ، وحيث كان الشارعان يتقابلان كان هناك الميدان الرئيسي ، قلب المدينة ، وفي الشارع العريض كانت تقوم محال الاسكافية ومحال الزجاج والصيني ، والمخازن ، ومقاهى اليونانيين ومحال البقالة ، ومن داخل هذه المحال كانت تنتهى دائما أصوات المناقشات العالية ، أصحاب محال ، مساعدون وعمال تحت التمرين ، وفكاهات ، كلهم يتبادلون المزاح ويثرثرون ويطلقون الضحكات المرتفعة ، ويشيرون ساخرين إذا مر أجنبي أو شخص مقوس القدمين أو أحول العينين أو مخلوق يساعد على السخرية ، ولحظتها كان الاسكافية يدقون فى أن واحد فوق قوالب الأحذية ، وكان المساعدون والعمال يطلقون الصفير .. ويقذفون قشر الليمون والطماطم المعقنة .. ١

ومساء كل سبت ، كان الحب يشيع فى الجوا .. واليوم ، كما هو المألوف ، كان الشارع العريض يعج بالحركة . فقد كانت أجراس المساء قد أحالته إلى ضوضاء عارمة .. وكان الأسبوع قد انتهى والحمد لله ، ونزع صبية البقالين وعمال الدكاكين ميادعهم (مرايلهم) وانحنوا على الميازيب لكى يفسلوا محالهم .. كما اغتسلوا هم أنفسهم « وتهندموا » وبرموا شواربهم وأخرجوا المقاعد وجلسوا فوقها وهم يشربون القهوة كما يحيونها .. ويدخنون النرجيلة ، وفى هذه الأثناء كانت المرأة البربرية « راشينى » تمر بالشارع ، جبلا من السواد ، وجسدا لامعا بقلادة من خرزات زجاجية غليظة من هذا النوع الذى يوضع حول أعناق الجياد ، وبصدر متدل يكاد أن يصل إلى بطنها ، وضحكة ودودة وعينين خبيثتين ، وأسنان لامعة ، وفوق رأسها طبق من الكعك بالسمنسم ، ثم هاهو ذا « تولوباناس » يقوم من اتجاه نافورة « ايدومينياس » وعلى كلتا يديه صينية احدهما ملأى بفطائر السبانج والأخرى بالكعك الممزوج بالسمنسم والقرفة الشارع لم يعد الشارع العريض ! .. فقد تحول الى منزل كبير مسكون امتلا عن آخره بالظرفاء .

وتأمل الكابتن « بوليكسيجس » لحظة ، وأحس بالفخر وهو يرى هذا الشارع اليونانى الزاخر بالمحال والبضائع وليس فيه تركى واحد ، فالهواء

نقى ، والكريتيون يضحكون ويمزحون بينما دقائق الجرس لاتزال دائبة ، هذه هى الجنة ، لا شئ ينقصها سوى العلم ، ولكن هذا آت .. ونحن الكريتيين سنحقق وجوده .. هكذا كان يقول لنفسه وهو يسير ويلقى بالتحية يمينا ويسارا قبل أن يذف إلى مكان الحلاق .

كانت الظلال تمتد .. وكان المؤذن قد صعد إلى منبذته يدعو المؤمنين إلى صلاة العصر ، ولكنه قبل أن يقرر إطلاق صوته فى السماء .. تمهل لحظة .. ولف القماشة الخضراء حول غطاء الرأس الأبيض الذى يضعه فوق رأسه .. وألقى ببصره حوله .. وغغم .. قائلا :

« يا الله يا الله مهما حاول الانسان فلن يستطيع أبدا ان يملأ الاعين التى منحناها له حين ينظر إلى الدنيا » ..

واتحنى على شرفة المنبذة .. وتهلل لمراى « ميجالوكاسترو » كيف تمتد تحته كثيرة الألوان عديدة الأصوات بمآذنها البيضاء وقباب قديسيها المعدنية ، ويعلم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبحدائق الباشا ، وغلبه الاحساس بالجمال الفائق .. فتنهذ .

« السعادة تفيض على الجميع .. الجميع .. الجميع ! .. النساء هناك ، والشباب الوسيم مثل نورى وعندما أراه مندفعاً كالعاصفة فوق جواده أعود إلى العشرين .. هناك أيضا شباب ناعم مثل رقائق الخبز الصغيرة يغنون فى المقاهى فى المساء ، فتحس بالدوار فلا تدرى إلى أين تذهب لكى تشكر الله .. إلى المسجد أم إلى المقهى ! وبحق الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ان الرائحة نفسها لتفتننى ، وعندما اذهب إلى بوابة المستشفى واتنفس بعمق روث حميرنا الكريتي الصغيرة ، يصبح قلبى حديقة السماء أنى لا أعدل بهذه الرائحة الميجالوكاستروية ! .. كل روائح الدنيا الزكية .. بالنسبة للآخرين قد تكون رائحة نقتة .. ولكنها تمتعنى ! » ..

قال ذلك .. ثم تنفس بعمق .. ووضع يديه فوق أذنيه .. وفجأة ، ومن أعماق جسده ، دوى صوته كالرعد عميقا .. صافيا ، حاملا كل الحب والدعاء فى أقوى صوره ، أى عذوبة فى هذا الصوت ، وأى قوى ! ، وكيف استطاع هذا الصوت أن يغطى على كل أجراس مورزوفلوس ! .. لقد ارتفع على الشمس بقمة أصدائه واقتحم السماء داعيا الله ثم هبط فجأة فوق ميجالوكاسترو مثل البرق الخاطف منتشيا باسم الله .

وفى اللحظة التي كان المؤذن يمتدح فيها « نوري » فى اعجاب شديد ، كان « نوري » عائداً من اقطاعيته وقد غمرته الكآبة .. كان قد ذهب إلى هناك ليخلع ملابسه ، ولكن الخجل كان لايزال عالقا بوجهه وعنقه ويثقل على صدره ويحرقه بلهبه ، وكان جواده ينفث من فمه الزبد الأخضر فقد كان الأمر فى ذلك اليوم سيئاً حتى بالنسبة لجواده ، كانت ركبه منهالكة .. وكان يتعثّر فى ركضه ، وكان البحر قد توهجت صفحته وعلاه الزبد وارتفعت صفحته ، ولكن نسمة واحدة لم تكن تهب ، وعبر نهر « جوفيرو » .. وكانت بشائر أوراق الشجر قد بدأت تنبت فى فروع الكروم ، وكانت أشجار اللوز قد بدأت تزهر ، وأشجار التين تعيق الجو برائحتها .

ودمدم « نوري » :

- « لاشيء .. لا شىء يستطيع أن يهدئنى لعن الله البحر .. والشجر ..
والشمس ! » ..

وأمام ناظره ارتسمت مرة أخرى صورة الكابتن ميخائيليس تماماً حيث مد اصبعيه الى الزجاج ، وسمع صوت تكسر الزجاج .. ورأى « أمينة » ترتقى على عنق الكابتن ، فصاح فى ضراوة :
- « العارلى ! أجدر بالأرض أن تنشق فتبتلعنى . أى شىء أريده من الحياة مادمت لم أعد أفضل الرجال هنا ؟ .. اللعنة على ذلك كله ! » ..

ومضى فى طريقه .. ولاتزال ليلة الأمس بطولها فى مخيلته .. كم كانت ليلة مضطربة وكم أسرف فى الشراب حتى انتهى به الحال إلى أن تمدد على عتبة بيته وقد أعماه السكر .. فوق الروث ثم تذكر ، لقد غلبه النوم النوم الذى ملاه الصراع الوحشى .. والنباح ! من ذلك الذى جاءه فى نومه ونادى عليه ؟ عندما جاءه خادمه البربرى فى الصباح .. واغتسل .. تحول الحلم إلى دخان .. واختفى كل شىء .. ولكن سكيناً ظلت مغروسة فى قلبه ..

واليوم ركض بجواده عبر مدافن الأتراك ، حيث تنتصب شواهد القبور بالكلمات المنقوشة عليها والعمائم الحجرية الملونة مثل اشخاص من الرخام انشقت عنها الأرض من تناضل من أجل الخلاص ومن أجل أن تتعد عن هذه النصب وتعود إلى بيوتها فى ميجالوكاسترو .

وحاول أن يميز قبر أبيه هناك في الركن بعيدا عن البحر وبين شجرتي السرو ، ولكن عندما عثر عليه بدأ جسده يختلج ، خيل إليه أن العمامة الحجرية قد تحركت الى الخلف تماما مثلما كان يفعل « هاني على » الأعمى بعمامته .. عندما يستبد به السخط ، ودارت به الدنيا .. وأحس بالدوار .. وتعثر جواده بقبر من القبور فجذب نورى بك ناصيته حتى لا يسقط فوق الأرض وتشبث بالعنان فتراجع الجواد المعتر بنفسه وهو يرتعش .. فقد كان ذلك أول يوم يتعثر فيه الجواد .. أول يوم منذ ستين طويلة . فآل سيىء ! ! ..

وصرخ البك .. وأراد أن يترجل ليركع على قدميه أمام قبر أبيه ، ولكنه كان يخاف الموتى ، تسالل الخوف إلى قلبه مثل برق خاطف ، وتذكر حلم الليلة الماضية ، كان أبوه يقف فوق وساد مشعث الشعر .. قدرا .. عارى القدمين ، وهو الذى لم يتنازل يوما ويلمس الأرض بقدميه ! .. ورفع يده الطويلة المسودة وقال فى صوت كالرعد : « كم من السنين ظلت أحوم حولك أيها القصر الملعون ؟ .. منذ سنة ١٨٦٦ فلتعدهم ! .. ثلاثة وعشرون عاما ! وكنت أظن أن ولدى .. ولدى الوحيد سوف يظل يفكر فى ليله ونهاره ويشحذ سكينه لينتقم لدمى ، إنما لأطوف ببيتك البائس ، فلا أسمع سوى الضحكات والمندولين والأغنيات ، وأنت هجرتنى .. هجرتنى لتتسكع جيئة وذهابا فى الشوارع والحقول ! لماذا إذن ننجب الأبناء ؟ لكى ينتقموا لدمائنا ! بينما أنت لا تخجل من أن تكون آخا فى الدم لشقيق قاتلى ! بل أنك لتسمح له برؤية زوجتك بدون حجاب ! اللعنة عليك أيها الكافر وعندما سمع نورى تلك اللعنة الثقيلة غلبه الغضب ، وود لو صاح : « ماذا أيها العجوز .. ألا زلت مصرا على متابعة اصدار الأوامر لى حتى وأنت فى قبرك ؟ » .. ولكن الكلمات توقفت فى حلقه ، فضغط بقدميه جبنى الجواد ، ولم تكن الشمس قد غربت بعد ، فعاد عن طريق بوابة كانيا واندفع داخل الحى اليونانى ..

وفى نفس اللحظة وصل الكابتن ميخائيليس إلى بوابة المستشفى على الطرف الآخر من « ميجالوكاسترو » وكان قد حث جواده بأقصى ما يستطيع من جهد ، وكانت الشمس قد غربت لتوها وإن كانت لاتزال تلقى بآخر أشعتها فوق بوابة القلعة ، ومن بعيد ، كان فى مقدوره أن يرى المجذومين ينهضون كعادتهم بعد أن ظلوا طوال النهار مستلقين على يمين

البوابة ويسارها فوق التراب والروث وقد بسطوا أطراف أذرعهم يتسولون ،
وفى الغروب كان عملهم اليومي ينتهى ، فيقفون ويتحركون فى صف واحد
وراء أحدهم الآخر متجهين صوب « ميسكينيا » قرية المجذومين ولم يكن
أحدهم ينظر إلى الآخر ، بل كانوا يتدافعون متتابعين دون أن ينطق أحدهم
بكلمة ، كانت خدودهم متاكلة وأنوفهم وأذانهم غير موجودة ، وكان كثيرون
منهم عميا ، وكان بعضهم يبدون كمن يبتسمون لأنهم بلا شفاة ، وبالتالي
فإن أسنانهم كانت ظاهرة على الدوام ، كلهم كانوا يركضون كما لو أن يوم
الدينونة قد بدأ وكما لو كانوا قد سمعوا طبول الملاك ، أو كما لو كانت
الأرض قد انشقت عنهم فخرجوا بعد أن نسوا أجزاء من أجسادهم فى
عجلتهم !

وأدار الكابتن ميخائيليس وجهه بعيدا فقد كان يكره منظر المرضى ،
وكان يقول دائما : « الأصحاء فقط هم الذين ينبغي أن يعيشوا ، أى فائدة
لمثل هؤلاء ! » .. ثم لكز جواده وعبر بوابة القلعة فى اللحظة التى بدأ فيها
الحارس العسكرى يدق طبلته فى نوبة الغروب .. والعلم التركى ينزل من
فوق ساريته ..

الفصل الثالث

الليلة .. تلك الليلة .. هبطت ثقيلة فوق المدينة ، كان الجو ساكنا ولم يستطع الكابتن ميخائيليس النوم ، فقد كانت الرطوبة شديدة .. وفتح سكان « ميجالوكاسترو » رجالا ونساء نوافذهم وخرجوا إلى أفنية دورهم وفكوا ازرار أردية نومهم طلبا لنسمات الهواء .. وأحست بعض العجائز من النسوة كأن كارثة توشك أن تحل ، فجلسن على عتبات بيوتهن ، ولكنهن لم يجرؤن على فتح أفواههن حتى لا يفضحن أفكارهن ! كن خائفات من أن قدر « ميجالوكاسترو » الشرير قد يسمعهن ويحقق ماكن يتصورن أنه لم يتقرر بعد نهائيا .. وهكذا كن يهمسن مع إحداهن الأخرى ويحاولن أن يظل الحديث المتناثر قائما - وإن كان حديثهن برغم ذلك يعود إلى القلق الخفى الذى لا يمكن التصريح به : « هل تذكرن المرة الأخيرة ؟ لم تكن هناك ورقة شجر واحدة تتحرك » « هدوء ! » « ألا تسمعن الطنين تحت أقدامكن ؟ » ، « هدوء ! » .

وعدن فحبسن أنفسهن داخل أرواحهن وترقبن مطلع النهار ثم برزت الشمس من خلف جبال « لاسيثنى » معتمة ساخطة تحجبها مزق من السحاب النحاسية اللون ، وتوهجت المآذن ، وتوردت صفحة البحر ، ودق « مورزوفلوس » الأجراس الثلاثة ، واستيقظ الحى اليونانى من سباته ، وفتحت الابواب وخرج سكان البيوت ، اغتسلوا جميعا واربدوا سترات وقمصان أيام الأحاد ذات الياقات : الزوج والزوجة وخلفهما الحماة وأمامهما الأولاد ، الصبية يمسون بمناديل بيضاء مطوية ، والفتيات يضعن مشابك فى أوشحة أعناقهن .

كانوا جميعا فى طريقهم لكى يقدموا مظاهر التشريف للقديس الراكب « أى ميناس » وليستمعوا إلى خطاب المطران ويتزودوا بالغذاء بين يديه ،

كان اليوم يوم الأحد ، ولم تكن هناك مشاغل ، فالمحال مغلقة ، والشيطان -
التاجر الأكبر - نائم طيلة يوم كامل ، ومن ثم فالناس سعداء بأن يتلقوا كلمة
الرب - فذلك لم يكن ليكلفهم شيئا ، ولم يكن أحدهم ليفقد شيئا إذا هو فعل
ذلك ، وغدا سيكون هناك - كالمعتاد - وزن وقياس ومساومة ، وسيحاول كل
واحد منهم أن يلتهم الآخر ، ستة أيام للشيطان .. ويوم واحد للرب ! :
اشعل المصابيح للاثنتين ، وسوف يكون كل شيء بعدها على مايرام !

كانت الكنيسة تتلأأ مثل سماء زاهرة بالنجوم ، وتفوح منها رائحة
القناديل والبخور ويشيع فيها الدفء ويعلو طنين كأنه صادر عن خلية
نحل .. طنين ملائكة وقديسين وبشر . ولم يكن هناك مكان لكل المسيحيين
المؤمنين - فقد وقف كثيرون منهم في الممرات ، ووقف المطران البدين
بالقرب من عرشه بجسده العملاق ولحيته البيضاء الثلجية وصلبيه الذهبي
وتاج الاسقفية الملوكي ، وكأنه وحش مفزع هبط من السماء إلى الأرض
ليطرح الناس أرضا ويدخل في قلوبهم الذعر .

وعلى باب التماثيل وقف الأب « مانوليس » بملامحه الهادئة وملابسه
المذهبة ، يرتل الانجيل في ذات اللحظة التي فتح فيها « كاجابيس » باب
بيته ليلحق بالكنيسة هو وزوجته ، وكان زفافهما قد تم يوم الأحد الماضي
ومن ثم فقد كان عليهما - حسب التقاليد - أن يؤم الكنيسة لمدة ثمانية
أيام وهما بملابس الزفاف لبيتها ، إلى القديس « ميناس » حامى البلاد ،
وليقدموا له كمكا كبير الحجم ممزوجا بالقرفة والمصطكي والسكر .

كان بيتهما الصغير قريبا من الميناء ، تماما حيث يبدأ الحى اليهودى .
وداخل أزقة ضيقة متعرجة ابتليت بالرياح الحارة وهواء البحر المضمنى ..
تعلقت « جارفاليا » بذراع زوجها ، وسار الاثنان في ببطء واعتزاز
ويستقبلان معافى ود عالم الزواج الحديث . كم تشع هذه الشوارع المثلثة
بالرياح ، وما أعذب ما تشيعه من رائحة ! وما أطلى ما تبتسم هذه
الصخور ! وما أروع ما اقتربت الدنيا - برغم كل شيء - من « جو »
الزواج ! نعم ، فهذه بعض شجيرات الشوك في سور إحدى الحدائق .. وقد
ازهرت ! أكانت هذه هي « ميجالوكاسترو » التي يستعبد بها الاتراك ؟
أكانت هذه هي أزقة الحى الفقير وروائح نفاياتها ؟ .. أكان هذا هو البحر
الكريتى المهيأ دائما لأن يعامل الرجال في وحشية وبعيدا تماما عن كل

معانى الرقة ؟ ، رفعت « جاروفاليا » خلسة .. عينها الناعستين ، وحدقت فى زوجها : « يا إلهى .. أى معنى لكل هذه الأحاديث التى يليقها القساوسة ؟ .. الجنة هنا يارجلى الطيب ، يا إلهى ، أنا لا أبغى جنة أخرى سواه ! .. »

وكانا قد وصلا إلى ميدان السوق قبل أن يقتحما الشارع المؤدى إلى الكنيسة .. واستدار « كاجابيس » ونظر إلى زوجته وقلبه مفعم بالسعادة ، وخيل إليه فجأة كأن العالم لم يعد موجودا وأنه لم يبق فى كل زحام هذه الحياة سوى هذه المخلوقة التى تسير إلى جواره دافئة معطرة محبوبا حول جسدها هذا المشلح وهذه التنورة المليئان بالأزرار والأشرطة الملونة ، وفمها الطيب الرائحة فى عذوبة ودفء .. لقد كان القلق يستبد به منذ الليلة قبل الماضية ، عندما قيل له إن عليه أن يتوجه إلى بيت الكابتن ميخائيليس بعد ثمانية أيام فقط مع زوجته ، وأحس بالغضب ، وتوقف عن السير عند السوق ، ماذا ترى يهيم من « أى ميناس » قديس « ميغالوكاسترو » بعبادته المحلية وهو الرجل الغليظ القادم من « سفاكيا » ؟ ولماذا يضع وقته داخل الكنيسة بدلا من أن يعود إلى بيته بأسرع ما يستطيع ؟ إنهما حديثا الزوج ، وسيففر الله لهما .. لم يعد أمامه غير وقت قصير ، فلا بد أن « الكابتن ميخائيليس » - هذا الوحش الضارى - فى انتظاره الآن فى قبو بيته ، وسأل زوجته :

- « مارايك فى أن نعود يازوجتى إلى بيتنا الصغير ؟ » .

وحبس أنفاسه يترقب .. وأحمر وجه المرأة وارتعش جفناها ، ثم أجابت بعينين مسبلتين :

- « الأمر أمرك يا صغيرى يا نيس » ..

ثم استدار فى لهفة وكان أحدا يقتفى أثرهما وعبرا السوق فى سرعة ، وسارا مخلفين وراءهما الشجرة العارية وقصر الباشا ثم دخلا زقاقا ضيقا حتى وصلا إلى الميناء ، وفتح « كاجابيس » الباب بركلة من قدمه ، ودخل الاثنان البيت ، وأغلقا الباب بالمزلاج .. وقذفا نفسيهما فوق الفراش .

فى تلك اللحظات ، كان « الكابتن ميخائيليس » يجلس فى القبو فى غيبش الفجر وإلى يمينه ثلاث « براميل » ملأى بالخمور تستقر فوق عارضتين

متبنتين ، وإلى يساره إناءان أحدهما ملىء بالزيت والثاني بالدقيق ، وفوق رأسه تدلت صفوف من التين والرمان والسفرجل والشمع الشتوى الأصفر المعروف باللون الأخضر .. وعلى الحائط علقت حزم من الأواني المصنوعة من أعشاب المريمية والحبق .. وكانت رائحة النبيذ والسفرجل تعبق جو القبر .. ولكن ما أسرع ما ستغطي عليها رائحة الدجاج الساخن وسمك « أم الحبر » والمقائنق (السجق) .

جلس الكابتن ميخائيليس فوق مقعد مرتفع ، وقد أسند إلى الحائط رأسه الثقيل وقد عصبه فى إحكام بقماش داكن ، وحدق بعينه فى الباب المنخفض القائم فى مواجهته دون أن ينظر إلى شىء بعينه ، ولم يكن كذلك يفكر فى شىء ، جلس دون حراك ، وإن كان من حين لآخر يضغط بمخالب يده حافة المائدة أمامه فيحنى خشبها .

كان ذهنه ساكنا ، ثقيلًا ، ولكن قلبه كان يدق فى عنف ، لقد كانت الحياة كريمة معه ، ولم يكن يفترق فيها إلى شىء كان رجلاً قويا صحيح البدن ، له زوجة طيبة وأسرة .. وكانت الدنيا تكن له كل التقدير وكان ابنه مثله تماما - يخشى الموت - فإذا مات هو فسوف يمضى ابنه على دربه وكان لابنه - مثله تماما - علامة فوق عنقه ، وحاجبان غليظان كثيفان ، وعينان صغيرتان شديدتا السواد ، فما بال قلبه إذن ؟ .. وأى شيطان هذا الذى يجعله يضطرب هكذا ؟ لم يكن يحس بالسرور ، ولم يكن يقدر حتى على الابتسام أو على أن تبدر عنه فكاهة أو كلمة ودودة تريحه حين تجرى على شفثيه ، فهو متحفظ دائما .. قليل الكلام .. عنيف .. زاره يوما وفى قرية الرجل طيب القلب « مانولاكيس » الخياط ، وقال شيئا وضحك ، ولحظتها قطب « الكابتن ميخائيليس » جبينه وعبس ، فكانما شل « مانولاكيس » المسكين الذى مالبث أن نهض وغادر البيت ، وبعدها استدار « الكابتن ميخائيليس » نحو ابنه وقال فى أسلوب مهين : « انه لا يخلج ! .. إنه يضحك ! » ..

ولقد كان يقول لنفسه أحيانا ، « عندما تتحرر كريت ، فسوف يتحرر قلبى أيضا عندما تتحرر كريت فسوف أضحك » ومنذ وقت ليس بالطويل كان يراوده حلم كأنه الحقيقة بعينها : سمع الأجراس تدق لأن كريت نالت حريتها ، ورأى الشوارع وقد غطيت بالغار والريحان ، وسفينة حربية بيضاء ألقت مراسيها فى الميناء ، ومن السفينة خرج ابن الملك قادما من

أثينا ، وقفز إلى المرسى ثم انحنى يقبل تربة كريت ، وعلى الرصيف كان هو نفسه - الكابتن ميخائيليس - يقف ممسكا بمفاتيح « ميجالوكاسترو » فوق طبق فضى ليسلمها لابن الملك ، كريت تحررت ، تحررت - ولكن قلبه لم يتحرر بعد .

ودمدم فى غضب : « ماذا دهانى بحق الشيطان ! بل ماذا ينقصنى بحق الشيطان ؟ ! .. سوف أسقط على أم راسى ولاشك ! » ..

وغلى الدم فى عروقه وخيل إليه أن مخه قد تضخم ، واحمرت عيناه ، لقد نهضت كريت ثم سقطت فى أعماقه لم تعد بعد جزيرة .. وإنما أصبحت وحشا مفترسا يحدق فى البحر - أصبحت « جورجون » شقيقة الاسكندر الأكبر ، وكانت تنتحب وتضرب الماء بذيلها الذى مثل ذيل السمكة .. وتثير مياه البحر ، وعندما تنهى صوت نحيبها إلى سماع « الكابتن ميخائيليس » سرت رعشة فى رأسه فما لبثت أن بدلت من صورتها فتحوّلت إلى شجرة عارية ضاربة جذورها فى أعماقه تغتذى من أعضائه الحيوية ، ومن أغصان هذه الشجرة تدلى الأسلاف بشعرهم الأشيب وأقدامهم العارية وقد اكتست وجوههم بالزرقة وأخذوا يعضون على ألسنتهم .. بينما ربح عاتية تقول وتئن .. وعندما بسط الكابتن ميخائيليس ذراعيه ليصلى من أجل هؤلاء الأسلاف .. اختفى كل شيء وعادت مخيلته فارغة .. ولم يعد باقيا سوى قنديل بزجاجه الأحمر الأخضر ، وتحت « نورى بك » وشراب الليمون وطائر القطاة المطبوخ ثم .. ضحكات مكتومة .. وامراتان شركسيتان .

وقفز الكابتن ميخائيليس واقفا ، وضرب الحائط بقبضته فى عنف حتى لقد ارتج البيت ، ورفع بصره إلى الباب المنخفض ، وفجأة ، بدأ يغضب ويلعن لأن رفاقه البشوشين قد تأخروا .

وفى اللحظة التى كان الكابتن ميخائيليس يضرب فيها الحائط بقبضته ، كان هؤلاء الرفاق ينطلقون من أركان « ميجالوكاسترو » الأربعة . كان أول من استيقظ منهم فى الصباح الباكر .. « فيندوسوس » صاحب الحانة الذى رسم علامة الصليب ووقف أمام الأيقونة ذات المصباح الموقد أبدا وهو يصلى لحاميته عذراء حقول الكروم المقدسة ، حتى تمنحه القوة على الاحتمال ، كان فى طريقه إلى المباراة الكبرى ، المباراة التى ستستمر ثمانية أيام بلياليها .. من الأحد إلى الأحد ، وإذا لم تساعده العذراء

فسوف تكون أياما وليالى ضائعة .. ومنذ سنوات قليلة مضت عهد إلى الراهب « نيكوديموس » بأن يصنع له عذراء .. لا كما يصورها الرسامون كأم .. ولكن كما رآها هونفسه فى الحلم : امرأة مثل النساء اللائى يجمعن الكروم فى شهر أغسطس مجنونة بالرجال ، غليظة الشفتين تعصب رأسها بعصابة كريتية ، وتحمل فوق ذراعيها - بدلا من الطفل - عناقيد عنب ، ولقد رفض الراهب فى البداية ، وقال إن أمرا كهذا لم تنص عليه الكتب المقدسة وإن ذلك سيكون خطيئة ولاشك ، فلا بد لها أن تحمل المسيح فوق ذراعيها ، وليس حزمة من عناقيد العنب ، ولكن « فيندوسوس » نفحه بزجاجة من الزبيب ، وبضع أوقيات من سمك « البكالاه » فهدأت نفس الراهب ، ورسم علامة الصليب ، وتناول الفرشاة وسم الأم المقدسة أم الكروم المقدسة .

وقف « فيندوسوس » أمام صورتها وقد ارتدى جواربه ولما يضع قدميه بعد فى الحذاء .. وقال :

- « سيدتى .. سيدة حقول الكروم التى تحرس الحانات وأصحاب الحانات ، تحياتى اليك ، أنا ماض الآن ، ماض إلى قبو الكابتن ميخائليس ، وأنت تعلمين جيدا ماذا يعنيه ذلك ، أنا محتاج إلى مساعدتك أنت تعرفين أننى قدمت النقود والبكالاه والزبيب من أجل أن صورتك ، ساعدنى ! ساعدنى على أن أحتمل وإلا أسكر هذه المرة فينقلب حالى وأحيل الجدران إلى فوضى شاملة . وأسألك أيضا يا سيدتى أن تطامينى من حدة هذا الوحش الذى لا ينضبط ، الكابتن ميخائليس ، حتى يسمح لنا بالخروج بسرعة ، إن ثمانية أيام بلياليها شيء كثير ، أيتها العذراء المقدسة .. شيء كثير ! » ..

واغتسل وأرتدى ملابسه وتناول قيثارته من أمام الايقونة وخرج إلى صحن البيت وودع زوجته وابنتيه وطلب منهم أن يذهبوا إليه كل يومين ليطمئنوا على ما يحدث هناك ، ثم ترك معهم نقودا ليشتروا طعاما يكفيهم الأسبوع كاملا ، وأخبر ابنته الكبرى التى كانت تحسن الكتابة لأنها كانت مدرسة ، بأن تكتب له على ورقة كل ما ينبغى أن يقوله ، ثم وضع الورقة فى جيبه وأجال بصره حوله فى أرجاء البيت وكأنما يودعه .. ورسم علامة الصليب .. واجتاز عتبة البيت .

اتجه أولا إلى الحانة وأخرج من جيبه الورقة وثبتها فوق الباب حتى يراها الناس : « صاحب الحانة مضطر إلى أن يتغيب ثمانية أيام في بعض شؤونه الخاصة ، وبعدها أحس بشيء من الراحة ، فانطلق مسرعا إلى بيت الكابتن ميخائيليس سوف يصل متأخرا ، ولن يبدي التتبن ملاحظة حول تأخيريه ، ولكنه فقط سيقطب جبينه .. وذلك وحده يكفى !

وعندما مر بحذاء بيت شقيقه الأكبر تاجر الجملة ، أغذ السير : « لا ينبغي أن يقع بصره على فسوف يشك في أنني ذاهب إلى هناك ، وسوف أتعرض لمزيد من التعنيف ، إلى الجحيم هذا الحمار العجوز ! » ومسح بيه انفه الذى يشبه الخيارة والذى ينمو كل شهر قطعة حتى لقد أدرك الآن فمه ! وعاد يغمغم « آه ! .. فليذهب إلى الجحيم ! ، إنه يطيب له دائما أن يمنحني الدروس ، اليس كذلك ! ولكنى أول أمس أعطيته كل ما قدرت عليه ! أنا أعرف ماذا ينتابنى - واللعة على ذلك كله - وأنا أدور وأقوم وانحدر بين الجدران عندما جاء رب العائلة السمين هذا ، ورفع عقيرته خارج بيته هذا الأنيق الملعون وقال : أيها المخروب مانوليس ! ألم تكثف بعد ؟ ألا تكف عن الشرب .. الشرب ؟ .. ووقفت أنا لحظتها في مواجهته قريبا من الحائط .. وقفت مثل الشمعة المنتصبه وفتحت فمى الصغير وقلت له : وأنت يا تاجر الجملة ألم تكثف بعد ؟ .. ألا تكف عن عدم الشرب .. وعدم الشرب ؟ .. ولحظتها توقف رجل أو رجلان كانا يسيران .. توقفا وضحكا فى صوت مرتفع ، أما هذا الحمار العجوز - فقد اختفى .. اختفى ! ..

ومضى فيندوسوس فى طريقه يحدث نفسه : كانت مشيئة الله ، لقد ولدت يوم الجمعة الطيبة وكان أبى قسيسا ، وأريد لى أن أكون قسيسا مثله ولو ليوم واحد (والشيطان له أرجل كثيرة) ولكن كيف كان لى أن أظل جامدا فى المدرسة ، وكيف كان لى أن أسلم عنقى للعبودية ؟ فمذ كنت طفلا صغيرا وأنا أعزف على القيثارة فتسمعنى حتى الأحجار .. وترقص .. وحيثما كانت تجرى احتفالات أو مجالس أنس ، كنت أوجد أنا .. وكنت أبقى ، ولم يكن أحد يستطيع أن يبعدنى عنها ، ومن أجل ذلك أسمونى (فيندوسوس الحاذق) وشيئا فشيئا تعودت على أن أشرب بحرية ولم أعد أستطيع أن أعيش بدون رائحة الخمر ، ومن ثم فقد أنشأت الحانة وطلبت أن ترسم لى العذراء المقدسة التى تناسبنى ، والتى لا مثيل لها عند مخلوق فى العالم المسيحى كله ! وعندما أنادىها تلبى ، ولا تشغل نفسها بأن تجرى هنا وهناك فى أمور شاذة مختلفة ، فهى لاتفارقنى وتجبب أملى فى

الساعة التي أحتاج فيها إليها ، إنها ملكي أنا فقط ، ولن أقرضها لأى مخلوق سخيف أحمق . فى العام الماضى طلبها منى هذا المجدف كابتن بوليكسيجيس حتى يأمر برسم واحدة مماثلة له ، ولكن كيف كان يمكن أن أعطيها له ؟ سألتة يومها : أيمكن لك أنت أن تعطينى فرسك يا كابتن بوليكسيجيس ؟ كلا - فأنا أيضا لا يمكن أن أعطيك عذرائى ..

وفى هذه اللحظة من حديثه لنفسه اصطدم عند نافورة « ايدومينياس » بكل من « بيتروبولوس » و « فوروجاتوس » الذين كانا فى طريقهما لاهثين إلى وكر التنين ، وكانا فى عجلة من أمرهما حتى لقد كادت قيثارة « فيندوسوس » أن تتحطم لحظة الصدام ، بينما سقطت قبة « بيتروبولوس » إلى الأرض .

وصاح « فوروجاتوس » :

- « فيندوسوس .. لماذا تهرع هكذا نحو فك الأسد ؟ قف ! دعنا نلف سيجارة حتى تمنحنا الشجاعة .. »

ثم جلس الثلاثة فوق الدرج الرخامى للنافورة وأخرجوا صناديق الطباخ جلس « فوروجاتوس » فى الوسط بقامته المديدة كالمتوج ، وكان قد ازداد صلابة مع الكبر ، وكانت ساقاه طويلتين كساقى عملاق حين تبدأن فى الرقص تطرب وتنشئ تربة كريت ، ولولم تكن له هاتان الساقان ، لما حياه إنسان ، فأنت لا تحبى إنسانا يضرب زوجته ، وكان له حاجبان كثيفان وشارب منتفش نافذ مباشرة إلى الأمام يبدو معهما حقا كأنه قطة متوحشة (فوروجاتوس) . وانحنى فى ود نحو زميله « بيتروبولوس » وغطاه بعباءته التى كانت قد سقطت عند الاصطدام ، كما نطف قبعته الصغيرة الناشفة ، المتأكلة وثبتها فى قوة فوق شعره الرمادى الطويل .

كان « بيتروبولوس » رجلا عجوزا بريئا ضئيل الجسم ، ذا فم رفيع وذقن ناتئة ، حديثة الحلاقة وعارضين حائنين قصيرين تنبعث منهما رائحة مرهم عطرى . وكان أول رجل فى « ميجالوكاسترو » وربما فى كريت كلها - لا يخشى الله أو الناس .. ويخلق شاربه تماما .. وفى أول الأمر ظن الكريتيون أن بشرته حلقة بطبعها فلم يغضبوا ، ولكن عندما تأكدوا من أنه يخلق شاربه انتابهم غضب شديد ، مستحيل ! فهو يدمر نظام الأشياء ! وهو يخلط النساء بالرجال ، ولقد قذفه البعض بالحجارة وبقشر الليمون ،

بينما اكتفى آخرون بأن يمتنعوا عن الترحيب به ، ولقد صاح فيه « باربايانيس » يوما ما وهو يبرم شاربه : « هنا فى كريت يا بيتروبولوس ، هناك صنفان من الآدميين وليس ثلاثة ، الرجال والنساء ، وليس عندنا رجال نساء ا » .

وفى يوم من ايام الاحاد ، كان بيتروبولوس يمر بحذاء الاقباء الثلاثة ، انيقا خفيف الخطوة باسم الوجه ممسكا بقيثارته استوقفه فوروجاتوس ، وقد غيبه السكر عن وعيه ، وأمسك به وحاول أن يخلع عنه سرواله أمام الجميع حتى يرى كما قال ، ما إذا كان بداخله « بيتروبولوس » أو « بيتروبولينا » ولكن بعض الرجال ممن لم يكونوا سكارى وقتها .. تدخلوا فى الامر بينما انفجر فوروجاتوس باكيا واحتضن بيتروبولوس وضمه إلى صدره وربت عليه وقبله ولحظتها صرح بيتروبولوس أنت تحطم أضلعي ! .. حل عنى ! ثم ركله بعنف ومنذ ذلك الحين والاثنان صديقان لا يفترقان .

ولقد كان قدرا أن لا يكون كريتيا ، فهو من « زانتى » وهو « كونت » كما كان يقول ، ولكنه لم يعد يذكر كيف قدم إلى « ميجالوكاسترو » وسط هذه الوحوش المفترسة ليصبح معلما فى العزف على القيثارة ، كذلك فإن « بيتروبولوس » لم يكن اسمه ، ان اسمه كان « الكونت مانجيافينو » ، والآن فقط - لأنه يظل يرتعش طوال الشتاء والربيع ويدثر نفسه فى عبائه السمكية الخضراء ، ولأنه كان متغض الجلد مقوس الساقين ، ولأنه كان يقول أشياء غريبة مضحكة ، ولأنه كانت تسهل إضافته - أطلق عليه الكريتيون اسم « بيتروبولوس » ... ولصق الاسم به ! ..

ولكن عدد تلاميذه قل بمرور السنين ، فما الذى يستفيد أبناء « ميجالوكاسترو » من وراء الجيتار وهم ذوو أصوات حميرية لا تلائمها مثل أغنيات الحب .. أغنيات « زانتى » .. وبدأ « بيتروبولوس » المسكين يتصور جوعا ، فكان يغشى المقاهى ويتحدث فى جاذبية مؤثرة عن حياته وعن أيام كان فيها لامعا وعن سيدات مرموقات وعن حفلات « للسيرانادا » والمندولين فى « زانتى » وكان يضع جيتاره فوق ركبتيه ويعزف بعض المقطوعات القديمة حتى يحس صاحب المقهى بالخجل ويقدم له قدحا من القهوة وبعض البسكويت أو « سد الحنك » أو قشور البرتقال المسكرة ، بعدها يخفف « الكونت » من جوعه ، بل انه كان يحصل فى بعض الأحيان على إذن فى أن يلف « سد الحنك » فى قطعة نظيفة من الورق ويأخذها

معه ، فقد كان مفتونا بصاحبة البيت ذات الشعر الابيض ، العجوز كالتلال ، ويخجل من أن يستمتع وحده بالحلوى ، فهو يعرف جيدا كم تحب هذه المسكينة « سد الحنك » الذى لا يحتاج أكله إلى أسنان !

ويوما ما فكر الكابتن ميخائيليس : « سوف يصلح تماما لقبوى » ! فقد سمعه يروى بعض حكاياته الحقيقية والخرافية فى مقهى « تريالونيس » .. وكان يتحدث فى ذلك اليوم عن « زانتى » - زهرة الشرق - التى لم تطأها أبدا أقدام تركية ، وحيث ولد شاعر أغنية الربيع اليونانى ، وناداه « الكابتن ميخائيليس » وقال : « استمع إلى ياسيد بيتروودولوس ، انت شخص ممتاز ، وانه لمن سوء طالع ميجالوكاسترو الا تستطيع توفير الحياة لك ، لهذا فسوف أمنحك مرتبا شهريا حتى لاتعانى ، ولكنك ستأتى معى إلى قبوى كلما أرسلت فى طلبك » وأجاب الكونت وهو يقذف بقبعته إلى الأرض : « بكل سرور يا سيدى عبدك يا كابتن ميخائيليس الشهير ! » .

ولف « فوروغاتوس » الرجل العجوز الصغير فى عباءته كالطفل ، فقهقه هذا شاكرا كما لو كان أحد قد دغدغته .

وقال « فيندوسوس » :

- « تجلد يا بيتروودولوس فنحن مقبلون على عاصفة هوجاء يا صديقى المسكين ، ففى هذا القبو سوف تولد الحرية اليونانية » .

وأجابه « بيتروودولوس » فى تيه وهو يخرج من عباءته ربطة كان يحملها تحت ذراعه : « لا تقلق يا سينيور فيندوسوس ، فقد اخذت احتياطاتى لكل الاحتمالات » .

وتحسس « فيندوسوس » الربطة بأصابعه وقال : « ماذا بداخل هذه الربطة يا سينيور بيتروودولوس ؟ » .

وأجابه الرجل العجوز النظيف وقد أحمر وجهه : « غيار .. قميص ! » .. وصاح « فوروغاتوس » وهو يقذف بسيجارتة بعيدا : « حسبكم ! .. لقد دخنا بما فيه الكفاية ، الآن هيا يا اولاد ، هيا امضوا إلى المشكلة العويصة ! .. إلى الامام .. والله معنا ! » ..

واشتبكت أذرع الثلاثة ، واتجهوا إلى باب الكابتن ميخائيليس ، و« بيتروودولوس » فى الوسط .

رجل متوسط العمر ، ذو لحية شقراء متماسكة ، وعينين براقيتين وحشيتين مستديرتين كالبيض ، ورأس تحتويه لفائف عمامة تركية عريضة بيضاء تركت أذناه فيها علامتين حيث لاتكاد تغادر رأسه حتى يكون مهياً على الدوام للدخول بها إلى الجنة ، ذلكم هو أفندينا ، كان منذ سنوات مضت قد زار « مكة » ، ومنذ تلك الأيام المقدسة امتلا عقله بحرما وعطشها وباللهب والفرع ، وعاد إلى « ميجالوكاسترو » ليصبح درويشاً في إحدى التكايا التي كان أحد أسلافه يوماً ما ولياً من أوليائها ، وظل رديحاً من الزمن يستقبل عدداً من الأطفال الأتراك يعلمهم القراءة والكتابة ، يضرهم أحياناً .. وأحياناً يضربونه ، حتى كان يوم شج فيه رأسه ابن اخت « نوري بك » .. إبراهيم .. وكانت نهاية المدرسة .

وكانت « التكية » قرية من كنيسة القديس ميناس ، ساحة منبسطة مستطيلة مزروعة بالكرونب ، في أقصى نهايتها ثلاثة أقباء صغيرة خربة ، وفي وسطها يقوم قبر الولي ، قبر خشبي ذو شاهد قائم من الرخام تعلوه عمامة خضراء محت الأمطار والشمس الكلمات المذهبة المنقوشة فوقه ، وحول القبر .. وقرباً منه مقاعد صغيرة وكبيرة يجلس فوقها المريدون كل يوم جمعة يجدون في الولي ويدخنون « النرجيلة » ويحتسون القهوة التي تعدها لهم قارئة التعاويذ « حميدة مولا » والدة أفندينا .. أما العمامة فقد كانت فارغة من الداخل ، وكان المريدون يضعون العملات النقدية الصغيرة بداخلها لكي يضمنوا مساعدة الولي لهم في شئون دنياهم .. وفي آخرتهم .. ولم يكونوا يهتمون بهذه « التشكيلة » من الأشياء التي يتوسل من أجلها المسيحيون إلى قديسيهم ، فبحسبهم في الدنيا والآخرة ، طعام جيد .. وامرأة جيدة .. وشجاعة جيدة ! ومن ثم كانوا يقذفون داخل العمامة بهداياهم طلباً للشفاعة .

وفي كل صباح ، وعندما تشرق الشمس ، كان أفندينا يجلس في الساحة وقد شبك ساقيه ووضع فوق ركبتيه مصحفاً ضخماً وأخذ يهتز إلى الأمام وإلى الخلف حتى يصيبه الدوار .. ثم يبدأ في الترتيل ، وإذا أحس بالبرد نهض واقفاً وبسط ذراعيه ودفن رأسه في كتفيه وبدأ يرقص مثل الدراويش وهو يصفر ويصق ويدق بقدميه حتى يسرى الدفء في جسده ، فإذا انتصف النهار واستبد به الجوع أخذ يجري كالمجنون من طرف الساحة إلى طرفها الآخر وهو ينفث مثل الكير وقد تصبب عرقه وهو لا يضع

فوق جسده سوى عمامته وسرواله ، وتجمع الجيران ليشاهدوه عن كثب من خلال النافذة المطلة على الشارع ، بعضهم يضحك ساخرا منه ، والبعض الآخر يشفقون عليه ويقولون : « بحق الله يا أفندينا .. ماذا دهاك ؟ » .. فكان يجيبهم على الفور : « أحس بلهيب داخلى يا جيرانى » .

وعندما كان يترك مكانه لأمه العجوز وينطلق إلى الخارج ، كان الأطفال اليونانيون يقذفونه بالحجارة فيطلق لساقيه العنان محاولا أن يقفز من فوق ميزاب إلى آخر فلا يقدر ، فقد كان الشارع يبدو أمامه وكأنه يود لو استطاع أن يقفز إليه ولكنه لم يكن يجزؤ على ذلك ، فكان يتراجع مرتعشا عاجزا عن السباحة .

وكان الكابتن ميخائيليس يدعو أفندينا كلما أعد لجلسة شراب ، فقد كان يحب أن يضم إلى مجلسه سقطا تركيا ، وكان أفندينا يستقبل الانباء فى خوف وشغف معا ، فقد كان يعد الشهور التى تمر قبل أن يعود إليه « شاريتوس » وهو فى « النكية » ليهمس فى أذنه : « تحيات عمى الكابتن ميخائيليس ، وهو يرجوك أن تذهب إليه فى القبو » ..

وطوال العام كله .. كان « أفندينا » يتحرق شوقا إلى لحم الخنزير والخبز الأبيض والمقائن والخمر ، ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يسمح له بأن يشرب الخمر أو يأكل لحم الخنزير ولا أن يرفع بصره إلى عيني امرأة ، ولو أن ذلك حدث .. لأصابته الرعدة جسده .. وقد حدث مرة أن كادت له واحدة من هؤلاء النساء الصغيرات .. فتظاهرت بأنها وقعت فى غرامة ، وساعتها ، ارتمى هو فوق الأرض وقد علا الزبد فمه .. ولكن متعة واحدة فقط بقيت له فى دنياه ، متعة تحمل معها الخطيئة ولكنها متعة ثمينة ، دعوة الكابتن ميخائيليس له كل ستة أشهر ليشرب الخمر ويأكل لحم الخنزير وليملأ كيانه الهزيل للأشهر الستة القادمة ، وقد تعود أن يقول له فى كل مرة : « بحق ما أؤمن به يا كابتن ميخائيليس ، هددنى ضع سكينى فوق عنقى وصح فى وجهى ، ألتم لحم الخنزير وعب من هذه الخمر أو أقتلك ! أجبرنى على ذلك يا كابتن ميخائيليس حتى لا أكون قد ارتكبت خطيئة ، وهكذا ، كان يأكل ويشرب ويمارس كل كفر وتجديف حبس بعيدا عنهما فى الأشهر الستة الماضية كذلك فقد كان يكشف ما كان يعرفه عن « جاره » - وهكذا كان يسمى « القديس ميناس » فلم يكن يفصله عنه

سوى حائط ، وكان بمقدوره أن يراه كل ليلة يخرج من الكنيسة ممطيا صهوة جواده فينتابه الذعر ويدفن رأسه فى الوسادة حتى إذا أصبح الصباح سرق الزيت من مصباح جده ليملا به سرا قنديل « القديس مينا » المسيحى .

وطوال ستة عشر يوما فى العام ، كان أفندينا يشرب ويكفر فى قبو « الكابتن ميخائيليس » كرجل حقيقى ، ثم يبدأ ذهنه فى العمل مثل الساعة فلا يحس باللهيب داخل جسده ، ويظل يقفز من رصيف إلى رصيف بلا خوف ، ولكن الأيام الجميلة كانت تمرق مثل البرق .. لتعود إليه الولاية والتضحية مرة أخرى !

وطوال الليلة الماضية أعجزته سعادته عن النوم ، فقد قام فى الظلام وانسل إلى الفناء حافى القدمين وفتح الباب فى هدوء حتى لاتسمعه أمه ، وانطلق خارجا ، وسار مستترا بسور « القديس مينا » واجتاز المدرسة اليونانية حتى وصل إلى مسجد « سانت كاترين » ، وهناك .. توقف ، وأحس بعرق بارد يتساقط من جبهته ، إن عليه الآن أن يعبر الطريق إلى الرصيف الآخر ليستدير متجها إلى بيت « الكابتن ميخائيليس » وقدم رجلا .. ولكنه مالبت أن أخرها وقد بدأت تستبد به الرعدة ، لم يكن ذلك الذى أمامه شارعا ، ولكنه كان مياه عميقة تدیر فى دواماتها صخورا متناثرة وهى تجرى هادرة فى طريقها مابين الرصيفين .

واستند أفندينا إلى الحائط ، ومسح عرقه وظل يحرق فى الشارع : الآن يمر بى الآن شخص ما - تركيا كان أو مسيحيا ، أو حتى يهوديا - لكى يشفق علىّ ؟ .

وظل أفندينا ينتظر لاهث الأنفاس ، هناك على الطريق الآخر للمشاة .. يوجد النبذ ولحم الخنزير والمقانع ، تشجع يا قلبى ، قفزة واحدة !

ومرة أخرى هيا نفسه لكى ينطلق جريا ، ولكن ما إن انحنى إلى الامام حتى رأى الشارع يرتد وينكمش إلى الخلف ، فعاد يلوذ بالحائط .

ومن فوقه بدأت مئذنة القديس كاترين تومض متوهجة فقد أدركت أشعة الشمس بالفعل عتبات البيوت وبدأ فرن « تولوباتاس » يشيع رائحته ، وتناهت من كنيسة القديس مينا ترتيلات عذبة عالية .

أما من مسيحي واحد فى طريقه إلى الكنيسة يمر بهذا الطريق ويرحمنى ؟ أما من أحد يمر بى ؟ أصبح العالم مهجورا ، وأى صحراء هذه ياترى ؟ .. لقد انتهت ! .

وفجأة صاح وهو يرتجف أيها المسيحيون النجدة !

وفتح باب فى مواجهته ، باب مرتفع مزين بقارع برونزى ثقيل ، وبرز منه السيد « شاريلالوس ليونداراكيس » الصراف الجشع - القزم ذو الأرداف الثقيلة واللحية الوحشية والأصابع القصيرة التى يكسوها شعر كثيف ، كان ينتعل حذاء سميك النعل ، ويرتدى سترة قصيرة فى لون القهوة ويمسك بعضا مقبضها فضى على شكل رأس أسد ، كان « شاريلالوس ليونداراكيس » ينتمى إلى إحدى عائلات البندقية ذات المكانة التى أصبحت من عائلات كريت ، وكان لأسلافه علم عليه رسم أسد ، كما كانوا يحفرون نفس الرسم فى قصورهم .

كان فى طريقه إلى الكنيسة ، ونظر إلى أفندينا وبدأ يضحك فى سخرية كان يجب رؤية المخابيل والمجدومين والعميان والشحاذين وذوى الحظوظ السيئة ، فقد كان ذلك يبعث الارتياح إلى قلبه بسبب منظره هو نفسه ، وصاح :

- « أفندينا ، تشجع أيها الأحمق المسكين ! اقفزا ! » .

وصاح الرجل المسكين :

- « ألا تخش الله يا مستر شاريلالوس ؟ بحق هذا اليوم الذى يشرق علينا الآن إلا اقتربت امد إلى يدك وساعدنى على العبور ! أريد أن أذهب إلى بيت الكابتن ميخائيليس فلا أستطيع ! » .

وبرزت من الباب فتاة ذات شفتين ممثلتتين ووجه صغير أسود ، وكان « شاريلالوس » يمارس معها الحب ويصعد فوق مقعد صغير حتى يستطيع أن يقفز إلى فراشها ، وفى إحدى الليالى قدمت له إحدى نصائحها : « سيدى ابتلع كل صباح (على الريق) بيضة طازجة ! .. ابتلعها والله يساعدك ! » .. وهكذا ، كان القزم الصغير يبتلع كل صباح بيضة .. لكى تجعله قويا !

وقالت الفتاة الخبيرة وهى تدس بيضة فى يده :

- « سيدى لقد نسيت البيضة ! لقد باضتها الدجاجة الآن فقط ! » .

وأخرج « شاريلالوس ليونداراكيس » مدية الجيب الصغيرة ، وأحدث ثقباً بالبيضة من أحد طرفيها وثقباً فى طرفها الآخر ، وأحنى عنقه القصير البدين إلى الخلف وابتلع البيضة .

وصرخ أفندينا من جديد :

- « ساعدنى يا سيد شاريلالوس إذا كنت تؤمن بالله ! » .

وضحك القزم الصغير وقال وهو يداعب عصاه :

- « سوف تعود فتاكل لحم الخنزير يا مسكين وتدنس نفسك ! » ..

- « سأذهب حتى لو تخطفتنى الشيطان ! مسكين أنا ! تلك هى المتعة الوحيدة لى فى هذه الدنيا ، وسوف تكافأ على مساعدتى ، مد عصاك يا سيد شاريلالوس حتى أمسك بها » ..

وأشفق الله على « أفندينا » ، فقد برز من الناصية عجوز أقرع ينتعل قبقاباً ، قادماً من الحديقة العامة حاملاً فى يده غرارة ملأى باللفت البرى ، ومد « أفندينا » ، ذراعيه وصاح :

- « يا عزيزى على أغا .. يا عزيزى على أغا ، أنت رجل طيب ومسلم صادق ! إن أمامى ماء كثيراً ونارا مستعرة ! خذ بيدي خلالهما ! » ..

ودون أن ينطق بكلمة ، أخذ الرجل طيب القلب بيد « أفندينا » وقاده فى بطنه وحرص إلى الرصيف الآخر ثم استدار إليه ليقول شيئاً ، ولكنه فكر جيداً - ماذا ترى يقول له ؟ وضع الغرارة تحت ذراعه ومضى فى طريقه ، ماذا يمكن أن يقول له ؟ إن الله رحيم ... رحيم وقوى .. وقادر على أن يحيل الخنزير إلى حمل داخل الفم ويحيل الخمر إلى ماء .. إن الله يفعل مايشاء .. كل واشرب يا أفندينا وثق بالله ..

وعندما وصل « أفندينا » لاهتا إلى بيت « الكابتن ميخائيليس » كان كل ضيوفه قد نزلوا إلى عرين الأسد .. وكان « شاريتوس » يروح ويجىء بين المطبخ والقبو يبحث عن المشهيات ، وارتعشت خياشيم « أفندينا » فى شغف ، وتناهت إلى سمعه أصوات الأكواب الزجاجية من تحت الأرض ،

وتسللت إلى خياشيمه رائحة المقاتق ، فاستند إلى الباب حتى لا يغمى عليه ! ولحظتها خيل إليه أنه يسمع صوتا : « يا أفندينا روث الخيل ! اتبيع روحك مقابل لقمة من لحم الخنزير ؟ تذكر مكة ، والصحراء ، والجمال والبخور والحجر الأسود .. تذكر جدك الذى طالما أذن فى الناس بالصلاة من المأذنة أياما وليالى طوالا وهو فى صيام دائم لا يأكل ولا يشرب ، وتذكر رقدته الآن فى وسط كهف من نور يجرى أمامه نهر من لبن وقشدة .. أنت من عائلة كلها أولياء صالحون ، لاتنس ذلك ، يا أفندينا روث الخيل ، أنت ماض هذه الساعة إلى الجحيم ، ولكن الباب لايزال مفتوحا .. فاهرب ! » ..

وارتعش « أفندينا » واتجه ببصره إلى باب الخروج .. ثم إلى باب القبو حيث تخرج رائحة المقاتق .. وما أن بدأ يتخذ قراره ، حتى خرجت « كاترينا » إلى صحن البيت ورأته فقالت :

- « أهذا أنت يا أفندينا ! أنزل بسرعة حتى لا تندم » .

- « هل الطعام جاهز يا سيدتى كاترينا ؟ » .

- « نعم .. أسرع » ..

وغمغم « أفندينا » :

- « هذه مشيئة الله ، هوسبحانه أرسل إلى السيدة كاترينا ، فلا ينبغي لى بعدها أن أقاوم : المقاومة الآن خطيئة كبرى ، أفأعصى الله ؟ يا الله .. يا الله .. أنى أتوسل إليك أن تنعم على بنعمة واحدة : دعنى أرتكب كل الخطايا ، ودعنى أيضا - أنا المسكين - استمتع بهذه الدنيا فوقى ، وقبل أن يدركنى الموت بنصف ساعة فقط ، امنحنى الوقت كيما أتوب إليك ! ألا تكفى نصف ساعة ؟ إنها تكفى ولاشك .. أتوسل إليك ! » ..

ثم قفز ودفع الباب الصغير وهبط إلى القبو ...

جلس الكابتن « ميخائيليس » فوق مقعد مرتفع فى مواجهة الباب وقد بدا وجهه عابسا غارقا فى سحابة من دخان سيجارته ، وقد تدلى سوطه من مسمار بالحائط فوق رأسه ، وإلى اليمين واليسار منه مقعدان طويلان جلس فوقهما أربعة من ضيوفه : « فيندوسوس » و« كارجابيس » إلى ناحية ،

و« فورديجاتوس » و« بيتروبولوس » فى الناحية الأخرى ، وفوق المائدة المرتفعة كانت المشهيات لاتزال ينبعث منها بخارها ، وكانت الخمر تتلالا حمراء قانية كالدم فى أكواب ضخمة ، وكان « فيندوسوس » قد أسند قيثارته إلى ركبتيه وقرب منها أذنه وهو يضبط أوتارها بينما تدر « بيتروبولوس » فى عباته مرتعشا سعيدا فى حماية « فورديجاتوس » - وهو يأكل بلا توقف ، أما « كاجابيس » فقد كان يأكل ويشرب .. ويفكر فى زوجته ..

وظل الكابتن « ميخائيليس » يملا كوبه مرة تلو الأخرى ويشرب دون أن تمنحه الخمر أدنى متعة . كان يكرهها ، وفى كل مرة كان يرفع كوبه إلى فمه فيحس أن شفثيه تقاومانه وترفضان ، ولكنه كان فى كل مرة كان يفرغ الكوب فى معدته على الرغم منه ليخمد هذه المردة التى تلبسته ، والتى كانت هى الأخرى تخاف الخمر ، كانت مردة من أصوات وحشية ، أكثرها ليست أصوات بشر ، بل أصوات وحوش تزار بمجرد أن تنفتح المتاريس بداخله وتدع الخيالات القديمة تقفز أمام ناظره ، نمر ، وذئب ، وخنزير برى ، وبعدهم جميعا أجداده الذين يكسو الشعر أجسادهم .. خارجين من أعماق كهوف « بسيلورتيس » .

أما الآن ، فقد كان هناك مارد من نوع جديد يعلن عن نفسه فى أعماقه ، لم يكن يجار كغيره .. ولم يكن يهدد ، بل كان يضحك ، ولم تكن أنفاسه منتنة ، ولكنها كانت عذبة ، ولأول مرة أحس « الكابتن ميخائيليس » بالخوف فظل يملا كوبه ثم يعود ليملاه .. ويشرب .

وعندما انصفق الباب مفتوحا ، وظهر « أفندينا » ، رفع « الكابتن ميخائيليس » رأسه بينما فرك « أفندينا » يديه فى ذهول وهو يخطو خطوة إلى الأمام دون أن يهبط الدرج كله ، وهربت منه الكلمات وسط اضطرابه ، كان يريد أن يقول : « تحياتى يا كابتن » ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بها فقد تلعثم .

ورفع « الكابتن ميخائيليس » يده وأشار إلى مقعد منخفض فى مواجهته وقال « اجلس ! » .

وسأله « فيندوسوس » دون أن يرفع أذنه من فوق قيثارته :

- ماذا تريدنى أن أعزف يا كابتن ميخائيليس ؟ .

وكان « فوروجاتوس » قد نهض واقفا وأزاح المقاعد جانبا ليهيئ لنفسه مكانا ، كان مثلهفا على أن يبدأ ، وكان يحس كما لو أن نعليه يحترقان ويدغدغانه ، ربما كانت الخمر تؤدي بالآخرين إلى الغناء أو المزاح أو حتى البكاء أو النعاس ، ولكنها كانت تدفع هذا الرجل الطويل الغليظ « فوروجاتوس » .. إلى الرقص ، كان يشرب ، ثم يرقص فيعود إلى وعيه ، ولكنه في الحقيقة لم يكن يعود إلى وعيه ، كل ما في الأمر أن حالة السكر كانت تأخذ شكلا آخر : كانت تتحول إلى محاولة يائسة غير مثمرة لمنع جسده جناحين ليظهر بهما القوانين التي لا تقهر .. ولم يكن يستطيع ، ومن ثم فقد كان يعود إلى الشراب ليتزود بقوة جديدة تساعد على التحليق .

وأجال الكابتن « ميخائيليس » بصره في ضيوفه الخمسة : لا الغناء ولا الرقص ولا القيثارة يمكن أن تخفف ما بقلبه اليوم ، واستقرت نظرتة على « أفندينا » .

وصاح « أفندينا » محذرا :

- « سيدي ، لا تطلب مني أن أبتسم وأرتكب الدنس ، هددني أولا .. أجبرني على أن أفعل ما هو ضد رغبتى فأكل وأشرب ، وبعدها ستكون لدى الشجاعة ! » .

ولكن « بترودولوس » وقد أكل وشرب وواتته القوة تدخل وقال في صوت كالغناء :

- أيها النبيل كابتن ميخائيليس ، هل لي - لكي تقطع الوقت - أن أحكي لك حكاية قديمة مشهورة من قصص البندقية ، لقد رأيتها بعيني رأسي وأنا في الشرفة ، ومنذ ذلك الحين لم يقر لقلبي قرار ، ما أقل مانسيت مراة الحياة ، لأنني كنت دائما أحمل في مخيلتي صورة ابنة هذا الرجل النبيل .. التي قتلت قتلة قاضحة .. صورة ديدمونة .

وسأله الكابتن ميخائيليس وقد ذوى ما بين حاجبيه :

« من ؟ » .

- « ديدمونة يا سيدي الكابتن المحترم ، ابنة هذا النبيل من البندقية ، ألم تسمع عنها ؟ لقد أحبها بربري ، كان جنديا عظيما ، ولكنه كان غيورا

فقتلها بلهيب الحب ، تناول منديلا » .

ورفع الكابتن ميخائيليس قبضته ليوقف القم الذى جلله العار ، وقال :

- « بمحضرى ، لن يكون هناك حديث عن النساء يا بترودولوس » .

وتغضن وجه « بترودولوس » ، واحتبست الحكاية الفينيسية فى حلقه
ورفع « فيندوسوس » قوسه ذا الجرسين فى الهواء وتساءل :

- « ماذا إذن ؟ » .

واستند الكابتن ميخائيليس إلى الحائط بكل ثقله وقال :

- « إعزف ماشئت بحق الشيطان ! » .

وأفرغ « كاجابيس » كأسه ومسح شفثيه ، ورفع « فوروجاتوس » قدمه
اليمنى وقد ثبت عينيه فوق القيثارة .. وتنهياً للتخليق ..

ولكنه لم يخلق ، فقد اهتز البيت وطلقت الجدران وقبض
« بترودولوس » البرميل خلفه بقوة على لا يسقط .. بينما هوت صفوف
السفرجل والرمال والشمام المرصوفة فوق الأرصف .. هوت إلى الأرض
وتدحرجت فى كل مكان وقفزت حتى وصلت إلى مستوى المائدة ..

وصاح « فيندوسوس » : « زلزال ! » واندفع يريد الخروج إلى العراء ،
بينما كان « كاجابيس » قد مد يده نحو الباب وفكره يعدو نحو الميناء ..
نحو كوخ متواضع ، يبحث عن « جاروفاليا » ، أما « أفندينا » فقد سقط
على أنفه فوق الأرض وهو يحاول أن يتشبث بشىء ..

ومن أعلى ، تنهات صرخات امرأة ووقع أقدام ، واضطراب وانتحب
« فوروجاتوس » وهو يصرخ :

- « بحق الله ! .. افتحوا الباب لنخرج ! » .

ولكن « الكابتن ميخائيليس » جذب السوط من فوق رأسه وصاح :

- « ألا تخجلون من أنفسكم ؟ » .

ووجد « فوروجاتوس » فى نفسه شجاعة ليقول :

- « ولماذا نخجل ؟ إنه زلزال يا كابتن ميخائيليس . إنه ليس بشرا تستطيع أن تتغلب عليه ! » .

وبينما هو يقول ذلك قرقرعت من باطن الأرض أصوات رعد كأنها خوار ثور ، وبدأت أجراس « القديس ميناس » تدق دقاتها المألوفة .

وصاح « بيرتودولوس » وقد لف رأسه بعباءته :

- « النجدة يا قديس ديونيسس ! أنا الكونت مانجيافينوا » .

وفرقع « الكابتن ميخائيليس » بسوطه فى الهواء وصاح :

- « لا أحد يتحرك ! ارفعوا أفندينا من فوق الأرض وأسندوه إلى البرميل » .

ثم جذب العباءة عن « بيرتودولوس » وهو يقول :

- « ليس الزلزال شيئا ذا بال يا بيرتودولوس ، كريت شىء حى ، وهى تتحرك ويوما ما سوف أرى كيف تجد طريقها لترتبط باليونان » .

فجأة اعتدل مزاجه وتكلم ، كان لايزال صبيبا يوم خرب الزلزال الكبير نصف قريته ، ولقد رأى يومها النساء والرجال أيضا حيارى يصرخون ويصيحون .. ويدفنون تحت أنقاض بيوتهم .

أبوه « الكابتن سيفاكاس » وهو وحده - ودون أن ينطق بكلمة واحدة - رفع ذراعيه ويديه ليدعم إطار باب البيت ، وظل رافعا كوعيه عاليا حتى استطاعت زوجته وأطفاله وزوجان من الأبقار وفرسهم الرمادية أن يجتازوه إلى الخارج ، وبعدها قفز هو قفزة واحدة ليلحق بهم ، ثم انهارت جدران البيت ، ومنذ ذلك اليوم لم يعد « الكابتن ميخائيليس » يخشى الزلازل ، فقد أدرك أن الرجل الحق يمكن أن يسيطر عليها ، وملا الأكواب ، وشربوا ، وعادت قلوبهم إلى أماكنها .

أما هناك على السطح فوقهم ، فقد اندفعت الجارات خارج بيوتهن يصرخن ، حتى « أركوندولا » - هذه العجوز « الناشفة » الحامضة - خرجت إلى الشارع هى وشقيقها الأصم الأبكم فى ذراعها ، كانت هى الأخرى قد اختلطت بجاراتها وأصبحت واحدة بينهن ترتجف وتصرخ كما لو لم تكن تنتمى إلى أسرة ذات مكانة .

وكان المطران فى تلك اللحظة يقدم عظته داخل الكنيسة ، وقد تحدث فى البداية عن الرب ، ثم مالبت خطابه أن انحرف فترك السماء لحالها وهبط إلى كريت ، ووقف الكاهن أمام عرشه المموه بالذهب وحلق صوته العميق تحت القبة المرسوم عليها صورة السيد المسيح وهو يحدق فى غضب ، ومن هذه الصورة كان الصوت يستمد قوته ثم يهبط ليدوى فى أرجاء الكنيسة بينما كان المسيحيون يقتربون أحدهم من الآخر كما لو كان هو حقا السيد المسيح يبعث إليهم صوته من أعلى الكنيسة ، ويحتنون رؤوسهم وهم يرتعشون .

قال الرجل العجوز :

« يا أولادى ، الآن يجىء الصيام الأكبر ، وتقرب الآم المسيح ، ولا بد أن يسيطر الخوف على الانسان ويركز أفكاره فحسب فى ذلك الدم الذى أريق فوق الصليب ، سامحنى الله .. إئننى أتحدث عن الآم المسيح بينما أنا أفكر فى كريت » ..

ورفع يديه إلى قبة الكنيسة حيث صورة المسيح ، وصاح :

« كم مرة .. وكم جيلا .. وكم ألفا من أبناء كريت مثلى ، رفعوا أيديهم إلى السماء صارخين ، (حتى متى يا إلهى .. حتى متى ؟) نحن لسنا حجارة أو خشبا مسندة يا إلهى ! نحن أرواح .. أرواح أنت وهبتنا إياها ، نحن رجال ونساء ، فإلى متى إذن تهرق دماء كريت ؟ إن البحر كله ابتداء من شواطئ كريت حتى Hellespont حتى القسطنطينية .. أحمر اللون » ..

وتأمل ماحدث بعد ذلك ! .. بينما كان الرجل العجوز يقف منتصباً محدقاً فى القبة ، وبينما ران الصمت لحظة كما لو كان الجميع فى انتظار الإجابة : اهتزت الكنيسة كلها وتراقصت الأضواء ودقت الأجراس دون أن يلمسها انسان .

وارتفعت الصيحات « زلزال ! زلزال ! » وهرعت النساء من الجانب المخصص لهن فى الكنيسة وتزاحمن ووطأن بأقدامهن الواحدة الأخرى مندفعات نحو الأبواب ، ووقف المطران جامداً مذعوراً بلا حراك ، وهو لا يزال يحدق فى صورة المسيح ، بينما اندفع « مورزوفلوس » نحوه وألقى

ذراعيه حوله واتجه به بعيدا عن عرشه خلال باب جانبي يؤدى إلى ساحة الكنيسة ، ثم ربت على كتفيه فى ود وهو يقول :

« لاتخف يا سيدى ، إنها هزة أرضية وستنتهى » .

وغمغم المطران وقد امتلأت عيناه بالدموع .

« لقد أخطأت يا إلهى ، لقد أخطأت ، فبدلا من ان أتحدث عن الامك تحدثت عن كريت .. »

اما الكابتن « بوليكسيجيس » فقد كان يسير وسط الحى التركى ، وبينما كان المسيحيون يؤدون صلواتهم كان هو قد تهيأ للخروج ، حليقا ، قد بلل شعره بكثير من ماء اللاوندا ، وفوق رأسه طربوشه المائل إلى جانب . كان يسير وحده وجذاؤه ينز كلما لامس الأرض ، ويحس داخل جسده بسعادة غامرة ، كان فى قمة قوته .. مثل حصان .. مثل ثور يجوس خلال الحقول فى الربيع .. كانت كل أعضائه تعمل بلا أدنى صوت : قلبه .. معدته .. وأمعائه .. كانت كلها تؤدى وظيفتها دون أن تتشاجر أحداها مع جارتها ، وكانت جميعا - فى طاعة وروح جماعية سعيدة - تكون بناء الكابتن « بوليكسيجيس » ! !

وغمغم يقول لنفسه :

« إنه لمؤسف حقا ان الشباب فى الكائن البشرى لا يدوم ألف سنة ! أيمكن أن يكون السبب أن الله يخشى أن نأخذ منه عرشه ؟ لهذا السبب يا ترى يجردنا فى حذق من أسلحتنا .. قطعة قطعة ؟ فهو يخلع أسناننا ، ويلوبل مفاصلنا ويضعف كواثنا ويلقى العتامة فوق عيوننا ويجعل أنوفنا وأفوامنا تقطر الرجل والبصاق ... إن الموت لا يقلقنى ، بحق روحى إنه لا يقلقنى ، فهناك شىء يتبغى أن يقال فى صدد التغلب تماما على هذا القلق ، ولكنى لا أطيق صبرا على أن أنحدر شيئا فشيئا لأصبح مجرد صورة .. » ..

كانت العبارة الأخيرة لاتزال معلقة فوق شفثيه عندما بدأ الحى التركى بأكمله يترنج .. وتهاوت الأبواب وارتفعت صرخات النساء ممتزجة بطرقة الكتل الخشبية فى أفنية الدور ، وبرزت « روهينى » .. المرأة البربرية من إحدى النواصى وهى تصرخ « الرحمة يارب ! » ، والصينية المستديرة

تتأرجح فوق رأسها والكعك الممزوج بالسمن يتساقط من فوقها إلى الأرض ليختلط بالقاذورات والروث .

وبعد الكابتن « بوليكسيجيس » ما بين قدميه ليقف ثابتا فوق الأرض فلا يسقط ، بينما استند على جدار - شاء حظه أن يكون قريبا من منزل « نوري بك » .

اكتسى وجهه بعرق خفيف وغمغم « زلزال ! » . إنه يستطيع أن يواجه أى شيء - المرضى والأعداء .. والنساء ، ولكن كيف يمكن أن يواجه زلزالا ؟ .. فكيف له أن يعرف ما سيفعله هذا الزلزال ؟ وشحب وجهه ودار حول نفسه وأدرك أنه كان يقف أمام الباب الأخضر لبيت « نوري بك » وكان فى مقدوره أن يسمع الأصوات المذعورة بداخله .. فأرشف أذنيه وانتظر : هل ستتشق الأرض وتبتلع الناس أم أن ذلك كان مجرد موجة زعر وتنتهى ؟ « ميجالوكاسترو » كلها .. انتظرت حابسة الأنفاس . حتى الكلاب التى كانت قد بدأت تنبح ، سكنت ذيولها وانتظرت هى الأخرى وقد قف شعرها ، وبدأ ينتشر ضوء أصفر معتم بينما تناهت من تحت الأرض أصوات كأنها نفخ فى مزار ، ثم مالبت البيوت أن اهتزت مرة أخرى وتأرجحت المآذن مثل أشجار السرو ، وانهار الجدار الذى كان يستند إليه الكابتن « بوليكسيجيس » ، وتناهت من داخل منزل « نوري بك » أصوات تكسر الزجاج والأطباق والمصابيح وهى ترتطم بالأرض وتتدحرج فوقها وتتحطم .

وفجأة .. فتح الباب الأخضر ، واندفعت من خلاله « أمينة هانم » تصرخ ، وقد خرجت مسدلة الشعر حافية القدمين ، ثم سقطت مفشيا عليها وسط الشارع وخلفها خرجت المرأة البربرية المسيحية وهى تحمل لها شبيشبا الأحمر الصغير ، وانحنى المرأة فوق سيدتها ونادت عليها ، ولكن « أمينة هانم » ظلت ملقاة فوق الصخور ورأسها مائل إلى الخلف أبيض مثل الشمع .

وأبصرها الكابتن « بوليكسيجيس » .. وغمغم « أمينة هانم ! » . ثم ابتعد عن الحائط واقترب منها فما لبث أن أحمر وجهه الشاحب ، فطالما اشتاق إلى أن يرى هذه المرأة الشركسية المتوحشة .. وهى ذى ملقاة أمامه .. فماذا يهيمه الآن من الزلزال ؟ - بشعرها المسدل وقدميها العاريتين .. تماما كما تمنى أن يراها من قبل ..

وانحنى نحوها فى شغف ، ولكن المرأة البربرية أمسكت به فى عنف
ودفعته بعيدا وصاحت متوعدة :

- « لا تقترب ، فهذه زوجة نورى بك ! » ثم جذبت بعنف وشاح سيدتها
لتغطى به وجهها ..

وقال الكابتن « بوليكسيجيس » :

« إذا لم تشم ماء اللاوندا فسوف تموت هذه المسكينة » ..

ثم أخرج من جيب صدره زجاجة عطر صغيرة يحملها دائما ، ففتحها
وانحنى فوق ركبتيه وقربها من فم المرأة الشركسية .

وكانت الأرض قد عادت ثابتة كما كانت .. وبدأ قلب « ميجالوكاسترو »
يدق من جديد دقاته العادية ، كما وجدت الكلاب هى الأخرى فى نفسها
الجرأة لكى تعود فتنبج فى وجه الزلزال !

وتنفست الشركسية بعمق ، وفتحت عينيها فأبصرت رجلا لا تعرفه
ينحنى فوقها فصرخت وهى تغطى فمها بكفتا يديها .

وقالت المرأة البربرية للرجل :

« ابتعد ! .. ابتعد عن هنا إذا كنت تهتم بحياتك ، فسوف يكون نورى
بك هنا فى لحظات » ..

ولكن الكابتن « بوليكسيجيس » كان يحدق فى عيني الشركسية ، كيف
يستطيع أن يقرر الآن ما إذا كان يفضل الموت أو الحياة ؟ كانت العينان
السوداوان فى البداية قاسيتين مليئتين بالاحتقار ، ولكن الشركسية مالبت
أن لانت فى بطنه وهى تدع أنفاس الرجل الثقيلة ورائحته النفاذة تهوم
فوقها ، ثم استدارت نحو خادماتها وسألتها :

- « من يكون هذا الكافر ؟ » .

وأجابها هو بنفسه :

« الكابتن بوليكسيجيس .. خادمك يا سيدتى .. احتفظى بهذا العطر
حتى تذكرينى » .

ولكن المرأة الشركسية قذفت بالزجاجة فى وجهه ونهضت واقفة وقد عادت عيناها غاضبتين مرة أخرى .

وقال الكابتن « بوليكسيجيس » وهو يتنهد :

- « سوف أمضى .. لا تغضبى » .. وهنا .. قالت المرأة الشركسية فى احتقار : « خائف ؟ » ..

- « ممن ؟ » .

- « من نورى بك » .

- « أنت ياسيدتى .. الانسان الوحيد الذى أخافه ، وإذا أنت طلبت منى الآن أن أقتل نفسى ، فسوف أفعل ولا أقترب منك مرة أخرى » .

ولكنه خشى كلماته ذاتها .. فردها إلى صدره ثم قال فى جراءة :

- « إذا كان هناك اله فى السماء ، فسوف اقترب منك يوما ما يا أمينة هانم ، يوما ما ، سوف اقترب منك ، وليفن هذا العالم كله ! » ..

وتفحصته الشركسية بعينين غاضبتين نصف مغلقتين ، كما لو كانت تحاول أن تقيمه ، كما لو كانت تقيمه قبل أن تشتتريه ، ووقف الكابتن « بوليكسيجيس » فى ثبات وقد وضع يده اليمنى فوق زناره الحريري .. وانتظر ..

وقالت الشركسية وهى تغطى وجهها بوشاحها بلا عجلة :

- « إن إلهى يرى اليونانيين أشياء تشير الاشتمزاز » ..

ورد الرجل :

- « إن إلهى يحب النساء الشركسيات .. وهو عظيم قادر » ..

وتناهت إليه أصوات ، فاستدار ورأى رجلين تركيين بيرزان عند إحدى النواصى .. وفتحت أبواب .. وأحاطت المرأة البربرية سيدتها بذراعاها وأسرعت بها داخل البيت ، وأغلق خلفهما الباب الأخضر .

وتهيا الكابتن « بوليكسيجيس » للسير ، ولكن ركبتاه كانتا

كالمشلولين .. وغمغم يقول : « لقد انتهيت .. انتهيت ! .. تماما كما لو كنت لم أقبل امرأة أو عرفت اللهو أو لمست امرأة .. من لى الآن بنار أقتحمها لكى أبرد الآن جسدى ؟ » ..

وتلفت حوله .. وأحس بالنشوة .. وأحس بأن الشوارع قد اختلفت صورتها وبأن الوجوه قد تغيرت ، وبدأت « ميجالوكاسترو » تحت قدميه كشبكة مرقشة لاصطياد طيور القطا .. رسمت فوقها بيوت ومآذن .. وحدائق وبحار ..

وسار فوق الشبكة ، ومضى إلى بيته وقد استبد به القلق ، وعندما أصبح عند مدخل البيت اندفعت إلى ذراعيه شقيقته السميننة الأسفنجية وهى تصيح : « الزلزال ! » .. وجسدها يرتعش .. وهى تنتظر كلمة طيبة من شقيقها .

ولكنه أزاحها جانبا وطرح بطربوشه فوق الأريكة وهو يحس بأن البيت قد أصبح ضيقا .. لا يتسع له .

كان الحفل داخل القبو قد تقدم كثيرا ! فعند بداية المساء تسللت « رينيو » لتتظر من خلال ثقب فى الحائط وترى حال ضيوف أبيها الحمقى !

كان « فورد جاتوس » قد خلع حذاءه : كانت قدماه قد التهبتا ، فقام يرقص وحده وقد أعماه السكر وتملكته روح شريرة ، وأخذ يخبط السقف برأسه فى قفزاته العالية ، والدماء تسيل فوق أذنيه وعنقه وهو ماض فى سعادة .. يتابع رقصته ويقفز ، أما أفندينا فقد نسى كل شيء عن العار والخجل ، وخلع عمامته فبدت القرحة فى رأسه بيضاء ناصعة ، وانحنى فوق البرميل الأوسط حيث انحنى « كاجابيس » هو الآخر وقد زين رأسه بأوراق الخرشوف ، وكانت لاتزال هناك بضع بيضات فى الطبق الفخارى يرهق « فيندوسوس » أعصابه فى بطولة لكى يأتى عليها بقشرها وهو يسعل وعيناه مليتان بالدموع اثر محاولاته ابتلاع قشر البيض ! « بينما جلس « بيرتودولوس » المسكين فى الركن خلف الأباريق ، وقد عقد ساقيه ورمى بمعطفه بعيدا حتى لايتسخ .. وكان المسكين فى تلك اللحظة يدس أصبعه فى حذر داخل حلقه حتى يتقيأ ، وبعد كل دفعة .. يتجه إلى زملائه وينحنى ليقول فى صوت منغم :

« معذرة يا سادتي النبلاء .. معذرة » ..

وكانت « رينيو » سعيدة وهي ترى كيف يهين هؤلاء الناس أنفسهم لكي يسلوا أباهما ، ثم اتجهت ببصرها إلى نهاية القبو حيث جلس الكابتن ميخائيليس .

كان يستند إلى الحائط في صمت وقد ألقى برأسه إلى الخلف وهو يحرق في فراغ ، ولم تكن الخمر قد أحدثت أثرا فيه بعد ، فلم يكن في حالة سكر ، كما أنه لم يكن يتكلم ، بيد أنه أيضا .. لم يكن مبتهجا ، كانت شفته العليا فحسب ترتعش قليلا فتبرق أنيابه وسط شعر شاربه المشعث الكثيف .

وابتسمت « رينيو » . كانت تحب أباهما وتفخر بمظهره الشرس وبصمته وكبريائه وتقول دائما لنفسها : « لو أنني كنت رجلا لأحببت أن أكون مثله ، وإذا أنا تزوجت ، فأنا أريد رجلا مثله ! » ..

غابت الشمس ، ونسيت « ميجالوكاسترو » أنها تعيش في لجة ، ... فتألفت سعيدة موردة تحت أشعة الوداع .

وامتلات « الأقباء الثلاثة » بالناس ، وخرج الرجال والنساء إلى الشوارع ليرى بعضهم البعض ، تماما مثلما يخرج النمل والديدان من باطن الأرض إلى الشمس بعد انقطاع المطر ، كانوا قد أفلتوا من خطر داهم ، لقد انشقت القبور لحظات تحت أقدامهم .. ولكنها مالبثت أن أغلقت ، ولا يزالون أحياء على ظهر الأرض .. وشكروا لله ، كانوا يهنتون بعضهم البعض وهم يرفعون قبعاتهم ويتصافحون في مرارة ، فقد وحدهم هذا المساء حب مفاجيء ، كانوا ينظرون في رفة أحدهم إلى الآخر وهم يروحون ويجيئون ويحدقون في البحر كما لو لم يكونوا قد راوه من قبل ، ويتوقفون عند « كشك » الباشا في وسط الميدان حيث أزهرت إحدى شجيرات زهر العسل المتسلقة لكي يتنشقوا عبيرها وكأنما أصابهم الدهول من فرط رقتها .

« ما هذا يا صديقي ؟ » .

« زهر العسل » .

« اللهم باركني ! » .

وشيثاً قشيثاً بدأ الناس يتوافدون على المقهى الكبير بعد أن تعبوا من السير هنا وهناك .. بدأوا يتوافدون على مقهى «ليونيداس بابا لاروس» ويصفقون بأيديهم ليهرع إليهم السقااة عراة الأقدام يقفزون كالزنابير، فيطلبوا منهم شراب الكرز والمياه الغازية وفطائر الصيام وكعك العنب .. وخرج الأطفال الأتراك وفي أيديهم فطائر اليقطينة والياسمين، حتى «روهينى»، هذه المرأة البربرية التى تلمع مثل فرس سوداء، ظهرت هى الأخرى بعقد من الخرز الزجاجى حول عنقها، وبثديها العريضين المتهدلين وقد نظفت «الكك أبوسمسم» مما علق به من الروث حين سقط فوق الأرض بفعل الزلزال، ظهرت تسير هنا وهناك ضاحكة تتمايل وتحنى وأسنانها البيضاء الناصعة .. وعيناها الخبيتان تلمع تحت أشعة الشمس الغارية.

لحظتها قال أبناء المدينة :

«يالها من سعادة ! .. يالها من جنة ! وهذه روهينى أيضا .. وكعكها أبو سمسسم !» .

وبينما كان المزيد والمزيد من الأماكن القريبة من «ميجالوكاسترو» يتوافدون معا ويخلقون البهجة فى «الأقباء الثلاثة» بملابسهم الجديدة، كانت الشمس قد اختفت وراء «سترومبولاس» تاركة وراءها وهجا رقيقا بنفسجيا تحددت تحته معالم وجوه الرجال والنساء .

ترى، من من أبناء «ميجالوكاسترو» تبحث عنه فلا تجده فى «الأقباء الثلاثة» مرتديا ملابس يوم الأحد؟ بل من من نساؤها كن هناك لسبب من الأسباب، فلم تجلس عند مقهى «ليونيداس باربالاروس» لتشتري كعك اليقطينة وتضع عويناتها وتعامل فى الدنيا؟

كان «تيتيروس» هناك مع خطيبته «فانجيليو» ومعهما كانت «كريسانتى» مصففة الشعر مبدرة الوجه تضع فوق رأسها قبعة بمناسبة زيارتها «للأقباء الثلاثة» هى وابنة أخيها وحفيدها الجديد، وكانت تسترق النظر خلصة إلى «فانجيليو» وتبتسم فى ارتياح وتقول لنفسها «أنا أفضل منها .. وأجمل، وعندى شئ يمكن أن يمك به الرجل، أما هذه المخلوقة المسكينة ! الجلد على عظم ! فسوف لايجد تيتيروس فيها لحما يمكن أن

يملاً قبضته ، ولكن ماذا يهمنى فى الزواج ؟ لدى أختى ، ولست فى حاجة إلى مخلوق آخر! ..

وظهر الطبيب أيضا هو «مارسيل» . كان رجلا «عاملا» ذا اكتفاء ذاتى ، سمينا ، يضع فوق رأسه قبعة باريسية جافة ، ويرتدى قفازين ويمسك بعضا ، أما «مارسيل» فقد لطخت وجهها بالمساحيق وبألفت فى تلويحه كى تخفى تعاستها .. كما حمزت شفيتها .. وكانت نسوة «ميجالوكاسترو» يتطلعن إليها فى سخرية ، يا للقناع يا عزيزتى ويا للغرور ! ذلك ما يستحقه هذا الطبيب المتحذلق ! كان الأجدر به أن يتزوج من بلده الأصلى !

غرق البحر فى الظلمة ، واختفت من أفقه جزيرة «ديا» ، وتنهت نسائم قادمة من الشاطئ تطايرت معها شعور النساء وجعلتهن يضعن مراوحن جانباً ، ومر جماعة من الصيادين المألطين ومعهم «الكونسرتينا» * ، وقد وضعوا فى أذانهم أقراطا وفتحوا صدور قمصانهم لتظهر صدورهم العارية كثيفة الشعر التى صبغها البحر والشمس ، وكانوا يغنون بأصوات مبحوحة دون أن يستديروا لينظروا إلى نساء «ميجالوكاسترو» ، بل ساروا قدما متجهين إلى الميناء حيث تنتظرهم هناك النساء المألطات المتمددات وسط حبال الشباك وشلال السمك .

وفى وسط الظلام وجد الصغار الجراءة على أن يبدوا مرة أخرى جولاتهم ، ويقتربوا من الفتيات ويسترقوا اليهم النظرات وقد ارتعشت فوق وجوههم رياح حب دافئة ، وإلى جانب تقع الجبال ، وإلى الجانب الآخر يقع البحر الكريتى ومن فوق .. سماء معتمة زرقاء ، وفوق كل رأس لشاب أو فتاة لم يتزوجا بعد .. ترقص «فينوس» نجمة المساء بألف العوبة خبيثة ! .

وبينما كان رجال «ميجالوكاسترو» ونساؤها يتجمعون فى «الأقباء الثلاثة» كان «تاراساكى» ابن «الكابتن ميخائيليس» وأصدقائه الثلاثة يحثون السير إلى «البيرفولا» ، تلك الحديقة غير محددة المعالم بلا سياج فى طرف «ميجالوكاسترو» ، والمليئة بالصبار والحشائش ذات الأطراف

★ آلة موسيقية .

المدينة ، وكان « تاراساكي » يحمل معه حبلا لفة حول خاصرته ، و« مانوليس » ابن « ماستراباس » يحمل هراوة ، و« أندريكوس » ابن « كراسوجورجيس » يحمل مقرعة .. و« نيكولاس » ابن « فورد جاتوس » يحمل صفارة .

وقال « نيكولاس » :

- « إذا رأينا أباهما يخرج ، فسوف أصفر لنهرب » .

وسأله « أندريكوس » :

« هل قلت إن بيرفولا تجلس دائما عند عتبة الباب ؟ » .

ولم يكن « بيرفولا » هو اسم ابنة « باراسكيفاس » ، ولكنه كان الاسم الذي أطلقه عليها هؤلاء الأوغاد الصغار لأنها كانت سمينية غضة دائمة الابتسام .

وقال « تاراساكي » :

- « إنها تقف عند عتبة الباب كل يوم أحد بشرائطها في شعرها ، أعطنى صفارتك يا نيكولا ، وسوف أطلقها عندما تبدأ الهجوم عليها » .

ثم أمسك به وأخذ منه الصفارة وقال :

- « أنت تأخذ الحبل ، ألسنت أنا الكابتن ؟ حسنا ، فلا بد أن تكون الصفارة معى ، هيا بنا الآن ! » .

كانت هناك بضعة بيوت باشسة متناثرة ، تكون الحى غير المطروق الذى يسكنه فقراء الأتراك والأرمن ، وكان الأرمن يطحنون البن فى هاونات ضخمة من الحجارة ثم يبيعهونه ، وكان الأتراك يعملون بالنهار حمالين وفعلة .

وبدأ الاصدقاء الاربعة الذين كانوا يعدون منذ لحظات .. يتحركون فى حذر لصق الحوائط فى صف واحد يقودهم « تاراساكي » بصفارته ، وفجأة توقفوا ، فقد ظهرت « بيرفولا » السمينية الفكهة واقفة إلى باب بيتها والشريط الأحمر فى شعرها الأشقر وهى تمضغ اللبن .

واستدار « تاراساكي » إلى رفاقه وقال هامسا :

« انظروا ! ها هي ذى ! سوف أطلق الصفارة واندفع انا في البداية ، ليس هناك أحد قادم » .

وتقدم الأربعة قليلا ، وظهرت « بيرفولا » المزهرة امامهم فارعة الطول ساكنة ضخمة ، وكانت تدير وجهها بعيدا عنهم ترأقب قطتين تقتتلان في صحف فوق الحائط خلفها .

وسار الاقزام الأربعة ملتصقين بالحائط وقد حبسوا أنفاسهم ، وجال « تاراساكي » بصره في الشارع هنا وهناك ، لا أحد ، وضع الصفارة بين شفتيه ، ونفخ فيها ثم اندفع نحو الفتاة واندفع خلفه الآخرون مثل القطط ، وأمسك « تاراساكي » بها من جانب بينما أمسك « نيكولاس » بها من الجانب الآخر ، وتشبث « أندريكوس » بقدميها بينما أطبق « مانوليس » يديه على فمها لكي يمنعها من الاستغاثة ، ولكنها لم تقاوم ، ثم مالبت الأربعة أن حملوها وهم يلهثون بعنف - فقد كانت ثقيلة - دون أن يعرفوا ، يمكن أن يفعلوه بها بعد ذلك .

وقال « تاراساكي » أمرا :

« هيا إلى البيرفولا ، أمسكوا بها بقوة حتى لاتهرب منا هيا ! .

ثم أخذوا يتعثرون وهم يندفعون بها من البوابة المحطمة إلى بض خطوات خلفها ، ثم وقفوا حولها وهم ينظرون إليها ، وكان الشريط الأحمر قد انزلق فتهدل شعرها فوق كتفيها ، بينما تمزق ثوبها من فوق ركبتيها ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط في عنف تحت المشد الشفاف ، كان الذعر قد تملكها في البداية ، أما وقد عرفت الآن من الذي فعل ذلك بها فقد بدأت تقهقه ، ثم تمددت فوق الحشائش وهي تنظر إلى الصبية بعين متحدية نصف مغلقة .. وانتظرت .

وأخذ نيكولاس يتفحص في إمعان بيرفولا الممددة من قمة رأسها إلى أخمص قدمها دون أن يصل في شأنها إلى قرار .. فتساعل :

« ماذا سنفعل بها الآن ؟ » .

فقال « مانوليس » :

- « لنبصق عليها » .

وبدا الأربعة يبصقون عليها ، ولكن ذلك لم يبعث الراحة إلى نفوسهم ، فلم يكن ذلك ليكفى ، وتوقفوا عن ذلك وأخذوا يحذقون فيها بعيونهم ، يجب أن يفعلوا شيئا آخر ، نعم .. شيئا آخر ، ولكن .. ماذا ؟ ..

قال « أندريكوس » وهو يرفع الهراوة التى أمسك بها : « فلنضربها ! » .
واندفع الأربعة فوقها وبدأوا يضربونها - بالهراوة والحبل ، بينما أخذ « نيكولاس » - وهو أقواهم بنية يضربها بقبضة يده ، وعاد الذعر يستبد بالفتاة وبدأت تصرخ :

وقال « ثاراساكى » مقترحا :

- « هيا ندوس فوقها حتى نمنعها من الصراخ » ..

وسأل « مانوليوس » :

- « ما رأيكم فى المقرعة ؟ » ..

ثم أخرجها من حزامه .. فقال « ثاراساكى » :

- « هذه يجيء دورها فى النهاية » .

وقفز الأربعة فوق ظهر الفتاة وفوق بطنها وهى تتدحرج فوق الحشائش تحاول أن تهرب من أقدامهم ، ثم استطاعت أن تقف فى النهاية وهى تحاول الهرب ، ولكنهم ارتموا فوقها مرة أخرى ، وأسقطوها إلى الأرض .

وبدا عرقهم يتصبب ، وأحسوا بالتعب ، فتوقفوا مرة أخرى وهم ينظرون إلى الفتاة وقد تملكتهم الحيرة فيما يمكن أن يمارسوه فيها من أنواع جديدة من التعذيب ، ماذا يمكن أن يفعلوه فى الفتاة غير ذلك ؟ كانوا يتوقعون أن يحسوا بالسروور حين يخطفونها ويعاملونها بقسوة ، ولقد ظلوا شهرا بطوله يدبرون خطتهم وهامهم الآن يرون الفتاة ملقاة أمامهم دون أن يحسوا بالرضا ، ووقفوا يحذجونها بنظرات مليئة بالبغض والكراهية .

وقال « ثاراساكى » :

- « كان لابد أن تحضر معنا مطواة جيب نفرسها فى جسدها لتسيل دماؤها ، كان لابد من ذلك ! » .

فقال « ثاراساكى » :

- « هل أعضها ؟ أستطيع أن أنزع قطعة من لحمها ! » .

وقال « مانوليوس » :

- « نعم ، لنفعل ذلك بالدور .. »

ولكن « ثاراساكى » أصدر أوامره :

- « لا .. بل نفعل معا .. ودفعة واحدة ! » .

وفك « نيكولاس » الحبل ، وألقى الأربعة أنفسهم فوق الفتاة ليكبلوها
بينما أخرج « مانوليوس » المقرعة من حزامه ، ولكنهم لم يستطيعوا أن
يكملوا ما أنتووه ، فقد تناهى من عند الباب المحطم صوت حاد يتميز
غیظا :

- « أيها المتشردون الملاعين ! » .

واستدار الأربعة ليرى السنيور « باراسكيافاس » واقفا بباب البيرفولا
نصف عار ، ومسلحا بعصا مكنسة ، كان مساء السبت قد أرهقه بعد أن
حلق رعوس وذقون كثيرين من الكريتيين ، وكان قد نام اليوم بطوله حتى
يستجمع قواه لأسبوع آخر قادم ، ولم تكن المقصات والامواس تبدوله
بمثل الحدة التى تبدو بها فوق جزيرة الشيطان هذه .. وفجأة ، وأثناء
نومه ، سمع صرخات ابنته ، فقفز من فوق فراشه واختطف عصا المكنسة
وهرع إلى الشارع وهو لا يرتدى سوى سرواله ، صاح رافعا صوته قدر
طاقته وهو يرفع عصا المكنسة :

- « أيها المتشردون الحمقى ! » .

ولكنه تراجع فجأة ، فقد رأى بين الأربعة ، ابن الكابتن « ميخائيليس »
فغمغم يقول لنفسه :

- « أوه ، هذا يعنى متاعب ! .. كن حريصا أيها المسكين
باراسكيافاس ! » . واكتفى بأن يلوح بالعصا فى الهواء مهددا ..

وقال « ثاراساكى » :

- « هيا بنا .. اتبعونى » ..

واستدار نحو « باراسكيفاس » ، وهو يقول :

- « أنت .. يا سيد باراسكيفاس ، ابتعد عن الباب ودعنا نخرج ، واقتذف بعضا المكنسة هذه ! » ..

وقال « باراسكيفاس » :

- « معذرة ! » .

وألقي بعيدا بعضا المكنسة .

الفصل الرابع

ما أروع ما رتبَّ الله سبحانه الأمور في هذه الدنيا ! ستة أيام في الأسبوع ليجرى الناس وراء المال ، واليوم السابع يوم لله ..

أشرق صباح الاثنين ، ودارت العجلة دورة أخرى ، ونسى سكان « ميجالوكاسترو » - الذين كانوا بالأمس خائفين مهذبين - نسوا الزلزال .. ونسوا الله ، وعادوا لينغمسوا في « الأخذ والعطاء » وفي « أن يأكلوا أو يؤكلوا ! .. »

أشرقت الشمس ، وحمل الجنود مفاتيحهم الغليظة ، وفتحوا الأبواب الثلاثة على العالم الخارجى ، ومن بعيد اندفع الفلاحون يصبحون برفقة حميرهم وبغالهم الموسوقة بالأحمال . وفتح كذلك باب الميناء واندفع عبره الحمالون وملاحو الزوارق وعمال الميناء ، وارتفع مرة أخرى ضجيج البشر فوق الرصيف ، وملا ضجيج مماثل آذان الرجال في السوق بينما بدأت طرقات مطارق الحدادين تعلو في حى الغجر المجاور .. ووقف المنادى في وسط الميدان وجلجل صوته كالجرس ، وهو يعلن أن بقرة سيجرى ذبحها في المذبح الاسماعيلى ، وأن لحمها سيكون أرق من الحلوى التركية ! .. وأن الذى يسبق ، سيكون له حظ اختيار أفضل أجزاء الذبيحة ..

وفى الشارع العريض بدأت حوانيت الاسكافيه تفتح أبوابها الواحد بعد الآخر ، وأخذ « المعلمون » أماكنهم فوق كراسيهم المرتفعة وبدعوا يقطعون الجلود بينما بدأ المساعدون وه الصبيان « يخرجون مقاعدهم الصغيرة وآلاتهم ليبدعوا العمل وهم يتطلعون إلى الشارع لعلهم يرون شخصا يسمح لهم مظهره بالسخرية منه ، فتلك كانت أفضل الوسائل بالنسبة لهم لقتل الوقت !

وكان الكابتن « ستيفانوس » أول القادمين متكئا على عصاه الملتوية ،

فقد سمع بأن سفينة صديقه الكابتن « جاكوميس » قد وصلت مساء أمس من « سميرنا » فأراد أن يرحب بقدومه ويعرف منه ما كان يحدث هناك فى اليونان ، وماذا كان يفعل الملك وماذا كان الناس يقولون عن الاتحاد ، ففى « سيرا » كانت هناك « لجنة كريت » التى كانت « كريت » شاغلها الاكبر فى الليل والنهار .. كانت تجمع الاموال وتشترى البنادق والذخيرة وتنتظر ، وكان أعضاؤها يقولون إنه إذا لم يكن هناك تقدم فإن كريت سوف تتور مرة أخرى ، لهذا ، فقد أسرع الكابتن « ستيفانس » ليعانق صديقه ويعرف منه فى الحانة شيئا عما كان يحدث فى العالم ..

وصفر أحد « الصبيان » الاسكافيين بفمه ، وكانت تلك إشارة .. وتطلع الجميع .. وحدقوا ، ولكنهم مالبثوا أن أداروا عنه أبصارهم فى دعر وضيق فلم يكن أحد منهم على استعداد لأن يصطدم « بكلب البحر ! » هذا الذى نال على يديه أحد « الصبيان » أول أمس « علقه » قاسية لأنه سخر منه ، حين أخذ يصيح فيه « أيها القملة الضئيلة .. ! هل تسخرمنى ؟ ! هل تعرف أيها الأحمق السبب فى هذا العرج - ومتى وأين أصابنى ؟ حسن .. فاسأل إذن يا خسيس الأنف ! ... » ثم أمسك به وظل يضربه بعصاه دون أن يجرؤ « معلمه » على الدفاع عن صبيه - بل على العكس ، قال : « صدقت يا كابتن ستيفانس .. فانت (ميادليس) * الكريتى .. ! .. زده ضربا ! .. »

أحنى الاسكافيون إذن رؤوسهم ، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة ، وتركوا الكابتن « ستيفانس » يمضى فى طريقه ، وحين اختفى عن الانظار ، قال أحدهم : « بحق كل مقدس يا أولاد .. هذا الرجل بندقية صلبة .. صلبة تعز على الكسرا ! » وبينما كان لا يزال يتكلم ، ظهر « شاريلوس » ذلك القزم مقوس الساقين وفى يده عصاه الهزيلة .. بشاربه المبروم .. وحذائه الضخم .. ومر بحذاء حوانيت الاسكافيين وهو يضرب الأرض بعصاه ، ورفق أصحاب الحوانيت أيديهم إلى صدورهم يتمنون له يوما طيبا ..

وحين كان أبناء « ميجالوكاسترو » يرون السيد « شاريلوس » مارا بهم ، كانوا يحسون بالاحترام والرغبة معا وكأنما لم يكن بشرا ، بل شيئا ما بين البشر والعفاريث جاء من دنيا الأساطير .. كان الاطفال يلزمون أماكنهم ويحدقون فيه وقد أصابهم الذعر .. كان حارس كنز من الذهب

مطمور فى الأرض ! كان يسيطر على قوى الظلام ! .. كانت عيناه شريرتين ، فإن هو نظر إليك فسوف ينقلب جلدك على الفور أخضر اللون .. وسوف ينتفخ جلدك ويتورم وكأن أفعى قد لدغتك ! وكانوا يحكون عنه أنه حدق فى يوم من الأيام فى شجرة ليمون مزهرة .. وعلى الفور ، ذبلت زهور الشجرة !

من أجل ذلك ، أحنى الاسكافيون رؤوسهم فى صمت .. وتركوه يمر بهم فى سلام !

وقال الصبى الذى صفر بفمه من قبل :

« بداية سيئة لهذا اليوم يا أولاد ! لاشئ نضحك منه اليوم ! أين أفندينا يا ترى ؟ ! وأين باربايانيس ! هل مات الاثنان ؟ ! »

وصاح صبى آخر فى دكان مقابل :

« جاءت سيرة القط ، فجاء ينط ! هذا هو باربايانيس ! » .

وإدار الكل رؤوسهم فى سعادة يتطلعون إليه وهو يصيح على بضاعته وهو يحمل صفيحته البرونزية بيده اليمنى ، وسلّة مملوءة بالثلج بيده اليسرى .. ويتقدم برأسه المديب ومظهره البشع ..

وكان فى نيتهم أن يثيروا ضجة تغطى على صوت « باربايانيس » ، ثم يقذفونه بعد بقشور الليمون ويتكلمون عليه وهم يساومونه على بضاعته ، وسأل أحدهم : يا زوجتى الصغيرة ! .. هل كل الأولاد فى البيت من صلبى ؟ ! اصدقينى القول ! .. فكرى جيدا .. فأننا أموت يا زوجتى العزيزة ! .. وأجابه آخر من الجانب الآخر للشارع فى صوت مرتفع منغم :

« وإذا لم تمت يا باربايانيس ؟ » .. وانفجر الشارع كله بالضحك ، ووقف بعدها لكى يسمعه الجميع وصاح : « يا أولاد ، هذه المرة سوف نلعب معه لعبة جديدة لن نصدر صوتا ، وعندما يمر بنا ويحاذينا تماما ، سوف نتظاهر بأننا جميعا لانراه .. ثقوا أن ذلك سيبحث به إلى الجنون وسوف تكون لعبتنا هذه مسلية حقا » ..

★ « ميادليس » .. بطل قرصان كريتى ..

ووصل « باربايانيس » .. وبدأ يصيح على شرابه ، ونظر يمينا ويسارا إلى حوانيت الأحذية ، وتوقف لحظة ينتظر ، ما الذى يجرى ؟ ! رحمتك يارب ! .. ألا يرفع أحدهم رأسه وينظر إليه ؟ ! ألا يفتح أحدهم فمه لينادى عليه ؟ ! هل أصبح ضئيلا إلى هذا الحد ؟ ! .. أصبح سواء أن يمر بهم كلب أو حمار أو « باربايانيس » ؟ ... لماذا لا تصدرون صوتا يا أولاد ؟ ! .. مازلت أنا كما كنت .. باربايانيس ! .. أين إذن قشور الليمون ؟ ! ..

صمت ! .. الكل ينحنى على الجلد أمامه فى صمت ، يدقون بمطارقهم ، ويصبغون الأشرطة ، ويمررون الخيوط فى الإبر ، ويخيطون الجلود ، وارتعش « باربايانيس » ومسح بيديه عينيه ، ترى هل يحلم ؟ ! .. ووضع الصندوق والسلة فوق الأرض ثم صاح :

- « بحق الرب ! .. قولوا شيئا يا أولاد ! .. سنوف أجن ! .. لا .. لست أحتمل ذلك ! .. أين قشور الليمون ؟ » ..

ولكن أحدا لم ينظر إليه .. ولم يصدر عن أحدهم صوت ، وعاد « باربايانيس » يتوسل إليهم :

« الرحمة يا أولاد ! أنا أموت ، وأنتم لا ترحموننى بنظرة !

« أحقا أنا لا أزال حيا ؟ أم أننى مت ؟ ! قولوا ولو كلمة واحدة ! » .. لاشيء ! .. سكون كسكون الموت ! وأصاب « باربايانيس » فزع شديد ، وتتم قول : « سحر ! ... هذه نهاية العالم ، والموت يحوم فوقنا ! إما أن الاسكافيين قد ماتوا ، وإما أنا الذى مت » .. ثم مالبت أن صاح : « النجدة يا قدمى ! » ثم أمسك بالصندوق والسلة فى عنف وضرب بهما قدميه .. وهنا ، انفجر الشارع كله ضاحكا .

وسمعت الضجة حتى فى الأسقفية . ونهض كبير الاساقفة من سريره حيث كان يرقد مصابا بنزلة برد وكان « مورزوفولوس » قد أبعد لثقه كاس الحجامة وأمسك به يمسحه بقطعة من القماش ، وتسامل وهو يرهف أذنيه : « اتكون عاصفة تقترب .. أم أنه زلزال آخر ؟ » ..

وأجاب « مورزوفولوس » فى غضب :

- « لابد أنهم الاسكافيون يا سيدى » .. يسخرون من شخص مسكين

سبىء الحظ ، هؤلاء الضالون ! الدنيا أصبحت للكلاب ! .. ولكنهم يوما ما سيستغيثون ! .. اللعنة عليهم ، فقد قطعوا حديثنا يا أسقفنا المحترم .. »

وكان كبير الاساقفة يحدثه عن روسيا - عن « كييف » حيث عمل « أرشيمندريتا » سنوات طويلة ، عن العواصف الثلجية ، عن القباب الذهبية فى قمم الكنائس وعن الأديرة تحت الأرض .. التى تزخر بالقدسين ، قال :

- « لاتخش شيئا يا مورزوفولوس طالما بقيت روسيا .. إن الإيمان الحق سوف يعيش وسيطر إلى الأبد ، هناك فى روسيا وجد المسيح له ملجأ .. هناك رأيته بعينى هاتين ! .. هناك رأيته يامورزوفولوس فى إحدى أمسيات الشتاء ، كان يذرع الثلوج وقد اكتسى بمعطف طويل من الجلد وانتعل حذاء طويلا برقبة ، ووضع يديه فى قفازات سمكية ، وظل يطرق الابواب دون أن يسمح له أحد بالدخول ، ثم رأيته من خلال النافذة فاندفعت أهبط الدرج لافتح الباب له وأنا أصبح « ياسيدى المسيح ! » .. ولكنه كان قد اختفى .

ورسم « مورزوفولوس » على صدره علامة الصليب ، وقال فى اكتتاب :

« أما أنا .. فلم أره أبدا » ..

وأجاب كبير الاساقفة :

« إذهب إلى روسيا .. وسوف تراه » ..

ثم أدار وجهه نحو الحائط واستسلم للنعاس .

ولكن الباشا هو أيضا كان فى ضيق بعد أن استيقظ هذا الصباح وهو يرى أن صحته ليست على مايرام فى هذه الأيام ، ويحس فجأة بأنه يطعن فى السن ، أول أمس ، وكان يدخل غليونه الطويل فى « كشك الباشا » بالقرب من الأقباء الثلاثة ، وكان الجنود يدقون طبولهم - لمحت عيناه وسط جموع اليونانيين التى كانت تمر بالقرب من الفرقة الموسيقية .. فتاة ذات شعر كثيف وفم شهوانى أعجابه كثيرا ، فاستدار نحو خادمه العربى سليمان وقال :

« من تكون هذه الفتاة اليونانية التي ترتدى ثوبا أحمر ؟ » ..

- هل تعجبك يا أفندينا الباشا ؟ ! إنها ليست من ميجالوكاسترو إنها قادمة من « كروسون » هذه القرية المتوحشة .. وقد تزوجت يوم الأحد الماضى من « كاجابيس » البقال المشهور بإجاده للغناء .. أنت سمعته من قبل .. بحق الشيطان يا أفندينا الباشا ! .. دعها وشأنها ..

- هل هى امرأة محترمة ؟ ! .. فلتذهب إلى الجحيم إذا كانت كذلك !

- محترمة جدا يا أفندينا الباشا .. محترمة جدا .. وزوجها من أبناء « سفاكيا »

وهز الباشا رأسه الصلعاء وهو يتمتم :

- امرأة محترمة .. امرأة محترمة .. هى كذلك لأننى أصبحت عجوزا .. أه .. إنها النهاية .. ماذا ينتظر المرء بعد من الحياة ، إذا لم يعد فى مقدوره أن يرتكب الحماقات ، حينما لا يستطيع أن يفعل برجل شيئا إذا أراد ، أو أن يقبل أية امرأة حين يشاء ؟ أى باشا أنا إذن ؟ هذه الشيخوخة الملعونة ! كم كان لى من أوقات حلوة فى أماكن يونانية أخرى حيث تعودت

أن أبعث بجلادى ومعه تفاحة ملفوفة فى قماش هدية للعروس ، ورماساة هدية للعريس ليخبرهم أن الخيار بأيديهم ، فكيف كان بمقدورهم إذن أن يختاروا الرصاص ؟ .. كانوا دائما يختارون التفاحة ، وكانت العروس تجىء عندى غارقة فى دموعها فى ثوب زفافها ، وكانت تقاومنى وتصارعنى كما أحب فى النساء دائما .. ثم لاتبث أن تجلس فوق ركبتى ، ولكنى الآن أصبحت عجوزا ، الدولة أيضا أصبحت عجوزا ، والسبب هو هذه الملعونة « كريت » ..

ثم استدار نحو خادمه العربى وقال وهو يغمز بعينه :

- مارايك يا سليمان ؟ ..

- كأنك لم ترها يا أفندينا الباشا .. تذكر .. نحن فى كريت ! هنا سوف نلقى المتاعب .. لا تتنهذ .. هل أبحث لك عن الفتاة الارمنية ؟ ! ..

كانت « ماروسيا » الارمنية مشهورة فى كريت حتى لقد ورد اسمها فى

إحدى الأغنيات بالجزيرة .. كان زوجها أرمينيا فظا ضخم الجسد يملك دكانا فى الميدان الرئيسى يقف بداخله طوال اليوم منحنيا فوق الهاون الحجرى العميق يطحن البين الذى تنتشر رائحته فى كل مكان حوله .. وكانت ذراعه مفتولة صلبة من كثرة ما يستخدمها فى إدارة عصا الهاون حتى ليستطيع أن يضرب بها الحائط فيخرقه .. وكانت زوجته الأرمينية الساحرة الصغيرة تبدو من خلفه كما لو كانت مؤلفة من مجرد كرتين تهتران كلما سارت ، أما رائحتها الجنسية المثيرة كرائحة الحيوان - فقد كانت تتسلل إلى أنوف الشبان حتى وهم فى اطراف المدينة البعيدة .. وفى المساء ، كانوا يتسللون متجهين إلى كوخها القريب من « البيرفولا » حيث كانت تقف على مدخله بجسدها المنهك ، خداهما تكسوهما المساحيق الكثيفة وشعيرات خفيفة فوق شفرتها غارقة فى العرق ، كانت تقف هكذا صامتة ساكنة مبتسمة وعيناها شبه مغلقتين حتى إذا اظلم الليل وكان زوجها المتعب لايزال نائما ، بدأت هى تفتح دكانها الخاص وتبيع الحب بالميزان بينما شخير زوجها يعلو من الحجرة المجاورة .. وكانت تتعمد ترك الباب مفتوحا ، فقد كان يمتعها أن تحس بأن زوجها قريب منها ، وبأن ترتعش من الخوف بينما زبائنهما من الترك والمسيحيين والأرمن واليهود يحتضنون جسدها .

وكان الخادم العربى سليمان يحضر الأرمينية الساحرة كلما أحس الباشا بالضيق حين يعنفه الوزير لسبب ما .. بعدها كان الضيق ينتهى وينزل .

وسأله سليمان مرة ثانية :

- هل أبحث لك عن المرأة الأرمينية ؟ !

ويصق الباشا فى تقرز وصاح :

- ياربجل .. أنا لا أريد أية امرأة .. المنافقون مثلهم مثل القسس - يسببون لى الغثيان ، بستة عشر أو سبعة عشر عاما لم أفعل غير ذلك ، وأنا الآن أتنهد لأننى أصبحت عجوزا .. ولأن تركيا أصبحت هى الأخرى عجوزا .. نحن الاثنان نمضى حثيثا إلى الشيطان .. على أية حال ما اسم هذه البنت ؟ !

- جاروفاليا .

- فليتغن جسدها ! قل لباربايانيس ان يحضر إلى هذا المساء ليسلبنى ، إن قلبى مثقل يا عزيزى سليمان .. افندينا قادم هو الآخر .

وضرب بجليونه على الحجارة وغمغم لنفسه فى صوت خفيض حتى لا يسمعه سليمان : « إنها تحبنى .. إنها لاتحبنى .. الله جعلنى كذابا ، ولكننى واثق من أن تركيا هى أيضا قد وصلت إلى مرحلة أصبحت تقول فيها : إنها لاتحبنى .. أملا غليونى واشعله يا سليمان ولا تتكلم ! » ..

ومر فارس بالقرب منهما : فارس مهيب المنظر تختفى جبهته تحت عصاية عصب بها رأسه ، يلهب فرسه بسوط ، وينهب الأرض مثل البوق الخاطف حتى اختفى فى الحقول عبر بوابة المستشفى وتسايل الباشا فى دهشة :

- من يكون هذا الكافريا عربى ؟ ! إنه دائما يستعرض نفسه فيما يبدو ! ترى أين رأيانه قبل هذه المرة ؟ !

وحقق العربى بعينه مأخوذا يتبع الفارس الذى كان يدور فى تلك اللحظة حول التحصينات .

وعاد الباشا يسأل وهو يشعل غليونه :

أين فطنتك يا غبى ؟ ! .. ألم تسمع سؤالى ؟

- تسألنى من يكون يا افندينا الباشا ؟ .. ألا تذكر إذن استدعاءه إلى القصر فى العام الماضى وتجريده من ثيابه لسخريته من نورى بك ؟ إنه لم يفتح فمه يوما ليعتذر وحين خرج فقد أمسك بالسلم وكاد أن ينتزعه من مكانه .

وغمغم الباشا :

- الكابتن ميخائليس !

واستغرق فى التفكير لحظات .. ثم قال :

- اسمع يا سليمان ، سوف أقف يوما ما بالقرب من الأقباء الثلاثة أمام

كل الناس من أترك ويونانيين ، وأدعك تصارعه وتطرحه أرضا .. ثم نتخلص منه بعدها .. هل تسمعنى ؟ !

وتطلع العربى إلى البحر .. وكان بياض عينيه شديد الاصفرار تشويه حمرة معروقة .. ولم يجب ..

وأشار الباشا .. فتوقفت الطبول ، ونهض ثم استدار مرة أخرى نحو خادمه وقال :

- إذا كنت تخاف من هذا الكافر يا عربى .. فقد انتهى أمرك .. انتبه جيدا إلى ما قلت .

ولم يقل شيئا آخر ، ولكنه ظل طوال ثلاثة أيام يفكر فى المرأة ذات الثوب الأحمر ، وفى قلب تركيا المريض .. وها هو اليوم - صباح الاثنين - يستيقظ وقد استبد به الهياج من حلم سيء رآه تلك الليلة . فى وسط السوق كان هناك وحشان يصطرعان : كابتن ميخائيليس والعربى سليمان ، كان الاثنان عاريين يكسو الشحم جسديهما ، وليس فى يد كل منهما سوى فأس ، وقد تجمع حولهما أبناء ميجالوكاسترو ، على الجانب المشمس تجمع المسيحيون ، وعلى الجانب الآخر - فى الظل - تجمع الأتراك كانوا يقفون ليشاهدوا ما يجرى دون أن يتكلم واحد منهم .. كلهم كانوا يشاهدون ما يجرى بوجوه شاحبة وأفواه مفتوحة . وكان هو نفسه يجلس القرفصاء تحت مظلة حمراء ، وقلبه يرتعش مثل قصبه فى الهواء .. إذا فاز الكابتن ميخائيليس سقطت تركيا ، وإذا فاز سليمان العربى سقطت المسيحية .

وتصارع الاثنان وهما يزاران واهتزت الأرض تحت ثقلهما وامتلات ثغوب الأرض بدمائهما حتى غربت الشمس واختفى المسيحيون والأتراك فى الظلام ، ولم يعد الباشا يرى سوى الوحشين وهما يزاران ويتعثران ويعودان فيقفان على أقدامهما من جديد وقد حلت جسديهما خيوط الدم التى كانت تثبثق تحت ضربات فأسيهما .. وفجأة صاح الباشا فى يأس : « الله ، الله ، إنه مجرد حلم ، وسوف أطلق صرخة توقظنى من نومي حتى لا أرى النهاية » ..

وأطلق الصرخة .. واعتدل فوق سريره المريض فى حزن وأغرق فى التفكير .. ثم مالبت أن صفق بيديه فبرز سليمان :

- أخرج وابحث لى عن الكابتن ميخائيليس ... !

لم يكن يعرف ماذا يريد منه ، ولكن .. لابد أن يحضر ! ربما نقلت منه إهانة واحدة .. بعدها يثور غضبى واتخذ قرارى ! لا ينبغي أن يرتكب حماقة فى مملكتى ! .. أنا الباشا ! وهو ينهب الأرض بفرسه وأنا اسمع موسيقى الجنود !

وحك العربى رأسه وهو يقول :

- الكابتن ميخائيليس ؟ ولكنى علمت يا أفندينا الباشا أنه نزل إلى القبر مع صحبته الأغبياء يشربون ويسكرون » .

- وماذا لو كان يشرب ؟ ! سوف يفيق .. ويحضر إلى هنا !

وتردد العربى .. وقال فى صوت خفيض :

- يا أفندينا الباشا .. هل تريد أن تغرق كريت فى الدماء ؟ ! هل لديك أوامر من القسطنطينية ؟ !

ووضع الباشا يديه كتفهما فوق رأسه الأصلع وهو يحس بالدوار وقال :

- ماذا ؟

- حسن .. نفترض أنه قال لى : لا .. لن أحضر .. فماذا تقترح إذن أن تفعل به ؟ ! هل ستبعث الجنود فى طلبه وتمنحه فرصة ضريبهم ؟ ! إنه ليس بشرا عاديا ، وخاصة حين يشرب ، إنه يصبح حينئذ أكثر من زلزال ، حينما سكر فى العام الماضى ، ألم يقتلع بيديه بوابة الميناء ؟ ، ثم ماذا لو أنك أعددت كل شىء بحذق واستطعت أن تقتله .. ألن تشتعل النار فى كريت ؟ ! دعه يذهب إلى الشيطان يا أفندينا الباشا ..

- دعه يذهب إلى الشيطان ، لأنه Polikase وهى دعها تذهب إلى الشيطان لأنها سيدة محترمة - نعم .. فأى صنف من الباشوات إذن أنا ؟ !

ثم صمت قليلا .. وفكر فى الاحتمالات الممكنة .. لو أن الجزيرة المترامية الاطراف ، اشتعلت بالنيران ، وقدم إليها جنود جدد من الأناضول ، وقدمت إليها المدافع والمشائى والباشوات الجدد ، فسوف يتدخل الفرنجة فى الأمر ، اللعنة عليهم هم أيضا ! وذلك كله لن يعود إلا

بالضرر على - الأمر ببساطة مزيد من المتاعب ..

أخيرا صاح وهو يبرم شاربه فى غضب :

- أسرع وأحضرنى إناء من القشدة والسكر واحش غليونى أيها العربى
الخشيس .

- والكابتن ميخائيليس ؟

- فليخطفه الشيطان !

فى الوقت الذى كان الباشا يتحدث فيه عن الكابتن ميخائيليس ، كان هذا
يرقب طلوع النهار من خلال نافذة القبر الصغيرة وقد تدلت عصاة رأسه
على كتفيه وبدت جبهته كالبرونز تلمع فى الضوء .. وشعر رأسه ولحيته
يبرق وعيناه السوداوان المستديرتان العميقتان لا تتحركان وهما تحدقان
عبر النافذة .. لم ينم طوال الليل .. ولكنه ظل يرقب .. ويسمع .. ويشرب
وما أكثر ما حاول قلبه أن يهدأ .. وفى كل مرة كان يصرخ فى ضراوة
وحرارة فيعود القلب ليضطرب من جديد ، ماذا أريد بحق الشيطان ؟ ! ..
كان يسأل نفسه مرة ومرة ، ضاعت هدرا كل الخمر التى سكبتها فى
جوفى : أنا إذن أسلب بطرس لأنقد بولس .

لم يكن ثملا ، وقد كان بينه وبين نفسه يفخر بأن الخمر لا يمكن أن تؤثر
فيه ، كان يقف من حين لآخر يذرع أرض القبر جيئه وذهايا ثم يعود
فيجلس .. كان يحتقر هؤلاء الذين تسكرهم الخمر ، فيترنحون ويتعشرون
ويكشفون عن أفكارهم أو يبدون فى النباح .

ولحظة ما .. استدار إلى « بيترودولوس » وسأله فجأة :

- من هذه العفريته التى كنت تتحدث عنها ؟

- ديدمونة يا كابتن .. ابنة أحد أمراء البندقية .. كان شعرها أشقر بلون
العسل ، ملفوفا ثلاث مرات حول رأسها مثل التاج الملكى ، وكانت بخدنها
شامة مثل الزيتون الصغيرة ..

- أكمل ..

- وهكذا ، يا كابتن .. ولا داعى للتفاصيل .. فإن هذه الأميرة الرقيقة -

وما أعجب النفس الإنسانية - أحبت رجلا مغربيا ضخما عملاق الساقين والذراعين .. ولكنه - وحتى يكمل الشيطان لعبته - كان رجلا غيورا .. وأه لو علمت كيف حدث أنها أحبته ؟ ! فى إحدى الليالى جلس الوجد الكبير إلى جوارها يحكى لها عن حياته ، وكأنه كتاب فحرك فيها أحاسيسها ، وأحسب بعطف بالغ نحوه من كثرة ما عانى ، وبدأت تبكى وقد ارتمت فوق كتفه وقالت : أواه أيها المغربى العزيز لاتحزن ، سوف أعوضك وأرسم البسمة فوق شفئك ..

وزفر « بترودولوس » بعد أن أفرغ كأسه .. وصاح الكابتن ميخائيليس يأمره مرة أخرى :
- أكمل .

- معذرة يا كابتن .. لقد فرغ رأسى ..
وأخذ يحك رأسه المدببة وكأنما يستحضر ذاكرته .. وأخيرا صاح بصوت مرتفع :

- وحدثت أشياء مذهلة .. لم يمكثا فى البندقية ، ولكنهما سافرا إلى قبرص حيث تزوجا على ما أتذكر ، وكان لأحد الضباط البيض ذوى الأشرطة الذهبية صلة بهذا الأمر ، وأخيرا أه ، نسيت مرة أخرى ! الحكاية تتعلق بمنديل !

- منديل ؟ ! ها أنت تعود فتتذكر يا بترودولوس ! ..
- كلا ... كلا ... أنا لم أتذكر يا سيدى ، منديل ... نعم منديل ولكن ربما كان مسموما أو مسحورا .. كيف لى أن أعرف - أه ، تلك الليلة أعادت إلى ذاكرتى كل شيء - وضع المنديل داخل قم ديدمونة و
وانتابه بكاء ... فخلع وشاح عنقه وجفف دموعه وجبهته ثم صاح
- وخنقها !

وانفجر الأربعة السكارى ضاحكين بعد أن كانوا مشربى الأعناق ينصتون .. ولكن الكابتن ميخائيليس صاح بغضب : « هدوا ! » ، ثم استدار نحو « بترودولوس » وقال :

- ليس الخطأ خطأك أنت .. إنه خطأي أنا إذا سألتك ..

ثم أسند رأسه إلى الحائط وأغلق عينيه ، لقد كان المغربي على حق
« هكذا كان يفكر ... إنه فعل ما كان ينبغي أن يفعله » ..

أما الآخرون حوله فقد نسوا تماما أحزان الغرباء ... وقال
« فوروجاتوس » :

- لاتبك يا صغيرى بترودولوس ... إنها مجرد قصة من قصص
الجنيات ! « نحن » فقط .. الحقيقة ، هيا يا فيندوسوس ، اعزف على
قيثارتك ، ساقاى تهتزان تريدان أن ارقص .

وكانما القيثارة ذات الأجراس كانت سكرى هي الأخرى ، فما لبثت أن
قفزت فوق ركبتى « فيندوسوس » كامرأة تفيض حياة .. أو عروس زفت
لتوها ، وتهدد كاجابيس بعمق وهو ينظر إليها ويسند رأسه التى استبد بها
السكر إلى راحة يده ، وبدأ يزفر ترنيمة متصلة طويلة ..

أما أفندينا ذو الرأس الأجرى المطوق بأوراق الخرشوف والمعدة
المنتفخة بالنبيذ ولحم الخنزير ، فقد صفق بيديه وجلس منتصباً كالشمعة
ثم قفز فجأة وطوح ذراعيه ليحيط بكتفى « فوروجاتوس » وبدأ يرقص
كالمجنون - وليذهب التعقل إلى الجحيم ! ..

وقال له « فوروجاتوس » متوسلاً :

- انقلب مسيحياً يا أفندينا .. انقلب مسيحياً تدخل الجنة راكباً ظهرك
خنزيراً !

وأجاب أفندينا محزوناً :

- لا أستطيع يا رفاقى ، لا أستطيع .. ولتسامحونى أيها الأصدقاء ، أنا
ولدت تركيا وسوف أموت تركيا ..

وكان البيض قد نفذ هو والمحارات وكل ما كان موجوداً من طعام ،
وضرب الكابتن ميخائيليس أنية البيض الفخارية بقبضة يده وأدم حطامها
لضيوفه ليأكلوها .. وتملك بترودولوس الذعر ! وأمسك بقطعته وقذف بها
إلى برميل بجواره وهو يلهث بينما عيناه تحدقان فى فزع إلى الكريتين عند

أقدامه يقضمون القطع التى فى أيديهم ويمضغونها حتى تصبح رملا وحصى ثم يتلعبونها وهم يضحكون ضحكات مكتومة .

وبدا بترودولوس يفلسف الأمر نفسه فى هدوء : هناك ثلاثة أصناف من الرجال ، هؤلاء الذين يأكلون البيض بدون قشرة ، وهؤلاء الذين يأكلونه بقشرة .. أما الصنف الثالث فهم الذين يلتهمون البيض وقشر البيض والآناء الذى يحمل البيض ! ، وهم الذين يسمون بالكريتين ! أه يا كونت ما نجيا فينو ، ترى ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ .. قالها لنفسه وهويتطلع نحو الباب !

ومع غبش الفجر كانوا جميعا قد أرخوا أذرعهم ، بعضهم انكمش على نفسه فوق الأرض وقد علا غطيطة ، وآخرون استندوا برؤوسهم إلى البراميل وقد استبد بهم الانهاك فأخذوا يئنون وهم يتقيأون كل ما فى أمعائهم .. بينما كان بترودولوس قد انتهى من القىء ووجد ماء يفتسل به ، ثم دفن رأسه فى عباته ولفها حول جسمه مرتين وتمدد فى ركن من المكان كدجاجة ابتلت بالماء وانتثر ريشها حولها فى كل مكان .

أما الكابتن ميخائيليس - برغم كل ما شرب - فقد كان رافع الرأس منتبها ، يحدق عبر النافذة فى الصباح الذى بدا يطلع .

وبدا الضوء يتسلل إلى القبو ويكشف عن نفايات الطعام وبرك النبيذ والقىء ، واستدار الكابتن ميخائيليس وحدق فى الخمسة الحمقى المهزومين وكأنما يراهم لأول مرة ، وأحس فجأة بأن قلبه بدأ يشعره بالاحتقار ، أرهف أذنيه ، وسمع صوت زوجته فى الفناء وكانت قد استيقظت من قبل وبدأت ترفع الماء من البئر ، وسمع صوت صياح الديكة عند الجيران .. وبدأت أصوات المخلوقات البشرية والحيوانات ترتفع من فوق سطح الأرض .. وصهلت الفرس فى الفناء وتهيا « شارييتوس » ليحضر لها دلو الماء البارد والعلف ، وارتفع الصهيل ليملا الجو كما يملؤه الندى منتعشا كماء الربيع .. وأحس الكابتن ميخائيليس بروحه تنتعش هى الأخرى .. وغمغم يقول لنفسه :

- « لقد بدأت أظن أننى لا أصلح صديقا إلا للجياذ . نعم ، إذا كان فى كريت ذئاب وخنازير .. فالآدميون يبدون فى نظرى كما لو لم يكونوا سوى حمقى يستحقون الرثاء » .

ونهض واقفا وأخذ يتمطى حتى قرقت عظامه ، ثم ركل كل واحد من رفاقه وسكب نبیذا فوق رؤوسهم وصاح :

— هيا .. انهضوا .. إلى الامام ! .. إلى العمل !

واستمر الاحتفال طوال اليوم الجديد والليلة التالية .. وكان السوط يقرقع كلما حاول أحد أن يسترخى ، بينما « شارييتوس » يصعد السلم ييهبطه حاملا مالد وطاب ، وأخذ كل من أفندينا وبتروبولوس — كالاخوة — يحشرو أحدهما معدة الآخر! وييديان دهشتهما لأنهما وقد عاشا سنين طويلة فى ذات المدينة .. لم يعرف أحدهما الآخر ويحبه إلا الآن فحسب ..

قال بتروبولوس :

— سوف أعلمك العزف على « الجيتار » ، وسوف تنسى معه متاعبك ، سوف تلعب على أوتاره وتشق طريقك فى الشوارع دون أن تهتز فيك شعرة ..

وقال أفندينا :

— وسوف أعلمك كيف تحمل المشاعل معك يا عزيزى بتروبولوس فتبتد بها !

كان الكونت قد بدأ يألف الجو الكريتى ويسعد بأن يحب ويحتضن الجميع . ولكنه كان يستحى فقط أمام الكابتن ميخائيليس ، لقد كان — وهو رجل « زانتى » المرح — يحس أحيانا برغبة فى أن يطلق فكاهة وهو معه ، ولكنه لم يكن يلبث أن يحس بالحرص فلا تنفجر شفاته عن كلمة ..

واستدار إلى « فيندوسوس » وقال :

— نحن الاثنين .. يا سيد فيندوسوس — ترى هل أدركت ذلك من قبل ؟ — نحن الاثنين لسنا رجالا .. إنما نحن فنانان ..

— فنانان ؟ .. وماذا تعنى هذه الكلمة بحق الشيطان ؟ !

— نوع من الملائكة ، ليس هكذا بالضبط ، هناك فرق بسيط سأشرح لك :

هناك فى المخلوقات صنف الحيوانات — كالحمير والبغال — وهناك

أدميون ، وفوق هذين الصنفين يوجد الفنانون .. ونعرف هؤلاء تجيء
الملائكة ، ونحن الاثنين يا عزيزي فيندوسوس .. من الفنانين .

- وبعد ... ؟ !

- وبعد ، هبئك إذا مت فى هدوء وسلام ، فلا تنسى أن تصطحب معك
قيثارتك إلى القبر مثلما سأصطحب أنا الجيتار ، نعم ، فلنمت سويا يا
فيندوسوس ، يا صغيرى فيندوسوس ! إن الملائكة هى أيضا تعزف على
القيثارة والجيتار ، وعلى باب الفردوس سوف نهدي معزوفة للمايسترو الذى
يسميه الذين لا يفهمون الموسيقى ... الله ، أنا سأعزف « الكانزوني » ..
أما أنت فاعزف « المانتينادا » الكريتيية حتى يخرج المايسترو ضاربا على
الصنج .. ويسمح لنا بالاتضمام إلى جوقته الخالدة .

وضحك فيندوسوس وقال :

- كلمات ضخمة هذه يا صغيرى بيتروبولوس ، كيف تتصور أن تعزف
أنت على قيثارتك ، وأن أعزف أنا على جيتارى بلا أياد .. بلا أصابع ؟ !
ألا ترى ماتفعله الأيادى والأصابع على وجه الأرض ؟ !

وصرخ الكونت وهو يلم أطراف عباءته ويحكمها حول جسده !

- هدوءا أيتها النفس ! أنت تجعل شعر راسى يقف ! ... هل تعنى أنه
حتى الأيدى التى تعزف على القيثارة ؟ ...

- كلها ، كلها ، يا صديقى فى سوء الحظ ، كلها

وصاح « فوروجاتوس » وهو يملأ الأكواب :

- حسن ، فلنشرب إذن حتى نسكر ، ما دامت لنا أيد ورقاب ! .

ثم قال :

- والنساء يا فيندوسوس ؟ هل يتحولن هن أيضا ؟ ...

- كلهن .. كلهن ..

- حتى وأو كن جميلات كالشمس ؟ !

- حتى إذا كن كذلك .. ولكن ماذا جرى للكابتن ميخائيليس ؟ !

كان الكابتن ميخائيليس مقطباً جبينه .. ثم مالّبث أن قال :

- الأفضل أن تتكلم يداك بدلاً من فمك يا فيندوسوس ، وأن تتكلم
قدماك يا فورديجاتوس .. ولتكف السنتكما !

- أمرك ، يا كابتن ميخائيليس ..

وقفز فوروجاتوس واقفاً على قدميه ! .. ترى ماذا بقى ليسال عنه ؟

وقفز فوروجاتوس واقفاً على قدميه ! .. ترى ماذا بقى ليسال عنه ؟

ووضع فيندوسوس قيثارته فوق ركبته اليمنى بينما رفع « كاجابيس » يده
إلى خده وبدأ يرقص .. وبدأ الغناء مرة ثانية .. وكان اليوم قد بدأ خارج
القبو والشمس ترتفع حرارتها ، ولكن الحياة - حياة الرفقة البشوشة -
كانت تمارس وجودها داخل القبو ، وجاءت الظهيرة ، واختفت الشمس ،
وحل الليل مرة أخرى ، وفي وسط المائدة وفوق البراميل أوقدت الشموع
الغليظة ، ومع انبلاج صبح آخر كانوا لا يزالون ممددين فوق الأرض صفر
الوجوه في لون الزعفران .. في إعياء كالنساء الحوامل اللائى أجهضن !
ومرة أخرى تلوثت الحوائط ، واختفت ملابسهم تحت بقع الخمر والدهن ..
وارتفعت الرائحة الكريهة من أفواههم وشعورهم ..

وكان الكابتن « ميخائيليس » يراقبهم دون أن يتحرك من مكانه ، وعندما
ينبثق الفجر كان يدير رأسه نحو النافذة الصغيرة حتى لا ينظر إليهم وقتاً
أطول ، لم يكن يفكر في شيء ، بل كان يحس فقط - ولمدة يومين وإيلتين -
بأمعائه تتلوى وترتعش وبأنه لم يعد يقف على أرض ثابتة تماماً ! .. جلس
هكذا صباح الثلاثاء ، ورأسه مستند إلى الحائط ، وأدهشه أنه ينام
للحظات خاطفة .. خاطفة لا أكثر ! ولكنها كانت كافية لأن يسيطر عليه فير
عفريت من الجن ، وبدأ له لأول وهلة بأنه يسير وسط سحب ربيعي بار
ظل بداخله وهو مخطوف البصر من أثر الحرارة والخمر والإرهاق ، وأحس
كما لو أن هذا السحاب يعانقه ويحتضنه ، ثم يحتويه تحت ذراعه ويرفعه ،
ويدغدغ في حنان جسده ، ولكن هذا السحاب مالّبث أن تحول ببطء ،
فأصبح كثيفاً .. ثم استحال إلى وجه : في البداية تكونت شفتان ، ثم تلالا
بريق عينيّ وحشيتين مخزيتين مليئتين بالخشب والازدراء .. ثم تكون في
النهاية جسداً حمراوان ويدان بيضاوان كالثلج ، وتحركت الشفتان ..
وذن صوت مثل خرير المياه :

« كابتن ميخايليس ، كابتن ميخايليس ... ! » .

ونفخ الكابتن « ميخايليس » نفسه من الحلم بانتفاضة انقلبت لها المائدة فقد خرج كل شيء كان فوقها ، الاكواب والاطباق ، والشموع وصناديق الطبايق ، وقفز الخمسة النيام ! .. واقتمح ضوء الصبح القبو ، ونظر بعضهم إلى البعض الآخر ثم حدقوا في الكابتن ميخايليس الذى كان قد نزع السوط من فوق الحائط ثم اندفع نحوهم وهو يصيح كالمنسوس :

« اخرجوا ! .. اخرجوا

ثم ضرب الباب ففتحه على مصراعيه .. وعاد يصيح « اخرجوا ... ! » وكان « كاجابيس » أول المصفيين للأمر ، قفز خارجا متخطيا عتبة الباب بحركة واحدة واندفع عبر الفناء إلى الباب المؤدى إلى الشارع ، وفى ثوان .. أصبح خارج الدار ، الصباح الثالث فحسب ! كانت « جاروفاليا » نائمة ولاشك ، أطلق ساقيه للريح متجها إلى الميناء ، أما الاربعة الآخرون فقد اندفعوا متعثرين أحدهم فى إثر الآخر خارج القبو وهم يتخططون فى جدرانها ، وعندما أصبحوا فى الخارج بدت على وجوههم الملوثة المغضنة صفرة مشوبة بالأخضرار ، واتجهوا عبر الفناء نحو البئر انصاف سكارى .. ثم منه إلى عريشة الكرم ثم إلى الباب الخارجى حتى إذا أصبحوا فى الشارع ، لم يدروا إلى أين يذهبون .. وتحرك « فوروجاتوس » ... وسار مهموما وشاربه مرتخ وهو يحاول جاهدا أن يصلح حزامه ، ولكن حزامه ظل يهرب من وسطه منزلقا إلى الأرض حتى أن « فيندوسوس » الذى كان يتبعه وقيثارته فوق كتفه .. كان يدوس على طرفه بقدميه .. وخلفهما سار « أفندينا » واحدى يديه تمسك ثوبه الذى تقطعت حمالاته ، والآخرى تحاول فى ضيق أن تمسك بظهور باقى الرفقة ، وهو يصيح :

« قفوا .. قفوا أيها الحمقى ! إلى أين تذهبون ؟ ! إن الكابتن يمزح ، سوف يطلب منا العودة حالا ، عدوا فحسب إذا كنتم تعتقدون فى الله حقا ، الثلاثاء ، الأربعاء ، الخميس ، الجمعة ، السبت ، الأحد - ستة أيام .. لاتزال أمامنا ستة أيام ! ..

كان يحس بأنه من الظلم أن يطردوا هكذا بسرعة ، وهو لما يكد يغرق

فى الخطيئة إلى أذنيه .. إن الخطايا هى وحدها التى تجلب الرضا الحقيقى عندما يمارسها المرء كما ينبغى .. حتى أذنيه ! وقتها فقط يبدأ المرء فى الاستمتاع بها ، ثم لا يلبث بعدها أن يجد شيئا يندم عليه ، إن الخطيئة ينبغى أن تكون جبلا من لحم الخنزير لا بد من الاحاطة به .. وبحيرة من الخمر يسبح فيها المرء - وليس مجرد قطعة قطعة .. أو نقطة فنقطة !

وظل يعد الأيام على أصابعه مرة بعد أخرى : الثلاثاء ، الأربعاء ، الخميس ، الجمعة ، السبت ، الأحد من المؤسف حقا أن يضع عليه هذا العدد من الأيام « لا ، ليس هكذا يا كابتن ميخائيليس ، لا تظلمنا هكذا ، مرنا بأن نعود ! » ..

وخيل إليه أن أحدا يناديه ، وأن يدا لمستة ، لا بد أنه الكابتن ميخائيليس ! واستدار فى سعادة ، ولكنه كان « بترودولوس » الذى يخطب على كتفه وهو يسير متعثرا منتحبا ..

- يا عزيزى أفندينا ، لقد نسيت كيس نقودى هناك ، هلا عدت فجئتنى به ؟ ..

وكان « فوروجاتوس » قد أدرك الباب المؤدى إلى الشارع وحزامه لا يزال ينزلق عن وسطه وهو يجرجره خلفه ، وكان يحس بأن يديه وقدميه ثقيلة كما لو أن شللا قد أصابها فاستعصت على خدمته .

- سوف أذهب لاحضر زوجتى لكى تقوم بتدليك أطرافى ، إلى اللقاء يا أصحابى ، لقد انتهت كل شىء بسرعة !

وصاح « بترودولوس » :

- إلى أين أنت ذاهب ؟ لا تتركنى وحدى يا فوروجاتوس ! .. انتظرنى !

وقال بترودولوس وهو يحيطه بذراعيه :

- تعال يا صغيرى بترودولوس ، أنت تسندنى ، وأنا أسندك !

وتعلق المايسترو بالحزام المتدلى .. وهو لا يزال يتوسل :

- لقد نسيت كيس نقودى .

ولكن « فوروجاتوس » تظاهر بأنه لم يسمعه .. وكانت الشمس قد غمرت

الطرقات ، وتناهى صوت « باربايانيس » من بعيد وهو ينادى على his
sulepi وكان الفلاحون ينادون على ما تحمله ظهور حميرهم من أخشاب
الوقود ، ومر الاثنان بمخبز « تولوباناس » فتوقفا ، وكانت هناك صينيتان
مليئتان بالكعك المكسو بالسمن عند فتحة الفرن .

وتطلع « بترودولوس » إلى الكعك وقد أصابه الشلل ! .. ودس
« فوروجاتوس » يده فى جيب صدريته وأخرج عملة صغيرة واشترى
كعكة ..

- خذ .. كل ، لا أريد شيئا لنفسى ..

كان يفكر فى المجذومين .. وأحس بالغثيان ..

وكان أفندينا يتعثر خلفهما ورأسه تدمى من أوراق الخرشوف متجها إلى
التكية ، متسللا كاللص حتى لا تراه أمه فتضربه .

واتجه فيندوسوس إلى بيته والقيثارة فوق كتفه وقد تقطعت أنفاسه
واصفر وجهه ، وهرعت زوجته لاستقباله وهى تسنده بذراعيها ، وهرعت
ابنتاه أيضا لتساعده ، وتعاون الثلاثة فى وضعه فوق الأريكة ، ومسحوا
وجهه بزيت من مصباح أم الكروم المقدسة .. وترنم الثلاثة وهم يدورون
بالبخور فوق رأسه ، ودثروا جسده بكل ما يملكونه من أغذية لأنه كان
يرتعش ، ثم هرعوا إلى جارتهم العجوز « فلا مبوريارينا » وسالوها أن
تحضر لكى تحجمه بالكاسات .

أما الكابتن ميخائيليس فكان قد سرج فرسه ، ودس الشئ ذا المقبض
الاسود فى حزامه ، وخرجت زوجته إلى الفناء لتسأله عن وجهته ولتذكره
باحتياجات البيت ، ولكنه عندما رأت وجهه خانتها شجاعته بينما استدار
نحوها الكابتن ميخائيليس وسألها فى فظاظة وغضب :

- ماذا تريدين ؟

- هل أعد لك بعض القهوة ؟

- أنا ذاهب الآن إلى المقهى ، وسوف أتناول قهوتى هناك ، ادخلى
وعادت « كاترينا » إلى المطبخ وقد أصابها الرعب ، وكان « رينيو » قد
ذهب ليعد القهوة ، فقالت أمه :

- إنه ذاهب أسرج الفرس ، وسوف ينطلق به إلى الحى التركى ، إنه وحش مفترس ، مؤكد ، إنه وحش مفترس خال من المشاعر ..

وضحك « رينيو » وقال فى فخر :

- إنه ذاهب إلى مقاهى الأتراك مرة ثانية ..

ثم سكت الاثنان وأرهفا السمع ، وتناهى اليهما صوت أقدام الفرس على عتبة الباب .. ثم صهيله فى الشارع ..

وتتمتت الام وهى ترسم علامة الصليب :

- لعل الرب ييسط عليه يد رعايته .

وقال « رينيو » ضاحكا :

- هل رأيت كيف يهرب منه الحمقى ؟ ! .. كنت أتطلع من خلال النافذة .. وكان الواحد منهم بعد الآخر يصرخ ويجرى ، بينما أبى واقف هناك .. واعيا .. هائلا ، رافعا السوط بيده ضاربا به الهواء ، لماذا تتنهدين يا أمى ؟ ! أكنت تريدين زوجا مثل « بترودولوس » أو « فيندوسوس » ؟ ! .. ينبغى أن تسعدى بحظك يا أمى ! ..

- من الممكن أن يكون المرء زوجا متزنا « وكسيا » دون حاجة إلى أن يكون أحقق مثلها ! ..

وقال رينيو وقد عبس بوجهه :

- نعم .. ذلك ممكن ، ولكنى لا أحب « الكسبية » earners ولا الحمقى ، أنا أحب من كان « كابتن » مثل أبى ..

أوسع « كابتن بوليكسيجيس » الخطى مارا بنافورة « ايدومينا » وخلفه « على أغا » بالسلة المثقلة على كاهله التى كان يجمع فيها هدايا عرس ابنة أخيه « فأنجيليو » ومنذ يومين ، كان « الكابتن بوليكسيجيس » مضطربا كأنما قلب عقله زلزال ، كان لا يكف عن الجرى فى الشوارع ، ولم يكن يتناول طعاما أو شرابا .. وإنما كان يكتفى بالتدخين وهو يخور من وقت لآخر مثل الجاموسة المريضة ، وكان تجواله ينتهى به دائما إلى باب أخضر ، توقف ، وقاس ارتفاع الحائط بنظرة سريعة ، ثم شب على أطراف

أصابع قدميه كما لو كان يريد أن يطير فوقه .. ولكنه مالبت أن استدار وعاد أدراجه .

ومن أجل أن يزيل الشك لدى الجيران (فقد كان يحسب حساب الشمطاوات والسنتهن الحداد الخبيثة) ، قام بزيارة النحاس التركي فى الحى واشترى قدرا فى المرة الأولى ، وطبق غسيل و« ككتة » قهوة أو طاسا وأقداحا وفناجين للقهوة فى المرة الثانية ، ولم يكن يعرف فى البداية ماذا يفعل بها ، ثم مالبت أن تذكر أن ابنة أخيه سوف تتزوج ، ومن ثم فقد «لا السلة بالأوانى النحاسية وأثقل بها كاهل » على أغا ، ثم اتجه إلى حى «الكابتن ميخائيليس » حيث بيت فانجيليو .

وبينما هو يمر بجوار نافورة « ايدومينا » ، لاح الكابتن ميخائيليس ممطيا صهوة فرسه ، والسوط معلق فى رسغه ، وأطراف عصابة رأسه تغطى عينيه .

وتوقف الكابتن « بوليكسيجيس » فى دهشة ، لأنه كان يعلم أن الكابتن « ميخائيليس » كان قد بدأ صباح الأحد أسبوعا آخر من أسابيع السكر ! ولكن ، ها هو ذا فى يوم الثلاثاء ممطيا صهوة فرسه مرة أخرى ، وكان واضحا أنه الآن فى طريقه إلى الحى التركى مندفعا إلى فوهة المدفع ! وهز الكابتن بوليكسيجيس رأسه وهو يفكر فى يوم ما من الأيام يدفع فيه الكابتن ميخائيليس حياته ثمنا لهذه الجسارة ، ويتهدم ركن من أركان المسيحية فى ميجالوكاسترو ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يرده إلى صوابه ؟ لا الله ولا الشيطان ! إن الرجل الذى لا يخشى الموت - يخشاه حتى الله ! ...

واقترب الكابتن ميخائيليس ، ووقع بصره على الكابتن بوليكسيجيس فوكز فرسه .. لأنه لم يكن مستعدا للنقاش معه ، إن تأنفه وحديقته ومكانه السحيق وأسلوبه المستهين فى الحياة .. كل ذلك يثير أعصابه ، إنه واحد من هؤلاء الرجال الذين يصفرون ويغنون كل صباح عندما يستيقظون .. وهم صنف لا يرتاح له الكابتن ميخائيليس ومع ذلك ، فقد كانا صديقين شريفيين عندما يجد الجد ويتنفض المسيحي لكى يخلقوا شجارا مع الأتراك ، ثم ان الاثنين كانا من القادة .. وكلا منهما كان يحس بأنه مسئول ، ولكن ما إن تهدا الأحوال حتى يفترق الاثنان كل فى طريق مضاد

لطريق الآخر ، كان الكابتن « بوليكسيجيس » يرى أن الكابتن ميخائيليس يشبه الدب المتوحش ويقول لنفسه دائماً « أنا لا أحبه » .. وكان الكابتن ميخائيليس يقول لنفسه عن الكابتن بوليكسيجيس : « إنه حلاق ، وليس من ذوقى » .. وهكذا فقد حث الفرس حتى يتجاوزته دون أن يكلمه ..

ولكن الكابتن بوليكسيجيس أدرك حين رأى ذلك الوجه الكالح ، أنه ماض إلى مالا تحمد عقباه ، وأن النتيجة لن تكون سوى متاعب للمسيحيين ، ومن ثم فقد استجمع شجاعته وصاح :

- إلى أين يا كابتن ميخائيليس ؟

ثم مد ذراعيه كما لو كان يعترض طريقه .

ودمدم الكابتن ميخائيليس :

- ابتعد عن طريقى إذا كنت تريد ألا يطاك الفرس يا كابتن بوليكسيجيس .

ولكن الكابتن بوليكسيجيس وقف فى وسط الطريق وذراعه ممدودتان ولم يتزحزح ..

- بحق المسيح يا أخى ، لا تهدر قوتك ، أنت ركن من أركان المسيحية ، إن كريت تحتاج إليك ، إن حياتك ليست ملكا لك ، انها ملك لكريت وقد تحتاج إليها قريباً ..

ولكن الكابتن ميخائيليس لم يشعر بازدياد لهذا ، الكابيتايتو ! « مثلما شعر فى تلك اللحظة ، بالأمس هرب فوروغاتوس من القبولحظة خرج فيها إلى الباب المؤدى إلى الشارع لمجرد أن يستنشق الهواء ، وفى تلك اللحظة تبادل بضع كلمات مع جارتهم .. زوجة « كراسوجوريس » وسمع عن لهو الكابتن « بوليكسيجيس » فى الحى التركى ، وحين عاد إلى القبولحظة قص ما سمعه على مسمع الكابتن « ميخائيليس » وتظاهر هذا بأنه لا يسمع ما قال إلا بالكاد ولكن ما سمعه كان أشبه بضربة عنيفة لقلبه

ولم يعد يحتمل الآن ، فانحنى من فوق فرسه وبدأت شفتاه ، تقذفان بالحمم .

- اذهب ومارس إغراءك على من تعرف من النساء ! ، ودعنى وحدى

اتجه أولا إلى مقاهى الأتراك .

واحمر وجه الكابتن بوليكسيجيس وأجاب فى تحد :

- عندما نكون فى سلام فأنا أغرى الهوانم ، وعندما نكون فى حرب فأنا أقفل الأغوات ، وتلك طبيعة الرجل فى رأى .

ثم استدار نحو « على أغا » وقال :

- امض من فورك إلى بيت فانجيليو وافرج حمولتك .

ثم دفعه بيده حتى انطلق ، ثم تقدم خطوة .. ووضع يده فوق عنق الفرس الساخن وقال فى صوت خفيض :

- كابتن ميخائيليس ، أستحلفك بمسيحيتك ، ما الذى يخيفك منى ؟ ! أنا لا أحب نظراتك هذه اليوم ، إنها تخترق جسدى كما لو كنت أننى تركى ..

- ابتعد عن طريقى إذا كنت لاتريد أن يطاك فرسى .

- قل لى .. ما الذى تأخذه على ؟ ! لماذا تدير رأسك عنى هكذا ؟ !

وصاح الكابتن ميخائيليس للمرة الثالثة :

- ابتعد عن طريقى إذا كنت لاتريد أن يطاك فرسى .

- هكذا أنت دائما .. لا أحد يستطيع أن يتحدث معك ، لا أحد يعرف كيف يتعامل معك وصاح الكابتن ميخائيليس فى غضب .

- يا لكائك .. يا كابتن « هنومة » ! .

وهمز فرسه .. فرفع ساقيه الخلفيتين عاليا حتى أنها أخطأت الكابتن بوليكسيجيس بمقدار شعرة .

وتمتم الكابتن « بوليكسيجيس » وهو يعض شاربته :

- ماذا أفعل لهذا الرجل ؟ ! .. إنه بعد كل شئ .. مسيحي .. وفارس .. ولو لم تكن كذلك لعرفت كيف أعاملك أيها المجنون !

ثم بصق ثلاث مرات .. كما لو كان يريد أن يتخلص من هذا اللقاء الشرير ثم تابع سيره إلى بيت ابنة أخيه .

كانت « فانجيليو » تجلس إلى نولها وقد انتهت لتوها من العمل في آخر قطعة القماش الحنطية المزدوجة العرض والتي ستصنع منها سراويل العريس وملابس نوم العروس ، ودست المكوك وسط القماش في عجلة ، كان في عجلة من أمرها لأن موعد العرس اقترب وأصبح يواجهها كحيوان اسود ضخم ، كما أنها هي ذاتها كانت تتحفز كالحوان - كذب منتفش - لكي تحمي نفسها منه .. من ذلك الحيوان الكريه ، لأن ذلك الزواج كان يبدو كذلك بالنسبة إليها .. بذلك العريس المتعب المنهوك - half helping بعويناته ، وبصوت القسيس (الكاهن) ذى الطراوة المقرزة .. الرخيصة .. أولدت هي من أن تكون من نصيب هذا الجزء من رجل ؟ أمن أجل متعته كانت تسمن نفسها سنين طويلة حتى امتلا صدرها وأردافها ، وحتى طال شعرها ليصل إلى ركبتيها ؟ كل هذا من أجل « تيتيوس » ؟ ! « تزوجته هكذا همس عمها « بوليكسيجيس » فى أذنها « قولى نعم يا فانجيليو ، إن الزوج وسادة ذات رغب downry تبعث الدفء فيك » ... أه .. أين الله ، حتى ينطلق صوتها ليخرق السموات السبع وهى تصيح : « أنا لا أريده ، أنا لا أريده ؟ » فكم سنة أمضتها وهى تحلم فى نومها بشباب بطل متشبح بعباءة من الصوف حول كتفيه .. شاب مهضوم الأرداف ، عرييد يحب الخمر والنساء والشجار ، ويبعثر أمواله فى عظمه .. شاب لا يبارى مثل شقيقها ، « ياماندس » ! ... أه .. كم مرة وبالأخرى كلما أشعلت المصابيح مع مواجهة حرم الايقونة ، iokon shrires التى كان يتوجه اليها والداها - كم مرة توجهت بالضراعة إلى القديس نيكولاس « راعى البنات اليتيمات ، وإلى القديس « فاموريوس » الذى يجىء بالعرسان ، حتى يهباهما زوجا مثل شقيقها ! .. نعم مثل شقيقها وليس مثل عمها « بوليكسيجيس » ، هذا الثرثار الضئيل الكالغ ! وليس مثل الكابتن ميخائيليس الذى تعبق أنفاسه برائحة الكبريت ، والذى ترتعش أمامه حتى كلاب الجيران ينبغى فحسب أن يكون مثل شقيقها دياماندس ، جسدا مثل شجرة السرو ، ووركان مثل وركى كلب من نوع البوكسر أو مثل وركى ملاكم Boxer وصدر مثل القلعة ، وإلا فإنه من الأفضل لها أن تبقى بلا زواج ، وأن تصبح عجوزا تعيش مع شقيقها ، هو أيضا ينبغى أن يبقى بلا زواج - ان الزوجة سوف تدمر كل هذه الرقة فيه ، أه لو ماتا معا فى نفس اللحظة .. ودفنا معا فى قبر واحد تنمو على جانبيه شجرتا سرو ، واحدة منهما نحيلة رقيقة مثل شمعة ، والثانية أنثوية متفرعة الأغصان !

وجذورهما تحت الأرض تتشابكان !

ولكن .. ها هو ذا العم « بوليكسيجيس » قد جاءها ليقول إن عليها .. أن تقبل « تيتيروس » شقيق الكابتن ميخائيليس ، زوجها لها ، فتصبح بذلك زوجة رجل من عائلة ذات قدر .. رجل يعولها بعد أن بدد ديامانديس أشجار الزيتون وحقل الكروم التي خلفا لهما والداهما ، ولم يعد باقيا لها سوى هذا المنزل .. وهو « الدوطة » اليتيمة التي أصبحت تملكها .. ولكن .. ! قد لاتمضى شهور قليلة قبل أن يأتى عليه هو الآخر ذلك الشقيق الأصغر الشره .. فماذا بعد ؟ .. !

وتمتعت فى عناد وهى لاتزال تنسج على نولها : « الخطأ كله خطأ بوليكسيجيس هو الذى أوصلنى إلى هذا كله ! هو الذى أغرائنى بأن أقبل ، ولكن الله عدل ، ولسوف يعاقبه على ذلك ، وإذا لم يفعل ، فإن زفريات الرجل الأعزب سوف تنقض على بوليكسيجيس مثل الرعد .. ولعلها أن تحرقه ! » ..

وضرب الكابتن بوليكسيجيس الباب الخارجى ففتحه ودخل ثم استدار نحو « على أغا » الذى كان ينتظر بالخارج وأشار إليه أن يدخل وينزل حمله ، وقال له فى بشاشة وهو يلقى إليه بقطعة من العملة الفضية .
- جوزيت خيرا يا على أغا ، فلتنقض وقتا طيبا بهذه القطعة .

وتلقى على أغا قطعة العملة وأمسك بها فى قبضته بشدة كما لو كانت طائرا سوف يطير بعيدا عنه ثم انحنى ليقبل اليد الكريمة .. ولكن بوليكسيجيس سحبها وهو يضحك قائلا :

- أنا لست أبا أو إماما يا على أغا .. إلى الملتقى !

ثم اخترق فناء الدار فقفز الكلب فى الركن الذى كان يقبع فيه وهو يشمشم .. ثم مالبت أن انزوى فى مكانه بعد أن عرف القادم الجديد ..

وعبر باب المنزل المفتوح رأى الكابتن بوليكسيجيس النول - ذلك الحيوان المنزلى الاليف ذا الأقدام والسيقان والبالات والريش المعدنى والألسن والأمشاط والصوت الرقيق إذ يلف ويدور وكأنه صوت سفينة تشق الماء ..

واستدارت « فانجيليو » ورات عمها ، فاستجمعت كل قواها لكي تبتسم ابتسامة ترحيب ، ولكن من بين شفيتها ، وأنفها وذقنها بدا أن الابتسامة لا تخرج إلا سماً ! كان الحال قد انتهى بها إلى أن تصبح جامدة قليلة الكلام بصفة دائمة ، تحس دائماً كما لو أن دورة مستترة تنهش أحشاءها ، وبدأت الصفرة تكسو وجهها وبدأ صدرها يهبط ويرتخى ..

ورأت على أغا خلف عمها ومعه السلة .. وأدركت كل شيء ، فقالت وهي تختلس نظرة إلى السلة ، ورات ما بداخلها من الأواني المعدنية .. وأضاء وجهها للحظة ..

– أنت شديد الإسراف يا عمى جورج .

وضحك الكابتن بوليكسيجيس وهو يحاول أن يعيد الدم إلى وجنات ابنة أخيه :

– « لابد من يوم يتزوج فيه كل امرئ يا فانيليو ، وإذا كان حقل الكروم قد ضاع .. فلا بأس .. الناس يقولون إنه ليست هناك متعة أكبر من الزواج »

وانفجرت فانجيليو :

– « الناس يقولون » ..

ثم سكنت فجأة :

وجلس الكابتن بوليكسيجيس فوق الأريكة الصغيرة ورفع عن رأسه طربوشه (فقد أحس بالحرارة) ووضع على إفريز النافذة ، بينما انحنت فانجيليو على ركبتيها وبدأت تخرج ما فى السلة من أوان معدنية واحدة بعد الأخرى .. وامتلا البيت بالأوعية والأطباق والأباريق .. وبدأت تشع من وجه فانجيليو حمرة الدفء وهي منحنية تخرجها كلها ..

وقالت بنصف قلبها ! :

– جزاك الله خيراً يا عمى ، أنت فى مكان الأب بالنسبة لى .

– أنت تقولين ذلك بنصف قلبك يا فانجيليو ! ها أنت ستتزوجين ، ورغم ذلك فأنت يا طفلى تكادين أن تبكى ، ارفعى هاتين العينين وانظرى الى ..

هيا .. ابترسمى .. ابترسمى ولو مرة واحدة .. اطلقى ولو صيحة واحدة تسرع بعدها انفاك أكثر ! عندما تنسج العرائس آخر قطعة من ثيابهن ، فإنهن يغنين وهن يفعلن ذلك فتهتز بيوتهن - نعم ، بل أن الجيرة نفسها تهتز كما أن زلزالا أصابها ، إنها تسمى أيام العرس ! ولكنك تتصرفين كما لو كنت تنسجين كفنا لا ثياب عروس ! .

وامتاجت فانجيليو ، كلمات كهذه تثير الغضب من رجل نال كل ما يريد ، عادت لحظتها فى خطيبها ، أو كان من الممكن حقا أن تغنى به من أجل هذا الوجه الشاحب ؟ وأحست بطعم غريب داخل فمها ، وبأنها على وشك أن تنفجر مرخية العنان لنفسها .. ولكنها ترددت .. ماذا كان يمكن أن تقول ؟ إن الأمر سيان على أية حال .. إذا كان المرء سعيدا ، فلماذا إذن يصيح ؟ ! وإذا لم يكن سعيدا .. فلماذا أيضا يصيح ؟ ليس بمقدوره أن يغير من قدره شيئا ، والأفضل إذن أن يبقى ساكنا ..

ولكن الكابتن بوليكسيجيس لم يستطع أن يتحمل تلك الشكوى الخرساء من ابنة أخيه ، كان يوم العرس يقترب ، فى عيد الفصح سوف يكون الأكليل ، وقبل أن يأتى ذلك اليوم كان لابد أن يوضح الأمر لابنة أخيه ، كان يحس بأنها تنظر إليه بعينين رافضتين كارهتين منذ أن أتم خطبتها ، لابد أن يدعها تعرف - قبل أن تتزوج - إن الأمر كلفه شيئا يغرى به عريسها حتى يقبل الزواج منها ! لقد كان مترددا حتى آخر لحظة ، واضطر الكابتن بوليكسيجيس يوما إلى أن يفتح حافظة نقوده ويخرج منها خمس جنيهات ذهبية ويعطيها له وهو يقول : « خذ .. يا مدرس ! .. واعتبرها دواة إضافية .. ولا داعى لأن تخبر أحدا - ولا حتى الكابتن ميخائيليس أو العروس .. أو شقيقتى .. ها أنذا أطلي ابنة أخى بالذهب .. وأعطيها لك ! » .. هكذا استطاع أن يدبر الأمر .. فلماذا حدث ؟ ! الأنسة العروس تشيح بوجهها كما لو كانت تشرب الكينين ! إن عريسها مقرز ! لعلها تريد لنفسها أميرا من الأمراء ؟ !

وخرجت فانجيليو من المطبخ ويدها صينية مستديرة فوقها أقداح القهوة وكوبا من الماء البارد وبعض الكرز المحفوظ ، ووضعتها فوق مقعد فى مواجهة عمها .

- استمعى إلى يافانجيليو .

ثم القى بنظرة نحو الباب ...

- ألم يعد ديامانديس بعد ؟ ! الايزال شقيقك هذا السليم فى جولاته العابثة ؟

وردت فانجيليو فى اعتزاز :

- إنه شاب .. ووسيم .. وذلك من حقه .

- من حقه ؟ ماذا ؟ هل من حقه أن يسبب لك الخراب يا فانجيليو ؟ ..

- يسبب لى الخراب ؟ ! ولكن .. لو لم يكن معى .. إذن لكنت قد مت .. ماذا كان لدى بعد لكى أحيا من أجله ؟ دعنى أقل لك يا عمى ، إننى أحنى عنقى الآن .. وأقبل القيد الذى وجدته من أجلى ، أقبله حتى إذا ماتتزوجت لم أجد شيئا يفرقنى عن شقيقى ، وإلا .. فليخطف الشيطان تيتيروس !

وابتلع « بوليكسيجيس » الماء البارد .. وكتم غضبه ، وتعمد أن يقضى وقتا أطول فى مضغ حبات الكرز المحفوظ كيما يمنع نفسه من أن يمد مخالبه فيمسك بأبنة أخيه من شعرها ويطوح بها عرض الحائط .. وأخيرا .. بدأ يبرم شاربه وهو يقول :

- اللعنة ! .. إنه شقيقك وليس حبيبك ، هو أيضا سوف يتزوج ويكون أسرة .. ويومها لن يعود فيفكر فى الحانات ... !

وقفزت فانجيليو واقفة وقد توهج خذاها وصاحت :

- أدعو الله ألا يكون هذا مكتوبا .. فإذا كان مكتوبا ، فإننى أدعو الله أن يمسحه ! ..

وصاح بوليكسيجيس وقد استبد به الذهول :

- ماذا دهاك يا فانجيليو ؟ ! أتحبينه أكثر من زوجك ؟ ! ولكن هذا أمر شائن ! أبعد كل الجهود التى بذلتها

وصاحت فانجيليو وهى تبصق بين أسنانها فى حنق :

- أنت بعتنى بقطعة خبز ...

ولم يعد فى مقدور الكابتن بوليكسيجيس أن يسيطر على نفسه بعد ..

- بقطعة من الخبز .. اللعنة ؟ ! .. ربما يبدو لك الأمر تافها يا أميرتى ؟ .. يا لذكائك ! .. وماذا بالله يمكن أن يجد العريس ليرغبه فيك ؟ ! الشباب ؟ الجمال ؟ الثروة ؟ ! .. لقد بلغت الخامسة والثلاثين وتجد وجهك مثل عنب الثعلب الجاف وأصبحت عجوزا بشارب ! وهذا الكلب السلاقي - أخوك - قد نهبك فلم تعودى بعد أكثر من خرقة بالية ! من الذى سينظر إليك الآن .. بل من الذى يمكن أن يرغب فى النظر إليك أيتها المسكينة ؟ ! لقد أعمى الله عينى تيتيروس ، فقبل الزواج منك ..

ودفنت فانجيليو وجهها بين يديها وبدأت تبكى دون أن تتحرك .. واهتز قلب الكابتن بوليكسيجيس ، كيف خرجت هذه الكلمات من فمه ؟ ! وماذا يمكن أن يفعله الآن ؟ ! كيف يمكنه أن يهدى الفتاة المسكينة ؟ ! وضع يده فوق شعرها الكثيف وقال :

- كفى كفى يا عزيزتى فانجيليو .. كفى بكاء ، سوف يكون كل شيء على مايرام بمشيئة الله ، إن رجلا طيبا سوف يرعى شئونك ، ثقى من هذا ، ما أسرع ما تزهر هاتان الوجنتان ويشيع فيهما الاحمرار وتعودين صغيرة من جديد ! وعندما يصبح لك أطفال ظرفاء

وقالت فانجيليو فى احتقار وهى تمسح الدموع من رموشها ..
- هرا ! « تيتروسات » صغيرة !

- ربما لا يصبحون مجرد « تيتروسات » صغيرة ! سوف تجرى فيهم أيضا دماؤنا نحن ، وربما يصبح أطفالك مثل شقيقك !

وأصابتها الدهشة ! ... وأحسست بالدماء تجرى فى عروق صدرها الخابى .. وقالت وهى ترتعش .. « أسكت .. »

ونفض الكابتن « بوليكسيجيس » واقفا .. ومد يديه ليحتضن ابنة أخيه ولكنها ابتعدت عنه .

- حسن .. سوف نتحدث فى يوم آخر يا فانجيليو ، سأخرج الآن قبل أن يعود شقيقك السكير ، فليست لدى رغبة فى رؤيته هنا ..

ووضع طربوشه فوق رأسه واتجه نحو الباب ، وفى نفس اللحظة تناهى صوت خطو ثقيل ، وفتح الباب الخارجى بعنف وظهر الشقيق على عتبة لاهثا منهكا وقد وضع خلف إحدى أذنيه مسلوح حقيق أصفر .. وخلف الأذن الأخرى سيجارة .. بينما تدلى معطفه متهدلا حول كتفيه ، وعندما رأى عمه عبس وجهه وزم شفتيه « هنا مرة ثانية .. هذا الخاطبة ؟ ! فليخطفه الشيطان ! » .. وتماسك ، ورفع قبعته واجتاز الفناء ودخل دون أن يرى الأوانى المعدنية فوق الأرض ، فتعثر فيها وسب ولعن !

وأشاح الكابتن بوليكسيجيس بوجهه متقززا .. وقال فى احتقار :

- الناس يشربون النبيذ .. ولكنهم لا يسكرون ! خذنى أنا مثالا .. الناس يجرون وراء النساء ولكنهم لا يهينون أنفسهم ، وخذنى أيضا مثالا .

ونخر « ديامانديس » باحتقار .. فلم يكن يحتمل كلمات عمه .. وكان أيضا يعرف نقاط الضعف فيه .. وخرج لسانه عن سيطرته : فاندفع يدمدم ..

- نعم الرجال يشربون النبيذ ولا يسكرون ، وهم أيضا لا يعضون إلى فراشهم ، ولكنهم يمتطون صهوات جياهم ويركضونها - لانحو حى الأتراك جريا وراء إحدى الهوانم ، ولكن نحو مقامى الأتراك بحثا عن الأغوات .. خذ أنت نفسك مثالا يا عمى .. خذ مثالا فى الكابتن ميخائيليس !

واخترقت الكلمات قلب الكابتن ميخائيليس ، فقد أحس بأن هذا الشقيق السكير كان على حق ..

- اللعنة عليك أيها التافه ! أنت تصلح فقط فى تبديد دويلة أختك فى الخمر والنساء والساعات والسلاسل .. لو أنك فقط تحسب حسابا للزمن ! .. ولكتك لاتصلح لشيء من هذا أيها الفاشل !

وصاح ديامانديس .. وقفز فوق الأوانى والأقداح يريد أن يمسك بخناق عمه .. ولكنه تعثر وسط فوق الأرض محدثا صوتا داويا ..

وضحك الكابتن بوليكسيجيس فى احتقار وقال وهو يجتاز عتبة الباب ..

- أرجو لك أن تسعدى بشقيقك الصغير يا فانجيليو !

- يعلم الله اننى سأظل سعيدة به حتى آخر يوم فى عمرى ..
وانحنت تساعد شقيقها على النهوض من وسط الاوانى النحاسية
المبعثرة واجلسته فوق الأريكة ووضعت وسادة خلف رأسه وربت عليه فى
رقعة ..

وفى منتصف النهار عاد « ثراسوس » من المدرسة فى اضطراب شديد
وصاح وهو يطوح فى الهواء بقبعته الحمراء التى صنعتها له شقيقته :

- ماما ! .. فرس أبى يثير الشرار بوقع حوافره على الأرض ! .. رأيت
يمتطى صهوته على طول الشارع العريض وأصحاب الدكاكين والاسكافيون
واقفون يشيرون إليه ، قال بعضهم انه قادم من الحى التركى ، وقال آخر ،
انه متجه إليه ، ووقفت أنا هناك ورفعت قبعتى ولوحت له ، ولكنه لم يلتفت
إلى ! ؟ كان الشرار يتطاير من حوافر الفرس !

وقالت الام وقد أفزعها إعجاب ولدها بابيه ..

- كان السيد باراسكيفاس هنا يشكو إلى ، قال لى إنك أنت وأصدقائك
اختطفتما ابنته أول من أمس .. ألا تخجل من نفسك ! ؟

وضحك « ثراسوس » .

- لماذا فعلت ذلك ؟

وهز الصبى الوقح كتفيه .

- أحببنا أن نفعل ذلك ، وبالأمر كدنا نفعل شيئا بتييتيروس ! دبرنا أن
نختبئ خلف الباب ومعنا حبل .. ونلقى أنشودة حول عنقه عندما يدخل
كما يفعلون عندما يمسون بجواد برى وكما عرفنا منه هو نفسه أول من
أمر .. كنا نريد أن نلعب لعبة مروضى الخيول !

وصاحت الام :

- أشرار ! وماذا فعل بكم هذا الرجل الطاهر ؟ لماذا تريدون قتله ؟

- قتله ! ؟ .. نحن ! ؟ ! .. ولكننا نحبه ، كانت مجرد لعبة فكرنا فيها ، ولم
يكن فى نيتنا أن نجذب الأنشطة بسرعة ، كنا نريد فقط أن يخيفه لنرى
كيف .. يتصرف !

ثم أخرج من تحت إبطه حبلا كان الغسيل ينشر فوقه فأعاده إلى مكانه ، ثم عبس بوجهه وشدّد قبضته كما يفعل أبوه !

... وفى الدقيقة الأخيرة خاف الآخرون ، كانوا كثيرين جدا .. وكان منهم كثيرون من الجبناء ، ولكن لابأس .. مرة أخرى سوف انتقى أنا بنفسى - أقل عدد منهم وأكثرهم استعدادا ، وربما فعلتها وحدى ..
ودق الباب .. وظهر « على آغا » ..

- بالله عليك يا سيدتى ، أفندينا أصابه الجنون من جديد ، إنه يجرى وسط الحى اليونانى قادما إلى هنا ، أغلقى الباب ولا تدعيه يدخل .

ولم يتم كلماته حتى اندفع أفندينا يعوى إلى داخل الفناء .. وتألّمت « كاتيرينا » لمنظره ، لم يكن يبدو على المخلوق المسكين مظهر بشرى . كانت ملابسه المصنوعة من الخيش ممزقة تهدلت منها خيوطها ، وكانت عيناه حمراوين منتفخين من البكاء ، وكان قد خلع عمامته ولوّث فروة رأسه بطبقة كثيفة من روث الخيل ، وركع فى منتصف الفناء وبدأ يصرخ معولا :

- لقد دنست نفسى ، لقد أكلت لحم الخنزير وشربت الخمر وتفوهت بكلمات دنسة .. أيها الرجال والنساء .. سامحونى ! وعسى الله أيضا أن يرحمنى ويغفر لى ! سيدتى ، إذا سألك الرب غدا ، فقولى له إن الكابتن ميخائيليس هو الذى دفعنى إلى ذلك بالرغم منى ..

وزحف على ركبتيه نحوها ليمسك بيدها ويقبلها .

- كونى رحيمة بى يا سيدتى ، أنا فى عجلة من أمرى .. أريد أن أنشر عذابى وعارى ، وما قد بدأت بك أنت ، وبعدها سوف أهرع إلى باب الباشا وإلى بيوت الأتراك الآخرين ، لابد أن يروا فروة رأسى .. لابد أن يعرفوا خطيئتى .. لابد أن يبصقوا على ، ولكننى أضع ثقتى فىك أنت ، إذا سألك الرب غدا ، فقولى له أن الكابتن ميخائيليس هو الذى أجبرنى على فعل ذلك على الرغم منى ..

وضحك تراسوس ، وكان قد أخذ حبل الغسيل خفية ، وجعل منه إنشوطة ، بينما خرجت « رينيو » من المطبخ ووقفت تنظر إلى أفندينا وضنحكة هى الأخرى .. ولكن « كاتيرينا » أحست بعينيها تبللها الدموع .. وقالت فى رقة ..

- قف يا أفندينا .. قف .. سوف أفعل ما تريده ، سوف أشهد أمام الله
أننى رأيت بعينى رأسى كيف أجبرك الكابتن ميخائيليس على ذلك ضد
مشيئتك ..

- جزاك الله خيرا يا سيدتى ! والآن .. أسألك أن تقدمى لى مغروفا ..
هلا بصقت على ؟ !

- لا .. لن أفعل ذلك يا أفندينا ، قف واذهب مع بركات الله السبع ..
- إذا لم تبصقى على فلن أخرج ..
ثم استدار نحو على أغا ..

- ودورك أنت بعدها يا على أغا - نعم أنت .. كمسلم مؤمن .. وبعدها
يجىء دور ميخالوكاسترو كلها .. قبل أن أغادر التكية ، نهض جدى من
قبره وبصق على ، وأنت أيضا يا سيدتى لابد أن تفعلى إن كنت تؤمنين
بالله !

واستدارت زوجة الكابتن بعيدا ..

- لا أستطيع لن أفعل .. انصرف .. وإلى الملتقى !

وصاح أفندينا فى الم :

- لن انصرف ، نعم ، وحق الرسول محمد سوف أبقى هنا حتى تبصقى
على وجهى .

وقالت الزوجة وهى تعود إلى المطبخ ..

- سوف أفعل ما أريده أنا لا ما تريده أنت يا أفندينا .

وصاح أفندينا باكيا ..

- فسوف أبقى إذن راکعا فوق هذه الحجارة حتى يطلع الفجر .

ثم بدأ يضرب رأسه فى الحجارة وهو يرفع صوت بكائه ويعوى مثل
الكلب ..

وأشار « ثراسوس » إلى شقيقته ، ففهمت ما يريد منها وأخذت مكانا

قريبا منه خلف ظهر أفندينا ، وبينما كان أفندينا يضرب على صدره بقبضة يده ويعوى وعيناه معلقتان بالمطبخ ، ألقى « ثراسوس » الأنشطة حول عنقه وأمسكت « رينيو » هى الأخرى بطرف الحبل ، وجذبه الاثنان .

وأطلق أفندينا صيحة مخنوقة ، وهوى إلى الخلف وقد علت الزرقة وجهه وجحظت عيناه .. وطوح بيديه يريد أن يمسك بالأنشطة حتى لا يختنق ، ولكن يديه كانتا عاجزتين من شدة الرعب .

وصاح « على أغا » :

- بالله عليكم يا أولاد .. أنتما تخنقان هذا المخلوق البائس :

وسمعت زوجة الكابتن صرخة المسكين فعاتت تجرى ، وجذبت الحبل من أيدي أبنائها .. وأرخت الأنشطة ، ثم دفعت بأفندينا نحو الباب المؤدى إلى الشارع وقالت :

- أخرج .. أخرج أيها التعس .. أخرج ! أخرج مع أطيپ تمنياتى !

ثم دفعته بشدة فانكفاً على أرض الشارع ، وأغلقت دونه الباب .

وانفجر ثراسوس ورينيو بالضحك ، وقال الأول :

- أرايت يا أماه ١٩ .. هكذا يمسكون بالجياد ..

ثم عاد يقول وهو يعلق الجبل مرة أخرى بالقرب من مرجل الغسيل .

- الآن .. لن يستطيع تيتيروس الإفلات !

اندفع الكابتن ميخائيليس كالعاصفة داخل الحى التركى وهو ممط فرسه ولم تستطع الخمر أن تغطى على ذهنه بسحائبها ، وضغطت ركبتاه بقوة على جانبي الفرس وهو يحس بقوة لحدود لها فى أطرافه وعضلاته ، قوة كانت أغلب فى تأثيرها عليه من الخمر التى عبها ، قوة لم يكن يعرف كيف يطلق نفسه من إسارها ..

لم يكن يستطيع أن يميز بوضوح أولئك الرجال الذين كان ينطلق بفرسه بحذائهم ويدت البيوت أمامه كما لو كانت أقصر .. وبدت الشوارع أضيق وسمعت (الجوارى) صوت فرسه ، فاندفعن إلى الطاقات ينظرن من

خلالها ، كن يعرفن الكابتن ميخائيليس ولكن الشمس كانت تخطف
أبصارهن فلم يستطعن تمييز وجهه جيدا ليتأكدن من أنه هو نفسه ،
وتسألت « أجلاجا » :

- ما الذى ينويه هذا الدب فى هذه الليلة القمرية ؟ .. أياكون
سكرانا ؟ » .

وقالت « ثاليا » وهى تحرك أنفها كما لو كانت تتشمم شيئا :

- « انظرى جيدا .. هناك شىء ما يحدث هنا .. لماذا ظل الكابتن
بوليكسيجيس يتلصص داخل حينا منذ أمس ؟ لقد رأيته فى نفس اللحظة
التي بدأ فيها الزلزال عندما اندفعت « أمينة » إلى الخارج وقد تظاهرت
بالاغفاء .. اليس صدفه عجيبة حقا أن يظهر فى نفس اللحظة ؟ ..
أكانت صدفه حقا ؟ أم أنها كانت مرتبة من قبل ؟ وهكذا أفاقت من
أغماعتها على يديه ... ! ومنذ ذلك اليوم تلتطخ حينا بالعسل ! وها قد جاء
دور الكابتن الدب البرى .. هذه الخنزيرة الملعونة ! إن كلا الفاسقين
يستطيع أن يشم رائحتها على بعد ميل كامل ! » .

وقالت « فروسين » :

- صمتا ! صمتا ! .. أسمعون سهيل جواد نورى بك ؟ !

وكان صوت الجواد المطهم النبيل يتناهى من الـ Konak التركى
يحيى الفرس الشهوان .

وقالت « ثاليا » وهى تقهقه :

- أمينة تتأوه ! ..

ولكن سرعان ما احتبس لسانها داخل حلقتها .. بينما صرخت
شقيقتها ، فعندما سمعت الفرس سهيل الجواد الفحل ، تراجعت كما لو
كانت تريد أن تبدأ فى الرقص .

وصاح الثلاثة معا :

- سيقتل الكابتن ميخائيليس !

ولكن الكابتن مالبتا أن ضغط بقوة على ظهر الفرس .. وغرس المهمازين فى جسدها ، فأحسست بسيدها القاسى فوق صهوتها ، فأحسنت رأسها وعادت تتحرك من جديد .. وغغم الكابتن وهو يضرب رأسها بقبضته :

- اللعنة عليك ، وعلى هذا الدم الخار الذى يجرى فى عروقك !

وعندما أصبح قريبا من البحر ، أرخى لها العنان لتنتلق حرة على طول الأسوار الحصينة ، وأحس بهواء البحر يملأ صدره ، وهو يقتحم بها المتاريس التى كستها الأعشاب .. وبدأ يحدق فى البحر الأزرق العميق المزبد تلمع صفحته تحت أشعة الشمس .. وأطلق ذاته خلال الضباب إلى الشمال فى اتجاه اليونان .. وتنهده وهو يحدث نفسه :

- يا إلهى .. بك أنت سبحانك .. أستطيع أن أتحمل هذه الحياة .. بك أنت .. وليس بالناس .

ثم تابع سيره .

كان لايفتا يجادل ربه كلما تذكر « كريت » التى تخلى عنها الكل .. وكادت عبارات الكفر تقترب من طرف لسانه .. لم يكن ينوح أمام الله ، بل كان غاضبا منه سبحانه ، لم يكن يطلب الرحمة ، ولكنه كان يطلب العدل .

وارتفعت من جهة الجنوب سحابة قاتمة لاتزيد فى حجمها على حجم زجاجة ماء .. ثم مالبت أن أصبحت أكبر فأكبر حتى حجبت السماء وخنقت الشمس وجاءت ريح رطبة ناعمة من جهة البحر مسست وجهه الشاحب .. فرفع بصره إلى السماء .. ودمدم فى حنق :

- ولكننى لا أستطيع أن أحارب بك أنت سبحانك .. فسوف أحارب إذن بالناس ..

وغرس كعبيه فى جنبى الفرس ثم اندفع مرة أخرى عبر الشارع العريض وكأنه البرق .. ووقف الكريتيون لكى يروه جيدا ، ومضى هو لا يلوى على شيء حتى بلغ « بوابة كانيا » حيث المقهى التركى الكبير والأغوات الأتراك المرموقون يسترخون بداخله .

من هذا المقهى كان الأتراك يتبادلون الراى والمشورة كلما لاحت فى الألق ثورة .. ومنه كانوا ينطلقون إلى المذبحة والمدى بين أسنانهم وفى

الأمسيات الربيعية ، وعندما تغيب الشمس : كانت أرضه تستقبل قطرات المطر .. فتشيع في الجو رائحة الرطوبة ..

فى هذا المقهى كان يجلس وجهاء الشباب التركى فى حلقة فوق مقاعد مرتفعة وهم ينشدون أغانيهم الرتيبة ، وفى ليالى الشتاء ، كان قصاصوهم الموهوبون يضحكونهم .. وكان المؤذن هو الآخر يتردد على المقهى .. يمتحن الشباب التركى وينصت إلى أغانيهم الرتيبة ويشاركهم فى أمانيمهم وحنينهم ، ويختلط عليه الأمر فى النهاية فلا يدري ما إذا كانت هذه هى الجنة أم مجرد مقهى ، لم يكن هناك شىء ينقص المقهى ليكون جنة على الأرض ، الطبايق الجيد للنارجيلة ، والنساءم الرقيقة من الحديقة المحيطة .

كان النهار قد جاوز نصفه ، وكان الأغوات قد انتهوا من طعامهم وجلسوا القرفصاء فى استرخاء فوق أبسطة من القش فرشبت بها أرض المقهى ، وهم يدخنون النارجيلة ، وعيونهم نصف مغلقة من النعاس .. ويحتسون القهوة فى سعادة .

كان كل شىء قد رتب نفسه من أجل أن يمنحهم هذه السعادة ! فمنذ أجيال بعيدة ، كان أبائهم الأول قد قسموا كريت فيما بينهم .. وأصبحت كرومها وزيتونها وأرضها الخصبة تركتهم لابنائهم ، بينما تركت الأرض الجرداء لليونانيين ، وبين الحين والآخر كان الكريتيون يرفعون رموسهم ، ولكن جنود الاناضول كانوا يتصدون لهم ويجبرونهم على الانحناء بالقوة الطاغية .

وظهر نورى بك حليق الذقن ، انيقا رشيقا مثل الأسد بشاربه الدقيق الأطراف المصبوغ بالصبغة السوداء ، المسحوب كالحديد وهو ينحنى يمينا ويسارا فى تحية صامطة ، ثم اتجه إلى داخل المقهى ليجلس إلى جوار المائدة التى تهيأ فوقها بضاعة المقهى .. ليكون وحيدا ..

ومنذ ذلك اليوم الذى تعثر فيه جواده وسط المقابر .. وظهر أمامه شبح أبيه بشعره الأشعث الأحمر كالدّم ، لم يكن نورى بك يهنا بنوم أو طعام أو حديث ، كانت دماء أبيه تصرخ طالبة الثأر ، وكان أبناء القاتل وأخوته وأحفاده لا يزالون على قيد الحياة .. يتزوجون .. وينجبون ، ويحتفلون ويمرحون ، بل إن واحدا منهم تجرأ منذ وقت ليس بالبعيد على أن يدخل

حمارا إلى صحن مسجد القرية ! إلى متى يا ترى يمكن أن تحتمل هذه
الاهانات ؟! وإلى متى يظل أبوه يهيم عارى القدمين بين الأرض
والسما ؟! .. لقد أن الأوان لأن يتخذ قرارا .. إذا كان رجلا حقا ..

وقال لصاحب المقهى :

- هات نارجيلة يا حسين ولا تدع أحدا يقترب منى .

وسمعت جلبة كالرعد على بعد .. وأدار الأغوات وجوههم تجاه الباب
كانت السماء مغطاة تماما ، ولا ح برق أصفر وأخذت الريح تصفر وقال أحد
الأغوات :

- « الحرارة هي السبب ، سوف تمطر السماء »

وقال آخر :

- « من حظ المحاصيل .. وقال ثالث :

ومن حظ اشجار الزيتون واللوز - الحرارة تعجل بنضجها » ...

ثم اتجه ناحية الباب يراقب الطقس .. وما أن بلغ عتبة الباب ، وقبل أن
يرفع يده ليحمي نفسه .. قفز إلى الخلف فى زعر بينما ظهر الكابتن
ميخائيليس فوق صهوة فرسه على مدخل المقهى وهو ينحن ليرى الأغوات
جالسين فى استرخاء يدخلون النارجيلة وهم شبه نيام ، واندفعت الدماء
إلى رأسه .. ودارت الدنيا أمام عينيه ، فهزم فرسه ، فتراجعت لحظة ثم
اندفعت داخل المقهى ..

ولم تكن هذه أول مرة يفعلها ، وكانوا هم يعرفون نزوات هذا السن ! ..
أطاحت الفرس بعدة مقاعد فحطمتها .. وقلبت إحدى الموائد ، وتحطمت
بعض الأواني الصينية ، ثم اندفعت نحو المكان الذى كان يجلس فيه نوري
بك ، وحيث كان يقف صاحب المقهى كعادته أمام الفحم المشتعل يضع
أوانى القهوة أو يرفعها .. ثم توقفت :

وساد المقهى اضطراب .. وطوح الأغوات النارجيلات جانبا وهبوا
واقفين ، الأكثر جراءة منهم تحسسوا بسرعة خناجرهم تحت أحزمتهم
الحمراء ، بينما رفع الشيوخ منهم أياديهم صائحين :

- احذر يا كابتن ميخائيليس ، لاتثرها مذبحة !
ولكنه لم يتحرك .. وطرق بسوطه فى الهواء وهو يصيح :
- اخرجوا جميعا .. اريد أن أشرب قهوتى وحدى !
ورغم أن المؤذن كان رجلا مسنا ، إلا أنه قفز من حيث كان يجلس
القرفصاء .. وصاح بأعلى صوته :
- لن تجدى لعبتك هذه المرة يا كابتن ميخائيليس ، لن تسخر منا كل
عام ، هذه المرة لن تخرج من هنا حيا أيها الكافر !
وتقدم تركى جسور يحمى المؤذن وقد أسف لحاله ، ثم استل من
منطقته خنجرا ذا حدين واندفع نحو الفارس ، ولكن الكابتن ميخائيليس
أحنى وأمسك برسفه حتى شلت يد الشاب التركى وأفلتت الخنجر فدسه
الكابتن فى جيبه ثم رفع سوطه من جديد وصاح :
- إلى الخارج .. إلى الخارج !
وصاح الرجل العجوز :
- « الله الله ! » ..
ولم يدر لحظتها ماذا يفعل هل يبعث رسولا إلى الباشا يطلب جنودا ، أم
يبتلع المرارة ويستسلم تجنباً لمذبحة ١٩ .
ولم يتحرك نورى بك ، وظل يدخل نارجيلته وقد أحنى رأسه ، ولكنه كان
يمسح المقهى بطرف عينه حتى غاب كل شيء أمام بصره ، لم يكن يرى
لحظتها سوى صدر الفرس ويطنه الذين يتصيب منهما العرق .. وحذاء
الكابتن ميخائيليس .. وكانت أولى قطرات المطر قد بدأت تتساقط فى
الخارج .. ورعدت السماء ، وأز زجاج الأبواب .. وصرخ المؤذن :
- « إذا كنتم تؤمنون بمحمد فدعوني أمزقه إربا كالسريدين ! » ..
ولكن بعض كبار السن أمسكوا به من وسطه ومن أسفل أبطيه
وابعده ..
وظل نورى بك كما كان ، ينفتح دخان النارجيلة من أنفه ، ها قد جاءت

الساعة ، لقد وعدت أبى ، ولقد كنت أصلى من أجل أن تحين فرصة كهذه .. وها هى قد لاحت ! هذا شقيق القاتل .. أبى نفسه هو الذى دفعه إلى هنا ، أمامى ، أمام فوهة غدارتى .. الآن نعم ! » ..

ولكى يثق أكثر .. تعمد أن يثير غضب قلبه :

« الآن تحرك يا قلبى ! تحرك .. واضرب ! أم تراك خائفا ؟ ! » .. وأحس بقبضتى يديه تكادان أن تحترقا كما لو كانت قد أصابته حمى ، ورفع بصره .. ورأى الكابتن ميخائيليس يحدق فيه مباشرة ، ووضع نورى بك جانبا أنبوب النارجيلة ، ووقف فى بطله وتثاقل ثم اتجه إلى الفرس فأمسك بزمامها ، ثم استدار نحو صاحب المقهى الذى كان قد اختبأ تحت المائدة .. وقال :

- حسين .. هات قهوة للكابتن ميخائيليس وسوف أدفع أنا الحساب ..

ورفع يده فى أسلوب أمر .. وأشار إلى الشباب التركى الذى كان يحيط بالفرس أن ينصرفوا .. وقال الكابتن :

- نورى بك ، أريد أن أشرب قهوتى وحدى ، لا أريد صحبة ، اخلوا المقهى تماما ، وقال نورى بك وهو يحاول أن يرسم الرقة على وجهه :

- اليس لى أنا الآخر ما أريده ؟ .. طلب بسيط يا كابتن ميخائيليس ! .. طلب واحد .. لاتحاول إهانتى .

وانزلت العصاة البيضاء من فوق رأسه ، فانحنى يرفعها ويضعها متأرجحة فوق رأسه .. وانتشرت فى جو المقهى رائحة المسك ، وارتعشت على الفور خياشيم الكابتن ميخائيليس وتضخمت عروق رقبتة .

وتسللت رائحة المسك فى أحشائه مثل السكين ، وأربكته ، الليل ، سياج الليمون ، الحجل ، الضحكات خلف الشباك ، صرير درجات السلم ، ثم فجأة .. جسد داخل إطار البار ، جسد يتمايل ويملا الهواء بأريج المسك .. وهذا النورى نفسه .. وأطلقت عينا الكابتن ميخائيليس بريقا كالشرار .. وأزاح نورى جانبا ، ثم همز فرسه وتحرك إلى وسط المقهى وصاح كالممسوس :

- اخرجوا .. اخرجوا .. اخلوا المقهى ! ..

وأحكم نوري بك العصاية حول شعره ، وعض شفتيه بقوة حتى أسال دماءهما ، وكان الاغوات قد غادروا أماكنهم وأحاطوا به وبينهم اثنان متحفزان خلف الباب وقد أمسكا بخنجرهما بينما تسلل كبار السن خارج المقهى الذى بدأ يخلو ..

وأحس « نوري بك » بالخجل .. وقال للاغوات فى هدوء :

- أخرجوا .. إنه سكران ، فلا تجادلوه ، سوف أبقي أنا حتى أطمئن إلى أنه لن يتمادى وحتى أطمئن إلى أنه لن يرتكب ما يخلجنا ..

ولم يتحرك واحد منهم . وكان سليم أغا أعقل الأتراك لم يتحرك من مكانه حتى تلك اللحظة ، وظل يدخن نارجيلته دون أن يتكلم .. ولكنه الآن نهض واقفا ، كان شيخا وهبه الله الثراء والعلم والأسرة الطيبة .. والأولاد .. وسيما نفس وسامته فى شبابه .. أشار إلى الاغوات وقال فى لهجة واثقة :

- لا تفقدوا سيطرتكم على أنفسكم ، لن يخدم شيئا أن تستحم كريت بالدماء ، سوف تأتى الساعة حتما - إننى أراها رأى العين - حين تدفع اليونان الثمن .. وأستطيع مقدما أن أرى رأسه معلقة بالمسامير أعلى باب الباشا .. صبرا .. وهيا بنا الآن ..

ثم أوجه نحو الخارج فى خيلاء .. يتبعه الاغوات .. وأصبح المقهى خاليا ..

وبرم الكابتن ميخائيليس شاربه وهو ينظر إلى نوري بك ، وضحك وبرزت أصابعه المخلبية .. ودق قلبه فرجا ، واستدار نحو صاحب المقهى الذى كان قد بدأ يطل من خلف المائدة .. وقال :

- حسين .. ضع الاناء على النار .. واصنع لى قهوة .. بلا سكر !

الفصل الخامس

كانت العاصفة قد انتهت ، وأسقطت السماء حملها ، وبدت « ميجالوكاسترو » كأنما قد ارتفعت فأصبحت جزءا من السماء ، وغمرت مياه الأمطار الشوارع وأظلمت الدنيا إلا من خيوط البرق هنا وهناك ، تبدو حول المآذن ، وفي الشارع العريض كان يلمع وجه الكابتن ميخائيليس فيبدو عبوسا جريئا وهو يمضى إلى بيته والفرس من تحته يلمع صدرها الذى بلله العرق والماء .

وكانت « نوة » من ذلك النوع الذى لايدوم أكثر من نصف الساعة ، ثم تلتها ريح قادمة من الجبال تحمل سحاب متفرقة تبدد من خلالها زرقاء السماء الداكنة ، وأشعة الشمس فى مولدها الجديد تتحدد فوق المدينة التى بللتها الأمطار ، وبدت كأنها تضحك ، وأخذت فوق الأسطح تضرب أجنتها المبللة بينما المدينة تخرج من العاصفة نشيطة شابة من جديد ، وأريج ازهار العسل والحبق يغمر الجو .

وفتح « الكابتن ميخائيليس » الباب بضربة واحدة ، وسأقت زوجته الفرس إلى خطوته دون أن تتكلم بينما اندفع هو إلى الحجرة وعلق الخنجر التركى فوق مذبح وأمام أيقونة « القديس ميخائيل » .

كان الكابتن ميخائيليس يفلئ بالخجل والعرق والمطر .. وأحضرت له ملابس جافة أرتداها فأحس بالانتعاش وتمدد فوق فراشه وقد أغمض عينيه ، وسرعان ما عانقه نوم هادئ شفق .

وبينما كان هو يستريح ، كان أبناء « ميجالوكاسترو » يتجمعون ، أترაკا وكريتيين ، مبكرين فى بيوتهم ذلك المساء ، كان الرجال يتهامسون ، وكانت النساء يجلسن وهن يستمعن ويتنهدن ولا يقلن شيئا ، ترى ، أقدر لكريت - التى تخلق الجميع عنها - ألا تستريح ؟ ! أتعود المذابح من

جديد ، ونعود نحن فنفقد رجالنا ؟ ! .. كذلك كن يفكرن ، وأين نذهب نحن ؟ ! مرة أخرى بأطفالنا وأوانينا وأوعيتنا وثيابنا فوق الظهور ؟ أما الكريتيون الحذرون من أصحاب الحوانيت وحقول الكروم فقد كانوا يلعنون الكابتن ميخائيليس وانتهاكاته السكيرية التي تجر معه كثيرا من الرجال إلى المعتاب ، وأما الآخرون - المغامرون - فكانوا على العكس .. فخورين بهذه الاثارة الجديدة لتركيا ..

وتجمع الأتراك من ناحية أخرى ، بعضهم فى التكايا ، والآخرون فى قصر نورى بك ، كانوا يلعنون ويهددون دون أن يعرفوا كيف يغسلون الالهانة ، وأخذ المؤذن يحرك النار الكامنة فى صدورهم بينما كبار السن الأكثر تعقلا يحاولون أن يخمدوا هذه النار ، أما « نورى بك » فقد جلس فى الركن .. يفكر .. دون أن يقول شيئا ، وأخيرا تعبوا من الضجة ومن ذبح الكريتيين فى مخيلتهم ، فاخترأوا من بينهم ثلاثة ليتجهوا فى صباح اليوم التالى إلى « الباشا » ليطالبوا منه أن يشدد وطأته على الكريتيين ، أهو « باشا » أم قطعة من الـ Halva ؟ كم مضى من الزمن منذ أوقف شنق الكريتيين على الشجرة الجرداء أو وضع رموسهم وأيديهم فى خشبة التشهير ؟ ! إذا استمر على ذلك فسوف يجرؤ هؤلاء الكفار إذن على كل شئ وسوف يجرؤ هذا الكابتن المجنون - وليعاقبنا الله إذا كنا نكذب - على اقتحام المساجد ذاتها بجواده ليخرج الناس منها بسوطه ، يجب أن يشنق أو يوضع فى خشبة التشهير حتى لو كان ذلك لمجرد تحذير أتباعه ووضعهم على الجادة ، هكذا ينبغي أن تتصرف تركيا ! ولكن هذا الباشا يعالج الأمور مع هؤلاء الكريتيين بأسلوب ناعم ، إن هذا المخلوق الضعيف يتحدث عن العدالة ! إنه يلعب « الدامة » مع المطران ، ويشرب معه المصطكى ويأكل « البقلاوة » ويجلس الاثنان طوال الليل وهما يتهامسان بالأسرار !

وفى صباح اليوم التالى ، اتجه الثلاثة إلى القصر وأذانهم لاتزال يدوى فيها طنين التعليمات التى حملها إليهم الآخرون ، سار المؤذن فى الوسط ، وإلى يمينه « سليم أغا » وإلى يساره - غارقا فى أفكاره - سار « نورى بك » كانت خطواتهم كأنها محسوبة .. ولم يكن أحدهم يتحدث إلى الآخر ، فقد كان كل منهم يحاول أن ينسج خيوط أفكاره - ما الذى سيقوله للباشا .. وكيف ؟ ! ..

كان « سليم أغا » صاحب دخل سنوى كبير من الزيت والقمح واللوز والعنب ، ومن ثم فقد كان إلى جانب السلام ! وكان المؤذن يحتضن القرآن إلى صدره .. وكان نورى بك موزعا لا يستقر على رأى ، كان أبوه قد ظهر له مرة أخرى فى نومه وهو لا يزال فى الثياب المهلهلة وقد كسسته الاقدار ووضع تحت وسادته خنجره الثمين ذا المقبض الأسود ، ولكنه حين استيقظ فى الصباح لم يجد شيئا ، كان قلبه على وشك أن يتحطم ، إن الرجل العجوز لا يثق بى ، لقد كان يتنهد ، وأخذ الخنجر مرة أخرى ، إنه يخشى ألا اشرف هذا الخنجر .

وجلس الباشا عابسا متوكم المزاج ينتظر الثلاثة فى الديوان الكبير ، متاعب جديدة ! الكلاب والقطط سوف تتقاتل من جديد ! هؤلاء « الكفار » يريدون الحرية - عليهم اللعنة ! والآخرى يدفعوننى إلى ذبح كل الكفار - عليهم اللعنة هم أيضا ! إن العبودية يا كفاريا محترمون ، أمر قرره الله ! إن عبيدى - أغواتى - هم أيضا شيء قرره الله ، إنهم يحرقون الأرض ، وينظمون أمور التجارة ، ويجمعون الضرائب ، فمن ذا الذى يريد أن يذبح الدجاج الذى يبيض ذهباً ؟ !

ويظهر الخادم المغربى : « لقد وصلوا يا أفندينا الباشا » ..

ورد الباشا بصوت مرتفع : « فليدخلوا » .

ودخل الثلاثة واحدا إثر الآخر ، وانحنوا .. ثم أخذوا أماكنهم فى الديوان دون أن يتكلموا .. جالسين القرفصاء ..

وكان المؤذن أول المتكلمين ، فتح فمه الواسع وأخذ يتكلم ويتكلم ، كان ذا وجه رخوناتى العظام ، بصدغين غائرين ولحية بيضاء شعناء كحزمة قش ، وتؤلؤل بين حاجبيه فى حجم ذباب الخيل يكسوه الشعر ويبدو كأنه عين ثالثة فى وجهه ، أخذ يتكلم ويتكلم ، وكلما سمع صوته زاده حدة ، ثم أخرج القرآن من صدره وأخذ يدفع به إلى الامام وإلى الخلف وهو يقرأ ، وأحس الباشا بشيء كالدوار ، فرفع غليونه عن فمه وقال :

- يا أفندينا الشيخ ، أنت أصبتنى بالدوار ، تكلم ببساطة حتى أستطيع أن أفهمك ، أنا من الأناضول ، بطيء الفهم ! فى كلمة واحدة ! ماذا تريد ؟ !

وقال المؤذن وقد وقف شعر تؤلوله :

- أريد عملا ..

وتنهّد الباشا واستدار إلى « سليم آغا » ..

- وأنت يا « سليم آغا » .. ما رأيك ؟ هل ترى ذلك أنت أيضا ؟ !

وأجاب الملك ذو الشعر الرمادي :

- نحن نريد السلام يا أفندينا الباشا ولا نريد مذبحة ! إن عامنا هذا عام طيب ، شهر مارس قد جاء بمزيد من الأمطار ، منحت المحاصيل قوة ، الزيتون أيضا يبشر بخير وسوف يكون لنا محصول طيب وزيت وفير هذا العام والحمد لله على ذلك كله ، السلام مطلوب إذن يا أفندينا الباشا ! « كريت » هذه ، وحش ضار ، فلنحرص على ألا نوقظه من جديد - إنها وحش يفترس الرجال ! وماذا إذا كان مجنون قد اقتحم مقهانا ؟ ! ثم إنه كان ثملا ، فلنفلق عيوننا - فإن من مصلحتنا أن نفعل ذلك . نحن إن بادلنا ضربة بضربة مثل الخنازير ، فسوف نضيع ، إن تناطح الخنازير ينقلب في النهاية إلى مأساة يا أفندينا الباشا ، افتح سجلاتك وضع فيها اسم هذا الكافر ! إن اسمه « الكابتن ميخائيليس » وسوف تجيء حتما ساعته ، أنت الباشا ، وأنت الذي تقطع الرموس ..

ثم استدار إلى المؤذن وهو يقول :

- ذلك هو رأيي يا أفندينا الشيخ ، ومعذرة إذا قلت لك : أنت لاتملك أشجارا ، ولا كروما ولا حقولا ، وإنك لاتعرف أحزان الأرض والرجال والنساء ، ولكن سلني أنا .. سل الأشجار والزرع ، أتراها تريد مذبحة ؟ ! كلا .. إنها لاتريد إلا السلام ..

وصاح المؤذن وهو يشير إلى القرآن ..

- أنا لا أسأل الأشجار والزرع ولا أسأل الناس ، ولكنني أسأل الله سبحانه !

ثم عاد فأخرج القرآن وفتحته ، ولكن الباشا رد يده وهو يقول :

- تستطيع - مادمت تقصد - أن ترى لكل سؤال جواب في القرآن ..

تريد مذبحة ؟ ! افتح المصحف وستجد - مادمت تقصد - تبريرا لها ، وإذا فتحه سليم اغا فسوف يجد كلمات أخرى عن السلام .. وكلا الأمرين من عند الله .. كلاهما من عند الله .. فاهذا إذن ..

ثم استدار إلى نورى بك :

- وانت يا نورى بك .. ماذا ترى ؟ مذبحة أم سلاما ؟ ..

وحك نورى بك ساقيه عدة مرات بقبضة يده ، وهو يفكر فى إجابة سديدة ، وكان قد استغرق وقتا طويلا لكى يصل إلى رأى ، لم يكن بالقطع يريد السلام ، فقد صبرت تركيا طويلا ، وازداد اليونانى وقاحة ، وقد جاءت اللحظة التى ينبغى أن تفصل فيها رأسه عن جسده ، ولكنه هو أيضا لا يريد مذبحة - فلم يكن شرها للدماء ، ولم يكن شيئا يقرأ القرآن ويعتسف فيه النار ..

وضايق انتظاره الباشا :

- حسن ؟ ، إننى أسألك مرة أخرى ، أتريد السلام أم تريد مذبحة يا نورى بك ؟ !

وقال نورى بك وهو يحاول أن يكسب مزيدا من الوقت :

- لقد ضاع منا الطريق المباشر والسهل يا أفندينا الباشا ..

- إنه لم يضع يا رجل ، ولكننا نحن الذين أصابنا العمى فلم نعد نراه ، أم ترى وجدته أنت ؟

- اعتقد ذلك يا أفندينا الباشا .

- أرجو ذلك ! تكلم إذن وأطلقنا من إسار هذا العمى .

- لا سلام .. ولا مذبحة .. المذنب يدفع وحده الثمن ..

- الكابتن ميخائيليس ؟ .. هل تقصده ؟

- امنحنى الحرية يا أفندينا الباشا فى ألا أذكر من يكون هذا الذى أقصده . أنت الباشا ، وإن أنت تدخلت فسوف تتكلم الأسلحة وسوف نسبح فى الدماء ، دعنى أنا أخذ بالثأر نيابة عن تركيا ! وقريبا .. سوف

تعرف من يكون المذنب .

- هل سنقتله ؟ !

- سوف أقتله .. نعم ، ولكن ، لن يعرف أحد من يكون القاتل ، ثق بى .

وقفز المؤذن فى غضب وهياج وصاح :

- ليس المذنب رجلا واحدا .. إنهم ألف ، وكلهم يستحقون المشهرة ، هذا فقط هو الذى يعينه الحفاظ على السلام ! إن اليونانى لا يفهم غير ذلك اقطع رأسه إذا أردت ، وبعدها - وبعدها فقط - سوف يهدأ ! ..

ولكن عقل « سليم أغا » كان مليئا بالاشجار والكروم .. فقفز هو الآخر وبدأ يصيح .. وأصبح صوت المؤذن كالجرس - فكيف يوقفه ؟ وتحول الموقف بينهما إلى ضربات يتبادلانها ، وحال « نورى بك » بين الاثنين بينما ظل الباشا جالسا فوق الديوان لا يتحرك .. إن هؤلاء الأتراك الكريهين يديرون رأسه ، كلهم على حق .. وكلهم على باطل ! وأنى له إذن أن يدرك الحقيقة ؟ ! .. ثم إنه - وهذا هو الأهم - يحس بحاجة شديدة إلى النوم ، فلم تكن ليلته طيبة - لقد أكل وشرب أكثر مما ينبغى أن يأكل ويشرب ، وأصبح من الضروري الآن أن ينتهى من هذه الحكاية ، ومن ثم فقد نفّس عن نفسه التعب وصاح :

- أنتم ؟ ! ! ألا تخلون من أنفسكم ؟ كفوا عن الشجار ، قلت لكم كفوا ! نورى بك .. أنت على حق ، تلك طريقة الجمل ، الطريقة المثلى ، أفعل إذن ما يلهيك به الله سبحانه ، إننى أمتك الحرية فى أن تفعل ذلك ..

واللتقط « سليم أغا » عصاة رأسه البيضاء من فوق الأرض ثم استدار نحو نورى بك قائلا فى ضراعة :

- إننى أباركك فيما أنت مقدم عليه إن أنت تصرفت بحذر ، وقتلت بحكمة ، لاتثر علينا وحشية اليونانيين واحفظ السلام من أجلنا .

وصاح المؤذن :

- لن أدع قانونى يوطأ بالأقدام ، سوف أخطب فى المسجد وأوقظ تركيا !

ولكن كلماته أعادت الحياة إلى الباشا الذى رفع قبضته وصاح :

- يا شيخ ! أنا هنا مسئول عن « ميجالوكاسترو » وحق النبى الأشرف لالبسنتك كمامة مثل الكلب المسعور ! اسمع ! لن تكون هناك مذبحة - فاطرح هذه الفكرة عن رأسك - طالما اننى لم أتلق أوامر من القسطنطينية .

ثم وقف وأدار رأسه جانبا (لأنه أحس بتعب فى معدته) وعاد يصيح :

- اذهبوا ، فأنا مشغول ، أفعل ما اتفقنا عليه يا نورى بك ، ولكن كن حريصا ، الحرص يا أولادى ، لأن هؤلاء يونانيون .. اللعنة عليهم ! ولولا وجودهم فى طريقنا لكنت تركيا قد ابتلعت العالم كله .

ثم صفق بيديه فبرز الخادم المغربى .

- أوصل البكوات إلى الخارج .

وبينما كان يجرى هذا اللقاء ، كان هناك ثلاثة آخرون بارزون - يونانيون هذه المرة - يبحثون الخطى فى طريقهم إلى المطران : هادجيسيفاس ، والكابتن الياس ، والعجوز ما فرودس الشهير باسم « البقة الوردية » .

كان الأول أعرج شاحب اللون متأنقا ذا لحية رمادية علتها صفرة دخان التبغ ، سافر فى شبابه إلى فرنسا ليصبح طبيا ثم عاد وقد دارت رأسه ، وأصبح مجنونا بالتنقيب عن الآثار حيث ينقد العمال ليحفروا الأرض من أجله فى الأماكن التى توجد بها الأطلال أو فى أماكن مهجورة من الساحل ، وحتى فى كهوف « بسيلوريتيس » . ولقد ظل يحفر ويحفر ، وعثر على أياك وأقدام من الرخام وأطباق غطتها كتابات غريبة ، وأوان فخارية .. كان ينقلها جميعها إلى مقر الأسقف حتى ملأ بها حجرة ضخمة ، ولكن الحجرة لم تعد تتسع لهذه الكنوز ! ومن ثم فقد بدأت تخرج إلى ساحة الكنيسة وهدد المسيحيون بأنهم لن يرسلوا زوجاتهم أو بناتهم إلى الكنيسة حتى لا يشاهدون هذه التماثيل القديمة المخجلة .. العارية تماما ! لقد كانت نصيحة طيبة تلك التى تلقاها .. « هادجيسيفاس » الكبير بألا يرسل ابنه إلى فرنسا حتى لا تتلف روحه هناك ، وها قد ثبت بالفعل أنها كانت

نصيحة في محلها ! فقد عاد الابن بمعول معه أخذ يحفره ويحفر ويحفر . ولقد قيل أنه كان يبحث عن الخنزيرة الذهبية ذات الثمانية أولاد ، ولكن كيف له أن يجدها وقد انفق كل ما يملكه أجورا للعمال ؟ ها هو ذا يجري الآن في رداءه الشاحب وبحدائه البالى ، يحدث نفسه فى الطريق ، وعن قريب ولاشك ، سوف يقذف الناس بالحجارة . والوحيد الذى كان يحترمه - وتأمل ! - هو المطران الذى أعطاه مكانا بالقرب من مكانه هو بالكنيسة ، والذى يقدم له خبز التضحية قبل أن يقدمه لآى شخص آخر . وهكذا ، فإن المسيحيين فى الجزيرة كانوا يختارونه متحدثا باسمهم لدى المطران والباشا .. وعندما حدث مرة وألقت بعض السفن الافرنجية مراسيها فى الميناء ، كوجه هو إليها وظل يثرثر مع الفرنجة طويلا دون أن يفهم الكريتيون كلمة واحدة مما قال ، هذا المسكين ! - أم أنه كان حقا يتكلم بلغات أجنبية ؟ !

أما الثانى فهو الكابتن « إلياس » الذى كان من تذكارات عام ١٨٢١ ! .. إنسان متغض الوجه .. طويل كبرج بلا نافذة أو باب ، ذو جسد جعلته طلقات الرصاص مثل الغربال ، عريض المنكبين ناتئ العظام صوته مثل قصف الرعد - إذا قال لاحد « طاب يومك » فكانه يلقى إليه بصاعقة ! وكانت عينه اليسرى قد انتزعت من محجرها بشوكة على يد أحد الباشوات الأتراك ، ولكن اللجنة الوطنية الأثينية بعثت إليه بعين زجاجية - أول عين زجاجية تراها كريت ، وكان الكابتن يستخدمها بدلا عن عينه المفقودة ، فيتطير منها الشرر إلى هؤلاء الذين لا يملك لهم ضرا ، وكان يخلعها فى المناسبات الرسمية ويبقيها داخل كوبة من الماء ويمثل بحضرة المطران أو الباشا بعين واحدة ليذكرهما بعام ١٨٢١ ، وكان الاثنان الآخران قد جعلوا مكانه بينهما .. وسار معهما منحنيا فوق عصاه فى طريقه مرة أخرى إلى المطران بعين واحدة ..

وأما الثالث - « مافروديس » العجوز .. البقة الوردية - فقد كان أعزب مشاكسا كريها وبائسا ، جائعا طوال الوقت .. فإذا تناول طعاما ظل يئن ويرتجش من البرد ويلعن ويسب إذا ارتدى معطفا يدفئه ، وكم من أرامل ويطامىلقى بهم فى قارعة الطريق عندما كانوا مدينين له ببعض النقود ، كان يجمع المال ويجمع : الذهب والجنهيات ومزارع الكروم والحقول

والبيوت والسفن البخارية ، وحين يسأله أحدهم ، لماذا لايتناول وجبات منتظمة ، كان يقول :

- « وماذا أكل ؟ وأين أكل ! لا شيء من هذا كله لى ، كل شيء ملك الأمة ، وليس من حقى أن أقسى شيئاً منه » .

وعندما اندلعت ثورة ١٨٧١ ، توجه إلى المطران ومعه وثيقة مختومة وقال « سيدى الأسقف ، خذ هذه الورقة ، أننى أهب كل ثروتى لمجلس شيوخ ميغالوكاسترو ، إن الثورة تحتاج إلى أموال ، فبع إذن كل ما أملكه وحوله إلى أسلحة » .. وسأله المطران والدموع فى عينيه : « وأنت يا مافروديس ؟ كيف ستعيش » .. « ولماذا تقلق على يا سيدى الأسقف ! سوف أطرق الأبواب وأتسول » .. واهتم به المطران بعدها وجعل له مخصصات شهرية ، ولكنه مالئث أن بدأ يعود كعادته إلى الحرص ، فكان لا يأكل ولا يشرب ولا يرتدى ثيابا لائقة .. وبدأ يقرض الناس بالربا الفاحش وينمى رأسماله من الأرامل واليتامى حتى كون ثروة جديدة ، وما قد أصبح عجوزا .. إحدى قدميه فى القبر ! .. وقد كتب وصية جعل فيها أمواله مرة أخرى للأمة ، ولكن عقله كان مثل الفأس فى حدته ، فإذا أدلهمت الأمور أخذ ينبش يميناً ويساراً حتى يجد المخرج ، ومن أجل هذا بعث به المسيحيون لكى يكون متحدثاً باسمهم .

كان المطران ينتظر الثلاثة جالسا فوق ديوان مريح فى مقر الأسقفية وأمامه انجيل مفضض فوق قاعدة من خشب السرو على هيئة ملاك بأسطر جناحيه ، وفوقه علقت ثلاث صور : إلى اليمين صورة بطريك القسطنطينية ، وإلى اليسار صورة القيصر ، .. وفى الوسط صورة مسجد أيا صوفيا ، وكانت الشمس تتسلل خلال ألواح النوافذ الزجاجية الملونة وتلقى بأصواء زرقاء وبنفسجية على الحائط المكتظ بصور المطارنة والأساقفة الموتى والأحياء بلحاهم البيضاء كالثج أو السوداء كالقار ، وبقلنسواتهم وتمائمهم وعصيمهم التى يتوكانون عليها ، وكان البعض منهم يبدو بشوشا ذا عينين سمحتين ، كثيف الشعر مثل كبش لم يجز صوفه ، بينما كان البعض الآخر يبدو بشعا بعينين جاحظين وفم واسع ورقبة غليظة يمسك بعضا .. كما لو كانت عصا شرطى ! وكان من بينهم أيضا المطران الحالى أيام كان أرشيماندريتا فى « كييف » .. كم كانت نظراته أيامها

تعكس القوة والنبيل ! هذا البطل الصغير .. يبدو فى الصورة وكان الله سبحانه قد خلقه لكى يصبح قائدا عظيما أو نبيا ، أو لكى يصبح رجل دين مرعبا فى إقباله على الحياة ! ولكن المسيح قد اختاره لنفسه بكلمات كانت بالنسبة إليه أكثر عذوبة من العسل المصفى .. وقاد خطاه على مهل لكى يصبح ما وصل إليه - مطرانا .

والقى بنظرة إلى صورته وهو شاب .. ثم تنهد وقال :

- لقد تقدمت بى السن ، وعلتنى الصفرة مثل الكرنبة ، واقترب اليوم الذى سوف أقف فيه أمام مقعد الحق ويدائى فارغتان . كم من مطارنة لكريت سوف يقفون أمام القاضى الأبدى الأزلى يحملون فى أيديهم عدة الشهادة - المدى والفتوس والسياط والخوازيق ، وأنا وحدى الذى سيقف خالى اليدين .. يا إلهى .. امنحنى شرف أن أموت من أجل شرفك ، ومن أجل شرف ابنتك المسكينة !

ودخل « مورزوفلوس » بوجه شاحب :

- لقد وصل الكبار ياسيدى ، وهم ينتظرون .

- فليدخلوا . وخذ أنت الصينية الفضية الكبيرة وأدراها عليهم ، أنهم سادة .. كما تعرف ..

وتردد « مورزوفلوس » لحظة على عتبة الباب ، ونظر إليه المطران فى دهشة :

- هل هناك شيء آخر يا مورزوفلوس ؟

وقال مورزوفلوس ووجهه يعكس القلق :

- سامحنى ياسيدى .. سامحنى على ما فعلت يا سيدى .

وابتسم المطران وقال :

- هون عليك يا مورزوفلوس ، سوف يسامحك المسيح ، فاعتمد على رحمته !

- إن ذنبى كبير ..

- ولكن رحمته أيضا واسعة .. اذهب الآن !

ودخل الثلاثة الكبار ، وقبلوا يد المطران .. وجلسوا فوق الديوان ، وأخرج كل واحد منهم مسبحته وانتظروا حتى يكون المطران هو البادىء بالكلام .

وتكلم المطران ، وهو ينظر عبر النافذة :

- الطقس رائع يا أولادى ، يا لها من أيام طيبة ! يا لروعة الشمس ! إنها تحية خاصة من الله ! الربيع ! القديس جورج ! كيف حال المحاصيل الآن يا مورزوفلوس ؟ .

- الحمد لله ..

وقال الكابتن الياس :

- حال المحاصيل طيب يا سيدي ، ولكن حال الرجال سيء ، أنا مع العمل البطولى حين تكون هناك حاجة إليه ، فإذا لم تكن هناك حاجة إليه .. فهو حماقة !

وقال هادجيسافاس :

- كبار السن يقولون ...

ولكن الكابتن الياس رفع يده فى غضب وقاطعه قائلاً :

- دع كبار السن فى حالهم يا هادجيسافاس ، لقد ماتوا وانتهى أمرهم ، نحن نتحدث عن الأحياء ، فى هذه اللحظة يعقد الاغوات الكبار مؤتمرا مع الباشا ، والله وحده يعلم ما انتهى إليه ، الكلاب حتى الآن ، فلنكن إذن على حذر .. ما رأيك أنت يا سيدي المطران ؟ ! ..

وقال المطران :

- أنا أيضا سمعت بانتهاكات الكابتن ميخائيليس الجديدة ، ولكم أنا أسف على هذا الفاس .. أسف من أجل هذا الرجل ، لسوف تحطمه الخمر ..

- ولسوف يحطمنا هو ! ينبغي أن نكبح جماحه وإلا ..

وقال هادجيسافاس :

- لا تتصوروا بحق الله ! إن أماننا الكثير لكي نفعله في كريت . إن الأرض مباركة وتخفي من الكنوز أعظمها - تماثيل ، صور ، قصور ملكية ، .. فكيف بالله يستطيع أحد أن يواصل اكتشافاته وسط ثورة ؟ .. ينبغي علينا إذن أن

وقال الكابتن إلياس مقاطعا :

- قلت لك دع أناس الماضي في حالهم ، فلتتخطفهم الشياطين ! .. دعهم يتركبونا في سلام ! تكلم يا مافروديس . إن عقلى المسكين لا يستطيع أن يصل إلى حل .. أما أنت بعقلك مثل الفأس .. قاطع حاد ، فاقطع لنا إذن حلا ... !

وأسعدت هذه الكلمات البقة الوردية ! فضحك وقال :

- إذا سمح لى سيدى المطران ..

وقال المطران :

- ما الذى يضحكك بحق السماء ؟ إن عقلك مثل عقل المرأة ، إن مصلحة مملكة المسيح تعمل الآن عملها ..

وأجاب مافروديس العجوز :

هللوا .. مزمو قصيرا سيدى المطران ! انهض الآن يا سيدى واذهب إلى الباشا ، إنه رجل طيب ، وأناضولى على خلق ولا يحب المتاعب ، قل له كل ما يمن الله به على لسانك كذبا كان أو صدقا ، كن معه ناعما ... اطلب منه أن يسامحنا لأن الكابتن ميخائيليس كان ثملا ، وأننا نحن سنجبره على أن يلزم النظام وأنه لن يعود إلى مثل ما فعل . واحمل له معك شيئا من الهدايا أيضا ، صندوقا للطباق مثلا .. أو قطعة كبيرة من العنبر من أجل غليونه الطويل ، إن الاسقفية لديها من مثل هذه الاشياء الكثير يصلح لهذه الاوقات الصعبة ! اعطه شيئا .. إنه مثل الكلب ، الق إليه بعظمة ليعض فيها ما شاء له العض ! وسوف يكف معها عن النباح .. أما محاربنا الشهير هنا .. فسوف يكون له حديث مع الكابتن ميخائيليس ، وعسى الله أن يكون معه وهو يؤدى هذه المهمة !

وصاح الكابتن « إلياس » وهو يهز رأسه :

- على باب الأصم .. تستطيع أن تدق ما شاء لك الدق ، فإنه لن يسمعك ، إنه مثل الحائط ، ولكننى سوف أحادثه على أية حال ، أنا رجل عجوز حاربت عام ١٨٢١ ، وربما ينصت إلى ما سوف أقوله له .. ويصرف النظر عن ذلك يا سيدى المطران ، فأنا أظن أن مستشارنا المحترم يصدر فى رأيه عن عين العقل ، خذ عصاك واذهب إلى الباشا .. وبسرعة ! .. بسرعة قبل أن تنزل الضربات !

وجاءت الصينية الفضية المستديرة ، القهوة ، والكعك والمربى ، وصمت الكبار ... وتناهت عبر النافذة رائحة أشجار الليمون المزهرة ، وطارت نحلة وحومت فوق الرموس الأربعة .. ثم اختفت حين أدركت أنهم ليسوا أشجارا مزهرة ، وبدأ الثلاثة الكبار يشربون قهوتهم فى جرعات كبيرة وهم يمصصون شفاههم ، لقد أنهوا مهمتهم بسرعة ، ووصلوا إلى قرارهم بسهولة ويسر .. وما قد جاءت القشدة فى موعدها المعتاد تماما ! وسأل « هادجيسافاس » المطران أن يسمح له بأن يلف لنفسه سيجارة .. وفعل الاثنان الآخران مثله ، وما لبثوا أن بدأوا يدخنون وعيونها نصف مغلقة .. وبدأت سحبائب الدخان ترتفع .. وتحجب صور البطريك والقيصر وأبا صوفيا ..

ومد المطران يده وفتح أحد الأدراج ثم قال :

- يا أولادى .. سوف أطلعكم على صورة هامة ، لاتذهبوا بعيدا ، فأنتم تعرفون صديقنا مورزوفلوس ، إنها من صنعه ، إنه شديد الخوف ، ولكنه جامع الخيال أيضا ، إنه يرى أشياء لا نستطيع نحن أن نراها - ليس لأنها غير موجودة .. ولكن لأن الله سبحانه أسدل على عيوننا أستارا كما نفعل نحن بالخيول حتى لا تنحرف يمينا أو يسارا وحتى تبقى مثبتة فى وجهتها إلى الأمام فحسب ، ولكن الله سبحانه - وهو وحده يعلم السبب - قد رفع الحجاب عن أمثاله من أصحاب الرؤى ..

ثم أخرج من الدرج صورة ملفوفة فى قطعة من الكتان الأبيض ، ومد بها يده إلى المتحدثين الثلاثة .

وتناولها الكابتن « الياس » وأسندها فوق ركبتيه وحقق فيها بعينه الواحدة .. ثم قال :

- إنها صورة الصليب .. الصليب ، ولكنى لا أستطيع ان أميزها جيدا
وانحنى « مافروديس » لينظر .. ثم صاح :

- سامحنى الله .. إن عيني ترتعشان .. ولكن ... ؟

وصاح « هاندجيسافاس » وقد أخرج من جيبه عدسة مكبرة :

- شيء مذهش ! .. إنها فكرة رائعة ! بارك الله فى يديك يا
مورزوقلوس ! ، إنه الصليب ، واقسم بشرفى ، لو أتنى كنت أسقفا لعلقتها
فى مذبح الكنيسة .

وضحك المطران بمرارة وهز رأسه الطيب الذى يشبه رأس أسد .

وقال « مافروديس » العجوز :

- يا إلهى .. ولكن الذى فوق الصليب ليس هو السيد المسيح ! .. لقد
أخطأت ، إنها امرأة تحمل أحزمة من الرصاص وغدارات فضية وقال
المطران بصوت هزته المشاعر :

- إنها كريت .. كريت يا أولادى . وهذا الصليب يرتفع فوق كومة من
الجماجم والعظام ، السماء ملبدة بالغيوم السوداء .. وثمة برق تكشف
أشعته الدير فى خلفية الصورة إلى اليمين ، انظروا إلى برج الدير ..
وانظروا إلى طواحين الهواء أمامه وإلى القباب والحوائط ذات الأبراج
حولها ، إنها « أركادى » ، وهى ذى « كريت » مصلوبة على صورة أم
معذبة ترتدى السواد وينساب دمها إلى أسفل فوق بقايا عظام أبنائها ،
وإلى الأسفل من الصليب - وعن يمين ويسار - يقف اثنان من الفرسان ،
واحد منهم ذو شعر أشيب رمادى ، والآخر فى شرح الرجولة يضع فوق
رأسه طربوشا عريضا ..

وقال « مافروديس » العجوز :

- هناك كلمات تخرج من فمها .. إنها تقول ...

وتسائل الكابتن الياس وهو ينحنى أكثر إلى الامام ليقرأ :

- ماذا تقول الكلمات ؟ !

وحرك « هادجيسافاس » عدسته المكبرة فى بطء وقرأ : « إلى .. إلى ..
لما شبقنتنى » .

وقال المطران مترجما ...

- يعنى ... إلهى .. إلهى .. لم تركتني ..

وظل الأربعة صامتين وهم يحدقون فى صورة الصלב الجديد وأخيرا
صاح « مافروديس » وقد فغر فمه :

- أليست هذه خطيئة يا سيدى ؟ .. كريت كأنها المسيح ؟

وقال المطران وهو يتنهد :

- إنها واحد .. إنها واحد .. ولكن ...

- ولكن ماذا ؟

- ولكنها تستحق ذلك ..

قالها المطران وهو يحدق فى المرأة المصلوبة .. كريت ..

وكم كان « مورزوفلوس » رائعاً حين رسمها : المعاناة التى ترسم على
وجهها ! خداه المثلومتان ! عيناها السوداوان المعبتان ! .. شفتاها
الدقيقتان الملتويتان تكادان أن تسمع الاناث منهما قدماها العاريتان اللتان
تناثرت بقع الدم فوقهما .. وفى أسفل الصورة يبدو حذاؤها فى لون
القشدة ! ...

وفجأة ، طوح الكابتن « الياس » بطربوشه جانبا فى حركة عنيفة -
وكانما قد وصل إلى قرار بالغ الأهمية - ثم رفع الصورة وقربها من
شفتيه .. وظل هكذا لحظات طويلة وكأنهما لا يستطيعان الفكك ! بينما كان
صدره العريض يعلو ويهبط فى عنف ، ولم يستطع « مافروديس » العجوز
أن يحتمل أكثر من ذلك .. فقد اختطف الصورة ودموعه تنحدر من عينيه
وانجنى فوقها يقبلها وهو ينتحب ، بينما كان « هادجيسافاس » يجفف
الدموع من عينيه هو الآخر ، ويقف ناظرا عبر النافذة إلى أشجار الليمون
المزهرة .

وأخذ المطران الصورة .. ورسم علامة الصليب وقال وهو يقبل القدمين

العاريتين الداميتين .. قدمى كريت :

- إتنا نقدر عذابك هذا ..

ثم استسلم الأربعة لأحزانهم ...

وكان المطران أول من تمالك نفسه ، فلف الصورة بقطعة القماش ووضعها فى مكانها داخل الدرج ثم استجمع قواه ونهض واقفا ، وقال :

- انصرفوا محفوفين بالبركة .. والله يبسط فوقكم يد العناية ..

وقال الكابتن الياس :

- ينبغي علينا نحن أولا أن نبسط هذه اليد يا سيدى ، إذا لم يجد الله سبحانه يدا بشرية تمتد ، فلن يمد هو يده لأحد .. تذكر ذلك !

- صدقت .. صدقت يا كابتن الياس ! سوف أذهب الآن لأقابل الباشا على الفور . وأسأل الله أن أجده معتدل المزاج !

وانحنى الثلاثة يقبلون يد الباشا السمينة البيضاء ، وأخذ الكابتن « الياس » عصاه واتجه نحو الباب وخلفه زميلاه ، وسار الثلاثة عبر فناء الكنيسة .. وهز الكابتن رأسه وهو يرى أرض الفناء مكسدة بالأيدي والأرجل والرعوس من بقايا التماثيل المصنوعة من الرخام ، وبالأطباق التى رسمت عليها صور ساذجة وغمغم فى غضب :

- الرجال القدامى .. الرجال القدامى !

وانحنى « هادجيسافاس » وبدأ يقرأ فوق الصخور ، فصاح الكابتن « الياس » فى زميله الأشيب :

- دعهم فى حالهم .. إنهم السبعة والسبعون حماقة ! سوف أمضى الآن إلى الكابتن ميخائيليس ، أما أنتم فلكم أصدقاؤكم الأتراك .. و« سليم أغا » بالذات .. تحدثوا معه الآن وعلى الفور .. وأسأله الله أن يجنبنا ثورة أخرى قبل أن يحين موعدنا المناسب . إن كريت قد خسرت كثيرا ، وهذا يكفيها الآن !

وعلى باب المطران وقف « باربايانيس » ينتظرهم وقد وضع على الأرض سلته المليئة بالتلج الملفوف بالقش والصفحة الملأى بالشراب وهو يصيح

بين الفينة والفينة وكلما مر به أحد :

- « بارد كالثلج .. بارد كالثلج اشتر شراب الجنة ا » .

كان رجلا عجوزا بانسا ذا رأس أصلع وعينين مستديرتين رماديتين صغيرتين براقيتين ، وعنق طويل ملاتها التجاعيد والكهوف ، وصوت حاد يخرق أذان الناس . وكان الأتراك والمسيحيون يرونه مجنونا لأنه لم يكن يخشى هؤلاء أو أولئك ، ويقول ما يعتقده بصراحة ، يلعن ويكفر مرة في حق المسيح وأخرى في حق محمد وثالثة في حق السلطان ، وقد حدث مرة في أحد أعياد الفصح قبل بضع سنين أن وقف أمام مصطفى باشا ذلك الرجل الدموي يعد له شرابا مثلجا لينعشه ، وفي تلك اللحظة بدأت روحه تصاب بما تصاب به فجأة من اختلاط ! فأخذ يندب قتلى الكريتيين في « أركادي » ويقفز في الهواء كأنما تلسعه النيران ولحظتها كان الباشا والأفندية الجالسون معه في الكشك القريب من الأقباء الثلاثة يدخلون غلايينهم الطويلة .. كانوا جميعا يستمتعون بتلك التسلية ! أما الذين سمعوا ذلك العويل فقد أسرعوا بالهرب .. كريتيين وأتراكا .. وذلك ضايقه ! فأنحنى والتقط غصنا أخضر أخذ يلوح به في الهواء في جنون وكأنه يمسك بسيف في يده ، كان يريد أن يثير الباشا ويخرج عينيه من محجريهما ، وأن يتوعده .. وفجأة بدأ يغنى بصوت حاد : « إيه يا سيفي اللامع المطيع .. لسوف تذيب كل الأتراك ... » .

وأصاب الذهول الكريتيين والأتراك معا ، ولم يعرفوا لحظتها ماذا يفعلون ، وظلوا يحدقون في الباشا وكأنهم يستلهمونه مايمكن أن يفعلوه ، ولكن الباشا - لدهشتهم - صفق بيديه وقد انفجر ضاحكا ، يالها من تسلية - هذا الحطام الأدمى الذي يتوعد الأتراك بغصن أخضر !

صاح الباشا :

- براقو كابتن باربايانيس ، تعال هنا ...

وانفجر الأفندية ضاحكين هم أيضا .. وبدأ الناس يشاركون بدورهم في الضحك ، بينما تابع « باربايانيس » رقصه وغناؤه وصياحه ..

وصاح الباشا :

- هذا يكفي .. أنت الآن فعلت بنا كل شيء ، وها هي ذى تركيا ملقاة

فوق الأرض ! تعال هنا .. قلت لك تعال هنا أيها الفارس الأحمرق .. أنا أحبك ، وسوف أهديك سيفاً حقيقياً وأضع فوق صدرك وساما .. فاصنع إلى الآن جيداً ، سوف أمنحك الحرية كل عيد فصيح فى أن تتمنطق بسيفك وتضع الوسام فوق صدرك وفى أن تخطر فى شوارع ميجالوكاسترو مثل الباشا من أول « كانيا » وحتى بوابة المستشفى .. ومن الجديدة حتى بوابة الميناء ، ولك الحرية كل يوم فى أن تقول كل ما يفتق عنه رأسك الأحمرق .. حتى فى أن تلعننى أنا .. فانت أحمرق .. وكلماتك لا قيمة لها .. منذ أعوام يا باربايانيس وأنا لم أضحك مثلما ضحكت اليوم .. ومن أجل هذا فإننى أشكرك ..

ومنذ ذلك اليوم زادت جراءة باربايانيس ، وأصبح الأتراك يتحملونه فى نفس الوقت الذى يجدون فى تصرفاته التسلية . وهكذا أصبح باربايانيس هو الرجل الوحيد الحر فى ميجالوكاسترو ، وكان هو أول من يشم رائحة المتاعب إذا بدا أنها مقبلة ، وكان هو الذى يصيح بأعلى صوته مع الشراب فى الصيف والساليبى فى الشتاء ، بكل ما يدور فى أذهان الكريتيين ولا يجراون على الإفصاح به ، وعندما كان يتمادى فى ذلك كان يتلقى أحيانا لكمة فوق أذنه ، وربما يقذفه الأتراك بقشور الليمون والطماطم الفاسدة ، ولكن ذلك كله لم يكن يمنع لسانه عن العمل .

ومنذ أمس .. بدأ باربايانيس يشم فى الجو رائحة البارود ، وقد رأى الكبار الثلاثة يتجهون إلى مقر المطران فى الصباح الباكر ، وذلك أمر بدا معه وكأن برغوثاً يلعب فى صدره ! ومن ثم فقد حط رحاله هذا الصباح أمام باب مقر المطران .. وانتظر .. لابد أن يعرف ماذا يجرى ! .. لقد اقترب عيد الفصح ، وسوف يتمنطق بسيفه ويصنع فوق صدره الوسام إياه وينفث كل غضبه هناك بالقرب من الأقباء الثلاثة عندما يجلس الباشا والأفندية ليستمعوا إلى الفرقة الموسيقية .. ولحظتها سوف يكون فى مقدوره أن يمنح بعض الرضا والراحة لهؤلاء الكلاب المساكين الذين لا يستطيعون أن ينطقوا بحرف واحد !

وعندما رأى الإثنان الكبار يظهران ، رفع سلة الثلج بيده ووضع الصفيحة تحت إبطه وتقدم نحوهما ، وقال :

- طاب يومكما يا كبار ، انتظر لحظة حتى أعد لكما شراباً يغشكما ،

فالجو حار وقال الكابتن « الياس » :

- دعنا فى حالنا يا باربايانيس ، فنحن لانريد شرابك .

- لاتكن وقحا هكذا يا كابتن الياس ، فانا لا أخاف منك ، انا أحقق كما تعلم ، ولست أخاف من الباشا او حتى من السلطان ، فكيف أخافكم انتم ايها الاعيان والفرسان وانتم تتبولون فى سراويلكم ؟ باربايانيس معه سيفه ، ومعه أيضا خطاب حرية .. وكل الذى يدور فى اذهانكم يستطيع هو ان يقوله بلا خوف .

وقال « البقة الوردية » فى رقة :

- أرجو أن تكون بخير يا باربايانيس : إكبح لسانك فالوقت لم يحن بعد ، وسأله باربايانيس برقة مثله :

- ومتى سيحين الوقت ؟ أريد أن أعرف .

ورفع الكابتن الياس عصاه .. فجمع باربايانيس بضاعته وابتعد .

وضع المطران التيمية الذهبية حول عنقه ، جانب منها يمثل الصلب مصنوعا بالميناء الملونة ، والجانب الآخر يمثل القيامة - ووضع فى جيبه صندوق الطبايق الفضى العتيق المصنوع فى أشهر محال « جانينا » حيث مطرانها الذى أهدها آياه .. صديق له ، ثم التقط عصاه واتجه نحو مقر الباشا سائرا على قدميه يتبعه أحد الشماسة .

وكان الباشا فى ذلك الحين قد استسلم للنعاس ، وتمدد فوق بعض الوسائد اللينة ، وبدأ يحلم : رأى أنه يسير داخل حديقة بيته فى مدينة « بروسا » والأشجار تمد فروعها المثقلة فوقه وقد أزهر بعضها وبدأت الأخرى محملة بالثمار ، وخيل إليه وهو يدخل غليونه الطويل ويتجول داخل الحديقة أنه فى الجنة وأن الرسول محمدا سوف يرحب به فى أى لحظة .

ولكنه رأى نفسه فجأة فى جانب آخر حيث شجرة زيتون عارية أحرقتها صاعقة ومالت بها وجردتها من أوراقها وبراعمها ، وقد علقت بغصونها ثلاث ثمرات لفاكهة غريبة ، بنادق ورمصاص وخناجر وعصابات للرأس سوداء .. يالها من شجرة زيتون ملعونة تلك التى تحمل السلاح بدل الفاكهة ؟ .. وصاح الباشا فزعا وارتد إلى الخلف ليعود إلى داخل حديقته

المزهرة المثمرة ، ولكنها كانت قد غاضت بعيدا ولم يعد يرى حوله سوى صحراء موحشة ، وصخور تكدست خلفها أحراش من البنادق والفدارات القضية ..

وصرخ الباشا وهو يصحو من نومه منتفضا :

- كريت ! .. كريت !

وفى نفس اللحظة فتح « العربي سليمان » الباب ، وقال :

- أفندينا الباشا .. باشا اليونانيين الكبير قد وصل ، وهو الآن يصعد الدرج وقال الباشا وهو يمسح العرق البارد عن جبهته :

- لقد رأيت حلما سيئا ..

- هل أخبر هذا الوحش الكبير بأن ينصرف ! ؟

وانتبه الباشا وقال :

- كلا .. دعه يدخل أيها الغبي ، أئمة الكفر هؤلاء أحسن من يفسر الأحلام .. وسوف يفسر لى حلمى .. دعه يدخل ..

ودخل المطران .. وتبدلت التحية .. والتقى الرجلان ذوا المكانة فى ميغالوكاسترو .. كانا أشبه بملكين أشيبين داخل هذا المجتمع .. ولكل مملكته ! هذا الحى التركى ، وهذا الحى اليونانى وكلاهما يلعن الآخر ، والهلال والصليب مرتبطان .

جلسا جنبا إلى جنب فوق الديوان العريض ، وأشعل الباشا غليونيه بينما أخرج المطران مسبحته وبدأ يلعب بحباتها الأبنوسية السوداء وهو يفكر كيف ينبغى أن يبدأ الحديث ، ومن خلال النافذة المفتوحة بدت مبانى الحرس إلى اليسار .. وإلى اليمين ، بدت الشجرة العتيقة الجرداء إلا الأوراق الصغيرة ، وعلى مقربة منها بدت النافورة الفينيسية الشهيرة بأسودها المصنوعة من الرخام ..

وتمطى الباشا ويذا :

- إنه الصيف يا أفندينا المطران ، يا الله ! .. ما أسرع ما تمر الايام !

أنها عجلة ولا تتوقف عن الدوران ونحن معها ندور ، يجيء الصيف فيقول
المرء .. ما أشد حرارته ! .. أننى أختنق ! « ، ولا يكاد المرء ينتهى من
هذه الكلمات حتى تهب الزوابع وينهمر المطر ويدفن المرء نفسه فى عباءته
ماذا يقول دينك عن هذه الأمور الغريبة يا أفندينا المطران ؟ !

وقبل أن يجيب المطران .. عاد الباشا يسأل :

- هل تؤمن بالأحلام يا أفندينا المطران ؟ ! من أين تجيء ؟ ! ومن الذى
يبحث بها ! !

وأجاب المطران :

- بعضها يبحث به الله .. والبعض الآخر من الأرواح الشريرة .

- وكيف يفرق المرء بينها ؟ ! أى منها من الله ؟ ! وأى منها من الأرواح
الشريرة ! !

- لا بد أنك حلمت يا أفندينا الباشا ، إن الحلم لا يزال باديا على جفنيك
واستطيع أن أراه .

- بلى .. من أجل هذا أسألك .

- عسى أن يكون خيرا يا أفندينا الباشا .. دعنى أسمعك منك .

- هل تعرف شيئا عن الأحلام ؟ !

- أحيانا يلهمنى الله سبحانه .. حسن ؟ !

وتنهذ الباشا .. وقص حلمه .. وأضاف بعض الزخارف حول شجرة
الزيتون ، فقد ذكر أنه كانت هناك رموس عدة معلقة على غصونها !
وأحنى المطران رأسه ، فقد كان يفكر فى طريقة يستخدم لها ذلك الحلم
ليدعم هدفه ..

وتسائل الباشا قلقا :

- أهو من الأرواح الشريرة ؟ !

وأجاب المطران :

- بل من الله .. ولكن كيف لى أن أفسره يا أفندينا الباشا ؟ قد يقلقك هذا التفسير ؟ !

وصاح الباشا فى دهشة :

- فأنت لاتعلم إذن أن المسلم الحق لا يهزه شيء ؟ .. إنه يعرف أن كل شيء يحدث فى هذه الدنيا مكتوبا من قبل .. وأن أحدا لا يستطيع أن يدفع هذا المكتوب ، ولو أن الباشا أرسل إلى الآن فرمانا يطلب فيه رأسى لما هزنى ذلك أو ضايقتنى .. ربما أعولت وانتحبت ، بل إننى كنت سأفعل ذلك بالقطع ، ولكننى لم أكن لاهتز أو أتضايق ، فذلك يكون هو أيضا مكتوبا ومقدرا من قبل ، فهل اعترض على مشيئة الله ؟

تكلم إذن بلا خوف يا أفندينا المطران ، ولكن حذار من الكذب ، قل الحقيقة كلها .

واستجمع المطران نفسه لحظات ثم قال :

- الحقيقة التى رأيتها فى الحلم هى قلب الرجل الطيب .. إن قلبك هو الحديقة يا أفندينا الباشا ، وهى مفتوحة بالليل لتدخلها وتجوس خلالها ، والذي رأيت فى نومك هو الاجابة على طبيعتك : أن تجوس فى طمانينة وسلام وسط الأشجار المورقة المزهرة فى « بروسا » .. المدينة التى ولدت فيها .. أن قلبك حديقة ، ولكن المكتوب والمقدر هو أن تصبح باشا وأن تتولى هذا المنصب فى كريت ...

وتنهذ الباشا وقال :

- ماذا أقول لك يا أفندينا المطران ؟ هذه هى الحقيقة .. كأنك تقرأ ما بقلبى ، ولكن أكمل ..

- عندما تكون قرية المرء أمامه يا أفندينا الباشا ، فإنه لا يحتاج إلى دليل يقوده إليها ، أشجار الزيتون المثقلة بالأسلحة - تلك التى رأيتها فى الحلم - هى كريت .. وأنت ذهبت ووقفت تحت الشجرة العارية المحترقة فأظلم وجهك ، وهنا بدأ مصيرك يضطرب .. وأنه لأمر مثير للشفقة حقا أنك استيقظت دون أن تعرف ما حدث بعد ذلك ، ولعل الله قد كتب لك بعد أن

يمنحك سبحانه حريتك من الآن لتفعل ما ترغب فيه ، فالمسئولية الآن إذن
مسئوليتك أنت ..

وقال الاناضولى الطيب :

- نعم .. لعل الامر ما تقول يا افندينا المطران ، واقسم بالشمس التى
تضئ فوقنا إنه يمكن للمسيحيين وللأتراك أن يعيشوا كالأخوة ..
اليونانيون يعملون والأتراك يأكلون .. والاثنان معا يعيشان عيشة سعيدة ..
وصاح المطران وقد وجد لنفسه نقطة البداية التى كان يريد لها :
- وذلك أمره فى يدك أنت ! بمقدورك أن تهيب الحب لهذه الجزيرة ،
إن الله جعلك تحلم بهذا الحلم فى الوقت المناسب !

- ماذا تعنى بذلك يا افندينا المطران ؟ ! لست أفهم !

- أنت سمعت ولاشك أن المسيحيين والأتراك فى ميغالوكاسترو قد
بدأوا يستجيبون للآثاره لأن فارسا ثملا - كما قالوا - اقتحم بجواده مقهى
تركيا ..

وصاح الباشا وقد برقت عيناه :

- وهل يبدو لك ذلك الأمر تافها ؟ ! هذا الكافر قد أهان تركيا !

وقال المطران بلهجة حماسية :

- إن تركيا لاتهان بهذه البساطة ، إنها دولة قوية يا افندينا الباشا .. دع
جانبا هذا البطل السكير ، فقد كنت تسألنى عن حلمك ، واعتقد أن الله
سبحانه يلهمنى أن أفسره لك .. ولكن إذا كان ذلك يضايقك ..

وقاطعه الباشا فى ابتهاال وهو يضع يده على ركبتيه :

- كلا .. واقسم لك بالنبى ! .. فأكمل بحق ما تؤمن به ..

- إن السموات السبع فتحت ، وقد جاءك الرب فى منامك يا افندينا
الباشا وأراك الطريق .

- أى طريق .

- الطريق الذى تختاره ، هناك طريقان ، واحد اخضر .. والاخر احمر ..
وبمقدورى أن أراهما معا فى ذلك الحلم ، وبمقدورك أنت أن تختار بينهما
كما تشاء .

وقال الباشا معترضا:

- لا .. ليس كما أشاء أنا ، بل كما يشاء الله ..

- ولكن ربما يكون الله سبحانه قد منحك حرية الاختيار فتستطيع من ثم
أن تختار الطريق الاحمر فتبدأ عمليات الاعدام وتحيل كريت إلى شعلة من
اللب ، أو أن تختار الطريق الأخضر فيتحول كل شيء إلى لبن وعسل ،
يصبح الأتراك والمسيحيون اصدقاء مرة أخرى ، وتبارك الدنيا اسمك ،
عليك الآن أن تختار !

وقال ذلك وهو يخرج من جيبه صندوق تبغ ثمينا حتى لا يدع للباشا وقتا
للتفكير .. ثم قال فى رقة :

- أنت خبير يا أفندينا الباشا وتعرف الشيء الكثير عن التحف ، وهذا
الصندوق من روائع مدينة « چانينا » .. على جانب منه نسر ذو رأسين ،
وعلى الجانب الآخر هلال محفور بفن رفيع ، وكأنما يرمز إلى نفس ما تعمل
أنت من أجله المسلمون والمسيحيون يعيشون معا إخوة .. ولأننى أعلم ما
بقلبك ، فقد أردت من زمن أن أقدم هذا الصندوق هدية لك ، وما قد جاء
الوقت .. وعسى أن يمنحك الحظ السعيد !

ثم وضع الصندوق الفضى فى راحة يد الباشا الممدودة ..

وقال الباشا وهو يبدى إعجابه بالهدية :

- والله إن اليونانيين هؤلاء .. جنس خالد ، أنتم تصيدون الذباب .. مرة
بالعسل ، وأخرى بالخل !

ثم انحنى وربت بأصابعه السميكة على الصندوق برقة :

- نعم .. دعنى أقل لك يا أفندينا المطران ، لقد أمطر هذا الصندوق من
« چانينا » قلبى سعادة ورقة .. كانت زوجتى الاولى - وعسى أن تكون
سعيدة فى عالمها الآخر ، حيث هى الآن - على قدر فائق من الجمال وكانها

« السيدة فروسين » .. وكانت هى أيضا من « جانينا » ..

ثم تنهد وقال :

- ولكن .. كيف يمكن أن تفهم ذلك ؟ فأنت لم تعرف النساء فى حياتك ، وساد صمت .. وأخذ المطران يداعب حبات المسبحة وينظر من خلال النافذة إلى الشجرة العارية الضخمة التى بدأت فى بطء تحرك أوراقها تحت السماء الزرقاء ، وأخيرا فتح فمه ليعيد الحديث مرة أخرى إلى الأرض :

- إن المحاصيل تبشر بخير يا أفندينا الباشا ..

وانتزع الباشا نفسه من الماضى العذب .. وعاد إلى ميجالوكاسترو !
ووقف المطران ، ووقف الباشا أيضا وقد مد يده .

- إلى اللقاء يا أفندينا المطران ، كلانا امرؤ يخاف الله ، وقد قسمنا كريت فيما بيننا بحكمة ، فلتحكم قبضتك على المسيحيين ، وسأفعل أنا نفس الشيء مع الأتراك ..

ثم سكوت لحظة .. وقفزت إلى طرف لسانه عبارة ، فسعل ، وحك رأسه ..
وقرر فى النهاية أن ينطق بها :

- إن الضجة فى وقت الأعراس أمر مألوف ، ولكن .. حتى إذا سمعت فى الأيام القادمة صوتا يبدومعه وكان هناك عملية قتل ، ... فتظاهر بأن هذا الصوت لم يصل إلى أذنيك ..

- قتل ؟ قتل يا أفندينا الباشا ؟

ثم قال وهو يحدج التركى الأشيب بنظرات حادة :

- إن الله ينهى عن القتل !

- لا تهتم ! .. فلعل تركيا سكريا هو الآخر أن يقتل فارسا يونانيا .. مثل هذه الأشياء يمكن أن تحدث ! .. إن العالم ملئ بالحقى .. ولكن ، عليك أنت يا مطران أن تتصرف كالأطرش .. تماما كما تصرفنا نحن كالعُميان عندما لم نرى يونانيا بعينه يقتحم مقهى تركيا ليهيننا ، الآن تنصرف أنت

كالأطرش يا أفندينا المطران ، مع أطيب تمنياتي !
واحس المطران لحظتها كأن ثعبانا يلتف حوله .. ولكنه تظاهر بأنه لم يفهم ..

- الله كبير .. وهو يحاسب حتى السلاطين والباشوات ..

وقال الاناضولى العجوز وهو يبتسم بخبث :

- ... ويحاب المطارنة أيضا يا أفندينا الباشا ..

وافترق الاثنان الكبار فى مجالوكاسترو .. افترقا قبل أن يحتدم بينهما النقاش ..

ومضت الايام .. وأدرك ابريل منتصفه ، وبدأت الأشجار تكتسى ببراعمها وأزاهيرها بينما كان بعضها يهب ثماره ، وتبعثرت مجالوكاسترو تحت شمس الربيع ، وبدأ الرجال والنساء يقاسون داخل جدران بيوتهم ، فقد وقعوا فريسة عصابتين غاضبتين لكل منها إله ، وكان الرجال والآلهة يشحذون مداهم ! لم ينتبه واحد منهم إلى البحر الرطب البارد الذى كان يبتسم مثل الدراق ، ولا إلى الشمس التى كانت تزدهر كل صباح مثل عباد الشمس .. ولا إلى النجوم ..

وعاد « الكابتن ميخائيليس » إلى دكانه صامتا منقبض الصدر ، ولأول مرة عجزت الخمر عن أن تبهج قلبه ، فقد نهض بعد كل ما شرب وهو يحس بالتوتر ويمزج من الغضب ، ومن ثم قد تجنب الشرب من جديد وبدأ يكتفى بكسرة من الخبز سرعان ما يغادر المائدة بعدها ، ولم يعد يفتح فمه فى البيت طوال اليوم .. وامتنع أيضا عن النوم .. كان يجلس طوال الليل فوق سريريه وهو يدخن ويتطلع من خلال النافذة الضيقة .. ويظل هكذا مفتوح العينين لأنه كان يعلم جيدا إن نام فسوف تقحمه الأحلام المهينة .. لا .. حلم واحد لا يتغير ، ... شيطان واحد لا يتغير يأتيه كل ليلة .. ألم تعد الخمر كافية لأن تقهر هذا الشيطان وتقهر معه مهانتة ؟

ولم يكن نوري بك هو الآخر قادرا على أن ينام ليس لأن فكره غسل إهانة تركيا والانتقام لأبيه كانت تنهش جسده فحسب ، ولكن لأنه كان أيضا قلقا على زوجته ، فمئذ ذلك اليوم الذى جاء فيه الكابتن ميخائيليس إلى بيته ..

وأمانة ترفض أن تضمه بين ذراعيها . كانت تقول له فى عناد : « لقد
أهانك ، لقد أهانك الكابتن ميخائيليس ، ومن ثم فسوف أهينك أنا أيضا ،
تلك هى العادة بين النساء التركيات » ..

وانتقل نورى بك إلى ضيعته الريفية عسى أن يلهى نفسه عما يستبد
به .. وكان الطقس دافئا ، ولعل الهانم أن تخرج كعادتها كل عام لتقضى
فصل الصيف وسط الحدائق والمياه الجارية .. ولا شيء يستعصى على
الله سبحانه ، فلعلها كذلك أن تتغير أفكارها وينمو حبها يانعا من جديد !
من أجل ذلك كله كان يستحث العمال كيما ينتهوا من طلاء الأبواب
والنوافذ ، وينشئوا مظلة من الأخشاب .. ومن أجل ذلك أيضا أمر بشراء
مجموعة من طيور الكناريا من « سميننا » .. وعدد من الببغاوات من
الاسكندرية لكى تسلى « أمانة » .. ولعل ذلك أن يرقق مزاجها !

ولكن أمانة ظلت ملازمة لوساندها الناعمة خلف ستائر الشرفة المطلة
على الشارع .. تشرب « الشربات » وتمضغ اللبان وتطلع إلى المارة لا
فرق بين يونانى وتركى .. فكلهم بالنسبة إليها رجال فحسب !

وسألت مربيتها العجوز :

— وما المسلم أو المسيحى أو اليهودى يا ماريا ؟ هناك فقط صنفان من
الرجال : عجوز وشاب .. ذو لحية بيضاء وذو لحية سوداء ، وأنا أحب
الصنف الأخير ..

وفى كل أمسية وحين تغيب الشمس وتبدأ الأزقة فى الاظلام ، كان يمر
رجل يونانى يضع فوق رأسه طربوشا ضخما ، وينتعل حذاء برقبة طويلة ،
ويقترب من المكان .. ويلقى بنظرات الحب من خلال ستائر الشرفة ..

وفى أحد الأيام سألت « أمانة » مربيتها المغربية :

— من يكون هذا اليونانى يا ماريا ؟ ترى أين رأيته قبل الآن ؟ لا يبدو
لى أننى رأيته فى أحلامى !

وأجابت المربية :

— إنه الرجل الذى أفاك من اغماصتك يوم الزلزال .. كابتن
« بوليكسيجيس » .

- إنه يبدو وسيما و يحق روحى ! إن على وجهه ترتسم امارات الزهو .
إنه يتمايل .. ويشرب .. ويضرب الأرض بحذائه .. اسمعى ! .. إن
المسكين يتنهد مثل العجل .

وضحكت « أمينة » وهى تمضغ اللبن وترشف « الشربات » وقد انتابها
شغف نحوه ، وأغمضت عينيها بأهدابها الطويلة ثم ابتسمت فى سعادة
وهى تقول لنفسها :

- « سوف أفعل ما أريد .. وإذا أردت ، فسوف أدخله إلى فراشى ،
وإذا أردت فسوف أبقيه فى الشارع يتسكع فيه مثل الكلب .. ألسنت
امرأة ؟ سوف أفعل إذن ما أريد » ..

وفى منتصف ليلة من الليالى وقد خلا الشارع من المارة ، أخذ الكابتن
« بوايكسيجيس » مكانه المعتاد أسفل الشرقية ، وكان القمر ساطعا
بضوئه ، ورائحة الياسمين وزهر العسل تعبق الجو ، والبلابل فى حديقة
نورى بك تطلق أغاريد اشتياق يائس للحب ، وصوت أمواج البحر تتناهى
من الميناء وهى تتنهد هى الأخرى وتمسح صدرها بجدران القلعة ..

ولم تكن أمينة ليلتها قادرة على النوم ، كانت تحس بالحرارة ، فخلعت
ثياب النوم وتسالت إلى الخارج .. فراءت الرجل تحت ضوء القمر مضطربا
مستندا إلى أحد أعمدة الباب الخارجى ، وعرفته على الفور ، وأغرقت فى
الضحك وهى تلتكز المربية التى تكومت نائمة مثل الارنب .. وقالت :

- المسكينة ! تعالى وألق نظرة ايكاد أن يغمى عليه ، وأنا أريد أن أنزل
لكى أبقيه من أغماءته تماما مثلما فعل معى اماريك ياماريا ؟ ! إن نورى
بك فى الضيعة الآن !

- يا طفلى أمينة .. تلك تكون خطيئة كبرى ..

- انزلى اليه واطلبى منه أن يصعد ..

وقالت المرأة فى توسل :

- أمينة ! .. يا طفلى ..

- تأكدى أولا من أن المغربى الذى بالباب نائم ..

وتنهدت « ماريا » وهى تقول :

.. إنه نائم .. لقد سمعت شخيرته ..

.. والكلب ؟ ! .. هل هو موثق ؟ هيا .. اسرعى أيتها الدجاجة الحمقاء .. لا ترتعشى وأظهري شيئاً من الحماس وأنت تؤدين عملاً ! إن الله خلق الرجال والنساء من أجل هذا أيتها المخلوقة التلسة ! أه .. ما أروع القمر هذه الليلة .. وما أدهأ الريح ! الياسمين مزهر .. والبلبل مجنون ! هيا .. قوديهِ إلى هنا .. لقد طالما كنت أقول لنفسى : بوسع المرأة أن تكون محترمة فى الشتاء .. أما فى الربيع ... ؟

وانحنى « أمينة » إلى الامام ورات أن الكابتن « بوليكسيجيس » لا يزال فى مكانه يحدق إلى الشرفة « لا يهتمى الآن نورى .. ولا يهتمى والكابتن ميخائيليس صعب المنال .. وكيفينى الآن هذا الرجل ! » .. وأسرعت إلى مشطها ومراتها لتصلح شعرها فى لهفة .. وعطرت أبطيها بالمسك .. ثم دفعت المربية بيدها : « قلت لك اذهبى ! » ..

وأمسكت المرأة المغربية برأسها بكلتا يديها وهى تتعثرهابطة الدرج .. ونثرت « أمينة » ما تبقى من المسك فوق جسدها ، ووقفت لتجذب المصباح خلف الباب وهى تغغم : « كنت أريد رجلاً آخر .. ولكنه متوحش وصعب المنال ، لا يهم .. فهذا الرجل يلائمنى » ..

وأرغفت السمع ، وتناهى إلى أذنيها صوت الباب يفتح ببطم ، وتبع الكلب مرة واحدة .. وبدأ وقع الخطوات يصبح واضحاً فى الفضاء .. ثم فى مكان الرجال .. ثم فوق الدرج .. وانحنى إلى الخلف فوق وسائدها وهى تنهيا لارتداء ثياب النوم ، ثم مالبت أن صرفت النظر ، فتركت ضوء القمر يسبح بلا عائق فوق صدرها وجسدها ، واقتربت بخطى وتناهت إلى خياشيمها المرتعشة رائحة رجل ! فبللت بلسانها شفيتها عدة مرات ، وأغمضت عينيها .. وانتظرت .

ووصل الكابتن « بوليكسيجيس » .. وأصبح على عتبة الباب ، وحدقت أمينة من خلال أهدابها الطويلة ، ورفع هو يده إلى عينيهِ وكأنه أصيب بالدوار ، وبدأ قلبه يدق فى جنون ، وبسطت الشركسية ذراعها ، واستلقت

على ظهرها ، وكأنما كانت تلك هى الإشارة المتفق عليها ، فقد قفز الكابتن بوليكسيجيس نحوها قفزة واحدة ... وأطلقا المصباح .

أقرب ابريل من نهايته ودخل المسيحيون أسبوع الآلام وهم فى خوف شديد ، ولم يكن فى مملكة المسيح مثل الكريتيين من يشاركون فى عمق وبدموية وبأسلوب خاص فى آلام السيد المسيح ، كان المسيح وكانت كريت يمتزجان معا داخل قلوبهم ، فالألمة واحدة ! اليهود صلبوا المسيح ، والأتراك صلبوا كريت ، وكان الكريتيون يحسون فى أعماقهم كيف كانت آلام المسيح تعظيم يوما بعد يوم وهم يحسون بالضعف أكثر وأكثر من شدة ما يعانونه من الصلاة والصوم حتى بدأ ينمو فى قلوبهم اتهام غاضب يبحث لنفسه عن مخرج بالقوة .. كانوا يتطلعون إلى الأتراك بنظرات وحشية ، وكانوا يمنعون أنفسهم بصعوبة بالغة من ضرب اليهود القلائل - من الصاغة والمرايين - الذين تزدهم بهم حارة اليهود بالقرب من الميناء ، والذين كانوا يغلغون أبوابهم على أنفسهم فى ساعات مبكرة أثناء الأسميات المقدسة والخطيرة فى أسبوع الآلام .

وكان الجو العام فى ميجالوكاسترو فى هذه المرة أكثر خطورة وتهيدا من ذى قبل ، لأنه - فى مواجهة المسيحيين الغاضبين - كان هناك الأتراك الذين لم ينسوا بعد الجرح الذى أصابهم به الكابتن ميخائيليس والذين تجمعوا ليلا أمام كنيسة « القديس ميناس » حيث كان المسيحيون ينتحبون من أجل المسيح ، وكانوا فى تجمعهم هذا يرفعون عقائدهم بالسباب واللعنات ويحاولون بالغناء المرتفع أن يهينوا الكريتيين ويحقروهم ، أما هؤلاء فكانوا ينتظرون كل ساعة ليعرفوا متى وكيف سيضرب الاغوات ضربتهم ، ومن ثم ، فقد بدأ يرتفع وميض النار تحت الرماد .

وهكذا مرت من الأسبوع المقدس أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء .. وكانت ساعات المساء ناعمة سماوية تفتحت فيها زهور البنفسج فناء كل بيت ، وفى الجمعة السعيدة خرجت الفتيات يقطعنها ليضعنها فى باقات من ورود آخر ابريل فوق - قطعة القماش التى تحمل صورة المسيح - وأغلق المسيحيون حوانيتهم بمجرد أن بزغت شمس اليوم التالى وانقضوا على اللحوم والأسماك والزيتون وحساء السمسم والخس والخرشوف ، وأخذوا يذرعون ساحات بيوتهم ، ينصتون وينتظرون ، وبق جرس كنيسة « القديس

ميناى « فى تردد ونحب مع الشفق الشاب .. ذلك الكلب يعرف أننا فى أسبوع الآلام ؟ »

وقال « ديمتروس » وهو يتنهد :

.. هذا محض جنون ! أو نحن الآن مقبلون على الوقوف فى وجه الباشا ؟ ..

أضرب البيضة بالحجارة تذهب إلى الشيطان .. واضرب الحجارة بالبيضة تذهب البيضة أيضا إلى الشيطان .. هذا رأى ..

وطوال تلك الأيام كان الكابتن ميخائيليس بعيدا عن الكنيسة ، كان يمدد الله ويصلى له ، ولكنه لم يكن يحتفل القسيس ، وكانت عادته أن ينتظر حتى تخلص الكنيسة من القسس وأرديتهم والنساء وثياهن والرجال وسراويلهم .. وحين كان المكان يخلص تماما من كل هؤلاء ، كان هو يقوم بالزيارة ويشعل شمعة ، ولكنه كان يدخل الكنيسة صباح كل خميس القربان قاصدا أو بدون قصد حتى فى وجود كل هؤلاء وكان يرسم علامة الصليب ويفتح فمه ليتلقف جسد المسيح ودمه فيحس بأن نارا تتأجج بداخله .

ولكنه - ولأول مرة فى هذه السنة - خرج ممتطيا صهوة فرسه بلا هدف ، وانطلق إلى مقربة من ضيعة « نورى بك » .. ثم توقف وعاد وهو يستنشق هواء البحر بقوة .. ولكنه لم يعد إلى العشاء المقدس وظل يردد لنفسه مرة بعد أخرى : « طالما أن هذه الروح الشريرة لاتزال فى أعماقى .. طالما أن هذه الروح الشريرة باقية بداخلى .. فلن أعود إلى العشاء الربانى » ..

لم يكن هناك فى السنة أطول من يوم الجمعة السعيد : لقد كان يمدد طوال خمس أمسيات . ورسم المسيحيون علامة الصليب وفتحوا أبوابهم واندفعوا صامتين خاشعين فى أزقة ميغالوكاسترو ليتعلموا مرة أخرى فى هذه الأمسية كيف يقابلنى الرب على أيدي البشر .

وحين كان أسبوع الآلام يمضى ازداد اضطراب الكريتيين فعندما بدأت قراءة دروس الانجيل الإثنى عشر يوم خميس القربان وبينما كان المطران يتبعه البابا ماثوليوس ثم الشماس يقرأون فى أجسوات خشنة قصة يهوذا

وكيف خان المسيح ، كان الأثر يشتد عليهم فيحسون وكأنهم يلهثون خلف المسيح من « أناس » إلى « فيافا » إلى « بيلاطس » .. تماما كما لهث « عمر قريونى » وهو يجرى إلى مصطفى باشا وإلى السلطان يطلب العدل .

واستمعوا فى صبر نافذ إلى الدروس السبعة الأولى ثم مالبتوا أن انطلقوا إلى فناء الكنيسة حيث أقيمت دمية من القش والخرق القذرة المهلهلة تمثل « يهوذا » اندفعوا نحوها بسكاكينهم ومشاعلهم ليمزقوها ويحرقوها ، ومنحهم ذلك بعض الراحة التى استطاعوا بعدها العودة إلى الكنيسة لسماع باقى الدروس .

وفى صباح الجمعة السعيد بدأت الأجراس تدق دقاتها الحزينة ، ونشرت قطعة القماش التى تحمل صورة المسيح فوق القبر المقدس الذى يتوسط الكنيسة .. وفتحت أبواب الكنيسة على مصاريعها .. وظل الكريتيون يدخلون ويخرجون ..

ووقف « مورزوفلوس » فى ساحة الكنيسة وقد أرهقه الصيام والصلاة .. وحوله وقف « ديميتريوس » و« كاجابيس » و« فيندوسوس » والسينيور « باراسكيفاس » الحلاق ، وكانوا جميعا قد أحنوا رموسهم وهم يستمعون إلى كلمات « مورزوفلوس » وهو يحكى لهم كيف أن الباشا قد بعث أمس بخادمه سليمان إلى المطران وهو يحمل معه أرنباً ، هدية منه إليه ، وكيف أن المطران غضب وأعاد الأرنب مع الرسول وحمله إلى الباشا رسالة تقول : « نحن فى أيام الصيام ، إن اليهود قتلوا المسيح .. ونحن نبكيه » .

وقال باراسكيفاس :

– لم يكن ينبغى أن يعيده إليه .. إنها إهانة ..

وقال « كاجابيس » :

– بل كان ينبغى أن يفعل ذلك ، إن هديته هذه هى الإهانة ، ألم يكن

لم يكن هناك نهار فى السنة كلها أطول من نهار الجمعة الكبيرة ، لقد طال بما يزيد على خمس مرات ، وضل طريقه ، وتوقف لا يريد أن يتحرك ، يأخذ خطوة إلى الامام وخطوة إلى الخلف كأنما لا يريد أن ينتهى إلى

مساء .. وأحس المسيحيون الذين أضعفهم الصيام بمزيد من الضعف وهم يمشون بروائح المخابز وكانت النساء يؤدين أعمال البيت وكأنهن ممسوسات ، كن ينظفن الحجرات ويبقن النار مشتعلة ، وكانت ساحات البيوت مهياة .. وكانت القلوب تدق ! .. كان الكل ينتظر غروب الشمس ، ويترقب حلول الليل الداكن الزرقة كيما يهتف من أعماقه : « المسيح قام ! » .

وظلت زوجة « كراسوچورجيس » تتطلع إلى الشمس وهي تحسب الوقت . وبدأ لها كأن نجم التبريك لن يظهر فى السماء ، وكادت رائحة الدجاج المطبوخ وفطائر « الكسترد » تؤدى بها إلى الإغماء ! .

وكانت « بنيلوب » قد بدأت فى تلوين البيض منذ خميس القربان فخرج من بين يديها كأجمل مايكون ، وبدأت الآن تعد الحساء فى المطبخ ، بينما السيد « ديميتروس » يجرى بناء على أوامرها حاملا الأوعية والأواني بين البيت والمخبز : « أسرع يا عزيزى ديميتروس ! تجلد يا بطلى العزيز ! المسيح يقوم هذا المساء ، وسوف احتاج إليك هذا المساء يا كنزى ! هل تسمعى ؟ كل هذه اللحوم وهذه الفطائر لا ينبغى أن تضيع سدى ! » .

واستجاب الله لدعاء زوجة « كراسوچورجيس » .. وغربت الشمس ، وغمرت رائحة الفصح ميجالوكاسترو كلها فى الغسق . وامتلأت أحياء المسيحيين بالضجة والبهجة وبدأت النساء فى تجميل أنفسهن .. حتى « فانجيليو » بدأت هى الأخرى تهندم نفسها ثم جلست فى الغناء تنتظر أخاها ، ترى هل سيأتى ؟ أم أنه لن يأتى ؟ ترى .. أيصحبها وحدها للمرة الأخيرة إلى احتفال الفصح ؟ فى العام القادم سوف يكون معهما « تيتروس » ..

واقترب الليل من منتصفه ، وبدأ المسيحيون يتجمعون فى ساحات بيوتهم ينتظرون دقات الأجراس ، فالمسيح كان قد بدأ يتحرك من قبره ويستجمع قواه ليحرك الصخرة الثقيلة ، وقفوا جميعا على أطراف أصابعهم فى ساحات بيوتهم إلى نوافذها وقد أرففوا السمع وانتظروا .. إثنان فقط فى ميجالوكاسترو كلها لم يكونا مع الله فى أفكارهم تلك الليلة ، واحد منهما كان فى تلك الليلة المقدسة يحتضن المرأة الشركسية ، والآخر كان يجلس فوق سريره وسط الظلام يدخن سيجارة أثر أخرى وأفكاره كانت تجرى مثل

الكلب خلال أزقة المدينة .. وتتوقف لتتبع أمام باب أخضر ..

وتجتمع المسيحيون في الفناء الامامى للكنيسة ، وهم يحرقون في مطرانهم ولما يشعلوا بعد شموعهم .. وكان المطران قد صعد إلى المنصة المزخرفة تحت شجرة الليمون المزهرة وقد ارتدى ملابس عيد الفصح ، وفتح الانجيل الفضى ، وتوهجت الحياة والوجوه وقد داعبتها أنفاس الليل الرطب .. وفجأة انطلقت الأصوات كالرعد : « المسيح قام » .. وأضاعت الشموع : وقام المسيحيون كلهم مع المسيح .. وأطلق البعض رصاصات غداراتهم الفضية ، وبدأ « مورزوفلوس » بكل البهجة والفرحة يدق الأجراس الثلاثة - القديس ميناس ، والحرية والموت .. وكأنها تتمايل جميعا لتقول : « كريت لم تمت ، كريت حية لاتموت ! » ..

وأمسك « باربايانيس » بسيفه الطويل ، ووضع وسامه المصنوع من الصفيح ! وبدأ يروح ويجىء والأتراك والمسيحيون ينحنون له ساخرين ضاحكين ، ليرد هو على كل تحية بإيماءة الباشوات ! وكان قد استأجر صبيا من الشارع ودهن وجهه بالسخام : الآن أصبح له عبد يتبعه خطوة خطوة !

وانطلق « شاريلالوس » بشاربه المدهون حديثا بالشمع .. يزور الناس راكبا عربة وواضعا فوق رأسه قبعة من القش اشتراها له البعض أخيرا من أثينا ، ومسندا ذقنه على عصا رأسها رأس أسد .. ومتطلعا إلى الناس بنظرات حاقدة ، فلن يكن بمقدوره أن ينسى أن لهم أجسادا صحيحة ليس له مثلها ..

وعندما اقترب المساء خرج المسيحيون رجالا ونساء وقد ارتدوا ثياب الفصح يدورون حول « الأقباء الثلاثة » ، وتطايرت الصفائر الحريدية في شعور الفتيات ، وإلى الشمال ، كان البحر هادئا في حمرة الورد ، إلى الجنوب كانت الجبال تتألق وأشجار الزيتون تتوهج فضية اللون وفوق الجميع ألقت السماء سترها البنفسجى الحريرى الناعم ، ثم مالبت الظلال أن امتدت .. وبدأت وجوه أبناء ميغالوكاسترو المغذاة جيدا .. أمنة مسالمة وهى تجول من أجل غذائها .. وفجأة تألق كوكب الزهرة في ضحكة منتصرة .. عاليا عاليا فوق الرموس ..

الفصل السادس

استيقظت عائلة « الكابتن ميخائيليس » نتية مع الفجر فى القرى الأربع التى ضربت فيها بجذورها منذ عهد الأسلاف - « بيتروكيغالو » ، و « آيانى » و « كروسون » و « البرج الأحمر » - واتجهت كلها إلى ميجالوكاسترو لتحضر عرس الشقيق الأصغر « تيتيروس » تجمعت كلها فى القرية الأم للعائلة - بيتروكيغالو - حيث يعيش الكابتن « سيفاكاس » الجد الأكبر والبالغ من العمر مائة عام ، بعضهم جاء راكباً بغلته والبعض الآخر جاء ممتطياً صهوة جواده وكلها محملة بالثياب الحمراء وبهدايا العرس : خراف مشوية ، وخنازير رضيعة وجبن من كل صنف وزقاق من الجلد لحفظ النبيذ والزيت ، وأوعية ملأى بالعسل ، وبالزبيب ، والتين .. وحفائث من اللوز ..

وظهر الكابتن « سيفاكاس » على عتبة الباب فى أحسن ثيابه الصوفية الثقيلة وقد انتعل حذاءه الأسود ، برباطه الأسود الطويل وعصاه ذات المقبض المزدوج ، وتدلت لحيته لتغطى كل صدره ، وبرقت عيناه تحت حاجبين كثيفين ، وبرزت من الأكمام الواسعة لقميصه الأبيض الناصع - ذراعان نحيلتان معروقتان كساق شجرة زيتون عتيقة ، وجال ببصره حوله ، فرأى الشارع كله مزدحماً بالأبناء والأحفاد وأبناء الأحفاد .. فأحس بالسعادة ..

وصاح فيهم وهو باسط ذراعيه :

- « مرحباً بكم ألف مرة يا أولاد ! » حقل ملئ بالزهور والأعشاب ! .. وأجابته صيحة فرح واحدة من كل الجمع البشرى الخارج من صلبه : « نحن سعداء برؤيتك ! ... فلتسعد فى مملكتك أيها العجوز ! » ..

وتقدم اثنان من أحفاده بفرس ليمتطيه وقد أمسك واحد منهما بزمامه وأمسك الآخر بالركاب ، وأوقفا الفرس قريبا من حافة النافورة القائمة فى الفناء ليسهل عليه امتطاؤه ، ولكنه أزاح بيده الحفيدين ضاحكا وهو يصيح :

:- هل تظنون أننى هرمت فلا أستطيع أن أمسك بالركاب ؟
ثم قبض على ناصية الفرس بيده .. وبقفزة واحدة أصبح فوق السرج ..
وصاح الجميع ..

- متعك الله بالصحة والسعادة يا كبير ! فلتعش الف سنة ! ...
ورد العجوز ذو اللحية الرمادية وهو يثبت عصا الراس :
- تكفى خمسمائة سنة !

. كان قد أنجب اثنى عشر ولدا وأربع بنات .. وكلهم وحوش مفترسة !
كان الشارد وحده هو الشاذ ، فهو نحيف هزيل يعجب المرء كيف خرج من صلب هذا الرجل .. ولقد بحث مع زوجته مرة حال هذا الولد :

- « إنه لن يصلح راعيا ، فليست لديه القدرة على التسلل ، ولن يصلح فلاحا ، فليست لديه القوة على حرث الأرض ، ولن يصلح بحارا ، فالبحر يسبب له المرض ، إنه لن يصلح لشيء على الإطلاق !

وقالت المرأة العجوز التى كان الابن الأصغر أثيرا لديها :
'- يمكن أن يكون قسيسا .

- قسيسا أو معلما ، ولدينا قسيس فى القرية ، ولكن ليس لدينا معلم بعد ..

وبعث به إلى ميجالوكاسترو ليتعلم ، وهكذا أصبح ابن الكابتن « سيفاكاس » هو المعلم « تيتيروس » ..

ولقد أستراح الكابتن « سيفاكاس » لخروجه من البيت بعيدا عنه ، فقد كان يخجل أن يدعو به أبنته ! وظل فى مزرعته مع وحوشه العشرة الآخرين الذين كان يفخر بهم فيقول دائما :

- « عندما يتناول أولادى طعامهم يهتز البيت حتى ليسأل الغرباء :
أحدث زلزال ؟ كلا .. إن أولاد سيفاكاس يتناولون طعامهم فحسب !

ولكن ملك الموت جاء ووقف على عتبة البيت وأجال بصره حوله ، هنا ،
يبدو المكان مزدحما بالفرسان أكثر من اللازم ! وهكذا أخذ ملك الموت
نصيبه منهم : بعضهم أخذه أخذه شريفة وبأساليب مختلفة فى الحرب ،
والآخرون اختطفهم فى خبث وهم فوق أسرتهم ، ورغم ذلك فقد بقى عدد
كاف منهم كما كان يعتقد « سيفاكاس » ، فقد أنجبوا له أحفادا وأنجب
الأحفاد أولادا ، ان الواحد يترك خلفه مئة ، والمئة تترك خلفها ألفا حتى
تمتلئ بهم كريت ، ترى ، كم سيختطف منهم الأتراك ؟ مهما بلغ عدد من
يختطفونه فسوف تبقى منهم على أية حال خميرة يعلو بها العجين .

ورفع « سيفاكاس » يده وقال :

- باسم الله يا أولاد .. إلى الامام ، حتى تزوج الابن الأخير ..

وفى مقدمة الموكب كان الرجل العجوز .. وخلفه قليلا وإلى اليمين وإلى
اليسار منه ركب أكبر أولاده الذى تقدمت بهم السن ولكن ما تخلت منهم
القوة ، « مانوساكاس » الفلاح الثائر أبدا من « آيانى » ، و« فانوريوس »
قائد حرب العصابات وراعى القطعان ، ذو الوجه القاسى والذى تفوح منه
دائما رائحة الجبن والماعز ، وكانت مملكته هى كل جبال « لاسيشى » ،
وعندما كانت وحشة الجبال تضايقه كان يهبط من القمم الجرداء إلى
السهول ويبحث عن الثور الذى يملكه « جاجى نيكولاس » من
« بيتروكيثالو » ، فإذا عثر عليه أطلقه من وثاقه إلى شجرة الزيتون العتيقة
ومضى يصارعه حتى ينتهى ما ينتابه من الضيق .

ولكنه - بالرغم من ذلك كله - كان يخاف من وحش واحد فى هذه الدنيا ،
زوجته « ديسبوانيا » ! كانت امرأة صفراء البشرة زرقاء العينين لو أنك
نفخت فيها لسقطت إلى الأرض ، ولكن « فانوريوس » المتوحش كان يرتعد
أمامها ، وفى كل مرة كان يهبط فيها إلى القرية ليقضى بضعة أيام فى بيته
وينجب من زوجته طفلا .. كان يتصرف أمامها برقة ويتمثل السلوك
الانسانى ! كانت الرغبة فى الشراب يستبد به ، ولكنه لم يكن يشرب ! كان
يود لو انطلق على سجيته فى السباب ، ولكنه لم يكن يفعل ، وكان يشعر

بالرغبة فى أن ييصق فى الحائط كعادته ، ولكنه لم يكن ييصق ! فكان يضبط أعضابه ويبتظر إلى أن يحل الليل وإلى أن تتوجه زوجته إلى فراشها ، وبعدها كان يفرج مظهره من النافذة ويجذب أى رجل عابر بالصدفة من قفاه ويدخله إلى الحجرة ثم يجلس فى مواجهته يشرب معه على مهل ، ودون أن يحدث أدنى صوت ، فإذا مر آخر كان نصيبه كالأول ، يجلس معهم .. ويضع كل منهم أصابعه على حواف كأسه حتى يضمّنوا الا تحدث الكئوس أصواتا وهم يمسون بها .. ويظلون فى شرب متصل حتى يقرر « فانوريوس » أنه قد اكتفى ، فإذا به يمسك بهم من أفضيتهم ويعيدهم إلى الطريق بنفس الأسلوب الذى أدخلهم به ، وعندها فقط يزور زوجته فى فراشها ، وهكذا - وبهذه الطريقة - أنجب أولاده الكثيرين !

وارتفع الغبار فى الطريق عاليا تحت حرارة الشمس ، وكان الكابتن « سيفاكاس » يدير وجهه الملتهب إلى الخلف بين الفينة والفينة ليلقى نظرة خاطفة إلى الركب الذى يتبعه .. خلفه يجىء « مانوساكاس » و« فانوريوس » ، وخلفهم يجىء الأحفاد - الرجال منهم - وبعضهم كان متزوجا ، وخلف هؤلاء يجىء أبناء الأحفاد وقد نبئت لحى بعضهم ، وإلى اليمين خلف كل هؤلاء يجىء موكب النساء يفاقين ! .

ثم عاد ينظر أمامه فى اتجاه « ميجالوكاسترو » دون أن يخوض فى حديث مع أولاده ودون أن يبتسم وكان يحس بالرضا والطمأنينة ، فى مكانهما المناسب ، ولم يكن يحتاج بعد لشيء أو لأحد ، وكانت الكلمات فى الأيام الأخيرة تبقى محبوسة فى أعماقه ، فإذا أحس بسر يقلقه ، وينهش فى داخله لم يفرض به لمخلوق .. ولكنه كان يفرض به لله وحده .

والحق أنه منذ زمن ليس بالبعيد كانت تنتاب تفكيره تأملات غريبة ، لأول مرة بدأ « سيفاكاس » العجز يفكر فى الموت لقد اقترب اليوم الذى سيقف فيه أمام الله ، وقد كان العجز يرتعد كلما فكر فى ذلك .. كان الموت فى تصويره أشبه بجبل أسود تحيط به أمواه مندفعة يشده إليها العطش ، ووحوش مفترسة يشده عنها الخوف ، وتذكر كيف أنه انزلق مرة فى إحدى الثورات فوق « الجبل القاسى » خارج « ميجالوكاسترو » ، وأمضى هناك ليلة واحدة والأتراك منتشرون حوله .. وكيف تقدم فى بطنه وهو يتسلل منحنيا والسكين بين أسنانه ، حتى تناهت إلى سمعه أصوات خافتة ، ولمح بريق سجانر مشتعلة ، وسمع أصوات قعقة الأسلحة وراها تلمع وسط

الظلام .. وتذكر كيف ظل يتسلل هارباً وسط الظلام وهو يرتعش .. الآن ، يبدو له الله سبحانه مثل ذلك الجبل ..

كانت « فانجيليو » قد عادت لتوها من حمامها الساخن وأخذت « رينيو » تصف لها شعرها بمشط عاجي أعطاه لها عمر أباه « إيدوميناس » وتضع الأحمر فوق خديها ليخفى الصفرة التي تعلوها ، والمساحيق فوق أنفها حتى يبدو أقل طولاً ، بينما العروس صامته أمام المرأة ، وكانت « بينيلوب » وزوجها « كراسوجورجيس » تقومان بتزيين سرير العريس وهن يرددن أغنيات الزواج وينثرن أزهار الليمون فوقه وهن ثملات بعض الشيء .. وكانت الزوجتان .. ربنا البيت الحادقتان - « كاتيرينا » زوجة الكابتن « ميخائيليس » و« كيريسانتى » شقيقة « بوليكسيجيس » .. تجهزان الذ أنوع الطعام بينما « على آغا » يعد الأطباق والسكاكين والشوك بعد أن يجمعها من الجيران .

ودخل « ديامانديس » وقد علق عباءته فوق كتفيه فى غرور ، وألقى بتحية نائمة ، ثم حدى فى البيت بعينيه الواسعتين المستديرتين ، وهوىزم شفقيه ويلعب بسلسلة ساعته فى عصبية ، لم يكن مرتاحاً لكل هذا الذى يجرى ، فقد تم كله على خير وجه دون الاستعانة به ، وهو شقيق العروس ! لماذا بحق الشيطان يجرى هذا المخلوق ذو المعطف الطويل والعوينات المتناقلة ليقتحم حياتهم ؟ وصعد الدرج فى خطى متناقلة ، ونظرت إليه زوجة « كراسوجورجيس » نظرات ذات مغزى ، كانت تعلم أنه ما اشترى الساعة إلا ليستعرض بها ، فلم يكن يعرف بعد كيف يحدد بها الوقت ، حتى لقد كان أصدقاؤه يتندرون معه بذلك .. وهكذا سألته فى سخرية ..

- كم الساعة الآن يا ديامانديس ؟ !

والتفت خلفه فى غضب وقال :

- لقد توقعت الساعة يا امرأة .. إنها لاتعمل ..

- لقد توقفت الساعة يا امرأة .. إنها لا تعمل ..

ثم ابتعد عنها .. ورأى كيف يدللون شقيقته ، يدللون الضحية ويعدون لها للتضحية ! وتهياً للزول ، ولكن شقيقته أحسست به فاتجهت نحوه وقد

امتلاأت عيناها بالدموع .

وتدخلت « بينيلوب » :

- نحن نزين العروس ، فالرجال الآن فى الطريق إلينا ..

وجذب الرجل الأنيق شعرة من شاربه وقذف بها فوق السرير وهو يقول :

- عسى أن تجلب الحظ ..

ثم هبط الدرج متثاقلا وهو يتنهد .

ارتفعت أصوات الصهيل وقعقة السرج فى المساء ، وامتلا الشارع الضيق بالفرسان ، فقد وصل الكابتن « سيفاكاس » وقطاره خلفه ، وفتحت أبواب بيت « فانجيليو » على مصاريعها وملات الجو على الفور رائحة الرجال والأجساد التى بللها العرق ممتزجة برائحة اللحوم المطبوخة والجبن .. وأخذ الرجل العجوز « فانجيليو » بين ذراعيه وقبلها ، واندفع إليها كل أقاربها الجدد يقبلونها بدورهم ويفرقونها فى رائحة العرق والماعز ، والأنفاس المخمورة .. وزال الطلاء من فوق خدى العروس من كثرة ما مسحته الشوارب واللحى التى لامست وجهها ، فأسرعت إلى غرفتها لتطليهما من جديد بالأحمر والمساحيق .

ولم يكن المكان ليتسع للضيوف فى حجرات الطابق الأسفل ، ومن ثم فقد ذهبت النسوة إلى غرفة النوم ، بينما ذهبت البعض منهن إلى المطبخ ليضعن الهدايا ، أما غالبية الرجال فقد أنتشروا فى ساحة البيت .. وساد الطنين المكان ..

وصاح الكابتن « بوليكسيجيس » وهو يصعد ويهبط محيا ابنه أخيه :

- لا تحدثوا هذه الفوضى يا أولاد .. لاتحدثوا هذه الفوضى ، نحن هنا فى ميجالوكاسترو .. ولسنا فى الجبال !

وتخلص « تيتيروس » و« إيدومينياس » من العناق والتحية ، وبدأ الاثنان يتهاهسان وقد جلسا إلى ركن من الأريكة ، وأخبر « تيتيروس » سراب زوجته فى حماس وإخلاص كم من تقاليد الزواج القديمة لاتزال تحيا بين هؤلاء الناس ، هؤلاء اليونانيون جنس خالد لا يموت .. وكان سعيدا ،

لا لأنه سيتزوج ، ولكن لأنه سيتزوج وفقا للعادات القديمة ، وأخبره « ايدوميناس » بأنه قد بعث بالأمس انذارا إلى ملكة انجلترا ، وأنه سوف يتلقى بلاشك ردا على هذا الانذار بعد أيام قليلة ، ثم قال فى اطمئنان :
- الله نسال يا ولدى أن يكون يوم زواجك يوم قال حسن ، وأن تتحدد كريت .

وظهر الكابتن "مياخيليس" الذى رفع قبعته فى احترام وانحنى يقبل يد أبيه ثم صافح أشقاه وأبناء عمومته ، وتظاهر بأنه لم ير الكابتن "بوليكسيجيس" ، ثم دخل البيت وجلس إلى جوار أبيه وانحنى العجوز ليهمس فى أذن ولده .

- تبدو لى نظرات العروس حزينة يامياخيليس .
وأجاب الكابتن مياخيليس :
- لتناسب نظرات العريس !

وهز العجوز رأسه وضحك ضحكة جافة .
ولكن حديثهما صادف من يقطعه . فقد دخل القسيس بجيوبه الواسعة . والشماس بلحيته التى تشبه لحية دب وحشى . و"مورزوفلوس" بمبخرته القضية . ونهض الجميع واقفين .. ونزلت العروس مع عرابها الذى أمسك بيدها ، وملأ "مورزوفلوس" مبخرته .. وبدأ الترتيل ، وأحنت العروس رأسها وقد وقف أفراد العشيرة الوحشية كلهم بأنفاسهم ودمائهم الحار وشواربهم - وقفوا بالقرب منها يحدجونها بنظراتهم . هذه المرأة النحيل! سوف تدخل عشيرتهم وسوف تمتزج دماؤها بدمائهم . أنكون النتيجة طيبة !؟ كلهم رماه وفلاحون يعرفون جيدا عن الماشية : أى جدى أو ثور يناسب هذه العنزة أو البقرة ليخرج نتاج قوى يثرى القطيع . وكانت النساء يعرفن كل شيء عن الديوك والدجاج والأرانب ، ويقمين الزوجين الصغيرين .

- إن العروس نحيلة جدا . وصدرها ضامر . كيف يمكن لمثل هذه أن ترى أطفالها ؟

- لا تنزعجى ، سوف تدرلينا ، هل تذكرين - العام الماضى - تلك العنزة "مافرادا" . كانت جلدا على عظم ، ولم يكن أحد يرى ضرعها إلا بالكاد !

.. ولكنها انجبت ، واصبحت تعطى فى "الحلبة" الواحدة - قد لاتصدقين ! - ربع جالون من اللبن !
- ليست لها أهداف .. كيف تحمل هذه طفلاً ؟

- لاتنزعجى ، سوف تسمن الآن . كلهن يسمن بعد الزواج .
وهكذا مضت النساء ، تهمسن بينما القسيس "مانوليس" يرد كلمات العرس : "رقص اشعيا" .

وعندما انتهت الطقوس ، تولى العراب استبدال التاجين واندفع الاقارب مرة اخرى نحو العروسين يتمنون لهما حياة طويلة وشيخوخة كريمة .. ثم بدأ القضم والنهش حول المائدة الموسوقة بالطعام . ولم يذكر العريس بعد ذلك كيف حدث ذلك كله ، فقد غطت أفكاره سحابة فلم يعد يذكر إلا أنه كان يميز بصعوبة تلك الوجوه والأصوات - وأباه وهو جالس وقد أمسك بيديه خنزيراً مشوياً أسنده إلى ركبتيه ، وإلى يمينه الكابتن "ميخائيليس" وإلى يساره الكابتن "بوليكسيجيس" ، وأخيراً تذكر أن "ديامانديس" شقيق زوجته دخل دون أن يحنى أحداً وقد أرخى قبعته إلى عينيهِ ، ثم إتجه مباشرة إلى المطبخ ليشرب ويحتفل بداخله ، وأن الكابتن "بوليكسيجيس" قفز من مكانه وخرج ، ثم مالبت الجميع أن سمعوا أصوات نقاش حاد وزجاج يحطم .

وجز الكابتن "ميخائيليس" على أسنانه وكاد يقفز من مكانه هو الآخر ولكنه عدل عن ذلك وظل جالساً ودمأؤه تغلى بينما جاءت ابنته "رينيو" بالطبق وقدمت له شراب كرز طازجاً أحس بالهدوء بعد أن شربه ، فتنفصل على الفتاة بنظرة ودوده وهو يحس بأنه رأى هذا الوجه من قبل فى مكان ما .. من تكون يأتري ؟ لقد ظلت طوال المساء تخدمه دون تطفل وتحضر له كل مايريد : الماء ، والنبيذ ، والطعام والسجائر ، وتسرع فى احضار ذلك كله . وأشار الى زوجته التى كانت توزع اللحم على الضيوف وسألها وهو يومئ ببصره إلى "رينيو" :

- من تكون هذه البنت اللطيفة ؟ لقد رأيتها من قبل فى مكان ما .. ولكن أين يأتري ؟ !

وتنهدت كاتيرينا :

- إنها ابنتك !

وأحنى الكابتن "ميخايليس" رأسه ولم ينطق بعدها .

وعاد الكابتن "بوليكسيجيس" غارقاً في عرقه ، واتجهت كل العيون إليه وحاول هو أن يرسم على شفتيه ابتسامة وهو يقول :

- إنه سكران ، فاعذروه .

ثم جلس إلى جوار الكابتن "ميخايليس" وكأنما يريد أن يتقرب إليه لينسى تصرف ابن أخيه . واهتزت خياشيم الكابتن "ميخايليس" بالرغم منه : رائحة المسك تفوح من صاحبه . ولكن الكابتن "بوليكسيجيس" مضى في محاولته تخفيف حدته ، فمنذ أيام وهو يصده بجفاء . لماذا ؟ وبعد أن شرب عدة كؤوس من النبيذ لتمنحه الشجاعة ، انفجر معاتبا في اتهام :

- ماذا فعلت ياكابتن "ميخايليس" حتى تكرهني هكذا ؟
وجاءت الإجابة :

- أشم فيك رائحة تركية !

وتسائل "بوليكسيجيس" وقد احمر وجهه خجلاً :

- وكيف عرفت ؟

وحقق الكابتن "ميخايليس" مباشرة في عينيه ، وأحس بقلبه فجأة يقفز إلى حلقه حتى ليكاد يخنقه . فقد فهم . وضغط بقدميه على المقعد الذي احضرته له "رينيو" ليضع قدميه فوقه حتى سمع صوت صرير ثنايا الخشب ووصلاته . وقال من بين أسنانه :

- الآن أعرف . ألا تحس بالخجل ؟ .. ومع امرأة تركية ؟
وقال "بوليكسيجيس" :

- سوف تصبح مسيحية .

وقفز الكابتن "ميخايليس" وقد أحس بالبيت يدور أمام عينيه .

- وبدلاً من أن تصبح هي مسيحية ، لماذا لاتصبح أنت تركيا ؟ إذن

لاستطعنا أن نتخلص منك .

... ثم أتجه إلى الفناء ليشم الهواء النقي .

وكان اليوم التالي قد بدأ يتسلل ، ولكن الجميع كانوا لا يزالون يأكلون ويشربون وارتفعت أغنيات الحب على أنغام آلات بدأ البعض يعزفون عليها ، بينما راح البعض الآخر يرقص رقصة الصفوف الخمسة وهو يغنى . أما العروسان فقد جلسا صامتتين غائبتين على حافة الأريكة دون أن يحس أحدهما بالرغبة فى النهوض إلى سرير العرس المزين بالورود . وتمدد الجد العجوز بالقرب منهما وقد أسبل جفنيه دون أن ينام ، ولكنه كان يستمع إلى ضجة أحفاده حوله . وإلى كل الأصوات والأغنيات والضحكات الصاخبة . وكان يحس بالسعادة وكأنه شجرة ضخمة من أشجار السهوب تسقط فوقها الأمطار وتمتص جذورها السعيدة الماء .

وبعينين ناعستين أشار الكابتن "ميخائيليس" إلى زوجته :
- هيا بنا !

وجاء يوم جديد ، وسطعت أشعة الشمس فوق ساحة العرس فكشفت عن أكوام من العظام وفتات الخبز والرجال النائمون المتكومين بلحاهم وعباءاتهم الصوفية الواسعة . وارتفعت فوق "ميجالوكاسترو" حيث اليوم يوم الثلاثاء التالى للفصح .. وسوف تفتح الدكاكين أبوابها ويتمنطق أصحابها كل بمئزرته . ومست أشعتها فى رقعة أشجار الزيتون والحقول وتوقفت عند ضيعة نورى بك وكأنها تبتهج لمرأى النوافذ المطلية حديثا والياسمين المزهر . اليوم أيضا قد وصلت من الاسكندرية أربعة ببغاوات : اثنان داكنا الخضرة ، والاخران فى لون خضرة البحر وفى صدورهما صفرة . كما أن نورى بك كان قد استقدم "الابراهيمي" ، ذلك الطبال الاعمى الذى قد يعجب امينة هانم . وها قد مر أسبوعان لم يعد فيهما نورى بك الى "ميجالوكاسترو" .. وظل يعد فيهما - كطير عاشق - العش الذى ستقضى فيه وليفته فصل الصيف . كان مشتاقا اليها ، وكان قد بعث اليها أول أمس برسالة يقول لها فيها إنه قادم إليها وإنه لم يعد يحتمل فراقها أكثر من ذلك ، ولكنها أجابت العربى الذى حمل إليها الرسالة ، بأنها تشك فى أنها حامل : وأن نوبات الألم تنتابها وأنها من ثم لاتستطيع أن ترى

أحدا سوى "حميده" العجوز الحكيمة التى تتردد عليها وتمارس معها فنون العلاج فتحس بعدها بالارتياح ، وأنه إذا كان يحبها حقا فعليه ألا يعود قبل أن تضع حملها .

ولكن ذلك وحده لم يكن مصدر قلقه : أن يظل بعيدا عن محبوبته أكثر مما ابتعد ، فقد ارسل اليه الباشا مساء أمس خادمه العربى يخبره فيها أنه مرون وقت أطول من اللازم .. ولم يف بعد بوعده ، وأن الامانة لم تغسل بعد ، وأن الاغوات يتهامسون وأنه مهما كانت طبيعة الأفكار التى تراوده فإن عليه أن ينتهى من هذا الأمر على الفور .

ثم إن أباه أصبح الآن يزوره فى نومه بانتظام دون أن يتكلم ودون أن يبقى طويلا واقفا أمامه ، كان يكتفى بأن يمر إلى جواره بقدميه العاريتين وفى خطوات متناقلة ووسط اسماله المهلهلة دون أن يستدير لينظر اليه ، ثم لا يخفى ، بل يظل موجودا طوال الليل بوجهه الحزين .

ولقد تصادف فى ذلك الصباح أن تلك القبيلة اللعينة التى قتلت أباه مرت بحداء ضيعته وهى فى طريقها بعد عودتها من العرس . وقد أغلق باب الضيعة بعنف وصعد إلى الطابق الأعلى .. ودخل غرفة نومه واتجه الى النافذة يحدق من خلال ستائرها الخشبية فى العجوز ذى المائة عام ، رب الأسرة التى تسير خلفه فى فخار .. جيش كامل ! .

وبينما كانوا يسيرون بحداء باب الضيعة ، جذب "مانوساكاس" عنان فرسه وأخرج غدارته الفضية وأطلقها فى الهواء وهو يصيح :

- إننى أطلق النار على درعك يا نورى بك ..

وخلف النافذة كان نورى بك يعض شفتيه دون أن يقبل التحدى واستدار "مانوساكاس" الى رفاقه وصاح :

- إن الكلب أثار الضجة لأننى أدخلت حمارى إلى المسجد مع المصلين ، حسن بعد غد يجيء عيدهم الأكبر ، وبحق ثققتى فى أن اسمى هو "مانوساكاس" لسوف ادخل هذه المرة خنزيرا !

وارتفعت صيحات ضيوف العرس وضحكاتهم .. ثم خفتت وسط سحابة الغبار .

وأحس نورى بك بالدم يملأ عينيه ، فهبط الدرج وفتح زجاجة ثم جلس فى الخارج أمام الباب ليهدىء من ثورته بالشراب . ولكنه لم يستطع أن يظل هكذا جالسا . ولاحظ القوضى التى أثارته تلك البغال والخيول اللعينة فى الأرض أمام الباب ، فاتجه الى وسط الطريق ورمى ببصره نحو الشمس حيث كان اعداؤه قد اختفوا وسط سحبات الغبار . وآمال الزجاجة وأسأل منها قدر خمس أو ست جرعات على الأرض وهو يغمغم قائلا :

- فليهدر دمي هكذا إن لم أفعل ما قررت فى هذه الساعة أن أفعله .
ثم أحنى عنقه إلى الخلف وظل يشرب حتى بدأت الريح تشتد ، فعاد إلى الداخل ووضع غدارتيه فوق الوسادة وحشاهما واطلق طلقتين اطمأن معهما على أن غدارتيه تعملان على مايرام ، وأخرج خنجره ذا الحدين من غمده واختبره فى رسفه فوجده قاطعا كحد الموس . وظل طوال نهاره يروح ويجىء داخل البيت أو يقتفى آثار البغال والخيول على الطريق ثم يعود وقد تجدد غضبه وهياجه .. وعندما حل الليل ذبح أرنباً وأمر بإعداده على الطريقة المفضلة لديه ، ثم مضى يلتهمه بشهية مفتوحة ، حتى اذا انتهى من الطعام جمع حفنة من زهور الياسمين نثرها فوق وسادته . ولأول مرة منذ زمن طويل راح فى غيبوبة نوم هادىء لا يقطع هدوءه شىء ، كما أن أباه كذلك لم يزره فى تلك الليلة .

واستيقظ فى الصباح منتعشا مبتهجاً وأخذ يصفر بفمه . وكانت الديكة قد استيقظت هى الأخرى وبدأت تحيى شمس الصباح . وتساقط الضوء من السماء فوق أوراق الشجر ، وأخذت النافورة المقامة فى مواجهة الباب تحدث أصواتا شبيهة بأصوات الدجاج ، وخرج الجواد من حظيرته يستقبل النهار بصهيله وكأنما قد رأى مهرأ أمامه . وكذلك كان نورى بك يتהלل للنهار الوليد .

نزل إلى فناء البيت فاستقبله كلبه العجوز "كارتسوميس" بالنباح مرحباً ، واتجه الى الفرس قربت عليه وأمر بأن يغسل جسده بماء دافىء واتجه هو بنفسه ليملأ له دلوا من البئر ليشرب منه كما أعد له كمية من العلف ثم عاد إلى الداخل فأمر الطاهى بأن يعد له بعض الأصناف الطيبة من الطعام وأن

يملاً له زجاجة من شراب الليمون .. وبسرعة .. لأنه سوف يخرج على الفور قبل أن تشتد حرارة الشمس .

وسألته المرأة العجوز :

- هل أنت ذاهب إلى ميجالوكاسترو؟! وهل ستحضر معك سيدتنا ؟ ودون أن يجيب على سؤالها اتجه إلى غرفة النوم ونثر بعض الصبغة السوداء فوق شاربه ثم ارتدى ملابسه الرسمية وطيب شعره وأذنيه بالمسك ، ثم دس الغدارتين الفضييتين والخنجر ذا الحدين في جيبه ونزل إلى فناء البيت مرة أخرى ووقف عند الباب مشعاً متألقاً كالشمس .

وتقدم إليه تركى عجوز يحمل كيساً فوق ظهره : كان مصطفى بابا ، الذى يجمع الأعشاب ويعد المراهم ل مداواة الجروح ، والذى يعالج اليرقان والقوية ويشفى من الرقى الشريرة ، ويظل ينتقل بين القرى اليونانية والتركية وهو ينادى : " طب ممتاز ، وأدوية مفعولها لاخييب .. وحياة طويلة " ثم يخرج من كيسه - حسب نوع المرض - حبوب العرعر ، والخربق الأخضر ، والسذاب ، والشيبية والماندراجورا : كان رجلاً مباركاً ينتقل مداوياً دون أن يأخذ على عمله أجراً سوى أن يأكل كسرة خبز أو يشرب جرعة ماء ويكتفى بهذا من الحياة .

وعندما أبصر نورى بك ، أمام الباب ، توقف وأخذ ينظر إليه بفزع وسأله نورى بك ، وهو يبعد الكلب ويشده من سلسلته المربوطة بعنقه .

- ماذا أصابك يا مصطفى بابا ؟ لماذا تنظر إلى هكذا ؟

وانحنى الرجل العجوز وقال فى اعجاب :

- أنت اليوم غاية فى الأناقة يا نورى بك ..

ثم أضاف فى صوت خاشع ..

- أكثر من اللازم

وضحك نورى بك ، فقال الرجل العجوز :

- لاتضحك يابك ، إن هناك حدوداً للرجال والنساء ، وخرق هذه الحدود

خطيئة ..

- أناقة فائقة ، وعطف بالغ ، وشرف مكين .. هل ذلك كله خطيئة
وتنهذ الرجل العجوز :

- إنها خطيئة يابك .

- كيف ؟ لست أفهم ذلك يامصطفى بابا ؟

- ولا أنا ياولدى ، ولكن ، هكذا قانون الخالق ، كن حريصاً يانورى

ومرة أخرى رفع يده إلى صورة ثم إلى شفتيه فجبهته وقال :

- الى اللقاء يابك .

وتراجع بضع خطوات .. ثم توقف . وضحك نورى بك .

- هل تريد شيئاً يامصطفى بابا ؟ هلا تناولت الإفطار على مائدتى

- لست جائعاً يانورى بك .. معذرة ، ولكن فقط ..

- ولكن ماذا ؟ تكلم بصراحة يامصطفى بابا ..

- أود أن أقول شيئاً ، ولكنك ستضحك .

- أنت رجل مبارك . تكلم فلن أضحك .

- لطح وجهك بالدخان وارتد ثياب كل يوم وانتعل حذاء مرقعاً ! كان لدى

حذاء مرقع .. ودع جانباً غدارتيك الفضيتين .. خفف من أناقتك يانورى

وانفجر البك ضاحكاً .. وارتسم الأسف على وجه الرجل العجوز النحيل

وغمغم يقول :

- طالما أن الله فوقك ، فلا تضحك يانورى بك !

ثم انحنى مرتين .. واستأنف سيره .

وعاد نورى بك تياًهاً بنفسه إلى الفناء حيث كان جواده ينتظره ، وكات

الخادم العجوز تمسك بحقيبة سرح مليئة بالأطعمة وشراب الليمون ، وأحـا

نورى بك بصره حوله ورأى البيت يتلألاً كأنه حديث البناء ، وأشجـ

الزيتون واللوز والرمـان مثقلة بالثمار ، وأشجار التين تنتشر عريـضـ

بأوراقها الداكنة الخضرة ، والبيغاوات تنفض ريشها فى أقفاصها وسـد

عرائش الكروم .. ولا هبة ربيع واحدة .

وتردد قلب نورى بك لحظة . إلى أين سيذهب ؟ ولماذا ؟ لماذا يتـر

وراء كل هذه الهبات الالهية ؟ كانت ضيعته جنة لا ينقصها شىء . ثم !

المرأة سوف تلين وترق ، وسوف تعود .. وسوف يردد الفناء أصداء
ضحكاتها المتألقة ، وسوف ينضج الزمان وتزداد حلاوة التين وتضع
البيغاوات بيضها فى حجم اللوز لتفقس أفراخا ذوات أجنحة صفراء
خضراء وردية .

وتنهذ ! ورات الخادم العجوز سيدها . كانت تتبعه كظله يوما بعد يوم
وساعة بعد ساعة . لقد تربي على يديها ، وهى لم تتزوج ولا عرفت فى
حياتها رجلا .. ولكنها لم تندم يوما على ذلك ، فقد كان هذا الرجل بالنسبة
اليها زوجا وابنا .. وكان بالنسبة اليها ايضا .. إلها ! لم ترفع يوما بصرها
لتسأله ، فكل ما كان يفعله هو الصواب ، وكل ما كان يأمر به هو الحق ..
والسعادة كل السعادة فى أن تطيع وليس أمامها سعادة أفضل من ذلك .
ولكن قلبها اليوم مثقل ، عادت تسأله :

- إلى أين أنت ذاهب ياسيدى ؟

واستدار نورى بك فى دهشة .

- ماذا حدث لك ياأمى الصغيرة ؟ لماذا تسألين ؟

ثم وضع أطراف قدمه فى الركاب وقفز فوق السرج . ووضعت المرأة
العجوز يديها المعروقتين فوق عنق الجواد وغمغمت فى فزع :

- إلى أين أنت ذاهب ياسيدى ؟

وأجابها :

- اهتمى أنت بشئون البيت !

ثم نخس الجواد بالمهماز .

- كان الله معك ياولدى ..

ورأت سيدها ينخس جواده مرة أخرى ويختفى وسط أشجار الزيتون
فضية الأوراق ، وأحست لحظاتها بغصة فى حلقها .. ولكن قلبها رغم ذلك
كان صليبا كالحجارة . وقالت بصوت مرتفع وهى تغلق الباب بالمزلاج :

لقد شرب ماء الخلود .. وهو لايعرف الخوف !

بعد أيام الفصح عاد "مانوساكاس" إلى الحظائر القائمة على سطح

جبل "سيلينا" ، وكانت الحرارة شديدة ، وقد بدأ جز الصوف ، وكان ذلك
يعنى إحتقاراً رائعاً فى الجبال : كان الرعاة يجزون أصواف الماعز والأغنام
ويطلقون النكات وهم يقومون بعملهم ، وكانت النساء يصعدن الجبل
ويشعلن النيران لتسخين الماء الذى ينظفن به الصوف ، وكان
"مانوساكاس" هو وأولاده والرعاة الصغار قد أقاموا فى ذلك اليوم حفرة
خارج الحظيرة وضعوا فيها حملاً ميتاً بكل جلده وغطوها بكمية من الفحم
المتوهج .. وانتظروا حتى ينضج اللحم داخل الأرض .

وأمسك "مانوساكاس" كبشاً ضخماً وضعه فوق ركبتيه وأخذ ينزع
خصلة إثر خصلة من الصوف الملبد وإلى اليمين منه أكثر من عشرين من
الخراف التى انتهى جز صوفها وإلى اليسار منه خراف لم يجز صوفها بعد
وإمامه كومة الصوف تفوح منها رائحة الدهن . وكان "مانوساكاس" يدندن
وهو فى رائق البال ، وهبت ريح باردة من الجبال .

كانت سنة طيبة ، فقد ازداد عدد القطيع . وكان ولداه الاكبران
"تودورس" و"ياناكيس" يعدان الجبن داخل كوخ قريب من الحظيرة
ويضعانها داخل جرار عميقة من النحاس توضع بعد ذلك إلى جوار أكداش
من الجبن الجاف والطرى محفوظة داخل مخازن الجبن الرطبة .. والشكر
لله .. فهناك أسفل السطح فى "آيانى" ، تنمو المحاصيل والكروم .. كما
أن فرسه قد وضعت مهرأ صغيراً .

واستراح "مانوساكاس" قليلاً وجال ببصره حوله .. ثم إلى أسفل فى
السهل : بلى .. الأرض مثل الأرنبه ، دائماً حبلى فالحيوانات فيها حبلى ،
والأشجار حبلى ، والنساء حبلى .. كريستينا ! كوني فتاة لطيفة واحضرى
لى شيئاً من شراب الليمون أبرد به جسدى ! .

وكانت زوجته كريستينا تقلب النار وسط الحظيرة . كانت لاتزال إمراة
قوية العضلات ثابتة المفاصل والعظام .. ولكنها كانت زاوية مجففة ! .

ولم يكن فى مقدورها بعد أن تنجب أطفالاً .. ومن أجل ذلك كانت تشكو
إلى الله ، فالنساء لا يستطعن الانجاب إلا بعد أن يتعدين سن السبعين !

كانت تردد ذلك وهي تشكو إلى الله . ولقد تريد واحدة من النساء أن تنجب
دستتين من اطفال حتى يهدأ بالها ، ودستتان من الاطفال عدد يكفى !
عشرون ولداً ، وأربع بنات ، وعندما يصبح لها أول حفيد ، ينتابها شعور
اشبه بدغدغة النوم ، وترسم علامة الصليب وتبتهل : ياإلهى .. أه لو كنت
إلى جوارك وأنت سبحانه تخلق هذا العالم ! إذن لكنت قد كشفت لك عن
أسرار لايعرفها إلا نحن النساء .

وسمعت صوت زوجها .. وأجابته على الفور :
- بكل سرور ياعزيزى "مانوساكاس" . هل تريد شيئاً تأكله ؟ لقد
اعددت بعض لحوم الضأن .
- هاتيها معك .
وبدأ يأكل وهو سعيد بالدنيا .. ثم مالبث أن سمع وقع حوافر .. وصوت
حجارة تتدحرج .

من ياترى يأتى الى الجبال فى هذا الوقت ممطياً صهوة جواده ؟
ونهب "مانوساكاس" فى دهشة وقمه لايزال ممثلاً بالطعام ونظر عبر
الحائط الحجرى للحظيرة وهو يحجب بيده ضوء الشمس عن عينيه .. ورأى
جواداً أسود يتسلق الجبل فى خطوات قصيرة والحجارة تتطاير إلى
الجانبين منه .

وقفز "مانوساكاس" وهو يغمغم :
- عاقبنى الله إذا كنت أكذب ، ولكنى اعتقد أنه هو نفسه الكلب فنورى !
ثم اتجه مندفعاً إلى الحظيرة وتوقف عند مدخلها :
- إنه يريدنى !
وبقفزة واحدة أصبح داخل الحظيرة وأخذ حقييته من فوق الحائط ،
وكانت زوجته قد عادت تنحنى فوق الوعاء وهي تؤجج النار تحته . ولم
تلاحظ شيئاً .

وأخرج هو من الحقيية سكيناً قصيرة ثبتها إلى وسطه ، وشد الحزام
جيداً ثم جذب عصاه المصنوعة من خشب البلوط وعاد ليقف عند مدخل
الحظيرة .

وكان الفارس فى تلك اللحظة قد تجاوز السنديانة الضخمة ذات الأوراق الكثيفة والتي تقف داكنة وحدها . وكان يضع حول رأسه عصاية رأس بيضاء والغدارتان تلمعان تحت أشعة الشمس ولم يستطع مانوساكاس أن يميز جيداً وجه نورى المستدير المتألق بشاربه الاسود .

وعاد يقول :

- انه يريدنى ! مرحباً إذن بالكلب ، إذا كان قد جاء لهذا ونادى زوجته :
- كريستينا ! أعدى المائدة فقد جاءنا ضيف !
وتناهى اليه صوت زوجته من الداخل وهى تسأله فى دهشة :

- من ١٩

وأجاب "مانوساكاس" :

- شيطان ! قلت لك أعدى المائدة !
وتقدم ليستقبل الفارس . ورأه "نورى" فرفع يده .. ومن بعيد تناهى صوته المتقطع الساخر :

- طاب يومك ياكابتن "مانوساكاس" .

- مرحباً ياكابتن "نورى بك" .. من تريد ؟
وأجابه "نورى بك" ضاحكاً وقد برقت أسنانه وانقبضت وجنتاه :
- أريد الكابتن "مانوساكاس" .. هل تعرفه ١٩

وبرقت عيناً "مانوساكاس" فى غضب .. ولكنه تمالك نفسه وقال :
- ومن ذا الذى لم يسمع عن أعماله البطولية ؟
وحاول أن يضحك ولكن شفته العليا وحدها التى تحركت وكشف عن أسنانه .. ثم استطرف يقول :
- منذ أيام قليلة مضت فحسب ، أدخل حماماً إلى المسجد ليشارك المصلين .

- أنا أيضاً سمعت بذلك . أخبرنى به طائر نحس ، وقد جئت خصيصاً لأرى هذين الكتفين اللذين حملا هذا الحمار .
- ولكنك لن ترى كتنفى يانورى بك ، فلا تفكر فى ذلك ، مانوماساكس لا يكشف عن كتنفيه .

وضحك نوري وهو يقول :

- عندما يرى الخطر محدقاً به فسوف يكشف عن عجزه وليس فقط عن

كتفيه !

ثم الهب بسوطه اذن الجواد فتراجع مستجمعاً قوته وقفز نحو مانوساكاس الذي لم يتحرك من مكانه ولكنه أحس بالدماء تجري في رصغيه وثبت مكانه .. إن نوري بك قادم لزيارته . فصبراً إذن ! وشد قبضته ، ولم يستطع ان يكبح جماح لسانه :

- لم يستطع كلب بعد ان يعضني إلا إذا كان مجنوناً يانوري بك .. فانتبه

جيدا لنفسك .

- ولكنني وحش مفترس يامانوساكاس ، ومن ثم فلست أحب أن اتغنى

بمدائح عن نفسي .. إنني أظل صامتاً .

- حسن ؟ فلماذا جئت إذن الى مملكتي ؟ ماذا تريد ؟

وعض نوري بك شاربه ولم يقل شيئاً . وظل "مانوساكاس" ينظر اليه بدوره وهو واقف مكانه دون أن يقول شيئاً ، ولكن قلوبهما كانا يدقان .. ويكادان يقفزان خارج صدريهما .

وأخيراً قال نوري بك بصوت هادئ بطيء يزن كل كلمة :

- مانوساكاس .. أنت أهنت تركيا إهانة بالغة .. ويجب أن تدفع الثمن .

- كنت أسلى نفسي ! فدع إذن جامع الضرائب يحضر وحدد أنت

مايجب أن أدفعه له .

- لقد حضر بالفعل .

- أنت ؟

- نعم .. أنا ، تركيا التي أهنتها . هي التي أرسلتني . ومن العالم الآخر

تلقيت رسالة من أبي الذي اغتالته قبيلتك . هناك حساب ضخم سوف

نسويه مع قبيلتك يامانوساكاس . منذ يوم أو يومين اقتحم أخوك مقهى

تركيا وأخرج منه الأغوات . ان ميجالوكاسترو تصرخ طالبة الثأر . وربما لا

أمس أخاك بسوء - فهو شقيقى بالدم - ولكنني سأمسكك أنت .

وتحسس مانوساكاس حزامه وإطمأن على الخنجر ، وقال :

- فلنبتعد قليلاً عن هذا المكان ، حتى لاتسمعنا الزوجة .. ثم إن أبنائى أيضاً داخل الكوخ .

وترجل نورى بك ، فقد رأى أنها ليست رجولة منه أن يظل ممتطيا صهوة جواده بينما عدوه راجل على قدميه . ولف زمام الجواد حول ذراعه .
- هيا بنا ..

وتحرك الاثنان .. وأخذ الجواد يصهل بشدة وهو ينثر الحجارة بضربات حوافره .

كانت السكينة تلف الجبل ، والشمس فى كبد السماء ، وكان أبناء مانوساكاس خارج الحظيرة مع الصبية الرعاه قد كشفوا الحفرة وأخرجوا الحمل المشوى الذى كان قد نضج تماماً ، وأحاطوا بهم : بعضهم جلسوا القرقصاء والبعض الآخر انحنى جالساً على ركبتيه ، وبدأت أسنانهم تعمل كالطواحين ، والوعاء الخشبي يدور من فم إلى فم ولا أحد منهم يعير الجبل اهتمامه . حتى الأغنام التى تخفتت من الصوف ، كانت هى الأخرى قد انتشرت فى الظل وقد خرجت السننتها وأخذت تحرق فى دهشة فى أصوافها المجززة .

وتوقف الرجلان عند شجرة السنديان الطويلة كثيفة الأوراق ، وألقى كل منهما بنظرة خاطفة إلى الأرض المنبسطة حول جذعها الضخم .. وقالوا معاً :

- المكان هنا يصلح ..

وربط نورى بك جواده إلى شجرة سنديان أقصر من الأولى وإلى جانب منها فى مكان لا يستطيع الجواد أن يرى منه شيئاً مما سيجرى ، أما "مانوساكاس" فقد نظف المكان من الحجارة والأغصان الرقيقة المتساقطة ، وحين عاد "نورى بك" أسعده أن يجد المكان نظيفاً وقال :

- لقد أحسنت تنظيف المكان فأصبح الآن كافياً .

- نعم .. إنه كاف جداً . ونستطيع أن نقيم فيه وليمة إذا نحن أردنا ، ونستطيع أيضاً إذا نحن أردنا أن يقتل أحداً الآخر ، فأيهما تختار يانورى ؟

وأجابه نوري بهدوء :

- أن نقتل ، فالشرف يطلب ذلك يامانوساكاس .

- نعم .. فإن أحدهما لايجب الآخر .

وردد نوري بك بهدوء :

- هيا نقتل ..

- كما تشاء

وشد حزامه أكثر حول وسطه ، وشمر أكمامه ، بينما شد "نوري بك" عصابة الرأس البيضاء ، وأخرج مسدسيه من جرابيهما الجلديين وعلق أحدهما فوق أحد أغصان الشجرة ، بينما أمسك بالثاني ، وكان "مانوساكاس" يراقبه .

- علقه جيداً ، فانا أحب هذين المسدسين ، وسوف أخذهما لنفسى

بمجرد أن اقتلك .. كذكراك !

وأعد نوري بك مسدسه للإطلاق ، ووقف "مانوساكاس" فى مواجهته

دون أن يتحرك . وقال "نوري بك" :

- مانوساكاس .. بالأمس مرت قبيلتك بضيعتى وتوقفت أنت وأخرجت

مسدسك وأطلقت فى الهواء وأنت تقول لى : إننى أطلق النار على درعك

"يانورى بك ! وما أنذا أقبل التحدى .. ولو تخطفنى الموت !

وأطلق رصاصة مرت فوق رأس "مانوساكاس" ثم شب واقفاً على

اطراف أصابعه وعلق المسدس بجانب الآخر .. والدخان لايزال يتصاعد

من فوهته .

أوخذ كل منهما مكانه فى مواجهة الآخر وقد باعد مابين ساقيه .. وغلى

الدم فى عروقهما .. وانتظرا . وحاول كل منهما أن يثير الآخر بالسباب

والتعريض ، ولكن ذلك لم يكف لتهيئة الإثارة الكافية .. وأخيراً قال

"مانوساكاس" :

- قد يحضر إلى هنا الكابتن "ميخائيليس" ليتعامل معك ، هل تذكر كيف

أمسك بك يوماً من حزامك ورفعك فوق السطح ؟ ولكننى أنا أيضاً سوف

أقذف بك الآن بنفس الطريقة .

واندفع إلى الامام ليمسك الآخر من وسطه ، ولكن "نورى بك" راغ منه ، وخطا خطوة إلى الخلف ثم اسئل خنجره ذا الحدين ، وأخذت عينا الاثنتين وهما ترميان بالشرر :

- كافر !

- كلب !

وقفز نورى الى الامام رافعا خنجره ، ولكن "مانوساكاس" انحرف جانباً حتى كاد نورى بك يسقط على الارض ، واندفع مانوساكاس منحنيًا نحو نورى بك وضربه فى بطنه برأسه ضربة كادت تفقده وعيه ولكنه تماسك واستجمع قوته . وبينما كان غريمه لايزال منحنيًا ، دمع بالخنجر عميقاً فى جسده .. وطلقت العظام ! وانبتق الدم غزيراً ليلوث "نورى بك" وهو يخرج الخنجر من جسد "مانوساكاس" وأطلق نورى صيحة فرح طاغ وهو يلحق حد الخنجر بشراة حتى كسا الدم شفثيه واحيته :

- هذه من أجل والدى ، إننى أثار لدمه .

وانحنى "مانوساكاس" وهو يتمايل مستنداً إلى جذع الشجرة ، غمغم يقول :

- كلب ! .. لقد نلتنى .

وأجاب نورى

- لقد انتهى الحساب .

ثم بدأ يقترب فى خطوات وثيدة متعرجة مثل الأسد ، وقد أخذت خياشيمه ترتعش .

وغمغم "مانوساكاس" .. وهو يحس بأن قواه تخور وتمنعه من الاندفاع إلى خصمه .

- اقترب من هنا .. اقترب من هنا ..

وأثار صوته نورى بك .. فاقترب أكثر وقد رفع خنجره ثم صاح هادراً :

- وهذه أخرى .. ضربة أخرى فى القلب يا كافر ، من أجل تركيا التى

اهنتها أنت وأخوك الكابتن "ميخائيليس" .

وعندما أصبح أكثر قرباً منه ، قفز كالبرق ليغرس الخنجر فى قلب عدوه ،

ولكن "مانوساكاس" انحرف جانباً فاصطدم الخنجر بجذع الشجرة وتحطم

، واستجمع مانوساكاس ماتبقى لديه من قوة ودفع سكينه القصيرة عميقة
فى الجسد الآخر .. وإلى الأسفل .

وصرخ البك مثل الثور .. ولكنه غالب الألم ، وانتزع السكين من يد عدوه
التي كانت قد شلت تماما .. ثم صاح وهو يفرسها فى قلبه :
- من أجل تركيا !

وانهار مانوساكاس أسفل جذع الشجرة .. ومرت بخاطره كالبرق
الخاطف صورة زوجته كريستينا " وصور أطفاله ، والحظيرة والقطيع ..
وفجأة غطت عينيه سحابة سوداء داكنة ، لم يعد يرى شيئاً ، وتهاوى وسط
بحيرة من دمانه .

وتوقع "نورى" بجانبه والدم يتفجر من سرواله ويسيل إلى الأرض إلى
جانب رأس "مانوساكاس" وأحس فجأة بالألم رهيباً تعذبه ، فوضع كلتا
يديه فوق خصيتيه الداميتين وهو يهدد ويجيل البصر حوله ، وكانت
الشمس تميل إلى المغيب والجبل قد إمتلأ بأصداء أجراس القطعان ..
وهبت الريح .

وصاح نورى وهو يحاول النهوض على قدميه :
- يارب .. يارب ، ساعدنى على الوصول إلى جوادى لكى ابتعد عن هذا
المكان ! .

وتشبث بجذع الشجرة ، ووضع غدارتيه الفضيتين فى منطلقته ، وتناول
عصا مانوساكاس ليستند إليها ، وألقى عليه نظرة وهو يحاول أن يركله
بقدمه ، ولكن الألم منعه عن ذلك فاكتمى بأن بصق عليه وهو يغمغم :
- لقد بررت بقسمى ، ولكنك أنت أيضاً نلتنى أيها الكافر !

ووضع يده اليسرى بين فخذه وهو يئن :
- كان أفضل لى لو أنك طعنت قلبى أيها الكافر !
وفتح مانوساكاس إحدى عينيه الداميتين الكابيتين ، وتحركت شفاته
داكنتا الزرقة يحاول أن يتكلم ، ولكنهما تجمدتا وبقيتا مفتوحتين ، واتجه
نورى إلى جواده متعثراً يئن من شدة الألم ، وتناهى صوت أنينه إلى سمع
الحيوان فاستدار وقد برق بياض عينيه .

آه لو اننى استطعت أن أمتطى صهوته وابتعد ، مصطفى بابا لديه من الأعشاب مايشفينى .

ورسم الدم خلفه خيطاً . وبدأ الظلام أمام عينيه حالكاً بعد أن أدرك جواده ، ثم انهار بجواره . واحنى الجواد رقبته يتشمم سيده - عنقه وشعره وظهره ، ثم مالبت أن رفع رأسه الذكى وصهلل كأنما يطلب المساعدة .

وحاول نورى أن يرفع قدمه إلى مستوى الركاب ، ولكنه لم يستطع وكاد الألم يغيب به عن وعيه ، وتهوى قريباً من قائمى الجواد الذى تطلع إليه برأس خفيض ، ثم مالبت أن أدرك مايريده سيده ، فتحرك إلى الامام ثم ركع بقائمه فوق إحدى الصخور .. وعاد ينظر إلى سيده الذى أخذ يتعثر .. ووجهه فى المقدمة حتى استقرت ذراعه حول عنق الجواد ، وبدأ يتحامل حتى استطاع أن يرفع جسده وساقيه فوقه ويستقر فوق السرج . وظل يجز على أسنانه لكى يكون قادراً على تحمل الألم ، ولكنه لم يستطع أن يفتح مابين ساقيه حيث الجرح الدامى .. ومن ثم أخذ فوق ظهر الجواد وضع السيدة حين تمتطى صهوته ، وبدأ يربت عنق الجواد وهو يغمغم :

- إنهض .. إنهض يا شقيقى ! ابتعد عن هذا المكان .. على مهل .. على مهل ..

وتحرك الجواد وهو يراقب الأرض فى عناية وحرص حتى لايتعثر ، ويتجنب الحفر ، والأماكن المنحدرة وهو يهبط التل فى غبش المساء . كانت الشمس قد غابت خلف الجبل حمراء دامية . وثمة بضعة نسوة يصعدن الجبل ليزرن رجالهن ، وعندما أبصرهن نورى جز على أسنانه ورفع رأسه عالياً .. ولكن الدماء كانت تسيل فوق السرج وتنحدر إلى بطن الجواد ثم إلى الأرض الصخرية لترسم أثراً فوقها دامياً .

كانت ساعة مباركة زالت فيها الحرارة وأصبح أديم الأرض أكثر انتعاشاً ولاحت نجمتان أو ثلاث فى كبد السماء ، وتراقصت ذبالة مصباح من كوخ عند سفح الجبل ، وتناهت منه اغنية ، ثمة أم تهدد طفلها فى رقة لكى ينام ، وكان نورى بك قد اغمض عينيه فلم يعد يرى شيئاً . ولكنه كان يسمع

طنين الحشرات عالياً كالأجراس .. تشبث بزمام الجواد ، إلى أين ؟ إنه يعرف طريقه ، وسيده على ثقة كاملة به .

وتوقف الجواد أمام باب بيته الريفى ، وفتح نورى عينيه وصاح ، وهرع الخدم وحملوه إلى الداخل ، ومدده خادمه العجوز فوق الأريكة التى سرعان ما اكتست ملاءاتها بالدماء .. وحرك نورى يده وهو يهمس :

- مصطفى بابا .. مصطفى بابا ..
ثم تهاوى مرة أخرى إلى الوسائد .

وكان الليل قد أوغل قبل أن يصل مصطفى بابا إلى البيت لاهث الانفاس وهو يحمل فوق كتفه كيساً مليئاً بالأعشاب والمراهم . وجاء الخدم بالمصابيح والشموع . وانحنى مصطفى بابا فوق نورى بك وهز رأسه . وظل نورى بك ممدداً فاقد الوعي مغلق العينين .. ووضع الرجل العجوز بضع قطرات من خل الورد داخل أنفه .. ومسح صدغيه . وفتح البك عينيه ونظر إليه وسأله فى صوت مرتعش :

- هل سأعيش ؟

وأجابه الرجل العجوز :

- أنت بين يدي الله .. وهو قادر على شفائك .

وسأله نورى فى رعب :

- ومن أيضاً ؟ ألا يستطيع أحد ؟ ألا تستطيع أنت يا مصطفى بابا ؟

- الجرح بالغ يا نورى بك .. وفى مكان حساس .

وصاح نورى بك :

- اللعنة !

وقال الرجل العجوز :

- لاتكفر .. إن الله هو الذى وجه السكين حيث أراد سبحانه أن تستقر

وهمس البك فى تعاسة وهو يحدق فى الرجل العجوز فى ذعر :

- لماذا .. لماذا .. لماذا ؟

ولكن الرجل العجوز لم يجب . لقد كان يحس بأن شيئاً ما سيحدث منذ

أن رأى البك فى الصباح واقفاً فى لالئة أمام مدخل البيت .

- لا تتحرك .. ولا تسأل ، إذا كنت تريد أن يتحسن حالك .
 وغسل الجرح وأوقف النزيف ووضع الأربطة ، ثم أخرج من كيسه
 قبضة من الأعشاب أعطاها للخادم العجوز لكى تغليها ، وكانت تلك جرعة
 لينام نوري بك ، ثم صرف الخدم جميعا وفتح الكيس مرة أخرى وأخرج
 زجاجة وبعض المراهم .. وكانت الخادمة العجوز تراقبه وهى تبكى :
 - مصطفى بابا .. هل جرح سيدي خطير ؟ ألن يشفى ؟
 وغمغم الرجل العجوز : - يمكن أن يشفى .. لكن ماذا سيصنع
 بالحياة بعد ؟

- ماذا سيصنع بالحياة ؟ .. لماذا تسأل هذا السؤال يا مصطفى بابا ؟
 وينظر الرجل العجوز حوله ثم قال بهدوء :
 - لن يصبح رجلاً بعد اليوم .
 وصرخت المرأة العجوز وهى تغطى وجهها بكلى يديها .

وفى اليوم التالى ، وقف الكابتن ميخائيليس أمام مدخل دكانه والشمس
 فى مطلع شروقها .. وظل يحدق تجاه بوابة الميناء وكانت السفن لاتزال
 تشحن وتفترغ بينما أمواج البحر حمراء داكنة الحمرة ، ولكنه لم يكن يرى
 شيئاً ، كانت نظرفته مقصورة على ذاته هو ، كان جسده قد ازداد ارتخاء فى
 الأيام القليلة الأخيرة ، وفمه مغلقاً مليئاً بالمرارة ، وكان المارة من الأتراك
 يحدجونه بنظرات شريرة ، وكان كثيرون من أصدقائه المسيحيين يتجنبونه
 ، كانوا يعرفون أن قوة سوداء تملك عليه أعماقه ، ولم يكن أحدهم ليجرؤ
 على الاقتراب منه .

وأخرج الكابتن ميخائيليس صندوق الطباقي من حزامه وهو يحس بأنه لا
 الخروج فى جولة فوق صهوة فرسه .. ولا الخمر نفسها يمكن أن يعيدا
 الهدوء اليه .. ولا حتى سجاثره التعتة ، أشعل سيجارته . وجذب بضعة
 أنفاس ثم بصق فى ثوره . انها لتسمم فمه أكثر وأكثر ، والقى بها الى
 الأرض وسحقها وهو يغمغم : الى الجحيم أنت ايضا .. ثم استدار ليدخل
 الدكان ويجلس هناك حتى ينتهى اليوم فيغلقه ويهرب .

وفجأة ظهر "تيودوروس" الابن الأكبر لمانوساكاس ، وقد كساه الغبار

وتصيب عرقه والجم الرعب لسانه ، وتوقف أمام عمه فاغر الفم وأخذ يحدق فيه وهو يحاول عبثاً أن يتكلم .. ولكن قلبه كان مثقلاً .. وأنفاسه لاهته . وجذبه الكابتن ميخائيليس من ذراعه وهزه بعنف وهو يقول :

- تكلم !

وانحنى فوقه وقد قفزت إلى خاطره صورة أخيه مانوساكاس .

- لقد قتلوا أبى ياعمى !

- من ؟ .. من قتله يا ولد ؟

- نورى ..

وترك الكابتن ميخائيليس ذراع ابن أخيه ، ودفع بإبهامه بين أسنانه بعضها فى ضراوة حتى ليحس بملوحة الدم فوق شفثيه .

- متى يا ولد ؟ وأين ؟ استرجع أنفاسك !

واسترجع "تيودوروس" أنفاسه وأخبره وسط دموعه ولعناته أنه عثر على أبيه فى المساء ملقى تحت شجرة البلوط الضخمة ، وقد أصيب بجرحين غائرين ، أحدهما فى جنبه والآخر فى القلب تماماً ، وأن إمرأتين صعدتا للجبل فى مساء الامس - زوجة "حاجى جورجوس" وابنته - وقالتا إنهما قابلتا "نورى" متشبهتاً بجواده صاحب الوجه مرهقاً ، وأنهما وجدتا آثار دماء على طول الممر الجبلى .

وظل الكابتن ميخائيليس صامتاً بضع لحظات ودون أن يتحرك من مكانه ، ولبث يحدق فحسب الأرض وهو ينصت إلى مايقوله ابن أخيه وأحس بأنه يستطيع أن يرى شجرة البلوط الضخمة فى الفراغ وقد تمددت عند جذورها جثة ضخمة مهيبية ملطخة بالدماء ، وعندما اكتملت تلك الصورة أمام عينيه ، رفع رأسه ، وجذب ابن أخيه من كتفه وقال : هل أنت امرأة حتى تعوى هكذا ؟ الأبواب لاتزال مفتوحة وأمامك وقت كاف لأن تعود إلى القرية . قل لهم : انتظروا .. ولاتدفنوه وأنا قادم .

وعندما خلا إلى نفسه ، عاد إلى الدكان وأخرج منه "شاريتوس" فلم يكن يريد أن يراه أحد فى تلك اللحظة ، وركل بقدمه المقعد الذى تعود أن

يجلس فوقه فتناثر حطاماً .. وارتدى فوق لفة من الحبال وقد ضغط رأسه بقبضتيه . وضاعت معالم الدكان من أمام عينيه بل وضاعت "ميجالوكاسترو" كلها .. ولم يعد منتصباً أمام ناظريه سوى شجرة البلوط ، داكنة .. براقة تحيط بها الاشواك ، ويتمدد عند جذورها جسد أخيه "مانوساكاس" . لم يكن ميتاً أمام ناظريه ولم يكن دماً ذلك الذى يسيل من جسده .. ولكن كان خمراً ! .. كان يصفق بيديه ويغنى : قريبا سوف يحضر الموسكوف ! .

وهز رأسه ثم نهض واقفاً وقد استقر على رأى . أغلق دكانه ودرس المفتاح فى حزامه . ولم يسر فى الطريق العريض ، ولكنه اتجه عبر الأزقة الضيقة فى الحى اليونانى التى مالبثت أن قادتته إلى الحى التركى ، وكانت العوانس الثلاث بعيداً لحظتها عن ثقب التلمص .. فلم تره واحدة منهن وتوقف أمام الباب الأخضر ، وسرد نظره كالصقر الى أعلى الدار : الى الحوائط العمياء .. ثم اخترقت نظره الشرفة الصغيرة بستانرها المسدلة . ولكنه مالبث أن اشاح ببصره عنها وقد انتابه الغضب والتقرؤ وكأنما أحس بأنه قد دنس نفسه .. وعاد ببصره الى الحوائط الصماء . لم يكن مهتماً فى ذلك المساء بالنساء والشرفات ، ولكن روح البازى فى صوره كانت تحوم فوق راس "نورى" وهى تتلهف على أن تنشب مخالبتها فى عينيه ورأسه .

وملاه فجأة سرور وحشى . وأحس أن روحه انطلقت وتحررت ، وأن جسداً مختلفاً تماماً قد احتل كيانه .. جسداً رجل ، جسداً لايتزين ولا يتألم ولا ينضج برائحة المسك .. جسداً ينضج برائحة عرق الرجال . واتجه الكابتن ميخائيليس إلى بيته وعيناه تقدحان شراً .. وظل يفمغم طوال طريقه : أخى .. مانوساكاس أخى مانوساكاس .

وهبط الليل .. وتلايلات النجوم ، وتآلق قمر نصف فى كبد السماء . وغلقت البيوت فى "أى جانى" أبوابها .. وانطفأت المصابيح فى الدور واحدة إثر أخرى .. وغرقت القرية فى الظلام . ولكن باب بيت "مانوساكاس" ظل وحده مفتوحاً على مصراعيه .. وظلت المصابيح بداخله موقدة وفوق نعيش فى وسط الغرفة الرئيسية ، كان جسد رب البيت معمداً

من أجل حفل الجناز . كان قد تم غسله بالنبيذ ، وكفن بالكتان .. ورسم بالشمع صليب فوق شفتيه ، ووضعت أيقونة صغيرة "للمخلص" فى يديه المصلوبتين . وكان ثمة مصباحان كبيران مضاءان ، أحدهما عند قدميه .. والآخر عند رأسه . وكانت عيناه مفتوحتين تبدوان كالزجاج ، فلم يكن هناك وقتها من يسبل جفنيه وهما لاتزالان دافئتين وقبل أن يستعصى ذلك .

ومنذ الصباح ، كان الأقارب والأصدقاء يتوافدون ، ومع العويل والنحيب دقت الأجراس تعلن حضور الموت المفزع ، ومن "أى جانى" ومن "بييتروكيغالو" ... ومن كل القرى المجاورة كان المسيحيون يتوافدون ليقبلوا الجسد .. ويودعوا "مانوساكاس" .

وكانت زوجته "كريستينا" قد ارتمت فوق الجسد تنتحب وتضرب صدرها بيديها ، وكانت الجارات قد جئن أيضاً - الأرامل ، والامهات التى سرق منهن ملك الموت أبناءهن ، والفتيات اليتيمات - وكلهن أعاد الأحران إلى قلوبهن مرأى الزوجة المكومة ... فأسدن شعورهن وشاركن فى المصيبة . وجاء "سيفاكاس" العجوز من "بييتروكيغالو" سائراً على قدميه .. مدججاً بالسلاح كما لو كان ماضياً إلى الحرب . كان يحمل غدارات من طراز عتيق وسكيناً ذات مقبض أبيض ، وشاحن البارود الذى كان يملكه أبوه بفتحة الواسعة . وتوقف عند مدخل البيت بلا حراك وقد رأى ابنه مسجى فوق نعشه .. ثم تقدم نحوه ماداً يديه الضمختين ليمسك بيدي الرجل الميت .. ويقول :

- كل شيء على مايرام يا "مانوساكاس" ، ولكنك تعجلت .. كان الدور دورى أنا .. فأحمل سلامى إذن إلى من سبقونى . قل لهم إننى قادم أيضاً .

ثم جلس عند مدخل البيت لحظات .. وقف بعدها ، وعاد صامتاً ، بعينين جافتين .. متجهاً إلى قريته . وهذا العويل والنحيب شيئاً فشيئاً ، فقد بدأت أجساد الناعيات تحس بالتعب .. وبدأت كل واحدة منهن تجد السكينة والراحة فى الكلام والإعياء

..وتسللن ، واحدة إثر أخرى .. كل إلى بيتها لتأكل وتنام ! كن لايزلن أحياء ، وغدا ينتظرهن عمل شاق جديد . وحزن الآخرين هو فى البداية والنهاية حزن الآخرين وحدهم ! بل لعله أن يكون أحيانا مصدر سعادة حين يضرب الغدر ضربته فيوجهها للجيران دونهن ! وهكذا فلم يعد باقياً داخل بيت "مانوساكاس" سوى اصدقاء ثلاثة فحسب ، أخوه "فانوريوس" رجل المراعى ، وابنه بالعماد "سترايتس" ، رجل قوى الجسم فى الخامسة والثلاثين من عمره ، من سلالة صحيحة البنية .. ذولحية مدببة وشفتين دقيقتين وجبهة عريضة . كان غريباً من "كيسامو" يبحث فى مقاطعة "لاسيثى" عن سوق "كروستالينا" ، وهناك كان القدر قد هيا له فى الانتظار فتاة من "أى جانى" رأها ترقص فأحبها قلبه .. وتزوجها ووضع "مانوساكاس" يديه اكليم الزواج فوق رأسيهما .. وبعد تسعة أشهر أنجبت الزوجة طفلها الأول وتم تعميده ، وهكذا أصبح "مانوساكاس" أباً وأخاً فى العماد ، أما الثالث فكان "باتاسموس" عازف القيثارة آخر سلالة من عائلة مستها السحره ! كان أبوه قد أنجب تسعة من الأولاد ، وكان هو آخرهم - أنجبه فى شيخوخته . ولكنه كان رجلاً يتحرك بداخله سخط الله . لم يكن فى مقدور أحد أن يجاريه حين تبدأ مساجلات الهجاء فى الاسواق .. فما إن يصيبه أحدهم بضربة فوق معصمه حتى يبدأ أشعار الهجاء . وكان يعرف كل أسرار الآخرين وأوجه الضعف فيهم ، ومن ثم فقد كان الذعر يستبد بالرجال والنساء عندما يتوسط حلقات الرقص ويضع القيثارة فوق ركبتيه ، ثم يسرد نظراته الى الواحد منهم بعد الآخر قبل أن يفتح فمه ويبدأ فى الانشاد . وكان يعيش بمفرده كفارس عجوز .. تن أن يهتم به أحد ، كان الأول والأفضل عند كل سوق أو عرس أو حفل تعميد أو شراب ، وكان الجميع يتسابقون فى دعوته إلى الولائم والمجالس حتى يسلم من لسانه ، وكان يعرف باسم "باتاسموس" أو "بعلزبول" (كبير الشياطين - المترجم) و"الحربة" و"الدبور" ! وكان قد وصل بالأمس إلى "أى جانى" من أجل تعميد الابن الثالث لـ "سترايتس" ، ولكن الذى كان فى انتظاره هو الشر والموت الذى كان يقيم بدوره هناك .

كان "باتاسموس" صديقاً لمانوساكاس لايفارقه ، وطالما افرغاً سوياً

زقاق الخمر .. وأحالا الخراف المشوية إلى هياكل عظمية . كان يحبه .. ولم يحاول مرة أن يسخر منه أو يهجوّه .

انحنى ينظر الى الجسد المسجى .. ثم تنهد وقال :
- حقا .. إن الرجل ليس أكثر من مئانة - تنتفخ وتنتفخ ، ثم فجأة -
هههههه .. تنفجر وتذهب إلى الشيطان ... أقصد .. إلى الجنة .

.... قالها بسرعة يصحح كلماته ! فقد أحس بالخجل أمام الجسد وأحنى
"سترايتس" رأسه دون أن يقول شيئاً ، بل أخذ منديل و أخذ يهش به
الذباب بعيداً عن أنف الميت وشفتيه . أما "فانوريوس" فقد وقف واضعاً
ذراعه حول كتفى "كريستينا" يساعدها على الوقوف .. ولم ينس طبعاً أن
يرفع باليد الأخرى بقية الحاضرات :
- إلى الخارج يانساء .. هذا يكلى ! إلى الخارج والزمن الصمت
ياشقائى النحس . نحن الثلاثة سنحرس الجنة طوال الليل .

وانفجرت النسوة متحدات فى صرخة واحدة محاولات المقاومة ، ولكن
الراعى رفع مخالفه وساقهن مثل القطيع إلى ركن داخلى بالبيت ، ثم عاد
وجلس الى قدمى الرجل الميت .

وظل الثلاثة يحدقون فى جسد القتيل دون أن ينطق أحدهم بكلمة ، فقد
كان كل منهم يفكر ، سترايتس فى زوجته .. وفى بقلته التى ابتاعها أول
أمس واتضح له أنها غاية فى الوحشية ، ترفس دائماً .. وقد تقتل أحد
أولاده يوماً ما . أما "باتاسموس" فقد كان ينشئ فى ذاكرته قصيدة
جديدة ، ترنيمة هى مزيج من الحقيقة والكذب .. كيف أن "مانوساكاس"
صارع سبعة من الأتراك وقتل منهم ستة !

وأما "فانوريوس" فقد كان الجوع يستبد به . وكان قد رأى فوق حائط
حجرة الكرار فى منزل شقيقه بعض نقائق لحم الخنزير معلقة فى الركن الى
جوار "حمدانة" صغيرة من شراب الراكى . كما أن كريستينا كانت قد
أعدت أمس خبزاً لايزال إلى اليوم طرياً فى السلال ينشر رائحته اللذيذة

... وإمتلا فمه باللعب وعيناه لاتزالان مثبتتين على الجسد وعقله مشغول بالتفكير كيف يدير الحديث فى اتجاه النقانق والراكى ؟ !

كان الليل قد انتصف ، وثمة ربح شمالية بدأت تحرك أوراق أشجار الليمون فيسمع لها حفيف فى فناء الدار وتبرد أجفان حراس الميت . وكانت النسوة قد أخذن إلى الهدوء . وبدأت بومة فوق السطح تنعق ، كما بدأت كلاب الجيران تنبح وهى تتشمم رائحة الموت .

وكان "فانوريوس" قد بدأ يحس بوخز الجوع فى أحشائه ، ولم يكن قد استطاع أن يصل بعد إلى طريقة يدير بها الحوار نحو النقانق والراكى . وفجأة انفجر صارخاً :

- يارفاق .. مارايكم ؟ لقد وقع بصرى على بعض حبال النقانق وعلى "جمانة" من الراكى فى الكرار . مارايكم فى أن نشرب من أجل خلاص روحه ؟

وتسائل "باتاسموس" وهو يحك بطنه التى بدأت تضطرب :
- ولم لا ؟ الموتى وحدهم هم الذين لايشربون . هيا يا "فانوريوس" والله معك ! هيا الى الكرار ! مارايك يا "سترايتس" ؟

- أمام الجسد ... اليس ذلك خطأ ؟
- أولا .. نحن سوف نشرب خارج الحجرة ، لا لشيء إلا لكى يمنحنا الشراب القوة حتى نواصل حراسة الجثة إلى الصباح . ثم إننا سوف نشرب من أجله هو ... هيا يا "فانوريوس" .. اسرع إلى الكرار بالله عليك !

وكان "فانوريوس" قد نهض بالفعل ، وأمسك بالمصباح الذى كان يضىء عند قدم الميت واتجه نحو الكرار ... ثم مالبت أن عاد يحمل فى يديه حبل النقانق وجمدانة الراكى ، ويعلق أيضا فى حزامه ثلاثة أقداح . وقفز "باتاسموس" وقطع بضع أطوال من حبل النقانق واتجه بها الى ساحة الدار حيث أوقد ناراً ليشويها ... وأصبحت رائحة الدنيا أحلى !!

وقال "باتاسموس" وهو يلف القطع المشوية اللذيذة فى أوراق الليمون :

- ناشدتك الله أن تغلق الأبواب يا "فانوريوس" حتى لاتشم النسوة الرائحة وكان "فانوريوس" قد ملأ الاقداح حتى الحافة ، بينما اتجه "سترايتس" إلى الكرار ليحضر رغيماً من الخبز .

وأمسك كل منهم بقدره .. وتلامست أصابعهم بدلاً من الاقداح خشية أن يحدث تلاقيها صوتاً .

وقال "سترايتس" : بارك الله روحه ..

وقال "باتاسموس" : فى صحته ياأصدقاء ! ونحن أيضا !

وقال "فانوريوس" : اشربوا فى جرعة واحدة . لقد أرسل الله الجمدانة من أجلنا - ملأى الى نصفها . وداعاً يا شقيقنا "مانوساكاس" .

وشربوا حتى آخر قطرة ، ثم بدعوا يأكلون النقانق . واستل "فانوريوس" مدية الرعى وقطع الرغيف الى ثلاث قطع .. وكانت الشهية قد أصبحت مفتوحة تماما ، فبدعوا يشوون البقية الباقية من النقانق بينما أحضر "فانوريوس" جبناً أبيض من الكرار ، وأخذ يداعب الجمدانة وقال "باتاسموس" :

- فلنشرب فى صحة الأرملة ، كم أنا حزين من أجلها . وسوف أنظم قصيدة لها .

- فى صحة الأرملة !

وشربوا وقال "سترايتس" :

- وفى صحة الكابتن "ميخائيليس" ! هو الذى سوف ينتقم لدم أخيه .

فى صحته !

وقال "فانوريوس" :

- هيا يا أصدقاء ، هيا نشرب فى صحة كل من نعرفهم ، سواء اكانوا

موتى أو أحياء !

وشربوا فى صحة الأقارب ، ثم الأصدقاء ، ثم الموتى من الآباء ، ثم فى صحة الجيران .. وبعدها بدعوا يشربون فى صحة مقاتلى كريت العظماء - كوراكس ، حاجى ميخائيليس ، كزياريس ، داسكالويانييس ... وشربوا وبعدهم شربوا ثلاثة أقداح فى صحة دير "أركادى" .. ثم مالبتوا أن

رجعوا إلى عام ١٨٢١ وشربوا في صحة "لولولوتروينس"
و"كاريسكاكيس" و"مياوليس" و"أوديسوس أندروفوس" وفرغت
الجمدانة أو كادت وقال "باتاسموس" مستنداً إلى قليل من التعليم :
- فلتشرب في صحة هيلاس القديمة
وقال "فانوريوس"

- نخب كئيب

وقال "سترايتس" معارضاً :

- هذا غير صحيح وحق المسيح .

- بهدوء .. بهدوء ، وهمس وإن يسمعنا أحد ، هكذا ثم بدأ يقلد

حركة قوس الرياب في الهواء .. وهو يغنى في رقة :

- يا عديمة الوفاء ، فيك ..

تتلالاً حمرة الشفق

وردد الاثنان وراءه بسرعة :

- تتلالاً حمرة الشفق

حينما قبلتك ، وحين قلت لى

الوقت ليل .. والليل وقت الحب

وصاح "سترايتس" بعد أن أغلق فمه وتوقف عن الغناء فجأة :

- أهذا هو الشعر الذي نظمته في الأرملة ؟ ألا تخشى الله ؟ .. ألا تعرف

أغنيات مقدسة ؟

- تريد أغنيات مقدسة ؟ بكل سرور !

واستدار إلى الرجل الميت .. ورسم علامة الصليب ، ثم بدأ : هلم الى

القبلة الأخيرة ... وما كان يبدأ حتى غلبهم البكاء .. وانهاروا جميعاً فوق

الجسد .. يقبلونه وسط دموعهم .

وردد البيت أصداً ترنيمات الصلاة . وفتح باب أطل منه رأس امرأة

معصوب . ولكن "باتاسموس" أشار إليها غاضباً .. فأختفت على الفور .

ثم أحس الثلاثة أن النحيب طال بما فيه الكفاية ، فنهضوا واقفين صفاً

أمام الرجل الميت ينظرون اليه وقد احسوا بأنهم أكثر راحة . وبأن قواهم قد تجددت بفعل "الراكى" والنقائق .. والبكاء . ويصق "فانوريوس" فى راحتيه ، وقال وهو يشير إلى عيني الرجل الميت :

- يا أصدقاء ... هلا قفزنا من فوقه ؟

وصاح "سترايتس" و"باتاسموس" معاً :

- نعم الرأى ! هيا نقفز من فوقه !

وجذب كل واحد منهم أطراف سرواله حتى تصبح سيقانه طليقة ، ثم رفعوا النعش ووضعوه فى ساحة الدار ليتسع المكان أكثر ..

وقال "فانوريوس" :

- أنا أولاً .. فهو شقيقتى !

واتخذ مكانه بالقرب من الباب المؤدى إلى الشارع ، ثم عاد ييبصق فى راحتيه وانطلق يعدو حتى إذا أصبح قريباً من جسد الميت . ، قفز قفزة واسعة حتى ارتطمت رأسه بخشبة الباب العليا دون أن يحس هو بذلك .. ثم توقف فى منتصف الحجرة ، وقال مزهوا :

- لقد قفزت من فوقه .. هذا دورك يا "سترايتس" !

وانطلق "سترايتس" يعدو بجسده الممشوق وقفز فوق الجسد ثم استقر على أطراف أصابعه .

- جاء دورك يا "باتاسموس"

ولكن قلب "باتاسموس" اهتز .. وظل يحدق فى النعش .. كيف بحق الشيطان يمكن أن يقفز المرء إلى هذا الارتفاع ؟ .. وقال فى خوف :

- لن أقفز ..

وصاح "فانوريوس" :

- ألا تخجل من نفسك يا كابتن "دبور" ! أنت كريتى أم لا ؟ إقفز !

- لن أقفز .. قلت لكما . أنا عازف قيثارة فحسب .

- ليس لديك إحساس بالشرف أمام الميت .. أيها الوثنى ؟ إنها إهانة !

أم أن هذه هى كل حدود صداقتك و"مانوساكاس" ؟ إقفز حتى ولو سقطت فوق الأرض ميتاً .

وحك "باتاسموس" صلخته ، وتذكر كم كان يحب "مانوساكاس" واستيقظ فيه الإحساس بالشرف ، فصاح :
- حسن ، سوف أقفز ! هوب ! هوب !
قالها يحاول أن يمنح نفسه الجراءة ! ثم بدأ يعدو ليصل إلى أقصى سرعة مطلوبة ولكنه ما أن أصبح قريباً من رأس الرجل الميت حتى خيل إليه أن النعش قد ارتفع فأصبح يطاول السقف ! وتعثرت ساقاه في قوائم النعش .. وانتقلت قوة اندفاعه إلى الجسد المسجى فتدحرج إلى الأرض ووراءه "باتاسموس" نفسه .

وقال "فانوريوس" :
- لقد أهنتنا .. قم إذن وأحلق لحيتك .
ثم ركله بقدمه وهو يصيح :
- "سترايتس" ! .. تعال وساعدنى !

ورفعاً جثة الميت وأعاداً لفها في أكفانها من جديد ، ثم وضعها داخل النعش المفتوح بعد أن ثبتا الأيقونة مرة أخرى في يديه .

وقال "فانوريوس" وهو يمر بيده على شعر أخيه وإحيطته :
- يا أخى .. مهما كان الأمر فانت الآن ميت ، ولم يلحق بك ضرر من هذا الذى حدث .

ثم انحنى والتقط الجمدانة ورفعها إلى شفثيه ، وكانت لاتزال بداخلها بقية من "الراكى" ، وشرب الثلاثة ، وعادوا فجلسوا حول جثة الميت .. وبدأت رموسهم تميل إلى صدورهم ، وأجفانهم تسبل شيئاً فشيئاً ، حتى احتضنهم النوم .

وفى اليوم التالى - وقبل أن ترتفع الشمس كثيراً - كان الكابتن "ميخائيليس" قد وصل إلى ساحة دار "مانوساكاس" وقد ارتدى قميصاً أسود ، وانتعل حذاء أسود برقبة ، وعصب رأسه بعصابة سوداء وكأنه ملك الموت ، وأزاح النساء جانباً وهن مجتمعات حوله ينتحبن ، ثم اتجه إلى الداخل وقبل الرجل الميت وظل واقفاً أمامه يحرق فيه فترة طويلة . وكانت

النساء من الجارات قد أحضرن من الحقول فى ذلك الصباح ، زهور البازلاء والحبق والنعناع والمرجريت وغطين بها الجسد المسجى .

وظل الكابتن "ميخائيليس" واقفا يحدق فى أخيه دون أن يتكلم ، وكذلك كان الرجل الميت يحدق فى الكابتن "ميخائيليس" بعينين مفتوحتين ، بينما وقفت كريستينا وأولادها وبنااتها ، و"فانوريوس" و"سترايتس" و"باتاسموس" والجارات .. فى دائرة حولهما ينظرون جميعاً إلى الأخوين : كيف يتحادثان معاً بلا كلمات .

واستغرقت تلك المحادثة الصامتة الفريدة لحظات طويلة ، حتى إذا أحس الكابتن "ميخائيليس" بأن أحزانه اشتدت ، دخل إلى المنزل واجتاز المطبخ الى الساحة ، وزار الحظيرة ، ولمس قطع الرجل الميت وفرسه ، ثم اتجه إلى غرفة نومه ورأى السرير العريض وطقم السلاح والصور المقدسة ، ثم اتجه ببصره عبر النافذة إلى أسطح القرية التى تقزم فى وسطها كنيسة القديس جون الصغيرة ووراءها تلوح "بتروكيغالو" قرية أبيه التى تقع فى حوض الجبل السامق . كان الكابتن ميخائيليس يحتضن أخاه من كل جانب .. يحتضنه فى خياله .. ويستحضره فى مخيلته فى أعماق نفسه . وبدأ يهمس مرة بعد أخرى خلال تجوال بصره : وداعاً ياأخى "مانوساكاس" .

وجاء القس ورفع النعش .. وتشبثت به النساء يحاولن منع الخروج به وتهاوت "كريستينا" الى الأرض مغشياً عليها . وبينما كانوا يحضرون الماء والعطر لافاقتها من اغماستها ، كان حاملوا النعش قد اجتازوا عتبة الباب .. واقتربوا من المدافن الخضراء فى أقصى القرية .

وتوافد الرجال والنساء من "بتروكيغالو" والقرى الأخرى المجاورة - الرجال مدججين بالسلاح ، والنساء فى السواد - ليلقوا نظرة الوداع على كبير القرية الذى هوى . وغادر الأتراك قرى المنطقة يوم الدفن . وأخذت النساء يمزقن شعورهن ، ويحكين الحكايات عن فضائل الرجل المقتول بينما وقف "سيفاكاس" العجوز قابضاً الرأس المزدوج لعصاه .. ثم سار خلف رأس الرجل الميت وقد جفت الدموع فى عينيه . كان يدرك تماماً مايقصده ملك الموت : فليس هناك مايدعو إلى التوسل إليه وهو الذى

لايمك أن يجدى المخلوقات نفعا ، فهو الموت ، جامع الديون .. الدواء الذى يبعث به السلطان ، الذى يجلس فى السماء ويمسك بسجلات الضرائب ! . وهكذا فقد سار فى طريقه بلا كلمة أو دمة ، ضاريا بعضاه الحجارة .. حتى توقف أمام حفرة القبر بلا إحساس .

وردد القس الكلمات الأخيرة أمام القبر فى عجلة ، ثم رفع يده مانحاً البركة وتناول قبضة من التراب ألقاها فى القبر أنزل الجسد بعدها .. وانحنى الجميع ليتناول كل منهم بدوره قبضة من التراب يهيلها داخل القبر .

وتقدم الكابتن ميخائيليس الى حافة القبر .. وقال فى صوت خفيض وقد برقت عيناه دون أن تدما : وداعا يا أخى "مانوساكاس" ولتسمع جيداً ما سأقوله لك . لاتزنى فى نومي لتتهمنى وتثيرنى . أنا أعرف واجبى جيداً ، فلا تقلق .

ثم صمت لحظة يفكر ... ولكنه لم يجد شيئاً جديداً ، فعاد يقول :
- أنا أعرف واجبى ... فلا تقلق وكن صبوراً !

وأحس فجأة بأن قلبه قد ثقل .. فصاح :

- وداعا "مانوساكاس" !

وقبل أن ينفذ الجميع ، كان هو قد عاد وحده الى دار "مانوساكاس" ، وهناك امتطى صهوة فرسه . وفى ذات اللحظة أسرع نحوه "تيودورس" الابن الأكبر - "مانوساكاس" ولحق به عند الباب المؤدى إلى الطريق ..
وسأله وهو يتشبث بزامم الفرس :

- الديك أوامر لى ياعمى ١٩

وانحنى الكابتن "ميخائيليس" قليلاً وهو ينظر اليه .. فعاد يسأله :

- أقصد .. كيف أثار لدمه ؟

- كم عمرك ؟

- سبعة عشر عاما ..

- فابقِ إذن فمك ، عشك !

ثم إنطلق عبر الطريق الرئيسى العريض .. متجهاً إلى "ميجالوكاسترو" .

الفصل السابع

.. ومضى ابريل بما حمل من متع ومخاوف بشرية وبأعياد المسيح .
وجاء مايو بما يحفل به من محاصيل تنضجها الشمس - البطيخ والكرز
وعناقيد الكروم المنتفخة وتلك التي لاتزال قطافاً لم تنضج بعد . وارتفعت
حرارة الجو ، وسال عرق الأتراك والكريتيين معاً ... وجففوا عرقهم فى
النسمات الباردة . وظل "نورى" طريح الفراش وحبيس آلامه . وظل
"مانوساكاس" مخبوءاً فى قلب الكابتن ميخائيليس . وكانت الثورة فى
"ميجالوكاسترو" كوميض النار خلل الرماد ، وفى الليل كان كبار الس
يجتمعون فى المطرانية ليتناقشوا حول الموقف الذى يتهدد اليونانيين
بالخطر ، بينما يجتمع البكوات ورجال الدين المسلمون فى قصر الباشا فى
الظهيرية .. يدرسون انجع الوسائل لسحق اليونانيين .

ومرة أخرى أصبح قدر كريت معلقاً بشعرة .
وفى يوم من آخر أيام مايو - فى التاسع والعشرين على وجه التحديد -
بدأت الأجراس تدق فى رتابة وحزن وسط غبش الشفق ، واستيقظ
المسيحيون من النوم - لقد عرفوا دائماً مايعنيه هذا اليوم من غم للمسيحية
- واتجهوا إلى الكنيسة . وفى وسط الكنيسة وفوق صينية ضخمة ،
استقرت كعكة تذكارية علق على جانبيها مصباحان كبيران مجلّان بالسواد
، ورسم على طبقة السكر الرقيقة التى تكسوها باللوز والقرفة إسم رجل
ميت : قسطنطين باليولوجوس ، فقد كان ذلك يوم ذكرى وفاته . وفى صباح
يوم مظلم كهذا قتله جنود السلطان وسقطت القسطنطينية فى أيديهم .

وأحاط المسيحيون بالكعكة وهم يستمعون الى الموعظة الجنازية

وتجمع أشهر أبناء ميجالوكاسترو فى ذلك المكان . فقد كان هناك الثلاثة الكبار - الكابتن الياس . وحاجى سافاس .. وبقّة الورد ، معهم الكابتن بوليكيسيجيس ، وشاريلاوس القزم ، والمتقف ايدومينياس ، وستيفانيس قبطان البحر ، وكاساپاكيس الطبيب وارسطوطاليس البقال ، وخلف هؤلاء وقف الأقل أهمية : ديمتروس ، وكراسوجورجيس ، وماستراهاس وكاجابيس وفيندوسوس ، وفوردجانوس وبتروودولوس ، والسنيور هارسكيفاس الحلاق .. وقد وقف معهم الباكون : العامة .

حتى الكابتن ميخائيليس كان موجوداً - ولكنه لم يدخل الكنيسة ، وإنما إكتفى بالوقوف فى الغناء مرتدياً قميصه الأسود .. وفى حنايا أضلعه قلب أسود ، فهو لم يكلم إنساناً منذ شيعت جنازة أخيه ، وكانت دماؤه لاتزال تغلى ، وكان عقله لايزال بالضغينة يدير آلاف الأساليب ويفكر فى آلاف الفرص التى يستطيع أن يقتنص بها "نورى بك" ويثار للجريمة التى اقترفها : فلم يعد نورى بك بالنسبة اليه شقيقه بالدم ، فقد استحال ذلك الدم الى ماء وانقطع الخيط الاحمر الذى كان يربط بينهما . وكان قد عرف أن نورى بك أصيب بجرح بالغ وأنه لايزال فى ضيعته الريفية يغالب الموت ، وكان قد أرسل "على أغا" إلى هناك ليتجسس ويوافيه بأخباره بعد أن يسترق السمع بين الخدم ويعرف ما إذا كان جرحه خطيراً حقاً وما إذا كان لايزال طريح الفراش . ولقد عاد اليه "على أغا" فى ذلك اليوم لاهث الأنفاس يحمل آخر الأنباء : "تلك هى الحقيقة ياكابتن ميخائيليس ، إن الرجل المسكين مصاب بجرح خطير" .. "أين ؟ .. وكيف عرفت ذلك ؟" ... "فى الخصيتين ياكابتن . ويبدو أن أخاك قد طعنه فى هذا المكان ، وقد دهن مصطفى بابا الجرح وضمده ولكن الألم يعذبه حتى ليظل يئن ليلاً ونهاراً . وقد سمعت أتيته بنفسى وأنا بالباب الرئيسى ياكابتن" وأصيب الكابتن ميخائيليس لحظتها بخيبة أمل . فهو لن يمسه بسوء طالما هو على هذا الحال ، وعليه أن ينتظر إذن حتى يستعيد نورى قوته ، ترى هل سينتظر طويلاً ؟ إنه كفى عجلة .. ولهفة ! وإنه ليعذب عقله كل ليلة . وحين سمع نحيب الاجراس فى هذا الصباح قرر أن يذهب إلى الكنيسة "سوف يلقي تيتيروس خطاباً ويجعلنا أضحوكة أمام الناس" ، وارتنى ملابسه فى

عجله وأسدل ذؤابات عصابة رأسه فوق عينيه فلم يكن يريد أن يرى أو يحى أحدا ، ترى أيمكن أن تكون لدى هذا المدرس الصغير - قطعة الجبن - أدنى فكرة عما يمثله سقوط القسطنطينية وعن معانى البطولة والنضال ؟ .

واستند الى نافذة بالمدخل يستطيع من مكانه عندها ان يرى المطران من فوق رموس الحاضرين وهو يجلس مرتدياً الملابس السوداء وقد لف حول قبعته وشاحاً أسود طويلاً .

وفجأة انتهت طقوس الاحتفال بالذكرى ، وأشار المطران الى "تيتيروس" وازداد قلق الكابتن ميخائيليس وهو يرى أخاه يعتلى المنصة المرتفعة ويخرج من جيب سترته الداخلى حزمة من الأوراق .

وبدا "تيتيروس" يتكلم . تنحنج وسعل فى البداية حتى أصبح صوته مسموعاً بالكاد . ولكنه مالئث أن "سخن" شيئاً فشيئاً وامتلا صوته بالقوة والتعبير حتى كادت أبراج القسطنطينية تستبين لأعين السامعين وأصوات أجراس "اياصوفيا" تنتهى الى أسماعهم فى توسل مثير ، وحتى كاد الحاضرون يرون المعركة الأخيرة رأى العين ويتابعون تفاصيلها : المعركة التى ملأت قبور المدينة الواسعة بالدماء ، وبدا كما لو كانت رأى الامبراطور قسطنطين الدامعة تلوح من خلال سحائب البخار حول الصير التى تحمل الكعكة . كلهم رأوها ! .

وجفف الكابتن ميخائيليس دموعه التى سالت فجأة ، وأخذ يتطلع الى أخيه فى ذهول : كيف يمكن أن يختفى هذا اللهب خلف هذه العوينات الزجاجة ، وفوق هذه السراويل الضيقة .. وتحت هذه الاكتاف المعقوفة ؟

وعندما انتهى "تيودورس" من إلقاء خطابه مسح عيوناته وأجال بصره فى النسوة الحاضرات واللائى كن يقفن خلف الرجال ، باحثا عن زوجته "فانجيليو" وحين تأكد من أنها ليست بينهن جلس وهو يتنهد بعمق .

واتجه الكابتن ميخائيليس الى أخيه بعد أن انتهى الحفل وقال :

- أنت لم تجلب لنا العار
ولم يسمع "تيودورس" جيداً ماقاله أخوه ، فقد كان اللهب لايزال
مستعراً فى قلبه ... فسأله :
- ماذا تقول ياميخائيليس ؟
وجاءه الجواب :
- لا شىء .

وسار الاثنان بضغ خطوات ، وكان المدرس متعباً وهو يسير فى بطنه فى
الطريق الى بيته بينما الكابتن ميخائيليس ينظر اليه بطرف عينه . كم تغير
منذ أن تزوج ! فقد زاد انحناء ظهره كما بدأت ساقاه تتقوسان .
وسأله فى رقة :
- كيف الحال فى البيت ؟

ولم يجبه "تيودورس" على الفور ، ولكنه ما إن سمع السؤال حتى احس
بان اللهب فى صدره قد زال ... واخيراً قال :
- انها ليست حياة ابدا ياميخائيليس .
- لماذا ؟ ماذا يفعلان بك ؟
- لاشىء ، انهما لايتبدلان معى الحديث ، ولا يلتفتان الى ... ولايقولان
شيئاً ، وعندما ادير لهما ظهرى اسمع ضحكاتهما .
- الست اذن سيدا فى بيتك ؟! أى صنف من الرجال انت ؟ ائذف به الى
الخارج !
- إذا أنا فعلت ذلك خرجت هى معه .

ووصلا إلى بيت "تيودورس" ، وتوقف الكابتن ميخائيليس وهو يسال :
- هل هما معا بالداخل ؟
- إنهما لايفترقان ، انه لم يذهب الى الكنيسة وهى ايضا لم تذهب . اهذه
حياة ياميخائيليس ياأخى ؟

واحس الكابتن ميخائيليس بالأسى من اجله .
- اسمع يامدرس : سوف ادخل الآن واعزف للاثنين لحناً سترى كيف
يتراقصان عليه !
وصاح المدرس فى هلع :
- بحق السماء لاتفعل ، إذا انت فعلت ذلك ضعت انا ! اصبر قليلاً ..

وسوف افعل انا شيئاً .. وسترى بعد ما يكون .
- وماذا سنرى ؟

وآدار "تيودورس" راسه بعيداً وقال :
- سوف نرى
ثم اتجه نحو الباب وامسك بمطرقته . وصاح الكابتن ميخائيليس في
دهشة :

- ماذا ؟ اليس معك مفتاح ؟
- كلا .. إنهما لم يسمحا لي بذلك

وانتزع الكابتن ميخائيليس المطرقة من مكانها بجذبه واحدة ، ثم طوح
بها في عرض الشارع وهو يقول :
- أريد ان ارى معك مفتاحاً ابتداء من الغد ..
ثم اتجه في خطوات متناحلة نحو بوابة الميناء

كان الكابتن بوليكيسيجيس ينتظر في حانوت الكابتن ميخائيليس ، وقد
وصل الى هناك بمجرد ان انتهى الحفل التذكاري ليتحدث معه . وك
موضوع الحديث يبدو امامه صعباً للغاية حتى لقد ظل يذرع المكان جي
وذهاباً . وكان قد ارسل "شاريتوس" ليحضر له قهناً من القهوة ، كيف يما
ان يبدأ دون ان يتوقع غضبه متفجرة من غضبات الكابتن ميخائيليس ؟ |
ليحبه ويحترمه .. وانه لحريص على الا يفقد صداقته ، بل على العكس ،
ذلك إنه ليحرص على ان يقوى اواصر هذه الصداقة ، ومن اجل ذا
سيحدث اليه اليوم . وكان قد ربط قطعة قماش حريرية سوداء بطربوشه
علامة الحداد على فقد ابن عمه "مانوساكس" ..
- اسرع يا "شاريتوس" الى البيت وانظر ما إذا كان عمك هناك . قل له .

وقبل ان ينتهى ، كان الكابتن ميخائيليس عند مدخل الحانوت .. كانت
كلمات "تيودورس" لاتزال تعمل اثرها في صدره ، ولكن كان يثيره اكثر هو
حكاية المفتاح الذى يرفضان ان يحمله اخوه ا .
وحقق في الضيف المبكر غير المتوقع وزم شففيه ... ثم قال في برود :
- صباح الخير ياكابتن بوليكيسيجيس .
- سعيد لرؤيتك ياكابتن ميخائيليس .

والقى الكابتن ميخائيليس جانباً بعصابة الرأس ، وخلع معطفه ثم امسك

بدفتر حسابات كان ملقى فوق المنضدة . واتخذ منه مروحة لنفسه .. ولم يقل شيئاً .

وقال الكابتن "بوليكسيجيس" وهو يحاول ان يكسر الصمت :
- بالشدّة الحرارة ... !

ولكن الكابتن ميخايليس لم يقل شيئاً ، ولكنه اخرج صندوق الطبايق من حزامه وبدا فى بطء وبرود يلف سيجارة ، كما لو انه ليس مستعداً لسماع الآخر . والقى الكابتن "بوليكسيجيس" بعيداً بسيجارته .. وسعل وهو يزيح مقعده إلى الخلف .

- كابتن ميخايليس .. اريد ان اقول لك شيئاً .
- انا منصت ..

- إننى أتوسل إليك بفهم صداقتنا القديمة ياكابتن ميخايليس . ان تنصت فى صبر . قد يطول حديثى حتى تفهم كل شيء .
- انا منصت ...

- لقد حاولت ان اقول لك ذلك من قبل ولكنك كنت تنفجر فى كل مرة ولا تدعنى اكمل حديثى ، ولكن الامر اصبح الان هاما ... فانصت إلى فى صبر ياخى .

- قلت لك إننى منصت .. فلا داعى إذن للمقدمات .

وصاح الكابتن "بوليكسيجيس" فى محاولة للتخلص من الصبى الشرير الذى كان قد اعتلى لغة الحبال .. وارهب اذنيه الكبيرتين !
- شارنيوس .. اسمع ايها الرجل الصغير .. اذهب واحضر لى بعض الطبايق وورق السجائر .

وتزحلق شارنيوس فى تافف من فوق لغة الحبال .. وخرج .
- لدى شيء اريد ان اخبرك به ياكابتن ميخايليس .
- حسن .. فهاته إذن .
- عن أمينه !

- كف عن هذا الحديث المخجل ياكابتن بوليكسيجيس فانت تعرف انه لا يعجبني ، إن حكايا الحب وحديث النساء هو شأنك أنت وليس من شأنى ، لقد جئت إلى هنا فانا إذن لا استطيع طردك . ولكن عليك أن تغير الموضوع .

- انا لا اخجل من الحديث فى هذا الامر ، أرجوك ان تهدأ ياكابتن ميخايليس دعنى اكمل حديثى .. امينة تريد ان تصبح مسيحية .

والتقط الكابتن ميخائيليس حبة لوز كانت ملقاة بالصدفة فوق المنضدة ..
وسحبها بين أصابعه .
- لو أنك كنت من الفرنجة لتحولت هي كذلك ، ولو أنك كنت يهودياً
لتحولت هي الى اليهودية ، حتى المسيحية تجعلها موضوعاً للهزء ؟
- ولكنها تريد أن تكون مسيحية ، وسوف أتزوجها .
- تتزوجها ١٩

وتحرك في تشنج وهو يبصق على الأرض كما لو كان أحس فجأة بالمرض
ورفع الكابتن "بوليكسيجيس" طربوشه - وقد جعله الغضب يحس أنه
كبير كبير ! وسحق الطربوش بين يديه وهو ينظر إلى الكابتن ميخائيليس
الذى كان لون وجهه يتغير .. "فلتثر زوابعك بداخلك إياها اللب العجوز ..
سوف تسمع ما أريد أن أقوله سواء أردت أم لم ترد" .

ووقف الكابتن ميخائيليس وكأنه يعطى إشارة الخروج لضيفه . ولكن هذا
لم يتحرك .

- أنا هنا ياكابتن ميخائيليس لأسالك أن تبعد العروس .
وامسك الكابتن ميخائيليس بلحيته وهو يقول :
- أنا ١٩ إنك لتجعلنى أخجل من هذه اللحية ! عليك "بافندينا روث
الخيال" فهو الذى يصلح لهذه المهمة .. إنه يناسبها تماماً !

وقفز الكابتن بوليكسيجيس واقفا فلم يعد يحتمل أكثر من ذلك ، ووضع
طربوشه مائلاً فوق رأسه وامسك بالمقعد وضرب به الأرض وهو يصيح :
- لقد تماديت ياكابتن ميخائيليس ، أنت رجل .. هذا صحيح ، ولكننى أنا
أيضاً رجل ، أنت قاتلت فى الحرب ، وأنا أيضاً فعلت ذلك ، أنت تقتحم مقاهى
الآغوات وأنت فوق صهوة فرسك ، وأنا اقتحم بيوتهم . والجرأة متوافرة إذن
فى العاملين ! وإذا كنت لاتضحك أبداً فذلك لايعنى أنك رهيب قاس ! وإذا
كنت أنا اضحك فذلك لايعنى أننى مهزار ، وعندما أتكلم عن المرأة التى
أنوى الزواج منها فإننى أتوقع منك أن تظهر ولو شيئاً من الاحترام .

وكبح الكابتن ميخائيليس جماح نفسه ، وحقق فى قوة فى عيني الكابتن
بوليكسيجيس وهو ينصت اليه . ولم يحاول أن يرفع يده ليغلق فمه ، ولكنه
قل ينصت ، وكلما أنصت أكثر .. قلت حدة احتقاره له . لقد كان يحس فى
البداية أنه يود لو أمسك به من قفاه والقى به الى الخارج مع سيل من
الاهانات لو أنه استمر يتوسل اليه ويصفه بأنه أخوه .. ويتمسح فى قطعة

القماش الحريرية السوداء في طربوشه ليستميلة . اما وقد بدا الان يتكلم كالرجال في قوة ، فإن إحساس الأخوة القديم نحو هذا الكابتن المتهور استيقظ في صدره . وعادت امام عينيه ذكريات يوم اقتحما صفوف الجنود الأتراك دون أن يلتفت واحد منهما الى الحلف ليرى ما إذا كان احد يتبعه . ثم إنهما لم يكونا شبيهين من قبل ابدا ، ورغم ذلك فقد اصبحا صديقين وقد قال له الكابتن بوليكيسيجيس يوما وهو يضحك : "انت تريد ان تحرر كريت بالزئير ، وأنا أريد ان أحررها بالغناء" .. ولكنهما افترقا بعد الحرب ، وكان الكابتن ميخائيليس إذا رآه من بعيد أدار وجهه او شامته . ولكنه يراه اليوم رافعا رأسه عاليا .. يقاوم ! ومن ثم فقد عادت الصداقة من جديد . فرفع يده وامسكه من وسطه باصبعين وقال :

- كابتن بوليكيسيجيس .. انت محارب ، وأنا اعرف ذلك جيدا ، لابس اذن ، أنا لا أريد ان أتسلج معك .
- ولا أنا ياكابتن ميخائيليس ، ولكنك في بعض الاحيان تكاد تجعل روحي في انفي .. حتى لاكاد انخر !
- لا بأس الان ..

ثم دفعه بذات الأصبعين نحو الباب .. في رقة ، ولكن في حزم .
وصاح الكابتن بوليكيسيجيس .. وهو يتشبث بالأرض :
- انت تطردني !؟

ولم يكن مستعداً للخروج ، فقد احس بان هناك شيئا لم يقله بعد ويقفز الى شفتيه :
- مازال عندي ما أريد ان أقوله لك ياكابتن ميخائيليس . شيء واحد فقط ثم اخرج .

- حسن .. قللة اذن واسرع ..
- امينة نفسها هي التي ارسلتني لاسالك ان تتفضل بتهريبها .
وانفجر الكابتن ميخائيليس :
- هي نفسها ، هذه الـ

واحس بالتقزز ، فانشب مخالبه في صدر الكابتن "بوليكيسيجيس" وقد اصبح صوته فجأة عميقاً رهيباً .
كفى ! قلت لك كفى ! ولا كلمة واحدة !

وكانا واقفين بالباب ...

وقال الكابتن "بوليكسيجيس" :
ادعو الله ان تندم على هذا اليوم ياكابتن ميخائيليس !
رفع راسه إلى السماء التي كانت تتوهج ببيضاء ناصعة في اشعة
الشمس .

بينما كان سكان المدينة في مساء ذلك اليوم يعلقون ابوابهم ويتحلفون
موائد العشاء ، كان ثمة سيدة تقترب في خطى ثابتة وهي تمسك بمظلة
مفتوحة من باب قصر "نورى بك" .. تدقه . وفתحت المرأة المغربية الباب
الذى كانت تختفى خلفه .. فتحت على الفور وسمحت لها بالدخول .

وقالت العوانس الثلاث اللاتي كن خلف ثوب التلصص "امينة لاتزال
مريضة ، فقد جاءت الان حميدة مولا لتعودها" .

وتقدمت المرأة المغربية واجتازت الساحة وهي تحس بالبهجة
والانطلاق . كانت روحها في حديقة افقد كان الحارس هناك في الضيعة
الريفي يخدم سيده "نورى بك" وكان المصباح الاخضر الاحمر بالتالى
مطفا ركائت الورود والفاكهة تنشر عبقها وسط الظلام بينما السيدة
المغربية ترقص من البهجة لان سيدتها قد اختارت المسيحية . وسوف
تدخل الجنة يوما ما . وإذا كان الرب رحيمًا بها فسوف ينظر اليها هي
الأخرى بعين العطف ويدخلها من ذات الباب الذهبى حتى تستطيع ان
تخدم "تها في الأبدية" .

والآن السيدة الأخرى عبايتها . ورفعت الغلالة عن وجهها . وطوحت
بالمظلة .. وكشفت عن نفسها . وإذا هي الكابتن بوليكسيجيس" !

وقالت المرأة المغربية :

- سيدتى بالطابق الأعلى تنتظرك في شوق ياكابتن ، ولديها شيء ممتع
تريد ان خبرك به .

ولكن كابتن بوليكسيجيس" لم يكن طيب المزاج في تلك الليلة . في
ليال أخرى كان يمازح المرأة المغربية ويداعبها بمجرد ان تفتح له الباب
ويحمل لها شيئا يكون قد احضره خصيصا لها . منديل راس حريري او حزام
مطرز او حتى صندوقا مليئا بالحلوى التركية . او كعكا معجونا باللوز .
ولكنه في هذه الليلة خالى اليدين .. لايتكلم .

وصعد الدرج في ببطء - وكان من قبل يقفز كل ثلاث درجات منه في خطوة

واحدة - وتتبع رائحة المسك لتقوده إلى سرير عشيقته الصغير ..

وسمعت امينة وقع خطاه وهي مسترخية في الحر الشديد نصف عارية فوق الديوان وقد فتحت النافذة المطلة على الحديقة لتجيء نسمة هواء . ترى كيف كان جواب الكابتن ميخائيليس .. هذا الدب المفزع ؟ كان الجواب يغلقها ثم ضحكت فجأة وهي تتذكر الانباء التي حملها اليها مصطفى بابا في الصباح : "لن يصبح بعد رجلاً . سوف يظل حاملاً لحيته ، ولكنه رغم ذلك لن يكون رجلاً . لقد فقد رجولته . لقد تحول نوري إلى نوريانا " ولم تستطع امينة ان تكتم الضحك وسوف يتحول صوته إلى صوت نسائي يامصطفى بابا ؟ .. وهل سيصبح له مع الزمن ثوريان ؟ "ربما" قالها الرجل وقد ادهشه ضحكها "ولكنه على أية حال لن يصبح امرأة" مسكين نوري بك .. صائد النساء الرائع ، اسد تركيا .. يالمصا به ١٩ .. ثم صاحت ضاحكة : ما سيصبح ١٩ .. بغل ١٩ .. ونظر اليها مصطفى بابا في فزع ، ثم التقط كيسه الصغير وانطلق خارجاً .

واصبح الكابتن بوليكي سي جيس " امامها الآن .. وصاحبت امينة وهي تهز كتفها المعطرين :
- مرحبا ياكابتن .. يانجم مسائي ! .. مرحبا يازوجي ، عندي شيء ممتع ساخبرك به .
- وأنا ايضا لدى ما اقله لك .

ثم استلقى إلى جوارها يحتضنها في حرارة ويتشبق عطر صدرها العاري ، واختلت الدنيا . ولكنه كان ثقيلاً وجافاً ، واحست المرأة بثقله .. وتمردت ، ودفعت راسه في رقة ، وقالت :
- اريد اولا ان اسمع مالدك من اخبار . كنت عيوساً عندما قدمت هل رفض ؟

وابتعد بوليكي سي جيس " عنها . وعادت الدنيا من جديد .. بكل متاعبها .
- نعم .. رفض
- هذا الدب المتوحش الملعون ! ولكن لماذا ؟
- لم يقل لماذا ، فقط مزق دفتر حسابات كان ممسكا به ، ثم امسك بي من خصرتي والقي بي خارج الحانوت ، ولكن الغضب جعلني اقول له كل ما اردت ان اقله . ولم اتركه دون ذلك ا .

وضربت امينة الارض بقدمها المخضبة بالحناء وهي تصيح :

- هذا لا يكفي لا يابوليكي سيجيس " ، هذا لا يكفي ، كان ينبغي أن تقتله ! .
وقال الكابتن بوليكي سيجيس " في رعشة :
- اقتله ؟
- بالطبع تقتله ! هكذا يفعل الرجل . لا تكتفى بان ترد الإهانة بالإهانة ..
النساء يفعلن ذلك . اما الرجال فيقتلون !

- الكابتن "ميخائيليس" ؟
- وهل هو إله ؟ إنه وحش مفترس ، وانت تخشاه . الا تخجل من نفسك ؟
ثم امسكت بقميص نومها .. ومزقته من اعلاه إلى اسفله بحركة واحدة .
ولمع جسدها الملفوف الممشوق في ضوء المصباح ، وبرق خيط من العرق
بين يديها .

وقالت في همس وقد انفجرت فجأة في البكاء :
- هكذا اريد ان امزقه . يا إلهي !
وتالم الكابتن بوليكي سيجيس " وحاول ان يحيطها بذراعيه ليهديء من
غضبها ، ولكنها تصلبت بذراعيها ولم تدعه يقترب منها ، وتكومت في ركن
الحجرة مثل الوحش المفترس . وكانت قد كفت عن البكاء وبدات الضحكات
العالية الجافة تهز جسدها هذا .

ثم بدات تضرب الحائط بقبضتي يديها الصغيرتين وهي تقول :
- بوليكي سيجيس " ، لاد احتقرني نوري منذ اليوم الذي رايت فيه الكابتن
ميخائيليس يكسر كاس الراكي الى نصفين باصبعيه ، الامر الذي لم يقدر
نوري على الاتيان بمثله .. فحذار .. حذار ان تدفعني إلى ان اسامك ، إن
الرجل الذي يحتضنني لا ينبغي ان يكون له شبيهه .

- انا لا اريد .
- بل انت لا تستطيع .
- لا اريد .

وأصبح هو الذي يديق الأرض بقدمه وقد تحول لون وجهه وهو يسرد إلى
أمنية نظرات حادة كالسكين .

ورأت المرأة ثورته فأحسست بالسعادة ، وانسابت رائحة نفاذة من عرق
الرجل وجسده المهتاج ، وارتعشت خياشيم أمانة في بهجة .
- يافارسي ، ياكزى ، دق الأرض واغضب .. فهكذا أريدك دائماً ..
٢٥٥

وفتحت له ذراعيها ..
ومع الكابتن "بوليكسيجيس" انهارت الدنيا كلها فوق صدر أمينة ،
وعندما نهض الرجل مرة ثانية بعينين مطفأتين وشعر مبتل .. كان كأنما
خرج بأنفاسه المتقطعة من قرار بحر مظلم .

وقالت "أمينة" فى تودد وارتياح وهى تربت على جسده :
- يا حبيبى .. يا زوجى .. يابطل
وتمدد الكابتن "بوليكسيجيس" مستنداً بظهره إلى الحائط وهو ينظر
إلى المرأة بعينين نصف مغلقتين مترعتين بالنشوة ويسمع فى نفس الوقت
ضجة المدينة ونباح الكلاب وأغنيات مسافرى الليل ، ولحظتها قال لنفسه :
"لاشئ فى هذه الدنيا يعادل المرأة" ، وأحس بالسعادة وشكر الله على
أن هيا لجسديهما معا مثل هذا التوافق . وضحك فى ارتياح وهو يداعب
ذراعيها الملفوفة ويقول :

- "أمينة" لاتقلقى سوف نعر على رجل آخر أفضل ليتولى تهرييك .
- ولكنك لم تسألنى عن الأنباء التى أريد أن أخبرك بها . هل نسيت ؟
- وكيف يمكن أن أتذكر وأنت تتمدين هكذا أمامى والنهار يوشك أن
يطلع ؟

وضحكت "أمينة" ثم همست فى أذنه ببضع كلمات صاح
"بوليكسيجيس" على إثرها وعيناه محدقتان : "يا إلهى ياللمسكين !"
ولحظتها أحس بالاشفاق على الرجل السوء الحظ ، وبأن ضحكة
"أمينة" ضايقة . ونهضت "أمينة" وأطافت المصباح .
.. ولكنه نهض جالساً فى مكانه .. وظل يحرق فى الظلام .

كان السيد "إيدومينياس" فى طريقه إلى بيته بعد أن انتهى الحفل
الكنسى ، وكان قد ارتدى فى هذا اليوم ثيابه السوداء ووضع شريطاً أسود
حول قبعته وآخر عريضاً بعض الشيء حول كم سترته . كان فى حداد .

وكان الوقت يقترب من منتصف النهار حين وصل إلى بيته وجلس إلى
مكتبه وقال لخادمتة "دوكسانيا" : "لن أكل اليوم .. لا الآن ولا فى المساء

، أنا صائم ، ثم أمرها بالخروج من الحجرة والنقط قلمه وأخرج ورقة .. وبدأ يكتب وهو يتنهد بعمق . وكانت رسالته اليوم مكتوبة كلها بالحروف الكبيرة وبالحبر الأحمر .. فالحكام فى المدن الكبيرة يكتبون أيضا بالحبر الأحمر ، وهو اليوم كأنما يكتب باسم "قسطنطين بالايولوجوس" الذى أقيمت من أجله احتفالات اليوم بالكنيسة .. وإلى الملكة "فيكتوريا" ملكة إنجلترا .. ابنة عمه العزيزة "فيكتوريا" ..

لقد مرت اربعمئة وست وثلاثون سنة منذ أن قتلت .. وأنا الآن فى التراب مدفون أنتظر العدالة على يد الملكة المسيحية للعالم العلوى . فإلى متى سأنتظر ياعزيزتى فيكتوريا ؟ .

وانحدرت دمعتان كبيرتان فوق الورقة .. وأوقفناه عن الكتابة . لايمكن أن يرسل الى الملكة رسالة كهذه ! وأخرج ورقة أخرى ، وكتب بيد ، بينما كانت اليد الأخرى تمسك بمنديل يجفف به دموه ويمنعها من التساقط فوق الرسالة . وظل يكتب .. ويجفف دموعه .. وهو صائم ..

وعندما حل وقت النوم ، جاءه صديقه "تيتيوس" الذى مر به نهار كنبيب هذا اليوم .. فعندما تركه الكاتب "ميخائيليس" وجد هو زوجته وشقيقها جالسين فى فناء البيت وقد أعدا المائدة وبدأا يتناولان إفطارهما المكون من القهوة واللبن وبعض بسكويت الفصح .. ويضحكان .. وحياهما ، ولكنهما نظرا اليه دون أن يرذا التحية . ولم تنهض زوجته .. ولم تحضرله قدحاً . وبدأ الاخ وأخته يغمزان أحدهما للآخر ويضحكان .

وأغلق "تيتيوس" على نفسه حجرته . لايد أن تكون هناك نهاية لذلك كله . وإنه ليحس بالشجاعة بعد ذلك الخطاب البطولى الذى القاه اليوم فى الكنيسة . ولايد أن يخرج الآن اليهما فى نشاط ويطرد هذا الطفيلى "هذا البيت هو القسطنطينية بالنسبة لى ، وهو الأتراك .. وأنا قسطنطين ا" .

وأسرع فى ضجة يهبط الدرج إلى ساحة البيت . وبدأ يصيح وذقنه ترتعش :

.. علام تضحكان ١٩ .. كفا عن الضحك ا

واستدارت المرأة وهى تضع يدها فوق فمها حتى لا تنفجر مرة أخرى بالضحك ونظر اليه الأخ نظرة جانبيه وهو يتثأب ، وكان لا يزال فى ثياب النوم عارى القدمين لم يحلق ذقنه بعد . وسأله فى استهزاء :
- وهل الضحك ممنوع يا مدرسى ١٩

ورد المدرس :

- لا يحق لك هنا أن تتكلم ، أنا سيد هذا البيت !
وتملكته الشجاعة .. فأخذ يدق الأرض بقدمه وهو يقول :
- .. وأنا أريد مفتاح البيت ، فسيد البيت هو الذى يحتفظ بالمفتاح وقال "ديمانديس" فى دهشة وهو يمد ساقيه ويضعهما فوق مقعد أمامه :
- هيه ! وماذا أيضا يا مدرسى ؟

ثم استدار إلى أخته وهو يشير بإبهامه إلى المدرس الذى كان واقفاً خلفه وقد امتقع لون وجهه .. وقال :
- انظرى الى هذه الذبابة !

وأمنت "فانجيليو" على كلماته بسيل من الضحكات ، وصاح "تيتيروس" وهو يندفع نحو زوجته ليغلق فمها :
- علام تضحكين أيتها المخلوقة التى لا تخجل ١٩

ولكن الأخ ، ركل المقعد جانبا وقفز ليساعد أخته وهو يهدر :
- انزل مخالبك يا مدرسى وإلا رميت بك الى الأرض .
ثم لوح بقبضته فوق رأس "تيتيروس" الذى تراجع وعاد "ديمانديس"
يلوح بقبضته متوعداً وهو يصيح :

- أخرج من هنا ! أخرج وإلا عجنتك عجنأ . ياللقاحة ! تريد أن تمثل دور السيد وتطلب المفتاح ؟ أنت أيها الثعبان ذو العوينات ؟ أنت ياهزيل ؟
.. أخرج من هنا وإلا أعطيتك السيقان التى تجرى بها !

ثم خذ به من سترته وأخذ يهزه بعنف ، ثم دفعه إلى الحائط بينما أسدلت "فانجيليو" شعرها الطويل وتناولت مشطها العاجى وبدأت تمشط شعرها فى شهوانية وهى تبتسم وتنظر الى أخيها فى إعجاب وتملا عينها برأى صدره العريض المكسو بالشعر من خلال قميص نومه ، وجسده

التمشوق كشجرة سرو - وتنظر في ذات الوقت باحتقار واشمئزاز إلى زوجها العليل .

وتخلص "تيتيروس" من يدى شقيق زوجته وأسرع الى الباب المؤدى الى الشارع ، ولكنه صاح في زوجته قبل أن يفتح الباب :
- ليست هذه أبدا حياة .. ولابد أن تكون لها نهاية .
وقال "ديامانديس" وهو يبرز صدره الى الامام :
- نعم .. لابد أن تكون لها نهاية ، فانا لم أعد أحتملك يا "تيتيروس" ، لم أعد أحتمل تعثرك بقدمى صباحاً وظهراً وليلاً ! إن البيت لايسعنا جميعا .. لا يسعنى أنا وأنت .

ثم استدار إلى أخته وقال :
- اختارى بيننا يا فانجيليو !
وكادت انفاس "تيتيروس" أن تتوقف ، وهدق في زوجته ، وانتظر .
وكانت "فانجيليو" تمسك لحظتها بأسنانها شريطاً أخضر حريراً . وتمهلت قبل أن تجيب .. مرت بيديها على شعرها تتأكد من نعومته ، ثم ربطته وهزتا حتى انسدل فوق عنقها وإلى ركبتها . ثم قالت :
- أنا لن افترق عن أخى ، حتى ولو كان ذلك يعنى نهاية العالم .

وقال "تيتيروس" :
- هذا يعنى أننى
ثم توقف ...
وهزت فانجيليو كتفيها وضحك "ديامانديس" ضحكة جافة ثم عاد يمد ساقيه ويضعهما فوق المقعد وهو يقول :
- لقد قالت كلمتها .. وصرفتك أيها التافه ، ألم تخرج بعد يامدرسى ١٩

ولم يهدأ "تيتيروس" بعدها إلا لمرأى البحر ، جلس فوق صخرة قريبة من الحائط وأمضى بضع ساعات هناك بلا حراك ، يحدق في امتداد المياه .

وكانت الشمس قد غابت عندما نهض "تيتيروس" من جلسته وتأمل حاله في دهشة . كان الغضب قد زال .. وكانت دموعه قد جفت . كان طوال

تلك الساعات يحدق فى البحر دون أن يفكر فى شىء . ولكن شيئاً ما بداخله كان يتحرك . ووصل أخيراً - بدمه وليس بتفكيره - الى قرار ، لقد كان عاجزاً عن أن يجعله صريحاً واضحاً ، ولكنه أحس .. بأنه فى أمان فى نطاق إصراره وثقته .. ولحظتها همس لنفسه : "كل شىء سيصبح على مايرام ، أنا سيد البيت" .

ثم نهض واستدار متجهاً عبر الأزقة الملتوية بالغرب من الميناء ، واخترق الحى اليهودى ثم توقف عند مكانه الخاص فى المدينة فى مواجهة منزل "إيدومينياس" الكبير وكان ثمة ضوء لايزال يلوح من نافذة صديقه . لابد أنه يكتب رسالة أخرى الى الملكة ! أى ضياع للورق ! سوف أدخل وأتبادل معه الحديث بعض الوقت ، فذلك سوف يهدئنى ويهدئه هو ايضا .

وطرق الباب ، وارتسمت السعادة على وجه العجوز "دوكسانيا" حين رآته .. وقالت :

- إنه لم يأكل شيئاً منذ الصباح ، حاول أن تقنعه بتناول شىء من الطعام حتى يبارك الله لك ! إن الله قد أرسلك الآن !
وكان السيد "إيدومينياس" كذلك سعيداً لرؤية ضيفه ، فقد كان فرغ لثوه من كتابة رسالته ووضع فوق المظروف خاتمه - اثينا المسلحة ، وغدا تكون الرسالة فى طريقها إلى لندن .

... وقال وهو يشير بفخر الى الخطاب المختوم :
- البعض يحاربون بالأسلحة ، أما نحن الاثنان - وثالثنا فى ميجالوكاسترو هو "حاجى سافاس" - فإننا نحارب بعقولنا ، وسوف نحرق كريت .

وهز المدرس رأسه ، فلم يكن يصدق أن كريت يمكن أن تتحرر بكتابة الرسائل وبيقايًا الرخام ، وغطس فوق مقعد مرتفع متعباً وجائعاً . ثم تساءل وهو يتنهد :

- ومن ذا الذى سيحررنا نحن يا "إيدومينياس" ؟
- من ؟! كريت هى التى ستحررنا بمجرد أن نحرقها نحن يامدرس ! إن

سعادتنا الشخصية مرتبطة تماما بذلك . فنحن فى نضالنا لتحرير كريت ،
إنما نناضل أيضا من أجل تحرير أرواحنا .

ولكن المدرس هز رأسه وهو يمسح عويناته من رزاز أمواج البحر ، وظل
"إيدومينياس" يذرع الحجرة وهو يؤكد رأيه :
- هل ترى طريقاً آخر للسعادة ؟ ولكى تتأكد من صدق رأيى فإبنى
أسألك : ما فائدة حديثى معك الآن ؟ أنت حديث الزواج .. ولا تزال غارقاً فى
النشوة ، ولكن سرعان ماسقزول هذه النشوة .. وبعدها سوف تتبع أى
طريق آخر .. أقول لك : إنه ليست هناك للرجال أمثالنا سعادة شخصية ،
فنحن لانجد مثل هذه السعادة إلا فى سعادة المجموع .

ثم توقف وأحس برغبة فى أن يلف لنفسه سيجارة ، ولكنه تذكر أنه اليوم
صائم وفى حداد .. فعاد وأزاح صندوق الطباق جانباً وهو يستمد السعادة
من تضحيته فى سبيل المجموع . ورفع وجهه الطيب المتقضب فى أعزاز
وهو يقول :

- هذا هو السر يا مدرس ! وأنا الوحيد الذى أعرفه فى ميجالوكاسترو ..
وربما "حاجى سافاس" أيضاً .. وسوف تفهمه أنت كذلك فيما بعد ..

ثم توقف مرة أخرى وإن كان قلبه يختلج فى صدره . اليوم ينبغى عليه
أن يتكلم .. فاليوم يفرض عليه ذلك ، ولابد أن يعرف صديقه السر الذى ظل
يحفظ به فى صدره سنين طويلة :

- هل تعرف لماذا أظل أكتب للملكة ؟ لماذا أظل حبيس هذا البيت
الكبير الذى كان يملكه أبى - وكأنتى جثة حية - وأظل أصرخ ! إن كريت
هى التى تصرخ بأفواهنا نحن . أنت ربما تلومنى وتقول : "أنت تصرخ ولا
فائدة ولا من مجيب" .. ولكننى أقول لك : إن الصرخة لايمكن أن تضع
هباء ، فالصوت يسبق الأذن التى تسمع ، والأذن لم تخلق إلا لتسمع النداء
والصراخ ياسيدى المدرس ! ولسوف يسمعون يوماً ما كل الملوك والأقوياء
، الذين أكتب إليهم وإذا لم يسمعوا هم فسوف يسمع أبناؤهم وأحفادهم ..
وإذا لم يسمع هؤلاء ، فإن الله سوف يسمع . وإلا فلماذا يوجد الله ؟! ..
إنه موجود ليسمع ! لاتضحك . نعم ، نعم أنا أعرف أن الكل يتهمنى

بالجنون .. وإننى لأسمعهم يتهايمسون من وراء ظهري : "أى ضياع للورق !" ، فليقولوا إذن مايشاعون ، فما الذى يعرفه هؤلاء عن الله وعن كريت وعن واجب الرجل ؟ إننى أنادى واستصرخ الله من وسط هذا الحطام ، وسوف يسمعنى يوماً ما .. وسوف يتطلع يوماً ما من عليائه الى كريت خجلان من تركه إياها فى العبودية كل هذا الزمن ، وسوف يسألنى - أنا "إيدومينياس" - العفو وقجاة ، ستدق أجراس القديس "ميناس" عالياً .. وسوف ينطلق المسيحيون كالمجانين فى الشوارع المفروشة بالرياحين والغار ، وسوف تنطلق النساء الى الميناء ليحيين ابن ملك اليونان . وسوف يقبل الناس بعضهم بعضاً وهم يصيحون : "كريت نهضت من جديد ! حقاً لقد نهضت من جديد ..

ثم جفف عينيه اللتين بللتهما الدموع .. فقد أراح قلبه . ولكن أفكار المدرس كانت بعيدة عنه ، ولم تمس قلبه شعله صديقه . - ويومها ، سنكون أنا وأنت يا صديقى أوراقاً ذابلة جافة .. وسوف نموت بعيداً ولاندرك هذا اليوم ... يوم الخلاص .

وضحك "إيدومينياس" .. وقال لصديقه فى إشفاق : - أنت لاتزال عاجزاً عن أن تفهمنى ، ليس شرطاً أن أرى وأن أعين لكى أتحرك ، إننى أصبح حراً حتى فى رق العبودية حين استمتع بحرية المستقبل .. حرية الاجيال القادمة ، وعندما أقاتل فى سبيل الحرية طوال حياتى ، فإننى سأموت إذن رجلاً حراً .

وقال المدرس الذى كان يفكر فى زوجته وفى أخيها الذى يجله العار وفى مفتاح البيت الذى طالب به ولم يحصل عليه : - حقاً . أنا لاسطيع أن أفهم .

- ولكنك ستفهم قطعاً فى يوم من الأيام . ربما تشدك الان وتستأثر باهتمامك بعض الأمور الصغيرة التى تفتدى بأرواح الرجال . إن الروح لبؤة ، والمتاعب هى القمل فى جسدها ! ولكنك سوف تتخلص يوماً ما من هذه الأمور الصغيرة .

وظهرت "دوكسانيا" على عتبة الباب وأشارت الى المدرس بينما كان

"إيدومينياس" يوليها ظهره ، لابد أن يكون الآن راغباً فى الأكل ... فقد أمضى اليوم بطوله دون أن يمضغ بأسنانه شيئاً . وقال "تيتيروس" :
- إن الدب الجائع لايرقص ! .. أنت تتحدث عن أفكار عظيمة ، ولكن ذهنى مشغول بالطعام . منذ الصباح وأنا لم أزق طعم الأكل ، ولقد أمضيت الليلة الماضية بطولها وأنا أكتب .

وقال "إيدومينياس" :
- أنا أيضا لم أذق الطعام أفأى ضرر فى ذلك ؟ إن الطعام هو أيضا قمله .

وضحك المدرس وهو يقول :
- ولكن اللبؤة يمكن أيضا أن تموت جوعاً لو افتقدت هذا القمل .
وصفق "إيدومينياس" بيديه ، وبرزت "دوكسانيا" على الفور وقد بدا السرور على وجهها .
- المدرس جائع يادوكسانيا ، أعدى صينية مما لدينا وأحضريها .
وصاحت دوكسانيا وهى تسرع :
- بكل سرور .

وقال المدرس :
- سوف نأكل معا ، اليس كذلك ؟ لا استطيع أن أكل وحده ، قد تتحمل أنت الصيام . ولكن ينبغى أن تثبت أيضا أنك تستطيع أن تتحمل الطعام إن الصيام والحياة المرهقة والزهد .. هى أيضا نوع من القمل .

وضحك الصديقان .. وقد خفف ما بهما ذلك المزيج من الفكاهة والأفكار العظيمة . وجاءت الصينية ، وارتسمت البهجة على وجه دوكسانيا المتفرض ، فمذ أن غربت الشمس و"إيدومينياس" الجائع يحنث بقسمه وهويسلى صديقه حتى أصبحت شهيتهما معا جاهزة فأنكبا على الطعام ، وشربا بعض النبيذ المعتق من قنينه مخزونة بالبيت من زمن طويل .

وصاح الاثنان وهما يقرعان كئوسهما :
- نخب الحرية !

وعندما ساد الظلام فى الخارج ، عادت أفكار المدرس تحوم حول بيته .
وسأله صديقه :

- لماذا أنت مهموم ؟

ولم يرد "تيتيوس" .. فعاد يسأله :

- كيف ترى حياتك الجديدة ؟ أمن السهل أن يعيش الرجل مع امرأة ؟

واتجه المدرس نحو النافذة وهو يقول :

- الليل أقبل .. وينبغى الآن أن أعود .

كان القمر قد اختفى .. القمر المضىء الذى تزوج "تيتيوس" تحت ضيائه ، واقتربت من نهايتها أيام الحداد الأربع عشرة على "مانوساكاس" والتى أمضاها ولد "تيودورس" فى غضب هستيرى داخل تلك القرية الغنية بحدائقها . لقد أمانه عمه الكابتن "ميخائيليس" إهانة بالغة حين عامله وكأنه لا يزال صبياً لا يقدر على استخدام مديته ولا يقوى على قتل الأتراك "كم عمرك الآن؟" - "سبع عشرة سنة" - "فالزم إذن عشك" اليسـت السبع عشرة سنة تكفى فى نظر الكابتن "ميخائيليس" ؟ إنه الآن رجل قادر على استخدام المحراث والثيران وقادر على فلاحـة الأرض . وإنه قادر كذلك على تحدى "حسين" ابن شقيق "نورى بك" .. الفارس التركى الصغير فى "بيتروكفالو" .. فهو يطرحه أرضاً عندما يتصارعان - ويستطيع بالتالى أن يغرس مديته فى عنقه .

وقال لأمه "كريستينا" التى كانت ترتدى ثياب الحداد :

- لقد أهاننى عمى ..

... وكانت أمه قد توجهت إلى قبر زوجها والصقت رأسها بالأرض

وأخذت تبكى وتنتحب كعادتها منذ أن دفن زوجها قبل ثلاثة عشر يوماً ..

وتناديه وهى تنبش التراب بأظافرها .

وأجابته أمه :

- أنت لاتزال صغيراً يا "تيتيوس" ، فدع الثأر لعمك .

- ولكن متى ؟ .. متى يامى ؟ غدا يكون قد مرر على قتله أربعة عشر

يوماً ونحن لاتزال نأكل ونشرب وننام ولا نفعل شيئاً ! ألا يظهر لك أبى فى

نومك ؟ ! ألا يشكو لك ؟ .. إنه ليعيرنى كل يوم ياماه .

ولف العصابة السوداء حول رأسه واتجه ببصره نحو سفح الجبل حيث تقع القرية الأم "بيتروكيغالو" وحيث تستحم بضوء الشمس الساطعة التي لونت جسده القوي ... القرية التي تمتلئ بالسادة الأتراك وبالمسيحيين المنسحقين . وكان ثمة شعر قد نبت على صدغيه وصدره البارز . لقد عاش وسط هذه الجبال مع قطعان أبيه ولما كان يذهب الى القرية ليرى الأدميين ولكن حياة الوحده بدأت منذ العام الماضى تثقل عليه ، ومن ثم فقد كان يتوجه إلى كنيسة القرية يوم السبت من كل أسبوع حتى يرى النساء ، فقد بدأت دماؤه هي التي تدفعه . ومنذ مقتل أبيه وهو يلزم البيت ولا يذهب الى الجبل ، بينما بقى هناك أخوه "كوستانديس" الذي يليه في العمر . أما هو فقد انتعل حذاء أبيه وسترته وعصابة رأسه ، واستخدم كذلك صندوق الطباقي الخاص به وعصاه المصنوعة من خشب أشجار البندق ، ومضى الى "أى يانى" .. وقليلًا ما كان يذهب الى "بيتروكيغالو" .. في حزن وصمت .

ونفض من فوق قبر أبيه وهو يمسك بالعصا .. وقال :

- أنا ذاهب ...

- إلى أين يا ولدى "تيتيوس" ١٩

- إلى بيتروكيغالو ، ألم تقولى إنك فى حاجة إلى بعض حب الرمان

لتنتثره فوق كعكة الجناز ؟ سوف أحضرك ماتريدين . فهناك بعض الرمان فوق سطح بيت جدى .

ثم أخرج من حزامه مدية أبيه التي كانت لاتزال ملوثة بالدماء . ولقد أرادت أمه يوماً أن تنظفها ولكنه رفض وهو يقول : "إن الدماء لاتغسلها المياه يأمى ، بل تغسلها الدماء مثلها" . ولقد كان يحتفظ دائماً بهذه المدية قريبة منه حتى ليضعها بالليل تحت وسادته ، وكانت أمه تتوسل اليه دائماً : "اعطنى هذه المدية يا ولدى ، فطالما هي هكذا تحت وسادتك فإن أباك سيجى ليعذبك أثناء نومك" - "وهذا هو بالضبط ما أريده يا أماه ، أن يعذبنى" ... ثم رسم علامة الصليب .

وانطلق فى طريقه ممسكاً بالعصا .. يدق بها الأرض الصخرية وصاحت فيه أمه وهي تراه يدق الأرض بعنف :

- كن حذراً يا "تيتيروس" .. دعواتى وبركاتى لك !
ولكن الابن كان قد اختفى عن بصرها . وانطلق ارنب من الحظيرة ،
فأتبعه "تيتيروس" عصاه وأمسك به من أرجله ، ثم ضرب رأسه فى صخرة
فحطمه وهو يقول :

- سوف أخذه معى هدية لجدى ، ولعلها علامة طيبة ، فالارنب يجلب لى
الحظ ، وهكذا سوف أمسك بحسين وأضرب برأسه الصخور . ولكنه ليس
ارنباً على أية حال ، أقصد أن يكون بيننا صراع قاس .

وكان قد تحدها قبل يومين ، وجاء "حسين" على صوت الصغير الذى
أطلقه "تيتيروس" بغمه .

- حسين .. بعد غد يكون قد مر أربعة عشر يوماً على أبى الذى قتله
عمك "نورى" .

- القار والكبريت على جسده !

ثم ضحك ضحكة قصيرة .. واصفرت عينا "تيتيروس" وهو يرتعش
بالغضب :

- لماذا تحد فى ياكافر ؟ لماذا تصفر ؟ هل عميت عيناك ؟ ألا ترى أننى
مشغول بالتذرية ؟

- إذا كنت حقاً فارساً فتعال وصارعنى ، وسوف أموت تركياً إن لم أجعل
ظهورك هذا يتمرغ فى التراب !

أ - ظهري أنا يا خائن ١٩ .. متى وأين ١٩

- فى نفس المكان الذى قتل فيه أبى - عند شجرة السنديان . بعد غد ..
فى يومه الرابع عشر ، وفى الصباح الباكر حتى لايرانا أحد .

- هل نحضر المدى ١٩

- نعم ..

ثم افترقا "حسين" يتابع عمله ، و"تيتيروس" عائداً الى بيته ، وهناك
انحنى عند مدخل البيت وأخرج المديّة من حزامه وشحذها دون أن يغسل
الدماء الجافة من فوقها ثم أعادها مكانها واتجه نحو شجرة السنديان
الضخمة حيث جلس مستنداً بظهره الى جذعها .

وعند مدخل "بيتروكيثالو" رأى فتاة بالقرب من البئر ، فأحمر جسده على الفور ، كانت تمسك بجرة فى يدها وتتهيا لرفعها فوق كتفها ، وعندما رأت "تيتيروس" قادماً من بعيد وقفت فى مكانها لا تتحرك .. وتنتظر . بالفتاة الرائعة التى تشع جمالاً ! إن جسدها لمشدد ، وإن كان لا يزال لين الأعطاف . وفوق عينيها اللوزتين المشعتين أهداب كأنها المدى . كانت أشبه بحيوان اشتمت خياشيمه رائحة فهو يختبرها بإمعان .

وتعلق بها بصر "تيودورس" من بعيد . كل شيء اليوم على مايرام وأحس بقلبه يقفز داخل صدره : "إنها فروساكى !" وادار بصره حوله : لا أحد .. كانت الفتيات الأخريات قد ابتعدن بجرارهن عن البئر ، والفلاحون فى الأجران يقومون بدراس القمح وتذريته وغربلته ، لم يكن فى الدنيا كلها أمامه سوى "فروساكى" والشمس ترتفع فوقها كالتاج فى كبد السماء .

أحس بضعف لذيذ فى ركبتيه وهو يتوقف أمام البئر ، وقال فى صوت مرتعش وقد أرخى بصره :
- نهار سعيد ..

وتلألأ رسغها تحت أشعة الشمس التى تدافقت فوقهما .. ومسحته بنظرتها فى جراحة وهى تضحك فى سخرية :
- لماذا تحمل هذا الأرنب يا كابتن "تيودورس" ؟ .. هل أصبحت تصطاد الأرانب ؟

ورد الشاب وهو يرفع عينيه :

- بل أصطاد الأتراك .

وظلت نظراتهما لحظات تتساجلا كالخناجر ، حتى عاد الشاب فخفض رأسه وقد زاد اضطرابه .

وسدت الفتاة جرتها بغطاء خشبى وجالت ببصرها حولها فى سرعة ، ولم يكن هناك أحد : "هل أنت عطشان يا "تيودورس" ؟" .

- نعم ، أنا عطشان يا فروساكى . ولكنك أنت التى ستقدمين لى أنا - الابن اليتيم - الماء الذى يبيل عطشى .

وخفضت الفتاة بصرها فى صمت ، وإن كانت الحمرة قد كست عنقها وأذنيها وهمس "تيودورس" :
- غدا يكون قد مر على وفاة أبى أربعة عشر يوما ، تعالى غدا الى بيتنا وساعدى أمى فى صنع كعكة الجناز ، وسوف تحضر ايضا فتيات كثيرات من القرى المجاورة .
- سوف احضر إذا سمحت لى أمى .

ثم قالت بعدها على الفور :
- وحتى لو لم تسمح ، فساحضر مادمت أنت قد دعوتنى . إن أحدا لا يستطيع أن يرفض رغبة اللكابتن "تيودورس" !
قالتها فى ضحكة تخفى بها انعطافها نحوه . وظلت تنظر اليه وهى تكاد تبتلعه بنظراتها . لقد كانت تظل كل ليلة مستيقظة تفكر فيه ، وتود لو كانت أرضاً تبسط نفسها تحت قدميه ، ولكن ها هى ذى تضايقه وتثيره وهى تراه أمامها بلحمه ودمه - إنها لتحس الآن برغبة فى أن تخمشه .. وتؤذيه .

وأسند "تيودورس" ذقنه إلى عصاه وظل يحرق فى الأرض وهو يتذكر كيف أن عليه غدا أن يصارع حسين . ثم قال :
- أه .. فروساكى ، هل تبكين إذا حدث لى شىء ؟
ولم يعد فى مقدور الفتاة أن تضبط أعصابها أكثر ، وانحدرت الدموع فوق خديها وهى تهمس :
- ليس لى فى الدنيا سواك يا "تيودورس" !

وصاح الشاب فى فرحة وهو يرفع رأسه :
- حسن ! .. فأعلمى إذن يافروساكى أن سوما لا يمكن أن يلحق بى !
وظهرت فتاتان تحمل كل منهما إبريقا ، وأسرعت فروساكى تجفف دموعها وترفع إبريقها فوق كتفها وتتظاهر بأنها تتطلع إلى بعيد ، ولكنها لم تستطع أن تطامن من اختلاج صدرها . وأسرع "تيودورس" يجرى فى اتجاه القرية وهو يصفر بفمه ويؤرجح الأرنب الميت بيده .

وفى اليوم التالى - الأحد - عندما انتهت فترة الحداد وبدأت مراسم حفل الذكرى من أجل روح "مانوساكاس" ، اعتلى الأب "جريجورس"

المنصة التي اقيمت فى الفناء الامامى للبيت ، ووقف إلى جواره صبى راع
أسود اللحية يحمل طبقاً ثقيلاً فوقه كعكة الجناز المكسوة بطبقة من السكر
يزينها اللوز وحب الرمان وكتب فوقها اسم "مانوساكاس" بمسحوق القرفة
، وهر الفلاحون واحدا اثر الآخر وكل منهم يبسط راحته ليملاها الاب ،
فيتتم : "رحم الله روحك" ثم يتحرك ليخفى بعد ذلك وجهه بين مخالبه
ليلتهم القطعة بشراهة ويلوث شاربه بالقرفة والسكر .

ولأن الايام الأربع عشر قد انتهت - والحقيقة أنها تمضى فحسب من
حياة الرجال والنساء - فإن فضائل "مانوساكاس" بدأت تلقى مديحاً
خاصاً وعريضاً . ولقد ظهر شخصياً للعجوز "كاتيرينو" - أم حارس
الحظيرة - وهى عائدة فى الليلة الماضية إلى القرية كذلك فإن كلبها - هو
أيضا - رأى "مانوساكاس" فقف شعره ، ولقد حاول لحظتها أن ينبج ،
ولكن فمه ظل مفتوحاً ولم يستطع حتى الآن أن يفلقه .

وقال واحد من الرجال المسنين وهو يرسم علامة الصليب : "إن الفقيد
أصبح يتجول شعباً ، لقد قتل فى قمة قوته .. ولايزال كأنه بيننا ، إنه
يستعصى على الموت" .
وقال آخر : "إنه يريد دماء ، لماذا تأخر الكابتن "ميخائيليس" كل هذا
الوقت ؟!" .

وبينما كانوا لايزالون يثرثرون ، إقتحم الساحة "كوكوليوس" حارس
الحظيرة وقد تدلى لسانه ، وهو يمسك بوقه بيده المرتشعة ، كانت الكعكة
قد انتهت . وكان الاب يغادر المنصة . وكان صبية الرعاة لايزالون يلعبون
الطبق .

واتجه الاب نحو الحارس بينما تجمع الباقون حولهما :
- ماذا بك ياكوكوليوس ؟ التقط أنفاسك . هل لديك أخبار سيئة أخرى ؟
اللهم اشملنا برحمتك !

- حسين ، ابن شقيق نورى بك ، وجد مقتولاً !

- أين ؟!

- تحت شجرة السنديان الضخمة ..

- من ؟!

- علم ذلك عند الله .. "بيتروكيفالو" تغلى . وقد اغلقت البوابات وبدأ المسيحيون يتسلجون بينما وضع الأتراك الجثة فى صحن المسجد وأخذ كل واحد منهم ينحنى أمامها . وقد أخذوا يطلقون النار ويهددون بحرق "أى - چانى" ١ .

- كيف نتحمل ذلك ١٩

- يقولون إن القاتل لابد أن يكون من "أى - چانى" - واحداً من عائلة مانوساكاس . وهم يطالبون بدم "تيودورس" ١

وأصدر الأب أوامره :

- ليمضى أحدهم على الفور ويخبر الأرملة ، لابد أن يهرب "تيودورس" إلى الجبال بسرعة ١

ولكن "تيودورس" كان قد أخذ بندقية أبيه وغداتيه الفضيتين وملاً غرارة بالخرطاش ، وفتح صندوق أبيه وأخرج العلم اليونانى من قاعدته المزودة فطواه وانطلق الى الجبال دون أن يغسل الدماء من يديه وصدره ومرت فى طريقه بالحظيرة وأعطى تعليماته لشقيقه "كوستانديس" وترك معه رسالة لأمه حين تذكر أنه لم يودعها .. قال لها فيها أن كل شيء على مايرام وسألها أن تمنحه بركتها ، ثم وضع فى الغرارة قطعة من الجبن وانطلق يتسلق "سيلينا" - أعلى قمة فى جبل "لاسيلى" : وكان ثمة رعاة كثيرى ما كان يسرق أغنامهم ويسرقون أغنامه - وذلك جعلهم أصدقاء ١ - وقرر "تيودورس" أن ينام فى حظيرتهم ، فإذا أدركه الجنود رفع العلم ووقف على رأس الرعاة وحارب وهو يهتف : "فى سبيل الوحدة مع اليونان ١" .

وقبيل المساء ، جاء الأرملة اثنان من الاغوات المسلحين فدقا بابها ، دون أن يجيب أحد . وتابعا الدق بعنف . ولا أحد ١ .

واتجه نحوهما تركى عجوز كان قد صعد الجبل لجمع الأخشاب وقال : - مرحباً بالسادة . هل تبحثون عن "تيودورس" ؟ لقد طار الطائر ١ . انطلق الى الجبل" .

- انتبه جيداً لما تقول يا ابراهيمى ١ هل رأيته بعينيك ١٩

- نعم .. واقسم بمحمد أننى رأيته بعينى . كان الكافري جري كما لو كان

حصاناً .. ولقد إرتميت فوق الأرض فى ذعر ، وعندما رفعت رأسى لأنظر ،
كان قد اختفى .

وصب الاغوان اللعنات وهما يضربان الباب بخناجرهما ، والتقىا فى
طريق عودتهما - وعند الوادى الذى يفصل بين القريتين - بالعجوز
”كاتيرينيو“ التى ظهر لها شبح ”مانوساكاس“ وكانت تجمع بعض الخس
والاسبرجس الذى تملأ به غرارته الصغيرة قبل أن تنتهى للعودة راضية
لتعد العشاء لأبنائها .
واندفع نحوها الاغوان .. واغتالاها بقسوة ..

وبدا الصدام بين الأتراك والمسيحيين فى القرى المجاورة ، واستعر
القتل بينهم ، يعثر الناس فى مرة على جثة مسيحي فى قارعة الطريق .. ثم
يعثرون بعده على جثة تركى مخبأة فى حديقته أو ملقاة فى بئر مهجورة
نضب ماؤها ، وارتفع المد فى سرعة خاطفة واشتعلت القرى واحدة بعد
الأخرى حتى بدأ المد يصل إلى ”ميجالوكاسترو“ ذاتها .

وفى الظهيرة ، كان سليمان - خادم الباشا العربى - قد استبد به السكر
- ليس برغبته ، ولكن الاغوات كانوا قد أترعوا له كئوس .. الراكى“ ثم
أطلقوه بعد أن سكر فى الحى اليونانى وقالوا له : ”اجتهد أن تعثر على
الكابتن ”ميخائيليس“ وتقضى عليه - إذا كنت حقا رجلا“ .. وأخرج هو
الخنجر الذى كان الباشا قد منحه إياه فى عيد الأضحى السابق .. واندفع
يهدر غير شوارع اليونانيين والمسيحيون يهرعون بأطفالهم إلى بيوتهم لدى
رؤيته .. ويفلقون أبوابها على أنفسهم .

وصاحت النساء فى فزع وهن يحكمن اغلاق أبوابهن بالمزاليج :
- العربى ! العربى !

وحين رآه بعض المسيحيين وهم فى طريقهم إلى دورهم لتناول الغداء ،
قفزوا يدخلون أول باب يفتح لهم .. وقال بعضهم لبعض فى غضب أحيانا ..
وفى فزع أحيانا : ”كريت التى هجرها الجميع .. تشتعل من جديد !“
واندفعوا جميعا الى صناديقهم التى أخفوا بها أسلحتهم .. وأخرجوها
ليزيلوا الصدا من فوقها .

وتوقف العربى عند نافورة "إيدومينياس" وقد اشتعل رأسه بحرارة الراكى وشمس الظهيرة وتصبب العرق من حاجبيه وعنقه وسيقانه . ودفح برأسه تحت النافورة ليبترد وهو يهدر كالنور . وأصابته الرعدة الحى كله وبينما هو ينحنى تحت ماء النافورة أبصر بين ساقيه بالكابتن "ميخائيليس" يقترب قادماً من آخر الشارع ، فصاح صيحة وحشية وهو يستل خنجره ويندفع نحوه .

وتوقف الكابتن "ميخائيليس" . وخطر بباله للحظة أن يعود أدراجه ، ولكنه خجل من أن يفعل ذلك ، وفتح باباً عن يمينه وأطلقت براسها زوجة "كراسوجورجيس" مسدلة الشعر .

- ناشدتك الله ياالكابتن "ميخائيليس" أن تدخل .. لماذا تقف هكذا ؟

ولكنه كان قد أخرج منديله العريض وألفه حول قبضة يده .. وفتح كذلك باب بيته هو ، واندفعت "كاتيرينا" نحوه وهى تصيح :
- ميخائيليس ! .. كابتن "ميخائيليس" ! ارحم اولادك .

لقد رأت العملاق يواجه زوجها .. تبرق أسنانه وتدور عيناه ويصيح وقد رفع الخنجر فى يده :

- انا قادم لتمزيقك ياكابتن "ميخائيليس" .. ياكافر !

وحاولت الزوجة أن تفتدى زوجها بأن تقف امامه ، ولكنه كان قد استجمع قواه فى قبضة يده وفرسها فى بطن العربى الذى سقط وهو يخور ، ثم انحنى يستخلص الخنجر من بين أصابعه ، واستدار إلى زوجته :
مكانك فى البيت .. عودى !

ودخل بيته وخلفه زوجته التى أحضرت له قميصاً جديداً أحس وهو يرتديه بأن جسده بدأ يهدأ ، فابتسم من تحت شاربيه الكث وهو يحدق فى الخنجر المشحوذ .. وقال :

- يازوجتى .. أعط هذا الخنجر لابنك "ناراساكى" ليبرى به قلعه .

وفى ذات المساء ضرب شابان تركيان - ابنا المؤذن - "بتروودولوس" المسكين ووطأ بقدميهما قبعته المصنوعة من القش ، وكانا على وشك أن

يمزقا عباعته لولا أنه صرخ فانطلقا هاربين . وفى صباح اليوم التالى ، وجد المؤذن مشدود الوثاق إلى الشجرة الضخمة وهو عار تماما ويكاد يتجمد من البرد ، فأطلقوه ودلكوا ساقيه وسقوه شراباً ساخناً . وحين استطاع أن يتكلم وصف لهم كيف أن اثنين من المسيحيين – واحد منهم ذو شارب مثل لحية جدى جبلى ، والآخر أعرج – أمسكا به وجرداه من ثيابه وربطاه إلى الشجرة بحبال المشنقة . وكان فى نيتهم أن يعلقوا له لحيته لولا أنهما نسيا الموس ، ومن ثم فقد اكتفيا بعد ذلك بأن بصقا فوقه واسرعا نحو الميناء .

وكان الباشا بنفسه إلى جواره ، وأمر بأن يقبض على كل أعرج فى ميجالوكاسترو ويودع السجن ، وبدأ البحث أيضا عن الكابتن "سيفاكس" ، ولكنهم لم يعثروا عليه . وألقت الشرطة القبض على كل أعرج فى المدينة وأودعتهم السجن وأجبرتهم على تجرع زيت الخروع .. ولكنهم تصرفوا جميعا كالفرسان ولم ينبس أحد ببنت شفه . وبعد ثلاثة أيام كان الباشا قد اكتفى بما أكلوه وتجرعوه من زيت الخروع (وكانوا ثلاثين تقريبا) فأمر بإطلاق سراحهم .

ولكنه أمر بوضع سليمان العربى فى القيود الحديدية عندما سمع بفشله .

ومر يومان أو ثلاثة .. وهبت ريح جنوبية شديدة قادمة من الجزيرة العربية خلخلت ألواح جدران البيوت ، وتسلس الغبار الكثيف الحار إلى أنوف الناس وأذانهم وأفواههم . وأصبحت "ميجالوكاسترو" تثن كالحموم ، وكانت الكلاب تتوقع فى الظل وأفواها مفتوحة . وكان الرجال والنساء يلهثون وهم يلزمون دكاكينهم ويحركون الهواء بمراوح من القش ويحتسون الشراب البارد ، وكان "باربايانيس" يقف فى قمة مجده فقد كان يجرى هنا وهناك فى القيقظ الشديد ، يبيع المشروب المثلج – ولقد كانت نار الصيف وصقيع البرد بالنسبة له سواء – فإن أرباحه تبرده فى الصيف ، وتدفعه فى الشتاء ، وهكذا يظل بارد الأعصاب طوال السنة .

وكان البطيخ قد انتفخ فى الحدائق حتى ليكاد ينفجر ، وفى كل صباح

كانت هذه الحدائق تنقل الى الميدان الرئيسى بالغرب من الشجرة العارية والى الاقباء الثلاثة جبلاً من البطيخ وتلالاً من الخيار . وكانت بواكير العنب تلوح وسط التكايب فى ألوانها الأولى ، وكانت بشائر التين فى طريقها إلى الأسواق . كانت الأرض تتفجر بخيراتها - فكيف كان يمكن لزبائن الفاكهة أن يسبقوا سيل ماتخرجه هذه الأرض ؟! كان الأتراك والمسيحيون يقفون أمام أكوام الفاكهة ، وكان البائعون يغنون على بضائعهم بملء أفواههم .. وحينما يقبل المساء يتركون كل ماتبقى فى مكانه فيندفع الأطفال والعجائز والنسوة المحتاجات من كل جانب ويجمعون كل مايقدرن على جمعه .

وعندما تغيب الشمس ، تتنفس الأرض .. وتبرد ، وتنتشر الظلال الحانية فوق "ميجالوكاسترو" ، وترش ربات البيوت ساحات بيوتهن ثم يتجمعن بعد ذلك فى بيت إحداهن ليتبادلن الأحاديث ، وكن قد تجمعن يوم الأحد فى ساحة بيت زوجة "كراسوجورجيس" يسلين أنفسهن ويأكلن ويتبادلن الفكاهات عندما اندفعت "پنيلوب" فجأة إلى داخل الساحة وقد شحب وجهها وجمدت نظراتها وهى ترتدى ملابس البيت التى كانت تغطيها البقع .. وتصيح باكية . وقفز الجميع من أماكنهن ، وقدمت لها زوجة "كراسوجورجيس" بعض عصير الكرز فشربته وهى تنتحب وتئن .

- ماذا حدث يا "پنيلوب" ؟ ولماذا تبكين ؟!

وابتلعت پنيلوب البقية الباقية من العصير .. ثم صاحت :

- ديميتروس .. ديميتروس !

- بحق الله ... ماذا حدث له ؟! هل هو مريض ؟!

- لقد ذهب ..

- ذهب ؟ إلى أين ؟!

- وأخذ معه المظلة !

- إلى أين يا عزيزتى ؟!

- إلى الجبال مرة ثانية ..

- ولكن لماذا ؟ لماذا يا پنيلوب ؟ ما الذى أصابه ؟!

- أنا قلقه عليه .. لقد خرج ومعه المظلة .. لقد هرب منى مرة من قبل

ومعه نفس المظلة ايضا .. خلال أحداث عام ١٨٧٨ .

وصاحت "كريسانتى" شقيقة "بوليكسيجيس" وهى تدق بيدها على ركبتيها :

- هذا أمر ينذر بالسوء ، وانتبهن جيدا الى ما أقول يا عزيزاتى .. هذا يعنى أحداثا جديدة - عاقبنى الله إن كنت كاذبة .
- لا تقولى هذا يا عزيزتى ! عسى أن تكون أذان الشيطان صماء الآن !

وعادت كريسانتى تقول :

- عاقبنى الله إن كنت أكذب ! أتعرفون كيف يحس الفأر بالزلازل فيهرب ؟ هكذا فهل ديميتروس .. أحس بالأحداث فهرب ومعه المظلة .. وهمست بنيلوب :

- وليس معه نقود ، ومن الذى سيطهو له طعامه ويفسل له ثيابه ويرتقها ويعد له فراشه ويدثره بالليل ؟ أنا أعرف أنه سيعود إلى مثل المرة الأخيرة والنقوب تملأ سرواله ! .

- لا تحدثى كل هذه الضجة يا عزيزتى ، فقد بدأت أحس بالقرق من زوجى وأردافه السمينة الثقيلة !

ولكن بنيلوب لم تهدأ ، وعادت تفتح فمها لتستأنف العويل ولكن سيدة البيت دست فى فمها ملعقة مليئة بمربى اللوز ، ثم تساءلت فجأة وهى تحاول أن تغير مجرى الحديث :

- ما أخر أنباء الكابتن "ميخائيليس" ؟ منذ أيام طويلة وأنا لا أراه ! .

وقالت زوجة الكابتن :

- بخير والحمد لله ، ولكنه يغادر البيت فى ساعات الفجر الأولى ولا يعود إلا فى الليل ، فكيف تتوقعين أن يراه أحد ؟
ثم تنهدت .. وأخذت إلى الصمت .

والحق أن الأمور بالنسبة للكابتن "ميخائيليس" كانت تسير على مايرام وإن كان العالم كله يبدو بالنسبة اليه ضيقاً وكأنه السجن .. كان يصلصل القيود التى تكبله ، ويمتطى صهوة فرسه متوغلاً بها عبر الحقول إلى بيت "نورى بك" الريفى الذى تحيط به أشجار الزيتون والسرو .. فيحس بقلبه

يختلج داخل صدره ويغمغم قبل أن يعود أدراجه :
- الصبر ... الصبر يا قلبي ، لاتكن هكذا عجولا ، انتظر حتى تتحسن حاله .

وفى الليل كان يأتيه "على أغا" معفر الوجه والثياب قادماً من بيت "نورى بك" الريفى يحمل آخر الأنباء :
- اليوم .. حاول أن ينهض ولكن الألم غلبه فعاد يتدحرج فوق فراشه -
اليوم ... نهض ، وساعده خادمه المغربى على الخروج إلى الفناء ، وقد وقفت أنا فى الركن خلف البئر وأنا أشاهده .. وحق دينى ياكابتن إننى لم أعرفه لأول وهله . إنه شاحب الوجه .. نحيل ! أين ذهبت هذه الخدود وأين ذهب الشارب المشذب الأنيق ؟ إن التجاعيد لتملا بشرته - اليوم ، خرج إلى الفناء دون مساعدة الخادم المغربى ، وقد وقع بصره على فاتجهت نحوه أحبيه ، ولكنه صرفنى - لم يكن يريد أن يتكلم . وقد خرجت لتوى - اليوم ، عاونه خادمه على أن يمتطى صهوة جواده وخرج معه فى نزهة وكان الخادم يجرى خلفه حتى يتلقاه إذا هو أغمى عليه وسقط من فوق السرج ... وكان الجواد يسير فى حرص شديد كأنما يفهم كل شيء .

وأخيراً - وبعد أيام وأسابيع - جاء "على أغا" إلى الكابتن "ميخائيليس" وهو فى دكانه وكأنه ينتظر وسط الظلام . وقال الرجل العجوز :

- إنه بخير الآن .. فقد غادر "مصطفى بابا" البيت وقال لنورى بك إنه لم يعد فى حاجة اليه ، إن الباقي بين يدي الله . وقد خرج اليك بعد ظهر اليوم فى جولة فوق صهوة جواده دون أن يصاحبه الخادم المغربى - وكيف يبدو ؟ صحيحاً معافى كما كان ؟ قويا ؟ خطاه ثابتة ؟ - إنه لا يزال شاحب الوجه ياكابتن ، أصفر كالليمونة .. مكتئب ، صامت دائماً إنه لا يأكل - قالت لى المربية العجوز إنه لا يشرب ولا ينام .. يتهد دائماً .

وعندما سألته الخادم العجوز أمس عن موعد عودة أمينة هانم الى الضيعة تشبث بالدرايزين حتى لا يسقط فى إغماءه . وظل يحرق بالخادم

العجز دون أن ينطق بكلمة .
- أنت تتكلم كثيراً يا على أغا .
ولكن "على أغا" ظل واقفاً حيث هو .. يريد أن يقول المزيد ، ولكنه
تردد :

- لماذا تهersh رأسك ؟ ألا يزال لديك المزيد ؟!
- وانفجر "على أغا" من جديد :
- إنهم يقولون ياكابتن ...
- تكلم ياغبى ! .. علام أنقذك أجرك إذن ؟!
- إنهم يقولون إن المسكين أصبح خصياً .
- ماذا تقصد ؟!
- إنه لم يعد رجلاً ، وقد علمت بذلك أمينة هانم .
- أخرج ...

واستدار "على أغا" بتعثر بين حبال السفن وأوعية الطلاء وخرج من
الدكان .. ثم مالّبث أن اختفى .
ونهب الكابتن "ميخائيليس" واقفاً .. ثم صاح وهو يروح ويجيء وسط
ظلام الدكان :

- لا يجب أن يكون هذا صحيحاً ! .. أنا لا أحتمل ذلك ! .. ليس هذا
ممكناً .

لم يكن يتصور أن رجلاً يمكن أن تصيبه هذه المصيبة ، وظل يردد
لنفسه ويعيد وهو يعرض على شاربه فى تشنّج :

- مستحيل ! ولكن ماذا لو كان هذا صحيحاً ؟! ماذا لو كان صحيحاً ؟!
كيف إذن يمكن أن أخذ بثأرى من رجل خصى ؟ أى صنف من الثأريكون
هذا ؟! وماذا يمكن أن يعنى الموت بالنسبة إليه ؟

وفجأة وصل الى قرار : سوف أذهب لأرى بنفسى !
وانتظر بضعة أيام . فلا بد أن يستريح الرجل فترة أطول ليستعيد قوته
القديمة .

وفى صباح يوم من أيام الآحاد ، امتطى صهوة فرسه وانطلق عبر السهل الممتد والمسترخى تحت وطأة قيظ الصيف ، وحقول الكروم مثقلة بالعناقيد ... والشمس تتوهج فى كبد السماء وهمس الكابتن : "الصيف ، والكروم ، والحرب ..." - "أه ياأمننا التى تعانى !"

كانت روحه تحتضن كريت فى إشفاق بالغ .. كان يحب كريت كما لو أنها مخلوق حى دافئ يتكلم أمامه بفمه وبعينيه الباكيتين ، كان يحب كريت التى لا تتكون فحسب من الصخور والسحب والجذور وإنما تتكون أيضا من آلاف الأسلاف من الآباء والأمهات الذين لم يموتوا أبدا والذين يتجمعون فى الكنائس أيام الآحاد تمتلئ صدورهم بالغضب يوما بعد يوم ، فيرفعون لواء يندفعون من خلفه الى الجبال : لواء تنحنى فوقه الأم التى لامتوت .. يكتبون هم على صفحته بشعرهم الأسود والرمادى والأشيب فى لون الثلج .. كلمات هى أيضا لامتوت :

الحرية .. او الموت

واغرورقت عينا الكابتن "ميخائيليس" بالدموع . فحين يكون وحده .. فالبكاء لا يخلجه وهمس لنفسه : أيتها الأم التعسة الحظ ... وبرق من خلال أشجار الزيتون البيت الريفى للبك .. واستحث الكابتن "ميخائيليس" فرسه .

فتح الباب ، ودخل الكابتن .. وترجل عن فرسه ثم أجال البصر حوله ، ما أسرع ماتمضى السنون ! هنا فى هذا الفناء بالقرب من شجرة الزيتون هذه الملففة الأغصان ، ركع الرجلان معا وسالت دماؤهما ، كانا قد اختارا بين الموت والأخوة .. فلختارا أن يصبحا أخوين . وها هو ذا يعود إلى ذات الفناء بعد سنين طويلة وكأنما عارض الله ما فعلاه .. وعليهما أن يقتل كل منهما صاحبه ..

وهرع خادم نحوه : مرحبا بالكابتن "ميخائيليس"

- أين البك ؟

- بالطابق الأعلى

- إذهب واخبره أنتى أريد أن أراه .

واشتم جواد "نورى بك" رائحة الفرس ، فأطل برأسه النبيل خارج باب الحظيرة وبدأ يصهل ، ولكن الفرس لم تستجب له .. فقد كانت حاملاً .
وعاد الخادم :

- يقول البك : مرحباً بالكابتن . هلا تفضلت بالانتظار حتى يرتدى ملبسه ؟ ... هل أقدم للفرس بعض الحشائش ياكابتن ؟
- كلا ..

واتجه نحو النافورة ورفع الكوب النحاسى من الخطاف المعلق فيه .. وشرب وكان ثمة كتابات باللغة التركية حول حافة الكوب - ذات الكوب الذى امتزجت بداخله دماؤهما ، وكان نورى بك قد ترجمها له يومئذ : "أرفع رأسك أيها المسافر واشرب . حتى الدجاج يرفع رأسه عندما يشرب .. ويشكر الله على نعمته ا .

وبرز الخادم مرة أخرى :
- هلا تفضلت بالدخول ؟ .. البك فى انتظارك
وشد الكابتن "ميخائيليس" عصابة الرأس حول جبهته وأخفى مقبض خنجره .. ودخل .

كان نورى بك يجلس فوق الجانب الظليل من الديوان وهو فى كامل أبهته كعريس فى ليلة زفافه ، وكان يعرف الغرض من مجيء زائره اليه ويشعر بالخجل من أن يبدو أمامه شاحباً مهيباً . لذلك فقد صبغ شاربه ووضع مسحوقاً أحمر فوق خديه .. وبعض الكحل فى أهداب عينيه كيما تجلوان بريقهما . وكان هو الآخر قد أخفى خنجره فى حزامه ..

قال وهو يمد يده :
- مرحباً بالكابتن "ميخائيليس"
ولكن الكابتن كان قد دس يديه عميقاً داخل حزامه ، ولم يلمس اليد التى قتلت أخاه . وعاد "نورى بك" يستند إلى الحائط فى خجل .
ولم يجلس الكابتن "ميخائيليس" بل ظل واقفاً يحاول أن يقيس القوة التى بقيت لنورى بك ويزن على أساسها كلماته .
- هل أنت فى عجلة من الأمر ياكابتن "ميخائيليس" حتى لتظل واقفاً هكذا ؟ وهل قطعت كل هذه المسافة ..

وقاطعه الكابتن متسائلاً :

- ألا تستطيع أنت الوقوف يا نوري بك ؟! إن الأمر الذى جئت من أجله إلى هنا لا يسوى من فوق الدواوين .
- أعرف هذا ، فلماذا تذكرنى به يا كابتن "ميخائيليس" ؟! لا تكن عجولاً .
فلنشرب القهوة أولاً .. ثم ندخن سيجارتين .. ونتحدث معا قليلا .. وبعدها يحدث ماتريد يا كابتن "ميخائيليس" ..

كان صوته ينطق بالتعب والمرارة .
- لا بأس يا نوري بك . مادمت تريد ذلك فلن أتعجل الأمر .
ثم جلس فى مواجهته وهو لا يزال يتمعن فى وجهه .. بينما تراجع نوري بك أكثر فى الجانب الأشد إظلاماً .
- قالوا إنك قد جرحت يا نوري بك - جرحا بالغاً ..
- أنا بخير يا كابتن "ميخائيليس" .. تماما كما كنت من قبل ، فلا تقلق .

ثم استطرد فى تحد :
- مازالت عظامى حيث ينبغى أن تكون ..
- ذلك يسعدنى

ثم ساد الصمت ..
وجاعت القهوة ، ولف كل منهما لنفسه سيجارة وهما لا يزالان جالسين وسط الصمت .. وقد أحنيا رأسيهما . "لقد جاء ليقتلنى وينتقم لأخيه"
كان نوري بك يقول ذلك لنفسه دون أن يختلج له جفن . "إنه يرتدى السواد مثل ملك الموت . محبا به ! أى معنى للحياة الآن ؟! إن الحياة والعار سواء الآن" .

ثم قال فجأة بصوت مرتفع :
- مرحبا .. لقد انتظرتم يوما بعد يوم ..
وأنا شربت قهوتك .. ودخنت سيجارتى يا نوري بك .. ولم يعد لدينا ما نتحدث فيه . قف إذن !
- كما تريد .

ووقف البك فى صعوبة بالغة وهو يغالط الألم ، ثم اتجه نحو المدخل المؤدى إلى الفناء وهو يعرج عرجاً خفيفاً . وسطعت فوقه أشعة الشمس .
 حينما رآه الكابتن "ميخائيليس" فى ضوء الشمس أحس بالارتياح !
 اهذا هو نورى بك الوسيم : شبيه القمر ، أسر تركيا ؟ كانت وجنتاه غائرتين .. وعيناه كابتيتين ، وشفته السفلى متقلصة تنبىء عن ألم رهيب . وخلف الصبغة والمساحيق الحمراء كانت تلوح دلائل الموت . وقطب الكابتن جبينه . كيف يمكن أن أقاتل كسيحاً ؟ أى عار ! وتوقف فى مكانه وقال :

- نورى بك ، انت لاتزال مريضاً .
 - هل أبداً أمامك شاحباً ؟ .. كسيحاً ؟ تعال ! وسوف تتضح الحقيقة فوق أرض الجرن .

وتقدم يعرج بركبتين مرتعشتين من شدة الألم حتى إذا أصبح فى وسط الفناء استدار ، وكان الكابتن "ميخائيليس" لايزال واقفاً فى مكانه يراقبه .

وأحس نورى بك برعدة تملك عليه جسده . إن الكافر يخرق جسدى بنظراته .. ويرفضنى ! وحاول عبثاً أن يتكلم فى قوة ولكن صوته ظل كما هو .. حزيناً .

- كابتن "ميخائيليس" .. لقد انتظرتك طويلاً ! .. أنت وحدك لاغيرك ..
 فهل تريد بعد أن جئت .. أن تعود أدراجك ؟

ولم يقل الكابتن شيئاً .. بل أحس نحوه بإشفاق أكثر ..
 - لماذا تنظر الى هكذا ؟ إن المرض قد غاض بوجنتى حقا .. ولكن قوى لاتزال كما هى . لاتصدق أقاويل الناس ياكابتن "ميخائيليس" . إن قوتى لاتزال كما كانت . تعال وامض معى .

ولكن الكابتن ميخائيليس لم يتحرك .
 - هل أمرهم بإحضار جوادى حتى ترى كيف استطيع أن امنطى صهوته ؟

هل أطلق غدارتى على هدف ؟ .. فأرسم إذن دائرة .. وسوف أصوب رصاصى إليها .. تعال معى إلى أرض الجرن وسوف ترى هناك من الرجل .

ودفع عصا به رأسه إلى جانب .. ووضع يده فوق غدارته متحدياً .. ولكن
العرق البارد تصيب من جبهته .. وأحس بأحشائه تضطرب وامتلأ قلب
الكابتن "ميخائيليس" بالاشفاق .. وقال فى هدوء :
- نورى بك .. الكلام بصوت مرتفع سوف يتعبك .. عد إلى الداخل .

وفجأة انحدرت دمعتان ثقيلتان من عيني نورى بك وهو يستدير متجهاً
نحو الباب الخارجى ليخفى ألمه "إنه حزين من أجلى .. كم انحدر بك
الحال يانورى بك .. أنت لاتثير الآن إلا الشفقة .
وعاد الكابتن "ميخائيليس" يقول :
- عد الى الداخل .. ولنؤجل الأمر الى وقت آخر ..

وكف نورى بك عن التظاهر ، وهمس لزائره فى نظرة واجمة :
- كابتن "ميخائيليس" .. لقد جئت لتقتلنى .. فلماذا لاتقتلنى ؟
- هيا الى الداخل يانورى بك .. أخشى أن يسمعنا أحد .
ثم اتجه اليه ، وأمسك بذراعه فأحس لحظتها كيف يرتعش جسده
الواهن . وعاد نورى يقول فى أنين :
- أنت شقيقى بالدم . لاتنسئ ذلك . نحن مزجنا دماءنا هنا فى هذا
البيت ، وإنى لاتوسل إليك الآن أن تسدى الى معروفأ ! اقتلنى .

وأجاب الكابتن :

- لاتغضب يانورى بك .. يوم آخر .. - أنت تشعر نحوى بالأسف ؟
ثم جلس فوق الديوان .. فى الجانب الأكثر إظلاماً ، وعاد يسأله :
- أتشعر نحوى بالأسف ؟

ولكن الكابتن "ميخائيليس" لم يجبه ، قلم يعد يحتمل بلواه أكثر من ذلك
، إنها لتشدّه بعيداً . ماذا بقى لديه ليفعله فى هذه الإقطاعية التركية ؟ ليس
هناك الآن حساب يمكن أن يسويه مع هذا المخلوق التعس . وماذا يمكن أن
يعنى الموت بالنسبة له الآن ؟

ونفض واقفاً وكانت الشمس قد غابت .
- إلى اللقاء يانورى بك .. أنا ذاهب الآن ..

وردد المكان صوت البك وكأنه قادم من مكان سحيق .. يقول فى شك :
- معك حق ياكابتن "ميخائيليس" .. فى رعاية الله .

ووقف الكابتن لحظة يتطلع إلى الرجل ويتذكر وسامته السابقة .. وقوة
احتماله البطولية وسجايه .. وضربات حوافر جواده التى تطلق الشر وهو
ينهب به الطرقات نهباً ..

وعاد صوت البك يتردد مرة أخرى :
- كابتن "ميخائيليس" ، إذا رأيتنى رجلاً فى يوم من الايام فأمد لى يدك
.. وإن لم تكن .. فوداعاً .

ومد الكابتن "ميخائيليس" يده .. وشد .. فى رفق حتى لا يؤذيهِ - على
اليد الممتدة اليه ، وقال :

- فى رعاية الله يانورى ..
- ربما يعنى ذلك وداعاً الى الأبد يا "كابتن ميخائيليس" . هل تفهم ما
أعنيه ؟
- أفهم ..

ثم اجتاز المدخل . وأحس هذا الوحش المفترس فجأة بتصلب شديد
ومؤلم فى عنقه .

وانتظر نورى بك وهو جالس فى مكانه من الديوان ، يهدف السمع الى
وقع حوافر فرس "الكابتن ميخائيليس" فوق الصخور .. حتى ساد الصمت .
وكانت أشعة الشمس الغاربة تتسلل إلى الحجرة وتلون جدرانها باللون
الذهبي .. ثم مالبت أن أختقت .. وساد الظلام .

وانسل فى بطنه متجهاً نحو المرأة حيث اغتسل أمامها بالصابون المعطر
بالمسك ، واستبدل قميصه بأخر نظيف . ورش ثيابه كلها بزجاجة صغيرة
من عطر اللاوندا ، وأمضى وقتاً طويلاً يصفف شعره ، ثم خرج الى
الحظيرة وظل يربت جسد الجواد فى رقة .. وأحنى الجواد عنقه ومر بقمه
فى اشتياق فوق رأس سيده وعنقه ، ثم أخذ يصهل فى بهجة

وغمغم البك وسط دموعه :

- وداعاً يا طفلى العزيز .

وافترقا . وعاد هو الى حجرة نومه ، وأخرج ورقة وبدأ يكتب :

"حينما أموت ، فإننى أطلب أن يقتل جوادى فوق قبرى" ... ثم وضع

خاتمه أسفل الورقة .

وانحنى فوق ركبتيه فوق السجادة الأناضولية الاثرية التى كان أبوه

يصلى فوقها سبع مرات فى اليوم متجهاً إلى "مكة" ، واتجه ببصره عبر

النافذة الى السماء المتلألئة بالنجوم ، وهبت لحظتها ريح قوية .. وعوى

كلب فى الحظيرة ، ومن بعيد تنأهت أغنية لسائق عربية يبيت فيها حنينه الى

زوجته .. ولحظتها فكر نورى بك فى "أمينة" ، وأغلق عينيه .. وتنهَّد بعمق :

- أيتها الدنيا الخائنة .. وداعاً !

ثم أخرج خنجره ذا المقبض الأسود ورفعته فى الهواء عالياً .. وبكل

ماتبقى فى جسده من قوة .. غرسه فى قلبه .

الفصل الثامن

فى الصباح الباكر من اليوم التالى ، وعندما فتحت بوابة "كانيا" وصلت إلى المدينة أنباء سوداء . لقد وجد "نورى بك" ميتاً فى بيته الريفى ! وبدأت المقاهى التركية تعج بطنين كطين النحل ، وأكد البعض فى صياح مرتفع أن اليونانيين هم الذين اغتالوه ، بينما قال البعض الآخر إنه انتحر . ولقد أدى هذا الحادث بالمؤذن فى المسجد الى أن يفقد اتزانه فى حديثه ، كان كل ما استطاع أن يفعله هو أن يصيح بقم يملؤه الزبد - "مذبحة ! الكافر ! .. محمد !" . أما اليونانيون فقد تركوا أعمالهم وبدأوا يتداولون الأمر فى بيوتهم طوال اليوم فى مجموعات من اثنين أو ثلاثة .

كان الأمر ينذر بالسوء ، والوجه مضطربة ، وكان الجنود يحملون أسلحتهم فوق أكتافهم ويجوبون الشوارع والأسواق فى صفوف . وظهر الباشا شخصياً فى المدافن لكى يشهد دفن "نورى بك" . وسار المؤذن خلفه ، ووراء الاثنين جمع صاحب من الأغوات المسلحين ، حتى العربى "سليمان" كان حاضرا يرافق الباشا الذى أطلقه من قيوده الحديدية بعد أن اكتفى بصراخه وصياحه . وحمل الخدم الجثة إلى القبر .. وتبعهم جواد "نورى بك" يطا الأرض فى خفة وهو يصهل وقد فتح عينيه على اتساعهما وأخذ ينفث الهواء بمنخاريه .

وتجمع الأتراك فى مكان الدفن ، وتلا الإمام كلماته الأخيرة فى صوت رتيب وهو يودع الميت العالم الآخر ، ونزع المؤذن عصابة الرأس البيضاء الملونة بالدماء عن جبهة الميت ودسها فى ملابسه ، واستودع الكل فى خشوع "نورى بك" الذى دفن الى جوار أبيه ، ثم أعطى الباشا إشارة

ليقتربوا بالجواد من القبر وهو يحمل فى يده الورقة التى سلمها اليه خادم
"نورى بك" .. وقال :

- "أيها الأغوات ، فى يدى الآن ورقة مكتوبة وممهوره تحمل آخر وصية
للميت .. فاستمعوا جيدا !" :

ورفع الورقة ليقرأها فى الضوء : "عندما أموت ، فإننى أطلب أن يقتل
جوادى فوق قبرى" .

وذهل الأغوات ، وظلوا يحدقون فى الجواد الذى أحنى رأسه فوق القبر
حتى لامس عنانه الأزرق الأرض ، وهو يتشمم التراب .. ثم يبدأ بعد ذلك
ينادى سيده الذى وورى التراب فى سهيل حزين .

وسمعت أصواتاً من كل ناحية : إنه عمل لايرضى عنه الله ولا الناس !
وقال الباشا معترضاً :

- أيا كان الأمر ، فهذه وصية الميت . إن الأمر يمزق قلبى أنا أيضاً -
والله يعلم ، ولكنها وصية الرجل الميت .. أن يذهب جواده معه . ولو كنت
مكانه لفعلت نفس الشيء . من منكم إذن يقسى قلبه ويستل سكينه ؟

ولم يتحرك واحد منهم من مكانه وكأنهم جميعاً تحولوا إلى تماثيل من
الحجارة .. وظلوا يحدقون فى دعر وإشفاق بجسد الجواد الممشوق الذى
يلمع تحت أشعة الشمس . إنه ليس رجلاً يونانياً ولا ثوراً أو خروفاً يسهل
ذبحه هكذا لقد كان زينة الدنيا وفخر ميجالوكاسترو ، وكان الخبراء يأتون
من "ريثيمو" و"كانيا" ليشتدوا معه . فمن ذا الذى يستطيع أن يرفع
سكينه على هذا العنق ؟

وزفر الباشا فى غضب :

- من منكم على استعداد لأن يستل سكينه ؟

وكرر السؤال مرة أخرى وهو ينظر حوله .

ولكن أحدا لم يتحرك من مكانه ، بينما كان الجواد قد تقوقع فوق القبر
وهو ينخر فى فزع وصهيله يرتفع كما لو كان صوتاً آدمياً يندب إنساناً
ميتاً .

واستدار الباشا الى خادمه العربى :

- سليمان .. أنت الذى ستذبحه !

واستل العربى سكينه وتقدم إلى الامام خطوة .. ثم تعثر وسقط على إحدى ركبتيه بينما نهض الجواد وحدق فيه دونما صوت . وتردد العربى .

وصاح الباشا أمراً .. والدموع تجول عينيه :

- تشجع ياسليمان .. أغلق عينيك واقفز فوقه !

وركز الجميع نظراتهم فوق العربى ، وغمغم واحد منهم وعيناه تطلقان الشرر : "إذا ذبحه ، فإننى أقسم بجسد أبى أن أسحقه .

واقترب العربى من الجواد وقد رفع سكينه وبدأ يطلق اللعنات ويتوعد حتى يبت فى نفسه الجراءة . ومرة أخرى أحنى الجواد عنقه وصهل فى أسى ، وسقطت ذراع العربى إلى جانبه .. وصاح فى فزع :
- لا استطيع يا أفندينا الباشا .

وارتفعت صيحات الاستحسان والارتياح :

- براؤو ياسليمان .

وعاد العربى يصيح :

- لا استطيع .

وصاح الاغوات :

- خذ الجواد لك أنت يا أفندينا الباشا ، ابق على حياته إذا كنت تؤمن

بالله !

وقال الباشا وهو يحدق فى الجواد الشهير بأشتياق :

- أخاف الرجل الميت ..

ورفع يده ليربت على ظهره ، ولكن الجواد تقهقر مهدداً .. ولم يدع أحداً يقترب منه ، وقال الباشا :

- فلنذهب إذن ، ودعوه حتى يهدأ حزنه فوق القبر . فإن له روحاً مثلنا .

وبعدها لا تقلقوا ، فسوف يستبد به الجوع . وسيبقى خادم المرحوم المغربى قريباً من هنا ليراقبه ويقدم له العلف والماء ، وعندما يهدأ .. فسوف يحضره إلى ..

وتحرك الكل تجاه المدينة وفي مقدمتهم الباشا وهو يحس بالارتياح ..
لقد كان الله عظيما وكريما وصديقا للباشا ! لكم كان يتوق الى هذا الجواد !
لكم اشتاق الى أن يعتصر صهوته بين ركبتيه ويتذكر أيام الشباب ! ولو
وهبوه كل نساء ميجالوكاسترو وخيروهم بينهن وبين هذا الجواد لاختار
الجواد دونهن جميعا ، ولتذهب النساء جميعا الى الشيطان ° وها أنت يا
إلهي .. ياما أكرمك ! أنت قتلت نورى بك .. وقدمت لى هذا الجواد هدية
منك ! .

واجتاز الجميع التحصينات القديمة خارج ميجالوكاسترو حيث زرعت
المنطقة بالخضراوات وأشجار الفاكهة . ولاح تمثال لأسد فينيسى أحمر
فوق القلاع الصخرية .. يبرق تحت أشعة الشمس .. وكان ثمة سرب من
الغربان عائد فى صمت من صيد يوم ليستقر خلال أطلال الأبراج .. وبدت
ميجالوكاسترو فى سكون المساء .. وتناهت من بعيد أصواتها المختلطة
بزئير البحر .

وتوقف الباشا ، وقال للأغوات الذين تجمعوا حوله :
- تذكروا جيدا . إن مصير كريت يتعلق فى شعره . إن نورى - واقسم
بالله - هو الذى قتل نفسه ، فلا تجعلوا منه لواء ترفعونه إيداناً بحملة تركية
لاتعنى سوى بداية جديدة لمذبحة . واقسم بالنبي إننى سوف لا أشنق
الكفار وحدهم فوق الشجرة العارية - وانتبهوا الى كلماتى جيدا -
المسلمون أيضا سوف أفعل بهم نفس الشيء . فحذار ! .

ثم صاح : " هيا ياسليمان"
وتابع السير وهو يتنفس بعمق .. وإلى جانبه خادمه العربى
وهز المؤذن رأسه . وتبادل الكبار نظرات خاطفة . إن الباشا رجل لا
أصل له - يونانى ابن زنا - فأى مصلحة له إذن فى كريت ؟ وهل هناك عرس
أناضولى لاتذبح فيه بعض الخراف ١٩ .

ولم يكن الباشا قد اختفى بعد وراء بوابة القلعة حين أخرج المؤذن من
ثيابه عصاية رأس نورى الملوثة بالدماء .. ورفعها فوق طرف عصاه
وصاح :

- سحقاً للكفار ! يا اولادى ، الا سحقاً للكفار !

ومع هذه الصيحة المحمومة جعل نفسه على رأس هذا الجمع من الاغوات ، وكان ثمة رجلان مسيحيان فى الخندق يخرجان الماء من النافورة ويغسلان مواشيهما . وصاح المؤذن :

- هاكم اثنان منهما .. إليهما ياقرسان ! واستل اثنان من الاغوات

خنجريهما .. وعاد المؤذن يصيح :

- وبركاتى معكم !

وانحدر الاثنان عبر زهور عباد الشمس حتى وصلا الى النافورة ، وامسكا بالعجوزين الضئيلين ، وأحنيا رأسيهما إلى حافة النافورة .. ومالبث الرأسان أن تدحرجا إلى داخلها .

وصاح المؤذن :

- إلى الامام يا أخوانى !

ورفع عصاه .. وانتفضت عصاة الرأس الدامية برياح البحر .. وانفدعت الجماعة داخل ميجالوكاسترو .

اما المسيحيون الذين تناهت الى اسماعهم أصوات الجنازة العائدة .. فقد بدأت قلوبهم ترتعد بشدة ، فأسرعوا بإغلاق دكاكينهم ومتاجرهم وهرعوا إلى بيوتهم يحتمون خلف أبوابها .

ووقف المؤذن امام المقهى التركى عند بوابة "كانيا" .. ورفع عصاه

وهو يصيح :

- يا الله .. يا الله ! .. دع الكفار يذوقون طعم خناجرك !

ولكن العجوز .. "سليم أغا" ، وبعض العقلاء من أصحاب الاملاك ، أدخلوه إلى المقهى وطلبوا له قهوة وحلوى تركية ونرجيله لكى يهدئوا من ثائرتة ، ثم مالبثوا أن أرسلوا فى طلب "افندينا" وأجلسوه فوق مقعد فى منتصف الحجرة ليبدأ فى حكاية عن النساء والصبية ذوى الملاحظة - حتى يصرفوا ذهن المؤذن عن الدماء والمذابح .

ومرت بضعة أيام .. فى كل ساعة منها يرتعش الكريتيون من فكرة أن ينتهبوا يوماً فى الظهيرة فيجدوا أن بوابات القلعة قد أغلقت وأنهم أصبحوا كالصيد فى الفخ .. ولم يكن ثمة كثيرون منهم ، وكان بمقدور الأتراك بأغليبتهم الساحقة فى المدينة أن يبيدوهم عن بكرة أبيهم .

.. ثم مالبت أن بدأت أحداث جديدة . فقد اقتحم الأتراك أبروشيه "أجاراثو" وقتلوا "أبوت أجانانجيلوس" الشجاع . هبطوا عليه كالليل وهو ينام فوق سطح الأبروشيه بعد أن عاد من "ثرابساموس" ليفتح كنيسة ويباركها .. وبعد أن أكل وشرب كثيراً . نام فوق السطح نوماً عميقاً لم يستيقظ منه أبداً ، فقد فصلوا رأسه عن جسده وهو نائم . وقادت جريمة الى أخرى ، فبعد أربعة أيام ، هبط ابن عم "أجانانجيلوس" - وهو قسيس من "فرونديزى" الأبروشيه المعروفة عند سفح جبل "سيلوريتيس" - .. هبط إلى قرية "سيروس" التركية وقتل الأغا التركى السفاح الذى كان قد انتهى لثوه من ربط اثنين من المسيحيين إلى رأس البئر فى حديقته ليديرا عجلتها .

وسرى الرعب بين الأتراك فى القرى اليونانية ، وحملوا حميرهم وبغالهم بكل ما أمكنهم حمله من الأهل والبضائع - الملابس والنحاس والأواني - ومن الحريم والأطفال والرضع فى ثيابهم الغالية .. واسرعوا هاربين فى اتجاه ميجالوكاسترو ليكونوا فى حماية الجنود الأتراك . كذلك فإن المسيحيين المسالمين والمذعورين هرعوا هاربين بدورهم الى أسرهم وأموالهم فى الجبال .

وكانت نهاية فراصة الباشا ، لقد وجد نفسه لأول مرة أمام ثورة كريتية . ولم يكن بالرجل الذى يستطيع أن يواجه مثل هذه الزلزلة ، كان أناضولياً طيباً من "بروسا" يحب اللهو والطعام ويعشق النوم . فلماذا بحق الشيطان يتشاجر هؤلاء الكريتيون ؟ ولماذا الآن بالذات .. وبعد أن وضع يده على جواد "نورى" الشهير ؟ كان يريد أن يطعمه السكر ويسقيه الماء بيديه حتى يألفه . وها هى ذى الملعونة "كريت" تثور ! ولم يكن يدري ماذا يمكن أن يفعل .. ولقد ذهب إلى المطران وقال متوسلاً : "يا أفندينا المطران ،

اعلن الصيام ، وقل إن الذى يقتل رجلاً تركياً فلن يجد السلام فى قبره" ..
ثما مالبت أن اتجه إلى القرى التركية : "لاتهربوا وتتركوا بيوتكم أيها
الحمقى" وصاح فيهم بأعلى صوته : "أقسم لكم أن أنفأ واحداً من أنوفكم
لن يدمى . لقد بعثت بتقرير الى القسطنطينية ولن تلبث القوات التركية أن
تصل لإقرار النظام" .

ولكنه لم يتمكن من إيقاف النار بهذه الكلمات . ففى ذات الأحد ، وصلتة
أنباء جديدة : "لقد أشعل الكابتن تيودورس ظهر النار فى قرية تركية
بمنطقة لاسيى" .. وانطلق الأغوات الكبار ثائرين مدججين بالسلاح .. إلى
الباشا : "يا أفندينا الباشا ، إن العصيان ينتشر ، وقد فقد الكفار كل
إحساس بالخجل . إنهم يحرقون قرانا . هل علمت بما حدث فى لاسيى ؟"

وقال الباشا وهو يداعب حبات المسبحة فى ضيق :
- ومن يكون هذا الكابتن تيودورس ؟ .. إنها أول مرة أسمع فيها بإسمه .

وقفز آغا بيتروكيقالو :

- إنه مجرد غلام من جنس ملعون ! إنه ابن مانوساكاس الذى جعل
نورى خصياً ! وعمه هو ميخائيليس ، الكابتن الدب الوحشى . إن هذا الغلام
قد بلغت به الوقاحة الى حد أن يهاجمنا ! وإذا لم تقبض عليه وتقطع رأسه
، فسوف نقوم نحن بدورنا بحرق الحى اليونانى فى ميجالوكاسترو . هذا
مانريد أن نحيطك به علما يا أفندينا الباشا ، وفكر كيف ستوضح الأمور بعد
ذلك للسلطان ! .

وصاح الباشا :

- بحق الرسول لاترتكبوا هذه الحماقة أيها الشياطين ! إن رأسى يدور !
وإذا سمع السلطان بما فعلتموه .. فهى نهايتى !
- فأقبض إذن على تيودورس وضعه فى آلة التشهير . فإن لم تفعل
أحرقنا نحن ميجالوكاسترو .

- وكيف أقبض عليه ١٩ أين هو ١٩

- فى جبال لاسيى . أرسل الجند وراءه .

وارسل الباشا الجند الذين بدعوا يجوسون خلال المنطقة . وانتهى أمر محاولتهم إلى تيودورس الذى جمع أصدقاءه حوله وكلهم من الفتية الصغار الذين استبد بهم الحماس . وكان تيودورس قد بدأ يغمر بأغوات "بيتروكيغالو" ويسحبهم خلفه من جبل إلى آخر .. كانوا قد قسموا على أن ينالوه لينتقموا لدم "حسين" . وكان هو وحده فى أغلب الأحيان .. وأحيانا كان يحيط به بضعة من رفاقه ذوى الجراءة .. وكثيرا ماكانوا يبدؤون فى إطلاق النار ، فإذا انقلبت الأمور فى غير صالحهم هربوا إلى القمم . وكان تيودورس قد حمل معه بندقية أبيه وانتعل حذاءه وعصب رأسه بعصابته التى كانت لاتزال تحمل اثار عرقه ، وكان يحس بأنه هو وأبوه الشهير شيء واحد ، وأن رجولة أبيه قد انتقلت اليه عبر ثيابه وأن أباه بالتالى قد عاد من جديد . الأب والابن أصبحا الآن شخصا واحداً .. وأصبح هو مع الأيام - تيودورس - أشد صلابة وأكثر نضجاً وأصبحت لكلماته وزنها .. وأصبحت لأعماله هى الأخرى وزنها.

ويوما بعد يوم ازداد التقاف اليونانيين حوله .. وخاصة فى تلك الأيام القاسية التى كان الجنود فيها يجوسون خلال الجبال . كان ثمة عشرون فارساً قد استجابوا لندائه .

صاح تيودورس :

- إن تركيا تريد دماغنا من أجل هذا أناديكم يا أخوتى ! هل تعرفون ماذا حدث ؟ إن الشرارة قد انتقلت من القرى إلى ميجالوكاسترو ، وسوف تنتقل من هناك إلى "ريثمينو" ومنها إلى "كانيا" وأن هو إلا زمن قصير حتى تشتعل كريت كلها . فلا تفقدوا شجاعتكم ! تذكروا فقط أن هؤلاء الكلاب لا يقتفون مجرد اثر قاتل . وحتى لو أنهم استطاعوا الإمساك به ، فإنهم لن يلقوا بعد ذلك بأسلحتهم ، إن فريستهم هى المسيحية ذاتها ! ولقد كان أجدادنا وأبائنا يعرفون ذلك . والآن جاء دورنا نحن . قبل أن أهرب ، فتحت خزانة أبى وأخرجت منها راية كتبت عليها : "الحرية أو الموت" ... من أجل الوحدة مع اليونان ! ..

ثم نشر الراية .

وعندما سمع الباشا بذلك افتابه الغضب الشديد ، وأسرع يبحث عن المطران . لابد لأب هؤلاء الكفار من حساب يسوى معه . واصطحب معه خادمه العربى وظل يفكر فى حظه السىء طوال الطريق ، لم يكن قلقه على كريت هو كل شيء .. فقد حملوا اليه صباح اليوم خبراً سيئاً . لقد جاء خادم نورى بك يلهث .. قادماً من المقابر : "ياأفندينا الباشا ، الجواد ميت فوق قبر سيده ا" - "الم تطعمه وتسقيه ؟" - "بل قدمت له الطعام والماء ياأفندينا الباشا ، ولكنه أبى أن يلمس شيئاً . أراد أن يموت ياسيدى .. وقد مات" .

وارتفعت الشمس فى كبد السماء ، واشرب المؤذن بعنقه من فوق المنارة وأذن للصلاة ، وكان المطران ساعتهما يجلس فوق الديوان العريض ومسبحته بين أصابعه يتحدث الى "حاجى سافاس" فى صوت خفيض وهو يفكر فى أيام الشباب أيام كان "أرشيمندريتا" فى "كريف" وممثلاً للضريح المقدس .. كان رأسه الذى يشبه رأس الأسد .. يفكر فى روسيا . كم كانت بلداً باركة الله - أى غلال ، وزيد ، وسمك مملح ، وكافيار !! ثم هذه القباب المذهبة فى قمم الكنائس .. وهذا المذبح الفضى وذاك ، والدلالىء والياقوت تزخرف الأناجيل ا "إننى لا أخشى شيئاً يا حاجى سافاس .. طالما ان روسيا قائمة . ولسوف تفتح فمها يوماً وتبتلع تركيا ، ويومها سوف ترى كريت الحرة ، لا أمل لنا فى غير ذلك" .

ولكن "حاجى سافاس" كان ينظر عبر النافذة غائب الذهن . وهبت ريح حارة .. كان قد هبط منذ أيام الى أرض أبيه بالقرب من "أجا - أيرينى" على مسافة ساعة من ميجالوكاسترو .. وقفزت الى ذهنه فكرة - لعلها كانت أشبه برسالة من الله ، ولعلها قفزت فحسب من خلال الأيام الخوالى التى كان يدرس فيها - ... فكرة تقول ا إن هذه البقعة من الأرض تخفى تحتها آثار مدينة قديمة شهيرة . وهناك ، فى الحقل والى ضفة غدير ، كان ينبش الأرض بطرف عصاه الحديدى .. وتكشفت الأرض فجأة عن شيء يتدحرج .. عن خاتم ذهبى ا .

ولقد أطلع المطران على الخاتم . وكان ثمة نقش فوقه : امرأة ذات

أرداف ثقيلة تمسك بيدها فأساً ذا رأسين ، وإلى جوارها رجل عار ممشوق القوام - مثل أبناء كريت فى هذه الأيام - وقد رفع قدمه وكأنه يرقص . وفوق الاثنين كان ثمة قمر فى نصفه .

قدم الخاتم للمطران وهو يقول :

- بحق الرب ياسيدى إلا اخفيت هذا الخاتم . لا ينبغي أن يعلم أحد بأمره . كم من الكنوز لابد وأن الأرض هناك تخفيها ، وكم من حلى ذهبية للأقدمين ! ولكننا عبيد ، ولو أننا كشفنا سرها لسرقها الأتراك . فلنصبر إذن ، وما إن تتحرر كريت حتى يجيء يونانى آخر لينقب عن المدينة القديمة ويحظى بالشهرة .

وهز المطران رأسه . ذلك كله كان شيئاً طيباً ، ولكن ما أكثر الأرواح التى هو مسئول عنها . وماذا تهمة هذه الأشياء التى تدفنها الأرض منذ آلاف السنين ؟ كان يستمع الى "حاجى - سافاس" فى أدب ، ولكنه كان يحاول أن يدير دفة الحديث مرة أخرى إلى كريت الحاضرة .. وإلى موسكو ..

وقال "حاجى - سافاس" :

- نيافتكم تنتظرون الحرية من موسكو ؟ .. ولكن الناس هنا ينتظرونها من فوهات البنادق .. وأنا أنتظرها من هذا الخاتم الذى تحتقره أنت ياسيدى .

وفتح "مورزوفلوس" الباب .. وقال :

- الباشا .. ياسيدى المطران .

وضحك "حاجى - سافاس" بشده :

- ألم يعرف هذا الأناضولى الكريتيين بعد ؟

ثم قبل يد المطران واختفى عبر باب جانبي .

وصاح الباشا فى غضب بمجرد أن دخل :

- يا أفندينا المطران .. الحق أننى لا أفهم ! إن الكريتيين قد رفعوا الاعلام يطالبون بالحرية . أية حرية ؟ أنا لا أفهم . إذا كنت حقاً تطيع الله الذى تؤمن به وتعمل بما يأمر به ، فهل ترفع علماً وتطالب بالحرية ؟ .. بالطبع لا .. لا ! ، أوليس ذلك يصدق أيضاً على ظل الله فى الأرض ..

السلطان ؟! أى لعبة شيطانية هذه التى تجرى إذن فى كريت والتى تسلبنى الراحة والسلام ؟!

وسأله المطران بدوره :

- وماذا يحدث إذن يا أفندينا الباشا إذا كنت تطيع إلهها لاتؤمن به ؟! إن أبناء كريت لايؤمنون بالسلطان ، من أجل هذا فإنهم يشعرون بأنهم عبيد ... ومن أجل هذا أيضا يبحثون عن الحرية .

ووضع الباشا يديه فوق خاصرتيه - لم يكن قادراً على أن يفهم ذلك ، فضرب الباب بقدمه وخرج . وهناك - فى بيته - جلس الى جوار النافذة وظل يحرق من خلال منظار مقرب صغير فى اتجاه البحر ليرى ما إذا كانت السفن التركية التى تحمل الجنود .. قد ولت . ذلك وحده كفيل بأن يجعل الأمور كلها واضحة وبأن يعيد النظام .

انتظر الكابتن "ميخائيليس" خلف الباب وقد حبس أنفاسه وهو ممسك بغدارتيه . كان يبعث بزوجه كل مساء وهى تحمل طفلها فى يدها .. ومعها "ثاراساكى" و"رينيو" ليقضوا الليل عند زوجة أحد الجيران . ويبقى هو وحده داخل البيت . ولكنه قال "لثاراساكى" بعد بضعة أيام : "سوف تبقى هنا معى ، فلا بد أن تعتاد ذلك" ، وهكذا كان الأب والأبن يبقيان معاً . وظل الهدوء سائداً بضعة أيام أخرى .. وأصبح فى مقدور الكابتن "ميخائيليس" أن يتام فوق سريره ... بل إنه كان يستمتع بالراحة فى يوم الأحد ذاك . وبينما كان مستغرقاً فى تأملاته .. تنهأ الى صوت ضربات ثقيلة فوق باب الدار ، وأحس بأن أحداً قد دخل ، ثم مالبت الصراخ والعويل أن ملأ المكان .. وعرف على الفور صوت العجوز "مارجورا" إحدى القريبات ..

وكان "تيتيروس" قد استقدمها من الريف لتساعد زوجته فى شراء مايلزمها من السوق وفى الطهو ، فقد كان يحس بالارتياح لوجود شخص من اقربائه داخل البيت . وأطل الكابتن "ميخائيليس" من النافذة الصغيرة ، وكانت العجوز "مارجورا" تقف فى وسط ساحة الدار وتصرخ وتشد شعرها . وصاح امرأاً :

- مارجورا .. ما هذا الصراخ ؟! إصعدى !

ووقفت "مارجورا" أمام سرير الكابتن "ميخائيليس" .. وفكاهما يرتعشان
وحاولت أن تتكلم ولكن الكلمات اختنقت فى حلقها .
وصاح الكابتن "ميخائيليس" :
- ماذا تقولين ؟! .. ديامانديس ؟! .. ماذا حدث له بحق الشيطان ؟!

وقالت المرأة المذعورة :
- لقد مات .. وجدناه الآن فقط فوق سريره . جامداً . إن فانجيليو تصرخ
وتضرب صدرها . لقد هزته .. وأخذته بين ذراعيها ، ودلكت جسده بالزيت
وماء الورد والخل ، ولكنه ظل متيسر الجسد ! لقد مات مسموماً .. مات ..
- مسموم ؟! وكيف عرفت ذلك ؟! ومن الذى سمع ؟!
- إن وجهه الأخضر الداكن يؤكد ذلك ..
- إذهبى ..

وقال لزوجته وهو يتهاى للخروج :
- لا تنبسى ببنت شفة عن ذلك !
ثم اجتاز الباب الخارجى .. وتبع العجوز "مارجورا" .

وعند نهاية الشارع ، وقريبا من نافورة "إيدومينياس" .. كان بيت أخيه
. ودلف من الباب الذى كان مفتوحاً ، وسمع صوت فانجيليو تصرخ وتضرب
صدرها .. اما "تيتيروس" فقد كان فى الحجرة السفلى جالساً فوق الديوان
فى الركن وأسنانه تصطك .

ودخل عليه الكابتن "ميخائيليس" ورفع المدرس عينيه .. ثم مال بث أن
خفض رأسه .
وقال الكابتن "ميخائيليس" :
- انظر الى يامدرس !

ورفع "تيتيروس" رأسه . وبرقت عيناه المذعورتان خلف عويناته وهمس
الكابتن "ميخائيليس" :
- أنت قتلتته .. أنت فعلتها !
- أنا ؟!

- نعم ! لو أن رجلاً آخر هو الذى قتله .. لكان فعلها بسكين - ولكن أنت قتلتَه بالسهم .. فعل الجبناء .

- لم أكن أستطيع أن أحتمل ذلك أكثر مما احتملته .
- لست الومك على قتله أدنى لوم ، ولكننى الومك لانك قتلتَه على طريقة النساء .. بالسهم ! لاتستطيع أن تنكر ذلك .

وعاد المدرس يقول :

- لم أكن أستطيع أن أحتمل أكثر مما أحتملت . ولم يكن فى مقدورى أن أفعَلها بطريقة أخرى ، لقد كان هو الأقوى

- وهل تعرف زوجتك ١٩

- ربما ، إنها لاتخاطبنى ، وعندما أصعد إليها فإنها تدفعنى بعيداً . وما أنا جالس انتظر .

.. تنتظر ماذا ١٩

- لاشيء .. انتظر فحسب .

وخرج الكابتن "ميخائيليس" إلى ساحة البيت ، وكرحبه فاسجنو" يتناهى رتيباً مثل صوت الماء الجارى .. وعاد الكابتن "ميخائيليس" إلى الداخل :

- ماذا تنتظر إذن ١٩

وأحس "تيتيروس" فجأة بالبهجة :

- فليحدث ما يحدث ! .. ليحدث ما يحدث ! فلم أعد أخشى شيئاً
- ولكن زوجتك قد تشكوك .

- فلتفعل ماتشاء . لقد فعلت أنا ما أردت ، والامر الآن متروك لها .

- إنهض ، والتزم الهدوء . إذا هى اتهمتكَ فقل الحقيقة . حتى ولو كان ذلك يعنى أن تسجن مدى الحياة . فإن لم تفعل .. فلا تقل أنت شيئاً ! ولاتجعل الرجل الميت يثقل على ضميرك ! هل تسمعنى ١٩ إن الرجل السوى يقتل مرة وإلى الابد ! إنهض !

واوقف أخاه وهو يقول :

- هيا تعد للجنازة !

وعندما حملت الجثة خارج البيت فى صباح اليوم التالى ، لم ير أحد وجه الرجل الميت ، فقد كانت مغطاة بالزهور التى أفرغت منها "فانجيليو" حديقته الصغيرة .. كما أن زوجات الجيران كن قد بعثن إليها بالكثير من باقات الورد وزهور البازلاء وكان الكابتن "بوليكسيجيس" - عم الميت - هو الوحيد الذى أزاح الزهور جانب وألقى نظرة على وجه الرجل الميت .. وحين رآه منتقحاً أسرع فغطاه من جديد .. ثم حدج "تيتيروس" بنظرة حادة وهو يقف فى مواجهته .

وعندما أبصرت "فانجيليو" بالقسيس داخلاً . نزلت من غرفة نومها بشعرها مسدلاً ، وألقت بنفسها فوق جسد أخيها ، ومنعت الكل من الاقتراب منه . وظلت هكذا بلا حراك دون أن تبكى أو تعول كما لو كانت نائمة . وحين تقدم الأربعة الذين سيحملون النعش وأمسكوا بها ، لم تبد أدنى مقاومة ، بل وقفت وقصت ضفائرها وجعلتها فى ضفيريّتين كبيرتين وعقدتهما حول يدي الرجل الميت ، ثم تركت الأربعة يحملونه فى هدوء ..

وحين اجتازوا به عتبة باب البيت رفعت يدها ملوحة بالوداع ، ثم عادت إلى داخل البيت وأحضرت كل ثياب أخيها وجعلتها فى كومة واحدة بالفناء وأشعلت فيها النيران . وبعدها قامت بتنظيف البيت .. وأصلحت من حالها وجلست فى فناء البيت وعيناها تحدقان فى النيران .

وبعد أن انتهت مراسم الدفن عاد عمها الكابتن "بوليكسيجيس" وجلس إلى جوارها وتناول يدها وسألها عما إذا كان أحد يشتبّه فيمن يكون القاتل ، فنظرت إليه دون جواب .. بل اكتفت بأن هزت رأسها يميناً ويساراً وهى تضغط شفيتها فى تحد .

وخشى "تيتيروس" ليلتها أن ينام فى بيته أو فى بيت أخيه ، فأمضى ليلته عند صديقه "إيدومينياس" ، وظل الاثنان يتحدثان عن الموت والخلود والروح .. قبل أن يستسلم الاثنان للنوم .

ومرت أيام ثلاثة لم تكن "فانجيليو" خلالها تعيره أى اهتمام حين يمر إلى جوارها وكأنه شبح داخل البيت . وكانت تغلق على نفسها حجرة أخيها

وتضييء مصباح الميت وتضعه إلى جوار كوب تملؤه بالماء القراح حتى ترتوى روحه إذا أصابها ظمأ . كانت تعلم أن روح الرجل تحوم حول بيته طوال أربعين يوماً . وكانت تحس بهذه الروح فوق شعرها وعنقها ويديها الراعشتين .. وكانت تحس بها فى الليل وكأنها فراشة فوق شفيتها .. ولم تمنحها الدنيا من قبل شيئاً فى مثل ذلك الجمال .

ظلت ثلاثة أيام لاتنطق بكلمة .. نظراتها جامدة وعيناها بلا دموع ، وهى ترتدى ملابسها السوداء إلا من شريط أصفر تعقص به شعرها .

ولقد توسلت إليها عمتها "كريسانتى" أن تصحبها معها الى بيتها الريفى الصغير القريب من البحر - فقد يغير ذلك من حاله - ولكنها هزت رأسها ... وعادت لتحبس نفسها فى حجرة أخيها . ولم تذهب إلى قبره أبداً كانت هادئة تماماً . وفشتت فى صندوقها وسط دوطتها الهزيلة ، ثم عادت تنظف البيت وكأنها تتأهب لرحلة .

وفى مساء اليوم الثالث قالت للعجوز "مارچورا" :
- اعدى المائدة ، وأخرجى المفروش المنقوش ، والأطباق والسكاكين والشوك ، وقولى لسيدك إننى سأتناول الطعام معه هذا المساء . ولا تضيئى أية مصابيح فيما عدا اثنين .. مصباحى الموت .

وكاد المدرس يسقط مغشياً عليه من شدة الخوف حين رأى مصباحى الموت مضامين ، وجلس فوق حافة المقعد دون أن يجرؤ على النظر فى عيني زوجته التى جلست فى مواجهته شاحبة جامدة كالجمة وهى تتذوق الأطباق دون أن تنطق بكلمة وقد غطت بشرتها بطبقة كثيفة من المساحيق البيضاء كالطباشير وارتدت ثياب العرس ووضعت زهور الليمون فى ثنايا شعرها .

وطلا جالسين هكذا وقتاً طويلاً يواجه أحدهما الآخر دون أن يصدر عنهما صوت . وكان "تيتيروس" يفتح فمه أحياناً ليتكلم .. ولكن الكلمات كانت لاتلبث أن تحتبس فى حلقة بينما العرق يتصبب من وجهه . وبدأت نسمات المساء تهب عبر النافذة فترتعش لها زوابع لهب المصباحين .

وفجأة مدت المرأة يدها وملأت كأسين إلى حافتهما بنبيذ "كيساموس" الأحمر والذي كان هدية يوم عرسها من مانوساكاس .. يرحمه الله .

ورفعت كأسها .. ودفعته في عنف نحو كأس "تيتيروس" فحطمتها وهي تقول في صوت عميق أجش كصوت الرجال دون أن ترفع كأسها إلى شفيتها :

- إننى أشرب نخبك أيها القاتل !

ثم نهضت .. واتجهت إلى فناء البيت وظلت فيه لحظات قبل أن تصعد إلى غرفة أخيها لتغلقها عليها . وفى الليل ، لم يسمع أحد صوتاً ، وفى الصباح وجدوا "فانجيليو" معلقة من عنقها بحبل غسل يتدلى من سقف الغرفة .

ووصلت الأنباء إلى الكابتن "بوليكسيجيس" وهو داخل حجرة "أمينة" فى الصباح الباكر . كانت الأرملة قد تهيأت لكى تنتصر .. ولكنها فضلت أن تنتظر حتى يسود الهدوء كبريت ، وحتى لاثير الأغوات .. وكانت سعيدة بأنها ستصبح نصرانية يتاح لها أن تخرج لتسير فى الطرقات بدون حجاب وأن تحرق حولها وهي داخل الكنيسة .. وأن يراها الناس ، وأن تداعبها الشمس ويداعبها الهواء فى حرية . وأن ترتدى الثياب اليونانية وأن تظهر شعرها الأسود لتستمتع الدنيا بمرأة ! كان المسيح بالنسبة إليها باباً تفتحه وتعبّر من خلاله إلى الطرقات بلا حجاب ! .

وبينما كانت تتأمل وهي مسترخية فوق سريرها إلى جانب الكابتن "بوليكسيجيس" .. فى كل فوائد الحياة كيونانية ، اقتحمت خادماتها الباب مشعثة الشعر ، كانت قد هرعت إلى العوانس الثلاث لتعرف آخر أنباء اليوم ، ثم ها هي ذى الآن تعود وقد شل لسانها .

وقالت وكلماتها تتعثر :

- كابتن ! ابنة أخيك "فانجيليو" شنقت نفسها .

وترك الكابتن "بوليكسيجيس" يد "أمينة" ونظر إلى المرأة :

- شنقت !؟ .. متى !؟ من قال لك ؟

- العوانس الثلاث ، الليلة الماضية فى بيتها . بحبل الغسيل .

وكانت "أمينة" أثناء ذلك قد تناولت مرأتها الدائرية الصغيرة من فوق الوسادة .. وأخذت تتفحص لسانها وأسنانها ورموش عينيها . ثم قالت :
- وووو ! لسانى أحمر هذا الصباح ، أين اللبان ياماريا ؟

وقالت المرأة وهى تبحث عن اللبان :
- يقولون إنها تركت زوجها وتبعته أخاها .
ولحظتها كان الكابتن "بوليكسيجيس" يفكر وهو يتنهد بعمق :
- يالسلالتنا وما أصابها ! ولا أطفال عندى .. !

ثم انحنى فوق "أمينة" التى كانت تتملى من جمالها فى المرأة ..
وتحسس جسدها فى رقة وهو يقول :
- سوف يكون ولدنا نصف كريتى ونصف شركسى . أعنى أنه سوف
يكون خالداً !

وأحس بأن صدره يمتلىء بالثقة وكأنه أدرك تلك الحقيقة لأول مرة .
ونفض ليخرج . ولكن ركبتيه كانتا ترتعشان .. ومن ثم فقد عاد يغمض فى
الفراس . لابد أن ينجب ولداً تجرى فى عروقه الدماء الشركسية ..
ليستطيع الوثوب إلى صهوة الجواد قبل أن تصل بصقته إلى الأرض !

كان قد حكم منذ زمن طويل بأن هذان الأخ والأخت ، ليسا من جنسه .
كانا أحط من أن يكونا من هذا الجنس : فالأخ سكير عرييد لا يصلح لشيء ،
والأخت امرأة مشاكسة عقيم . ولم يكن هناك أبناء أخ أو أخت غيرهما ..
كان خيط العائلة يوشك أن ينقطع . ولكن هذه الشركسية التى تجلس الآن
وهى تمضغ اللبان وتنظر فى مرأتها .. والتى تلفوح رائحة المسك من فمها ،
سوف تمنحه الولد .. الذى سيصبح رجلاً خالداً - والذى سيبقى على سلالة
الكابتن "بوليكسيجيس" إلى الأبد .

ولكنه عاد فتذكر كلمات المرأة البربرية .. وأحس بالخجل .
فغمغم يقول : "أمينة" .. ياطفلتى .. يجب أن أخرج الآن" .. ونفض

واقفاً وتمنطق بحزامه ووضع طربوشه فوق رأسه .
ورفعت "أمينة" ذراعها العارى ، فطرقت مفاصلها ، وقالت فى ضيق :
"إذهب" ..
ثم نظرت إليه بعينين ناعستين .. وتثأبت .

وخلال الايام الثلاثة التى انقضت بين موت "ديامانديس" وانتحار
"فانجيليو" ، جرت أحداث عنيفة فى كريت . ففى القرية ، اغتال
المسيحيون كثيراً من الاغوات واحداً بعد الآخر ، وفى ميجالوكاسترو فعل
الأتراك نفس الشيء مع المسيحيين ، ففى مقابل كل رجل اغتيل فى الريف
على يد المسيحيين كان يسقط اثنان من اليونانيين فى نفس الليلة ووسط
أزقة المدينة . وبدأ أن الزمام أفلت من يد الباشا ، ولم يعد أمامه سوى أن
يمسك بمنظاره المقرب ويتطلع من خلال النافذة يفتش فى البحر عن حملة
تركية قادمة .

وفى اليوم الثالث ، وفجأة عند الظهر - أغلقت بوابات القلعة .. ولم يعد
بمقدور أحد أن يدخل إلى المدينة أو يخرج منها .
ومع ذلك اليوم بدأ شهر رمضان . وصام الأتراك عن الطعام والشراب
والتدخين طوال اليوم . وعندما كان الليل يحل ويتلأأ أول نجم فى السماء ،
كان كل شيء يحل لهم ، وكان ثمة طلبة ضخمة أمام بيت كل تركى من
الأغنياء . وكانت تدق دقات كثيفة وعنيفة كأنها إشارات بدء الحرب . وما إن
كان المسيحيون يسمعونها حتى يتجمعون فى بيوتهم وهم يرتعشون خشية
أن يخرج الاغوات إلى الشوارع بعد أن يتناولوا إفطارهم ويقتحموا عليهم
الابواب .

وكان الجيران كلهم يتجمعون كل مساء فى بيت الكابتن "ميخائيليس"
يلتمسون الحماية فى القرب منه . وكانوا يسترخون فى الفناء - فالوقت
صيف - أو فى الشرفة ، بينما النساء منهم يتمددن فى حجرات النوم وكان
الكابتن "ميخائيليس" يظل داخل حجرته الصغيرة يراقب الموقف ، وفوق
رأسه بندقية معلقة على الحائط .

وفى إحدى الليالى كان ثمة تجمع بين المتحدثين وقادة المسيحيين فى

ميجالوكاسترو عند المطران فى مقر المطرانية ، وكان الكابتن "ميخائيليس" واحداً من بين المجتمعين ، كما كان من بينهم أيضاً ذلك الدب البحرى "ستيفانيس" الذى كان ينتعل حذاءه البحرى كما لو كان متأهباً للقيام برحلة من رحلاته ، كان يفكر فى تلك الايام الخوالى وكأنما نسى أنه أصبح أعرج .

وتحدث المطران فى إيجاز ولكن فى اهتمام وحذر . إن كريت تمر من جديد بأيام مظلمة لايعرف أحد مايمكن أن تسفر عنه .. وإن مملكة المسيح لفى خطر .

وعاد "البقة الوردية" يدلى من جديد باقتراح :
- سيدى المطران : .. امض لفورك الى أثينا" وقابل الملك . لابد أن يبعثوا إلينا بالمؤمن والذخائر ، فلسوف نضيع إن هم لم يفعلوا ذلك . ولكن اذهب إلى هناك بنفسك ياسيدى ، فإن وجه الرجل هو سيف .

ولكن المطران هز رأسه وقال :
- أنا لا أدع غنمى فى الساعة التى تتعرض فيها للذئاب . فليذهب الكابتن "إلياس" .
ولكن الكابتن "إلياس" قال غاضباً :

- إن زهرى لايزال قادراً على أن يتدحرج ! أنا لست عجوزاً ! وفى مقدورى أن أقود فى الحرب ، أنا لن أذهب .. فليذهب حامل القلم "حاجى - سافاس" .

ثم استدار إلى "حاجى - سافاس" الذى كان حاجباه الكثيفان لايزالان مشدودين من الغيظ .
وقال المطران :

- لاتورطوا أمتا التعيسة المسكينة .. اليونان معنا فى هذا الامر ، وذلك لايمنى سوى الدمار لها ، ولنثق بالقوى الكبرى وفى مقدمتها روسيا التى تؤمن بالحق مثلنا .

وقال الكابتن "ميخائيليس" :

- فلنثق في القوى الصغرى - قوانا نحن . هذا رأى .
وصاح الكابتن "إلياس" :
- ورأى أنا أيضا .. لماذا خلق الذئب بعنق قوى ؟! .. لكى يسحب
فريسته بنفسه !

وقال السيد "إيدومينياس" :
- فلنسلك أكثر من طريق ..
ولكن أحداً لم يستمع اليه ، واتفقوا جميعاً قرب منتصف الليل دون أن
يصلوا إلى قرار .

وتتابعت الأيام .. ليلة إثر نهار .. وكلها يملؤها الفزع . كان الأتراك
الجوعى يؤمون المساجد بالنهار تلبية لأذان المؤذن .. ويندفعون خارجين
منها بعيون كأنها زجاجية .. أو كأنهم قوم من العميان .. وفي الليل ، كانوا
يهرعون بعد أن شبعوا أكلاً وشراباً إلى المقاهى .. ويجولون الأجزاء
اليونانية من المدينة وهم يطلقون النار في الهواء ليرعبوا أولئك المتقوقعين
خلف أبوابهم المغلقة .

وكان "على أغا" يتسلل بحذاء الجدران كل ليلة بينما الأغوات الأتراك
لا يزالون على موائد الإفطار .. متجها إلى بيت الكابتن "ميخائيليس"
ليحيطه علماً بآخراً الأنباء : هذا ما قاله الإمام اليوم في المسجد .. هذه هي
الكلمات التي تردت في المقهى ، المؤذن حرضهم على العنف ، ولكن هذا
البك أو ذاك عارضه - أنباء طازجة ساخنة .. أولاً بأول .. وكل مساء .

وسمعت ثلاث دقات ناعمة فوق باب البيت .. ودخل "على أغا" مهموماً
ليجلس فوق مقعده بالقرب من الحوض بينما تطلقه الجيران كلهم . ثم قال
وهو يتنهد :

- هذ "التلغراف" الملعون ! إنه كلب رأسه في كريت ؟ وذيله في
القسطنطينية .. إن أحدهم ليشد الذيل في القسطنطينية فلا يلبث الرأس
أن يعوى بعد ساعة واحدة فقط في كريت .. ثم تبدأ المتاعب .

وسأله كراسوچورجيس " في قلق :
- المتاعب يا على أغا ؟! تكلم بوضوح ! ماذا تقصد ؟!

- لقد تلقى الباشا برقية اليوم تقول إن الجنود سوف يصلون غداً الى
ميجالوكاسترو ! .. ومعهم المدافع ، والفرسان يحملون علم الرسول
الأخضر .. هكذا يقولون .

وصاحت "بنيلوب" وهى تُدفن رأسها بين ركبتيها المنتفختين :
- أه ياديميتروس ! .. أى جحر سوف تزحف اليه حتى لا يدركك الجنود !
وبداً "على أغا" يصف الاحتفال الذى جرى فى المقاهى ، وكيف قرروا
هناك أن يتجهوا غداً الى الميناء وهم مدججون بالسلاح ليكونوا فى
استقبال راية الرسول ، وكلما استرسل فى حديثه .. اختفى الأسى فيه
بالتدريج : كان قد ارتفع كثيراً ! لم يعد ذلك الرجل المسكين المتواضع
الذى يقبع فى الركن فلا يلتفت اليه أحد .. بل أصبح رجل الأحداث ! .

وقال "ماستراهاس" وعيناه الطبيتان يملؤهما الذعر :
- فلندع الكابتن "ميخائيليس" ولنسمع مايقول . أنا لن أطأ بقدمى أرض
الشارع غدا .

وقالت "كريسانتى" :
- ولا أنا .. ولا حتى لزيارة المساء ، وليسامحنى الله .
كانت تحل كل مساء فى بيت الكابتن "ميخائيليس" تلتمس حمايته مثل
باقى النسوة الجارات ، فأخوها يقضى كل لياليه مع أمينة .. وبدلاً من أن
تصبح هى مسيحية .. فقد أصبح هو تركياً .. هكذا كانت تقول لنفسها ..
دون أن تجرؤ على التصريح به بصوت مسموع .

ونام الجيران تلك الليلة مثل الأرناب وهم لا يكادون يقدرّون على النوم ..
ويفكرون كيف يمكن أن يقتحموا أسوار سجنهم لينطلقوا هاربين منه .

وتناهت فى الصباح دقات الطبول فى الميناء .. ووقف الأتراك : طربوشاً
إلى جوار طربوش ، فصيخوا الحوائط باللون الأحمر . وصعد "ثاراساكى"
- الذى كان قد هرب من البيت - إلى قمة الصخور المطلة على مدخل الميناء
وظل يجول بنظرات عينيه . وكانت الباخرة الصدئة قد ألقت مراسيها ..
وبدأت تخرج من جوفها أناضوليين منتفشى الأوداج ذوى وجوه مجدرة ،

ومدافع وجياد ، تبعثهم أسراب من الدراويش فى ثيابهم الخضراء الزاهية .. ويقبعاتهم البيضاء المديبة ، والخناجر فى أحزمتهم ، ومالبثوا أن صعدوا إلى رصيف الميناء ونشروا راية الرسول الخضراء فى مواجهة بوابة الميناء وبدعوا يرقصون حولها فى بطنهم وهم يصفقون بأيديهم .

واقترب "ناراساكي" أكثر .. وفجأة بدأت رقصة الدراويش تصبح أكثر عنفاً .. وبدأ كل واحد منهم يدور حول نفسه وكأنه الدوامة .. حتى لقد أصبحت ثيابهم تصبح فى شكل الأجراس .. وبدأت عيونهم تحمر .. وانتزعوا خناجرهم وبدأوا يجرحون بعضهم البعض حتى لقد تناثرت الدماء حولهم وهم يصرخون فى ضراوة - ثم بدأت الرقصة تعود إلى بطنها وهديرها .. وعادوا يدسون خناجرهم فى أحزمتهم .. وبدأت صرخاتهم تصبح نصف حديث .. ثم كلمات واضحة ثم همساً .. ثم نحيباً ناعماً رقيقاً .

وعاد "ناراساكي" فى الظهيرة وقد أثاره ما رآه .. وقص كل شيء على مستمعيه الذين استبدت بهم الدهشة .

وسأله أبوه عابساً :

- ألم يستبد بك الخوف ؟
- لم أخف من الجنود .
- من الدراويش ؟
- ولا من الدراويش .
- ممن إذن ؟

وتردد "ناراساكي"

وحثه أبوه على الكلام وهو يرفع ذقنه إلى أعلى :

- .. هيا .. تكلم ..

وقال ناراساكي :

- من الراية الخضراء .. يا أبى !

غرقت "ميجالوكاسترو" فى الظلام وسادها سكون عميق فى الأيام القليلة التى أعقبت وصول فصائل الجنود ، وكان المسيحيون من الكبار يخرجون الى مقر المطران ويعودون منه . وفى ذات الوقت كان الاغوات

يعقدون اجتماعات فى مقر الباشا أو فى التكنات المليئة بالصخب والضجة .
وفتحت بوابات القلعة الثلاث ساعة واحدة كل يوم .. وعبرها ، تدفق
الفلاحون الأتراك بحريمهم وأمتعتهم وقد بدا عليهم الاضطراب والخوف .
وإمتلات بهم المساجد والتكايا .. وبدعوا يفتحون بيوت المسيحيين بعد أن
يقذفوا بسكانها إلى الخارج .

وبعث المطران بالسيد "حاجى - سافاس" إلى أثينا يحمل رسائل تهيب
بالأخوة اليونانيين أن يبعثوا بالسفن لإنقاذ الكريستيين المسيحيين من
الخناجر التى استلها الأتراك وشحذوها .

وفى إحدى الامسيات ، تجمع الجيران فى بيت الكابتن "ميخائيليس"
ليتدبروا أمرهم ويصلوا إلى قرار . ولم يتخلف منهم أحد . حتى الكابتن
"بوليكسيجيس" و"إيدوميثياس" ، و"تولوپاناس" الخباز وكوليفاس حفار
القبور ، والدكتور كاساباكيس وزوجته الفرنسية ... كلهم كانوا موجودين .
لم يتخلف سوى "أركوندولا" وشقيقها الأصم رغم أن الدعوة وجهت إليهما .
لقد كانت تعيش فى حماية الباشا ، ولم يكن ثمة ما يدعو إذن لأن تكون
حاضرة ، وكان أخوها قد انتهى فى تلك الايام من رسم صورة بالزيت
للباشا ، وكان يترك نافذته المطلة على الشارع مفتوحة عمداً حتى يظهر
المارة إعجابهم بصور الباشا المعلقة على الحائط فى إطارها الذهبى ..
وكانت الصورة طبق الأصل من الباشا .. لم تغفل شيئاً من تفاصيلها ، حتى
ذلك التؤلؤل فى أنفه .. أو تلك الشعيرات فى أذنيه والتى تشبه شعر
الخنزير ... لم تغفلها الصورة .

كان التجمع هذه المرة داخل البيت وليس فى فناءه حتى يامنوا
المتلصصين . وكان الكابتن "ميخائيليس" يبدو عبوساً : فقد ضايقه أن
يكون بين المجتمعين .. تلك المرأة الشركسية ... مع الكابتن
"بوليكسيجيس" .

وكان "ناراساكى" يجلس مع الرجال : فقد قال له أبوه :
- أنت تجلس معنا .. فانت رجل .
وساد الصمت طويلاً لأن رب البيت لم يتكلم . وضاق الكابتن

"بوليكسيجيس" بهذا الصمت ولم يعد يستطيع أن يتحملة أكثر مما تحمله
فقال موجهاً نظراته الى اخته التى جرته الى هذا الاجتماع :
- هل حضر كل الجيران ؟

لقد ذكرت له اخته أن الجيران سوف يقررون ما يفعلونه لينقذوا انفسهم
من ايدى الاتراك . ولكنه هو لا يستطيع أن يقرر شيئاً بدون "امينة" ، وكل
ماسيفعله المجتمعون الآن لايهمه إذن فى شىء .
وكاد الكابتن "ميخائيليس" أن يرفع رأسه ويقول : "لماذا انت هنا
يا"بوليكسيجيس" بك ؟ إن جيرائك يسكنون فى الحى التركى .. وبيتك
هناك حيث الباب الأخضر" .. ولكنه تمالك نفسه . إن الرجل ضيفه على آية
حال ، وليس من السلوك الطيب أن يفعل ذلك معه .. ومن ثم فقد لزم
الصمت .

ودخل تيتيروس . وكان قد احس بالقوة والشجاعة منذ ان ماتت زوجته .
ولم يعد يشعر بانة اقل من غيره من الرجال . لقد اثبت انه يستطيع أن يقتل
.. وأن يقتل ببراعة حتى أن القتل لم يزره فى الليل ! كذلك فإن زوجته
الميتة لم تضايقه يوماً أثناء نومه ، وكان التلاميذ هم اول من جرب فيهم
تيتيروس قوته : فلم يعد يسمح بأن يستثيروه كما كانوا يفعلون من قبل ..
وكان يضربهم بقسوة .. وهكذا بدأ يتكلم بدلاً من شقيقه :
- لقد اجتمعنا لى نقرر مايمكن أن نفعله لإنقاذ انفسنا من ايدى الاتراك ؛
وامامكم حل من ثلاثة حلول : إما أن تظلوا داخل بيوتكم .. وربما تتجنبون
بذلك المجازر ، وإما أن نهرب عبر بوابات القلعة وننتشر فى القرى .. وإما
أن ننتظر حتى تصل السفن اليونانية التى أرسل المطران فى طلبها من
اليونان . دعونا الآن إذن نختر واحداً من هذه الحلول .. ايها أكثر املاً لنا .
وبعدها نحزم امرنا والله يساعدنا ! .

وطرقت مفاصل المقاعد .. واتحتت الرعوس .. وكل واحد يزن الكلمات
لكى يقول رايه . ولكنهم جميعاً راوا العقبات فى طريق كل واحد من هذه
الحلول ... ومن ثم فقد كان القرار صعباً .

وكان اول الذين كسروا حاجز الصمت .. كاسباكيس الطيب - ذلك السمين
ابن الريف المجدر الوجه ، والذي بعث به ابوه الى باريس ليدرس الطب ..
وهناك ظل طيلة ثلاثة اشهر يواظب على حضور محاضرات فى القانون وهو
يظنها محاضرات فى الطب ! وعندما اكتشف خطاه .. وبعد أن اتى تماماً

على حقول ابيه ، عاد إلى ميجالوكاسترو وهو يضع على أرسه قبعة عريضة الحواف ومعه ابنة صاحبة الفندق الباريسية التي كان يسكن عندها . وافتتح بقالة في المدينة وها هو الآن يتكلم بعد تيتيروس :
- هناك حل رابع أيضاً يامدرس : ان تلجأ إلى قنصليات الدول الكبرى !

وعقب كراسوجورجيس متسائلاً :
- وهل هناك متسع فيها لنا جميعاً يادكتور ؟! انت تتكلم عن القنصليات وتبدو سعيداً .. ولكن حتى القنصليات .. هي مجرد بيوت بحوائط أربعة . لكم من الناس تتسع ؟ لعائلتين على الأكثر .. فماذا يفعل الباقيون ؟! وفتح ماسترلباس ، الرجل المقدس - فمه ليتكلم ولكنه سرعان ما أغلقه من شدة العصبية والقلق .

وصاح فيه تيتيروس مشجعاً :
- تلكم أيها الجار
- كما ترون ...
قالها .. وقد إحمر وجهه .

ووقف كراسوجورجيس بمعدته المليئة وجسده الذي يحتاج للاغتسال فقد غرق في عرق القلق والاضطراب طوال اليوم وأصبح جسده يبعث بكل الروائح التي يمكن ان تنبعث من الرجل .. ونظرت اليه زوجته في افتخار وزهو : كانت تعشق زوجها حين يكون مضطرباً هكذا ..

وساله تيتيروس :
- كلنا اذان صاغية ياكراسوجورجيس .
- فاستمعوا إذن إلى ما أفكر فيه .. إن أفضل الطرق إلى الامان هو الطريق إلى القرى . أم اننا سنظل محبوسين هنا كالفئران في المصيدة ؟! كثيراً ماذبح الاتراك اليونانيين قبل هذه المرة ، فعلام ننتظر السفن ؟ ام اننا ننتظر المعجزة ؟ انا لا اثق في اثينا . هم يتمنون ولاشك ان يساعدونا ولكنهم لا يستطيعون لانهم يخافون تركيا وخافون الفرنسيين . كم مرة كان اليونانيون

وقاطعه كولياس :
- ولكن .. كيف الهرب ياجارنا ؟ .. هذا هو المهم ! إن معنا كومة من الاطفال .
فقال كراسوجورجيس :

- انا لا اثق باثينا .. ولكننى اثق بنفسى . اتركوا لى القيادة وانا اقسم بالخير الذى اكله اننى سوف اقودكم جميعاً الى الجبال - انتم وزوجاتكم واطفالكم وكل امتعنكم ! .

وعلت الهمهمات .. واقترب الجميع من كراسوچورچيس الذى صمت لحظات وهو يراقب فى زهو اثر كلماته على جيرانه . انظروا ! لقد كانوا دائماً يحتقرونه لأنه مختل عاطل ينتعل حذاء مرقعاً .. والآن سوف يعرفون قدره ! .

وقال الطبيب الذى كان قد ساءه الا يعير احدهم إهتماماً لما طرح من حلول :

- فلنسمع إذن خطتك ! إن ماتعد به امر كبير يا جارتنا . ولست ارتاح لذلك .
- ولا انا يا طبيب . ولكن اسمع : إن عثقتى طيبة بالجنود الذين يحرسون بوابة المستشفى . لآتسالونى كيف ولماذا ! .. عملية تهريب صغيرة - جمدانثان او ثلاث من الراعى .. صندوقان او ثلاثة من الطباقي ، خيط او خيطان من النقانق اشيء تعودت ان اقدمها لهم كهدايا حتى يعلقوا عيونهم ... لاداعى الآن لمزيد من التفاصيل ... المهم اننى سوف اشحم العجلة من جديد .. وبعدها سوف ننزلق جميعاً دون ان يمسننا اذى .

وصاح كولياس :

- عشت يا كراسوچورچيس ! .. اننى ائتمنك على اولادى بكل سرور ..
وقال مستراباس وهو يختلس نظرة الى زوجته ليرى ما إذا كانت توافقه :
- وانا ايضا ..

وفى تلك اللحظة .. سمعت ثلاث دقات ناعمة على الباب .
وقال تيتيروس وهو يتجه الى الباب ليفتحه :
- على اغا !

ولكن الكابتن "ميخائيليس" رفع راسه وقال :
- اذهب به الى الخارج !

وفتح تيتيروس الباب وقال :

- على اغا .. لاتغضب منا ، نحن مجتمعون هذا المساء .. فعد غدا .
ولكن على اغا ظل بالرغم من ذلك واقفاً عند الباب :
- جئت اقول لكم إن الاغوات يدبرون قتلكم .
- متى ، بحق الله !؟

- قريبا .. اثناء احتفالات عيد الفطر
- ادخل

ودخل الرجل العجوز واستند إلى الباب من الداخل وقال في نبرات متعالية :

- عمتم مساء ايها الجيران .
كان يحمل انباء مخيفة تستحق ان يخال الان بها ! ولكنه اجفل حين وقع بصره على الكابتن "ميخائيليس" .. فقال :
- معذرة .. انا فى عجلة من امرى . ولكن ، كان لابد ان اجيء ، إذا كنتم تؤمنون بالله فحاذروا ايها الجيران ! إن الاغوات يعدون العدة لمجزرة قبل عيد الفطر . وقد قسموا بالفعل مختلف اجزاء المدينة . وقد عهد بهذا الجزء الذى يسكنه الكابتن "ميخائيليس" إلى افضل فرسانهم .

وقال الكابتن "ميخائيليس" وهو يشير بيده :
- حسن ... فانصرف الان .
ولكن ماستراباس قال :
- حاول ان تعرف كل مايمكنك ان تحصل عليه من معلومات يا على اغا واقدم علينا بها مساء غد .. إلى اللقاء !

واجتاز الرجل العجوز ساحة البيت إلى الخارج .. وما إن اصبح فى الشارع حتى اسرع متجهاً نحو المقاهى التركية .
ووقف الكابتن "بوليكسيجيس" :
- معذرة فلدى مشاغل هذا المساء . وسوف تخبرنى شقيقى بكل ما يستقر عليه رأيكم . كل ما اريد ان اضيفه هو اننى سوف اذهب إلى الجبال - فذلك مايتطلبه الشرف .

فقال الكابتن "ميخائيليس" :
- جميل أنك تذكرته !
واسرع الكابتن "بوليكسيجيس" يحدث الخطى . كان الوقت متاخراً ولابد ان "امينة" قد اوت إلى فراشها .. وانها تمضغ الان اللبان حتى لا تستسلم للنوم وهى تنتظر عودته .

واتجه الكل بابصارهم إلى الكابتن "ميخائيليس" ليروا ماسيقول . وكان هو قد احس بالارتياح بعد ان خلا الجو من رائحة المسك ورائحة تركيا . ورفع يده وقال :

- ايها الجيران ، كلنا هنا رجال ومعنا سلاحنا . إنني لأحس بالخجل إن
أنا غادرت كريت وتركتها في مثل هذه الأيام الصعبة . فلنخرج النساء
والاطفال . لقد تكلم كراسوجورجيس وكان كلامه طيباً ، أما بعد ذلك فليس
أماناً إلا حل واحد : سلاحنا ! أنت أيضاً يامدرس سوف تكون معنا .. وكذلك
أنت ياسيد إيدومينياس كلكم ! .

وكان العجوز تولوياناس لحظتها يداعب إبهامه بعصبية وقد أحنى رأسه
مفكراً في ولده الذي لم يعد في وجهه أنف أو أذن أو شفة .. أين ذهب هذا
ياترى ؟ ومن الذي يرضى بأن يصحبه معه ؟ إن منظره أصبح بشعاً ، وقد
يعدى من يلمسه ، وقد جاءت الشرطة أول أمس لتأخذه إلى قرية المخدمين
فصرخت أمه واضر الرجل العجوز إلى أن يدس بضع عملات فضية في أيدي
الجلويفية ليعودوا أدراجهم .

وبالرغم منه ، أفلتت عن صدره تنهيدة عميقة حتى لقد استدار نحوه
الجميع وسالوه في دهشة :

- ماذا حدث يا جارتنا ؟

وقال والدموع تجول في عينيه :

- لأشياء .. لن أذهب معكم .. إلى أين أذهب ؟ ومن الذي سوف يرضى
بأيوائى ؟

ونهض واقفاً . ولم يرفع واحد من الحاضرين يداً تمنعه ، وظل يتعثر في
مشيته حتى وجد طريقه في الشارع .. واختفى .

وقال تيتيوس :

- اتفقنا ... وصلنا إذن إلى قرار ، مارايك ياسيد إيدومينياس ؟ أنت لم
تفتح فمك حتى الآن .

- أنت تعرف رأيي .. كلكم تعرفونه . ولقد عبرت عنه مراراً كل ماتقولونه
وتفعلونه ليس إلا زبداً وجفاء ... طالما بقي خليج "سودا" ..

وصاح الطبيب وهو يغالب الضحك :

- اتفقنا !

ثم أمسك بقبعته الضخمة متعباً للإنصراف ، فقد أوشك الليل أن
ينتصف .

وقال الكابتن "ميخائيليس" :

- يا طبيب .. سوف تكون معنا فى طريقنا إلى الجبال ..
- ولكن ...
- ليس هنا ولكن ! .. سوف تصبحنا .. لهذا أصبحت طبيباً . وسوف يكون
هناك جرحى .

ونظر الطبيب إلى زوجته التى كانت تجلس إلى الطرف الآخر من الديوان
وهى لاتفهم بالضبط ما يدور وما يقال . وضغطت على فمها بمنديلها وسعلت .
كانت المسكينة قد تغضنت واصفر جسدها . وكانت تتلفد على أن ترى
السك الحديدية الكريمية تمر ببابها وتهز عتبات الدار . لم تعد باريس الآن
سوى اسطورة بعيدة عنها كل البعد .. آه .. لو كانت تستطيع أن تستقل
بأخرة او زورقاً ... او حتى محارة - أى شئ لتهرب بعيداً . أى شئ لتهرب
بعيداً ...

ووقف الكابتن "ميخائيليس" وقال قبل أن يصعد إلى غرفته الصغيرة :
- ما قلناه الآن ... سوف ينفذ .
... لقد تكلم كثيراً .. واحس بحاجة إلى أن ينفرد بنفسه .
وتنافس الجيران بارتياح .. وانحلت عقدة الألسن .. حتى النساء شاركن
فى الحديث ، ودخلت رينيو باطباق الراكى والمرئى والقهوة .

وقال كراسوچورچيس وهو يرفع راسه محياً زوجة الكابتن "ميخائيليس"
:
- فى صحتك ياسيدتى .. متعك الله بمن تحبين .. وفى صحتك ايض
يارينيو .
وقرعت الكئوس ، وشرف الجميع ، وعادت رينيو تملؤها من جديد .. كان
الجميع سعداء .

وصاح كراسوچورچيس وهو يزىم شفتيه فى قبلة إعجاب :
- ماروع ماتفعله قطرة شراب واحدة ! كاس واحد من الراكى ليس اكبر
من الكشتبان .. روحى فداء - ولكن تركيا كلها تغرق فيه ! نعم .. نستطيع أن
ارى فى قاعه السلطان نفسه .. غارقاً .. ميتاً !

وقال تيتيروس :
- ليس ذلك مايفعله الراكى .. بل ماتفعله الصلبة .
وقال ماستراباس وقد بدأت عقدة لسانه تزول بتأثير الشراب .
- معك حق يامدرس ! إن الرجال مثل الاجراس ، الموت نفسه لا يخيفهما او
يفزعهما إذا كانت تدق .

وكانت أذنه حساسة للغاية ، ففي الصيف الماضي لم يكن يستطيع النوم في قريته في الليلة الأولى : فقد كانت أجراس أحد قطعان الأغنام في الجبل لا تتفق جميعاً في انغامها ، ولقد أزعجه ذلك لدرجة أنه غادر فراشه في غيش الفجر .. وصعد الجبل : وبحث عن القطيع حتى إذا وجده أصلح الأجراس وضبط انغامها .. ثم عاد إلى بيته .. ونام في ارتياح .

وعاد يكرر ما قال :

- الرجال مثل الأجراس سواء أكانت خشبية أو نحاسية .. أو أجراس كنائس ، صغيرة أو كبيرة - كل واحد منها له صوته الخاص ، وما أشد سعادة القطيع عندما تكون دقات جرس سيدها منتظمة ! .. بعدها لا يمكن أن تخشى الذئب نفسه .

ولكن السيد إيدومينياس هز رأسه ، كان يقول لنفسه : " ما الذي يدعوني إلى البقاء هنا ؟ وأى معنى لهذا الحديث ؟ " .
ونهض واقفاً وقال موجهاً الحديث الى نيتيروس :
- هيا يا ولدى .. نم معي في البيت وكن في صحبتي .

كان قد أحس بحاجة إلى حديث أكثر ارتفاعاً في مستواه .. ويستطيع الآن أن يتبدل الحديث معاً حول النجوم أو حول خلود الروح . فلم يكن هناك أمر يحيره في الدنيا سوى هذين الأمرين ! .. وسوف يكون هناك بجواره خليج "سودا" فحسب .. أما ماعدا ذلك فضجة ودخان .

وتفرق الجمع .. عاد إلى بيته كل من منحه شراب الراكي بعض الشجاعة ، أما الآخرون فقد استلقوا في ساحة البيت وفي شرفته . أما النساء فقد دخلن غرفة النوم . وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل .

وكان ثاراساكي قد استمع إلى كل مدار من أحاديث دون أن ينطق بكلمة ، ولكن الإيماءات التي صدرت عن الجيران كانت قد انطبعت تماماً في ذهنه - الخائفين منهم ، والأكثر تماكاً لأعصابهم .. ثم - بعد الراكي ! - السعداء الفرحين . وكان أكثر ما أثر فيه هو أبوه الذي ظل محنياً رأسه طوال الوقت .. ولم يرفعها إلا للحظة واحدة حين قال كلمة أو كلمتين .. ثم عاد فاحناها من جديد . كان ذلك يعني أنه لم يشأ أن يقلد الرعوس الأخرى الثرثرة حوله . ومن خلال كل تلك الأحاديث والمناقشات كان ثاراساكي يزداد نضجاً .. ويدلف إلى الرجولة دون أن يدري .

كانت المدرسة قد أغلقت أبوابها ، وكان هو يستيقظ من نومه مبكراً لينضم إلى أبيه في الدكان ويظل يتابع بعينيه كل انفاسه . وكان قد بدأ

شيئاً فشيئاً السبب في ان إياه لا يكثر من الإشارات والإيماءات .. ولا يتكلم أو يضحك ... وفي أنه يحقر الرجال والنساء جميعاً ، ويعرف أيضاً أنه سوف يصبح مثله تماماً في يوم من الأيام وليس مثل الكابتن "بوليكسيجيس" أو كراسوچورجيس أو تيتيروس . وبينما كان ذلك كله يدور في أعماقه اتجه نحو الميلاء ، وهناك تناهت إلى سمعه صيحات ولعنات ، فأوسع الخطى حتى إذا أصبح أمام محل حلاقة السنيور "پاراسكيڤاس" ، رأى جمعاً من الأتراك واقفين ببابه ، وقد تحلقوا الحلاق المسكين وهم يسبونهم ويصقون عليه .. ويرفعون خناجرهم في أيديهم . وكان المسكين يقف وسطهم وهو يرتعش وقد تمزق قميصه ولطخله الدماء واكتسى وجهه باثار البيض الفاسد والطماطم . وهو يؤكد للأتراك أنه سوف يهرب عائداً إلى "سيرا" ، وأنه لن يطا كريت بقدميه مرة أخرى .. ويتوسل إليهم كي يرحموه ويرحموا ابنته التي يجب ان يجد لها زوجاً .

واحسس ثاراساكي بالآسى من أجله ، واسرع عائداً إلى أبيه الذي كان يجلس إلى المائدة وقد انحنى يكتب رسالة لابن أخيه "كوزماس" الذي أصبح فرنسياً : "إذا كنت رجلاً حقاً ، وإذا كان لا يزال فيك بقية من خجل ، فإترك أرض الفرنسيين وفكر في بلادنا نحن . إنها تحتاج إليك .. فقد حانت الساعة ، من أي مادة ولدت ؟ ولماذا تنتسب إلى كريت ؟ إحضر فوراً .. واحمل السلاح مثلما يحمله غيرك من الشباب . هناك شيء آخر ينبغي أن أقوله لك يا ابن أخى" .

... وهنا اقتحم عليه "ثاراساكي" المكان وقد بدا عليه الاضطراب الشديد وصاح :

- أبى ... إنهم يحاولون قتل پاراسكيڤاس - أمام دكانه .. انقذه يا أبى ! ..

وتهض الكابتن "ميخايليس" واتجه إلى عتبة الدكان ليرى ما يحدث . كان جمع من عمال الميلاء قد شدوا وثاق پاراسكيڤاس ، ولم يكن ثمة مسيحي واحد في الشارع وكان معظم المسيحيين قد أغلقوا دكاكينهم واختفوا . واستطاع الكابتن "ميخايليس" أن يلمح الخناجر تلمع تحت أشعة الشمس .

- أبى ... ! ... انت لست خائفاً ؟

وحقق الكابتن "ميخايليس" البصر أمامه ، وكان عدد الأتراك ضخماً .. والهجوم عليهم يعنى الموت المؤكد ، ولكنه أحس بالخجل أمام ابنه .. ولم يكن الكابتن "ميخايليس" متهوراً .. بل كان يكره التصرفات المندفعة . أما الآن !

وعاد ابنه يسأله :

- ألن تذهب يا أبى ؟ .. هل أنت خائف ؟

- بل سأذهب ..

.... ثم اقترب من الجمع ..

سار فى بطء وهدوء ، ووجهه لاينم عن غضب أو خوف .

وعندما أبصر به الأتراك قادماً نحوهم ، وقفوا ساكنين . ماذا يريد هذا

الكافر ؟ ألا يخشاهم ؟

وحين وصل الكابتن "ميخائيليس" ، رفع يده مشيراً إليهم بأن يدعوه

يدخل وسطهم ، وتحركوا جانباً وهم فى ذهول ، ماذا سيفعل ياترى ؟ حتى

أشدهم غلظة خفض خنجره .

واتجه .. الكابتن "ميخائيليس" نحو السنيور پاراسكيثاس وجذبه من

أذنه وقد بدا الاحتقار على ملامحه ، ولوى الأذن وهو يهزه بعنف ويقول

بلهجة قاطعة :

- سر ! إلى البيت ! لاتدع بصرى يقع عليك مرة أخرى ! .

وأخفى پاراسكيثاس رأسه بين كتفيه وسار متعتراً مع الكابتن

"ميخائيليس" الذى كان لايزال يلوى أذنه . وتركهما الأتراك يمران دون

اعتراض .

وعاد الكابتن "ميخائيليس" يقول فى احتقار :

- عد إلى بيتك ! بسرعة .

وبدا پاراسكيثاس يعدو ، حتى اختفى فى أول منحى قابله ، بينما وقف

الأتراك يحدقون فى الكابتن "ميخائيليس" دون أن يفعلوا شيئاً .. وهو يسير

ببطء بنفس الطريقة الهادئة حتى وصل إلى دكانه .

وأخذ ثاراساكى يتابعه ببصره فى دهشة وهم بأن يوجه اليه سؤالاً

ولكنه ظل ساكناً بينما أبوه يعود فيجلس إلى المائدة ويمسك بالقلم ..

وينحنى لينهى الخطاب الذى كان يكتبه ..

".... ياإبن أخى .. وهو أن عملك مانوساكاس"

الفصل التاسع

إنتهى شهر الصيام .. وجاء الاحتفال بعيد الفطر ، وارتدى الأغوات أحسن ملابسهم وامتلات بهم المقاهى حيث كانوا يجلسون متوجين فوق الوسائد الطرية الناعمة . وأخذ الصبية المرد الأتراك يلون أعناقهم ويغنون الحانهم ذات النغمات الطويلة الرتيبة . وطلب هاربايانيس - نظراً للحرارة الشديدة - أن يحمل إليه الثلج من سيلورتييس ثلاثة حمير وبدأ يجرى هنا وهناك حاملاً صفيحته البرونزية ويقدم للأغوات الشراب البارد المنعش .

وبدأت الطبول فى التكنات القريبة من الأقباء الثلاثة تدق منذ الصباح الباكر ، كما بدأت المدفعية تطلق طلقاتها تحية بهذه المناسبة . وأخذ الباشا مكانه بين المصلين فى المسجد الجديد ومعه الضباط فى ثياب الرسمية المزركشة ، وظلت دوائر المصابيح مضاءة فوق المآذن . وفى تـ "حميده مولا" اكتسى ضريح ولى الله بالورود وزهور البازلاء ، بينما جا أفندينا أمامهم متربعا يقرأ القرآن وهو يهز نصفه الأعلى إلى الأمام و الخلف .. والمصلون من المشايخ حول الضريح يركعون فوق حصرهم و أحضروا معهم أراجيلهم يدخلونها بعيون نصف مغلقة .. وينصتون إلى القرآن ويهمهمون له استحساناً فى أصوات تشبه طنين النحل .

كانوا سعداء .. فقد دخلوا الجنة وهم لا يزالون أحياء . لم يكونو يفتقرون إلى شىء طيب فى الحياة . ومن خلال الشقوق فى الباب ، كانت تتناهى ضجة ميجالوكاسترو وصخبها فى رتابة متصلة كأنها حفيف الماء .. ومن البحر ، كان يتناهى صوت هديره من بعيد . وكانت العجوز حميده مولا تجرى حافية القدمين هنا وهناك تقدم الحلوى للأتراك ، أو تحمل جمرات

مشتعلة من الفحم تنعش بها هذه النارجيلة أو تلك فى حرص ، حتى تظل
تبقى فى بهجة مثل حمامات تهدل حول ضريح الولي .

وبينما كانوا غارقين فى غيبوبتهم القربوسية ، سمعت فجأة صيحات
عالية وأصوات أبواب تصفق ، ونساء تصرخ .. وطلقات غدارات تمزق
الهواء . وطارت البركة المقدسة .. وقفز المشايخ واقفين .

ووضع أفندينا القرآن فوق كومة الزهور . ثم اندفع نحو الباب وفتحه ،
وإذا به يرى جمعاً من الأتراك وقد وضع كل منهم سكينه بين أسنانه وهم
يهدرون مارين بحذائه وقد تلوثت صدورهم وأسلحتهم بدماء الكفار .

وكان على رأس هؤلاء : سليمان . خادم الباشا العربى ، عارى الصدر
والقدمين إلا من برنس أصفر اللون حول كتفيه ، وعيناه تقذفان بالشرر ..
والزبد يكسو شفثيه الغليظتين .

وكان يلوح بسيفه المعقوف فى عنف فيحدث فى الهواء صفيراً ..
ويصيح هادراً :

- فليسقط الملاحين ... ! فليسقط الكفرة .. !

واشرب أفندينا بعنقه خارج الباب وصاح :

- إلى أين أيها الأخوة ١٩

وصاح العربى :

- لنذبح هذا الشقى اللعين ونشرب من دمه !

- من تقصد ياسليمان ١٩

- الكابتن "ميخائيليس"

وصاح أفندينا وقد امتقع وجهه من الألم :

- ألا تخاف الله ؟

ولكن صوته ضاع وسط الهدير الذى كان يرتفع من ساحات بيوت
المسيحيين ، فقد اقتحمت أبوابها . وهرعت النسوة إلى الأسطح ، بينما
ألقي بعضهن نفسه من الذعر وأطفالهن بين أيديهن ، وأسرع الرجال إلى

اسلحتهم للحظات - ولكن مالبثت الطلقات والضربات والصيحات أن خفت
ثم ابتعدت .

وكان الكابتن "ميخائيليس" لاحظتها يقف خلف باب بيته قابضاً على
سلاحه ، بعد أن أمر أسرته بأن تصعد إلى غرفة النوم وإن كان قد أبقى
معه ابنه ثاراساكى .. وقال له :

- اقترّب .. واستمع جيداً إلى ما سأقوله لك .. إذا حاولوا أن يفتحوا
الدار ويشقوا طريقهم إلى داخل البيت بالقوة ، فسوف اقتلكم جميعاً حتى
لا تقعوا في أيديهم ، وستكون أنت الأول يا ثاراساكى .. هل فهمت ؟
- فهمت يا أبى ..

- وهل توافقنى ؟

- أوافقك

- فلا تخبرهم إذن .. فهن نساء .. وسوف يستبد بهم الذعر .
- لن أخبرهم .

وصمت الرجلان .. ووفقاً يسدان الباب من خلفه وهما ينصتان فى
استغراق شديد للأصوات فى الطريق .

وكان ثمة جيران قد هربوا فى الأيام السابقة . كان أولهم
"كراسوچورچيس" و"ماستراپاس" و"كوليفاس" ومعهم كل أطفالهم
وفى اليوم التالى هرب "بنيلوپ" و"كريسانتى" شقيقتا بوليكسيجيس
اللذان تخفيتا فى زى الهوانم التركيات . كذلك هرب "تيتيروس" الذى
ارتدى ملابس تركى فضفاضه ووضع على رأسه عمامة بيضاء وأخف
عويناته فى صدره وانسل من بوابة المستشفى . أما "تولوياناس" فقد بق
هو وابنه ، وأما الطبيب فقد رفع علم فرنسا فوق داره ، بينما أعل
"إيدومينياس" أنه لن يهرب ، وثبت أعلام القوى الكبرى فوق النافورة

وكان ثاراساكى يتوق إلى الخروج الى الحقول والجبال ، وقد سأل أبا
بالأمس :

- ومتى نخرج نحن يا أبى ؟

- سوف نكون آخر من يخرج بعد كل الجيران .

- ولماذا ؟

- ابحث بنفسك عن الجواب .

قالها .. ولم يقل بعدها كلمة أخرى !
كان الوقت ظهراً ، وكانت صرخات ميجالوكاسترو تحت وطأة خناجر
الأتراك وسكاكينهم .. تملو فزعة مرعبة شيئاً فشيئاً ، واعتلى المؤذنون
مأذنتهم ليعلنوا حلول موعد صلاة الظهر .. ولكي يعلنوا الشكر لله والحمد .

... وفي ذات اللحظة كان ثمة خمسة أو ستة من عمال الميناء الأتراك
يهرعون إلى حديقة "بيرقولا" ويدكون باب بيت السنيور باراسكيافاس
بقضيب من الحديد ، ثم يندفعون إلى الداخل ليجدوا ابنته تخبئ تحت
الديوان .. فيسحبوها بعنف ويطرحونها على ظهرها بينما اتجه
اثنان منهم ليخرجوا الحلاق التمس من وراء بعض الجرار ، جذياً من العنق
إلى عتبة الدار .. ثم يذبحوه ذبحاً وبعدها ، يحملون معهم بيرقولا المسكينة
التي كانت تنزف دمأ ... ويندفعون بها إلى الخارج .

وسمع الكابتن "ميخائيليس" أصوات الطلقات من ناحية نافورة
إيدومينياس عند نهاية الشارع . وغغم وهو يعد بندقيته :

- ها قد وصلوا ..

ثم استدار ينظر الى ابنه ويقول مرة أخرى :

- ها قد وصلوا ..

وقال ثاراساكي وهو يعد غدارته الصغيرة :

- ها قد وصلوا ..

... وكان أبوه قد علمه في الأيام القليلة الأخيرة كيف يطلق النار ..
وقال الأب وهو يحدق طويلاً في ولده :
- يبدو أنك لست خائفاً .
- ولماذا أخاف يا أبى ؟! لقد تعلمت كيف أطلق النار .

وباعد ما بين ساقيه مثبتاً أقدامه في صلابة فوق صخور ساحة الدار ...
وانتظر ...

وبدأت الطلقات تخفت شيئاً فشيئاً ، كان الأتراك قد أسرعوا نحو

النافورة ، واندفعوا يضربون باب الدار بأكتافهم حتى هوى الباب الصدى
القديم .

وكان السيد "ايدومينياس" يجلس منذ الصباح الباكر إلى مكتبه يدبج
رسالة وجهها الى القوى الكبرى .
.. يا اقوياء العالم ! فى هذه اللحظة ، وأنا اكتب هذه السطور فوق
الورق ، يجرى ذبح أبناء ميجالوكاسترو المسيحيين . ومرة أخرى يمتلك
الجو بطلقات الرصاص ، وتقتحم عصابات الأتراك بيوت المسيحيين ..
يغتصبون نساءهم ، ويقتلون الرجال ويلقون بالأطفال فوق الأرض
ويسحقون رموسهم" .

"إننى أرفع صوتى .. أنا لاشيء .. رجل لاقيمة له ، ضائع عند أطراف
أوروبا .. بعيد عنكم يا اقوياء الأرض ! ورغم ذلك فإن الله منى قريب ! إنه
غاضب ، يهز الحجرة التى اكتب فيها رسالتى هذه ، إنه لا يتكلم .. ولكنه
سبحانه يضم شفثيه وينتظر جوابكم على رسالتى . وينبغى أن تعرفوا -
أننى لن ابعث برسائل مرة أخرى بعد هذه المرة ، فقد صحت وصرخت فى
البرية بما فيه الكفاية .. وإذا أنتم لم تجيبونى هذه المرة .. فسوف أتجه
إلى الله و"

وهنا ، توقف "ايدومينياس" ، فقد سمع صوت الطلقات فاشرباب بعنقه
بتطلع من خلال النافذة ، ورأى الأتراك وهم يضربون باب البيت بأكتافهم ..
وصاح :

- ماذا تريدون ؟ ... هل أصابكم العمى ؟ ألا ترون أعلام القوى
الكبرى فوق النافورة ؟

وارتفعت الصيحات الساخرة ، ومرق حجر ليصيب أذنه وذقنه ، ثم
ليحطم بعد ذلك مرآة فينيسية قديمة كانت معلقة خلفه فوق الحائط .
وقفز إيدومينياس إلى الخلف ووضع يده فوق أذنه الدامية ، وصبح كفه
بالدما ثم ضغطها فوق الخطاب الذى كان يعده للقوى الكبرى !

وصاح :

- هكذا .. هكذا .. هكذا ينتهى هذا الخطاب ، ولعل دماء كريت أن تقح فوق رعوسكم ورعوس أولادكم وأولاد أولادكم فى انجلترا وفرنسا وإيطاليا والنمسا والمانيا وموسكو !

وفتح الباب بعنف ، واقتحم الأتراك ساحة الدار والخناجرين أسنانهم ، وطرحوا "دوكسانيا" العجوز أرضاً بينما كانت تقف عند عتبة الدار تحاول أن تسد طريقهم بذراعيها الممدودتين .. ثم داسوها بأقدامهم واندفعوا يصعدون الدرج وهم يصيحون ، والمنزل كله يهتز من أساسه .

وسمع إيدومينياس أصوات الجمع الهمجى يقترب .. وأحس بأن اللحظة تقترب ، لابد أن تشرف نفسك يا إيدومينياس !
ونظر حوله - كان يريد أن يختار بمحض إرادته الأسلوب الذى يموت به . لم تكن هناك أسلحة معلقة فوق الحوائط ، فلم يكن يحتاج إليها . لقد كان يناضل بعقله وليس بالسيف . كان القلم هو سلاحه . واتخذ قراره : "سوف أبقي ثابتاً هنا فى موقعى" .. ثم ضرب المائدة بقبضة يده "هنا سوف أحارب ، هنا سوف أموت !"

ثم جلس .. وأمسك بالقلم ..
واقتحم عليه الأتراك الباب ... ثم مالبتوا أن وقفوا ذاهلين ، فقد وجدوا "إيدومينياس" منحنياً فى هدوء فوق ورقة ملوثة بالدماء .

وصاحوا :

- يا كافر ! ... أين تخبىء أموالك ؟

ورفع "إيدومينياس" رأسه وأشار إلى جيبته .. ثم قال بهدوء :

- هنا ...

وضحك واحد منهم :

- وهل رأسك خزانة نقود ؟

وصرخ آخر :

- فاقسمه إذن نصفين يا برايناس - حتى نرى ما بداخله .

وقبل أن يتمكن "إيدومينياس" من الرد ، كان التركي قد ضرب الرأس بسيفه .. فشقه من الحجاب إلى الحلق .

واندفع الجمع كالعاصفة داخل حجرات البيت ، وطوح بالملابس القديمة والمهلهلة ... وبالمقاعد والموائد والحشايا .. إلى الشارع .

وعندما أصبح الجمع عند ركن الدار ، التقى به سليمان العربي الذي كان مع عشرة من الدهماء حفاة الاقدام فى طريقهم إلى بيت الكابتن "ميخائيليس" ، وسأل سليمان وقد توقف يلهث :

- من أين أنتم قادمون ؟

- من بيت إيدومينياس .

- دعوا الكابتن "ميخائيليس" ولا تقربوه ، وإلا شربت من دمائكم . إنه

محجوز لى أنا !

ثم اتجه إلى النافورة .. ورش جسده بالماء . وشرب بشراهة وكأنه ثور استبد به العطش . كما شرب رفاقه العطشى . ونظر أحدهم من خلال الباب المفتوح على مصراعيه فرأى امرأة عجوز ملقاة فوق أرض ساحة الدار تنتحب وتندب الميت وتشد شعرها ، وسأل باقى الرفاق :

- هل نقلتها ؟

- إنها امرأة كنيية يامصطفى !

وصاح العربى :

- هيا بنا ... !

واندفعوا يطوحون بسيوفهم فى غرور وخطرسة . وخلف الباب ، كان الكابتن "ميخائيليس" ينصت إلى الجماعة وهى تقترب ويميز من بينها صوت سليمان الوحشى .

وقال لنفسه :

- إنهم قادمون من أجلى !

وركع خلف حوض الماء مستخدماً أياه كساتر ، وجذب ثاراساكى ليركع إلى جواره .. ثم همس وهو يرسم علامة الصليب :

- المسيح سوف ينتصر ..

ثم استدار إلى ولده وقال :

- تشجع ياولدى ..

وكانت أول مرة يسمع فيها ثاراساكى أباه وهو يتكلم برقة .. ويناديه بـ"ولدى" ! ... واحمر وجهه من فرط السعادة .
وكان الجمع قد أصبح أمام الباب تماماً ، وأخذ سليمان يصدر توجيهاته :

- رجل يتسلق الجدار معتلياً ظهور زملائه ليقفز إلى داخل ساحة البيت .. بينما يقتحم الباب رجل آخر : ولكن .. حذار أن يمس أحدكم الكابتن "مياخيليس" .. إنه ملكى أنا ! لقد أهاننى ... وسوف أنتقم منه - سوف أسحبه سحباً إلى الشجرة العارية ، وأمزقه إرباً إرباً ... وأقذف بلحمه إلى كلاب ميغالوكاسترو !

وسمع ثاراساكى ذلك التهديد .. ونظر الى والده الذى كان فى نفس اللحظة يصوب بندقيته باتجاه أعلى الجدار .. وسأله :
- هل سمعت يا أبى ؟

وهمس الكابتن "مياخيليس" من بين أسنانه .. دون أن يلتفت :
- صمناً ... !

وفى الخارج ساد الصمت بضع لحظات .. وسمع صوت خفيف على الجدار .. وأنفاس ثقيلة . كان أحدهم يتسلقه ، واختفى الكابتن "مياخيليس" تماماً خلف حوض الماء ، ولم تظهر سوى ماسورة البندقية وييده اليسرى دفع ثاراساكى إلى الخلف منه .

وفجأة برز رأس كث الشعر من أعلى الجدار ، وبين أسنانه يلمع سكين عريضة النصل ، ونظر الرجل من مكانه متصلصاً .. وإمتدت يد وضغط الكابتن "مياخيليس" على الزناد .. واستقرت الرصاصة فى الراس بين الحاجبين تماماً .

وكانت زوجة الكابتن متفوقة فى غرفة النوم خلف النافذة ترضع طفلها ، بينما كانت رينيو تراقب أباهما وأخاهما ثاراساكى وهما فى الساحة .. وعندما رأت رأس التركى تختفى ، إرتعشت بالفرحة .. وهمست فى إعجاب بالغ :
- بورك يداك يا أبى !

وقالت زوجة الكابتن :

- رينيو .. ياطفلتى المسكينة .. حياتنا الآن معلقة بشعرة .. هل تعرفين
فيم يفكر أبوك الآن ؟
- إذا دخل الأتراك فسوف يقتلنا بيديه .. وهذا عين الصواب .

وقالت الام وهى تنظر إلى ابنتها فى فزع :

- الا تخافين ؟

- الموت حق يا أماء .. كلنا سنموت يوما ما .. فلنمت الآن دون أن نلوث
شرفنا ..

وانتهى حديثهما ، ولكن ما الذى كان يحدث فى الشارع فى تلك
اللحظات ؟ اندفاع عنيف هنا وهناك . مزيد من الطلقات ومزيد ايضا من
اللعنات .

وقالت "رينيو" وهى تفتح الشباك بحذر : .

- أليس هذا هو صوت "افندينا" ؟

وكان هو صوت افندينا بالفعل .. حين رأى الجمع العرى الهائج يندفع
فى اتجاه بين "الكابتن ميخائيليس" ، احس بقلبه ينخلع .. كان يحب
"الكابتن ميخائيليس" رغم انه كان يرغمه مرتين كل عام على أن يرتكب
المعصية . بل ربما كان يحبه من اجل ذلك بالذات ! وكيف يمكن أن تكون
حياة "افندينا" بدون هذا الوحش اليونانى ؟ "أى سعادة أولذة فى الدنيا
يمكن أن احصل عليها انا البائس التعس ؟ إن أمى تضربنى ، وسكان
"ميجالو كاسترو" كلهم - اتراكا ومسيحيين - يرجمونى بقشر الليمون ،
ولست املك نقودا .. ولا زوجة ، ولست املك شجاعة الابطال .. لاشىء ، لا
شىء سوى "الكابتن ميخائيليس" ، إننى لأعد الايام والشهور أنتظر المتعة
حين تعود فتجىء كل ستة اشهر .. وأنتظر معها المعصية والخطيئة .. ومن
يدرى ؟ إن الله واسع الرحمة ، وهو سبحانه عظيم السخاء . ربما اصبح
انا الآخر - بعد موتى - وليا من الاولياء ، فيشيدون لى ضريحا الى جوار

ضريح جدى .. بارك الله "الكابتن ميخائيليس" ! أكانت ستسبح لى
الفرصة كيما اصبح وليا .. لولا "الكابتن ميخائيليس" !؟ .

ونبض قلبه بالغضب :

"لا .. لا .. لا .. لن ادعهم يقتلون "الكابتن ميخائيليس" ! كم هو نبيل
وهمام ! وما اروع خمره وكعكه ! وما احدى المقائق عنده ! وما الذا الدجاج
والخنازير السمينه ! " .

واحس برأسه كاد يحترق ، فقفز مندفعاً فى اثر العربى .

ونسى ان الشوارع تصبح امامه كالترع ، واجتاها دونما تردد لينقذ
صديقه ، واعترضه عند "الشارع العريض" جماعة من الاتراك يحملون
الاسلاب .

- إلى اين يا افندينا !؟ .

وكونوا حاجزا يعترض طريقه .

وتوقف "افندينا" لاهت الانفاس .. فى حيرة لا يدري ماذا يقول أو
يفعل ، لابد ان العربى الآن قد وصل الى البيت - ولعله الآن يحطم باب
البيت .. بل لعله يقتل "الكابتن ميخائيليس" .

وصاح "افندينا" منتحياً : .

- الا تعرفون ربا فوقكم !؟ دعونى .. انا فى عجلة من امرى يا
أخوتى ! .

ومرقت بخاطره فكرة .. ونظر من فوق اكتافهم ، ثم صاح :

- القديس ميناس ! .

وانفجر الاتراك ضاحكين .

- ايها الملحدون .. لماذا تضحكون !؟ ألا تسمعون وقع حوافر جواده !؟

لقد رأيته يخرج من الكنيسة : ففزعت . ألا تسمعونه ؟ ها هوذا .. ! ها هو
ذا ! .

وقف شعر رؤوسهم . هل سمعوا حقا صليل عده الفرس ؟ ! اكان هناك
حقا فارس يقترب ؟ .
- هذا هو ! .

ولكن الاتراك لم يستديروا لينظروا ، فقد اطلقوا سيقانهم للريح ..
وعندما راهم "افندينا" يعدون ! وقف وقد استبد به الفزع .. ابلغ من قوته
وتأثيره ان جعلها حقيقة واقعة ؟ .. ما اعجب ! . ولكن ؟ ألم يره حقيقة فى
الانتفاضة الاخيرة وهو يطارد الاتراك الذين كانوا يحاولون اقتحام الكنيسة
عنوة ؟ .. واحس بالعرق البارد يتصبب من جسده .. الآن يستطيع
بوضوح أن يسمع وقع الحوافر .

وصاح وهو يلم اطراف ثيابه ويندفع عدوا .
- الله .. الله ! .

وعندما اصبح بحذاء نافورة "إيدومينياس" رأى جمع الفوغاء على وشك
أن يدفعوا باب البيت ليقترحموه .. فاندفع نحوهم وهو يصيح :
- انتبهوا يا أولادى ! سوف يلتهمنا ! .. انه قادم على ظهر جواده !
وصاح العربى هادرا : .

- من تقصد أيها الأبله ؟ .
- الجار .

- أى جار ؟ .

- القديس ميناس .. ها هو ذا ! .

واستدار الجميع .. وبدأ كل شىء يتراقص امام اعينهم .. ولم يعودوا
قادرين على تمييز الأشياء .

وصاح "افندينا" وهو يتشبث بباب بيت "الكابتن ميخائيليس" وكأن به مس .. وكما لو كان يريد أن يختبئ حتى لا تقع عليه عينا القديس القادم بجواده .. لابد أن يكون قد مرّ بناقورة "إيدومينياس" إنه لقادر على أن يميزه بوضوح بمرآة الذى لا يتغير والذي يبدو فى صورته المرسومة فوق الايقونة : وجه لوحته الشمس ، وشعر ابيض ولحية بيضاء .. فوق ظهر جواد احمر - ارجوانى ذى سرج ذهبى .. أن الفضاء كله حول نافورة "إيدومينياس" ليمتلئ تماما بذلك الشعر الأبيض .. والجواد الاحمر والسرج الذهبى .

وهمس فى ذعر .. وفكاه يرتعشان :

- ها هو ذا .. انه ملء البصر .

- اين هو ؟! إننى لا اراه بوضوح ! .

- احقا لا تراه ؟! هاهوذا ! اسود ذو شعر ابيض فوق صهوة جواد احمر .. لقد وقع بصره علينا ، إنه قادم نحونا ! .

وقفز بعيدا عن الباب مندفعاً فى اتجاه الميناء .. وخلفه اندفع الباقيون يلهثون بأقصى ما يستطيعون من سرعة ، هم ايضا سمعوا صوت الجواد - وانه ليعدو خلفهم - اما العربى سليمان ، فقد استدار لحظة .. واستطاع أن يميز جوادا .. وفارسا .. فصاح :

الفرار يا اولاد .. الفرار .

وانزلق "البرنس" من على كتفيه وسقط فوق الأرض ، ولكنه لم يجد الوقت ليلتقطه ! .

وحين وصلوا الى الميناء .. لا هثى الانتفاص ، خففوا عرقهم وانكمشوا فى الظل وقد تددت السنتهم وأخذوا ينخرون كالكلاب .. بينما تهاوى "افندينا" إلى الأرض ووجهه الى الأرض . وهو يتلوى .

بدأت "ميجالوكاسترو" تثن تحت سكاكين الاتراك ، ورفع المسيحيون ايديهم الى الله فى توسل .. ورسم المطران علامة الصليب ، فلم يعد

يستطيع أن يظل جالسا هكذا يستمع الى أنين رعيته وسط المذبحة ،
ونفض واقفا وهو يغمغم : "الله معى" .. ثم صفق بيديه ، فظهر
"مورزوفلوس" .

وقال المطران : .

- سوف اذهب الى الباشا ، احضر لى روائى العظيم .

فسأله "مورزوفلوس" : .

- وتخرج الى الشوارع ياسيدى ؟ إن الاتراك فى هياج . انا قادم إذن
معك ؟ .

- سوف اذهب وحدى يا "مورزوفلوس" ، فساعدنى على أن اضع
الرداء .

وثبت الرداء على كتفيه ، ووضع القلنسوة فوق رأسه الذى يشبه رأس
الأسد ، وامسك بعصاه الطويلة .. ذات الانشطة المجدولة .. وقال "باسم
الله" .

وظل "مورزوفلوس" يحدق فيه ببصره فى اعجاب بالغ : هذا المظهر
الرائع ، والجسد السامق ، واللحية البيضاء .. وهاتان العينان اليراقطان
المليئتان بالخير .. هذا هو النموذج الذى سوف يكون امامه حين يرسم
لوحة الله .. الأب ، تحيط به سحائب ذهبية وهو يهبط فوق "ميجالو
كاسترو" ليضع نهاية للمذبحة .

وفتح باب مقر المطران .. وكان ثمة كلمات مكتوبة بحروف سوداء
ضخمة فوق الرخام الذى يعلوه : "فى هذا المدخل ، شفق الاتراك مطران
"ميجالو كاسترو" عام ١٨٢١ . تقدست ذكراه إلى الأبد" .

وغمغم المطران وهو يجتاز عتبة الباب : "تقدست ذكراه الى الأبد" .

وجالت الدموع فى "مورزوفلوس" وهو يقول فى صوت مرتعش :

- الله معك .. والقديس ميناس معك ياسيدى .

واجابه المطران وهو يشير الى الكلمات المكتوبة :

- لا تبتئس يا "مورزوفلوس" : لست الاول .. ولن اكون الأخير .

وعبر ساحة الكنيسة .. واحنى رأسه تحية "للقدیس میناس" ، حين مرّ ببابه ، ثم اوسع الخطى فى اصرار متجها الى مقر الباشا .

وتابعه "مورزوفلوس" ببصره وهو يتجه وحيدا الى معركته مع الموت .. وأحس بالخجل لأنه تركه يمشى وحده : "هذه هى اللحظة التى ترى فيها يامورزوفلوس ما اذا كان هذا الذى بداخلك روح .. ام مجرد معده " .
ورسم علامة الصليب . وانسلّ فى اثر المطران .

كان الطنين يلف المدينة : المسيحيون يصرخون ، والأتراك يتهدرون ويضحكون ، ومن خلال هذا الطنين كان بمقدور المرء أن يميز اصوات النحيب فوق جثث الموتى .

وتابع المطران السير وقلبه ينفطر لما يسمع .. وظل يتنهد : "إلى متى يظل الهلينيون مشدودين الى صليبانهم ؟ نحن بشر يا أيها المسيح .. وإسنا آلهة ! لا قبل لنا بهذا العذاب .. فهات القيامة إذن ا" .

كان يوسعه أن يحس بالمدينة بكل جدرانها وبيوتها وبكل البشر فيها .. وكأنها هى ذات جسده .. وبأن قلبه يتمزق مع كل باب فى المدينة يتهاوى ومع كل امرأة تضرب صدرها تنعى قتلاها .

وكان ثمة جمع من الاتراك السكارى الذين لوئثهم الدماء . يقتربون قادمين من ساحة السوق .. وحين وقعت ابصارهم على المطران بثيابه المذهبة توقفوا فى ذهول وهم يصيحون : "من يكون هذا الوحش القادم هناك ؟ إلى أين هو ذاهب ؟! .. ابتعدوا عنه .. الله المستعان عليه ! الا يطانا بأقدامه" .

وكان المطران يسير الى الموت فى خطوات ثابتة وعيناه الممتلئتان بالأسى والغضب واللهفة على الاستشهاد لا تكادان تبصران شيئا حوله :

لا الشوارع .. ولا الناس ولا حتى - إلى اليمن منه واليسار - دكاكين اليونانيين ثمة شيء واحد كان يحتل تفكيره . "يا السعادتى ، حين اقتل فى سبيل ان يتحرر قومى !" .. هذه الكلمات التى نطق بها المسيح وهو فوق صليبه .. كلمات الالم والمعاناة ؟! .. "إلى .. إلى !" .. إنها لتعنى بلهفة القداء "السعادة ! .. السعادة" .. وهمس المطران بذات الكلمات وهو يوسع الخطى أكثر كلما اقترب من الحرم الباشوى ، وخلفه كان يسير "مورزوفلوس" كالكلب .

ووصل المطران الى حيث تنتصب الشجرة العارية ، مهيبة وسط الخضرة الرطبة وحفيف الاوراق ، وجذعها يبدو مرقشا كجلد الفهد .. وتراقصت عينا المطران وكأنه يرى ألف مسيح يتدلون من اغصانها .

واعترضه عند بوابة الحرم الباشوى جنديان .. واسرع "مورزوفلوس" الذى كان يجيد اللغة التركية وتحدث اليهما فسمحا للمطران بالدخول .. واسرع "مورزوفلوس" ليفتح الابواب .

وعندما وقعت عينا "الباشا" على المطران : تجهم وجهه ، لقد كان مستندا الى النافذة يسمع نجيب "ميجالوكاسترو" على موتاه .. كان هو ايضا - رغم كونه اناضوليا طيب الأصل - قد أصبح متوحشا ، ربما كان ذلك بسبب الظمأ التركى الازلى لدماء اليونانيين .. ربما كان هذا هو الذى ايقظ فيه وحشيته ، ورغم ذلك ؟ فقد كان يحس بالخجل من انه - وهو الباشا - لا يجد فى نفسه الشجاعة على أن يأمر بوقف المذبحة .. وأن يستل المدى والخناجر من ايدي الاغوات .

ووقف المطران يملا فتحة الباب .. وصاح :

- الا تخاف الله يا باشا ١٩ .

ورد الباشا فى غضب :

- لماذا ارتديت هذه الثياب يا قسيس الكفرة ؟ هل تظن أنك تفزعنى

بها ١٩ .

وعاد المطران يصيح وهو يشير بأصبعه الى السماء :

- ألا تخاف الله ؟! ألا تهكم هذه الدماء المسفوفة ؟ أتعرف علام ستقع هذه الدماء ؟! .. على رأسك انت ! .

- اسمع يا مطران .. لا تصرخ هكذا .. وتذكر أن الشجرة العارية ليست بعيدة عنك ! .

- والله ايضا ليس بعيدا عنى يا باشا .. لست خائفا .

واستدار نحوه الباشا مبتعدا عن النافذة . واخذ يذرع ارض الحجرة جيئة وذهابا .. ثم توقف فى مواجهة المطران وهو يتفحصه من قمة رأسه الى اخمص قدميه دون أن يعرف كيف يتعامل معه ، وتصوره لحظتها بكل هذه الثياب اللائمة معلقا فى الشجرة العارية .. ولكن الرعب منعه ، ولكن يبقى أن هذا الفم اليونانى الوقح لابد أن يوقف عند حده ! فهو لا يحتمل ! .. وصاح هادرا : .

- لا تجعلنى افقد اعصابى . اخرج ! إننى اقولها لك من مصدر الرحمة بك . أنا لا أخاف احدا ! .

واضطر المطران الى أن يدع "الله" جانبا . وأن يحل "السلطان" محله ! .

- حسن .. أنت لا تخاف الله ، ولكن .. ماذا عن السلطان ؟! انت تعرف جيدا أن كريت تسبب له القلق دائما ، وأنه يريد أن يسودها السلام .. ولعله من أجل هذا قد بعث بك إلى هنا . فما فعلت انت ؟! سمحت بأن تحدث مذبحة ! والمذبحة سوف تؤدى الى ثورة .. والثورة سوف تلتفت انتباه موسكو .. معذرة يا "أقندينا الباشا" . ولكننى استطيع أن أرى رأسك على وشك السقوط .

وجمد الذعر الباشا .. فهو ايضا رأى رأسه على وشك السقوط ..

وتساعل فى خوف :

- وماذا استطيع أن افعل ؟!

- لا تضيع لحظة واحد .. مر الجنود بأن يدقوا طبولهم إشارة بوقف المذبحة اصدر اوامرك ! .. هدد ! أنت الباشا ؛ فأثبت ذلك إذن ! .

وضغط الباشا رأسه بيديه كما لو كان يحتاج الى من يسنده ، ثم ما لبث أن صاح : .

- لعن الله الساعة التي وجدت فيها نفسى فوق هذه الجزيرة الشيطانية ! .

ثم نظر متضرعا الى المطران : .

- سيدى المطران : "لماذا تقفون هكذا على عتبة الباب ؟ تفضلوا واجلسوا حتى نرى سويا ما ينبغى أن نفعله لوضع نهاية لهذا الامر .

وبينما نتناقش ونتكلم .. سيكون هناك مزيد من المسيحيين الذبائح ! أنا لا استطيع أن اجلس .. استدع جنودك أولا واصدر اليهم اوامرك ! ولن اجلس قبل أن اسمع دقات الطبول .. كما اننى ايضا لن اغادر هذا المكان قبل أن اسمعها .

- فليأخذكم الشيطان جميعا .. اللعنة عليكم جميعا ايها الكويتيون .. الصالح منكم والطالح .. جميعا ! .

واتجه فى هياج إلى القاعة المقابلة . وارتفعت صيحاته واقسامه .. كما سمعت اصوات الضباط وهم يهرعون بسيوفهم وحرابهم .

وتنهذ المطران فى ارتياح : "إن الله قد رأى أننى لا استحق أن اشنق على باب المقر . لا بأس ؟ يكفى أن ينقذ المسيحيين" .

وعاد الباشا وقد عقد ما بين حاجبيه . وقال : .

- سوف تسمع الطبول الآن .. اذهب .. كفانى من هذا الامر ما كان .. ولا اريد أن أرى الآن مخلوقا .. اهى ارضى هذه التى اقف فوقها .. أم برميل بارود ؟ .

وفى نفس اللحظة استدار "الكابتن ميخائيليس" الى "تاراساكي" الذى كان راكعا بجوار ابيه يرهف السمع الى ماكان يجرى فى الشارع - افندينا يصيح ، والعربى سليمان يسب ويلعن ، وخطوات الرجل تبتعد .. ثم سكون مفاجيء ساد الحى بأكمله إلا من النحيب فى بيت "إيدومينياس" .

- هل انت جائع يا كاراساكي ١٩ .

- نعم .. انا جائع يا أبى .

- فأطلب إذن من امك ان تنزل وتعد لنا طعاما .. اعتقد ان الحكاية انتهت بالنسبة لهذا اليوم .

واسند بندقيته الى حافة الحوض وتناول صندوق الدخان واعد لنفسه سيجارة .. وحين عاد فسمع النحيب : توقفت اصابعه عن الحركة .. وارهف السمع .. "لقد قتلوا إيدومينياس ، وهذه خادمتة العجوز تنحب" .

وهز رأسه . وهل كان إيدومينياس رجلا ١٩ أيمكن أن يكون قد ابدى ادنى مقاومة ١٩ لاشك أنه استسلم للذبح كما يستسلم الحمل فى عيد الاضحى .

وحين وضع السيارة بين شفتيه ، سمعت دقات الطبول .. وبدأت تنتهى اصوات خطوات منتظمة .. ووقف "الكابتن ميخائيليس" وفتح الباب فى حذر ورأى قرابة العشرين جنديا يمرون فى الشارع واسلحتهم فوق اكتافهم فى دورية وامامهم مناد يصيح : "السلام .. السلام .. اخرجوا من بيوتكم ايها المسيحيون" .

وفى اليوم التالى اصدر الباشا امرا : "ماحدث .. فقد حدث وانتهى .. إن الغدر شاء أن يموت ذلك ؛ ولكن السلام يجب أن يسود الآن ، لن يخذش الآن انف واحد ! وسوف تفتح بوابات القلعة ، ويستطيع المسيحيون من ثم ان يعودوا من القرى .. ويستطيع الفلاحون المسلمون ان يعودوا الى القرى . ويجب على هؤلاء الذين خرجوا الى القرى لقاوموا .. ان يضعوا اسلحتهم ويعودوا الى اعمالهم وإن تمس شعرة واحدة منهم ! السلطان

رحيم يعفو .. ايها المسلمون .. ايها المسيحيون . استمعوا جيدا إلى كلمات الباشا ، فالشجرة العارية لاتزال فى مكانها .. "الانشوطة تنتظر اعناق العصاه !".

ومسح الأتراك خناجرهم .. وعادوا يجلسون فى مقاهيهم يدخنون النرجيلة ويستمعون بعيون ناعسة إلى الصبى التركى غليظ الرأس وهو يطلق غناه ذا الألحان الرتيبة ، فى صوت نسائى ، وخرج المسيحيون من بيوتهم وبدعوا يجمعون جثث قتلاهم ، وبعثوا فى طلب "كوليفاس" من قرينه ، واشترك "مورزوفلوس" و"كاجاييس" و"فيندوسوس" و"فروجاتوس" وآخرون بمعاولهم فى حفر خندق عميق بأرض المقابر بالقرب من بوابة "كاينا" .. بينما حفر آخرون قبورا لموتاهم فى ساحة كنيسة سيينا للقدیس "ماثيو" .. بالقرب من البيروفولا .

وبدا الاب "مانوليس" يجمع الموتى خمسا فخمسا .. وقد شمر عن ساعديه .. وبعث بهم الى السماء فى صلوات قصيرة متعجلة .

وعلى ثلاثة ايام كان الرجال يحفرون القبور .. وكانت النساء ينظفن عتبات الدور وغرف النوم من آثار الدماء .. وينتجنن فى صمت حتى لايسمعن الاغوات فتثور ثائرتهم من جديد .. حيث كان لايزال فى نظراتهم ماينم عن رعشة مابعد المذبحة .

وفى اليوم الرابع : استدعى "الكابتن ميخائيليس" ابنه "ثاراساكى" إلى غرفته الصغيرة وقال له :

ثاراساكى .. لقد حان وقت الثورة ! فليقل الباشا ما يريد ، فهو اناضولى لا يفهم شيئا ! كريت حينما تشتعل فيها النار .. فليس من السهل بعد ذلك اخمادها .. هل تفهم !؟ .

- افهم ياوالدى .. ليس من السهل بعد ذلك اخمادها .

- أول شيء تفعله فى الغد ، أن تخرج النساء والأطفال من ميغالو

كاسترو .. وسوف اكون انا فى المقدمة ، وانت ستكون فى المؤخرة .
مفهوم ؟ .

- وهل احتفظ بقدراتى ؟ .

- ماذا ؟! وهل تتصور اننا لن نكون مسلحين ؟! نحن ذاهبون الى بيت
جدك ، فأخبر امك بأن تستعد .

وفى المساء ، امتطى "الكابتن ميخائيليس" صهوة جواده متجها الى
بوابة المستشفى حتى وصل إلى فندق الأرملة ، فترجل وأرسل فى طلبها ..
فأطلت سميئة .. منحنية .. تتعثر .

- سوف اترك مهرتى هنا هذه الليلة .. اطعمها جيدا وسوف اعود
لاخذها . فى صباح الغد . واعدى لى ايضا ثلاثة حمير .

وقالت الأرملة فى بطء وهى تشد وسطها فى دلال : .

- معنى هذا أن المذبحة لم تنته بعد ؟! .

فأجابها وهو يستدير بلا ابطاء متخطيا الحائط : .

- بل انها تبدأ الآن .

ثم أوسع الخطى نحو باب القلعة الذى كان لايزال مفتوحا .

كان الوقت ضيقا ، وثمة ريح جنوبية تهب قادمة من الصحراء الليبية ،
تثير الغبار الذى يعمى الابصار ، واتجه "الكابتن ميخائيليس" صوب البحر
ليبتدئ قليلا ، واستطاع من مكانه على الشاطئ أن يرى جزيرة "ديا"
المهجورة .. عارية تماما .. حمراء اللون .. تبدو وكأنها سلحفاة بحرية
تسبح فى مياه البحر ، لقد ابهر اليها يوما من الايام عندما احس
بالضيق .. استقل ذوقا واتجه إلى الجزيرة فوصلها بعد بضع ساعات ..
وحده .. وهناك القى مراسيه عند ميناء "كل القديسين" الصخرى
الصغير ، وتسلق ارض الجزيرة صوب الجهة الاخرى منها تحت وطأة

الشمس المحرقة .. والصخور امامه تلمع .. والهواء يرقص .. ورأى ثمة خليجين صاخبين يمتدان منحدرين فى روعة .. والارانب الجبلية تمرح بين الشقوق وتحرق فيه بعيونها .. واتجه "الكابتن ميخائيليس" الى القمة ورمى ببصره : سكون شامل .. الجزيرة كومة من الصخور يحيط بها البحر من كل جانب دأكن الزرقة وحشئ الامواج . والهواء نقى لم تلوثه انفاس بشر .. ولحظتها قال لنفسه : "هنا اتمنى أن اعيش .. فوق هذه الصخور .. لقد سئمت الماء العذب والحشائش الخضراء والبشر جميعا" .

وحت الخطى عائدا الى بوابة القلعة واجتازها ، وكان ثمة بضع جثث لا تزال ملقاة فى الأزقة ورائحة العفن تتصاعد منها ، وتوقف عند بين "فوروجانوس" الصغير ، ودفع بابه ودخل "الزريبة" التعسة وجال ببصره وهو ينادى : "هل هناك احد ١٩" .

وتناهى اليه من احد اركانها صوت ضعيف كأنه صوت طائر من الطيور .. ومن خلف جذع شجرة غليظ منتفخ .. برز "بيترودولوس" عارى الرأس .. مذعورا .. يسأل كما لو كان لايرى احدا .

– من هناك .. من هناك ١٩ .

– لا تخف ياسيد بيتروودولوس .. إنه انا .

عرف الرجل "الكابتن ميخائيليس" .. وعاد قلبه إلى مكانه ، فتقدم نحوه رافعا يده كما لو كان سيرفع قبعته تحية له .

– مرحبا بسيدي النبيل ١٠٠ .

– هل انت مريض ياسيد بيتروودولوس ١٩ اسنانك تصطك ، هل اصابك برد ١٩ .

– كلا يا كابتن .. انما انا مذعور .

– الا تخجل من نفسك ١٩ .

– كلا يا كابتن ..

ثم تدثر بمعطفه وجلس مستندا إلى الحائط ، ورسم علامة الصليب وهو يقول :

”كبرى إليسون“ ! لقد مر بخاطري سؤال .. كيف يمكن لانسان ان يرفع سكينه ليقتل انسانا آخر ! لا استطيع ان افهم .. إننى لا اقوى على ذبح حمل ، هل قلت ”حمل“ ؟ .. لا .. هل تصدق ياكابتن أن قطع خيارة .. يجعلنى ارتعد ١٩ .

- اين ”فوروجاتوس“ ١٩ .

- يحميه الله ياكابتن .. ماذا اقول ؟ انه قلب من ذهب . عندما بدأت المذبحة جامنى يبحث عنى واخذنى معه ، لم اكن استطيع السير من شدة الرعب ، فحملنى بين ذراعيه ، ووضع قيثارته فوق كتفه وخرج الى الشوارع التى امتلات بغوغاء الأتراك ، اى شوارع ياكابتن ! واية اقدام خبأت وجهى داخل عيامتى حتى لا أرى شيئا .. ولم ينزلنى هو من فوق ذراعيه إلا عندما وصلنا الى بئر الماء فى الساحة حيث اندفعت زوجته نحونا ثم صاحت عندما وقع بصرها على : ”إنهم يحاولون قتلنا وانت تحمل القيثارات ؟“ .. لقد عدتتى انا ايضا من القيثارات ! ولكن الله كان رحيمًا بنا ، فقد هربت فى اليوم التالى الى قريتها فتخلصنا منها .

وظهر ”فوروجاتوس“ .

مرحبا ”بالكابتن ميخائيليس“ فى هذه الحظيرة البائسة .. انا اعرف ماتريده منى ؟ فقد جئت لتوى من بيتك . متى ١٩ .

- غدا .. وادع ”فيندوسوس“ و”كاجابيس“ ايضا ان الحرب هى ايضا وليمة وانا ادعوكم اليها .

وقال ”فوروجاتوس“ وهو يشير الى بيتروبولوس :

- حسن يا كابتن ، ولكن ماذا عنه ١٩ .

ركان ”بيتروبولوس“ يستمع وعيناه مفتوحتان جيدا ، وفهم فم يتحدث

هذا الكريتيان : فى البنادق والجبال واماكن الاحتباء ، ويدات اسنانه
تصطك من جديد .

ونظر "الكابتن ميخايليس" الى الرجل العجوز ذى الأصل الطيب ،
والذى كان قد اخفى نفسه تماما داخل عباءته ، وقال .

.. سوف نأخذه معنا هو ايضا .. رجل واحد لن يضرنا ، سوف يكون
ضيفنا ، اطل الكونت برأسه وقد وقفت الشعرات الخمس أو الست المتبقية
فى رأسه ، وصرخ :

- فى الجبال ١٩ والبنادق ١٩ .

وقال الكابتن :

- لا .. بل مع النساء والاطفال .. تنسيهم كل شيء بحكاياتك وثرثرتك ..
ثم اتجه نحو الباب وهو يقول :

- حتى نلتقى مرة أخرى .

وسأله "فوروجاتوس" :

- واين سنلتقى ياكابتن !! .

- هناك فى "سيلينا" أعلى "بيتروكيفالو" فى حظيرة اغنام
"سيفاكاس" .. وخرج يسير ببطء وسط الازقة ، بينما كان "باربايانيس"
متجها الى بيته وهو يحمل صفيحته البرونزية الفارغة مجهدا مهموما ،
وعندما رأى "الكابتن ميخايليس" توقف وقال :

- يا كابتن .. لقد سألت دماء كثيرة .. فلنفكر إذن كيف ننتقم لها .

ولكن الكابتن ازاحه بيده ، فلم يكن يميل إلى البلهاء ، وانصاف البلهاء ،
وتابع سيره مارا للمرة الثانية ببيت الكابتن ستيفابيس ، وكان هذا القبطان
المعتد برأيه يجلس وحيدا فوق اريكة صغيرة يرتق ثيابه ، فقد كان -
كفارس قديم - يجيد كل اعمال النساء ، وكان يكنس بيته الصغير كل صباح

كما لو كان البيت سطح سفينة .. ويملاً مصباح "القديس نيكولوس" بالزيف بالرغم من أن القديس لم يعره النفاثة حين غرقت السفينة "داردانا" وهبطت الى قاع البحر .. "المسكين ! .. إنه لا يستطيع - بالقطع - أن يهرع لانتقاذ كل السفن التي تصادفها المتاعب فى البحر . ومن حقه على أية حال أن ازود مصباحه دائماً بالزيت . ذلك ماكان يقوله كل صباح وهو يملأ المصباح كل صباح .. وحتى حافظته ! .

رفع رأسه من فوق الأبرة ، وقال وهو ينحنى :

- مرحبا "الكابتن ميخائيليس" ، أى ريح وحشية ألفت بك هنا ؟ ! .
- وحدق فيه "الكابتن ميخائيليس" فى صمت .. فقال "ستيفانيس" .
- فهمت .. انت تستعد للخروج الى الجبال وقد جئت لتصبحنى معك . ولكن إذا كنت تفكر فى اضافتى الى قائمك ، فلا تفعل .
- انت ايضا تريد أن تخرج الى الجبال .. هذا ما اعتقده . فتعال إذن معى ياكابتن "ستيفانيس" .

- قلت لك اخرجنى من قائمك .. أنا لا اصلح فوق الأرض .. فالأرض تتطلب سيقانا .. وأنا كما نعرف .. اعرج .. أنا ذاهب الى "سيرا" . الى "اللجنة الكريمية" .. فسوف احصل منها على سفينة . ثم استدار الى الأيقونة :

- هل تسمعنى يا قديس نيكولاس ؟ لا تخدعنى هذه المرة .. كما فعلت فى آخر مرة ! .

- الى اللقاء إذن ياكابتن ستيفانيس .. واغفرلى إذا لم ارك مرة ثانية .. وعسى الله أن يغفر لك .

وضحك ذئب البحر :

- هذا بالضبط ما قاله لى بوليكسيجيس قبل يومين ، ايها الأحمق ، أنا لن اموت فلا داعى للوداع إذن .

ثم برقت عيناه العجوزان الساخرتان وهو ينادى "الكابتن ميخائيليس" الذى كان فى طريقه الى الباب .

- كابتن ميخائيليس ! لقد سبقك اليها بوليكسيجيس ، فقد رفع اللواء واعد مقر قيادته فى قرية تركية تدعى "كاستيلي" ، واصطحب اليها معه - كما يقولون - احدى الهوانم الصغيرة .

وتوقف "الكابتن ميخائيليس" وقد تجهم وجهه وتراقصت الدنيا امام عينيه وحوله ، وشدد قبضته على المزلاج الحديدى حتى تهاوت المسامير التى تشده الى الباب ، واحس كأن البيت يتهاوى قبل أن يقفز مندفعاً الى الطريق .

- هيه .. كابتن ميخائيليس .. ايها الأب المفترس ، بحسبك أن تنادى : "امينة !" .. وسوف تخرج اليك على الفور .

وبدا الثلاثة فى الصباح الباكر من اليوم التالى : سار الكابتن ميخائيليس فى المقدمة وغدارته وخنجره سارت زوجته منتصبية القامة بلا خوف وقد حملت طفلها بين ذراعيها وإلى جانبها ابنتها "رينيو" ويدها قطعة من القماش تضم فيها احسن ثيابها وحلى امها ، وفى المؤخرة سار "ثاراساكى" وهو يشرب بقامته ليبدو اكثر طولاً ، اما على افا فكان قد سبقهم يتقدمهم بساعة من الزمن .. يقود حمارين ينتظر بهما عند الاقباء الثلاثة .

وكان الجنود يقفون بوجوه متجهة يراقبون بوابات القلعة وقد وضعوا اسلحتهم فوق اكتافهم ، بينما جماعات من الفلاحين يجتازون اقباء البوابة يحدثون ضجة وجلبة كثيفين الى جانب سهيل ونهيق حيواناتهم ، ورفع "الكابتن ميخائيليس" عباته ووضعها امام وجهه كما لو كان يتقى الغبار المتصاعد ، ثم انسبل لیتوه وسط الزحام بينما صاح "ثاراساكى" فى النساء : "اسرعن ! اسرعن" .. ثم اندس هو الآخر بين الجموع يلعب ويغنى ويصفر بقمه فى لامبالاة .

وقرب المساء ، وصل الجميع إلى المزرعة الأم .. مزرعة الكابتن
: "سيفاكاس" الجد .

وامام ساحة الدار رأوا جمعا كثيفا من الاحفاد من الذكور والاناث ،
كانوا قد توافدوا على المزرعة خلال الايام-الدامية في "ميجالو كاسترو"
ليجمعوا محصول العنب ويضعوه داخل معصرة ضخمة داخل الساحة ،
وكان ثمة شباب اقوياء عراة حتى خصورهم يعطرون العنب باقدامهم وقد
انتشوا برائحة العصور .

وارتعشت خياشيم "الكابتن ميخائيليس" في بهجة وكأنما هذه الرائحة
هى فى عذوبة الدم بالنسبة اليه . وضاح : "تحياتى ايها الاحفاد" ..
واستدارت زوجته نحوه فى دهشة .. فقد بدا لها - لأول مرة - ان صوته
يحمل رنة البهجة .

وسار الاثنان فى وسط الساحة بينما تقدم الجد نحوهما مرحبا وهو يمد
ذراعيه يا اولادى ويا احفادى .. كلوا واشربوا .. فكل شيء لكم .

وقال "الكابتن ميخائيليس" :

- سوف اسلمك زوجتى واولادنا .. فأنا ماضى الى الجبال .

لا بأس ياميخائيليس ! لقد كنت دائما مهرا نافرا منذ طفولتك .. ولم
تعرف الحذر حتى اليوم .

- سوف اعرف الحذر .. فقط . عندما تتحرر كريت .

فقال الجد مازحا : .

- من الأفضل إذن ألا تتحرر ، فلو انك أصبحت حذرا ، فسواء إذن ان
تحيا أو ان تموت .

وهكذا - فى عاطفة خياشه - كان حديثهما حتى وضعت المائدة
الضخمة داخل البيت .. وتركه بناته واحفاده مع ابنائه الأحياء منهم

والاموات ، وتحركوا هم فى كل مكان حتى امتلات بالاسرة ارض المنزل والساحة وغرف النوم فى الطابق الاعلى والاسطح ، فقد تجمعوا فى تلك الايام الخطيرة قادمين من القرى المجاورة كيما يعيشوا فى كنف العجوز الشهم وحمايته .. ومعهم حميرهم وبغالهم ومواشيهم وكلابهم وقطعان اغنامهم ، وانضم اليهم اخيرا فرس "الكابتن ميخائيليس" .

ولقد اثار مقدم "الكابتن ميخائيليس" القرى المجاورة ، وفى اليوم التالى امتطى هو وصهوة فرسه ، فى جولة قيادته لتحريك الثورة ، وكان يصيح فى وسط كل قرية :

- يا اخوتى .. لقد سال دم غزير فى "ميجالوكاسترو" دم غزير .. إن الشرف ينادينا بأن ننتقم له .. إلى الامام ! الى السلاح " . ثم غادر القرى ساعدا جبل "سيلينا" حيث غرس رايته امام حظيرة - ابيه - قطعة من القماش الاسود كتب عليها باللون الاحمر : الحرية او الموت ، ثم بعث بفارسين إلى قمة الجبل ليشعلا نارا ، ولم يعد الفارسان إلا بعد أن بعثوا بالاشارة الى مختلف القم فى الشرق والغرب حتى انتشرت الرسالة .. وانتشرت النيران .

وسمع "تيودورس" من حراسه ان عمه قد وصل ، وعندما قابله بادره بأن قبل يده .

- ايها المجنون "تيودورس" ! .. ألم اقل لك ان تلزم عشك ؟ ولكنك تعجلت وعصيت امرى ، انزل رايتك وخبئها فى صدرك ، ولا تخرجها الا اذا انا قتلت :

ورأى الفارسان فى شرقى كريت إشارة الخطر ، وادركوا مضمون الرسالة .. وتجمعوا فى حظيرة العجوز سيفاكاس .. وبعث "ميخائيليس" إلى ابيه يسأله أن يأذن له فى ذبح خرافه لاطعام القادة .. واجابه ابوه :

- إنه لحظ كبير لخرافى أن تكون طعاما للقادة .. ولكن لا تقرب الكباش الاسود ذا الجرس ، فإننى ابقى عليه ليذبح عند موتى ! .

فى الخامس عشر من أغسطس - موعد الاحتفال الملكى برؤية العذراء - جلس الفرسان معا فى صف واحد فى ساحة الحظيرة بينما كانت الخراف تدار على السقايف ، وصعد الجد إلى الجبل ليشترك فى الاجتماع الوطنى .

كانوا اربعة عشر فارسا لكل منهم تاريخه الذى يحيط به كأزيج الزهور ، وكان ثمة ثلاثة خالدون بينهم أعد لهم خصيصا عرش مرفوع من اريكة مغطاة بفراء الاغنام ، وجلس إلى اليمين واليسار منهم الشباب الأصغر ممن هم تحت سن السبعين .

جلس الجد فى منتصف الاريكة : رجل فى المائة من عمره كالأسد العجوز ، بلحيته المسدلة التى تغطى صدره المكسو بالشعر والملء بأثار جراح الثورة الكبرى ، وحاجبيه الكثيفين المنتفشين الذين يظلان عينية - حتى انه ليزيحهما بيده حين يريد أن يرى شيئا - وعلى الرغم من اعوامه المائة ، فإن خديه كانا فى حمرة اللهب ، وكان الدم يكاد يتفجر من صدغيه عندما يغضب ، كانت شرايينه قد اصبحت بيضاء كالطباشير ، وهى تسقى ذلك الجسد العجوز ، ولكن هذا الجسد كان دائم الظمأ .. نهما الى أن يشرب ويرتوى وكأنما لم يشبع من الدنيا ، كان يلمسها ويراهم ويسمعا ويشمها ويتذوقها بنفس الاشتياق الذى لدى شاب فى العشرين من عمره ، وكان يرى الرجال والنساء مخلوقات ضئيلة تجوس حول قدميه .. ويأسف لحالهم ويرفع يده فوق رؤوسهم ليثبت الشجاعة فى صدورهم ، ولم يكن يسعده أن تسيل الدماء البشرية ، ولكن الضيق كان لا يلبث أن يضطرم فى عينيه عندما تتطور الأمور إلى القتال .. وينسى أن الاتراك هم ايضا من البشر - فلا تتعب يداه بعد ذلك من ذبحهم .

كان الفلاحون يكرمونه كسنديانه شامخة ، ويجتمعون فى ايام الاحاد والاحتفالات فى ساحة القرية ليجلسوا عند قدميه ، فكانه - بسنيه المائة - يشبه واحدا من الالهة القديمة الخالدة ، وكانوا يحيطون به عندما يتداولون فى امر الحرية او الموت .. وعندما يبدأ واحد من فرسانهم فى الحديث كان يوجه الحديث اليه هو .. لا يحول عنه بصره .

وعلى يمين الجد - فى هذا الاجتماع - جلس وحشى آخر آدمى هو الكابتن "مانداكاس" بشعره ولحيته القصيرتين وعنقه الغليظ وقوامه الفظ ووجهه الملىء بآثار سيوف الاتراك ، كانت احدى اذنيه مفقودة ، فقد قطعها احد الاتراك فى سنة ١٨٢٦ ، وكان ثمة اصبعان مفقودان من يده اليسرى ، قطعهما هو بالفاس حينما لدغتهما حية سامة ، وكانت سعادته الكبرى فى ان يرى دماء الاتراك تسيل ، وكان يندفع كالاعمى نحو الجنود الاتراك كلما حملت كريت السلاح من جديد ، وتقتحم القرى التركية كالعاصفة يسلب وينهب ويحرق .. ثم يهرب ، وكان يقتل النساء التركيات ايضا ، ولكنه لم يكن يمسهن رغم انه اشتهر بأنه زئ نساء ، فقد كان يفرض على نفسه ان يبتعد عن النساء ايام الحروب .. حتى امرأته ، لم يكن يلمسها طالما كان يحمل بندقية ، وكان اذا ابصر بها قادمة من بعيد تحمل اليه الطعام او الذخيرة صاح فيها : "لا تقتربى يلغك الله ! لا تثيرينى ! ضعى كل شئ فى طبق وانصرفى انتا" وما إن تنتهى ايام الحروب ، حتى يندفع فى هذيان ممتع من قرية الى قرية ، ومن حضن الى حضن .. والآن ، وقد اصبح عجوزا ، فإن المتعة الوحيدة التى بقيت له ، كانت فى ان يسير مختالا فى طريقه الى اجتماع لبعض الفرسان وهو يزهو بفدائريته الفضيتين وبآثار الجراح فى صدره .

والى اليسار من الجد جلس الكابتن "كاتسيرماس" القرصان .. طويلا نحىلا مثل صارى السفينة ، حليقا ، لوحث الشمس وجهه ، ولم يكن يحظى بالمظهر الملوكى كالجدة .. ولا ببطولات الكابتن مانداكاس . كان رجلا صعب المراس يتهم الله كثيرا .. وبمرارة ، وقد تعود طوال حياته ان يعمل منفردا يعتمد على نفسه فحسب ، ولكن قوته الآن كانت قد ذهببت .

اما الفرسان الأحد عشر الآخرون ، فقد جلسوا فى صف واحد فوق الصخور ، كانوا لا يزالون صغارا - فى السبعين فقط أو اقل - وكان أحدهم راهبا فى دير السيد المسيح .. ذا عينين زرقاوتين ولحية مرسله ، وكان من بينهم ايضا مدرس من بلدة "إمبارو" : مسخا مشوه الجسد لا يملك الناظر اليه إلا ان يتساءل "وماذا يفعل هذا الأرنب وسط هذه الوحوش الضارية ؟!" .. ولكن ، على هؤلاء أن يروه فقط اثناء المعركة حينما تلتهب

روحه .. او فى مجلس شراب عندما يلعب بفيتارته فيجعل الصخور ذاتها ترقص ، ويجعل السامعين يبتهلون الى الله "هبنى عشرة آذان كيما اسمع عزفه كما ينبغى !".

وكان الكابتن "بوليكسيجس" هو الآخر موجودا وسط الجمع : سعيدا متألقا ، بفدائتيه الفضيتين ووشاحه الحريري الذى ينضج برائحة المسك والذى كان هدية له من "امينة" ، وجلس الى جوار "الكابتن ميخائيليس" ، وتلاقت عيناهما . دون أن يبادل احدهم الآخر حديثا .

وقال البعض : إنه كان ينبغى أن يدعى "تيتيروس" الى حضور هذا الاجتماع ، فقد اصبح هو الآخر وحشا مفترسا ، لقد هجر الكتب ويدا يسبح فى القرى ليتحدث الى الناس فى الكنائس ايام الاحاد ، ويلهب النار فى صدورهم ، ولكن الجد كان لايزال يقول : "إنه لن يفعل شيئا فى حياته سوى الكلام" .. وكان يقول ايضا : "إن عمل الفرسان شاق ، ثم إن هناك امرا آخر يحسم الموقف بالنسبة له - فهو لا يزال صغيرا" .

واتجهت الانظار الى الجد ، فوقف مادا ذراعيه النحيلتين فى اكمامهما البيضاء ، وارتفع صوته المتجهج :

- مرحبا بكم فى جبالى ، هناك شيئان يملكهما الكريتي ولا يملك سواهما : الله ، والبندقية ، فباسم الله وباسم بنادقنا نفتتح هذا اللقاء ، وعلينا مرة أخرى أن نتحدث عن كرييت ، فلينهض إذن كل واحد منا ليقول رايه فى حرية ، وليكن أول المتحدثين .. راهب السيد المسيح ، ليمنحنا البركة .

وكان الراهب قد ارتدى ثيابه الكهنوتية ، ووقف فوق صخرة مرتفعة امام الجمع كانت لا تزال فى حناياها بقايا مياه الامطار ، وانحنى قليلا وقطع غسلوجا من السعتر رش به الماء المقدس ، ثم بدأ يتلو صلواته ، ووقف الجميع وقد رفعوا رؤوسهم عن الطرابيش وعصايات الراس ، يستمعون دون أن يفهموا تماما كلماته باللغة الكنسية : الله ، والنصر على البرابرة ، والعدل والرحمة ، لم يكونوا فى حاجة الى مثل تلك الافكار ، لانهم كانوا

يرون "كريت" داخل حظيرة الكابتن "سيفاكاس" - رأى العين : أما تنوح ، عارية القدمين ، جائعة : دامية الجسد ، ورفعوا ايديهم الى السماء وهم يبتهلون من اجل اولادهم .

ورسم كل واحد منهم علامة الصليب ، ثم عاد يجلس فى مكانه ، وساد الصمت لحظات ، وكل منهم يحس بأن حلقه منتفخ ، وأن الكلمات لا تريد أن تنطلق ، ومرة اخرى كان الجد اول من رفع يده وهو ينظر الى يمينه ويقول :

- كابتن "ماندا كاس" انت كنت تطعم البارود بملعقتك وانت لا تزال طفلا ، انت قاتلت طوال جيلين اثنين ، وربما كانت زوجك فى البداية طائشة ، ولكنها ازدادت ثباتا واستقرارا مع السنين ، تكلم إذن ، ودعنا نرى ما نريد أن نقول .

- ينبغي أن يتكلم فى البداية من هم اصغر منى .

واستدار الجد الى اليسار :

- ماذا عندك لتقوله يا كابتن "كاشسيرماس" ؟ أنت ايضا كما قاتلت طوال جيلين اثنين رايت خلالهما وعانيت الكثير ، أن رايك ذو ثقل واهمية ! فتكلم إذن .

جاء الجواب فى اکتئاب :

- ليس لدى ما اقلوه ، فليس لدى المرء مايقوله حين تذهب قوته ، الصغار اقدر إذن على الكلام .

وصاح الجد وقد بسط يديه فوق غدارتيه متهيئا للاستماع .

- حسن .. فلتتكلم الصغار إذن .

نهض راهب "السيد المسيح" بقامته القصيرة الربعة ، وقد ظهرت اثار الطلقات والسيوف فوق خديه ، وجبهته وذراعيه المفتولتين ورقبته ، واتجه ببصره نحو "الكابتن ميخائيليس" قائلا :

كابتن ميخائيليس اعتقد أنك انت الاحق بالكلمة الاولى ، فأنت الذى جئت بنا ، وانت الذى استطعت أن تهرب من المذبحة ، وانت الذى وجهت الينا الدعوة ، فماذا لديك إذن لتقوله لنا ؟ .

ونهض "الكابتن ميخائيليس" ودماءه تغلى ، واستند الى بندقيته :

- يا اخوتى الفرسان ، انتم تعرفون جيدا أننى لا اجد تدبير الكلمات ، لهذا ، فسوف تكون كلمتى جافة وجريئة ورزينة ، فمعدرة ، مرة اخرى تضيق الانتشوفة حول عنق كريت ، لقد قدم الجنود وال دراويش بالسفن ، وازدادت ضراوة الاثراك ويدعوا يذبحون اخوتنا فى "ميجالوكاسترو" نحن لسنا قطيعا من الحملان ، إن دماء القتلى تصرخ فىنا ، ثوروا ايها الفرسان ، الحرية أو الموت . ثم جلس .

وهز الفرسان رؤوسهم ، ويدعوا يتداولون حول كلماته فى جماعات من اثنين أو ثلاثة ، وانهض العجوز "كامباناروس" اكبر الباقين ، وساد الصمت ، كان "كامباناروس" معروفا بتعقله ، وبأنه يقيس الامور فى ترو .. وما إن نهض واقفا حتى قطب كل ذى رأس جار جبينه وهو يتوقع الماء البارد الذى سوف يقذفهم به .. بينما عاد الثلاثة الكبار الموقرون .. يتنهدون .

وصاح "كامباناروس" وهو يهرج "الكابتن ميخائيليس" بنظرة قاسية :

- اقتل الملك .. ولكن لا تهدده ! متى بحق الله نتعلم الفطنة ؟ كم مرة هددنا وتوعدنا دون أن نجد القوة على أن نحقق تهديداتنا ونطرد السلطان من كريت ؟! اللعنة عليه ! ولكن .. نحن فى النهاية الذى ندفع الثمن . الرجال والنساء وحقول الكروم .. كلها تدفع الثمن فى كل مرة تثور فيها النار داخل صدورنا ، والزعماء هم الذين يتحملون مسئولية آلاف الارواح ! إلام تهدف هذه المرة ايضا "ياكابتن ميخائيليس" ؟! هل نقذف بكريت مرة اخرى الى حمام من الدماء ؟! انت رجل زكى ، فقل لنا إذن : كم شحنة سفينة من البنادق والذخيرة والطعام والخيام والخيول .. حصلت عليها ؟! كم مدفعا تقتحم به القلعة ؟ قل لنا من فضلك : هل تفاهمت مع اليونان

وموسكو حتى ننقض جميعا على السلطان بضربة واحدة ؟ اعطنا حقائق يا "كابتن ميخائيليس" : واكشف لنا عن اسرارك حتى تبعث البهجة الى قلوبنا !

واستدار الجميع نحو "الكابتن ميخائيليس" ، ولكنه لم ينهض من مكانه ليرد على ما قاله "كامباناروس" ، وظل جالسا وهو يمضغ شاربيه ، اى اسرار هذه التى يريد هذا الرجل العجوز أن يكشفها له ؟ إن الموسكوف لم يبعثوا اليه بشيء ، ولا اليونان ! هو الذى جاء بنفسه ، وهو وحده الذى قرر أن يجيء "كريت" وحدها هى التى ارسلته ، باكية معولة فى حنايا صدره .

وقفز المدرس .. وبدأ يهدر :

- إن الكابتن "كامباناروس" يطلب حقائق ثابتة قبل التحرك : سفن ومؤن وسلاح ، وجنود يرسلها الموسكوف لتدمى وجوههم ، وان تشترك معنا امنا المسكينة "هيلاس" بفرقها العسكرية الثلاث ! ولكن متى كانت الاعمال العظيمة تحدث فى الدنيا بالضمان والحقائق الثابتة ؟ ومتى كانت "الغطنة" هى التى تحفز الرجال الى هجر بيوتهم وممتلكاتهم وإلى اللجوء الى الجبال بحثا عن الحرية ؟ .. تلك هى حرفة الفرسان : إن يثوروا بلا ضمان . إن روح الرجل ، ياكابتن "كامباناروس" ليست محاسبا .. ولكنها مقاتل ، نحن - ابناء كريت - مقاتلون ولسنا اصحاب حوانيت ، إن قلب كريت سفينة محملة "بالبارود" .. ننطلق نحو اسطول السلطان لننصفه نسفا ، الى الامام إذن على بركة الله ، وراء "الكابتن ميخائيليس" . إلى السلاح يا اخوتى ! .. هذا ما اردت أن اقوله لكم ايها القواد ، فليسمع من كان له سمع ! .

وغغمم الراهب وهو يرفع يده اليمنى باتجاه المدرس كما لو كان يباركه .

- بركاتى يامدرس .. بركاتى لك ، إن روح الرجل لا تحمل كفتى ميزان ، بل تحمل سيفا ، انت على حق .

وقال الكابتن "تريالونيس" من "جيراپترا" ناصحا :

- إن ساعة واحدة من الحياة فى ظل الحرية ؛ افضل من اربعين سنة من العبودية والسجن .

وهزُ "كامباناروس" العجوز رأسه الملىء بالفطنة .

وكان الفرسان قد نهضوا وافقين جميعا وقد استثارتهم الكلمات والكلمات المضادة ، وبدعوا يثرثرون ويتجادلون فى جماعات اثنين وثلاثة وخمسة .. كان الحذرون اصحاب الفطنة ، هم الاقلية ، وكان الفرسان - اولئك الذين يجازفون بكل شىء - يفوقونهم عددا ، واخذ الكابتن "كاتسيرماس" يراقب فى غضب .. عصبية الفرسان الذين يرغبون ويزيدون حوله كالبحر ، بينما كان الكابتن "مانداكاس" يتنهد وهو يتذكر ايام الشباب : "آه" ! هؤلاء الناس يمسون بالورقة وبالقلم ويحسبون المكسب والخسارة .. وكنا نحن على اسمنا لا نعرف إلا صيحة واحدة : "الحرية أو الموت" .. وكانت عقولنا تدور مثل البكرة ، وكنا نهجم اسوار "كاسترو" لنحدث فيها الثغرات ، لقد تلف الرجال وتضاموا ياكابتن "سيفاكاس" ولكن الجد كان ينظر فى تعاطف حار الى الرجال الاصغر سنا الذين كانوا يحيطون به ، ثم يبتسم ويقول لنفسه : "كل شىء على مايرام ؛ وأنا على ثقة من ذلك ، إن التراب يوارى القديم" ثم يعود مرة اخرى خارج التراب وقد اصبح خلقا جديدا ، إن كريت خالدة لا تموت .

ثم نهض واقفا وصاح :

- يا اولادى ، هذا اجتماع كبار ، وليس مدرسة يهودية ، اجلسوا ودعونا نصل الى قرار ، الكابتن "كامباناروس" فى جانب ، والمدرس الكابتن فى الجانب الآخر ، هناك طريقان ، ولقد التقينا اليوم فى هذه الجبال لكى نقرر اى الطريقين نختار .

ونهض الكابتن "بوليكسيجيس" وهو يقتل شاربه الاشقر الذى تلوح منه رائحة المسك ، وانحنى محييا الثلاثة الكبار وكان قميصه مفتوحا - يكشف أثراً أحمر فى رقبة البيضاء .. لعضة من فم امينة ! ونظر الى الفرسان فى برود ، وتوقف لحظات وهو يتطلع الى "الكابتن ميخايليس" الذى وقعت عليه نظراته الحادة كمنظرات عجل من الفحول .

وقال "بوليكسيجيس" :

- ايها الاخوة الفرسان ، يا قادة كريت الشرقية ! إن على من يتكلم فى حضرتكم أن يزن جيدا ما يقول ، ولقد حرصت انا على أن ازن كلماتى هذه استمعوا الى ايها القادة ، نحن اذا انتظرنا ياكبتن "كامباناروس" .. حمولات السفن التى تتحدث عنها ، وانتظرنا "الرب" حتى يحرك ساقيه ويبيع الينا بالعون من الشمال ، إذا نحن فعلنا ذلك فلن نحرر انفسنا ابدا ، ليس هذا فحسب ، بل اننا سنكون - والله يسامحنى على ما اقول - غير جديرين بالحرية .. وإذا كان لى أن اتحدث بواقع خبرتى فى السنوات القلائل التى عشتها وتمنطقت فيها بهذا الحزام .. فإننى اقول إن الحرية ليست ابدا كعكة تهبط إلى افواهنا من السماء فنبتلعها .. ولكن الحرية قلعة لايد من أن نفتحها بأسيا فانا ، إن الذى يتلقى حريته من الآخرين ، يظل عبدا الى الابد ، فليكن ان النار ستلتهم القرى ، وأن القنوس ستقتلع الأشجار .. وأن الرجال سيسقطون فى ساحات الحرب وأن انهارا من الدموع والدماء ستسيل ! وليكن اننا سوف نتساقط .. وأن جماجمنا ستسحق سحقا ، ثقوا أن رجالا آخرين سوف يأخذون اماكننا ، إن على "كريت" أن تنتظر اياما طويلة من الأسى والنحيب ، ربما مائة سنة أو مائتين . أو حتى ثلاثمائة .. لا ادرى ، ولكن : يوما ما - لن يكون هناك طريق آخر .. لا تستمعوا الى اناس مثل الكابتن "كامباناروس" ، واقسم بهذه الشمس التى تغمرنا بأشعتها إننا - يوما ما - سوف نرى الحرية .

وكان الكابتن "بوليكسيجيس" قد رفع طربوشه وبدا شعره الأشقر متوهجا تحت اشعة الشمس ، واثارت كلماته أكثر الفرسان الحاضرين فصاخوا فى حماس : "الحرية أو الموت" ! .. واتجه "الكابتن ميخائيليس" الى "بوليكسيجيس" ومد اليه يده بقلب مفتوح هادر :
- كابتن "بوليكسيجيس" : ثمة شيطان كان بيننا يحاول أن يفرقنا ، ولكن كريت هى الباقية ! .. هذه يدى ! .
واجاب الآخر :

- اخى .. "كابتن ميخائيليس" .. وهذه يدى انا ايضا ، وليذهب الشيطان الى الشيطان .

وارتفعت ضحكته ، ولكن "الكابتن ميخائيليس" كان قد احس بالندم ، وعاد يجلس حيث كان يجلس ، وقد تغيرت اسارير وجهه مرة اخرى .

وامتد الاجتماع ساعة اخرى ، ناقش فيها الجميع مكان اللقاء واين وكيف ، حتى يحتلوا مفارق الطرق ويحاصروا القرى التركية . ويجمعوا الجماهير فى الأديرة القائمة فى قمم الجبال .

واديرت الكتوس ، ورشت الخمر فوق الارض ، واقسم الجميع ، ونهض الثلاثة الكبار .. وكانت الشمس تغيب وراء الافق مع نهاية اللقاء .

باسم الله ! تفرق القادة كُلُّ الى مملكته ليصدر اوامره الى اتباعه : واخذ الصغار والكبار يخرجون اسلحتهم من تحت الارض او من الاسقف .. تشكيل من اسلحة عام ١٨٢١ .. بدعوا ينظفونها ويزيلون الصدا من فوقها ويهيئونها للاستعمال ، وبدأ الفقراء منهم يصنعون الهروات ويضعون الخطط لاصطياد الجنود الاتراك وسلب اسلحتهم .

وفى ساحات الأديرة : اخذت الفتيات والنساء يمزقن الاوراق القديمة والمخطوطات ليصنعن منها صناديق للذخيرة ، وبدأ الرهبان الحادقون فى طحن واعداد المراهم والادوية لعلاج الجراح ، او فى إذابة رصاص ابنية الكنائس لصنع طلقات الرصاص ، وتحولت "كريت" كلها الى مصنع يعمل للحرية .. ليلا ونهارا .. وبزغ قمر اغسطس ؛ وبدأت حرارة الشمس تخف ، وبدأت اشعتها تمس كريت فى حنان ، وتمنح الحياة للحنطة ، والشعير ، والأرز ، والعنب .. وبدأت كريت تقترب المطر مع تجمع السحب فى بداية الخريف - بيضاء مثقلة تدفعها رياح خفيفة حتى اذا تجمعت ألقت حملها رفيفا ليكسو وجه كريت .

كان العصير يتخمر فى الدنان ، ولكن من ذا الذى يشربه ؟ وكان الكريتيون يسألون انفسهم : من الذى سيعدل الخبز من محصول هذه السنة ؟ من الذى سيقدر له أن يعيش ليحتفل برأس السنة ؟ كانت الاسمات يحدقن فى أبنائهن الابطال ، وكانت الزوجات يطلن النظر إلى أزواجهن ، والشقيقات الى اشقائهن .. إن ملك الموت ليحوم الآن حول

اكتافهم ، ولكنهن لم يكن يقلن شيئا ، كن يعلمن جميعا أنهم كريتيون ،
وانهم ولدوا من اجل أن يموتوا فى سبيل كريت .

وكانت "امينة" هى الأخرى تشارك الكريتيين وتساعد فى صنع طلاقات
الرماس فى ساحة كنيسة "كاستيلي" وهى سافرة الوجه مثل النساء
المسيحيات ! .. وكانت تجمع صناديق الذخيرة ، ولكن افكارها كانت تسرح
بعيدا .. لم يكن يهزها فى قليل أو كثير مصير كريت ، أو الكابتن
"بوليكسيجيس" ، أو المسيح أو كل القديسين .. وانما كانت تحلق فى
الجبال مع الرجل الذى نذر نفسه للصيد هناك ، وكان تعميدها سوف يتم
فى خلال اسابيع قليلة - فى الرابع عشر من سبتمبر - يوم الصليب
المقدس ، وكانت "كريسانتى" تتحرك فى ثقائل داخل اقطاعية "على
انما" التى استولى عليها الكابتن .. تعد اللحوم المحمرة استعدادا لليوم
العظيم الذى تتحول فيه امرأة مسلمة الى المسيحية .

حتى الفرسان ! كانوا سيحضرون فى رفقة اتباعهم بصفتهم عربيين ،
ولابد أن "تيتيوس" سوف يلقى خطابا فى المناسبة ، وأن ابناء القرى
المجاورة سوف يحضرون فى جماعات ليشهدوا بأعينهم تعميد زوجة
"نورى" فقد كانوا يرون فى ذلك فألا طيبا - أن تتحول تركيا الى
اليونان ! .. وكان الجميع سعداء بأن يشبعوا المرأة المسيحية الجميلة
الجديدة أما "امينة" فكانت تتقبل كل شيء بإبتسامة .

ويوم ان اجتمع الكبار ! .. كانت "امينة" تجلس بالقرب من النافذة
تنتظر عودة صديقها بعد ان استحمت ومشطت شعرها وصبغت حاجبيها
المقترنين ، كم كانت تود لو انها كانت معه لتلقى نظرة على هؤلاء الفرسان
الاربعة عشر كالنسور فوق القمم ! ولتقابل ذلك الفارس المتوحش غليظ
العنق .. "الكابتن ميخائيليس" ! .. وحين وصلت بخيالها الى هذا الجد ،
امتزجسدها فى اشتياق ، لماذا بحق الله كانت تفكر فيه !؟ ما الذى كانت
تجده فيه !؟ لم يكن رجلا . بل كان وحشا مفترسا ، وحيدا ، قبيحا - وإنها
لتكرهه ! ولقد احسنت حين اختارت الكابتن "بوليكسيجيس" ذلك الرجل
الرقيق المثير والمتحدث اللبق العذب ، وبالرغم من ذلك ، فكما كانت تشتاق
الى أن ترى "الكابتن ميخائيليس" هناك فى الجبال .. ولو للحظة
واحدة !! .

ورفعت عينها المائلتين الى قمم "سيلينا" الوردية ، كان "نورى بك" قد اختفى تماما من ذهنها ومن جسدها كما لو انه لم يكن حيا فى يوم من الايام ، او كما لو انه لم يكن عظيما كالاسد .. وكما لو لم يضمها ابدًا الى صدره ، كان جسدها مثل البحر ، تستطيع السفينة أن تنساب على صفحته تخدشها للحظة ثم تعود لتلتئم .. وكيف لها أن تظل وتذكر ذلك الباشا المشوه العليل الذى اشتراها من ابيها ؟ كانت تلك تجارة ابيها التى يتعيش من ورائها .. لقد انجب اجمل البنات ، فاطمعهن وسمنهن ، ثم عرضهن ، وباعهن .. بل وكيف كان لها أن تذكر ذلك الفارس الشركسى الشاب الذى هبط عليها ذات ليلة من ليالى الصيف وهى فى حديقة على ضفة النهر ، ثم طرحها ارضا وسط زهور عباد الشمس الباسقة ؟ كانت تظن لحظتها انه يريد أن يقتلها .. فقاومته ، ولكنه لم يفعل ، فقد اصبح وديعا بعد العناق وهو ينحنى فوقها ويبتسم لها ويسألها : "ما اسمك" ؟ .. "اسمى هو" .. وكيف يمكن أن تتذكر اسم ؟ كل هؤلاء الرجال - وغيرهم كثيرين - قد انسابوا فوقها وقد غابوا عن الوجود ، والدور الان دور الكابتن "بوليكسيجيس" ! إنه هو الذى ينساب فوقها الآن .. ولكن واسفاه ! .. انها لتحس ذلك من الآن .. لسوف يبتعد عنها فى ذات يوم عرسها .. ولسوف تبرز فجأة من وراء الافق سفينة قراصنة ذات صوار ثلاثة واشرعة سوداء !

وبينما كانت امينة تنتهد ، وهى تحقق من خلال النافذة ، كان "الكابتن ميخائيليس" ممتطيا صهوة فرسه وحيدا .. فى طريقه الى بيت ابيه ، وقلبه يدق بعنف ، والخجل الغاضب يأخذ عليه كل جسده : "ايها الاحمق ، انت تحارب فى سبيل الحرية بينما انت لا تزال عبدا .. ان شفتى تقولان شيئا ، بينما اليدان تقولان شيئا آخر وقلبي يقصد شيئا ثالثا ! .. لماذا تثرثر يا "كابتن ميخائيليس" .. ايها المنافق ؟ ولماذا تخنق قلبك من اجل كريت ؟ ان شيطاننا قد انشب مخالبه فى حنايا صدرك ، وملك عليك امرك .. انت ايها الرجل الذى فقد شرفه ! .. وحتى لو انك سقطت صديقا فى المعركة .. وحتى لو انك اقتحمت "ميجالوكاسترو" وحررت كريت ، فسوف تظل بلا شرف ، إن قلبك موصول بشيء آخر مختلف تماما .. وإن اغراضك تكمن هناك .. فى مكان آخر!" .

كان قد ارسل احسن فرسانه : "تيودورس" : يحمل الراية بينما استغرقه هو جوار داخلي مع ذاته ، لقد رأى "بوليكسيجيس" مرة أخرى .. والتقط انفه رائحة ذلك المسك التركي الملعون ، واستطاع أن يلمح تلك العضة الحمراء فوق رقبتة ، ولحظتها ثارت الدماء في عروقه : "اللعة عليه .. اللعة على الكلبة " إننى افتقد شرفى طالما هى على قيد الحياة" وكانت ثمة صورة لا تريد أن تفارق مخيلته ، صورة العريس وهو يبحث عن الغرابين اثناء الاجتماع ، ثم وهو يدعوهم لحضور يوم الاكليل .. ثم وهو يقترب منه ثم يرتد امام نظرتة ، ووجد نفسه يصيح : "لم اعد احتمل .. هذه ليست حياة ، .. ولا بد أن اضع لها حدا" .

كان الكابتن "بوليكسيجيس" لا يزال مع "أمينة" و"كريسانتى" الى المائدة يتناولون جميعا طعام العشاء ؛ حين دق الباب .. ودخل "تيتيوس" ودهش "الكابتن بوليكسيجيس" ، فهو لم يكن قد رأى المدرس منذ ذلك اليوم الذى لقى فيه ابن اخته "ديامانديس" وابنة اخته "فانجيليو" ميتهما السريعة ، ولقد كان غاضبا منه فى البداية لأنه كان يشك فى انه هو الذى دس السم لديامانديس بدافع الغيرة ، ولكنه ما لبث أن غير رايه ، فلم يكن من المعقول - فى تصوره - أن يقدم هذا الحمل على قتل احد ومن ثم فقد ألقى التبعة على القدر والمكتوب .. ولم يعد هناك إذن ما يصح عن المدرس ، وإنه ليسمع الآن عن سفراته ورحلاته فى القرى ليؤتى الحماس فى صدور الرجال ، لقد نسى تلك الحكاية إذن تماما ، واسعده ا يراه الآن بلا انتظار ، وصاح وهو يتحرك ليفسح له مكانا :

- مرحبا يا مدرس ! .

وحياه المدرس فى ابتهاج وهو يجلس القرفصاء ، فيسقط ضوء المصباح على وجهه ويتطلع اليه "الكابتن بوليكسيجيس" فى دهشة وهو لا يكاد يصدق عينيه ، ا هذا هو "تيتيوس" - العليل ذو العوينات والسرراويل الضيقة والظهر المحدوب ؟! إن الذى يجلس الى جواره الآن رجل مختلف تماما ! .

والحق أن "تيتيوس" اصبح بالفعل خلقا آخر ، فمنذ ذلك اليوم الذى

اغتيال فيه ذلك المخلوق اللفظ ، .. بدأ يتحول فى صورة واضحة ومطرودة .. فقد اصبح اكثر جراءة وشجاعة .. وادرك ان سر الرجولة كله لا يكمن فى قوة الجسد فحسب .. بل فى قوة الاصرار والعزيمة ! إن ذبابة ذات اصرار وعزيمة تستطيع أن تصبح فى قوة الثور ، إن الرجولة هى الروح وليست الجسد .. ومنذ ادرك هذه الحقيقة ، بدأ يتحول الى رجل مختلف تماما ، بل ان جسده ايضا بدأ يكتسب القوة شيئا فشيئا ، فلم يعد محدوبا .. وكان يأكل فى شهية ويشرب بشراهة .. وبدأ اللون الأحمر يجد طريقه الى خديه ، ليس هذا فحسب ، بل انه .. وهذا اغرب ما فى الامر - اصبح يحس بالنار فى جسده فيجرى خلف النساء ! وها هو ذا يحمل جواله على ظهره وينتقل من قرية الى اخرى يتحدث عن الوطن الام ويجعل من نفسه عرابا لاطفال كثيرين ، ويعقد صلات وثيقة بعائلات هؤلاء الاطفال ، ولقد حدث أن واحدة من هؤلاء الاقارب الجدد كانت زوجة لرجل غائب .. وكانت مرحلة ولعبها ، وفى احدى الليالى ، وبعد حديث مرح ؛ وجد الاثنان - دون أن يدريا كيف حدث ذلك - أنهما اصبا معا فوق الفرش وقد احتضن كل منهما الآخر ! .. ومنذ تلك الليلة ؛ .. اصبح "تيتيوس" يزود "كاستيلي" كثيرا .. وينام الى جوار قريبته الجديدة التى كان يرجو من الله ان يحميها ! .

وقال "الكابتن بوليكسيجيس" وهو يملأ له كأسا :

- سمعت انك انت ايضا اصبحت تحارب ! إن دراستك ياكابتن قد بدأت تتحول وتحمل معها راية مطرزة بحروف الهجاء ! .

واجاب المدرس ضاحكا :

- وأمل ان استطيع قريبا حمل البندقية ، إن حروف الهجاء ليست اكثر من مشهيات ، اما الطعام .. فهو تركيا ! .

واسندت "امينة" خدها التفاحى الى يدها وهى تحرق فى المدرس وتتأمل : "هذا هو شقيق الكابتن ميخائيليس .. مدرس .." "وحاولت عبثا ان تكتشف فى وجهه تلك الملامح العابسة القاسية التى عرفتتها فى الآخر .

ونهبست "كريسانتى" وخرجت ، فلم تكن تحتل النظر اليه ، فقد كان ثمة جنتان تنهضان من تحت التراب ، وتقفان الى المائدة فى مواجهتها وعاد "الكابتن ميخائيليس" يتسامل .

- لعلك تتلطف يا مدرس ، فتحضر حفل التعميد يوم الالكيل ؟ سوف نعد "امينة" ويصبح اسمها "إلىنى" ، وسوف يكون عرسنا فى نفس المساء .

- ذلك هو بالضبط ما جئت من اجله ياكابتن ، لقد كان العجوز "مافرولياس" يحفر فى حقله بالقرب من "كاستيلى" فعثر على حوض من الفخار الرائع وطلب منى أن ألقى عليه نظرة ، وهو يعتقد أنه اثناء اثرى ، والحق ان الله وحده يعلم كم الف سنة مرت وهو مطمور تحت الأرض ، وثمة نقوش فوق جداره من الخارج - نقوش لاعناب من الصدف لا أعرف ما تعنيه على وجه اليقين .. ولقد عثرت فى قاعه على حفنة من الفول المصرى تحولت من الزمن الى ما يشبه الفحم .. واكاد أجزم بأن هذا الاناء يعود الى ايام الملك "ميناء" .

وتسامل "الكابتن ميخائيليس" :

- حسن .. ثم ماذا ؟

- ألا ترى معنى يا كابتن ؟ إنه حوض المعمودية ! إن القسس لم يصل بعد الى رأى بالنسبة للأناء الذى سيجرى فيه تعميدها ! إن حوض الكنيسة صغير الحجم ، وما قد وهبنا الله - وفى اللحظة المناسبة - حوضا رائعا يبرز لنا من تحت الأرض ، ولعلها تكون فالأ طيبا ياكابتن ! واقسم بدينى ، أن القسطنطينية سوف تعود مسيحية مرة أخرى !

ثم وقف .. فقد كان فى عجلة من امره ، لقد كانت شقيقته فى العمداد تنتظره على أحر من الجمر .. وقد هيات له المائدة !

وقال "الكابتن بوليكيسيجيس" ضاحكا :

- إن رأسك حبلى يا مدرس ! تلد الافكار النيرة ، ما رايك يا امينة ؟

ولكنها لم تقل شيئا ، ظلت فقط تحديق فى المدرس .. بينما روحها تتحرر من جسدها وتسبح بعيدا .. بعيدا عن المسيح .. وعن الاخوان .

كانت المرأة قد أعدت المائدة وملأت زجاجات النبيذ ، وجلست تنتظر اخاها فى العمد ! كانت امرأة مسترجلة ، ربة الجسد .. اسناتها طويلة بيضاء .. ذات شارب اسود كثيف ! وكان وجهها العريض مليئا بأثار الجدرى ، ولقد كان قبها هذا هو ذاته الذى شد اليها المدرس ، عالم غريب حقا : لو لم يكن هذا النمش فى وجهها لما استطاعت أن تلهب دماء المدرس .. ولظل زمنا طويلا اخجل من أن يضم الى صدره امرأة ! .

وحياها المدرس تحية المساء ، وكان ابنه بالعماد طفلا صغيرا لا يزال نائما فى مهده ، وكان ثمة طفل آخرينام فوق اريكة صغيرة ، اما الزوج فقد كان نائما متجولا يجوب القرى .. كان وحدها مع "تيتيروس" .. وكانا فى عجلة من امرهما ، سرعان ما افراغا زجاجات النبيذ ، ثم رسم كل منهما علامة الصليب ، وغطيا الايقونات المقدسة المعلقة حتى لا تنظر اليهما .. وقذا بنفسيهما فوق الفراش .

وفى صباح اليوم التالى اصطدم المدرس بجمع فى ميدان القرية امام اشجار الحور الثلاثة الملتفة . وكان الفلاحون يندفعون خارج بيوتهم حفاة الاقدام وقد تناهت الى اسماعهم صيحات هذا الجمع . ثمة راهب كان قد وصل لتوه عارى الصدر لاهت الانفاس ، تسيل الدماء من قدميه . واخذ يصيح :

- ايها الاخوة .. لقد ارسلنى اباء دير المسيح ، إن القائد "حسن بك" خرج زاحفا من "ميجالوكاسترو" على رأس قوة من الجنود الاتراك ، ولقد حاصروا الدير ! اين قائد هذه القرية ١٩ .. النجدة يا اخوتى ! إلى السلاح .

وكان "الكابتن بوليكسيجيس" لاحظتها بين احضان الشركسية ، وحينما تناهت الاصوات الى سمعه قفز لتوه ، ولم يكن من المقبول - وهو الفارس - أن يخرج بدون سرواله ! .. ومن ثم فقد ارتدى ثيابه ودرس غدارته فى

حزامه الجلدى ، واندفع ناحية الضجة .. ثم امسك بالراهب من ذراعه وهو
يقول :

- لا تصح هكذا ! لا تزعج رجالى !

ثم جذب به جذبا حتى ادخله البيت واغلق الباب .. وقدم له بعض الطعام
والشراب .. واسترد الراهب انفاسه .

وقال الكابتن "بوليكسيجيس" فى لهجة أمره : .

- الآن تستطيع أن تتكلم ، ولكن حذار أن تعود الى هذا النحيب اليسوا
كثير من اترك ايها الراهب الاحمق ، ولسوف يتخطفهم الشيطان ! .

الفصل المباشر

وأطلع الله النهر ، ولمست مشاعل الضوء المرتفعات ، وانحدر الضوء الى السفوح حتى انصب فوق جسد كريت المعذب ، ولو ان الله لحظتها شاء أن يلقي نظرة على كريت ، لأحس بالأسى والاشفاق لمرأى البيوت المحترمة والنساء اللائى يعولن ، والاطفال اليتامى عند اقدام الجبال العارية الجوعى ، والرجال - الذين صرفتهم القساوة عن الصلاة - وقد لزموا الممرات ، والقمم وهم يحملون مزقا من القماش طرز عليها رسم الصليب ، واندفعوا الى المعركة عارية اقدامهم ، بلا خبرة ولا ذخيرة ولا شيء سوى بندقية بائسة ، كم مرة - وعلى مدى اجيال طوال - رفعوا ايديهم ضارعين الى الله فلم يتلفت ليسمع ضراعتهم ؟ كانت السماء صماء ، وكان الله قد بدل المقادير .. ومن ثم فقد امتدت ايديهم هذه المرة الى بتادقهم .

ومع اشعة الصباح الاولى كان الكابتن "بوليكسيجيس" مشغولا بالخروج الى الحرب . يسرّج فرسه ، وكان قد بعث برسول فى المساء السابق الى "الكابتن ميخائيليس" يحمل آخر الانباء : الأتراك يحاصرون الدير المشهور ، فلترتفع الآن الراية ، الحرية أو الموت ! لم يعد هناك مكان للكلمات والخطب : .. الذى يجب أن يتكلم الآن فقط هو فم كريت الحقيقى : البندقية .

ولقد اضاف الى رسالته : "الآن ياكابتن ميخائيليس الى الجحيم كل حزازاتنا واهتماماتنا الصغيرة ، فقد اكلت منا بما فيه الكفاية ، إن احدهم سأل الأسد يوما : ما الذى يخفيك اكثر ، الفيل ؟ النمر ؟ الثور ؟ .. فاجابه قائلا : بل القملة هى التى اخافها ، ان القملة قد عضتنا كلينا

ياكابتن ميخائيليس ، وكنا نسميها السعادة مرة .. ومرة اخرى كنا نسميها
الحرص ، ولكنها كانت القملة دائما ، فلتذهب الى الشيطان فإن كريت
تنادى ، مد الينا يدك يا اخى ا .

وخرجت "امينة" واستندت الى قائم الباب ، وقد احاطت عينها هالتان
من الزرقاء وبدت شفاتها متورمتين ! واستدار اليها الكابتن وهو لا يزال
يفكر فى الكلمات الرفيعة التى بعث بها مساء امس الى "الكابتن
ميخائيليس" .. ووجهه يحمل الجد والقسوة .

وسألته الشركسية فى ضراوة : "اين تسرح افكارك ؟ إننى اقف امامك
دون أن تعيرنى ادنى اهتمام" .

وكان هو لا يزال يعلق بالسرج حقيية ذات جانبين مطرزة بمختلف الالوان
وقد ملأ جانبها منها بذخيرة بندقيته ، ويمزق القماش المبلل بالزيت ،
وبالمراهم ، ووضع بالجانب الآخر غيفا من الخبز وقطعة من الجبن الطرى
وزجاجة نبيذ بماذا ياترى يجيب هذه المرأة التى تقف بالباب وترقبه وهو
يتهبأ للرحيل ؟ انه منذ أن كتب تلك الكلمات مساء امس لرفيق السلاح
الوحشى وهو يدرك جيدا - وكما لم يدرك يوما فى حياته من قبل - الى اين
تنتمى النساء .. والى اين تنتمى كريت ، وماهى الواجبات الحقيقية
للرجل .

وعادت الشركسية تتكلم : "لا بد أن اكشف لك سرا" .. ثم اتجهت
نحوه ، وربتت على عنق الفرس وقد احنت رأسها حتى تهدل شعرها فوق
عنقها كمعرفة الفرس ذاته ويكاد يلمس الارض .. بينما غمرت الغناء رائحة
المسك .

وتوقفت يدا "الكابتن بوليكسيجيس" وظلت فى الهواء بلا حراك وهو
يسأل :

- سر ١٩ .

- بلى .. وانا الآن اقله لك حتى لا تدعى بعد ذلك اننى لم اكشفه لك ..

إننى اتلقى فى بعض الاحيان اخبارا من "ميجالوكاسترو" ، إن اقرباء "نورى" سوف يهبطون على "كاستيلى" .. يوما ومعهم الجنود ليأخذونى ، وإن انا لم اعد الى دينى فسوف يقتلوننى .. فأذهب انت اذن الى دير السيد المسيح ولكن .. فكر ايضا فى زوجتك ياكابتن "بوليكسيجيس" .

وظل الكابتن واقفا للحظة فى حيرة بينما تنهات ضجة من الخارج حيث الزوجات يودعن ازواجهن ، والنساء العجائز يبكين والرجال يخلصون انفسهم من احضانهم وهم يصيحون "الى اللقاء" .. ثم يتجمعون الى القرب من شجرة الحور فى قلب ميدان القرية .. حول راية "الكابتن بوليكسيجيس" .

وعندما رآته الشركسية صامتا ، قالت : "إن المرأة هى ايضا قلقة .. لابد من الاستحواذ عليها" .

واجابها الرجل فى النهاية : "ولست انسى ذلك .. الى اللقاء" ثم احتواها بين ذراعيه فأحس بجسدها القوى واحتاجت مشاعره ، إن الدنيا كلها تصبح كئيبة لولا ان هذا الجسد المثير بين ذراعيه ! واغلقت المرأة عينيه واشرايت فى رقة تحاول أن تصل الى شفتيه .. وتهاوت لحظتها ركبته ! وصهل الفرس ، وافاق الكابتن من غيبوبته واستند الى قائم الباب ، وابتعد المرأة فى رقة وحرر نفسه من شفتيها ، ثم امسك بعنان الفرس ، وفى قفزة واحدة اصبح فوق صهوته .

وقال : "إلى اللقاء" .. ثم انطلق عبر الباب الخارجى دون أن يدير رأسه .. واتجه الى ميدان القرية .

وفى ذات الصباح الباكر ، كان "الكابتن ميخايليس" - محوطا بأفضل فرسانه داخل ساحة الجد الفسيحة فى بتروكيفالو - يعهد الى "ثودورس" برأيته قطعة القماش الاسود وقد علتها الكلمات باللون الاحمر ، وكان يقف الى جواره فى سلاحهم صحبة الشراب : "كاجابيس ، وفوروجاتوس" ، اما فينروسوس فكان قد ذهب ليعد امور أسرته ، بينما بقى "بيتروودولوس" الى جوار زوجته ، واستدار "الكابتن ميخايليس" الى زوجته التى كانت تقف عند المدخل وقد بسطت ذراعيها :

- الى اللقاء ايبتها الزوجة .

- الله معك ياكابتن ميخائيليس .

ثم اضافت وعيناها ترمقان في حنان رفاق السلاح الشباب المحيطين
بزوجها "الله معكم يافرسان !" .

وخرج الجد وقد اكتسحا خداه بالحمرة مع اشعة ذلك الصباح الباكر ،
وصاح وهو يرفع مخبله الثقيل :

- الى الامام يا اولادى ومعكم بركاتى ! الله يبارككم ! انكم تحاربون من
أجل كريت وليس ذلك بالهزل ! سعيد هذا الرجل الذى يهب حياته لخدمة
كريت ! .

ثم صمت لحظة : وعاد يقول :

- وفى هذا اليوم ينبثق الآن صباحه ، فإننى احس - ولا ادرى لماذا ..
بأنه أفضل لى ان أقتل فى خدمتها من أن اعيش فى خدمتها ! .

وتناهت الضجة الى "كاراساكى" النائم ، وادرك ان اباه يخرج فى تلك
اللحظة للحرب .. فقفز من فراشه ليظهر فى لحظة عند عتبة الدار وقد تدثر
بسجادة حمراء مطرزة ، ونظر ابوه الى الصبى الذى كان لايزال نصف نائم
وهو يتعثر بين جده وامه - واستغرق فى الضحك ثم قال وهو يقفز الى ظهر
فرسه :

- الى اللقاء ياثاراساكى ، الى اين تكبر فيما فيه الكفاية ! .

ثم رسم علامة الصليب وهو يقول : "باسم الله" ! .

وتحركت الراية فى المقدمة .. وخلت القرية من الرجل .

كان دير السيد المسيح قد تأسس فى الازمات القديمة قبل ان تسقط
القسطنطينية وقبل أن يجيء البنادقة الى كريت .. وايام كان الابطاطرة
البيزنطيون لايزالون يحكمون الشرق وجانباً كبيراً من الغرب .

وتقول الروايات إن الذى بنى الدير هو الامبراطور نيكيفوروس - ذلك الانسان الاسود الروح الذى اغواه جسد جميل لامرأة .. والذى اقلت من الجحيم بمقدرا شعرة ، ولكنه تشبث برحمة الله ، وغفر الله له واحله منزلة فى الجنة مع غيره من الابطارة الخاطئين والذين عذبوا ابشع عذاب .

وكان نيكيفوروس هذا يفرض سيطرته على الدنيا .. ونزل "كريت" حيث هزم العرب واسقط الهلال وركز فوق الحقول المحروقة والمدن المنهوبة رايه المسيح ، وفى احدى الامسيات - هكذا تقول الروايات - كان يسير فى احد الوديان حين نام تحت شجرة ليمون ، وحين اصبح عليه الصباح تابع السير فى اتجاه "شانداكا" (وكان ذلك اسم ميجالوكاسترو آنذاك) ، وكان ذلك فى مايو : والقمر فى تمامه والفضاء ترن فيه انغام عندليب يغنى ، ورأى الامبراطور السيد المسيح يقترب ، وقدماه عاريتان يكاد أن يغشى عليه من نصب السير الطويل ، توقف عند شجرة الليمون دون أن يرى "نيكيفوروس" ، وتمدد فوق الأرض وهو يتنهد ، ثم اتخذ وسادة من حجر .. وقال : "كم انا متعب" ثم طوى ذراعيه .. واغلق عينيه .. وراح فى سبات عميق .

واحس الامبراطور طوال الليل بسعادة حلوة لا توصف ، ولم يكن ذلك لان القمر كان فى تمامه .. ولا لان العندليب يغنى . ولا لانه ارتاح فى نومه ؛ ولكن لانه كان قد دخل الجنة ا .

وعندما استيقظ "نيكيفوروس" مع فجر اليوم التالى .. قال : "هذه الشجرة ، حيث نام المسيح ، قد تقدست" ثم امر بأن يبنى ديرا حولها ، وهكذا - كما يقولون - تأسس دير السيد المسيح .

ومات الامبراطور البيزنطى ، واستولى الاتراك على القسطنطينية وعاد البنادقة الى كريت .. ثم احتلها العثمانيون ، وتحطم "السيد المسيح" .. واعيد بناؤه من جديد .. ثم تحطم مرة أخرى .. وهاهو ذا الآن محاط بالاتراك من كل جانب .. واجراسه تدق فى أنين وتصيح باعثة بالرسائل الى ارجاء كريت : "ياكل المؤمنين .. هلم ساعدونى ا" .

وكان رئيس الدير يسلح نفسه داخل الكنيسة ، بينما الرهبان يحفرون ما تحت المحراب المقدس ليخرجوا بنادقهم .. وركع رئيس الدير امام ايقونة المسيح وصاح بصوت مرتفع ليسمعه الجميع .

- يا سيدى المسيح .. اغفر لى خطي ، انا وحدى الملووم ! وها قد اقبل الكلاب ليتأروا لدمهم .

وكان فى الحقيقة هو الملووم وحده ، ففى اليوم الاول من سبتمبر - بداية السنة الاكليريكية ، كان فى طريقه عائداً من "ميجالوكاسترو" بعد أن ألقى بأعترافه امام المطران ، وبعد ان ركع امامه وهو يقدم هبات الدير السنوية ، وسأله أن يشمل الدير يحمائته ! فيتفضل باستخدام نفوذه مع الباشا ليمنع الاتراك من مهاجمته مرة أخرى ، كم مرة أخرى سوف يحرقون هذا الدير !؟ "ارحمنا ! لقد امتد بى العمر ياسيدى المطران ، وجراحى اصبحت تؤلمنى ، ولم يعد فى مقدورى بعد أن ادافع عنه ا" .

واجابه المطران ضاحكا :

- وهل تظن أن العمر امتد بالله !؟ ومع ذلك فإنه لايزال يلقي باعباء جديدة على كواهل عشرة من القديسين ! اذهب مصحوباً ببركاتى ولا تقلق .

وحمل رئيس الدير ببركات المطران معه فى الطريق الى بلده ، وقاد بغلته عبر بوابة المستشفى خارجاً منها ، وتحت الشمس الغاربة اخذ يتطلع الى زرقاء الجبال المتوهجة امامه وإلى الحقول بعد حصادها والكروم الغنية بالعناقيد واشجار الزيتون المثقلة بخيراتها حوله ، .. وإلى البحر .. واحس بقلبه يقفز من بين ضلوعه .. وغغم يقول :

- جميلة هى هذه الدنيا الزائفة .. كم هى جميلة كريت ! إن كريت هى الله .

والتزم الشاطئ فى طريقه ، واخترق الرمال الحمراء على ضفاف النهر ، وشرب "الراكى" فى فندق الارملة .. ثم اتجه نحو "الجبل

القاسى" ، واخذت البغلة تسير فى حذر فائق ممر الماعز الضيق على طول حافة الجبل وقد بدأت تهب نسمات رقيقة باردة بينما كان يرى البحر الى يساره عند السفح يزداد ظلمة وسوادا ، ورسم علامة الصليب ، وعاد يقول بقلب مفعم بالسعادة : .

- انها لجميلة هذه الدنيا الزائفة .. كم هى جميلة كريت ..

ولم يكد يفرغ من الجملة حتى رأى ثلاثة من الشباب الاتراك الاقوياء يخرجون إليه من وراء صخرة كانوا يتربصون به من خلفها .. ويندفعون نحوه وقد شهبوا خناجرهم ، وكان الاتراك قد اقسما ان يثاروا لآبائهم من هذا القاتل الذى ترملت على يديه كثير من الهوانم ويتم كثير من الاطفال فى ثورة ١٩٦٦ .

وجفلت البغلة ، وكادت تلقى رئيس الدير من فوقها ، ولكنه نسى لحظتها انه رجل عجوز يكسوه اربعون جرحا .. وقفز الى الأرض فى خفة القطة المتوحشة .. وصاح وهو يستل خنجره : "باسم المسيح" .

وماجت ارض الممر الضيق بأربعة اجساد تدور وتدور ، ومن بينها جسد رئيس الدير الضئيل بارز العظام .. وخفيف الحركة فى ذات الوقت والذى اتقى المهاجمين بقبضتى يديه .. وثارت دماؤه .. واحس بشبابه يعود وبأن كل اسلافه واجداده الذين سقطوا فى المعارك ضد تركيا ينهضون داخل جسده ، ولم يعد هو وحده الذى يضرب .. ولكن كريت كلها كانت تضرب معه .

وكان الليل قد اوغل .. والبحر تحتهم مظلم داكن الظلمة ، وكانت النجوم فوقهم فى قبة السماء جذلى فى وحشية .. وثمة طائفة يحوم فوق صخرة وهو يرقب رقصة الموت من اربعة اجساد .. ويغنى ! .

وصاح رئيس الدير مرة أخرى : "باسم المسيح" .. وجاهد بكل قوته ليخلص نفسه من مخالب الاذرع الستة ، ثم اندفع بجسده نحو الثلاثة .. معا ليسقطوا على الأرض .. على حافة الممر ، ثم ليبدعوا معا فى التدحرج وهم يحاولون فى البداية أن يتشبثوا بالصخور ، ولكن دفعة أخرى قوية منه

افقدتهم آخر محاولة للمقاومة .. وسقط الاتراك الثلاثة يصرخون فى الهاوية إلى البحر .

واستند رئيس الدير الى الجبل ورسم علامة الصليب والدماء تتزف من رأسه وصدره وقد تمزقت ثيابه ، وضمد جراحه بشريط من القماش ونادى بغلته .. ثم قال :
- امنحنى القوة ايها المسيح على أن اصل الى الدير ، وبعدها افعل ماشئت .

وضغط على اسنانه بقوة وهو يغالب الألم .. ويقفز الى سرج البغلة ، ثم استأنف سيره وهو يقول : "الله عظيم" .

وفى اليوم التالى : كانت "ميجالوكاسترو" تتحدث عن الفعلة الجديدة التى ارتكبها رئيس الدير قاتل الاتراك ، وخرجت ثلاث نساء عجائز يبكين اولادهن ومعهن عدد كبير من الاتراك ، واتجه الجميع الى مكان السقوط ، وهبطوا الى الشاطئ القفر والتقطوا الجثث الثلاث ودفنوها فى الرمال ، وغرس الرجال خناجرهم فوق شاهد القبر وهم يقسمون أن يبنوا لأصحابه ضريحا على انقاض الدير الملعون ، وهكذا ، امتلا الوادى امام "دير السيد المسيح" ذات صباح بالطرابيش الحمراء .

وفى ذات الصباح خرجت عصابات اخرى واتجهت نحو بوابة المستشفى فى طريقها لتعزيز الحصار حول الدير والى قرية "كاستيلي" التركية الكبيرة والتى كان "الكفار" قد احتلوها ، وكان فى المقدمة منهم جميعا اقارب نورى بك ، وعلى رأسهم المؤذن المتوحش والجنون يملكهم جميعا ، اما فى داخل "ميجالوكاسترو" : فإن المسيحيين كانوا يتطلعون من خلف النوافذ المغلقة الى الاتراك وهم يندفعون نحو بيوت اليونانيين والغداوات والخناجر والمدى فى ايديهم .

وفى ذات الصباح ايضا .. وعلى الجانب الآخر من البحر ، استيقظت "اثينا" .. كان ضوء الشمس ينحدر تدريجيا ابتداء بأعمدة "الباريثنون" .. الى السهل حيث المدينة التى اشتهرت بالفكر والجمال

والتي كانت قد بدأت تتمطى وهى تستيقظ من نومها بعد سبات عميق على اصوات باعة اللبن والصحف والخضراوات .. وبدأ يخرج من مبنى مدرسة مهجورة - من حجراتها ومخازنها - اللاجئون الكريتيون وهم يحملون فى ايديهم علب الصفيح ويقفون امام باب مفتوح يمكن للمرء ان يرى خلفه ساحة اقيمت فوق ارضها بعض الحواجز الضخمة ، وينتظرون ساعة أو بعض الساعة ليحصلوا على بضع ملاعق من حساء العدس ، كانوا فى البداية يحسون بالخجل لانهم لم يعتادوا من قبل أن يمدوا ايديهم بالسؤال : ولكن الجوع بعد ذلك كان كفيلا بأن يذهب الخجل .

كانت هيلاس الأم - والموت يذلها هى الأخرى - تققطع لقيمات تعطيها للكريتيين الجوعى ، وفتحت ربات البيوت التبعيسات البائسات اكياس النقود .. وضحى الأزواج الجدد بهدايا اعراسهم ، ورفع القسس ايديهم الى السماء فى ابتهاال ، وخرجت سفن من اماكن مختلفة على الساحل تهرب الذخيرة والطعام والمتطوعين الى كريت .

وفى ميناء "سيرا" ، كان الكابتن "ستيفانيس" يذرع الأرزقة الخلفية الصغيرة للمدينة وهو يعرج فى سيره ، ويمد يده فى توسل :

- سفينة من اجلى ايها المسيحيون ! سفينة من اجل كريت ا .

وفى ذات اليوم ، هيا الله له امرا ، فقد كان ثمة اثنان من الزعماء ممن كانوا اصدقاءه - يوما ما - يتجهان إلى دير السيد المسيح ، واستطاع "الكابتن ستيفانيس" أن يقفز الى ظهر سفينة عهد بها اليه ابطال "سيرا" محملة بالدقيق والاحزمة والضمادات وذخيرة البنادق .

ورسم الكابتن "ستيفانيس" علامة الصليب وأخرج ايقونة "القديس نيكولاس" وثبتها فوق مقدم السفينة وهو يهمس لها : "إننى اضحك فى مقدمة السفينة فألى الامام إذن يا قديس نيكولاس ، فان عينيك تريان افضل ماترى أعين رجلين معا ، لا تقل بعد ذلك إنك كنت داخل السفينة لاترى شيئا" ! ونظر اليه قديس البحر ذو اللحية القصيرة .. فى سكوت ، ثمة سفينة كاللعبه على سطحها رجال صفار .. هى فى قبضة يده التى اكلها

الملح .. وكان يبتسم ! وانحنى فوق الكابتن ستيفانيس .. وقبله .

ولاحت سحابة صغيرة فى السماء الى الجنوب وكأنها سحابة من الدخان مالبثت ان تتبعها سحائب صغيرة اخرى كأنها اغنام تأخذ طريقها خلفها تدفعها ريح جنوبية ساخنة ، وكان راعيا هو الذى يرفعها ، وعند الظهيرة كانت السماء قد غطتها السحب ، وبدأت قطرات اول امطار الخريف تهطل ، وبدأ اول هزيم الرعد يصفق .

وأدار الكابتن "ستيفانيس" عينيه البراقنتين فى اتجاه الجنوب وابتسم وهو يقول : "هبى يارياح الجنوب ياسيدة البحار ، وصبى فيضك حتى لا تظهر الشمس ولا يلوح القمر .. وحتى ألج ابواب كريت الى ارضها فى سواد كسواد القار" .

وسمع "فيندوسوس" بدوره هزيم الرعد فتسلق الجبل ، وراعه ما رأى وفرغ راسه الى السماء المظلمة حوله وغمغم يقول : "انتظري ايتها السماء حتى اصل الى ابى بالمعمودية .. جورجاروس .. ثم افعلى بعدها ما تشائين" ! .

وحدث الخطى فى طريقه الى "انابولى" القرية الجبلية ليسأل اباه المعمودية أن يعتنى بزوجته وبأبنتيه حتى يسود السلام "كريت" من جديد .

ووصل الى القرية فى الظلام الحالك ، وقرع الباب ولا من يجيب ! وعاد يقرع الباب من جديد حتى فتح له ابوه بالعماد وعيناه حمراوتان وشعره اشعث ووجهه اصفر شاحب ، وقال "فيندوسوس" : "سلامى يا أبى "جورجاروس" : هل استطيع أن ابني عندك الليلة ؟" وقال الأب : "سلنى رأسى اعطها لك .. مرحبا !" .

ودخل "فيندوسوس" ولم تظهر الزوجة بينما تناهت من اعلى - فى غرفة النوم - اصوات حزينة خافتة مالبثت أن اختفت .

وسأل "فيندوسوس" :

- واين امى ؟ ! .

- اعذرها يا ولدى "فيندوسوس" ، إنها لم تكن على مايرام فى الايام الأخيرة ، انها تبعتك اليك بتحياتها وترحب بك .

واعد الاب بالعماد .. المائدة .. واحضر الطعام والنيبذ واشعل مصباحا آخر ، ثم قال :

- اغفر لى يا ولدى ، ليس عندى الكثير لأقدمه ، فلم اكن اعرف انك ستمنحنى شرف حضورك هذه الليلة ، غدا اذبح لك دجاجة بإذن الله .

وعصفت الريح الجنوبية .. وهطل المطر بشدة .. وقال "فيندوسوس" :

- غدا سوف اعود يا أبى بإذن الله ، فقد وعدت "الكابتن ميخائيليس" ومن العار أن اخلف وعدى ، لقد جئت فحسب لأسألك معروفاً .

وهز "جورجارس" رأسه وهو يقول :

- كل مافى وسعى .

- عسى أن يكون عندك مكان لأسرتى .. حتى يصمت السلاح .

وعبّ "جورجارس" جرعة من النبيذ وكان حلقه فى حاجة الى مزيد من الاتساع ، وقال وقد خفض رأسه :

- لقد خلت غرفة بالصدفة .. فى الايام القليلة الماضية فقط ! .. خذها يا "فيندوسوس" يا ولدى ! .

ثم نهض واقفا ، وفتح الباب .. وخرج الى الفناء ، ثم مال به ان عاد وقد بلله المطر .

- الشكر لله ، إن السماء تمطر وسوف تكون الأرض مهيأة للحرث .

ثم ازاح المائدة جانبا واعد لابنه سيريلا .

- نم يا ولدى فطريقك كان طويلا .

وفى صبيحة اليوم التالى جاءه "جورجارس" بوعاء من اللبن ، ورغيف

جاف وقطعة كبيرة من الجبن ، وكانت السماء صحوا والديكة تملأ جو القرية صياحا وهى فوق اسطح بيوتها ، وقال "فيندوسوس" :

- صباح الخير يا أبى ، كيف استطيع أرد جميلك ؟! الله وحده يكافئك .

- الله يكافئ عما يستحق المكافأة يا ولدى ، فلا تشغل بالك .. الى اللقاء يا "فيندوسوس" .

وبدت الصخور المغسولة بالمطر .. لامعة فى ضوء الصباح ، وبرقت حبات المطر فوق اغصان الاشجار ، وهرول "فيندوسوس" هابطا الجبل وهو يصفر بفمه فى سعادة ، فقد وجد الحماية لأسرته فانزاح عن صدره كابوس ثقيل الامر الذى يجعله الآن يمضى فى طريقه عائدا الى "الكابتن ميخائيليس" و"كاجابيس" ، و"فورو جاتوس" .

وفتح باب لبيت من بيوت القرية وبرز رجل عجوز على عتبته فعرفه "فيندوسوس" على الفور - انه العجوز الحاذق "نخارياس" عم "جورجاريوس" والذى يقلم الاشجار ويداوى الرجال والنساء ، والذى يحمل فى ايام السبت وعاء من الفخار وبعض الصابون وزوجا من الشباشب ! وموس حلاقة ثم يتخذ مكانه بالقرب من الكنيسة جالسا فوق مقعد صغير ليحلق من الرموس مايتيسر له ، والى جواره جوال صغير يملؤه له زبائنه بالخبز والخضراوات والعنب والزبيب ، وجرتان إحدهما للنبيذ والاخرى للزيت ، فإذا ما انتهى من اعمال الحلاقة جمع الشعر المتخلف فى كومة واشعل فيه النار فأرتفع الدخان وغطى المكان حوله ، وناداه "فيندوسوس" وقد توقف :

- طال عمرك يا عم "نخارياس" .

واحد .. الى العجوز :

- مرحبا بعازلك القبتار ! ما الذى يجرى فى هذه الدنيا يا ولدى ! وإلى أين هل تمضى ؟ .

- لا تهتم يا عمى ! .. الى الشيطان هذه الدنيا ! .

- وأنت !؟ .

- انا ذاهب معها . وهل فى مقدورى أن افعل غير ذلك ؟ لقد امضيت الليلة الماضية عند أبى بالمعمودية "جورجارس" ولقد تحدثنا سويا حديثا طويلا .. وهانذا عائد ادراجى .

ورفع العجوز يديه الى السماء وهو يفمغم :

- عند "جورجارس" ! اللهم ارحمه ! من اجل ذلك إذن ارسل يطلب منى ألا يذهب احد الى بيته لينوح على الميت ١٩ .

- ماذا تقصد يا عمى ١٩ ينوح على اى ميت ١٩ .

- الم تلاحظ شيئا ١٩ .

وما الذى كان يمكن أن لاحظته ١٩ .

- لقد قتل ابنه صباح امس ، وكان جسده فى حجرة النوم !

وغطى "فيندوسوس" وجهه بيديه ولم يقل شيئا .

وصاح العجوز :

- لا تبك يا "فيندوسوس" يا ولدى ! الوداع .. كلنا سنموت !

وكانت السماء قد امطرت طوال الليل ابدا حيث دير السيد المسيح . وبدت وجوه الرهبان منتعشة برغم ان ثلاثة ايام مرت ، وهم راكعون خلف متاريسهم ينتظرون الاتراك كان ثمة اثنان وثلاثون منهم ، ومعهم قرابة العشرين من الفلاحين الذين دخلوا من التخلي عن "السيد المسيح" وسط ذعرهم ، فعندما سمعوا دقات الاجراس العاصفة هرعوا بزوجاتهم واطفالهم الى كهف مرتفع جعله الله قلعة من القلاع ، ثم زدوا الدير بالموثن - خراف وماعز وجوال مملوء بالبسكويت .

وكان الوقت من الظهيرة قريبا عندما وصل الكابتن "بوليكسيجيس" بفرسان الى قمة الممر وبدأ يقترب من الدير عبر الوادى ، وتناهت اليهم من

بعيد اصوات طلقات الرصاص ودقات طبول الاتراك الذين اسرع بعضهم باتخاذ مواقعه فى قمة الممر ليحمى مؤخرة الباقين .

ووقف الكابتن "بوليكسيجيس" وقدماء فى الركاب .. واطلق طلقة من غدارته وهو يصيح : "ادوا لهم التحية يا اخوتى !" .. ثم استدار الى اصحابه الذين كانوا يلهثون وراءه وقال : "فليتلقوا الآن تحياتكم يا اولادى ! ولكن لا اريد أن تخرج طلقة واحدة هباء !" .

ثم اشار الى كتلة ضخمة من الطرابيش الحمراء الملعونة تحوم بالقرب من الدير ، وانطلقت فجأة خمسون رصاصة نحو الاتراك من الخلف ، وسقط قرابة العشرين جسدا وهم يعدون .

وردد الدير صدى صيحات الترحيب "مرحبا يا اولاد !" وتشبث "ايلاريون" العجوز بحبل الجرس وبدأ يدقه فى حماس .

وثار الاتراك ، واتجهوا بأبصارهم ليروا وسط الضباب أن قمة الممر قد احتلها اليونانيون الذين يحتمون بالصخور ، وعلا هديرهم : "الله .. الله !" .

وظل الجانب الاكبر من الاتراك فى مواقعه ليحكم قبضته على الدير ، بينما اندفع الآخرون نحو الممر .

وبدا المطر يهطل بعنف ، واختفت قمة الممر وسط السحاب بينما المطر يضرب وجوه الاتراك ويحجب عنهم الرؤية وصاح "بوليكسيجيس" :

- الله معنا .. اعطوهم زخة أخرى .

واعادوا الكرة .. واطلقوا غداراتهم فارتفعت الصيحات واللعنات ، ولكن السحابة كانت قد هبطت واصبحت تخفى الاتراك ايضا فلا يكاد يبدو منهم سوى لون طرابيشها وحراب بناديقهم .

وعندما لاحظ رئيس الدير أن الاتراك قد انقسموا ، صاح فى رفاقه :

- إلى الامام يا اولادى ! لقد انقسم الاتراك ، فلنهمج إذن عليهم لنخفف من قبضتهم .

وقفز الرهبان والفلاحون بينما دق العجوز بجرسه دقات الهجوم .. وتجمع الكل فى الفناء .. وانطلق رئيس الدير امامهم يفتح الباب الكبير ، وانطلقوا جميعا خلفه وهم يصيحون .

واصاب الحيرة الاتراك للحظات نتيجة الهجومين المفاجئين ، وحاول بعضهم فى هجوم مضاد أن يردوا الرهبان على اعقابهم داخل الدير ، ولكن الاوامر مالبثت ان صدرت اليهم وهم فى منتصف الطريق ، بالانسحاب بعيدا الى الوادى يتعقبهم الرهبان .

وفجأة ارتفعت دقات احدى الطبول ، وتوقف الاتراك ، وفجأة دقت من خلف الرهبان طبله اخرى .. وصاح احد الرهبان لقد احاطوا بنا .. لقد وقعنا فى الفخ ! إلى الخلف ياسيدى !

وصاح راهب آخر : "لقد اقتحموا الدير" !
ودس رئيس الدير غدارته فى حزامه ، واستل خنجره دون أن يتكلم واسرع نحو باب الدير .

وأدرك الكابتن "بوليكسيجيس" على الفور طبيعة الخطر الجديد ، فاندفع بفرسانه كالعاصفة بينما اشتد هطول المطر ، واختفت الشمس تماما خلف السحب واتسع افق الشفق .

وكون كل من الاتراك عقدة ضخمة من الرجال المحاربين ؛ كل يهاجم ويدافع فى نفس الوقت ، وصاح رئيس الدير : "اتبعونى !" .. كما حث الكابتن "بوليكسيجيس" هو الآخر رجاله واندفع بهم نحو الباب .

وكان ثمة عدد قليل من الاتراك قد اقتحم بالفعل فناء الدير متجهين نحو الكنيسة وهم يقذفون بمزق القماش الملتهبة فى كل اتجاه .

وارتفعت اصوات عاصفة خلفهم "ايها الكلاب الملاعين !" .. وكان

رئيس الدير مع الكابتن "بوليكسيجيس" قد اجتاز عتبة الباب واندفعوا نحو الاتراك بينما اجبر بعض هؤلاء ممن جاءوا بعدهم على التقهقر الى حائط الكنيسة حيث ذبحوا بأيدى الرهبان والفرسان الذين كانوا قد اقتحموا الدير بدورهم .

وأمكن تفادى الخطر حين أعيد غلق باب الدير مرة أخرى ، وهبط الليل وانفصل المتحاربون .. وساد الصمت . وصاح "بوليكسيجيس" :

- فلنعد الى الممر ! وسيكون الله معنا أيضا فى الغد .

وأحصى المسيحيون خسائرهم : ثلاثة قتلى وعديد من الجرحى من بين الرهبان الفلاحين ، اما ايلاركوس قارع الاجراس فقد كان مفقودا ، اما جماعة الكابتن "بوليكسيجيس" فقد قتل منها اثنان وجرح الكثيرون ، وتم دفن الموتى اثناء الليل عند قمة الممر : فارسان باسلان من "كاسنيلي" ، عم وابن اخيه ، والتقط الكابتن "بوليكسيجيس" لمصورين جعل منهما صليبيا غرسه فوق قبرهما ، ثم غمغم وهو يستدير نحو اصحابه :

- سوف نعود .. والآن يا اولاد ! فلنأكل .. فلا زلنا احياء ، ونحز جائعون ! ووقدوا نارا .. وطبخوا .. واكلوا ، وكانت المعركة المثيرة تحت مكان الصدارة فى حديثهم ، ثم قام بعضهم بالحراسة طوال الليل بيد تمدد الباقون فما لبثوا ان غرقوا فى النوم من فرط التعب .

والى اسفل منهم كان الضوء يلوح من الكنيسة حتى منتصف الليل حين كان الرهبان يمجدون الرب الذى بسط يديه وانقذ الدير من النار والموت بينما انهمك العجوز "فوتيوس" فى مزج المراهم وتنظيف الجروح والعنا بالجرحى طوال الليل .

وبين الجانبين من المسيحيين ، كان الجنود الاتراك يدفنون هم ايد موتاهم ويداوون جرحاهم ويفكرون وهم يحدقون فى صمت حول نير المخيم : فى زوجاتهم واطفالهم هناك بعيدا فى الاناضول ، من ياتر يحرق الآن حقولهم هناك ويجمع الكروم ويوفر الخبز لأسرهم ؟ كانوا ه ايضا آدميين .. ولم يكونوا ابدا كلابا كما يصفهم المسيحيون .

ومع اول ضوء لاح فى السماء : هرع الجانبان الى اسلحتهما ، واخذ
اثنان من الدراويش - احدهما يحمل طيلة والآخر نفيرا - يقفزان هنا وهناك
بين جماعات الجنود ليثا فى صدورهم ويؤججا النيران .

وكان الرهبان بدورهم قد اتخذوا مواقعهم ، وكان رئيس الدير قد عصب
جرحه الذى كان لا يزال يسيل دما يتساقط فوق لحيته البيضاء ، وعلى
الرغم من ذلك فقد ركع امام الكوة وظلت عيناه تحومان كعيني نسر حول
مواقع العدو وهو يطلق رصاص غدارته على كل رأس يرتفع فلا يخطؤه ..
بينما يقول لنفسه : "إنه الشر بعينه أن تقتل رجلا .. ولكنه ليس خطأنا ..
يا الهى . حررنا حتى نعيش فى سلام" .

وعند قمة الممر ، كان الكابتن "بوليكسيجيس" يتفقد الرجال ويصدر
الوامر بينما اخذ كل منهم مكانه خلف ساتر وهو يصوب بندقيته الى
طربوش احمر ، ولكن الكابتن "بوليكسيجيس" كان اكبر من أن ينحنى ا
فقد ظل منتصباً يتنقل من رجل الى رجل بينما رجاله يصيحون فيه :
- استتر يا كابتن وإلا اصابوك ! .

وكانت الرصاصات قد بدأت بالفعل تصفر حول رؤوسهم ، ولكن الكابتن
"بوليكسيجيس" ضحك وهو يقول :

- اود بالفعل لو اننى استترت ، فانا ايضا خائف - يعلم الله - ولكننى
احس بالخجل حين اقول لنفسى : الست تريد أن تلعب دور القائد يا كابتن
"بوليكسيجيس" فادفع الثمن إذن .

وصاح فتى طويل ذو لسان حاد :

- انت تحمل معك شنطة من الصليب المقدس ، ولهذا فأنت لا تخاف ..
واغضبت الكلمات الكابتن "بوليكسيجيس" فصاح :

- ايها الاحق "نيكولوس" : إن شظية الصليب المقدس هى روح
الرجل ، ولست اعرف غيرها .

والى اسفل من الممر ، كانت المعركة قد بدأت تحتدم ، فقد اخذ الاتراك يتقدمون واصبح الدير مرة اخرى فى خطر .

وصاح الكابتن "بوليكسيجيس" :

- انهضوا ! انهضوا ! .. المسيح سوف ينتصر ! اهبطوا نحو الاتراك وقفز الفرسان من مواقفهم خلف الصخور واندفعوا هابطين الجبل والحجارة تهوى خلفهم - وبدا كأن الجبل كله يتحرك .

وبعد ان قالت البنادق كلمتها : بدأت الخناجر تؤدى دوما .. يدا ليد ، كذلك خفقت اصوات البنادق داخل الدير : ولم يعد ممكنا التمييز بين المقاتلين ، واصدر رئيس الدير اوامره الى حفنة من رجاله الاشداء بالتجمع وسط حلبة القتال المتلاحم بينما ظل الباقون خلف المتاريس يحرسون الدير ، ولكن الاتراك كانوا فى اعداد فائقة : سبعة منهم مقابل واحد من المسيحيين ، واخذ رئيس الدير هو و"الكابتن بوليكسيجيس" يثيران حماس رجالهم .. ولكن موجة تلو اخرى من الاتراك المهاجمين كانت تهبط عليهم حتى بدأ الارهاق يستبد بهم عند الظهرية . وبدت الشمس كأنها مثبتة مكانها فى كبد السماء .. وبدا كأن الليل المنقذ بعيد بعيد ! وظل المهاجمون يواصلون ضغطهم فى قوة متزايدة .. وتبادل رئيس الدير النظرات مع "الكابتن بوليكسيجيس" دون أن يقول أحدهما شيئا ، ولكن كلا منهما رأى فى نظره الآخر ان الدير سيحترق .

وفجأة ، دوت دفعة واحدة من الرصاص فى الوادى .. ورأى المسيحيون وسط دهشتهم ، راية سوداء ترتفع شيئا فشيئا ليبدو معها فيما بعد حشد من الفرسان الهادرين ينقذون من ثنية وسط الصخور الى اخرى ، وعلى رأسهم "الكابتن ميخائيليس" بعصابة الرأس السوداء ، وهو يطلق غدارته ويصيح فيهم :

- مرحى يا اخوتى !

ثم استدار نحو الاعداء وقال .

- أخيرا وقعتم يا كلاب !

وفى ذلك اليوم .. وفى اليوم التالى : ظل الجرحى من الجنود الاتراك ومن غيرهم من الاتراك المتطوعين يغدون الى "ميجالوكاسترو" فى قتابع سريع .

صاح الباشا وهو يشد لحيته فى قهر :

- ماذا حدث للدير ١٩ ألا يزال قائما ١٩ الا تخجلون ١٩ .

- كان كل شىء يسير على مايرام يا افندينا الباشا : حتى هبط علينا هذا الملعون "الكابتن ميخائيليس" .

كانوا متعبين يستبد بهم العطش ؛ فطلبوا شرابا من "باريانييس" .. كما بدأ "افندينا" يتلو آيات من القرآن لتخفف من الالم ، وهناك من غصن بالشجرة العارية كان يتدلى قارع الجرس الاصم المسكين "ايلاريون" الذى اخذه الاتراك حيا قبل يومين ، وكان لا يزال ممسكا فى احدى يديه بقطعة من حبل الجرس رفض أن يتخلى عنها مما اجبر الاتراك فيما بعد على أن يفصلوا قبضته عن ذراعه .

وفى المطرانية : كان المطران يرفض خلع ثيابه الكهنوتية بالليل أو بالنهار ، فقد كان يتوقع فى كل لحظة أن يقتحم عليه الاتراك المكان ويقتادوه الى المشنقة ، ولم يكن يريد أن يقوم بهذه الرحلة وهو بثياب النوم عارى القدمين ، وكان قد بعث الى "باشومويس" الزاهد يستدعيه من دير "كادوماس" القائم على شاطئ البحر الليبى كيما يدلى امامه باعتراقه ، فقد كان حريصا كل يوم على أن تكون روحه مستعدة فى أية لحظة ، وكان "مورزوفلوس" يقبع الى جواره لا يغادره كالكلب الامين .. فإذا نام .. نام عند عتبة باب حجرة النوم حتى لايفصل بينه وبين سيده شىء إلى أن تمضى روحاهما الى خالفهما .

واخيرا هبط الليل على الدير ، وافترق الطرفان : المسيحيون اوقدوا النيران على حافة الجبل ، والاتراك اوقدوها على مقربة من حوائط الدير ، بينما الدير ذاته غارق وسط ظلام عميق ، والتقى "الكابتن ميخائيليس"

بـ "الكابتن بوليكسيجيس" ليناقتشا الموقف ؛ وانتهيا الى قرار بالنسبة لمكان واسلوب هجوم الغد .. ثم افترقا دون أن يتبادلا كلمة رقيقة واحدة .

وتتوقع "الكابتن ميخائيليس" وحده قريبا من واحدة من النيران الموقدة غارقا فى حوار عميق فى نفسه .. ولف سيجارة وهو يحس بالانقباض ، لقد كان يقاتل ويقتل ، ويواجه الموت فى كل لحظة من اجل كريت ، وبرغم ذلك فإن عقله لم يكن مع كريت ، وعندما امتطى صهوة فرسه ، واندفع الى الامام وهو يصيح "اتبعنوى أيها الزملاء !" كان هو ذاته يشك فى ايمانه فى قرارة نفسه ، وعندما هبط الليل وانفرد بنفسه لم يكن يفكر فى حرية كريت كما كان يفعل فى الماضى .. ولكن روحه كانت تحوم حول مكان آخر ، وبصق على النيران وهو يغغم :

- "ياللعار ! أى حضيض انحدرت اليه ياكابتن ميخائيليس ؟" .

وفجأة - ووسط مزاجه الممرور - سمع وقع خطوات خفيفة خلفه .. وسعالا ، واستدار فرأى "فيندوسوس" الذى لم يكن قد اشترك فى المعركة الذى كان قد سمح له بأن يذهب ليؤمن أسرته ، هاهو ذا الآن يعود لاهث الأنفاس ، ووقف "الكابتن ميخائيليس" وسأله : .

- ماذا حدث يا "فيندوسوس" ؟!

وهمس "فيندوسوس" فى أذنيه وهو فى شك مما يعتمل فى صدر الكابتن : .

- كابتن .. كابتن ! أمينة

وانتبه الكابتن ، وجذب "فيندوسوس" من ذراعه يقربه اليه : .

- أخفض صوتك ! .

- لقد هاجم الاتراك "كاستيلي" هذا المساء ، وحملوها معهم .

وبسط "الكابتن ميخائيليس" يديه فوق النار وهو يبحث عن ألم محرق ثم

استدار بعد لحظة صمت قصيرة :

- إلى أين ؟!

- فى اتجاه "ميجالو كاسترو" .

- متى ؟!

- هذا المساء بعد الغروب .

وانفجر "الكابتن ميخائيليس" :

- هلم معى وكن هادئا .

ولكن "فيندوسوس" قاوم :

- لعلك لا تعنى انك ستترك موقعك ؟! هب أن الاتراك قاموا بهجمة ليلية .

- اغلق فمك ! .

ثم انتقى عشرة من أشد فرسانه حماسا :

- هلموا معى ! سوف نقوم بغاره .

ثم استدار الى باقى رفاقه وقال :

- سوف اعود قبل الفجر ، فخذوا حذرکم حتى اعود .

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ، وكان المسيحيون المجهدون على اطراف الموقع قد غرقوا فى نوم عميق ، بينما انحنى الرهبان المسنون وداخل الدير أو المحراب يدعون اليه أن ييسط على الدير يد حمايته ، اما رئيس الدير فكان قد ضمد جراحه بقطعة من القماش مبللة بالزيت وظل متوكما فى موقعه وهو يراقب الجنود من المزغل الضيق وهم جالسون حول النيران ويكاد يسمح قرعة اسلحتهم : "لم ينم الكلاب بعد ! انهم يضمرون شرا !" .

كانت السماء صافية تماما والنجوم تبدو متألقة والنسمات الباردة الحادة تهبط من الجبال لتلهب الرجال .. وكان ثمة شهاب قد لمع فى السماء .. فرسم رئيس الدير علامة الصليب وهو يغمغم :

- لا بد ان مأساة رهيبة تقترب يا إلهى ! . لعلها تكون بعيدة عن الدير ! .

وبينما كانت عيناه متجهتين الى السماء فى ابتهاال ، دقت الطبول فجأة .. وارتفعت الصيحات " الله .. الله " ! وانحدرت موجات كثيفة داكنة من الرجال تهاجم الدير ، بينما انحدرت موجات اخرى عبر الممر لتتهبط فوق المسيحيين النائمين .. وفى ذات اللحظة كان ثمة جنود آخرون يضعون السلالم الى حوائط الدير .

وجمع رئيس الدير رهبانه معا :

- ايها الاخوة ، لقد انتهى الدير ، انصتوا الىّ جيدا ، اننى انا وحدى المعلوم ، انهم يريدوننى انا ليثأروا لدمائهم ، ولذلك فقد قررت أن اسلم نفسى اليهم ، فوداعا ! .

وصاح "فوتيوس" الراهب المداوى :

- ايها الاب المحترم ، سوف يقتلونك .

- وماذا بوسعهم أن يفعلوا اكثر من ذلك ايها الاب فوتيوس ؟! بالطبع سوف يقتلوننى ، ولكن ذلك سيحمى الدير نفسه .

- سيقتلونك ولكن الدير لن يفلت ايضا .. إن الاتراك غداون يا ابى .

- ولكننى سافعل ما يمليه علىّ واجبى وليكن مايكون ! إن الله فوقنا فلتكن مسيئته .

وامسك بعصاه وربط قطعة من القماش الأبيض ، واتجه نحو الحائط ملوحا بها وهو يصيح بصوت مرتفع ، وصاح فيه تركى كريتى .

- ماذا تريد ايها الراهب الشيطان ؟ .

- من قائدكم ؟ اذهب اليه وقل له ان رئيس الدير سلم نفسه ، وإنه يستطيع أن يفعل بى ما يشاء ، بشرط أن يعد بالآ تتعرض بسوء للدير .

وترددت الاصوات من الجانبين .. وانتظر الطرفان .. وعاد الصمت من جديد لا تتخلله سوى صيحات الديكة فوق اسطح الدير .. كان الصباح يقترب ثم مالبث أن تنهى صوت القائد التركى "حسن بك" .

- ألقوا جميعا بأسلحتكم واخرجوا - وسوف لا يتعرض الدير لسوء .

وصاح فيه رئيس الدير : .

- اقسم .

ثم اشار بيده الى السماء فى اتجاه الشفق الذى كان قد بدأ يتألق .

- بلى اقسم بمحمد .

وهبط رئيس الدير من فوق الحائط ؛ والتف حوله الرهبان وهم يربتون على كتفه مودعين ، بينما الآخرون يقبلون يديه .

- وداعا .. وداعا ايها الشهيد العظيم ! .

واقترب رئيس الدير من الكنيسة وانحنى يقبل عتباتها وهو يهمس : .

- وداعا ايها المسيح .

ثم جال ببصره حول الفناء ، والكنيسة ، والصوامع والمخازن والاسوار ورفع يده بها جميعا :

وداعا .

ثم اختار عتبة الباب الخارجى فتلقفته ايدى الاتراك وما لبث أن اختفى وسط زحامهم ، وفى نفس اللحظة اندفعت جموع الاتراك الى الداخل، وهى تصيح .

وصاح الكابتن "بوليكسيجيس" :

- لقد اشعل الكلاب النار فى الدير ! .

وكان ثمة جراح فى رأسه من اثر بلطة تركية .. لفها بضمادة .. وبجهد شديد غالب آلامه وهو يصيح : .

- اين "الكابتن ميخايليس" ؟ ! .

ثم وكز فرسه منحدرًا نحو الدير .

ولكن "الكابتن ميخايليس" لم يكن قد عاد بعد ، وكان "تيودورس" قد اخذ مكانه فى العيادة .. واندفعوا جميعا يهاجمون الاتراك من الأطراف بينما كانت السنة النيران تتصاعد من الدير ، ومزيد من فضائل الاتراك بطرابيشهم الحمراء يقتحمونه وسط غبش الفجر .

وقذف الرهبان الصغار بأنفسهم من فوق حوائط الدير واندفعوا مع الجماعات المتقهقرة الى الجبل .

وعاد "الكابتن بوليكسيجيس" يصيح : .

- اين اختفى "الكابتن ميخايليس" يا "تيودورس" ؟ .

وكان قد وصل الى قمة الممر وقد اكتسى وجهه وصدره ورقبته بالدماء .

- لست ادرى ؛ لقد خرج فى غارة قرب منتصف الليل .

- غارة ١٩ اين' .. ١٩ .

- قلت لك لست ادرى .

ووقف المسيحيون عند قمة الممر يتطلعون الى الدير تلتهمه النيران ودخانها يتصاعد ويحجب الشمس .. وقف "الكابتن بوليكسيجيس" معهم وقد تمتلكه حيرة شديدة ، كان قد نسى آلامه تماما : فلم يعد يهتم بأن يمسح الدماء عن وجهه .. وكانت الدموع تنحدر من عينيه .

وقال واحد من الفرسان :

- فلننسحب ياكابتن : انت مصاب : فلا تظل واقفا هكذا تنظر الى
الدير ، لقد انتهى كل شيء وتلك مشيئة الله ، ونحن قد قمنا بواجبنا .
ثم تنهد فى حسرة :

- فقط .. لو كان "الكابتن ميخائيليس" معنا .

ثم جذبوه بالقوة بعيدا ، واتجهوا نحو "كاستيلي" .. اما جماعة
"الكابتن ميخائيليس" فقد اتجهت نحو "بييتروكيغالو" تستقبلهم انباء
مريرة ، حتى اذا وصلوا كان العويل على الموتى فى انتظارهم .

وكان ثمة كشاف قد تركوه فوق الممر ليرقب ما يمكن أن تفعله الفصائل
التركية ، وعاد الكشاف مع جماعة "الكابتن بوليكيسيجيس" قرابة
الظهيرة ، وتمدد فوق ارض قاع نهر جاف تحت مجموعة من الاشجار
العارية يستريح فى ظلها بينما الراهب المداوى "فوتيس" ينظف جراحه
ويسأله :

- ماهى الانباء يا "جاكوميس" ؟ .

كان "جاكوميس" قزما لوحث الشمس وجهه ، ساقاه رفيعتان وعيناه
جاحظتان شهدتا الكثير من الميئات العنيفة واستمتعنا بالكثير من اللائم
وابصرتا الدنيا احيانا تقف على رأسها ، حتى لم يعد هناك شيء فى هذه
الدنيا يمكن أن يرتجف له بدنه أو يبتهج له قلبه ، وكان دائما يقول : "الدنيا
عجلة ! .. عجلة دائمة الدوران !" .. وحين كان البعض يسأله : "ومن
يديرها يا جاكوميس ؟" كان يقول : "الله احيانا .. والشيطان احيانا
أخرى ، فالانثان متحالفان ، احدهما يخرب والآخر يبنى .. ولن تجد واحدا
منهما إلا وهو مشغول بعمله" .

وقال "جاكوميس" :

- عسى أن تلتئم جراحك بسرعة .. لا تبتئس .. لقد سقطنا هذه المرة ،

وسوف نصعد فى المرة القادمة .. لا تقلق فالحجلة دائمة الدوران .

- ماذا حدث للدير ؟ .

- وماذا كنت تتوقع !؟ .. لقد اخذه الشيطان .

وصاح الأب ” ”فوتيوس“ وهو يرسم علامة الصليب :

- بيس الله لسانك ايها الملحد .

- كنت اعنى فحسب انه اصبغ كما كان عليه قبل أن يبنى .. رمادا ! .

- والكلاب ؟ .

- اخذوا رئيس الدير معهم ، وانتبه الى كلامى جيدا - سوف يجعلون من
جمجمته صندوقا للطباق ! .. هؤلاء المذنبون المساكين بدعوا بداية طيبة .

والحق ، انه بينما كان الكشف يتكلم ، كان الجنود الاتراك يدفعون
رئيس دير السيد المسيح بحراب بنادقهم نحو ”ميجالوكاسترو“ يحيطون
به حتى يمنعوا المواطنين المسلمين من الفتك به فى هياجهم طلبا للثأر ،
وكانت الاوامر قد جاءتهم بضرورة احضاره الى الباشا حيا .

وكانت الشمس لا تزال فى الافق ، عندما دخل الجنود ”ميجالو
كاسترو“ بطبولهم ، وخرج الباشا فى سعادة الى الشرفة وهو يحييهم بينما
رئيس الدير امامهم .

وصاح الباشا : .

- اركع ايها القس الكافر ! .

وكانت الدماء الغزيرة تسيل خلال لحية رئيس الدير ، ولكن عينيه كانتا
متألفتين وهو يحدق فى الباشا وفى الاتراك الصاخبين حوله والسماء فوقهم
جميعا .. والشمس تميل الى المغيب .. واحس لحظتها بجسده خفيفا ،
وبأن وخزا يشد بكففيه وكأنما جناحان يحاولان أن يخرجاً منهما ويرتفعاً

به الى ما وراء هذه الدنيا .

وصاح الباشا :

- ألسنت خائفا ؟ لماذا يضىء وجهك هكذا ؟! ما الذى يدور بخلدك ؟ ..
اين تحملك افكارك الآن ؟! .

واجاب رئيس الدير :

- الى الجنة .

واشتد هياج الباشا ، فلم تكن اول مرة يرتطم فيها بصخرة من كريت
وترتد سكينه فوقها ، فصاح هادرا : .

- انت لست فى الجنة ايها الراهب الشيطان ، انت تواجه الشجرة
العارية ! .

وقال رئيس الدير : .

- المعنى واحد يا باشا .

وصاح الباشا والزبد يخرج من فمه :

- خذوا هذا الكافر الى الشجرة العارية .

وجذبه العربى وآخرون من الجنود واخرجوه من الساحة ، بينما كانت
جموع الدهماء تملأ الشوارع وهى تصيح ، ولم تكن الشجرة بعيدة عن مقر
الباشا .. بل كانت قريبة ؛ تقف قاسية على مقربة من النافورة الفينيسية
واسدها المصنوع من الرخام .

وقبيل الغروب مباشرة ، كان ثمة سرب من الطيور قد حط فوق اغصان
الشجرة العارية ليخلد اليها طوال الليل .. وارتفعت شقشقتها المرحة .

وجيء بقاعدة خشبية اوقفوا رئيس الدير فوقها ، ثم استدعوا الحلاق
التركى الذى مالبث أن حضر يحمل الموس والمقص والحوض النحاس ..

وعندما رأى رئيس الدير صاح ضاحكا :

- أنت فارس شجاع ، وسوف احلق لحيتك بلا رغبة ! .

ثم جذبه من شعره ، وبدأ ينتف له لحيته ، وهو يعض شفتيه حتى لا يصرخ من شدة الألم بينما الاثراك المحتشدون حوله يضحكون ، اما سليمان فكان قد اعد الجبل وبدأ يشجمه .. وفى نفس تلك اللحظات كان ثمة مسيحيون يختبئون فى دورهم المواجهة ويتابعون المشهد من خلف نوافذهم المغلقة وقد حبسوا انفاسهم ، وكان الباشا قد غرق فى مقعده الوثير يراقب ما يجرى .

وعندما انتهى الحلاق من عمله ، ظهرت آثار الجراح القديمة على جبهته ، فقد ازال الحلاق شعر رأسه من جذوره .

وصاح الباشا :

- ايها الكافر .. لقد تم تشحيم الحبل ، والعربى ينتظر ، اعترف بالاسلام تتقذ حياتك .

وخطا رئيس الدير خطوة فوق المنصة الخشبية ، وجذب الحبل من يد العربى ، وجعل من نهايته انشودة لفها حول عنقه .

وقفز الباشا صائحا :

- ألا تجيب !؟ .

وقال رئيس الدير وهو يشير الى الانشودة حول عنقه :

- لقد اجبت ! .

وصرخ الباشا وقد صار وجهه ازرق من الغضب :

- اللعنة عليكم ايها الكريتيون .. اسنقوه ! .

وحط رئيس الدير بنفسه فوق المنصة ، وشد العربى الحبل الى غصن غليظ فى الشجرة .

ورسم رئيس الدير علامة الصليب ونظر حوله فرأى جملة من الآباء القدامى الذين سقطوا وهم يناضلون ، رآهم - مثل المسيح - وفوق رؤوسهم تيجان الشوك يحيونه بعيون مرحة ، فصاح فى ابتهاج :

- هاأنذا قادم اليكم ! .

وركل المنضدة بقدمه .. فتدلى جسده فى الهواء .

عندما عاد "الكابتن ميخائيليس" الى الدير قرب الظهيرة ليستأنف القتال الى جوار رفاقه ، لم يجد الدير .. ولا وجد فرق .

كان دير السيد المسيح يحترق ، وكانت قبة الكنيسة قد هوت ، وكان المحراب والثياب والمزامير والايقونات قد اصبحت رمادا .. وكان الدخان لايزال معلقا فى سحبات كثيفة فوق الوادى .

وشد "الكابتن ميخائيليس" لحيته وهو يحدق فى المشهد امامه دون أن يقدر على أن يحول بصره عن السنة النيران .

وأخذ يشد شعيرات لحيته وهو يئن .

- كيف استطيع أن ابتعد ؟ .. كيف استطيع أن ابتعد ؟ .

ومر بخاطره ما حدث فى الليلة السابقة : المطاردة العنيفة بلا توقف ، رفاقه يحثون السير وراءه سائرين على اقدامهم ، ثم اخيرا - وعند الفجر - قاع النهر الجاف العريض ، وثمة عشرون من الاتراك يسيرون خلال الصخور الطباشيرية البيضاء ويسوقون امامهم فرسا تمتطيه سيدة أرخت الخمار على وجهها .

واقتربوا .. ثم اندفعوا نحوهم وخناجرهم فى ايديهم .. وارتفع الصراخ والعجيج - كم استغرق من الوقت ؟ ساعة ؟ ساعتان ؟ .. لقد خيل اليه ان كل شىء انتهى فى مثل لمح البصر ، كان الوادى يتراقص حوله وقد تحول الى غبار مثار تقف وسطه شجرة من اشجار السنط تحتها تلك المرأة ذات الخمار رافعة الرأس جالسة فوق فرسها بلا حراك .. تنتظر النتيجة ومن

يكون المنتصر لتمضى معه فى النهاية .. كانت قد ادرات رأسها تماما .. بعيدا عن الرجال .

وفجأة ، كان الاتراك المهزومون يجرون بعيدا عن ارض المعركة وقد القوا غداراتهم وخناجرهم واندفعوا فى اتجاه "ميجالو كاسترو" وهم يصيحون : بينما ادار "الكابتن ميخائيليس" رأسه بعيدا حتى لا يرى المرأة المضمخة بالمسك .. وقال لـ "فيندوسوس" :

- خذ هذه المرأة الى عمى العجوز "كاليو" فى "كوراكيس" ، وقل لها ان تقدم لها الطعام والشراب حتى نرى ما يكون .

وسأله "فيندوسوس" وهو ينظر اليه فى خبث :

- ألا اعيدها الى كاستيلى ؟! إن "الكابتن بوليكسيجيس" المسكين سوف يقتل نفسه ! .

- دعه يقتل نفسه .

وهامو ذا الآن يقبض على عنان فرسه وهو يشعر بالحيرة هل يعود ادراجه ؟ انه لا يريد أن يقوم .. بل انه لا يستطيع أن يقرر ، ولكنه ما لبث فجأة ان ضغط فكيه يطحن اسنانه - فقد اتخذ قراره ، وألهب فرسه واندفع كالعاصفة نحو الدير وظل يحدق فى السنة اللهب وهو يئن ويشعر شعره إثر شعرة من لحيته .

- كان يجب الا اغادر موقعى .

ثم ترجل .. والتقط حفنة من الرماد الحار وهو يشعر برغبة شديدة فى ان يلوث وجهه ولحيته وشعره بها .. ولكنه تماسك .. وبسط راحته فتساقط الرماد الى الارض وهو يغمغم :

- فليحترق ويهلك الملوهم .. ويصبح كهذا الرماد .

ثم قفز الى صهوة فرسه ووخزها بمهمازه حتى ادنى بطنها .

واندلعت النار فى كريت من اقصاها الى اقصاها .. وعادت الجبال والوديان ومفارق الطرق لتضج بأصوات طلقات الرصاص والصياح ، وعاد الرجال يهدرون وينهشون كالوحوش المفترسة ، وعاد كبار السن منهم وخطر المشيب شعرهم ليذكروا ايام شبابهم ، وانطلقوا بدورهم الى الجبال : بعضهم يحمل السلاح ويشارك فى القتال .. والبعض الآخر ممن منعته الشيخوخة واضعفته الجراح القديمة ، يكتفى بتقديم المشورة للفرسان الجدد فى مخابىء سرية ، كانوا يعلمونهم الخدع والمكائد التى كان القدامى يستخدمونها من قبلهم - كيف يبعثون بالجواسيس - وكيف يلتفون حول الاتراك وكيف يقتحمون القرى التركية بالليل .

وجاء ايضا الكابتن "الياس" على ظهر بغل عجوز واجتاز الجبال واحدا بعد الآخر ، واختبأ فى مكان فرسان ، وكان يتنهد وهو يقول : "إن الزمن القديم يعرج يا اولادى ، ولست بقادر الآن على القتال بالسلاح - ولكننى سأقاتل برأسى حتى يسقط هو الآخر الى الأرض ويتحول الى تراب !" .

وكان قد وصل فى ذلك اليوم الى قرية "فريسيس" المثمرة الغنية بالمياه ، وكان يجلس الى جذع شجرة عجوز جوفاء يحلقه الصبية والنساء والشيوخ يستمعوا اليه وقد قفزوا افواههم ، قال لهم وهو يمر بذرعيه الكليلين على الأوراق الخضراء :

- لقد طالما ظلت هذه الشجرة فرسانا حين كان المرء لا يصدق إلا انهم عصاة على الموت .. ولكنهم ماتوا .. من كان يصدق ذلك !؟ عادوا الى تراب كريت واصبحنا نطاهم بأقدامنا .

ثم تنهد .. كان يحس بالضيق فى ذلك اليوم بعد أن طار نبا احراق الدير كغراب السوء ناعبا من قرية الى قرية حتى وصل الى "فريسيس" قبيل الظهر .. وهز الرجال رءوسهم وغمغموا .. وبكت النساء .

وتظاهر الكابتن "الياس" بأنه لم يرد ولم يسمع .. كان يريد أن يصرف اذهانهم عن النكبة الكبرى بالحديث عن المأسى المقبضة فى الماضى .

وفجأة سمع وقع حوافر سريعة : والتفت الجميع ينظرون خلا اسجار لزيتون والدلب ليرى بعضهم بوضوح والبعض الآخر فى غير وضوح - ارسا بعصاة رأس سوداء : "الكابتن ميخائيليس" .

وصاح الكل فى هياج عنيف : "الكابتن ميخائيليس" واحنى الكابتن 'الياس" رأسه .. وضرب الأرض بطرف عصاه .

وصرخت احدى النساء - وكانت قد انتهت لتوها من ارضاع طفلها أخذت تلملم اطراف ثوبها على صدرها : "انه يعود ادراجه وحيدا . اين زواجنا .. اين زوجى ؟! .. لقد تخلى عنهم الدب المفترس !" .

وصاحت امرأة أخرى وهى تستدير مبتعدة حتى لا تراه : "لقد ترك لدير وقت الخطر .. يجب أن يحرق حيا !" .

وقال رجل عجوز : "لا تدعوه بلا جزاء ياكابتن الياس ، فلا احد يترك وقعه كما فعل ! عاقبوه ، فأنتم الكبار المحترمون ، اما نحن فتحت تهديده لا نستطيع أن نقول له كلمة واحدة .. انتم تستطيعون !" .

ورفع الكابتن "الياس" عصاه وصاح فى غضب :

- كفى .. لست فى حاجة الى مشورتكم .

وهمس الكل وهم يلتصقون بعضهم بالبعض الآخر : "هاهو قد وصل !" افسحوا للكابتن "الياس" .

وظهر "الكابتن ميخائيليس" بملامحه الهادئة وهو يتصعب عرقا ، وعيناه ختفيان تحت رموشهما وحرارة الجو تلهبه هو وفرسه .. وعرف وجه لكابتن "الياس" بين الجمع تحت شجرة الدلب فود لو عاد ادراجه . ولكن لك كان مستحيلا ، فترجل وهو يهين نفسه لموقف صعب معه .

قال وهو يمد يده مصافحا :

- طاب يومك ياكابتن الياس .

وتظاهر الفارس الاشيب انه لم ير اليد الممدودة اليه .. وعاد ينكت

الأرض بعصاه من جديد .. ثم اجاب :

- فلنصفه إذن بأنه يوم طيب حتى ولو لم يكن كذلك يا "كابتن ميخائيليس" ..

وغلا الدم فى عروق "الكابتن ميخائيليس" ، فقبض على زمام فرسه وبدأ كما لو كان يريد أن يمتطى صهوته ويتابع الطريق ، فلم يكن من طبعه أن يسمح لمخلوق بأن يلقي الاحجار امام قدميه ، وتطلع الى وجوه الكل حوله وأدرك على الفور أنهم عرفوا كل شيء .. فازدادت ملامح وجهه ضراوة ووحشية .. وجذب بضغ ورقات من شجرة الدلب ، وقذف بها الأرض وهو يقول :

- هذا يحدث كثيرا فى الحروب ياكابتن "الياس" ، وانت تعرف هذا جيدا ، فلطالما حدث ذلك للمسيحيين فى ايامك ، تذكر ماحدث فى "اركاى" .

وصاح الكابتن العجوز وعينه - حتى العين الزجاجية منهما - ترسل الشر :

- حذار أن نتحدث عن "اركاى" ، هل حرقنا فى اركاى ام تحولنا الى آلهة ؟ .. اما ما حدث بالنسبة لدير السيد المسيح - واغفرلى قولى هذا :

ثم توقف فجأة .. وأدار رأسه للنساء والشيوخ وهو يقول :

- دعونا وحدنا .. اذهبوا الى بيوتكم .

ووقف الكل فى سكون .. وبدعوا يغادرون المكان : الشيوخ منهم يجرحون "الكابتن ميخائيليس" بنظراتهم ؛ والنساء يصيبن اللعنات الخافتة وهن يتحاشينه ، أما الام الشابة التى كانت ترضع طفلها فقد ظلت واقفة فى مواجهته .. وسألته بشراسة وهى تنظر مباشرة الى عينيه :

- ماذا حدث لازواجنا ؟ أجب عنهم امام الله .

وصاح الكابتن "الياس" :

- ابتعدى عن هذا المكان ! واصمتى ! .

وعندما اصبحا وحدهما ، استند إلى عصاه لحظة ثم انتصب وقال :

- اسمع ياكابتن ، حين وصلت .. مددت اليّ يدك ، فرفضتها . لقد
لطخت اسمك يا "كابتن ميخائيليس" .

وقال الكابتن هادرا :

- حتى لو كنت اكبر منى سنا ، وحتى لو كنت مقاتلا منذ عام ١٨٢١ ،
فلدى كلمات اود ان اقولها لك ، وانتبه اليها جيدا ! إن من يتحدث اليّ يجب
ان نرى كلماته جيدا ياكابتن "الياس" !

- وانا ايضا لدّي كلمات أريد أن اقولها لك ، لقد لطخت اسمك اليوم
يا "كابتن ميخائيليس" .

وتراقص الشرفى عيني "الكابتن ميخائيليس" ، ولكن الرجل الذى كان
يقف أمامه رجل عجوز .. عجوز مثل تلك التلال ، اثر من اثار ١٨٢١ ، بقية
من اطلال "اركادى" لم يكن يستطيع أن يمسه بسوء .

واستدار بعيدا .. وظل يسير تحت شجرة الدلب .

- لماذا ركبت فى الليل وغادرت الدير وتخلّيت عنه ؟ .. انت لا تجيبينى ؟
وإلى أين ذهبت ؟ لم تكن تعرف أن الاتراك يخشونك ، وانهم سيهاجمونك
بمجرد أن يعرفوا أنك تخلّيت عن موقعك ؟ .. ولقد عرف الكلاب ذلك ،
ولست ادري من ذا الذى نقل الخبر اليهم .. وهكذا فقد الدير ، وانت وحدك
الملوم ! .

واحس "الكابتن ميخائيليس" بأن جسده سينفجر ، واحنى رأسه وقال
فيما يشبه الهمس :

- لست انا الملوم .

وسأله الكابتن "الياس" وهو يستند الى جذع الشجرة :

- فمن تكون إذن ؟ .. من ؟ ! .

ولم يجب "الكابتن ميخائيليس" .. فعاد يسأله فى اصرار :

- إلى أين ذهبت ؟ ولماذا ابتعدت ؟ تقول إنك لست الملموم ، فمن يكون الملموم إذن . وقال "الكابتن ميخائيليس" فى جهامه :

- لا تسأل ياكابتن "الياس" ، هذا شأنى انا وحدى ، ولست مذنباً بالتفسير لأحد .

- بل أنت مدين ياميخائيليس ! .. مدين لأسلافك .. مدين لأسلافنا ، الست كريتييا ؟ الست من تربة هذه الارض ؟ ماذا يعنى إذن بهذه الكلمات المشرقة : انا لست مدينا بالتفسير لأحد ؟ .. ألا تخجل من نفسك .

وغرس "الكابتن ميخائيليس" مخالفه فى جذع الشجرة ؛ فقد كانت تلك اول مرة يسمح فيها آدميا يكلمه بهذه الجراءة وبهذا الاسلوب المهين ، ربما كان العجوز على حق ؟ ولكن "الكابتن ميخائيليس" لا يسلم بسهولة .. عاد يكرر فى تحد :

- أنا لست مدينا بالتفسير لأحد .. انا مدين لنفسى فحسب ، الى اللقاء ياكابتن الياس ، أريد أن أكون وحدى لأصل الى قرار .

- ومن خلال القرار الذى ستتخذه ، سوف نعرف كم تبقى لديك من روح .. وأى نوع من الروح هى يا "كابتن ميخائيليس" ، اذهب .. تصبحك بركات السيد المسيح ولعناته .. شىء واحد مازلت اريد ان اقله لك - وفكر جيداً فيما اقله لك - يا "كابتن ميخائيليس" ؛ إن كرييت لاتزال فى حاجة اليك ! ولعلك فهمت ما أعنيه .

فقد خشى الكابتن "الياس" فجأة أن يقدم الرجل على الانتحار فتفقد كرييت بذلك احد اعمدتها .

واجابه "الكابتن ميخائيليس" :

- لقد فهمت ...
٣٩٤

ثم اصبح فوق صهوة فرسه دون أن يلمس الركاب .

وبدلا من أن يستدير الى اليمين فى اتجاه "بيتروكيفالو" كما كان قد قرر من قبل ؟ استدار الى اليسار فى اتجاه "سيلينا" وكانت الشمس قد غربت ! وانبتق الليل من التربة .. وهبت ريح منعشة آتية من المرتفعات ، عرى "الكابتن ميخائيليس" صدره المحموم ليبترد .

وفجأة توقف وهو يغمغم :

- هى الملومة ، هى .. هذه المرأة المجللة بالعار .

ورفع العصاة السوداء عن جبهته وجفف عرقه وتنفس بعمق وهو يحس بأن ذهنه يطفو - لقد فهم - لقد عرف الآن الى أين هو ذاهب وعن أى شىء يبحث ، ولماذا يتجه الآن الى سيلينا بدلا من بيتروكيفالو ، واحس لحظتها برغبة شديدة فى أن يعود ادراجه ليشد على يدى الرجل العجوز - هاتين اللتين اذاقتا الاترك السم - ويقبلهما ، هكذا ينبغى أن يكلم الرجل الرجل ، هكذا . وبلا رحمة ! .

ومر لحظتها عجوز يحمل جوالا فوق ظهره ويمسك بعصا رعى طويلة ، ولم يتعرف الرجل عليه وسط الغبار المثار .. وناداه الرجل :

هل سمعت ماحدث ياوالدى ؟ لقد احرقوا دير السيد المسيح .. نعم .. احرقوه .

ثم وكز الفرس حتى يتجنب المناقشة .

وصاح العجوز رافعا عصاه الى السماء :

- اللعنة على الملوم .

وردد "الكابتن ميخائيليس" الكلمة وسط الظلمة : "اللعنة" .. وكان القمر نصفا رقيقا ، والنجوم فى قطعان تحيط بالنجم القطبى الذى لا يتحرك وكأنه راع يقود غنمه .

ولكن "الكابتن ميخائيليس" لم يرفع بصره الى السماء ، وابقى عينيه

مثبتتين على سفح الجبل حيث كانت ثمة أضواء خافتة تلوح ، لقد كان يقترب من قرية "كوراكيس" .

كان منزل عمته "كالبو" يقع عند مدخل القرية ، ولابد أن المرأة العجوز نائمة الآن ، فقد اعتادت طوال حياتها على أن تستيقظ مع صياح الديكة وأن تنام حين يهجع الدجاج ، كانت قد تزوجت وأنجبت اولادا ، جاءوها بأحفاد تزوجوا وأنجبوا هم أيضا .. وأصبحت الآن عجوزا فانية محدودة الظهور صماء .. وإن كان لا يزال في عينيها أثر من قدرة على الابصار .. لقد نسيتها ملك الموت طويلا .

وترجل "الكابتن ميخائيليس" ، وجلس فوق صخرة على حافة الطريق وقد ضغط رأسه بإحاطيه ، كانت كلمات "الكابتن الياس" تعمل في قلبه كالسكاكين "لقد لطخت اسمك يا "كابتن ميخائيليس" ! وظل يكررها لنفسه مرة بعد مرة حتى يمنح نفسه الشجاعة في مواجهة ما هو مقبل على فعله ، وكان كل شيء هادئا في القرية إلا من كلب ينبج نباحا هو النحيب اقرب وكانما يرى ملك الموت عن كثب وغمغم الكابتن : "ليس لعمتي كلب في فناء بيتها ، ولن يسمعنى احد .. لا احد سيشعربى .. لا احد" .. ولكن عقله في الحقيقة لم يكن يفكر في عمته .. او في الكلب وتنهذ بعمق .

ونفض واقفا واتجه ببصره الى القرية وكانت ثمة مصابيح قليلة لا تزال مضاءة ، ولكن ما لبثت ان اطفئت واحدا بعد الآخر ، وغرقت البيوت ، والناس في النوم ، وقفز فوق صهوة فرسه ثم رسم علامة الصليب وهم يغمغم "باسم الله" .. ثم اسرع باتجاه "كوراكيس" .

وربط فرسه الى حلقة بباب البيت ، ودلف الى الفناء ، وكان يعرف تفاصيل المكان جيدا ، الى اليمين تقع معصرة النبيذ والدناك وأوانى حفظه ، والى اليسار تقع حظيرة لبغل وخمار كانت تملكها عمته ، وحظيرة اخرى لزوج من الثيران .. ولكن هذه الحيوانات كانت قد ماتت كلها ، وقسمت حقول الكروم بين الابناء والبنات ، واحس الكابتن وسط الظلام برائحة البلى والفناء .

وتابع السير وُدس يده فى فتحة بالجزء العلوى من الباب الرئيسى ،
ودفع المزلاج فى حرص فانفتح الباب ، وارهدف السمع وقد حبس انفاسه ،
واستطاع من مكانه أن يسمع صوت انفاس رتيبه أتية من غرفة صغيرة ،
وكان ثمة شخص ينام فى جانب منها ، واختلج قلب "الكابتن ميخائيليس" ،
من عساه يكون هذا النائم ١٩ .

واقترب أكثر فى خطى كخطى اللص وقد وضع يده فوق حزامه وقبض
على خنجره ، وارتعشت خياشيمه .. لا اثر لرائحة المسك : "لابد أن عمتى
العجوز ! " .. وعادت ضربات قلبه تنتظم ، وانحنى قليلا وتحقق من الشعر
الأبيض والوجه المفضلن .. ثم تراجع الى الخلف .

"لابد أنها فى الغرفة الوسطى ، افضل غرف البيت .. تلك التى بها
المذبح" .. وعاد قلبه يخفق كموجات البحر .

ومد يده ودفع الباب الصغير للغرفة الوسطى التى كانت مضاءة بمصباح
خافت الضوء امام المذبح القديم لكل القديسين وعلى جانبيه صورتان
لميخائيل كبير الملائكة ، ولاستشهاد القديسة كاترين .

واستند الى حافة الباب ، واستطاع أن يميز جسدا نائما تحت الغطاء
فوق سرير عمته الحديدى القديم ، وكان بمقدوره وهو فى مكانه أن يميز
ذلك الشعر الاسود منسدلا فوق الوسادة .. وان يشم رائحة المسك .

واحس لحظتها بعينيه تغيما ، فتنفس بعمق ولكنه لم يستطع السيطرة
على قلبه ، وبقفزة واحدة اصبح داخل الحجرة وهو يقبض على خنجره ذى
القبضة السوداء وحبس انفاسه وهو يسير على اطراف اصابعه .. ورفع
الغطاء بيده اليسرى فلمع جسدها ، ولمعت عيناه لمرأة للحظة ، ولكن ما
برأسه كان الدم فحسب .. فى امواج متلاحقة .

وتعلمت المرأة النائمة وتنهدت ، وهمست شفتاها بكلمات غامضة ، ثم
ابتسمت .

وانحنى "الكابتن ميخائيليس" ؛ وبرق ضوء المصباح الصغير فوق نصل

الخنجر الذى مرق فى الهواء .. ثم انغرس بعنف قاس فى الجسد الابيض .
وصرخت "امينة" ، وفتحت عينيها ، واستطاعت أن تتعرف على
"الكابتن ميخائيليس" .. وارتسم فى النظرة الاخيرة لهما : الدهشة
والنشوة والألم والعتاب معا ! .

وإن الرجل أنينا ، وجسده كله يهتز بالألم .. واستل الخنجر حتى يجنب
الجسد الموت .. ولكن بعد فوات الاوان ، لقد تحجرت عينا "امينة"

الفصل الحادى عشر

جلس الجد فى فناء البيت تحت شجرة الليمون العجوز ، وقد وضع فوق ركبتيه لوحا وطباشير وظل يحدق فى الجبل خلال الباب المفتوح .. ويفكر . كان الجبل يبدو متألقا وسط ضباب الغسق ، وثمة ريح جنوبية رطبة تعلن الأرض بقرب سقوط الامطار . وكان الجو باردا .

وتنهد الجد وهو يقول : «الشتاء على الأبواب» ..

كان يفكر فى النساء والأطفال الذين أخرجهم الأتراك من بيوتهم فتسللوا إلى الكهوف بلا طعام أو ثياب .. وبلا رجال يحمونهم ، وكان يفكر فى كريت التى عادت مرة أخرى تهز أغلال عبوديتها ولا تدرى إلى أين تمتد يديها طالبة العون . هؤلاء الافرنج الكلاب .. بلا قلب ، أما اليونان - الأم المتعسة المتسولة - فقد كانت بلا حول ولا قوة ، وأما الثوار الكريتيون فقد كان عددهم لا يزال ضئيلا وكان ما بأيديهم من سلاح وطعام أكثر ضالة .. فكيف كان بمقدورهم اذن أن يصمدوا ؟ وفوق ذلك كله ، فان الله يبتليهم بالشتاء وكأنه يأخذ فى الصراع جانب الأتراك .

وغمغم العجوز وقد أغلق عينيه : «أنت كريتى ... وسوف تلقى جزاءك» .

إن الجزيرة كلها بكل ما فوقها من جبال وفاكهة وناس ، لتبدو معلقة فى الفراغ ما بين صدغيه . كم كانت انتفاضة لها عاشها ؟ كم مرة أحرقت بيوتها وانتزعت أشجارها وانتهكت نساؤها وقتل رجالها ؟ ... ورغم ذلك ، فإن الله رفض دائما أن ينظر إلى كريت بعينى عطفه ..

وصاح الجد العجوز «هل هناك عدالة ورحمة فى أى بقعة فوق هذه الأرض - بل هل هناك اله ؟» .. ثم ضرب اللوح بقبضة يده ويقول : «أم أنه سبحانه - أصم لا يعرف الرحمة ؟» .

ولكن حفيده «تاراساكي» قدم فى تلك اللحظة خارجا من البيت ، فاضاعت ملامح وجه الرجل العجوز . كان «تاراساكي» هو اجابة الاله .. كل شىء سينتهى على مايرام ، فارتج بالا ايها العجوز : وفكر فى حفيدك ..

وكانت الشمس قد لوحث وجه تاراساكي فى الشهور القليلة التى امضاها بالجبل والتى حولته الى حيوان مفترس وجعلته يقترب حثيثا فى الشبه من ابيه : عينيه ، وحاجبيه وشفتيه - واعتداده بنفسه ، اتجه نحو جده وتناول اللوح من يده ونظر اليه عابسا وهو يقول فى حدة : « أنت لم تكتب الأبجدية بعد » .

كان يحاول طوال شهر كامل أن يعلم جده الأبجدية بعد أن قرر هذا - بعزيمة قوية لا تحسب للسن حسابا - أن يتعلم بضعة حروف حتى يستطيع - كما يقول - كتابة اسمه . والحق أن هدفه كان أبعد من ذلك ، ولكنه لم يفض به إلى حفيده .

بيد أن العقل العجوز تأبى على تلك الحروف ، كما تأبى اليد الثقيلة التى لم تألف سوى المعول والبندقية .. على أصابع الطباشير التى كانت تتحول هى واللوح أحيانا إلى قطع صغيرة حتى ليجز «تاراساكي» أسنانه من الغضب .

وكان الجد يضرب رأسه بيده ويقول : «كان لدى مايشغلنى يا ولدى ، ولم أستطع .. فلا تؤنبنى » ..

- وما هذا الذى كان يشغلك ؟ لقد كنت تجلس عند مدخل البيت طوال اليوم ، وقد رأيتك بنفسى وأنت «تشغل» نفسك بالنقاش مع كل عابر : أنا أعرف أنك تضع اللوح والطباشير فوق ركبتيك ، ولكن أين الخطوط ؟ بهذا الأسلوب أنت أبدا لن تتعلم .

- لا تؤنبنى يا تاراساكي يا ولدى ، فالأمر صعب بالنسبة لى . إن يدي لاتعاوننى ، كيف أفسر لك الأمر ؟ أحاول أحيانا أن أتجه بالحرف إلى اليمين فإذا بيدى تنحرف إلى اليسار ، وأضغط على الطباشير برقة ، فإذا هو ينكسر . هل ترى ؟ -

- كل ما أراه أنك أبدا لن تتعلم الكتابة .

وهز ثاراساكي رأسه وقال :

- هات يدك حتى أوجهها .

ولكنهما سمعا فى تلك اللحظة وقع اقدام ، والتفت الجد سعيدا للغاية بأنه سيتخلص من الكتابة . واقترب شخص غريب مرهق من اللون يرتدى الملابس الافرنجية ويحمل فى يده مظلة قديمة مربوطة بالخيوط .

وناداه الجد :

- طاب يومك يا صاحبي ، إلى أين ؟ اجلس وارتح قليلا واشرب ماينعشك .. وتوقف الغريب مستندا إلى مظلته ولم يقل شيئا .

وعاد الجد يسأله :

- إلى أين أنت ذاهب ؟

- أتمشى .

وصاح الرجل العجوز فى دهشة :

- تتمشى ؟ .. بحق المسيح .. ألم تسمع أصوات الطلقات ؟ .. إن الدنيا تتمزق حولك وأنت تتمشى ، ضع مظلتك والتقط سلاحك يارجل .. الست كريتيا ؟

- بلى ...

- فماذا تنتظر إذن ؟ .. الق بهذه المظلة بعيدا .

وتطلع المسافر الى السماء المثقلة بالغيوم ، ثم قال وهو يقرب المظلة اليه :

- سوف تمطر السماء .

وكان «ثاراساكي» يتمعن لحظتها فى وجه المسافر .. ثم مالبت أن صاح فجأة :

- ألسن السيد ديميتروس ؟ السيد ديميتروس لينبوتوم ، جارنا ؟ .. ان زوجتك المسكينة «بينلوب» تكاد تجن لأنها لم تعرف إلى أين ذهبت .

وسأله ديميتروس فى ضيق : «أين هى .. الآن ؟ » ..

- وكيف لى أن أعلم ؟ لعلها تجوب القرى كلها بحثا عنك ..

ومدات تتساقط قطرات ثقيلة من المطر ، وفتح ديميتروس مظلته وتهايا للانصراف ..

وصاح الجد :

- بحق المسيح .. انتظر واشرب كوبا من «الراكي» .. إلى أين تذهب ؟
إن السماء بدأت تمطر .

ثم سار دون أن يلتفت .. حتى غاب عن النظر .

وتسائل «ثاراساكي» :

- ماذا دهاه ؟ ما الذى يجعله هكذا متعجلا ؟ وأجاب الجد العجوز :

- زوجته .. لقد فاض به الكيل منها .. واكتفى .

وبرز «بتروودولوس» من داخل البيت بعباءته الصغيرة وقيثارته معلقة فوق كتفه كان قد افطر «بسكويتا» مغموسا فى الخل والزيت وقطعة من الجبن ، علاوة على كمية من النبيذ ، وأحس من ثم بالبهجة حتى ليخرج الآن وعيناه تتراقصان ليستنشق بعض الهواء النقى .

كان قد تعب من الحبس داخل البيت مع النساء والأطفال ، يعزف لهم على قيثارته لكى يحول أفكارهم عن رجالهم الذين يحاربون فى الجبال . وكانت أصوات الطلقات الهادرة تتناهى من بعيد مع الريح المواتية ، فتصعد النساء إلى السطح لينصتن ، وتهرع أزواجهن طائرة الى الجبال .. حيث أزواجهن ، وكان «بتروودولوس» هورا حتهن الوحيد حين يلعب بقيثارته ويغنى أغنيات الـ «كانزونا» التى اشتهرت بها «زانتى» ، فيبعث فى نفوسهن بقليل من الطمأنينة ، ولقد قالت له أول أمس فتاة حديثة الزواج هى «كريستينا» ابنة القس : «ان الأغنية تشبه الرجل ، فكلاهما يريح المرأة التعب» ولحظتها ، شد الرجل الطيب قامته فى خيلاء . أصبح أن الأغنية تشبه الرجل ؟ .. وكل هذه الاعوام التى انقضت من عمرى وأنا أجهل هذه الحقيقة .. أنا أيضا ينبغي أن تكون لى زوجة وأولاد وأن أحيأ كاتسان ، وسأل السيدة الصغيرة «ماذا تعنين بهذا ؟ » .

وقالت وهى تضحك فى خبث :

- وكيف أستطيع أن أوضح لك الأمر يا صغيرى بتروودولوس ؟ نحن النساء فقط نفهم مثل هذه الأمور ، ولو كنت مكانك لما أقحمت نفسى فيها .
اقترب «بتروودولوس» من الجد وعلى فمه الصغير الحاد ابتسامة ساخرة :
- ألم نتجاوز حرف «الألف» يا جدنا الصغير ؟ .. ألم نصل الى «الباء» ؟
أى صخور غارقة لاتزال أمامنا لندور حولها ؟ ..

وقال الجد وهو يلتفت الى حفيده :

- إذا كنت تريد بركاتي فلا تدع هذا السيد يجعل منك مادة للسخرية بأن يعطيك دروسا فى العزف على القيثارة .. فذلك أمر تصلح له ، «البريمادونا» وحدها .

وتتحنج «بترودولوس» ولكنه لم يقل شيئا . وكيف يجزئ ؟ منذ أيام قليلة مضت حدث أن جرئ على الرد عليه . فاذا بالرجل العجوز يمسك به على الفور من تحت أبطيه ويطوح به عاليا ليستقر فوق أعلى صخور الحائط . ولقد صرخ لحظتها بينما استبدت البهجة بالنساء وتجمعن حتى أنزلنه بالسلم . وهكذا ، فقد اكتفى بأن يتحنج .. ويتفوقع جالسا خلف الجد وقد أخفى قيثارته وراء ظهره .

وقال الرجل العجوز :

- تعال يا «ثاراساكى» وسوف أدريك على التصوير الجيد ، فهو لعبة الرجال .. أحضر جهاز التعمير .

ولم يكك ينتهى من كلماته حتى كان «ثاراساكى» قد جاء به ووضع خلف الباب .

هاهوذا .. لقد أمضيت الأمس بطوله وأنا أنظفه ..

- انى أمنحك بركاتي ، وسوف تصبح أفضل من أبيك نفسه . لماذا

تحقق فى ؟

هذا هو المطلوب .. تبأ لنا أن لم يصبح الابن أفضل من الأب . إن العالم ليصير مزقا ان لم يحدث ذلك .

ثم وضع يده فوق رأس حفيده وقال :

- يجب أن تفوقنا نحن جميعا يا ولدى ، فنحن الكريتيين لسنا كسائر الناس . إن عملنا ضعف أعمالهم . فى باقى الدنيا - وحين يكون المرء راعيا - فانه لا يفكر إلا فى أغنامه ، وحين يكون حراثا فانه لا يفكر إلا فى ثيرانه وفى المطر والمحصول ، وحين يكون تاجرا فانه لا يفكر الا فى البضائع . ولكن الكريتي يفكر -بالإضافة الى هذا كله - فى كريت . وكريت طاعون عظيم . طاعون يأخذ كل ما لديك .. وهو دائما على حق ، وانه ليطلب منك حياتك ذاتها فتمنحها له وانت سعيد .. ان كريت طاعون عظيم .. وانتبه جيدا الى كلماتي هذه .

ثم وضع سلاحه فوق ركبتيه وأخذ يتحسسها كما لو كان كائنا حيا حبيبا
الى القلب ، وبدأ يعمره فى اهتمام فائق وهو يقول :
- هذا هو حياتى .

ثم عاد يقول :
- اختر لنفسك الآن هدفا . هناك ، هذا الغراب فوق قمة شجرة السنط -
هل رأيته ؟ حسن . ضع الفتاه العجوز الى كتفيك .. وصوب .

وأغلق «بتروبولوس» عينيه وسد أذنيه ، وهدرت الطلقة كالرعد واندفع
الدخان من القريينة فى دوائر .. وهوى الغراب من بين أوراق الشجر إلى
الأرض .

وقفز «ثاراساكى» فى بهجة ، وأسرع ليلتقط الطير الميت ، ثملقى به
عند قدمى «بتروبولوس» ليفزعه . وتراجع الكونت المسكين فزعا ، وأمسك
بقيثارته وعاد الى النساء بشفتين ترتعشان .

وكانت زوجات أبناء الجد ، وزوجات أحفاده قد تجمعن فى تلك الأبنية
المتجاورة بالإضافة الى جارى الكابتن «ميخائيليس» : «ماستراباس» و
«كراسوجورجيس» السمين الذين انضموا اليهن مع عائلتيهما بعد أن احتل
الأتراك قراهم .. وكانوا قد هربوا لتوهم فوق ظهور دواب الحمل . والى أين
يذهبون ويجدون الأمان ؟ فكروا فى والد الكابتن ميخائيليس الذى اشتهر
ببيته بأنه قلعة منيعة وبأنه هو ذاته رجل كريم لا يرد عن بيته أحدا وعندما
أصبحوا عند الباب الخارجى ، رفع «كراسوجورجيس» يديه الى صدره -
وهو المتمرس بالنفاق - وحيا الجد الذى وقف مرحبا بهم ، وقال :

- أيها النسر الملكى الاشيب ، أنا ، وماستراباس : صانع الاجراس -
جارى ابنك الكابتن ميخائيليس ، والمطاردين من الأتراك - جئنا نحتفى
بجناحيك . أيها النسر الملكى الاشيب .. لا تردنا خائبين .

وأجابه الجد الذى لا يعرف النفاق - وإن كان يحب أن ينافقه الناس ..
أجاب ميتسما ..

- جناحائى عريضان أسخلا .

وظهر «بتروبولوس» هو الآخر فى الفناء وحيا القادمين الجدد بترحاب
زائد ، بينما قال «ماستراباس» :

- تحياتى يا كابتن «سيفاكاس» ، لقد أصابوا عندما قالوا ان بيتك دير .

ولكن الرجل العجوز رفع يده وقال :

- مرحبا .. ولكن بشرط واحد : كلاكما هنا ليحمل السلاح . فاختارا من السلاح ما تشاءان واذهبا الى حيث يقف الرجال .. أنا لا أمنع طعامى لمرتعش أو جبان . أنا أرى النساء والأطفال ، فلا تقلقان عليهما .

ثم أضاف ضاحكا :

- لا تشيرا الى السنيور بتروودولوس ، انه امرأة وطفل .. انه الاثنان معا ..

وضحك الجميع .. ولكن كراسو جورجيس وماسترباس كانا برمى الوجهين ... وتجرا أولهما ليقول :

- نحن لا خبرة لنا بأمور القتال ، فاذا وصل الأمر الى حد القتال فقد ضعننا .

- حسن ؟ فلو أنك لم تذهب ، ألن تضيع يوما .. وبصورة من الصور ؟

- كلما تأخر ذلك كان أفضل يا كابتن .

- حظك سيء .

وقفز «كراسوجورجيس» :

- لا بأس ، ولاتغضب يا كابتن سيفاكاس ، فسوف نذهب ... وكان الله فى عوننا .

وانزل الاثنان حمولة الدواب ، ونزل النساء من فوق ظهورها ، وجاءت النسوة الاخريات ليساعدنهن ويقدنهن الى البهو الامامى الكبير حيث اعددن لهن موقدا .. واجتمع الكل فى المساء الى المائدة الكبيرة .. وفى صباح اليوم التالى أخرج الجد بندقيتين من الدولاب وأعطاهما لكاسوجورجيس وماسترباس ورافقهما الى أقصى حدود القرية ، وهناك ، أسلمهما لرأعى غنمه العجوز «شاريديموس» وقال له :

- عمت صباحا ياشاريديموس . أصبحهما من فورك عبر الممر الى حيث مخبأ الكابتن ميخائيليس ، وخذ حذرك ، فالاثنان جديدان فى اللعبة ، فلا تقدمهما الى قرية مليئة بالأتراك .

ثم استدار الى المقاتلين الجديدين .. ومد يده مصافحا .

- اذهبوا على بركة الله وأديا واجبكما ، كونا رجلين ، وأنا المسئول عن عائلتيكما .. أتمنى لكما حظا سعيدا : ولا تنسيا أن تحيا عنى الجبال .

وبعد أيام قلائل ، وبينما كان الجد والحفيد يتبادلان الحديث .. أولهما يعطى الثانى عصارة تجاربه وخبرته ، تنهات أصوات وقع أقدام دواب قادمة من الممر الجبلى ، ولاح قرابة عشرة رجال فوق ظهور دوابهم يهبطون المنحدر فى سرعة . ووقف ينظروا وقد حمى عينيه بكتا يديه ولكنه لم يستطع أن يميز شيئا وسط الضباب . ومر به لحظتها منادى القرية العجوز «مافرووس» فناداه الجد وسأله :

- ماذا لديك من أنباء يا طائر السوء ؟ من هؤلاء القادمون ؟
- يقولون ان سفينة الكابتن «ستيفانيس» قد وصلت الى مرفأ «أجابيلاجا» تحمل الذخيرة والطعام .

ورسم الجد علامة الصليب وغمغم قائلا :
- أيها الوطن الأم المسكين .. أنت تحرم فمك من أفضل اللقيمات وتبعث بها إلينا .. هه .. ثم ماذا ؟

- ثم ان رجال ولدك فى طريقهم بدوابهم ليعودوا بالكنز ، هاهم اولاء ، فاستقبلهم اذن أحسن استقبال .

وقال الجد وهو يفتح الباب على مصراعيه : «مرحبا بهم» .
وكان «فيندوسوس» دليل القوم ، فقد قال له الكابتن ميخائيليس :
- أنت لا تصلح للقتال ، ولكنك تعرف هذه النواحي جيدا ، كما أنك ماهر .. وسافاك سليمان ، ومن ثم فسوف أجعلك عدائنا .

وصاح «فيندوسوس» وهو يقفز الى الأرض :
- تحميه يا كابتن سيفاكاس ، اذا لم يكن هذا يزعجك ، فسوف نقضى اليوم فى بيتك ثم نمضى غدا ان شاء الله عند أول خيوط الفجر .

وقال الرجل العجوز وهو يمد يده للقادمين الجدد :
- مرحبا بكم يا أولادى . اشربوا أولا فقد تعبتم .
ودخل الفرسان إلى الفناء وقد بدأ عليهم الارهاق وكساهم البارود ، وأسرت اليهم النسوة يسألنهم عن أزواجهن ، وأوقدت النار .. وصفت المائدة . وأوقدت الشموع عندما بدأ الظلام يرخى استاره ، وتجمعت

الوجوه الجادة بارزة العظام .. على ضوئها وحول المائدة الحافلة . وأكل الجميع كالوحوش المفترسة ، وشربوا كالجاموس ، وطحنت أفواههم الطعام طحنا .. وانتشرت رائحتهم الرجولية الحادة خلال البيت كله ، وأحاطت بهم النساء عن بعد وقد حبسن أنفاسهن وهن يقمن على خدمتهن فى بهجة ، ووقف الجد هو الآخر قريبا منهم ينظر اليهم فى اعجاب دون أن يتكلم .

وعندما انتهوا من طعامهم وشرابهم ، ورسم كل منهم علامة الصليب ، قال لهم :

– الآن تنامون وتريحون أجسادكم المرهقة .. أه .. أه .. لو اننى كنت صغيرا لأحمل معكم هذا الارهاق ، ولكننى أصبحت كما ترون .. هذا الشيء المثير للاشفاق .. اننى أنام فوق سريرى كل ليلة ، وأكل واشرب فى الصباح والظهيرة والمساء .. ولم أعد سوى أكل لا فائدة منه ، لا يحمل السلاح ولا أحد يطلق الرصاص تحوى ، اننى لا أرجو – حتى لأعدائى – أن ينتهوا الى ما انتهيت انا اليه .

وقال «فيندوسوس» ضاحكا :

– ندعو الله أن ننتهى الى هذا الذى انتهيت اليه يا كابتن سيفاكاس .

وقال الرجل العجوز :

– أنت دليلهم يا «فيندوسوس» ، وسوف تكون آخر من ينام مهما كنت مرهقا وسوف نتبادل بضع كلمات معا .

فقال «فيندوسوس» وهو يغالب التثاؤب :

– تحت أمرك يا كابتن سيفاكاس ، فلم أصبح دليلا لـأشياء .

وتمدد الفرسان واحدا الى جانب الآخر بملابسهم وسلاحهم ، وقبل أن تنظف النساء المائدة كان صوت شخيرهم يملأ البيت .

وأوقدت النساء النار للتدفئة بينما جلس الجد فى مواجهتها والى جواره عازف القيثارة ، وأخذ الرجل العجوز يحدق صامتا فى لهب النار وحاجباه يختلجان فى شغف .. ولم يعد فى النهاية قادرا على أن يظل صامتا فقال فى همس :

– هناك شيء واحد أريد أن نتبادل حوله الحديث يا فيندوسوس : شيء

ينزف له قلبى . قل لى – كرجل – كل ماتعرفه ، ولا تكذب ، فقد بغلت من العمر مائة سنة فلا احتمل معها الكذب .

وحده «فيندوسوس» السؤال مقدما .. وبدأ يفكر .. ثم قال فى النهاية :
- سوف أقول الحق .. كل الحق .
وخفض الجد صوته أكثر :
- لماذا غادر الكابتن ميخائيليس موقعه فى تلك الليلة التى أحرق فيها
الدير ؟
وأخذ «فيندوسوس» يقلب النار ، ثم رجع بجسده إلى الوراء ..

وعاد الجد يقول :
- دع النار فى حالها ..
ثم أمسك بذراعه وقال :
- إلى أين ذهب تلك الليلة ؟
وابتلع «فيندوسوس» ريقه ، لو أنه أطلق العنان للسانه الآن ، فلسوف
يكشف كل شيء .. وذلك مايشاء .
- كابتن «سيفاكاس» .. ذلك .. ذلك ليس من شأنى .

وصاح العجوز أمرا وهو يهزه من ذراعه :
- تكلم .. قل كل شيء ولاتحاول أن تخدعنى لماذا غادر موقعه ؟ وإلى
أين ؟ لقد جلب لى العار ، ومن أجل ذلك فهو يخجل من مواجهتى لأنه
يخشى أن أسأله ولكن أقسم بروحى أننى قادر على أن أمضى يوما - نعم
.. غدا .. لأبحث عنه فى مخبئه ، ولأجمع فرسانه وأوجه إليه اتهامى
امامهم . وإذا أنت لم تجب على الآن يا فيندوسوس ، فسوف أفعلها .. نعم
، وبحق هذه النار سأفعلها ، وليحاول أن يظل فارسا اذا كان هذا الأسد
المفزع يستطيع حقا أن يفعلها .. وأحس بالعرشة ، ثم قال :

- لانتريا كابتن سيفاكاس ، سوف أقول كل الشيء .. ومن البداية ،
فاصبر .
- أنا صابر .. فتكلم .
- أنت تعرف أن نورى بك كان له زوجة شركسية ..

وقال الرجل فى أنين ، وهو يضرب صدره بقبضة يده :
- آه .. ياللعار .. اذن فى الأمر امرأة .

وقال فيندوسوس - وقد قرر أن يبيوح بكل شيء :

- نعم .. فى الامر امرأة .. أنت تريد كل الحقيقة ، فهذه هى الحقيقة
اذن ..

- نعم .. أنا أريد الحقيقة ، ثق من ذلك ، ولكن اخفض صوتك ، فالنائمون
لهم أيضا أذان ، فلا تدعهم يسمعوننا . هه ؟

انها تدعى «أمينة» ، وقد رآها الكابتن ميخائيليس فى احدى الأمسيات
عند نوري بك فى ضيعته وجن بها جنونا ، وبعد ذلك بأيام - وبالتحديد يوم
حدث الزلزال - رآها الكابتن بوليكسيجيس أيضا وحدث معه نفس الشيء ،
وظل يحوم حول المكان حتى فقد كل كرامته ، ثم مالبت فى النهاية أن
اقتحم بيتها وصارحها بما فى قلبه ونام معها على فراشها وصمم على أن
يتزوجها ، وكان لابد أن تنتصر ، وكان المفروض أن يتم تعميدها وعرسها
معا بعد غد فى ذكرى يوم الصليب المقدس .

- استمر .. استمر .. وما علاقة ذلك كله بابنى ؟

- سوف تفهم حالا فليسامحنى الله .. ولكننى واثق من أن جمال هذه
الشركسية قد سحر الكابتن ميخائيليس بأكثر مما سحر الكابتن
بوليكسيجيس . لقد جئته ليلة أن كان يقاتل أمام دير السيد المسيح ، بأنباء
تقول أن اقرباء «نورى بك» قد اقتحموا «كاستيلي» وحملوا معهم الفتاة
الشركسية .. وعلى الفور امتطى صهوة فرسه واصطحب معه عشرة منا ،
وانطلقنا جميعا خلف اللصوص حتى أدركناهم عند «الجبل القاسى» ،
وهناك ، هبط عليهم ولدك مثل السبع الضارى وبشكل بطولى لم أرمثلا له
طوال حياتى يا كابتن سيفاكاس . أن الفضل كل الفضل لك أنت يا من
أنجب هذا الابن .. أما الأتراك فقد تركوا المرأة وركنوا الى الفرار ..

وغطى الرجل العجوز وجهه بيديه وصاح فى ألم :

أواه . ذلك اذن ما حدث : من أجل امرأة .. غادر موقعه مثل رجل بلا
شرف .. ياللعار وتسمى ذلك عملا بطوليا .

- لا تلتعنه يا كابتن سيفاكاس . أقسم بصلب أبى أن ولدك لم يرفع رأسه
مرة لينظر الى الفتاة الشركسية . لقد قال لى : فيندوسوس ، خذ هذه المرأة
وأوصلها الى عمى فى «كوراكجيس» .. واطلب منها أن تقدم لها الطعام
والشراب حتى نرى ماذا نفعل بعد ذلك .

ثم سكت .. وأخذ يحرق فى النار الموقدة ، وبعد لحظة صمت عاد
يقول :

- اما ما حدث بعد ذلك يا سيفاكاس العجوز ، فينبغى لك أن تعرفه .

ولكن الرجل العجوز لم يتكلم . وكان وجهه قد تحول إلى كتلة فى الشمع .. وبدأ هذا الوجه فجأة وكأنه استحال الى جمجمة .

وهمس «فيندوسوس» :

- لقد وجدت ميتة ذات صباح .. وثمة خنجر مغروس فى قلبها . ومد الجد يديه وأمسك بزجاجة نبيذ عب منها وقد أحس بشيء من الراحة . ثم سأل فى همس حتى لقد بدا صوته وكأنه صادر عن كهف عميق :

- ومن الذى قتلها ؟

وأحنى فيندوسوس رأسه . هل يقوله ذلك أيضا ؟ .. كان رأيه قد استقر على ما سوف يقوله فى هذا الصدد ..
- لابد أنها هى التى قتلت نفسها .. لقد كانت هى نفسها تمسك بالخنجر .. هذا ما يقوله الناس .

- دع الناس يقولون مايقولون .. من الذى قتلها ؟

ورفع «فيندوسوس» رأسه وهو يقول لنفسه «لو أنك وجهت فوهة غدارتك إلى صدرى يا سيفاكاس العجوز ، فسوف تسمعها» :
- ولدك يا كابتن سيفاكاس .

- لماذا ؟

وكان فيندوسوس قد القى الآن ثقله عن صدره ، وأحس بأن قلبه قد استراح . ولم تكن هناك حاجة اذن للهرب أمام التفاصيل الأخيرة ، فأجاب على الفور :
- بدافع الغيرة .

ورفع الزجل العجوز قطعة من الخشب من فوق الارض ، وغذى بها النار ، واستغرق فى التفكير ... وأخيرا قال :
- ولقد فعل خيرا . البداية سيئة ، والنهاية طيبة . لقد كان ثمة شعبان لينغص عليه أمره .. ولقد فعل اذن خيرا ..
- فأنت لماذا تلومه يا كابتن سيفاكاس ؟

- انه يلام فقط لتركه موقعه ، ولكنه دفع الثمن .. ولايزال يدفعه ،
ولسوف يتحرر يوما ما .. اننى أثق فى دى .
- ولكن ، ماذا فعلت المرأة لتستحق ما ارتكبه ؟

- وهل تظن أن المرأة تهم ؟ كريت وحدها هى التى تهم يا عازف
القيثار . قم الآن لتنام وأغلق فمك . لاتبع بشىء من ذلك كله . فلو أنك
فعلت ، لقتل كل من الفارسين الآخر ، ولن يكون ذلك فى صالح كريت .
طابت ليلتك . قم اما أنا فسأبقى إلى جوار النار .

وحين لاحت تباشير الصباح ، كان الجد لايزال فى مكانه .. وكانت النار
قد خبت : كان قد أحنى رأسه إلى صدره واستغرق فى النوم . اما
فيندوسوس وجماعته فكانوا قد التهموا الكعك وشربوا بضع أباريق من
النبيذ ثم انصرفوا .. وعندما فتح الجد عينيه لم يكن هناك سوى رائحة
سجائرهم وأحذيتهم وأنفاسهم المثقلة برائحة النبيذ .

وعندما انتصف النهار أو كاد ، وانتهت النسوة من اعداد الخبز ،
واستطاع الجد فى النهاية أن يكتب أول الحروف ، الألف والباء والجيم على
اللوح التى كان يتشوق الى أن يراها حفيده .. لاح عند الباب الخارجى
محارب صغير قادم من خارج مريت يرتدى «فوستانيلا» «معطف طويل»
طويلا كثيف الزر ، ويحمل على كتفه بندقيته ، وسترة ، وحذاء مدببا ،
ويضع فوق رأسه طربوشا ويثبت حول صدره كيس ذخيرة . ومسح المكان
بنظرة كالنسر .

وصاحت النسوة وقد امتزج فى صياحهن الخوف والفرح :
- يونانى يونانى

ورفع الجد رأسه وقال :
- مرحبا ، هيللين ، أدخل أيها النسر الصغير ..

ورفع الرجل ذو المعطف ساقا نحيلة رشيقة واجتاز المحتل ، وتجرات
النساء فاقتربن أكثر وهن مأخوذات بجسده الممشوق وهمست احداهن :
«يا بهجة عينى أم هذا ولدها ، إنه يبدو كما لو كان كريتياء» .
وتوقف البطل الصغير أمام الجد وقال محييا :

- وهل أنت يا سيدى هو الرجل الذى يسمونه كابتن سيفاكاس العجوز ؟
- أنا هو من قمة رأسه إلى اخمص قدمه ، كل ما فى الأمر أننى كنت
«كابتن» يوما ما .. أما الآن فأنا سيفاكاس العجوز فحسب ، وأنت ، أى ربح
طبية حملتك الى بيتى ؟

- أنا قدم من سفينة الكابتن ستيفانيس ، واسمى «مستروس» .. وبلدى
«روميليا» ولقد سمعت أن كريت تحارب فجئت أنا أيضا لأحارب معها .
وحين كنت فى «سيرا» قابلت رجلا يرتدى الملابس الافرنجية ويقول انه
حفيدك .. وقد حملنى رسالة اليك .. فمد يدك لأعطيها لك .
هكذا أقدم لك نفسى .

ومد الجد يده وتناول الرسالة وتحسسها فى سعادة غامرة .. انها جاءت
من حفيدة الاثير الى نفسه .. الابن الاول لأكبر اولاده «كوستاروس» واول
حفيد اجلسه فوق ركبتيه .. واول من ناداه بكلمة جد ..

وقال وهو يدس الرسالة داخل قميصه :

- شكرا ايها البطل الصغير على المشقة التى عانيتها ..

ثم نظر الى ثاراساكي وقال ضاحكا :

- سوف اعطيها لحفيد آخر من احفادى .. حفيد متعلم يستطيع ان
يقراها ، ولكن ليس الآن .. ايتها النساء ، اعددن المائدة فقد جاءنا ضيف
من سلالة نبيلة : يونانى اصيل ، واحضرن له المقعد الافضل ليجلس
فوقه ..

واحضر له المقعد القديم الذى حفرت فوق ظهره صورة تسرين ، وجلس
الجد فى وسط الفناء ووجهه يضىء بالسعادة ، وجلس فى مواجهته الشاب
القادم من روميليا مأخوذا بمرأى الرجل العجوز الاشيب والذى بدا له وكأنه
اله خالد لا يموت ..

وامسك بيد الجد وقال :

- ايها الجد .. لقد سمعت انك عشت مثل شجرة السنديان ، وانك

تنفست العواصف ، وعانيت وانتصرت وناضلت وعملت طوال مائة عام .
فكيف بدت لك الحياة خلال تلك المائة من السنين ؟

واجاب العجوز :

– مثل كوبة من الماء البارد يا ولدى .

– ومازلت عطشان يا جدى ؟

ورفع العجوز يده حتى انحسر كفه عن ذراع معروقة حتى الكتف ،
وصاح وكأنه يلعن ويسب :

– الويل لهذا الذى سقى ظمأه ..

وساد الصمت لحظة ، وبدا الاثنان فى تأمل متبادل بينما وقف
ثاراساكى بينهما يحدق فى اعجاب بالغ فى الجد وفى الشاب .. وحولهما
وقف النسوة وقد ثبت لكل منهن ذراعها ..

واخيرا تكلم الجد .. تساءل وهو يشير الى السماء باتجاه الشمال :

– وماذا حملت لنا ايها المحارب الصغير من انباء اليونان ؟ لم يعد
عندكم اترك الان ايها المتسولون المحظوظون ..

وكان لايزال يجلس مكانه .. ويتنهد بينما الشاب يجلس فوق المقعد ذى
الظهر المنقوش .. اما ثاراساكى فقد كان لايزال واقفا بالقرب من الجد وهو
يحدق فى الشاب ذى المعطف الطويل ..

واجاب ميتروس :

– ليس عندنا اترك ، ذلك امر مؤكد .. ولكن عندنا ملاك كبار ..
وشرطة .. وسياسيون ولا تسلى عنهم ايها العجوز ..

وتناهد من الفناء رائحة خبز ساخن واحس الشاب بما يشبه الاعماء ..
فقد كان صائما طوال اليوم .. والقى بنظرة شغوفة الى الكعك الساخن ،
ولمح العجوز تلك النظرة فضحك وصاح :

- اسرعن يا نساء ، فلم يعد لدينا قوة لنتحمل ، احضرن بعض الخبز الساخن والجبن وابريقا من النبيذ حتى نعيد القوة الى قلوبنا ..

ثم دار ببصره عبر الفناء مستعرضا المخازن وحوض الماء الذى تشرب منه الجياد والباب الخارجى ومعصرة النبيذ ، حتى استقرت نظرته مرة اخرى فوق الشاب .. وهو يضحك مرة اخرى ويقول :

- اتعرف لماذا اضحك ايها الشاب ؟ اقسم ان ذاكرة الرجل تصبح اشبه بالمقبرة عندما يمتد به العمر ، ولكن .. يحدث رغم ذلك ان تتحرك حجارة هذه المقبرة احيانا ويخرج الموتى من داخلها .. بلى .. فأننى وانا ارى الفوستانيلا فى هذه اللحظات - ومرة اخرى داخل هذا الفناء - اذكرفجأة عام ١٨٦٦ ، وكيف انه فى داخل هذا الفناء ذاته ، وفوق هذا المقعد ذاته .. جلس يوما ما فارس يونانى (يرحمه الله) بينما كانت زوجتى وحماى (رحمهما الله) تخرجان الخبز من الفرن .. كان الوقت خريفا مثلما هو الان ، وكان اليوم يوم القديس جورجيس السكير .. وكان الجميع يهيئون النبيذ فى القرية ويفتحون الدنان ويتذوقون المحصول الجديد ، وفى تلك اللحظات ظهر كاستانياس (رحمه الله) احد الرجال الذين كان بمقدورهم ان يسابقوا الخيل ، وكان بصحبته سورميليس (رحمه الله) قبطان الباخرة بانديليس الشيطان الشهير (يرحمها الله) وقلت لولدى الاكبر كوستاروس (رحمه الله) بارك الله فى شبابك ياكوستاروس .. هلا اخضرت لنا ابريقا صغيرا من النبيذ حتى نفرغه ؟ .. وبينما كنت اتكلم ، لاح قادما من اتجاه الجبل جورجيس الخنزير (رحمه الله) - وكان اسمه ملائما له - وكان ابى بالمعمودية ومالكا لقطعان عديدة من الماشية وكان يحمل فوق كتفه كبشا مذبوحا ، وكانت زوجته انجيليكو ذات العيون السود (رحمها الله) تسير خلفه وهى تحمل بين يديها الجبن الطرى ، وصاح الجميع : مرحى .. لقد وجدنا شيئا طيبا نأكله ، ثم انفجروا جميعا (يرحمهم الله) بالضحك .. وسمع ضحكاتنا فى تلك اللحظات مانيلاس المدرس (سامحه الله) والذى كان يمر قريبا من المكان ، ففتح الباب ودخل ، وقلنا له : اجلس وانظر فى اوراقل وكراريسك ريثما نأكل نحن ونشرب ، فاجاب يقول : الى الشيطان مهنة التدريس ، لسوف اكل واشرب

معكم ولسوف ارسل فى طلب (مالياريو) الزجال حتى يمتعنا بازجاله
وبقفزة واحدة اصبح خارج البيت ليبحث عن مالياريو (رحمه الله)
وقيثارته ، بالاضافة الى اندروليس من سفاكيا (رحمه الله) الذى كانت
الحجارة تهتز حين يرفع عقيرته بالغناء .. اه .. يرحمهم الله جميعا .. ماذا
بقى من شفاهم وحلوهم وايديهم ؟ ..

ونهضت واقفا ، واخذت الأنبوب الذى كنت استخدمه فى ملء دنان
النبيذ ، وادخلته فى فوهة احد الدنان ، وصحت قائلا : ايتها الوحوش
المفتوسة وماذا تضير الاكواب ؟ .. وهل تشرب الثيران من الاكواب ؟ ..
سوف نشرب من الدن مباشرة - كل واحد منا يجذب نفسا .. وانت الذى
ستبدأ يا كابتن ليابيس .. فانت اكبر سنا ولم اكمل عبارتى حتى كان هو قد
امسك بالانبوب وبدأ يشفط النبيذ الذى اخذ يكركر داخل الدن مثل
الترجيلة ، وظل رحمه الله يشرب ويشرب - وبدأنا نخشى ان يشرب الدن
كله ، فجذبنا الانبوب من يده وبدأ كل منهم (يرحمهم الله جميعا) يأخذ
دوره .. وانا ايضا .. والحمد لله ..

وما كان اروعه من عيد .. وكم اكلوا وشربوا يرحمهم الله جميعا .. وكم
ملاوا ايديهم بالجبن وبينما نشرب ونأكل الجبن ، كان الكباش يشوى
وامسك ليابيس (رحمه الله) بالانبوب من جديد بينما جاء صوت من
الخارج يبدو انكم تستمتعون بوقتكم ايها الاصدقاء ، وكان صوت الاب
نيختاريس (رحمه الله) ومعه رئيس دير السيدة العذراء (رحمه الله)
وكان كلاهما اشبه بالاسفنجة من كثرة ما شربا ، وبدءا يرقصان فى الفناء
ويرفغان ارجلها عاليا ويجاران بغناء اللحن الجنائزى : تعال الى التحية
الاخيرة .. وفى كل مرة يصلان الى كلمة التحية الاخيرة .. كانا يقبلان
الانبوب ويجذبان النبيذ فى شفطة من داخل الدن حيث كانت تكركر اخر
قطراته ، يرحمهم الله جميعا .. ما اكثر ماضحكوا وغنوا وسخروا من الموت
وهم يصيحون : ثبتوا اقدامكم جيدا فوق الارض التى سوف تأكلنا يوما
ما .. ويثبتون اقدامهم فى قوة فوق الارض - عارية او تنتعل حذاء ، وقد
رفعوا سراويلهم الى اعلى فبدت سيقانهم ، واى عظام .. بل اى ثيران ..
واى شعر فوقها - كآنه الشوك حقا ..

ثم سكت الجد .. وامسك بلحيته واستغرق فى التفكير وعيناه الصافيتان تحدقان فى الفضاء وكأنما تسترجعان كل تلك الصور .. واحس الشاب ذو المعطف الطويل بشيء من الفزع وهو يتنصت الى الكريتى الاشيب الذى ملا الفناء بالراحلين .. حتى لكأنه يسمع الآن وقع اقدامهم فوق الارض ويرى اجسادهم ووقفت النسوة على مقربة يبتسمن ، بينما ثاراساكي يضرب الارض فى سعادة بقدمه الصغيرة .. ويضحك متحديا ملك الموت .. اما بيترو دولوس المسكين ، والذى كان قد انضم اليهم ليتطلع فى اعجاب الى الفوستانبلا .. فقد انسحب الى الداخل بمجرد ان تجسدت امام مخيلته صور الراحلين ..

وعاد الجد يتكلم وقد اغرورقت عيناه بالدموع ..

لقد بدأت حديثى ضاحكا .. ولكننى الان - وبعد ان تذكرت كل هؤلاء الذين طوتهم الارض - احس بالحزن .. لا .. ليس الحزن ، بل الغضب نعم ، الغضب .. هناك شيء ما غير صحيح فى هذه الدنيا ، ان الله اكمل كل شيء صنعا فيما عدا هذا الشيء - سامحنى الله سبحانه .. هناك رجال لاينبغى ابدأ ان يموتوا .. لماذا لا تموت الجبال ؟ هؤلاء ايضا ينبغى الا يموتوا ، بل ينبغى ان يظلوا فوق الارض كأعمدة تسند السماوات وهانذا .. هانذا اثبت اقدامى فوقك ايتها الارض الملعونة .. فلتبتلعى من تشائين من الحمقى والمقعدين والخبثاء .. ابتلعتهم جميعا .. تخلصى منهم جميعا .. ولكن .. ما كان ينبغى ابدأ ان تفعل ذلك بالكابتن ليابيس .. وبكاستانياس وبرئيس دير السيدة العذراء .. ويولدى الاكبر كوستاروس .. وضرب الجد الارض بقدمه .. وانحدرت دمتان ثقيلتان من عينيه ..

وصاح ثاراساكي وهو يمسك بيده :

- هيا يا جدى .. المائدة جاهزة ، واليونانى جائع ..

ونظر الجد الى حفيده واحس بيديه الباردتين الصغيرتين فوق يده البارزة العظام واصابعه الملتهبة .. فعاد مرة اخرى الى رحاب الله ..

- سامحونى يا اولادى ، كنت اتذكر الراحلين .. ففقدت احتمالى ..
ولكن .. نحن مازلنا احياء . فالى الامام اذن .. الى المائدة .. كل الاحياء ..

وبهذه الكلمات ، جلس فوق الارض وجذب المائدة لتكون بينه وبين
الشباب اليونانى ، واجلس ثاراساكى بالقرب منه ، ثم قال وهو يملأ طبق
الضيف بالطعام :

مرحبا بك .. باركنا الله جميعا وقرب مابيننا ..

وفى تلك الاثناء كان فيندوسوس وجماعته يقتربون من الشاطئ ، وبدأ
نسيم البحر يضرب وجوههم فتطايير معه ذوابات عصابات رعوسهم ،
وكانت الفرحة كأنما قد اعطتهم اجنحة يطيرن بها : هاهم اولاً ، سوف
ينزلون السلاح من السفينة ، ويتقلون ظهور بغالهم بالمؤن ليغذوا بها جميعاً
ثورتهم ، وكل هذا الذى سوف يفرغونه هو ملك خالص لهم ارسلته اليونان
من اجلهم ، ومع ذلك - فهل هناك غضاضة فى ان يتلقى المرء شيئاً مافى
امان ، ليتقاسمه مع الاخرين فى عدالة وانصاف ؟ وما الذى يفعلونه مع
الزوجات ؟ .. ان الابهاء يتفقون .. فتتهدى العروس ، وتبسط الموائد .. ولكن
ذلك لا يمنع من السرقة .. ان العريس ليقتحم المكان ممتطياً صهوة جواده
ويختطف عروسه التى تتظاهر بالمقاومة ، ثم هو يحملها امامه ويندفع هارباً
بها كالسهم وهو يطلق الرصاص فى كل اتجاه .. ويصرخ عالياً . وينطلق
الى بيته ..

وكانت سفينة القراصنة مياوليس التى قادها الكابتن ستيفانيس قد
قررت ان تخدع دوريات الحراسة التركية وسط الظلام ، ونجحت فى ذلك ..
والقت مراسيها فى مرسى اجابيلاجا الصغير المعزول وتحت صخوره
الضخمة ، وكان البحر هادئاً ، ولم تنتبه القرى المجاورة الى ان هناك
سفينة محملة قد ألقت مراسيها هناك على الشاطئ ، وبالتالي فان الكابتن
ستيفانيس وجد امامه الوقت الكافى لكى يفرغ حمولته بلا مضايقات ، وان
ينشرها فوق الصخور ..

وكانت الشمس خريفية فى ذلك اليوم ، واخذت الطيور تحلق فوق
السفينة او تنتشر فوق الصخور وتتنظر .. وكان الكابتن ستيفانيس قد نزل

الى الشاطئ يتعثر فوق حنايا الصخور وقد حمل معه تمثال القديس
نيكولاس .. ووضعه فوق الصخور ووجهه الى السفينة .. يتشمس .. وفى
نفس الوقت ، يراقب ويحرس ..

وصاح فى البحارة :

- هيا يا اولادى ، لا تدعوا فرصة للاتراك كى يمسكوا بنا ، ولا تدعوا
للمسيحيين ايضا فرصة لينتبهوا الينا ويعطلونا .. والحق اقول : انى اخاف
منهم اكثر مما اخاف من الاتراك ، واسرعوا اذن يا اولادى .. ان فرسان
الكابتن ميخائيليس سوف يجيئون ايا كان مكانه هو ..

وصاح « ناضورجى » السفينة الصبى ، والذي كان قد تسلق الصارى
الى قمته ، وهو يشير الى عشيرة من الفرسان يهبطون القل فوق ظهور
البغال :

- هاهم قد وصلوا ..

واستدار الكابتن ستيفانيس واستطاع ان يلمح فيندوسوس على رأس
القادمين .. فصاح وهو يضحك :

واجابه فيندوسوس وهو يقفز من فوق ظهر البغل الى الارض ويحتضن
الكابتن :

- ذلك قدرى .. لقد وصلت فى الوقت المناسب تماما ، لم يعد لدينا
بارود .. كما ان الجوع بدأ يقلقنا .. مرحبا بك الف مرة يا كابتن
ستيفانيس ..
ولكن البحار كان فى عجلة من امره :

- ساعدونا اذن على تفريغ الحمولة .. وحتى نستطيع الاقلاع بمجرد ان
يهبط الليل .. لقد امسكوا بى مرة .. وهى تكفى .. هيا .. تصور انك تسرق
السفينة حتى تحس بالمتعة ..

وامسك به فيندوسوس من ذراعه وانتحى به جانبا وقال فى صوت
منخفض

- الكابتن ميخايليس يحييك .. واذا كانت لديك اية رسالة ..

وقال الكابتن ستيفانيس وهو يحك رأسه :

- اية رسالة ؟

- ثقب بى ، فلا احد سيعرف بمضمونها سوى الكابتن ميخايليس ..

وانحنى الكابتن ستيفانيس ، والتقط حصاة كبيرة طوح بها الى البحر ..
ثم اتبعها باخرى دون ان يتكلم .. واخيرا وافته الشجاعة فقال :

- فيندوسوس .. انت عازف جيد ، ولكنى - واغفرلى ما سأقوله - لا اثق
بلسانك هذا الصغير فبمجرد ان تشرب ..

وتنهذ فيندوسوس ..

- واين ترانى اجد هذا الشراب ؟ لا تقلق ..

ونظر اليه الكابتن ستيفانيس فأحسا .. لقد لوحته الشمس .. واصبح
جسده اكثر صلابة واختفى ذلك الدهن فى عنقه وخديه ، واصبحت عيناه
اكثر بريقا .. بشيء اخر غير الخمر ..

وقال ستيفانيس فى صوت منخفض ..

- فاعرنى اذن سمعك يا « فيندوسوس » وانقل الى الكابتن ميخايليس
كلماتى بحذافيرها .. هل تفهم ؟ لاتنقص منها ولا تزد عليها ..

- لست محتاجا الى ان تؤكد على ذلك .. تكلم ..

- لست لدى انباء طيبة ابعث بها اليه ، لقد طرقت بعض الابواب
المهمة ، وتحدثت الى بعض القادة والزعماء .. وطلبت منهم ان يقولوا لى
الحقيقة : هل لديهم امل فى ان تحرر كريت ، ام انهم يرون ان كل الامنا
سوف تضيع ادراج الرياح ، بعضهم حدثنى حديثا غامضا فيه لف
ودوران ، والبعض الاخر القى خطبا عصماء مليئة بالعبارات الطنانة التى لا

طائر من ورائها ، ولكن رجلا واحدا فحسب هو الذى تحدث الى فى امانة وشرف .. هل تحزر من يكون ؟ انه كوزماس ابن اخ الكابتن ميخائيليس الذى كان قد وصل لتوه الى سيرا قادما من ارض الفرنجة لقد قال لى : يجب ان تكون شجاعا يا كابتن ستيفانيس كريت لن ترى الحرية هذه المرة ايضا - وسألته انا : - اذن فدماؤنا سوف تضيع سدى ؟ واجابنى : الدماء ابدا لا تضيع سدى ، الا تعرف ان الحرية بذرة .. وان هذه البذرة لا تنمو بالماء ، وانما بالدماء وحدها تنمو وتترعرع ، ومن ثم فاننا نبذل دماءنا الان فى مكانها تماما .. لانه من المؤكد ان هذه البذرة سوف تنمو يوما ما .. ولكن هذا اليوم لم يحن بعد .. ثم اخرج من جيبه رسالة واعطانيها وهو يقول : ابعث بها الى جدى - سيفاكاس العجوز - بواسطة رجل تثق فيه ، ولقد ارسلت اليه قبل ذلك رسالة مع شاب يونانى كان معى على ظهر السفينة ، ويستطيع الكابتن ميخائيليس ان يعرف الباقي من تلك الرسالة ..

واستمع فيندوسوس وقد احنى رأسه بينما اخذ يضرب الحصى بقدمه فى غف ، وعندما انهى الكابتن « ستيفانيس » كلماته .. انفجر يقول : - فليس هناك اله اذن ؟ ما رأيك انت يا كابتن ستيفانيس ؟

- وما الذى يمكن ان يراه مسكين تعس مثلى ؟ اننى لا اكاد اعرف ان كان هناك حقا قديس اسمه نيكولاس .. وانت تسألنى عن الله .. ان القديس نيكولاس يكون موجودا احيانا حيث لا يطلب .. ويختفى حيث تشتد الحاجة اليه .. لقد عرفت ذلك جيدا خلال تلك السنوات الطويلة التى صارعت فيها البحر وصارعنى .. فلنكف اذن عن الحديث عن الاله ، ونرى مايحدث فحسب ..

وكان البحر قد بدأ يكتسى قتامة مع الشمس الغاربة ، وكانت السفينة قد افرغت تماما من البنادق والذخيرة والمهمات الجلدية والدقيق والسمك المملح .. ووضع ذلك كله فوق ظهور البغال .. هدية من الله الى ابناء كريت ..

وصاح الكابتن « ستيفانيس » وهو يحيى القراصنة العشرة :

- سوف احضر لكم مزيدا من البارود والطعام وحين هم بأن يقفز الى
ظهر السفينة ، تذكر ايقونة القديس نيكولاس ..

- يا الهى .. لقد نسيت القديس نيكولاس ..

ثم انطلق يعرج فوق الصخور .. وحمل الايقونة وغمرها فى الماء
لينعشها ، ثم قبل يدى القديس اللتين كانتا لاتزالان تقطرن بماء البحر
الملح وقال :

- لقد احسنت فى هذه الرحلة يا نيكولاس يا قائد .. حظا سعيدا ..
ولاتخيب رجاءنا فى رحلة العودة ، واقسم لك بالبحر اننى سوف امر بان
يصنعوا لك ايقونة جديدة فى جبل « أثوس » المقدس : بسر اويل قصيرة
وطربوش اسود وبمنظار مقرب فى يديك مثل « مياوليس » بطة البحر .. ان
مياوليس ونيكولاس واحد - ذلك هو الاضمن ..

• ثم قفز الى ظهر السفينة ، كانت السحب تتجمع فى السماء : والظلام
بدأ يلف الكون .. والنسمات تهب من البر .. والمد يرتفع .. والنقط الكابتن
ستيفانيس منظاره المقرب .. ورأى كل شئ على مايرام ، فرسم علامة
الصليب وقال :

- باسم الله .. ارفعوا الخطاف يا اولادى .. ايها القديس نيكولاس ..
لقد بدأنا الرحلة .. بعد ان اكل الشاب اليونانى وشرب ، استند الى الباب
واخذ الى النوم .. كان البحر الهائج قد قلب معدته فقد كانت تلك اول مرة
يهبط فيها جبال بيندوس ويسافر على ظهر سفينة ، ولقد ذابت شجاعته
البطولية عندما تلوث معطفه الطويل ، وحتى هذه اللحظة ، كان لايزال يحس
كما لو ان الارض تتأرجح تحت قدميه وكأنها ظهر تلك السفينة ، ولم يحس
بشئ من الراحة الا عندما شم رائحة روث الخيل .. وكان على الراعى
العجوز « شاريديموس » ان يأخذه فى الصباح الباكر الى قلعة الكابتن
ميخائيليس .. وهو الان يستسلم للنوم وقد احس بالامان ..

وعندما سمع الجد شخير الشاب اليونانى اشار الى « ثاراساكى »

وجلس معه تحت شجرة الليمون العجوز فى منتصف الفناء ، وكانت النسوة قد انهين الخبيز ودفن الى داخل البيت فساد السكنون الفناء ، واصبحت الفرصة مواتية لقراءة الخطاب ، وكان الجد يتوقع انباء سيئة ، لان حفيده « كوزماس » عوده الا يكتب اليه الا اذا كان ثمة شىء مهم .. واخرج الجد الخطاب وفتح المظروف وقال :

- هيا يا ثاراساكى اقراه ببطه ، كلمة .. كلمة ، حتى افهم ..

وكانت الكتابة واضحة .. وبدأ ثاراساكى يقرأ دون اضطراب او تعثر :

ايها الجد المعظم ، لقد عدت الى الأرض المقدسة ، وقد اصل قريبا الى كريت ، واقبل يدك الكريمتين ..

وغمغم العجوز وهو يهز لحيته الكثيفة البيضاء :

- انه يجيد المراهنة .. ولكن اى صنف من الرسائل هذه الرسالة ؟ انه لايبداها سائلا عن صحتنا .. حسن .. اكمل يا ثاراساكى ..

- ولكن ، قبل ان اسعد بهذا ، اجد نفسى مضطرا الى ان اكتب لك هذه الرسالة التى ارجو - بعد ان تقرأها مباشرة - ان تبعث بها الى عمى الكابتن ميخائيليس ، فقد سمعت انه رفع لواءه .. وانه عاد يحارب فى الجبال ضد الاتراك ، ولعله من المناسب ان يعرف كيف تجرى الامور حتى ينجلى كل شىء امامه .. وبعدها .. فليفعل مايلهمه الله به ..

- غزل طويل .. استمر .. ولكن ببطه يا ثاراساكى .. هذا كلام شاب طيب ..

- وهكذا .. فانه لا امل ينبغي ان نعول عليه بالنسبة لليونان ، انها هى ايضا ضعيفة .. بلد مسكين متسول بلا اسطول .. والاشد مرارة من ذلك - بلا ادنى دعم من الاقرنج . ان كريت لقمة طيبة .. والقوى العالمية يههما ان تبقى فى طبق السلطان ، فاذا دالت دولة هذا السلطان .. واصبحت تركته نهب التقسيم .. فان كل قوة من هذه القوى تأمل فى ان تكون كريت

من نصيبها .. وان لم يحدث ذلك .. وتوحدت كريت واليونان ، فانه لا الله
ولا الشيطان بقادريين على ان يفصلا بينهما مرة اخرى ..
وقال العجوز وهو يئن :

- اوه .. حفيدي هذا قد تعلم كثيرا .. استمر ..

- فلتدرك اذن .. ان كريت .. محكوم عليها بان تفشل هذه المرة ايضا ..
اننا نستطيع ان ننجح عن طريق شيء واحد فقط : ان نبدأ فى العمل على
ان يمنحنا السلطان مزيدا من الحقوق .. وقد يكون هذا مجرد عظمة ..
ولكنها على اية حال تحمل فوقها بعض اللحم .. فلنمضغها الان حتى تجيء
اللحظة المناسبة ..

- اه .. اصبحنا كلابا .. والناس يرمون الينا بالعظام .. استمر ..

- لقد تحدثت الى كثير من الرسميين سواء من الفرنجة او من اليونانيين
وسوف اذهب غدا الى اثينا لمقابلة بعض كبار الشخصيات ، واذا وجدت
ذلك ضروريا فسوف اגיע الى كريت لاساعد فى انقاذ مايمكن انقاذه ..
ولكننى اقولها : هذه المرة - من سوء الحظ - سوف يكون القلم ابعد تأثيرا
من السيف .. ان حملة السيوف قد ادوا واجبهم ومهدوا الطريق ، ولكنهم
لن يدركوا الهدف .. الان اذن يؤدى حملة القلم واجبهم - لا تغضب منى
ياجدى ..

وصاح الجد وهو يبصق :

- هؤلاء المتحذلقون الكتاب .. اصحاب العوينات والسراويل
« المحرقة » والقبعات والارداى المنتفخة والجوارب .. اف ..

ثم بصق مرة اخرى والتفت الى ثاراساكى .. وقال :

- انتهى ؟ .. ام ان هناك جديدا ؟

- جملة واحدة يا جدى : اننى اقبل يديك بوافر الاجلال والاحترام ..
وارجو ان تمنحنى بركائك .. حفيديك : كوزماس ..

واحنى الجد رأسه .. كان قلبه يضطرم غضبا .. واغلق عينيه .. ورأى امامه فى وسط الفناء .. كريت : حيرى دامية .. اهذه كريت حقا ؟ .. ام انها السيدة العذراء تخرج من صليب ابنها ؟ وتساقطت حبات مطر ثقيلة ..

واخيرا قال الجد :

- ثاراساكى .. ياصغيرى : لقد عرفت الان سرا ، وانت رجل .. فلا تفش هذا السر ..

- لا تقلق يا جدى .. لن يعرف به مخلوق سوانا نحن الاثنين - والثالث ابى ..

- والله رابعنا .. ذلك يكفى ..

وبينما كان الجد وحفيده يتبادلان الحديث ، ظهر « تيتيروس » عند المدخل وفى يده عصاه ، وفوق كتفه جوال .. وقد احمرت وجنتاه ، وكان الجد يجلس فوق جذور شجرة الليمون وقد بلله المطر وتآلقت حباته فوق لحيته .. وبدا هو الآخر كجذع شجرة عتيقة تتلقى رخات المطر دون أن تتحرك .. وكانت يداه النحيلتان تتألقان .. وظل لحظات لا يكاد يتعرف على ولده الذى اصبح اكثر قوة .. والذى كانت الشمس قد لوحته .. ولم يعد محنى الظهر ..

وسأله وهو يرفع رأسه ليرى جيدا :

- اهذا انت يا « ياناكوس » ؟ .. لقد تغيرت والحمد لله ، الم تعد تعمل مدرسا ؟ .. ادخل ..

وسأله المدرس فى بهجة :

- الا تعرفنى يا ابى ؟

- وكيف كان لى ان اعرفك ؟ .. انا ايضا حاولت جاهدا ان اتعلم حروف الهجاء اللعينة هذه .. ولكنها طريق صخرى .. عذاب .. تعثرت من حرف لآخر .. ولكن لى هدفا معينا .. هه .. كيف حالك انت ؟

وضحك « تيتيروس » وهو يجذب يد ابيه ويقبلها .. وقال مداعبا :
- ابنى .. لقد كان خطاك انت اننى اصبحت مدرسا .. هل تتذكر ؟
- بالطبع اتذكر .. ام انك تظن اننى قد خرفت ؟ انت لم تكن تصلح
لشئ اخر .. ولكنى اقول الحق .. لقد كنت مخطئا ..

ونظر العجوز الى « تيتيروس » يمينا ويسارا وقرصه فى ذراعه ..
وضغط على يده ، وازاح شفتيه عن اسنانه كما يفعلون بالماشية .. ليختبر
هذه الاسنان .. وسره ما رأى فقال :

- اقسم ان هذا الرجل قد بدأ يصبح شيئا يسعدنى ، لقد كنت ولدى
بالطبع ، وكنت شغوفاً بك .. ولكن كيف اشرح لك ؟ لم تكن تسعدنى .
كنت بالنسبة لى اشبه برغوة الصابون بكل هذا الانكباب على الكتب ..
وبانحناء ظهرك .. انت لم تكن تلائم اسرتنا .. ان ابائنا جميعا ارتدوا
سراويل واسعة وانتعلوا احذية برقبة .. وحملوا البنادق ، اما انت فكنت
ترتدى ثيابا على الطريقة الافرنجية وتضع العوينات فوق انفك وتحمل القلم
« هذا الدم - كما ارى بدأ يذهب الى الشيطان .. انت بدأت تعود الان الى
طبيعة الرجل الحق ، واحمد الله على ذلك .. ولن اكون « سيفاكاس » حقا
اذا انا لم اعطك سراويل فضفاضة وحذاء برقبة وان لم اعلق على كتفك
بندقية .. هل سمعت ماقلت ؟ .. لماذا تضحك ؟

- هل انت نبي يا ابنى ؟ هل تقرأ ما برأسى ؟ .. هذا هو بالضبط اجئت من
اجله اليوم .. واقسم لك .. فلا بد ان تكون لديك حلة بين ثيابك انت او ثياب
واحد من ابنائك الذين قتلوا ، ولا بد ان فى مخازنك بندقية .. وسوف نحرق
الملابس الافرنجية هنا فى الغناء - سويا ، تماما كما احرقوا يهوذا ،
وسوف ارتدى كما يرتدى الكريتيون ، ثم احمل البندقية على كاهلى
وامضى الى الجبال ، ان لى انا الاخر هدفا اريد تحقيقه ..

وشد الرجل العجوز على ولده ، وضمه الى صدره وهو يقول :

- انى اباركك .. وسوف اذبح اليوم عنزة على شرفك .. ثم نحتفل فى

المساء .. كنت اظن اننى فقدتك .. مرحبا يا ناكوس .

ونسى العجوز احزانه من خطاب حفيده ، وبدأ يفتح صناديقه القديمة ..
واخرج اجمل حلة فيها : سترة مطرزة ، وسروالا فضفاضا من الصوف
الثقيل .. وحزاما من التيل المطرز بالحريير ، وطربوشا تونسيا .. واختار
حذاء برقبة من المقاس الصغير ، ثم اخرج بندقية من المخزن .. ووضع
ذلك كله فوق احد الصناديق كيما يخرج بها ولده فى اليوم التالى وكأنه
عريس فى ليلة زفافه .

وعمت البهجة البيت ، ذلك ان اشاعة كانت قد سرت مفادها ان المدرس
قد وقع فى قبضة الاتراك بسبب تجواله بين القرى ، وانهم مزقوه مثل حمل
عيد الفصح .. وهاهوذا سليم معافى يمزق مع ابيه عزة صغيرة ، ويشرب
النبيذ من الابريق .. والى جوارهما يقف « ثاراساكى » وهو يحس بانه
صغير .. صغير .. انه لا يكاد يقدر على مشاركتها الطعام .. وهو يكتفى بان
ينظر فى دهشة الى المدرس .. اهذا هو نفس الرجل الذى كانوا يطلقون
الرصاص تحت قدميه فيسقط على الارض وتتحطم عويناته .. اهذا هو
نفس الرجل الذى كانوا يطلقون عليه فأرا فيجعله يرتعش ؟

وقال الجد :

- اخرج يا ثاراساكى .. الى النوم .. هناك امور احب ان اقولها لعمك ..
ثم .. حذار ان تناديه بـ « مدرس » مرة اخرى .. هل تفهم ؟ هو الان ،
ودائما : عمك يا ناكوس ..

وعندما اصبحا وحدهما .. وجلسا على الاريكة المنخفضة ، سألته :

- ما هى الحقيقة وراء هذا الذى فعلته زوجتك ؟ لماذا اشنقت نفسها ؟
هل تستطيع ان تفسر الامر ؟ لقد سألت الاخوين ، ولكن احدا لم يقنعنى ..

- يرحمها الله ، كانت المسكينة مريضة بالخوف .. وهربت ..

- لقد احسنت صنعا ، ان الامر يحتاج الى شجاعة ، ثم انها كانت تهرب

منك انت ايضا .. ولاشك ، والان ما الذى تنوى ان تفعله ؟ ان تتزوج مرة ثانية ؟ ان تنجب لى حفيدا صغيرا ؟ اخر احفادى ؟ لابد ان تتعجل ذلك فان ايامى فى هذه الحياة معدودة ..

واشرق وجه المدرس وهو يقول :

- اى معجزة يا ابى .. كلما اقتربت من الموت اصبحت اقرب الى الخلود ، نعم ، فانت قد اكتشفت الهدف الثانى الذى جاء به الى هنا ..

- حسن .. فقل لى اذن يا ناكوس .. هل ثمة فتاة قد سحرت عينيك ؟ ..

- نعم يا ابى ، ارجو ان تباركنى ..

- من تكون بحق القديس اونوفريوس ؟ هل هى ممتازة ؟ عظام قوية .. واردا ف عريضة وعائلة طيبة تملك الكروم والحقول ؟ هل اسنانها كاملة .. اثنتان وثلاثون ؟

- انها ممتازة .. واسنانها كاملة .. بل اكثر من اثنتين وثلاثين ..

- لا .. ليس اكثر .. فذلك ليس امرا طيبا .. لانها .. هكذا يمكن ان تتركبك .. ان الشئ غير الطبيعى .. هو ضد ارادة الله ، اثنتان وثلاثون فكفى .. ولكن من تكون ؟ من يكون ابوها ؟

- انها حفيدة الكابتن « الياس » واسمها « بيلاجا » .. وقد جئت اسالك البركة ..

- اه .. برافو .. ياناكوس .. انى اباركك فذلك فرع مثمر بالاولاد والاحفاد والكروم والحقول .. وهل رضيت بك ؟

- لقد رضيت .. وقد حدثت اباها فقال لها : سوف نسأل الرجل العجوز .. انه كبيرنا ، ثم سألوه .. وقد نظر اليهم الكابتن « الياس » فى البداية نظرة حادة وقال « مدرس .. اننى اعرفه هذا المهزول الضعيف .. ان عائلته طيبة تماما .. مثمرة .. بالاولاد والاحفاد والحقول » - ان ماتقوله

عن العائلة صحيح - حسن دعوني افكر فى الامر ولكن الفتاة كانت تتعجل فتحدثت فى رقة وكسبت الجد الى جانب زواجنا فقال : حسن .. انى اباركك ، لكن بشرط واحد .. وانا اصر عليه كل الاصرار : لابد ان يخلع هذا الثوب الافرنجى ويرتدى مثلما يرتدى الرجال ..

وصفق سيفاكاس العجوز وهو يقول :

- رعاك الله ايها العجوز الياس .. لقد كان الامر نفسه يقلقنى ، ولكننى لم اقل شيئا . اما الان .. فالى النار هذه الثياب ، ذلك اول شىء نفعله غدا ..

ونام المدرس نوما عميقا بالقرب من الصندوق الذى تعلوه ثياب العرس .. وزارته « بيلاجا » فى احلامه فود لو ظل نائما ، ولكن الجد لم يغمض له جفن ، وظل يراقب النافذة ويتربص ضوء الفجر نافذ الصبر .. حتى ارسل الله للغسق وصاح الديك الاسود .. ثم تلاه الديك الابيض .. وبدأ النهار ، وقفز العجوز ، ووكز « تيتيروس » وهو يصيح :

- قم .. الثياب فوق الصندوق .. عسى ان تمنحك السعادة .. وهات تلك الثياب الافرنجية الى الفناء فسوف اشعل النار .

كان يكره الفرنجة .. وبعد رسالة حفيده اليه ، اصبحت الكراهية اشد ، وهبط الدرج ، ولم تكن النساء قد استيقظن بعد ، واشعل النار ، ثم ذهب ليوقظ « ثاراساكى » وكان ينام داخل حوض كبير اشبه بالمهد ، وهزه ليوقظه :

- انهض يا ثاراساكى ، تعال الى الفناء فسوف نحرق يهوذا .

وظهر المدرس : كريتيّا من أخمص قدمه الى قمة رأسه وسط الفناء ، وصبوا فوقها البترول حتى يتخطفها الشيطان بسرعة ، وقدم الجد الى حفيده قطعة من الخشب المشتعل وهو يقول :

- هبا يا ولدى .. ابعث بها الى الشيطان .. الفرنجة احرقونا .. فلتكن اذن النار بالنار .. والريح بالريح ..

وامسك « ثاراساكى » بقطعة الخشب المشتعلة والقى بها فوق كومة
التياب ، فاشتعلت النار على الفور ، وود الجد لحظتها ان يرقص ، وحينما
أدت النار عملها ، امسك بقبضة من الرماد ، وفتح الباب الخارجى .. ووقف
فى وسط الشارع .. ورفع يده مطوحا بالرماد فى الهواء .. وصاح فى
احتقار بالغ :

- ايها الفرنجة .. ادعوا الله ان تعيش عيون اولادى او اولاد اولادى
لترى اليوم التى تحترق فيه بيوتكم ومصانعكم وملوككم وقصوركم ..
وتذروها الرياح مثل هذا الرماد عسى ان تحترقوا ايها الفرنجة .. كما
احرقتمونا ..

قرب الظهيرة ، وصل ميتروس الرجل ذو المعطف الطويل الى مقر قيادة
الكابتن ميخائيليس ، وقد تصبب عرقا من تسلق الجبل ، وعلى قمة اعلى
هضبة فى الجبل ثمة قرابة المائة محارب يتجمعون فى بضعة اكواخ من
الحجارة .. واسفل منهم بعيدا فى الوادى المحفوف بالجبال .. كانت القرى
تبدو وكأنها قطعان من الخراف البيضاء ، وكان ثمة اثنتان منها تحترقان ،
والدخان يغطيها وسط السكون وكأنه سحبات صديقة تبسط عليهما
الحماية ..

وكان الكابتن « ميخائيليس » يقف ممسكا بمنظار ميدان اعطاه اياه احد
الفرنجة المتعاطفين مع اليونانيين .. كان قد صعد الجبل قبل شهر ولم
يطاوعه قلبه بعد ذلك على مغادرته ، وقال للكابتن ميخائيليس : « والى اين
اذهب ؟ لماذا اعود الى المدن مرة اخرى ؟ اننى احببت هذا المكان .. لقد
اكلت فيه طعاما افضل .. وشربت ماء خالدا .. ورأيت رجالا كهؤلاء
اليونانيين القدماء .. انا لن ادعوك بالكابتن ميخائيليس ، ولكننى
سأسميك .. اخيل .. وانا ادعى ايريكوس .. وكان يضع فوق رأسه قبعة
تشبه خوذة من الخوذات القديمة .. ويملا جيوبه بالاوراق والاقلام ، ويشير
النقاش والحوار مع الكريتيين برطانتة اليونانية الحديثة .. ويدون
الملاحظات طوال الوقت .. وكان الكريتيون يضحكون ويقول قائلهم : انه
فسار ويقول اخر انه يكتب للصحف .. ويسألونه : انت يا مدنى .. ماذا

تراك تفعل فى كريت بدون سلاح ؟ اين بندقيتك ؟ .. وكان هو يشير الى قلمه ويقول : هامى ..

وكانت لحيته شقراء مدببة ، واثنان من اسنانه الامامية من الذهب ووجنتاه موردتين ، وثمة ذؤابة نافرة من شعره مثل عرف الديك وعندما كان الكريتيون يسمعون اسمه - اريكوس - كانوا يتذكرون الذؤابة من الشعر فيقلبون اسمه الى كوكوريكوس ..

وفى يوم من الايام خاض فرسان الكابتن ميخائيليس معركة مع بعض الجنود الاتراك .. وهبط هو معهم الى السهل بدون سلاح .. وهو يصيح مشجعا .. الى الامام يا اخيل .. وظل واقفا طوال الوقت يكتب ملاحظاته فى انفعال .. وفجأة اندفع نحوه كريتى متوحش كان شديد الاعجاب به ، وهو يحمل رأس تركى يمسك به من شعره ويقدمه هدية له .. وكانت الدماء لاتزال تنزف من الرأس .. وما ان نظر كوكوريكوس الى الرأس حتى صرخ صرخة عالية وارتمى على الارض مغشيا عليه .. وضحك الكريتيون ياله من رجل محشوقطنا ، ثم ألقوا ماء فوق وجهه ليفيق من اغمائه ، وعندما رأى الكابتن ميخائيليس ذلك المشهد ، صاح فى غضب هل تظنون ان الرجال كلهم كريتيون ؟ كفوا ، ثم استدار الى فوروجاتوس وقال : خذ هذا المسكين تحت الحراسة وعاونه على تسلق الجبل ..

واصاب الحمى كوكوريكوس منذ ذلك اليوم ، وشحب لونه .. ولم يعد يستطيع تذوق اللحم وبدأت تراوده الاحلام المزعجة .. وبدأت الحياة مع اليونانيين القدامى .. قاسية بالنسبة اليه ، فقرر ان يعود ادراجه .. وفى صباح يوم شاحب ممطر ، ودع الكابتن ميخائيليس :

هؤلاء اليونانيون القدامى .. رائعون حقا يا كابتن اخيل ، ولكن من العسير ان يحيا المرء حياتهم ، اننى استاذ - مدرس - رجل طيب ، ولكنه من ورق .. اما انتم فمن لحم ودم ، وليس فى مقدورى ان اجاريكم ، الى اللقاء ، وخذ هذه لتتذكرنى ..

ورفع المنظار من حول عنقه واعطاه للكابتن ميخائيليس وهو يقول :

- انت فارس ، وانت القائد .. ويجب ان ترى ابعد مما يراه فرسانك ..

وهكذا .. يقف الكابتن ميخائيليس ممسكا بالمنظار يفحص السهل ، وبدأ كما لو كانت هناك تحركات لطرابيش حمراء خلف سحببات الدخان فوق القرى المحترقة .. لابد ان فصائل تركية جديدة قد جاءت من ميجالو كاسترو ، ولابد انها تهيبء نفسها الان لمهاجمة المرتفعات .. وغمغم الكابتن : هؤلاء الكلاب لا يضيعون الوقت .. ان موقعنا محدود ، وعددنا قليل ، ومازلنا ننتظر الكابتن بوليكسيجيس .. لابد ان ابعث اليه برسالة جديدة ..

وعندما انزل المنظار ، وأوشك ان يسأل عما اذا كان فيندوسوس قد عاد من الشاطئ وقع بصره على ميتروس يرتدى الفوستانيللا ويحيى .. وفى يده الرسالة :

- تحياتى يا كابتن .. انا رسول من طرف سفينة الكابتن ستيفانيس ..

وقال الكابتن ميخائيليس وهو يشد على يده محبياً :

مرحباً بك ، اذهب وانضم الى الفرسان ريثما اقرأ الرسالة ..

ثم مزق المظروف فى لهفة ، ووجد بداخله رسالة مفتوحة وقطعة صغيرة من الورق تعرف فيها على خط ابنه « ثاراساكى » فاضاء وجهه الجامد للحظة :

انا - ثاراساكى - ابعث بتحياتى ، واكتب ايضا ما طلب جدى ان انقله اليك ، اقرأ الرسالة وافعل ما يلهمك به الله ان تقعه .. ليس هناك ثمة امل لنا ، فنحن فى هذه المرة ايضا نحرث فى البحر ، فاجعل قلبك دليلك .. ولتخذ انت قرارك ..

وزوى ما بين حاجبيه .. وشد شفته السفلى حتى بدت نواجز الدب ، ودمدم قائلاً لنفسه : الله يمنع ، يجب ان اجعل قلبى دليلى ، لسوف ينفجر العالم ويتطاير الى السماء ..

ثم فض رسالة ابن اخيه ، وبدأ يقرأها مقطعا مقطعا .. ويقفز من كلمة الى كلمة وكأنه يتسلق جبلا .. ويتمهل مرة .. ويدمدم اخرى ، حتى اذا وصل الى نهايتها ، مرقها الى الف قطعة واشعل فيها النار ، وقال وهو يوطأ الرماد بقدمه :

- انا وحدي الذى ينبغى ان يعلم بمضمونها .. ولا احد غيرى ..

لا امل انن .. الوطن الام ضعيف ، والفرجة غدارون .. وابناء كريت قليلون .. كلا وبرغم كل شىء ، فلن اتزحزح عن موقعى ، لن اتخلى عن المكان الذى انسحبت اليه .. انه لايكفى ان يتخلى الله عنى ثم يأمرنى بان اتخلى .. ابدا .. لن اتخلى ..

ثم امسك بالمنظار مرة اخرى ونظر من خلاله ورأى مزيدا من النقاط الحمراء تتحرك عبر السهل .. ورأى مزيدا من فصائل الجند تملأ الوديان الضيقة .. كان الباشا قد اقسم ان يسحق عصاة الكابتن ميخائيليس فى ذات وكر النسر الذى تشبثت فيه بمخالبها ، وكان الكريتيون المرهقون الجرحى يخلدون الى السكينة شيئا فشيئا الا من طلقات متناثرة تسمع هنا وهناك والا من افراد ركبوا رءوسهم واعتصموا بالجبال ورفضوا الاخلاص للطاعة ، وكان السلطان غاضبا : وارسل الى الباشا سفينة محملة بالقيود والسلاسل وامره بان يقبض على هؤلاء الكريتيين ويرسلهم فى الاغلال الى القسطنطينية .. فاذا لم يفعل ، فعليه ان يقيد نفسه هو ويحضر اليه بشخصه ..

واثار الامر الدماء فى عروق الباشا ، واحس بان قبعته لم تعد ثابتة فوق رأسه ، فقرر ان يتخلى الى حين عن حياته المطمئنة فى ميجالوكاسترو وان يخرج بنفسه على رأس جنوده فى طلب الكابتن ميخائيليس .. وتناهد الاخبار الى المطران ، فبعث برسالة سرية الى الكابتن .. اهرب .. استقل سفينة واهرب .. ان الباشا قد اقسم على ان يمالك .. ولكن الكابتن ميخائيليس قال فى تحد لن اهرب ، ان هناك ذنبا ثقيلا حول عنقى ، هناك دير قد احترق ويحرق قلبى ليل نهار ، ولا بد ان ادفع الثمن ولن اغادر هذا المكان حتى لو غادره الجميع ، وافضل لى ان اسكب البترول فوق ثيابى فاحترق كما احترقت انت يا دير السيد المسيح ..

ظل يمسح السهل بمنظاره ، ويرى مزيدا من القرى تحترق ، فعاد يغمغم : لقد اخر الكابتن بوليكسيجيس .. ولكنه سوف يأتى .. لقد وعد بان يأتى .. انها الحرب .. وانا اثق فى الحرب ..

كان يحس بان الصداقة القديمة تعود منذ تلك اللحظة الرهيبة التى غرس فيها خنجره فى قلب المرأة الشركسية ، وبأنه اصبح يفكر فى الكابتن بوليكسيجيس بلا شعور بالعداء .. وانما بالود .. كانت اصداء ماحدث تملأ القرى .. ولقد منعه الاصدقاء من ان يقتل نفسه حزنا ، وكان قد ارتدى السواد من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، وحيثما كان قتال ، فقد كان يقذف بنفسه فوق الاتراك فى اندفاع اعمى وكأنه يطلب الموت .. كان مقتنعا بان الاتراك هم الذين قتلوها ليمنعوها من التنصر ، واقسم ان يبنى فوق قبرها برجاً من جثثهم .

وفجأة ، تناهت الى الكابتن ميخايليس اصوات .. ووقع حوافر بغال .. وبدأ يقفز فى سعادة من صخرة الى صخرة حتى وصل الى الهضبة فى اللحظة التى وصل فيها فيندوسوس اليها ومعه الفرسان العشرة المتقلون باحمالهم واشعل بعضهم النار على الفور .. فقد امضوا اياما بطولها بالخبز الجاف وحده واشتاقوا الى اللحم الساخن ، وانبرى البعض الاخر يحملون المؤن وينقلونها الى كوخ قائدهم ، وصاح فيندوسوس وهو يطلق غدارته فى الهواء : شكرا لك يا امنا .. شكرا لامنا المتسولة التى ترسل الطعام وهى ذاتها جائعة ..

وصاح الكابتن :

- فيندوسوس ، لاتضيع الطلقات سدى ، تعال هنا ، اريد ان تفعل شيئاً ..

واتجه اليه عازف القيثارة ، وانصت فى اهتمام الى كل ما قاله ، ثم تهيأ لتنفيذ ما طلبه منه ..

- هل فهمت يا فيندوسوس ؟ الامر كما ترى عاجل ، وخذ حذرك حتى لا يقتلوك وانت فى طريقك الى هناك .. اما فى طريق عودتك فالامر لايهم ..

وقال فيندوسوس ضاحكا :

- لن امتحك هذه السعادة يا كابتن .. ولو حتى فى طريق عودتى .. وبحق

العذراء .. وبحق الكروم .. لاتزال بى رغبة فى الشراب .. ولسوف
اشرب ..

ثم يمم شطر الوادى ، ولكن فوروجاتوس امسك به من سرواله حين مر به
وصاح :

- فيندوسوس يا اذى ، هل رأيت صديقى بيتروودولوس ؟ ماذا يفعل
المسكين الان ؟ اتصدق اننى افكر فيه اكثر مما افكر فى زوجتى ؟ شىء
عجيب .. اليس كذلك ..

- انه بخير ، فلا تقلق ، لقد رأيته عند سيفاكاس العجوز ، انه باق مع
النساء ، وسوف يرتدى جونلة عن قريب ..

- وماذا عن صحبة الشراب فى قبو بيت الكابتن ميخائيليس يا
فيندوسوس ؟ او احلم بهم فحسب ؟

ولكن فيندوسوس كان قد ابتعد .. ولم يسمعه ..

امسك سيفاكاس العجوز بالطباشير باقصى قدر مستطاع من الرقة حتى
لاينكسر ، وقد انحنى فوق اللوح .. وهو يخط الحروف فى لهفة وقلق ..
حرفا بعد حرف .. كان يحس فى الايام القليلة الماضية بضعف غريب ،
وكأن قواه قد بدأت تخور .. وكأنما يقترب حثيثا من الارض .. كان لون
وجهه قد شحب ، ولم يعد يستطيع النوم .. وبدأت ركبتاه ترتعشان .. وبدأ
يقول لنفسه :

ينبغى ان اسرع اذا كنت اريد حقا ان اتعلم .. واخذ يبذل جهدا فائقا
ليحرك يده فوق اللوح .. واستطاع - بالرغم من كل شىء - ان يكتب حروفا
واضحة .. وكان يقول لمدرسه ثاراساكى الذى كان يستحثه :

لا تهمنى الحروف الصغيرة .. استطيع ان اكتب حروفا كبيرة ..

وجلس الاثنان الى مدخل البيت ، وقال العجوز :

- اليوم يا ثاراساكى .. لن تعنفنى : ان الدرس اصبح ملك اصابعى ..

انظر ..

وملأ اللوح بالحروف .. وقال فى فخر :

- كل حروف الهجاء .. من الالف الى الياء ..

- مرحى .. مرحى يا جدى .. اليوم تحصل على الدرجة النهائية .. كيف استطعت ان تفعل هذا فجأة ؟

- لان الوقت يمر بسرعة يا ثاراساكى وكان لابد ان افعل .. لقد حان الوقت يا ثاراساكى اسمع .. سوف احكى لك سرى .. هل تظن اننى اريد ان اتعلم وانا فى هذه السن .. لكى اقرأ؟ .. ولماذا اقرأ .. لماذا ، وقد بلغت من العمر مائة عام ؟ اننى عرف كل شىء .. ولا اعرف شيئا ..

- فماذا تريد اذن يا جدى ؟

- اريد ان اكتب شيئا واحدا فحسب .. قبل ان أموت .

- وما هو هذا الشىء يا جدى ؟

- حكمة كريمية ، ضع يدك فوق يدي لتساعدنى .. ثلاث كلمات فحسب ..

ثم همس قائلا : الحرية او الموت ..

وصاح ثاراساكى :

- مرحى .. الان فهمت ..

- انت لم تفهم بعد يا ثاراساكى ، لا تكن عجولا .. ساعدنى ..

وامسك الطفل بكلتا يديه .. يد الجد المعروقة ، وبدأ يعاونه فى بط وصبر .. حتى ظهرت على اللوح بحروف كبيرة .. كلمات :

الحرية .. او الموت ..

● الفصل الثانى عشر

كانت الريح الباردة تهب من قمم الجبال التى كستها الثلوج ، وتجمدت كريت ، وعلى صخور « سيلينا » اسفل معسكر الكابتن « ميخائيليس » كان ثمة كهف كبير فاض على سعته بالنساء والاطفال ، كان الملجأ المعتاد لنساء كريت فى كل الثورات السابقة ، يحتمين به من خناجر الاتراك . وقد لجأ الاتراك اثناء ثورة ١٩١٢ الى قذف فتحته بالاغصان المحترقة حتى اختنق كل من كانوا بداخله وظلت عظامهم تلمح داخل جو الكهف الرهيب .. وبالرغم من ذلك فان النساء والاطفال يملئون الان ذات الكهف ويتمددون فوق العظام القديمة وهم يرتعشون من الجوع ومن البرد ومن خوف القتل على ايدي الاتراك فتترك عظامهم بداخله من جديد ، وكانوا يتسللون خارج الكهف خلال النهار ليجمعوا قبضة من الحشائش او الجذور او ثمار البلوط يعيشون عليها كالسوائم ولا يكفون عن النظر الى اعلى حيث بنى الكابتن « ميخائيليس » عشة حتى يمنحوا انفسهم بعض الشجاعة : فطالما انه باقى هناك يقاوم ، فهم لا يحسون بالخوف .

وكان الجنود الاتراك قد بدؤوا يصعدون الجبل حتى اقتربوا من المجرى الضيق الذى يؤدى الى الكهف ، وانتبه الكابتن « ميخائيليس » على صراخ النساء والاطفال وعويلهم فاندفع يهبط من وكرة ، ونشبت معركة مريرة ، ووجدت بعض النساء الجرأة على ان يندفعن ليساعدن الرجال بالمدى والهراوات بينما ركع الباقون داخل الكهف .. ينتحبون ويعولون ويجأرن الى الله بالضراعة .

كان الاتراك يفوقونهم عددا ويتوالى وصولهم من السهل يوما بعد يوم تدفعهم اوامر الباشا المشاغب الذى اقسم ان يبعث برأس الكابتن

« ميخائيليس » هدية الى السلطان فى القسطنطينية محنطا وملفوقا بعمامة .
وبدا الكريتيون يترنحون .. وكانت الساعة قد اقتربت من الثانية بعد
الظهر .. واطلق الاتراك صيحات الفرح التى غطت على اصوات عويل
النساء .

وفجأة تدخل الله : ظهر الكابتن « بوليكسيجيس » هو ورجاله عند مؤخرة
الاتراك واحداثوا الارتباك والفوضى وسط الطرابيش الحمراء التى كان
بعضها قد بدأ يهرب متجها الى السهل .

واخذ القائدان يصطادان الاعداء معا على ظهر فرسيهما وهما جريحان
- وان لم يفتنا الى ذلك وسط المذبحة - وفى المساء ، عاد الاثنان الى
قلعتهم وضمدت جراحهما الطفيفة ، وكانا لحظتها يحسان بقسوة الجوع
اكثر مما يحسان بوطأة الجراح .. وفتح الفارسان الكنز الذى وصل الى
الفرسان مؤخرا صدقة من الله سبحانه : الخبز والزيتون والبصل و
الجبن .

وجلس الفارسان القرفصاء جنبا الى جنب يحتفلان داخل الكوخ
الصخرى الذى ارتفعت فوقه راية الكابتن « ميخائيليس » بينما الريح تصفر
من خلال الثقوب فى الحوائط غير المنظمة .. ودخل « ثودورس » وبين يديه
حمل من خشب الحريق ، فقد احس بالاسى للرجلين الجريحين
المقرورين ، فأوقد من اجلهما نارا ثم خرج وتركهما ، والتقطت اذنه بعض
كلمات تحمل من المعانى الكثير ، فادرك انهما لا يريدان الان احدا يقترب
من المكان .

قال الكابتن « ميخائيليس » :

- بوركت ياكابتن « بوليكسيجيس » ، ان الله ارسلك فى الوقت
المناسب ، فقد كان هؤلاء الكلاب يوشكون على ان يطبقوا على اعناقنا .

وكان اثناء حديثه معه ينظر اليه فى اشفاق وتأثر وهو يرتدى ثيابا سوداء
ويضع حول راسه عصاة سوداء كذلك ، ويبدو شاحب الوجه قد أسن فجأة
، كان يأكل ولكن افكاره كانت تحوم بعيدا .

وقال الكابتن « ميخائيليس » وهو يرفع الى قمه زجاجة :

- فى صحتك انت ياكابتن « ميخائيليس » ..

- فى صحتك انت ياكابتن « ميخائيليس » .. أما انا فقد انتهت صحتى .

واحس الكابتن ميخائيليس بقلبه ينقبض : لا من اجل المرأة التى قتلها ، فقد كان لابد من قتلها حتى لاتفرق بين الرجلين .. ولقد هدا قلبه من الليلة التى ارتكب فيها جريمته ، ولم يعد يحس بالمهانة وهو منفرد بنفسه ، لقد تحررت روحه من الشركسية ، واصبح يحارب الان ولاشئ فى عقله وقلبه غير كريت ولكنه كان حزينا من اجل هذا الفارس الطيب فحسب والذى كان يذوب اسى لانه فقد المرأة التى احبها .

ويدأ يتكلم :

- « بوليكسيجيس » لدى شئ اريد ان اقوله لك ، واغفرلى اذا قلت لك انه من العار ان يفكر المرء فى امرأة بينما كريت تسبح فى دمائها . واقول لك - بشرفى - انه لوحدث ان وقفت امرأة فى طريق ادائى لواجبى ، لقتلتها بيدي هاتين .

ورفع يده التى قتلت المرأة الشركسية ..

واجاب « بوليكسيجيس » وهو يلقى بقطعة من الخبز كان يمسك بها فى يده :

- كابتن « ميخائيليس » .. انت وحش مفترس ، ولكننى انسان ..

واحس لحظتها كأنما انشودة قد علقت بحلقة ، ثم استدار ينظر الى صديقه وهو يحس بلذعة برد مفاجئة .

واقترب الكابتن « ميخائيليس » بدوره من النار ، وظل الاثنان لحظات يتحدثان فى اللعب صامتين ، وعاد « تودورس » مرة اخرى ليضع مزيدا من الخشب ، وحين رأى الفارسين غارقين فى افكارهما ، خرج وهو يسير على اطراف اصابعه ..

وفجأة ارتفع صوت الكابتن « ميخائيليس » اجوف مختنقا ، يسأل ..
كأنما من مكان سحق :
٤٣٨

- هل تعرف من الذى قتلها ؟

كان يحس بانه مدفوع بالرغم منه رغبة عارمة فى ان يقامر على كل شىء .. برمية زهر واحدة او بقطعة من النقود : رسم ام كتابة .

وظل الكابتن « بوليكسيجيس » يحدق فيه طويلا ، فلم يجد القوة فى نفسه على ان يسأله : « من » ؟ .. فانتظر .

وعاد « ميخائيليس » يسأل :

- هل تعرف من الذى قتلها ؟

- وهل تعرف « انت » ؟

- نعم ..

وامسك الكابتن « بوليكسيجيس » به من ذراعه :

- من ؟

- لا تتعجل . لاتثر هكذا فانت لا تستطيع ان تمس منه شعرة . انه فوق الموت ..

- من ؟

- قلت لا تتعجل .. ينبغي اولا ان افشى لك سرا - سرا بالغ المرارة .. فاستمع الى فى هدوء وبعدها - واقسم لك - سوف تحس بالخجل ولن تفكر مرة اخرى فى النساء او فى قتلهن .. وحتى فى نفسك انت .

وقال الاخر وعينه تتقدان :

- من ؟

- لقد تلقيت خطابا - مزقته فى حينه واحرقته - من ابن اخى « كوزماس » - ان مايفعله الان ياكابتن « بوليكسيجيس » يضيع مرة اخرى هباء . وسوف تراق دماؤنا هذرا هذه المرة ايضا . لن ترى كريت الحرية ،

ان اليونان ضعيفة والفرنجة لا شرف لهم ، والسلطان يملك كل القوة .
ولكن الكابتن « بوليكيسيجيس » لم يكن ينصت اليه : نهض واقفا وهو يضرب رأسه بالحائط ويصرخ :

- من الذى قتلها ؟ من ؟ وبعدها قل ماتشاء .

ونهض الكابتن « ميخايليس » بدوره واقفا ونظر الى صاحبه نظرة هادئة ثابتة ، وقال :

- انا .. انا قتلتها ياكابتن « بوليكيسيجيس » وابستند « بوليكيسيجيس » الى الحائط وقد اقترن حاجباه ، وقال :

- لا .. لا .. ذلك مستحيل .. انت ؟ .. انت ؟ ..

- كان لابد من ان اقتلها .. لقد كنت افكر فى كريت أنت محارب فذ .
وتحتاج اليك .. من اجل هذا قتلتها وارتاح قلبى ولسوف يرتاح قلبك انت
الاخر .. لا تتحسس خنجرك ، واذا شئت اغلقنا الباب واطفانا المصباح
وتقاتلنا هنا حتى يقتل كل منا الاخر . ولكن ، فكر فى النساء والاطفال الذين
يحتمون بالكهف ، ان حياتهم امانة بين ايدينا ، وفكر ايضا فى اسلافنا ..
فكر فى كريت .. ثم افعل بعد ذلك ما بدا لك ..

وترنح الكابتن « بوليكيسيجيس » وهو فوق الارض ودفن وجهه بين يديه
واخذ صدره يعلو ويهبط فى عنف ، ولم يعد بوسعه ان يكتم دموعه اكثر مما
فعل .

وعاد الكابتن « ميخايليس » يتكلم دون ان يهتم بدموع صديقه :

- حين قرأت انه لا فائدة وراء مانفعله احسست كأن شيطاننا ينهض
بداخلى .. وبدلا من ان اترك له العنان ليضغط على ، احسست بشجاعة
وحشية غير مألوفة . ذلك اذن موقفك ايها القوى الكبرى - انت ترفضين
ان تمنحى الحرية لكريت : العارك .. ولكنى - انا الكابتن « ميخايليس » -
انا القنفذ الكريتى الصغير لست فى حاجة اليك .. وليتخل الله ذاته عن

كريت اذا شاء سبحانه ولكننى لن اتخلى عنها .

ولمس فى هدوء كتف الكابتن « بوليكسيجيس » وقال فى رقة :

- يا كابتن .. الا تخجل من نفسك ؟

وكان الاخر قد سيطر على دموعه ، وبدأت كلمات القاتل تنفذ اليه .

- منذ اللحظة التى فقدت فيها الامل ياكابتن « بوليكسيجيس » احسست - بحق هذه التربة التى نقف فوقها - اننى خالد : من ذا الذى يستطيع ان يمسنى بسوء ؟ ما الذى يستطيع الموت ان يفعله بى ؟ حتى لو انقض على الترك جميعا بقضهم وقضيضهم فلن ترتعش شحمة اذنى ، انى ارى نفسى الان مثل « اركادى » ان ثيابى وشعرى واحشائى اصبحت كلها مليئة بالبارود ، وحين ارى انه ليس ثمة ما افعله غير ذلك ، فسوف انسف نفسى لاتطائر ، عاليا فى السماء ، هل تفهمنى ؟

وكانت تلك هى الحقيقة - لم يكن بداخله الان مكان لغير الكبرياء وازدراء الخطر .. اكان ذلك شيطاننا ، ام الها ، ام كان فكرة وحشية من قبل التاريخ ؟

هو ذاته لايعرف ، كل ماكان يعرفه بوضوح : انه مهما حدث ، فلن يلعن حظه او يندبه ، وانه مهما حدث ايضا فلن يتفق لا مع الشيطان ولا مع الله ولا مع السلطان .. لسوف ينسف نفسه ليتطائر جسده عاليا فى السماء .. مثل « اركادى »

ووقف الكابتن « بوليكسيجيس » وجذب عصابة الرأس فى عنف وقال وهو يحدق فى الفراغ :

- لا استطيع ان انام معك فى نفس المكان ياكابتن « ميخائيليس » ولا اريد ايضا ان يقتل كل منا الاخر طالما ان بلدنا تحارب ولن اتخلى عنك ساعة الخطر ، ولكننا سوف نصلى حسابنا بعد ان يسود السلام كريت .. فانت احرقت قلبى ياكابتن « ميخائيليس ».

ودون ان يرمقه بنظرة ، خرج من الكوخ ، ترى ، ما الذى حدث
للمسيحيين هناك فى اعلى الجبل ؟ صعدت النسوة الى السطح المستوى
لينزلن اثقال الجليد الخطر الذى تجمع فوقه ، واخذن يحدقن فى الجبل ..
يارب .. ترى ما الذى يحدث الان هناك ؟ .. ومدت « كاتيرينا » هى الاخرى
بصرها الى القمم المكسوة بالجليد وهى تفكر فى زوجها الذى لا يعرف
الخوف ..

ولكن الشمس كانت ساطعة فى ذلك اليوم .. وكانت السماء بالغة الزرقة
والهواء باردا .. وكان الجد يجلس داخل البيت امام الموقد وهو يحدق فى
اللهب فى صمت .. كان قد امتنع عن الكلام طيلة بضعة ايام : انه يزداد
شحوبا يوما بعد يوم .. ويظل غارقا فى افكاره القاتمة ..

وعندما دخل « ثاراساكى » . نهض الجد واقفا .. لقد احضروا بناء على
اوامره علبة من الطلاء الاحمر وفرشاة من « كاستيللى » وقال الجد :
- خذ الطلاء يا ولدى وهيا بنا ، وهات الفرشاة معى ..

- الى اين يا جدى ؟

- سوف تعرف حالا .. اسرع وللننتهز فرصة هطول الثلج .

ووصلا الى الباب المؤدى الى الشارع فتوقف الاثنان وهما يحدقان فى
القرية التى تستقر كالجسد الميت بكسوة الثلج المنتظم الذى يجعل كل
شئ رغم ذلك جميلا ، ولم يقدر لثاراساكى لحظتها المزيد من الاستمتاع
بهذا المشهد الجديد للقرية ، فقد اخرج الجد من حزامه منديلا كبيرا
متعدد الالوان وبدأ يمسح به الباب ويزيل من فوقه الثلج ، ثم رفع غطاء
العلبة وغمس الفرشاة بداخلها وهو يغمغم قائلا :

- « باسم الله » ..

- ماذا تفعل يا جدى ؟

- سوف ترى ..

ثم رفع الفرشاة وبدأ يرسم حروفا فوق الباب باللون الاحمر ، فى اناة وعناية ، بدأ بحروف (ح) ثم (ر) ، ثم (ي) ..

وصاح ثاراساكى ..

- اه .. فهمت ..

وضحك الجد :

- ها انت تعرف الان لماذا تجشمت عناء تعلم الكتابة ، لقد كان ثمة هدف احققه .. سوف اخرج الان الى القرية كلها فلا ادع جدارا دون ان اكتب فوقه « الحرية او الموت » .. حتى برج الكنيسة ومئذنة المسجد .

وكان يبتعد براسه قليلا بعد كل حرف يكتبه ، ثم يتطلع فى اعجاب الى عمله ، دون ان يستطيع ادراك السر الذى يمكن المرء من ان يضرب بالفرشاة خطوطا ومنحنيات ثم يجعل منها فى النهاية صوتا مسموعا - بل جوقة ترتل : كيف يمكن لهذه الرموز ان تتكلم ؟ .. ما اعظمك يا الهى ..

وهكذا تكلم الان باب بيته .. وظل لحظة يتأمله فى اعجاب .. ثم سأل فى قلق :

- هل احسنت يا « ثاراساكى »؟ اليس ثمة خطأ ؟

وقال الحفيد ضاحكا :

- اننى امنحك الدرجة النهائية يا جدى .. رائع ..

- فهلم اذن ..

وعند ركن الشارع ، كان ثمة حائط لا يكسوه الثلج ، ومس الجد الفرشاة مرة اخرى وظل يكتب ويكتب .. ثم تابع السير وقد انتثر الطلاء فوق لحيته وحذائه ولوث صدريته .. ولكنه لم يلحظ ذلك كله ، فقد استبدت به شعلة مقدسة من الحماس وكلما وجد بقعة مسطحة : حائطا كان او بابا ضخما ، توقف ورسم تلك الرموز السحرية فاذا بالحائط الذى كان من قبل ابكم مهملا ، يتحول الى شىء اخر جديد يعلن بقوة عن وجهه المقاتل ..

وبدأت يده تكتسب المهارة فى الكتابة وتصبح اكثر قدرة على الانسياب ..
وحين وصل الى ميدان القرية حيث تقوم المدرسة والمسجد والكنيسة
وحيث يقع على مقربة منه مقهى القرية ، غمس فرشاته وبدأ العمل فوق باب
المدرسة : « الحرية او الموت » ..

وخرج عجوزان من المقهى :

- مرحى ياكابتن « سيفاكاس » .. منذ متى تعلمت الابدجية ؟ وماذا
تكتب ؟ ما الذى دهاك ؟

واجاب الجد دون ان ينصرف عن عمله :

- انها تحية وداع تتذكروننى بها .

وهز الرجلان راسيهما وانصرفا وهما يغمغان :

- لا بد ان ملاكا قد زار « سيفاكاس » ان ملك الموت اصبح قريبا ..

ووقف الجد امام المسجد حيث كانت الحوائط قد غسلت حديثا .. وحيث
بابه مطلى باللون الاصفر .. وتابع عمله ..

وحين انتهى قال لحفيده :

- فلنعد الى البيت الان .. فقد تعبت .. ولندع الكنيسة ليوم اخر ، فلا بد
لى من سلم لاتسلق برج الجرس ..

- لن ادعك تسقط يا جدى ، سوف اتولى انا تسلق البرج ..

على طول وعرض كريت : اخذ الفرسان يمزجون الماء بنبيذهم
ويتشاورون ، ويتجادلون بطريقة او باخرى .. دولة « الفوستانيللا »
والفرنجة والموسكوف - ظلوا جميعا على تحفظهم بمنأى عن كريت .. عدد
قليل من الكباتن فقط هو الذىبقى مترددا ، على ان هؤلاء ايضا بدعوا فيما
يبدو يميلون اكثر واكثر نحو احناء الرقاب .

بيد ان البنادق لم تصمت عند قمة « سيلينا » حيث لم يستسلم الكابتن

« ميخايليس » وكانت طلقاته ترن فى القسطنطينية فتطير غضب السلطان الذى ارسل الى الباشا فى كريت اوامره : « اقطع رأس الكابتن (ميخايليس) وابعث بها الى ، والا فاقطع رأسك انت ..»

وهكذا ، فان الباشا قد قفز كالملسوع يقسم : « بشرقى ، لاسحقن هذا الكافر » .. وتمنطق بسيفه المعقوف واتجه الى النافذة يتطلع من خلالها الى جبال « لاسيثنى » اللعينة ، لابد ان هذا الكافر مصمم على ان يقطع الطريق امام امدادات الطعام والماء والذخيرة : ارسل رسالة الى الكابتن ميخايليس رسالة « اذهب ياكابتن ميخايليس انت وفرسانك واسلحتك وريائك ، واقسم بحق النبى اننى لن امس شعرة لاحد منكم » وعاد الرسول برد الكابتن « ميخايليس » : « لن اذهب ، طالما ان فى صدرى نفسا يتردد .. فلتخضع كريت كلها اذا شئت .. اما انا فلن استسلم وسأنتقم ذنك ..»

وغمغم الباشا وهو يعيد سيفه الى مكانه : « اللعنة على كريت .. وعلى كل ابنائها .. بل اللعنة على حظى انا ونصيبي .. كيف اتسلق الجبال وسط هذه الثلوج لاقتنص حليف الشيطان هذا .. سوف ابعث بالمزيد من الجنود ..»

وصفق بيديه .. وبرز خادمه العربى :

- احضر لى بعض الكستناء وشرابا دافئا .. اننى احس اليوم ايضا بالقلق .. هل عرفت برسالة السلطان ؟

ودون ان ينطق بكلمة : احضر العربى كوبا من « الراكى » وانحنى يضع صفا من الكستناء فوق الجمرات المتوهجة فى الموقد ، بينما تمدد الباشا فوق الاركة :

- احك لى ياسليمان بعض حكاياتك الطريفة .. حتى ولولم تكن صحيحة .. اقسم بالرسول اننى لا اهتم اليوم ..

وبدت نواجذ العربى وهو يبتسم وقال :

- اليوم .. وكعادتى يا افندينا الباشا .. استطيع ان انقل اليك اخبارا
طيبة تحيل قلبك الى حديقة .

- تكلم يا كاذب .. مع بركاتى .. هل القى الكابتن « ميخايليس »
السلاح ؟

- ليست هذه هى الانباء يا افندينا الباشا .. ولكنها افضل .. لعلك سمعت
عن العرافة « حميدة » التى بفناء بيتها ولى مدفون ، لقد جعلتها تقذف
الحبوب اليوم لتحذثنى عن حظك . وقد جلست القرفصاء فى وسط الفناء ،
واحضرت غربالا ، ثم اخرجت حقيبتها الصغيرة وحبوبها واصدافها وبعض
الحصى وعقل الاصابع .. وهزتها جميعا فى الغربال ، ثم انحنت فوقها
وغمغت ببضع رقى سحرية ، وفجأة صاحت وقد ألقت وشاحها عن كتفها
وبدأت ترقص وسألتها : « ما الذى رأيته يا حميدة ؟ » ما الذى قالته
الحبوب ؟ وعادت الى هدوئها . وجلست مرة اخرى لتحرك الحبوب
بأصابعها وقالت :

« ارى طربوشا احمر يغطى كريت كلها : من جاربوسا الى دير توبلا ،
ارى الباشا - هذا القوقعة الميتة - يتلقى فرمانا من القسطنطينية عليه خاتم
ذهبى .. بحروف من ذهب ، وشريط من ذهب ، وارى السلطان يبعث اليه
بجنيهات ذهبية .. بلى .. اليست هذه ايضا هى ابنته يبعث بها الى الباشا
لتكون زوجة له ؟ وحق هذا الولى الذى يسمعنا الان انى لارى ذلك كله :
وقلت لها : « اخبرينى بالضبط يا حميدة ، متى تتحقق كل هذه الامور
المذهلة ؟ حتى اهرع الى الباشا واخبره فأتلقى منه بقشيشا صغيرا ..
وانت ايضا ايتها المرأة المسكينة ؟ وعادت المرأة تتحنى فوق حبوبها
وتخلطها ثم ترميها بصورة وباخرى .. واجابتنى تقول : « على ثلاث خطوات
زمنية ، فقل للباشا ، لاتقلق » وهكذا جئت من عندها على الفور احمل اليك
هذه الاخبار الطيبة »

وكان الباشا يداعب قلادته العنبرية وهو يستمع الى خادمه ، واكتسى
وجهه بالركة والدعة ، واغلق عينيه لحظات وهو يرى بعين خياله رسول

السلطان يدخل « ميجالو كاسترو » تتبعه قوافل من الجمال تحمل هدية السلطان الى زوج ابنته : اكياسا ملى بالجنهيات الذهبية والزمرد والاحجار الكريمة .. واخرى ملى بالمسك واللوز والقرفة ، وثمة فتاة صغيرة فى القافلة - ابنة السلطان - فى ملابسها الحريرية ، تهبط من فوق سنام جمل ابيض ، ثم تخطر فى لين لتصعد درجات السراى وحين كف سليمان عن الكلام ، اجفل الباشا وكأنه استيقظ ، ثم تتأهب :

- هل انتهيت ايها الغبى سليمان ؟

- انتهيت يا افندينا الباشا ..

- فضع الاناء اذن فوق النار واعد لى قهوة .. واحرص على ان تكون ذات رغوۃ حتى تفيقنى هل نضج الكستناء ؟

- ان ترسل بقشيشا الى حميدة المسكينة ؟ ولكن الباشا اغرق فى الضحك :

- ايها الغبى سليمان ، علينا ان نأخذ حذرنا اولا حتى لاتنخدع عقولنا .. ولكى نستوثق فسنعد خطوتين من الزمن تمران اولا .

وغمغم العربى فى مرارة وهو يضع الاناء فوق النار : « انه ليس بالاحمق الذى ظننت »

حينما اقترب اليوم من نهايه ، وجه المطران منظاره المقرب فى ذعر نحو سطح البحر الهائج المتلاطم على شواطىء كريت ، كان ينتظر رسولا سريا يقدم على ظهر السفينة البخارية التى تصل الى « ميجالو كاسترو » مرة كل اسبوع ، ويحمل معه تعليمات من اليونان ، وكان الفرسان فى الجبال لا يزالون يتفاوضون مع الاتراك ، كانوا قد وصلوا الى قرار ، وان لم يكونوا قد

القوا سلاحهم بعد ، وقال الاكثر تعقلا منهم : « باسم الله .. فلتقس قلوبنا وتصبح كالحجارة ، ولندفن اسلحتنا مرة اخرى ، لنستجمع قوانا حتى تستجمع الامهات النائحات قوتهن هن الاخريات ، وي بعدها - بعد عام او بضعة اعوام ، نستطيع ان نرفع اعلامنا مرة اخرى ، تظاهروا الان باننا

نقبل اليد التى لانستطيع اليوم ان نقطعها « اما الآخرون المندفعون فكانوا يصيحون : « الحرية او الموت »..

ولم تكن اليونان هى الآخري قد اتخذت قرارا .. كانت احيانا توجه بعض التهديدات المبهمة الى الاتراك ، وكانت احيانا ترتدى عند اقدام الفرنجة ، ولم يعرف المطران الى اى طرف ينحاز ، كان عقله ينصحه « فلنزن الامور جيدا ، ولنصبر ، ولنستسلم » ولكن قلبه بشجاعته المجنونة كان يصيح : « الحرية او الموت »

واليوم - والحمد لله - سوف يصل من اليونان ما يهديه الى الطريق الصحيح ، ولكن الظلام بدأ يهبط ، ولا اثر للسفينة : « الصبر .. الله يأتى بالغد يوما جديدا .. وغدا تصل الانباء اما اليوم ، فقد انتهى »

ثم هبط الدرج الى الكنيسة حيث صلى لله حتى تهدأ صفحة البحر ، ومر الليل ، وهذات صفحة المياه ، وهبت مع الفجر نسيمات آتية من الجبال تحمل شذى الصعتر ، بينما كان « كوزماس » اكبر احفاد العجوز « سيفاكاس » يقف على ظهر السفينة البخارية ويستنشق فى عمق عبير بلاده ، كانت كريت تمتد امامه بصخورها الوحشية واشجارها النائحة المنتشرة هنا وهناك .. ويقم جبالها التى تبدو من بعيد وردية اللون ، كان يوما ربيعيا فى « عز » الشتاء ، وكأن الله سبحانه قد رق على الطيور وعلى الناس فبسط فوقهم اشعة الشمس ، وظل « كوزماس » مشربا بعنفه حتى اكتفى - لم يعد فى حاجة بعد لان يمعن النظر فى جسد بلاده وعظامها ، كيف غادرها قبل عشرين سنة وهو لم يزل طفلا ازغب الخدين ازغب الروح ؟ وكيف يعود اليها اليوم ؟ والتفت ، بينما سيدة صغيرة شاحبة تقترب منه وتحقق هى الآخري بعينين واسعتين مذعورتين - فى كريت ..

وقال الشاب ضاحكا وهو يلمس كتفها فى رقة :

- كريت ..

وارتعشت المرأة .. ثم قالت :

- اجل ..

وصمتت ..

وعاد هو يقول فى رقة :

- هنا سوف تنجبين طفلنا .. هذا هو وطنك الان : فانسى الآخر ..

- بلى يا عزيزى « كوزماس » .

ثم عاد الى الصمت ..

وفجأة ، امسكت به من ذراعه وهى تضغط عليه فى ذعر وكأنها تريد أن تتأكد من أنه معها .. ثم بدأت تهدأ ..

وبدأت جبال كريت تقترب .. وبدت معالم اشجار الزيتون والحدائق والكروم .. ولاحت « ميجالو كاسترو » فى ضوء الصباح الابيض وهبت رائحة الصعتر اكثر قوة ، وانتشر ضوء الصباح ليغمر كل قمم الجبال والسفوح والسهول ، وبدأت الاشجار تبدو فرادى : حتى الديكة ، بدأت تسمع اصواتها فى لحظات الصباح الحلوة .. كانت الدنيا تستيقظ .

وانحنى الرجل على زوجته ، وقال فى رقة :

- ارجوك .. ليكن قلبك ثابتا وانت تدخلين بيت ابى : لا تخافى ، وتذكرى دائما اننى معك .. تذكرى ايضا انك تحملين طفلنا فلا تخافى ان امى امراة تخاف الله ، وسوف تضعك فى حبة قلبها .. واختى .. يجب ان اخبرك ..

ثم توقف وقد تجهم وجهه :

- عندما بلغت الثانية عشرة من عمرها اصدر اليها ابوها اوامره : « لا تتعدى بعد اليوم عتبة البيت الى الشارع ، ولا تظهرى امام احد بعد اليوم اذهبى » .. وبعدها ، ظلت المسكينة معزولة تماما عن العالم الخارجى وعن ابيها نفسه .. كانت تجلس طوال اليوم تخطط وتنسج جهاز عرسها ، وعندما يصل الاب الى البيت فى المساء ، كانت تهرب الى جانب داخلى من البيت

لتختبئ وعندما أصبحت فى العشرين لاحظت يوما بعد يوم ان ثمة شابا يمر امام البيت ويظل يراقبها وجاءتها احدى الجارات ذات مساء تحمل رسالة من ذلك الشاب .. وبعدها زادت الرسائل .. كان يحبها ووقعت هى فى حبه .. واراد ذات ليلة ان يتحدث اليها حتى يعرف كل منهما الاخر ليتزوجها فيما بعد .. واشفقت عليه الفتاة بعد عدة رسائل وقالت لجارتها ذات مساء : « سوف اقف بالباب عند منتصف الليل » ..

وتوقف « كوزماس » لحظة وقد انتفخت عروق جبينه ، وبدأ يحس مرة اخرى بأن ثمة امورا قد تمتلكه : خوفه من ابيه .. واعجابه به فى ذات الوقت ، اختفت كريت لحظتها امام ناظره ، وحل بدلا منها ظل مخيف لابيهِ يسبح فى الفضاء .

وهمست المرأة :

- اهدأ .. يكفى هذا ..

ورفعت يدها لتغلق فمه ، ولكنه تابع الحديث ..

- لا .. يجب ان تعرفى كل شىء ، هبطت الدرج عند منتصف الليل عارية القدمين حتى لا تحدث صوتا ، ولكن الرجل العجوز كان يراقبها فتسلل خلفها دون ان يحدث صوتا . وخرجت المسكينة الى الفناء ، وفى اللحظة التى مدت فيها يدها لتفتح الباب ، اندفع ابوها نحوها .. وجذبها من شعرها ، وغرس اظفاره فى لحمها ، وطرحها داخل حجرتها وقد اغمى عليها .. ثم اغلق الحجرة ، ومرت سنوات لا تجرؤ فيها اختى على ان تتجه الى النافذة ، وقتل العجوز فى « اركادى » .. ومنذ ذلك التاريخ .. مرت عشرون سنة .. عقل اختى لا يزال مهزوزا ، انها تعمل بالبيت طوال اليوم : تغسل ، وتطبخ ، بل وتخييط وتنسج جهاز عرسها ، فاذا كان المساء ، مضت الى فراشها ، وعندما يقترب الفجر ، تفتح النافذة ، وتطل منها ، فاذا مر احدهم بالطريق .. نادته وسألته فى خوف : « هل اقترب منتصف الليل ؟ »

وصمت « كوزماس » وارتسمت لحظتها صورة اخته وهى صغيرة الشعر الاشقر ، والعيان الزرقاوان ، وسحرها .. وضحكاتهما ..

وسار بضع خطوات وهو ينظر الى عنبر السفينة حيث تمدد الجنود
الاتراك .. وغمغم يقول : « كريت ياسيئة الحظ » ثم تحسس بطاقة معطفة
حيث اخفى الرسالة التى تحمل المعلومات السرية .

وبعد برهة ، قال لزوجته :

- ارجوك .. لا تخافى ..

واستطاع « كوزماس » ان يرى بوضوح خلف مدينة « ميجالوكاسترو »
جبل « ايوخنا » الشهير بتكوينه القريب الشبه بالبشر : رأس ضخم يستقر
فوق الارض بين الكروم واشجار الزيتون ، جبهته عالية جسور ، وانفه حاد
وفمه واسع .. وذقنه من ركام الاتربة الصخور المفتتة ، رأس يقف هناك
وكأنه اله من الرخام .. ميت شاحب الزرقة ..

وقال « كوزماس » لنفسه : « لم يمت العملاق بعد » ثم ثبت نظرة فجأة
على الجبل الساكن .. « طالما انه لايزال فى اعماقى حيا .. فانه لم يمت
بعد .. طالما اننى حى ارنق وافكر فيه ، فانه لن يموت .. ربما نسيه
الاخرون ولكنى لن انساه لان حياته تعتمد على انا ، انه يسندنى ، وانا
ايضا اسنده »

كان يحس لحظتها كيف مد ابوه جذوره فى اعماقه حتى لتبقى
مستعصية على الفناء ، كان وهو فى وطن اخر .. يتذكره قليلا .. وكان
يرتجش حينما يتذكره .. ولكنه لم يحس يوما بان هذا الرجل الميت قريب
منه كما هو قريب فى هذه اللحظة ، اولعله يهدده « انه يعرف لماذا اعود
الى كريت ، ويعرف بمهمتى السرية ، اب لا يلين ولا يهدأ .. يود لو اعلق
فمى .. »

واستدار « كوزماس » مرة اخرى الى زوجته وهو يحس بان اياه يسدد
نظرات الكراهية الى هذه المرأة الاجنبية ، ولكنه كان يحس بحبه لها يزداد
قوة وجراً حتى فى حضرة ابيه ، لقد ضمها الى صدره .. ودافع عنها ..
ولن يدعها تستسلم امام رجل ميت ..

ودخلت السفينة الميناء .. والى اليمين ظهر اسد البندقية يبرق تحت اشعة الشمس يحمل فى مخالبه الكتاب المقدس .. ومرة اخرى كان الميناء غارقا فى الضجة والطنين ورائحة الليمون والزيت واللفت العطن .. وقفز « كوزماس » فوق المرساة وامسك بيد زوجته وهو يقول فى رقة :

- بقدمك اليمنى اولا .. انت تدخلين الان غابة .. باسم الله ..

وخطت خطواتها الاولى بالقدم اليمنى وقد تعلقت بذراع زوجها فى اعياء ..

- احس بالتعب ..

وكان العرق البارد يتصبب من صدغيها ..

- البيت قريب .. تشجعى .. لقد وصلنا وتقدما .. وظل « كوزماس » يحدق فى البيوت والناس والشوارع فى نهم ، كل شيء قد شاخ الشجر الاسود اصبح ابيض ، والحدود تفضنت والالواح شحبت او زالت .. والحوائط تقشرت وتشققت ، والاعشاب نبتت على كثير من عتبات البيوت ، وشد على يد زوجته :

- هذه هى بلادى .. ولدت فوق التراب الذى نطؤه الان ..

وانحنت المرأة والتقطت حفنة من التراب تسللت من بين اصابعها :

- انها دافئة .. يسعدنى ذلك ..

وكانت لحظتها تفكر فى وطنها البعيد البارد ..

وافترقا داخل الازقة الضيقة ، وترك « كوزماس » يد زوجته واوسع الخطى فى لهفة وقلبه يدق بعنف . وانحرف الى اليمين ودخل شارعا صغيرا ، ورأى على باب بيت ابائه ، كان مغلقا والنافذة العليا كانت مغلقة ، ولم يكن بالشارع احد ، ولا صوت ، كان اشبه بالحلم ، واقترب من الباب الدائرى القديم ذى الحلقة الحديدية الغليظة ، وكانت ركبته ترتعشان ولكنه مالبت ان استجمع شجاعته ودق الباب ..

وسألته فى رقة :

- اهذه ؟

- اجل .. زوجتى .

واستدارت الاخـت تنظر اليها فى فضول .. وانحنت الام على ابنها
وقالت :

- لماذا تزوجها ؟ اجنبية ..

وقال الابن فى رقة وهو يقبل اليد المتفضنة :

- امى .. يجب ان اسالك معروفا ..

- انت ولدى الوحيد .. وتسالنى معروفا ؟ اننى رهن كلمة من شفـتـيك ..
مرنى :

- اننى اعهد بزواجى اليك يا امى .. احببها .. واحبى ولدى ..

واجفلت المرأة ، وحدقت فى ابنها دون ان تتكلم : فى تساؤل
وضراعة ..

- بلى .. انها حامل فى حفيدك ..

وارتفع الدفء الى حلـقـها وخديـها .. ولكن رعشة مفاجئة تملكـتها ، فقالت
فى همس :

- هل استأذنت اباك ؟ .. هل يعرف ؟ هو الذى يقرر .. يجب ان تسأله ..
انى اخاف ..

كانت تهمس حتى لا يسمعها الرجل الميت ..

وسألها الابن بينما قلبه يضطرب هو الاخر فجأة :

- وماذا بوسعه ان يفعل بنا ؟

- وكيف لى ان ادرى يا ولدى ؟ .. امازال له جسد فنعرف اين هو ؟ ربما يكون فى الفناء هذه اللحظة بالذات يمنعها من دخول البيت ..

وصاح الابن فى هياج ..

- ليس له الحق فى ان يفعل ذلك .. لم يعد صاحب الامر والنهى هنا .. سوف احضرها ..

ثم اجتاز الفناء عدوا وقلبه يدق غضبا وخوفا .. وبدا صوته فجأة خشنا وهو يقول :

- « كريستولا » .. تعالى ..

وامسك بيدها واتجه بها الى امه :

- امى .. هذه هى ابنتك ..

وانحنى السيدة الصغيرة تقبل يد الام .. ثم وقفت تنتظر ..

وامعنت الام النظر .. ورات سلسلة ذهبية حول عنقها ، فقالت دون ان تمد اليها يدها :

- هل عمدت ؟

وقال الابن :

- لقد عمدت .. هذا هو الصليب ، انها تحمل اسمك يا امى .. كانت تسمى « نعيمى » .. واسمها الان « كريستولا » ..

وامسك بالسلسلة وجذب الصليب من وسطها .. ولمست الام رأسها بيدها فى تردد وقالت : « مرحبا بها » ..

واتجه الجميع الى داخل البيت ..

وسار « كوزماس » مثقل القلب .. وتجول هنا وهناك يتحسس الابواب

والاثاث القديم والساعة الثقيلة والغدارات الفضية الموروثة عن اجداده
والموضوعة الى جوار المذبح ..

- وكيف حال جدى ؟

- فى قريته ، بلغ المائة من عمره ولكنه ممتلىء حيوية ، ملك الموت
لايدنو منه ، انه يسأل عنك دائما ..

وجلست المرأتان فوق الاريقة الواسعة العتيقة وظلت الام تنظر الى
ابنها كيف نضج واصبح رجلا ، كان يشبه جده الكاتبن « سيفاكاس » نفس
العينين اللتين تنظران الى الاشياء فى دفء ورقة : نفس الجاذبية ، نفس
المنطق الفصيح ، وكانت فى نفس الوقت تلقى بنظرات جانبية بين الحين
والاخر الى زوجته :

« ماذا اقول لها ؟ .. انها من جنس اخر .. خلقها اله اخر .. لا احبها ،
ورأت السيدة الصغيرة الفناء الصخرى واصص الرياحن وتكايب الكروم
الشتوية القريبة من الحوض .. والى الخلف من الفناء .. وراء اسلاك
النبات .. بدت سهول لا حدود لها يكسوها الثلج .. وغابات يكسوها
الجليد .. ومدن داكنة مظلمة ، وقوزاق بسيوف مشرعة يقتحمون الابواب
ويهبطون فوق اليهود .. والثلج بعدها يذوب تحت حرارة الدم المراق ،
والرجال والنساء والاطفال يفزعون ..

واستدارت ، ورأت السيدة العجوز تتفحصها وحاولت ان تبتسم ولكنها
عجزت ، وامتلأت عيناها بالدموع ، وتأثرت المرأة العجوز وسألتها :

- فيم تفكرين ؟ فى وطنك ؟ اين ولدت ؟

- بعيدا .. بعيدا .. من هنا .. فى مدينة قائمة مليئة بالمصانع ..

- اى نوع من المصانع ؟

- مصانع للمدافع والبنادق والالات ، ولكن ابى :

كانت تريد ان تقول « ان ابى لم يلوث يده بشيء من ذلك ، فقد كان رجل
دع

دين « .. ولكنها توقفت :

- ماذا كان ابوك ؟

- كان رجلا طيبا ..

وتنهدت : ووقفت الام واتجهت الى الفناء وقطعت غصن ريحان وعادت به الى السيدة الصغيرة ، وسألتها :

- أكان فى بلدكم ريحان ؟

- كلا ..

- لقد نبت فوق قبر المسيح ..

وكانت الانباء الطيبة قد انتشرت : واقبلت الجارات يثرثرن فى سعادة ، وامتلأ البيت وبدأن يتفحصن ويتشمن الفتاة اليهودية من قمة رأسها الى اخمص قدمها وكأنها حيوان غريب .

وظل « كوزماس » ينظر الى زوجته فى اشفاق ، وبدت له لحظتها وكأنها بجعة جريحة وسط جمع من الاوز والبط .

واحضرت « ماريا » صينية ملأى بالحلوى والقهوة ، وكانت تبدو نحيلة متغضنة وتضع حول عنقها منديلا اسود عريضا لتخفى منه التجاعيد ، وظلت تحديق « كريسولا » بنظرات الحسد ، فقد كانت اصغر منها واجمل ، ثم انها هى التى اختطففت منها اخاها ..

ونهض « كوزماس » .. لقد انتهت بالنسبة اليه لحظات الفرح الاولى ، فليس ثمة وقت عنده ليضيعه .

- سوف اخرج فى جولة صغيرة احيى فيها « ميجالو كاسترو » مرة اخرى .

ثم اسرع متجها الى مقر المطران ..

وكان المطران يجلس فى قصر الاسقف ينتظر « كوزماس » فقد سمع

فى الصباح الباكر صفارات الباخرة وهى تدخل الميناء ، فرسم علامة الصليب وغمغم يقول :

- لك الشكر يارب .. صوت يحمل البشرى للمسيحية .

واسرع « كوزماس » عبر الشوارع وهو ينظر حواليه فى انفعال لقد شاخت المدينة الحبيبة وزادت بأثقالها حتى لتوشك ان تنهار الى التراب الذى تحمله الرياح بعيدا .. ولكنه .. يوما ما سوف تقوم فوقها مدينة جديدة ، ولن تكون كهذه ..

« كريت ، ايتها الحبيبة .. ان العمر يمتد بنا » ..

وحين وصل الى « اى - ميناس » اوسع الخطى مخترقا الساحة الامامية وهو يحى شجرة الليمون العجوز حيث يحتفل المطران كل عام بذكرى صعود المسيح تحت اغصانها المزهرة واخذ يجيل البصر حوله .. ولكن : لم يكن ثمة وقت يضيعه .. وبدأ يصعد الدرج صاعدا كل درجتين فى خطوة .. نحو مقر المطران .

نهض المطران فى لهفة وقال :

- مرحبا يا كوزماس .. ان الله ارسلك فى ساعة مثقلة .. ماذا حملت الينا ؟

وقبل « كوزماس » يد المطران ، وقال وهو يخرج الرسالة السرية من صدره .

- هذا الخطاب يا سيدى ..

وتناول المطران وفتحه ، وانحنى نحو النافذة بأيد مضطربة ، وبدأ يقرأ فى لهفة ثم عاد يقرأ فى بطء ثم احنى رأسه النبيل الى صدره .. واخيرا ، انتزع نفسه من مكانه القريب من النافذة ، والقى بنفسه منهكا فوق الاركة وقد دفن وجهه بين يديه .. وقال :

- كريت .. يابائسة ..

لم يكن ثمة امل .. هكذا قالت الرسالة : « ان الفرنجة لا يريدون ان يخاصموا السلطان ، والسلطان ازداد جرأة وينوى ان يسحب حتى الحقوق القليلة التي منحها لكريت بالرغم منه ، والقائد الذى ارسله معه من الصلاحيات مايمكنه من استخدام القوة المطلقة من اجل اخضاع كريت ، فادفنوا اذن اسلحتكم ، وتذرعوا بالصبر ، ولا تلقوا باليونان فى مغامرة دموية ، ان اليونان المسكينه تود ان تفعل شيئاً ، ولكن الحيلة قليلة .. »

ورفع المطران رأسه :

- هل تعرف ما بالرسالة يا كوزماس ؟

- اعرف يا سيدى ..

- سوف ابعث رسالة الى كل الفرسان اطلب منهم فيها ان يلحقوا السلاح ، فليس من الحكمة ان نسلم رؤوسنا بأنفسنا ، ولكن هناك فارسا واحدا اخشى منه - عمك الكابتن « ميخائيليس » ذلك الروح المتمرد مطلق العنان ، لقد بعثت اليه قبل وقت غير قليل احذره ، وطلبت منه ان يخرج باسلحته واعلامه ، وقلت له ان احدا لن يمس شعرة فى رأسه ، فقد أقسم الباشا على ذلك .. فهل تدري بماذا اجاب ؟ « وهل ايتدخل انا فى عملك ياسيدى ؟ » فلا تتدخل اذن فى عملى ، لن اركع امام الاتراك ، وسوف انسف جسدى ليتطاير عاليا فى السماء .. انت يا كوزماس الذى ينبغي ان تبحث عنه وتحذره ..

- سوف اذهب اليه ياسيدى ، وان كنت اعرف مسبقا انه لا فائدة ، انه مثل ابنى وحش ضار ..

ودقت الطبول بشدة ، وتناهت اصوات صهيل خيول ووقع اقدام جنود ، ونظر المطران الى كوزماس فى قلق ، وقال هذا :

- جنود اترك .. لقد كانوا معى فى السفينة اخذناهم من « كانيا » ولديهم اوامر بابادة كل شىء ..

وعاد المطران يرفع يده الى السماء :

- كريت ، يا بائسة ، الى متى ؟

واستبدت الحيرة بالاثنتين معا وساد الصمت واخيرا سأله المطران في محاولة لتغيير دفة الافكار التى تستبد بهما :

- لقد عشت فى فرنسا سنين عددا ، مايجرى هناك ؟ ماذا رأيت ؟ فنحن هنا نعيش فى الاحراش ..

- اشياء كثيرة ياسيدى ، منها الحسن ومنها السيئ .. متى ابدا ؟

- هل هم مؤمنون ؟

- انهم مؤمنون بالله ، قائد جديد : صارم قوى .. قد يصبح يوما ما كل شىء ..

- اى اله ؟

- العلم ..

- عقل بلا روح ، ذلك يعنى انهم يؤمنون بالشيطان ..

- لقد دخلت فى فترة فلكية ذات دلالات مفزعة ياسيدى - فى برج العقرب .. برج الشيطان .

- ربما بقية العالم ، اما نحن الكريتيين ، فاننا نؤمن ايمانا عميقا بدموعنا وتضحياتنا وليس فى الانسان ، نحن لم ننفصل بعد عن الله .

ولم يقل « كوزماس » شيئا ، وماذا يقول ؟ كان المطران مؤمنا عجوزا ولا يعرف شيئا اخر غير العقيدة .

وعاد المطران يقول :

- لا نحن ، ولا الروس كذلك ، عندما كنت فى « كييف » ، كنت اعرف معنى الايمان ، معنى « الله ، وكيف يهبط سبحانه الى الارض ويتجول ويحدث البشر ، وطالما ان روسيا تعيش فاننى لا احس بالخوف ..

ونهبز « كوزماس »

- سوف انصرف الان ياسيدى وادعك ترسل خطابك الى الفرسان ، لا ينبغى ان نضيع لحظة واحدة ..

- بوركت ياولدى ، وعد غدا ، فسوف اجمع كبار السن ، ويجب ان يحدث اليهم ..

وعندما عاد فى الليل الى بيت ابائه وصعد الدرج الى حجرة نومه العتيقة التى كانت له ايام شبابه ، وجد زوجته ممددة فوق السرير وهى تبكى ، واخذها بين ذراعيه وربت على شعرها ولمس ذقنها ورفع رأسها المتعب ، فابتسمت له .

- ماذا حدث ؟ وماذا فعلوا بك ؟

- لا شىء ، لا شىء ، اننى متعبة فحسب .

واسندت رأسها الى ذراعه فى صمت ثم تكلمت :

- لقد درن جميعا حولى يتشممنى ، ثم تجمعن بعيدا عنى يتهامسن فيما بينهن ، امك وحدها التى اشفقت على ، فوقفت وقالت : « ياعزىزاتى .. الى اللقاء ، فهى متعبة ، الى اللقاء غدا » ثم صحبتنى من يدى وقادتنى الى غرفتك ، وانحنت نحوى واوشكت ان تقبلنى ، ولكنها غيرت رأيها وقالت : « نامى .. ولا تعيرى اليهن انتباهها هيا ونامى » .. وهكذا تمددت هنا انتظرك .

وقبل « كوزماس » شعرها المموج فوق عنقها ، واغلقت هى عينيها وابتسمت ، وارتفع القمر يضىء وجهها ، ففرع لمراى هاليتين حول عينيها وهمس فى اذانها : « نامى .. فأنت مرهقة » وامسكت بيديه وقالت : « لا استطيع النوم وحدى ، نم معى جنبا الى جنب » .. واحاطته بذراعيها ، ودفنت رأسها فى صدره وغمغت ببضع كلمات من لغتها ثم .. نامت ..

وارتفع القمر اكثر فى قبة السماء .. كبيرا ساكنا يفيض عذوبة ، كان

قمر شبابه في تلك الليالي الحلوة التي كان هو واصدقاؤه يتناقشون فيها حول اسئلة لايجدون لها الاجابة : من اين ؟ والى اين ؟ ولماذا ؟ .. هذه الاسئلة التي تمرق الشباب في الدنيا كلها ..

والقى ضوء القمر ما يشبه ملاءة من الكتان الابيض فوق الفراش ، وانتشر شعر زوجته العسلى الذهبي فوق الوسادة يلمع كأنما يملؤه دود متوهج ، واضاء وجهها كالمرمر ، ومد كوزماس يده ليحتضنها ولكنه ردها بسرعة خشية ان يوقظها ..

« ما اشد ما احب هذه المرأة ، حبي لها يفوق الوصف بقدر ما ان تأثيرها على يفوق الوصف كذلك ، لقد فتحت عيني وعقلي وقلبي ، وعلمتني كيف احب الاجناس الاخرى التي كنت اكرهها .. وكيف اتعلم الافكار الاخرى التي كنت اكاربها ، وكيف احس باننا نحن البشر ننتمي الى اصل واحد . ماكان اروع القدر الذي قادها من يدها ذلك المساء وجاء بها الى .. وهز رأسه وهو يبتسم « لم يكن للقدر دخل في ذلك فاننا نفسى الذى امسكت بيدها ذلك المساء ، ولا احد غيرى ..

وتذكر لحظتها كيف انه كان داخل احدى المكتبات في مدينة في أقصى الشمال يبحث عن كتاب كان يحبه : اشعار صينية من عهد أسرة « سونج » ويومها لم يجد الكتاب ، وبينما هو يستدير اسفا لينظر الى الشارع ، رأى فتاة ترتدى « بلوزة » برتقالية اللون تمر امام المكتبة وتقف للحظة وكأنما تقف تحت دائرة ضوء كشاف - ثم تختفى .. واحس بان شيئا ما قد شده فجأة وحتى اعماقه .. وخيل اليه لحظتها ان هذه الفتاة تملك نوعا من الجمال المبهر المأساوى .. ثم ان لون البلوزة التي كانت ترتديها هو اللون الذى يفضلها على كل الالوان ..

وانتالت الافكار كالبرق داخل رأسه « لو اردت لعدوت وراءها وسوف تصبح زوجتى واذا لم ارد ، فسوف ابقى في مكانى ، انا افعل ما اريد ، ولكن ، ترى ماذا اريد ؟ ووجد نفسه على الفور مجبرا على ان يفكر فى حكاية ذلك الراعى الكريتى الذى لم يكن قد رأى « ميجالوكاسترو » من قبل تلك المدينة العظيمة كما وصفوها له . كانوا قد صوروها له جنة على الارض

، فيها كل الاشياء الثمينة فى الدنيا : احذية بيضاء ذات نعال مزدوجة .. بنادق وسيوف .. غرارات ملأى بالحبوب والسمك المملح .. ونساء تفوح منهن رائحة المسك .. وظلت هذه الصورة تستبد به سنين طويلة حتى كان يوم لم يعد يحتمل فيه اكثر مما احتمل ، فعلق حذاءه القديم فوق كتفه حتى لا يبلى من السير فوق الصخور ، وبدأ يهبط الجبل ويقفز من صخرة الى صخرة هابطا فى طريقة الى « ميجالوكاسترو » وظل يسير اكثر من سبع ساعات حتى وصل الى باب قلعة المدينة قبيل المساء ، وهناك توقف وقد اصيب بخيبة امل . ولعله احس فجأة بالخجل لانه لم يقاوم الاغراء ، ورفع عصاه وضرب بها الارض الصلبة وهو يصيح : « اذا شئت فسوف ادخل ، واذا شئت ، فلن ادخل .. ولن ادخل » .. واستدار عائدا الى الجبل ..

وغمغم « كوزماس » وهو ينطلق فى اثر الفتاة : « وكننى سوف ادخل » وكانت « البلوزة » البرتقالية تلمع وسط زحام البشر ، واستدارت الفتاة خلفها وهى تنظر فى رعب وهو يقول لها : « فى اللحظة التى مررت بها ، قلت لنفسى : ان اردت ، كلمتها واصبحتنا صديقين .. وان لم ارد ، فسوف ادعها تسير .. وقد قررت بينى وبين نفسى اننى اريد »

واجابته الفتاة فى نظرة قلقة : « اما انك مجنون ، واما انك شاعر ، ولكن لا وقت لدى .. »

- « تعالى معى نتحدث »

- « قلت لك لا وقت لدى ، يجب ان اذهب »

- الى اين ؟

- وعادت هى تقول : « يجب ان اذهب »

وكان صوتها يرتعش ، وامسك « كوزماس » بذراعها فى رقعة ، وقال : « لا تذهبى ، تعالى معى » .. وافزعته رنة صوتها ، وهى تقول : « يجب ان اذهب » .. وكأنها تريد ان تصبح « النجدة » ..

وفجأة ، اقترن حاجباها الكثيفان المقوسان فى نعمة ، واحسست فى تلك اللحظة بأن حياتها كلها فى الميدان « اريد » - « لا اريد » ..

كان قدرها رهن هذه الكلمات .. وعاد « كوزماس » يقول : « هيا » .. -
 « الى اين ؟ » - « الى اى مكان » - « اين ؟ » وكانت تتكلم مثل طفل يخشى العقاب : « فلنمش قليلا .. فالحياة قصيرة .. لتكلم ، طالما انه لايزال اماننا فسحة للكلام .. » واحت راسها العسلى الاشقر وقالت : « لا بأس ، فلنتكلم طالما انه لايزال اماننا فسحة للكلام .. فالحياة قصيرة .. هيا بنا »

ودخلا احدى الحدائق ، وكان المساء قد تحول من اللون الاخضر الذهبى الى البنفسجى الشاحب .. ثم تحول تدريجيا الى اللون الازرق القاتم ، وتكلم الاثنان فى سرعة وهما يلهثان ، وكان « كوزماس » هو الذى بدأ الحديث حتى يشجعها ، حدثها عن كريت : عن الجزيرة الحبيبة المفزعة عن ابيه ذلك التنين المرعب ، وعن امه تلك الشهيدة المقدسة ، وفاض قلب الفتاة وسألته فى قلق : « لماذا تحدثنى هكذا فى ثقة ؟ لماذا ، طالما انك ستذهب بعيدا وسأذهب انا بعيدا وانه ليس اماننا مزيد من الوقت .. فى ظروف اخرى يحتاج البعض الى سنين حتى يصلوا الى النقطة التى وصلنا اليها فى قفزة واحدة »

وكانا قد جلسا على اريكة خشبية ، وسألها : « ما اسمك ؟ »

- « نعيمى »

- حدثينى يانعيمى .. انا واثق ان حياتك قاسية . ثقى بى .. انا كريتى »

- كريتى ؟ .. ماذا تعنى ؟

- « رجل ذو قلب دافىء يانعيمى » ..

ولم ينهضا الا عند منتصف الليل ، وقد امتلأ صدر الشاب بالضيق والمرارة ، هذه الفتاة الصغيرة قد شربت بؤس الدنيا كلها ، كانت كلماتها تكشف الرعب والعار والجنون الذى يستبد بهذا العالم .. وكان يستمع اليها وقد دفن رأسه بين يديه وهو يرى بعين خياله الاشياء التى وصفتها له : كيف اقتحم القوزاق المدينة ، واندفعوا داخل الحى اليهودى ، وحطموا الابواب ، وقتلوا الرجال ، وجمعوا الشيوخ والنساء والاطفال معا ، وكيف

سار ابوها رجل الدين فى مقدمة الاسرى يمضى معهم وسط الثلوج ليالى
واياما وعددهم يتناقص يوما بعد يوم .. وعلى جانبى الطريق يسقط نساء
واطفال ، وبدأت « نعيمى » تبكى ، واحاطها « كوزماس » بذراعه : « كيف
هربت ؟ »

- « لا ادرى . لقد كان كل شيء اشبه بالحلم لا تسلىنى » .. ثم عادت
تبكى .. وتحسس « كوزماس » شعرها : « لن اسأل ، فاهدئى الان » وساد
الصمت وعاد « كوزماس » يسألها : « واين ستذهبين هذا المساء ؟ لماذا
انت فى عجالة ؟ ورفعت « نعيمى » رأسها وقالت هامسة : « لقد اتخذت
قرارا »

- « اى قرار ؟ »

- « صديقة لى اعطتنى هذه البلوزة ، وقد غسلت شعرى وصففته
بعناية ، وخرجت »

وصمتت : ثم قالت بعد لحظة .. وفى هدوء : « لاقتل نفسى وارتاح »
وقبل « كوزماس » يديها وقال : « هيا بنا »

- تعالى معى يانعيمى »

- « الى اين ؟ »

- لماذا تسألين ؟ الا تتقين بى ؟ لست ادرى ما اذا كنت قد احببتك ،
ولكننى لن اتخلى عنك ، الكل تخلوا عنك ، ولكننى لن اتخلى عنك ..

واحت الفتاة رأسها ، ولم يستطع « كوزماس » ان يميز وجهها وسط
الظلام ، وظل واقفا لا يتكلم ، كان يحس بأن الفتاة اليتيمة تقلب الامر
وتنتظر جواب مشاعرها ، وفجأة رفعت « نعيمى » رأسها وقال فى هدوء
واصرار « هيا بنا » .. واعطته يدها ..

واختفى القمر .. وساد الظلام .. وكانت الام وابنتها لاتزالان تتبادلان
حديثا هادئا فى الطابق واستطاع « كوزماس » ان يسمع صوت امه الرتيب

الذى يشبه خريز الماء فى الليل ونبيح كلب ثم ساد الصمت من جديد وهبت من ناحية الفناء رائحة الريحان التى رافقته طوال شبابه : فقد كان الريحان والاترج والمنثور والياسمين اعز الرفاق القدامى .. وتنفس « كوزماس » بعمق وهو يقول لنفسه :

- هذه بلادى ، هذا هو البيت الذى فيه ولدت ، وهذه هى زوجتى ..

وبينما هو غارق فى تأمله ، سمع صوت غرفة اخته وهى تفتح ، لابد ان الليل قد انتصف الان : وأرهف السمع ، وتناهى صوت وقع اقدام عابرة بالطريق .. وعلى الفور انطلق صوت ينم عن اللهفة والارتباك معا : « اليس الوقت قد تعدى منتصف الليل ؟ .. اليس الوقت قد تعدى منتصف الليل ؟ .. وتوقفت الخطوات ، ولكن النافذة اغلقت فجأة فى عنف ، وارتعد « كوزماس » وغمغم والدموع تنحدر على خديه : « يا الهى »

ولم يستطع النوم بعدها ، فظل فاتحا عينيه ينتظر غيبش الفجر ، وعندما بدأ يرى ضوء السماء وهو يزداد تدريجيا ، انسل من فراشة حتى لا يوقظ زوجته ، وأردى ثيابه وهبط الدرج وجلس فوق الاركة فى ذات المكان الذى تعود ابوه ان يجلس فيه ، وكان يريد لحظتها فى اصرار ان يتحدث الرجل الميت ليطرده من البيت ومن الفناء اللذين يتشبث بهما ، ثم يغلق الباب خلفه حتى لا يعود بعدها ابدا فيؤذى زوجته ..

ولكن المخاوف القديمة عادت تستيقظ بداخله لقد حاول عبثا وهو فى فرنسا ان يحرر عقله من المخاوف ، ولكن قلبه لا يزال حتى هذه اللحظة كهفا مليئا بالاشباح ..

ظهرت الاخت صفراء الوجه حزينة مكتئبة فى ضوء المصباح ، وعندما رأت اخاها جالسا فى مكان الرجل العجوز ، اجفلت فى ذعر كأنها رأت اباهما الذى تحس بالكراهية له منذ تلك اللحظة التى شدها فيها من شعرها وعزلها عن الرجال .. الكراهية التى تبعته حتى الى قبره .. ولقد كانت تود ان يكون حيا الى هذه الساعة ، حتى تظل تكرهه وتلعنه . انها لتفتح صناديقها كل ليلة وتتفقد جهاز عرسها الذى صنعته بيديها : قميص النوم ذا الاكمام

الواسعة من الدانتيل ، والمناديل المطرزة والملاءات الحريريّة ، وأحيانا تحس برغبة عنيفة فى ان تلقى بكل شىء فى الفناء لتحرقه وتصرخ « أيتها الاكفان .. صبى عليه اللعنة » وانها لتفتح الدولاب الذى يضم ثيابه وتنتحب مثل الكلبة التى لمحت فجأة جلد ذئب .. ولم تكن تمس هذه الثياب ابدا ، وكانت لا تفتأ تنحى باللوم على امها لانها لم تحاول مقاومته يوما .. لقد كانت تحب اخاها حتى امس فقط ، وحتى عرفت انه تزوج ، واحست بالاشمئزاز من زوجته تماما كما كانت تشمئز من ثياب ابيها .. وحين قالت امها : « الصبر ياماريا » اجابتها فى ضراوة : « اللعنة على الصبر ، افضل ان اقتل نفسى على ان اظل اراها امامى كل يوم » وعندما حياها اخوها لم تستطع ان تمسك نفسها ، فانفجرت تبكى ، واحاطاها « كوزماس » بذراعه وقال :

- اهدئى يا اختى .. سوف تصبح الحياة غير الحياة ، وسوف تسعدين انت ايضا ..

وهزت رأسها الذى خطه الشيب ، وقالت وهى تدفع اخاها جانبا وتغادر الغرفة :

- اجل .. فسوف اتزوج بملك الموت لكى احس بالسعادة ..

وخرج « كوزماس » الى الفناء ليشم الهواء ولكن القلق تملكه فجأة . هل ثمة احد يتنهد فى الغرفة بالطابق الاعلى ؟ واسرع يعدو صاعدا الدرج ليطمئن على زوجته ، وكانت لاتزال نائمة وقد برزت قدمها الرقيقة من تحت الغطاء ، وانحنى ليقبلها وربت على شعرها فى حنان ، وندت عن فمها المفتوح قليلا رائحة القرنفل مع انفاسها الدافئة ..

وفجأة ، وبينما كان يقرب شفقتية من فمها اجس بان احدا يصعد السلم وبأن ثمة اقداما بطيئة تقترب ، لابد انه الرجل العجوز ، الرجل الميت ، انه ليعرف جيدا وقع خطاه ، وجلس جامدا كالصخر فوق السرير وقد حبس انفاسه وارهب السمع ، كانت الخطى قد وصلت الى نهاية الدرج واقتربت من الارض المواجهة للباب ..

واحس « كوزماس » بالفزع وبسط ذراعيه فوق زوجته ليحميها من
« الرجل العجوز » وتوقفت الخطى عند الباب ودق قلب الابن بعنف وهو
يحس كأنما البيت كله يهتز .. وود لو صاح : « من هناك ؟ » ولكن حلقة كان
اشبه بالمسدود ..

وفى تلك اللحظة انتبهت « نعيمى » وصرخت ، وحدقت بالباب والعرق
يتصبب من جسدها .. واحاطها « كوزماس » بذراعيه وقال فى رقة :

.. ماذا حدث ؟ .. هل سمعت شيئا ؟

.. هناك من صعد السلم .. هناك من يقف خلف الباب ..

وكانت ترتعش ..

.. اهدنى .. لا تخافى .. لا بد انك تحلمين .. انظرى لن ترى شيئا ..

وقفز واقفا .. كان يرتعش ، ولكنه كان يحس بالخجل ، وفتح الباب على
مصراعيه : ولم يكن ثمة أحد ، وضحك فى لامبالاة حتى يطمئنهما ،
ويشجعها ، ثم استدار اليها وهو يغطيها بجسده ويقبل ركبتيها
المرتعشتين .

.. لاتخافى ، هذا بيتك يا « نعيمى »

وادارت السيدة الصغيرة بصرها حولها الى المائدة ، والدولاب ،
والنافذة ، والمذبح الذى تعلوه ايقونات ثلاث : الخلق ، والصلب ، والقديس
ميخائيل ، ثم قالت :

.. بلى .. هذا بيتى ولسوف اعتاد عليه ..

وحين رآها « كوزماس » تبكى ، احس على الفور بحب طاغ لا حدود له
لم يحس بمثله من قبل ، حتى ولا فى تلك الليلة بالخارج ، والتي نالها فيها
.. وتعمد ان يترك الباب مفتوحا حتى يؤكد لها انه لا يخاف الميت ،
واحتواها بين ذراعيه وعانق كل جزء فى جسدها ، من اطراف قدمها وحتى
رأسها .

ومر يوم ويومان وثلاثة ؛ وجلس « كوزماس » الى امه واخته ، وقال كل منهم للآخر كل ما رأى ان يقوله ، تحدثوا عن البيت وعن الاقارب والجيران ، وعن الرجل الميت الذى لايزال يسير داخل البيت ويضيق عليهم ، وعن كريت .. ولم يعد ثمة جديد يقال .. لم يعد سوى العاطفة العميقة تربط بينهم ، وهكذا ساد بينهم الصمت .

وكان « كوزماس » يتجول فى الأزقة الضيقة يتبع ذات الطرق القديمة التى سلكها فى شبابه . هنا ، فى هذا الميدان وعند الاقباء الثلاثة ، ينهض قلبه بالحب لأول مرة ، هنا رأى أول فتاة احبها ، فى امسية ذهبية السحب ، وهى تمسك بيدها وردة صفراء اللون وتضع فى شعرها غصن ياسمين ، وكان الجو منعما بشذى المسك .. والفتيات اللائى لم يتزوجن يخطرن فى ملابسهن الحمراء والخضراء والزرقاء ، صدورهن مشدودة وخطوهن سريع وشعورهن مسدلة تتطاير منها الاشرطة .. وهن يختلسن الاشارات .. كن مثل سفائن اشترعت كل اعلامها وانطلقت الى اعماق البحار لتغزو الدنيا كلها ، وكان الفتيان يركضون خلفهن فى خجل وذبول وهم يتظاهرون بأنهم يفيظولنهم ويتضاحكون عليهن .. بينما قلوبهم فى الحقيقة تختلج بين صدورهم .. وكان « كوزماس » واحدا منهم فى السادسة عشرة من عمره .

وها هو ذا الان يجتاز الميدان وقد ثبت نظراته الى الأرض ، حتى لا تقع عيناه او يتعرف على مدبرة بيت تذكره عيناها بتلك الفتاة السمينة المبهرجة التى عرفها فى شبابه فى تلك الامسية الصيفية .

وهناك فى اعلى ، فى « بيتروكيغالو » كان الجد يجلس طوال اليوم - وكان يوم احد - امام النار المتوهجة فى المدفأة وقد تهدل خداه وارتعشت ركبته ، وهو يحرق فى النار ويتأمل فى حياته .

واقتمح عليه المكان راع وحياه :

- احمل اليك انباء طيبة يا « سيفاكاس » « كوزماس » اكبر احفادك وصل الى « ميجالوكاسترو » من بلاد الفرنجة ، ويقولون ان معه قلما وورقا وانه يكتب .

وانتبه الجد ، ورفع عصاه :

- وماذا يكتب ؟

ولكن الراعى كان قد ابتعد .

ولم يقل الجد شيئا بعدها ، فقد اعتبر وصول حفيده الاكبر اعلانا سريا عن وفاته ، ونهض واقفا وهو يغتمم : « لقد حانت ساعتى .. »

ثم قال :

- « شاريديموس » .. ضع السلم الكبير على كتفك ، ثم تعال معى ..

- الى اين ايها العجوز « سيفاكاس »؟ ..

- قلت لك الف مرة لا تسألنى .. هيا .. اسرع ..

وحمل « شاريديموس » السلم فوق كتفه ، وسار الجد فى المقدمة وبيده علبة الطلاء والفرشاة وهو يحث الخطى ببغله ، حتى اذا وصل الى ميدان القرية اشار الى برج صغير للكنيسة ، غسل حديثا ، وقال :

- ضعه مستندا الى الحائط ، وامسك به جيدا حتى لا اسقط .. اين « ثاراساكى »؟

- لقد خرج مع اصحابه ومعه البندقية العتيقة ..

- حسن .. بركاتى معه ..

واسند الراعى السلم الى برج الجرس ، وازاح بعض الاحجار من تحته وامسك به فى قوة بكلتا يديه ، وصعد الرجل العجوز السلم وهو يلهث ، بينما استبد الفزع بـ « شاريديموس » فأخذ يرسم علامة الصليب ويغتمم .. « كن رحيما يارب »

ووصل العجوز الى قمة السلم ، والى الزاوية الصخرية الناعمة تحت قبة جرس الكنيسة مباشرة ، وغمس الفرشاة فى العلبة ، ثم مد ذراعه وبدأ

يضع الحروف الى جوار بعضها البعض : « ال ح ر .. وكان قلبه يدق فى بهجة : من كان يستطيع ان يتنبأ لى بأن حياتى سوف تنتهى هكذا ؟ فرشاة وعلبة طلاء وكلمات فوق الحائط ؟ .. وعندما انتهى من عمله - وكان لا يزال ممسكا بيده بالفرشاة - نسى انه فوق السلم .. وانحنى الى الخلف لينظر فى اعجاب الى ماكتب ، فقد توازنه وسقط الى الأرض باسطا ذراعيه .

وصرخ « شاريديموس » واقبل الجيران يعدون ، ورفعوا الرجل العجوز والدماء تسيل من رأسه ، وان ظل مطبقا فمه لاتصدر عنه أنة واحدة .

وقال « شاريديموس » يشرح لجيرانه الامر : لقد عاد حفيده الاكبر الى كريت ، فافقده الخبر السعيد عقله ..

وامتزت القرية كأنما اصاب زلزال عمودها الاساسى .. واسرعت كل النساء بكل ما يعرفن من فنون العلاج ودلكنته بالمراهم ، وطار رسول يمتطى بغله الى « ميجالوكاسترو » يبحث عن مصطفى بابا .. الذى كان يعرف كل الاعشاب الطبية والذى كان رجلا طيبا يعالج الاتراك والمسيحيين واليهود بلا تمييز .. والذى كان يقول دائما :

- انهم جميعا يمرضون .. مساكين .. حتى ولو كانوا يونانيين او يهودا ..

ووصل مصطفى بابا فى صباح اليوم التالى ممتطيا صهوة بغله ومعه صندوقه الصغير .. وفتح زجاجاته ، واخذ اعناقها المشروخة بين يديه القويتين ..

وفى اليوم الثالث ، فتح العجوز عينيه ، ودار ببصره حوله ، ورأى زوجة ابنه « كاترينا » .. فأومأ اليها ..

- ماذا يحدث الان فى الجبل ؟ .. هل سمعت شيئا عن زوجك ؟

- انه لا يريد ان يستسلم ..

- نعم مافعل .. ضعى خلف رأسى وسادة حتى استطيع الجلوس .. فقد تعبت من النوم .. وابعثى الى « كوستانديس » فى الحظيرة ، فأنا اريده ..

ثم عاد واغلق عينيه ..

وبعد ساعة ، ظهر شخص : نصف رجل ونصف عنزة ، ووقف امام الاريسة الصغيرة التى استلقى فوقها العجوز ، وظل ينتظر وقد اسند ذقنه الى عصاه .. وكانت عينا العجوز لاتزال مغلقتين فلم ير شيئا .. وكان ثمة طنين فى اذنيه فلم يسمع شيئا .. وظل « كوستانديس » صابرا ينتظر وهو يقول لنفسه : « سوف يفتح عينيه يوما ما فيرانى ويقول لى ما يريده منى »

ووقف الاحفاد وزوجات الابناء فى حلقة حول العجوز ووصل « ثاراساكى » بدوره والبندقية العتيقة تحت ابطه .. وكان قد صعد الجبل مرة اخرى يلعب مع اصدقائه لعبة الحرب .. وكان يقف هو الآخر : ينتظر مايمكن ان يحدث لجده ، حتى اذا اطمأن على ان كل شىء على مايرام ، خرج على رأس عصا من اصدقائه الى احدى القرى التركية وتحدى الصبية الاتراك .

وقال « كوستانديس » :

- ايقظه انت يا « ثاراساكى » فات لا تخاف منه ..

- هذا صحيح ، ولكنى اشفق عليه .. دعوه نائما ..

وسمع الجد الهمس حوله ، ففتح عينيه ، وخطا « كوستانديس » نحوه بقدمه الضخمة ، ورمشت عينا العجوز وهو ينظر الى الدائرة الملتفة حوله ، وبدا انه ضاق بالزحام فصاح فى غضب :

- لن اموت الان ايها الورثة المساكين ، ابتعدوا جميعا ، واقترب انت يا « كوستانديس » وانحن قليلا ..

واتجه الرجل الاشعث نحوه ، وانحنى يتلقى تعليمات العجوز « سيفاكاس » الذى كان يتكلم ببطء ، وهو يتنفس فى غير انتظام والام يوقفه احيانا عن الكلام ، وحين انتهى قال :

- هل فهمت يا « كوستانديس »؟ ..

- فهمت ايها العجوز « سيفاكاس » ..

- وبعدها .. وبعد ان تحيط كل القرى علما .. اسرع الى « ميجالو كاسترو » واذهب من فورك الى بيت ابني الاكبر - وانت تعرفه ولاشك - وزوجته « كريسولا » وخذ معك قالبين كاملين من الجبن وحملا صغيرا هدية منى اليها ، لقد وصل حفيدى « كوزماس » كما علمت ، فتأكد من ذلك بنفسك .. انظر اليه بعينيك والمسه بيديك ، هل تسمعنى ؟ .. ثم قل له « اذهب الى بيتروكيغالو فان جدك يموت وهو يريد ان يراك ليمنحك بركاته ... هل فهمت ايها المعتوه « كوستانديس » ؟

- فهمت يا « سيفاكاس »

- حسن ، فانصرف اذن .. عدوا ..

وعندما استدار العجوز نحوه كان هذا قد اختفى بالفعل ولم يسمع منه سوى وقع المسامير فى نعل حذائه فوق الارض ..

وفى صباح اليوم التالى ، فتح الباب الخارجى لبيت « كريسولا » العجوز على مصراعيه ، بركلة قدم ، ودخل شخص كثيف الشعر ، يحمل قالبين من الجبن داخل كيس ، وحملا مذبوحا تحت ذراعه .. وسار حتى منتصف الفناء عارى الصدر ، تقفح منه رائحة الثوم والبصل .. ووضع الهدايا فوق الارض واستند بذقنه الى عصاه .. وكانت النساء الثلاث يجلسن فوق الارىكة يحتسين القهوة ، بينما كان « كوزماس » بالطابق الاعلى يتهيا لزيارة المطران ، وكانا قد اعدا الرسالة معا ، وبعث بها المطران الى الجبال تطلب من الفرسان ان يحنوا رموسهم لان وطننا الام يرى ذلك .. وجاءه الرد : السمع له والطاعة .. ولكن بقى رد الكابتن « ميخائيليس » الذى لم يصل بعد .. فحين تلقى هذا رسالة المطران ارسل فى طلب الكابتن « بوليكسيجيس » الفارس الثانى فى « سبيلينا » واغلق الاثنان على نفسيهما الكوخ الصخرى ..

وقال الكابتن « ميخائيليس » :

- انا لن استسلم ..

وقال الكابتن « بوليكسيجيس » :

- ولكن وطننا الام يطلب ذلك ، فلا ينبغي ان نعترض ..
- اى وطن ام ؟ .. انا لا اثق فى الرؤوس التى تحكم هناك ..
- وهل انت واثق فى رأسك انت ؟
- اهذا وقت المزاح ؟ .. كلا .. ولا فى رأسى انا ايضا ، ولكن فى قلبى ، ان قلبى يقول لى : لا تستسلم .. ومن ثم فلن استسلم .. افعل ما يأمرك به قلبك .
- سافعل ما قررته بالفعل .. سوف اطيع الامر ..
- حسن ، فاذهب ، فلن يغير ذلك من الامر شيئا ، دعنى انت ايضا لقد غادرنى رفاق اخرون قبلك ، ولست فى حاجة الى احد منكم ، ارجو لك يافارسى حظا سعيدا ، وريحا مواتية ..
- وتردد الكابتن « بوليكسيجيس » ، كان قلبه يتمرد ويثور على التراجع ، ويرفض ان يترك هذا الرجل للموت ..
- انت تهلك نفسك بلا هدف ياكابتن « ميخايليس »
- وصاح الكابتن .« ميخايليس » :
- فى الحرب ، لايهلك المرم بلا هدف .. هل تشفق على ؟
- لقد كانت هناك مخلوقة واحدة احببتها فى كل هذه الدنيا ، ولقد قتلتها انت من اجلى .. كلا .. لست معجبا بك يا كابتن « ميخايليس » ولكننى لا احب ان اراك تهلك نفسك .. ان كريت - تخطفها الشيطان - لا تزال تحتاج اليك ..

وصاح الاخر هادرا :

- اما انا فلم اعد فى حاجة الى كريت .. قلت لك اذهب ..
- الا تفكر لحظة واحدة فى زوجتك ؟ الا تفكر فى « ثاراساكى »؟

وصاح الكابتن « ميخايليس » .. وقد انتفخت اوداجه من الغضب :

- اذا كنت ترى لحياتك قيمة .. فاهب ..

ثم ضرب بقدمه العوارض التى تسد مدخل الكوخ الصخرى ، ودفع الكابتن « بوليكسيجيس » الى الخارج ، ثم صاح فى « فيندوسوس » :

- وابتعد انت ايضا يا « فيندوسوس » استخدم ساقيك واسرع الى « ميجالوكاسترو » الى مقر المطران ، وانقل تحياتى الى الاسقف وقل له اننى تسلمت رسالته واحرقتها من اركانها الاربعة ، ولسوف اعيدها اليه .. انا لن استسلم ..

وقال « فيندوسوس » وهو يدس الرسالة فى صدره :

- امرك يا كابتن « ميخايليس »

- اسرع ، اذا كنت ترى قيمة لحياتك فلا تعد يا « فيندوسوس » فهنا .. الموت ..

وقال « فيندوسوس » وهو يتنهد :

ش ٨ - ان لى اطفالا ياكابتن « ميخايليس » .. وعندى ابنة تريد زوجا .. ثم هناك زوجتى والحانة ..

- فلا تعد اذن انت « فيندوسوس » ولست اسالك شيئا ، تصرف كما يتصرف « فيندوسوس » وخذ معك « كاجابيس » « فورد جاتوس » ايضا .. وانضموا هناك الى « بيتروبولوس » وافندينا ..

وادمم الكابتن « ميخايليس » وادار له ظهره .. واسرع « فيندوسوس » يهبط الجبل عبر الممر الخفى متجها الى السهل وهو يتنهد ويلعن « انت فيندوسوس .. فتصرف كما يتصرف فيندوسوس .. كانت الكلمات تلهب ظهره وهو يعدو ، وحين وصل الى المدينة يصعد درج المطرانية ..

فى تلك اللحظة ذاتها .. كان « كوستانديس » يدخل بيت ابوى « كوزماس » ويقف فى منتصف الفناء وهو يضغط بمخالبه على صدره

ويصيح : « عشتم .. عشت ايتها المرأة .. متعك الله بحياتك » .. وكان
صوته صوت الرجل الذى عاش حياته كلها بين الخراف والماعز ..

وقالت الام :

- مرحبا يا « كوستانديس » .. ادخل اجلس واشرب بعض النبيذ .. اى
انباء تحملها الينا من القرية ؟

- ان حماك الكابتن « سيفاكاس » يموت يا « كريسولا » ياسيدتى .. لا
شئ يمنع عنه الموت الان .. حتى الشيطان نفسه لا يفيد ..

قالها ضاحكا ، ثم استطرد :

- وقد امرنى بان احمل اليك هذه الهدايا ..

ثم جلس القرفصاء وهو يضع عصاه فوق ركبتيه العظمتين وهو يقول :

- بحق الله لقد عاش حياته كاحسن ما يكون : اكل وشرب وقتل الاتراك
وملا بيته اولادا وحميرا وبغالا وثيرانا ، واحال الارض البرية الى ارض
محروثة .. وزرع الكروم واشجار الزيتون .. وبنى كنيسة من اجل خلاص
روحه .. لقد امن نفسه هناك فى عليين ايضا ، فما الذى لم يفعله اذن فى
حياته ؟ .. الان يرفع راية الرحيل ..

وسمع « كوزماس » الاصوات ، فغادر غرفته ونزل وظل « كوستانديس »
ينظر اليه فى فضول من راسه الى قدمه ..

- انت الحفيد الاكبر للعجوز « سيفاكاس » ياسيدى ؟ ام اننى مخطىء ؟
ثم لوى عنقه ليراه جيدا ، ثم نهض وبدأ يتحسس بمخالبه : اوامر
الجد ..

واجابه « كوزماس » :

- انا هو ..

- اذن ، فجدك يريد ان يراك - ولكن بسرعة - حتى تسبل عينيه ، اقول

لك : بسرعة ، اذا كنت تريد ان تراه وهو لايزال حيا ، اقسم بالشمس التي
هى فوقنا جميعا ، انه ظل ينتظر كياسيدى طوال هذه السنين حتى يستطيع
الان ان يمنح روحه لكبير الملائكة ، لقد قال لى : « خذ البغلة ليركبها » ثم
قال لى « لقد امسكت انا بالفأس وامسك والدى بالبندقية ، ولكن حفيدى
كما اخبرونى - يمسك بالقلم ، ومن ثم فلن يقدر على السير ، خذ البغلة
وهاته معك الى هنا » .. ان البغال فى « الخان » تنتظر .. فهيا بنا ..

ثم استدار الى سيدة البيت ، وقال :

- هذه هى الانباء ياسيدتى « كريسولا » اما عن النبيذ الذى قدمته -
فسوف اشربه حتى لاتغضبى ..

وشرب النبيذ فى جرعة واحدة ، وتناول قطعة من الخبز من فوق المائدة
ومسح بها شفثيه وهو يضحك فى رضا .. وقال :

- ثم اسمعى ايضا هذه الانباء .. ان الكابتن « سيفاكاس » بعث يدعو
الى وائمة .. وكأنما سيمضى الى العالم الاخر مثل العريس ، انها ليست
اول مرة يطلبنى فيها فى هذه الاربعة والعشرين ساعة ، لقد كنت راعيه منذ
ولدت ، ورسوله .. لقد قال لى اسرع يا كوستانديس خذ عصاك وتسلق هذه
الجبال العالية واجمع زعماء الحرب القدامى .. قف فى وسط كل قرية وصح
: يا اولاد الكابتن سيفاكاس يموت .. وانتم يا من عاصرتموه وحملتم معه
السلاح وهو لايزال حيا - ان الكابتن سيفاكاس يدعوكم الى بيته ، انه لا
يريد هدايا فلا تخافوا ، وسوف يجدون الموائد ممدودة ومثقلة ، وسوف
تجلسون فوق كراسيه لتأكلوا وتشربوا ، وبعدها فان الكابتن سيفاكاس يريد
ان يقول لكم شيئا هاما ، احملاوا عصيكم وتعالوا .

وكان كوزماس ينصت اليه فى نهم ، وحين انتهى سآله :

- وماذا يريد ان يقول لهم ؟

وكان يفكر لحظتها فى ان ابطال العهد القديم وحدهم هم الذين ماتوا
بمثل هذه الكرامة .. واحس بالفخر لانه من سلالة هذا الرجل ..

وقال الراعى :

- ماذا يريد ان يقول ؟ .. وكيف لى ان اعرف ؟ .. لقد كدت ان أسأله ولكننى خفت - فربما ضربنى بعصاه فوق رأسى - لهذا سكت ولم اقل شيئاً .. وبقفرة واحدة اصبحت خارج البيت وانطلقت اعدو عبر الجبال وامر بالقرى واصبح ، ولم يخرج اليه سوى ثلاثة رجال من كبار السن ، الكابتن مانداكاس والكابتن كاتسيرماس وهذا المدرس الاعرج من ايمباروس وقالوا لى : قل له ان ينتظر .. لا تسلم روحك قبل ان تصل .. ثم وضعوا فوق رؤوسهم طرابيشهم ذات الذؤابات الضخمة .. وتمنطقوا باحزمتهم ..

وعاد كوستانديس يضحك :

- حطام ثلاثة .. مساكين رؤوسهم ملأى بالندوب مثل الغريال ، اقدامهم لا تكاد تقوى على حملهم ، مجموع اعمارهم ثلاثمائة سنة .. اللعاب يسيل من افواههم ، وحواجبهم مهدلة .. تمنطقوا بغداراتهم الفضية وكأنهم ذاهبون الى الحرب ، ثم بدءوا يترنحون وقد استند كل منهم الى الاخر حتى لا يسقطوا جميعا .. الا تصدقنى ؟ فسوف تراهم بنفسك اذن عندما تصل الى القرية .

ثم نهض واقفا وقال لكوزماس :

- ضع طربوشك فوق رأسك ياسيدى وتعال معى .. ان جدك يموت .. الم تسمع ماقلت ؟ انه يريدك لتسبل عينيه ..

ورسمت الام علامة الصليب .. وقالت فى ثقة ..

- مصيره الجنة .. لقد كان رجلا طيبا ..

وقال كوزماس :

- وابى ايضا مصيره الجنة ، كلنا سوف نصل اليها ، لاننا قاسينا الكثير فوق هذه الارض ..

وهزت اخته رأسها وقالت بضحكة غاضبة :

- ان الله عادل ..

وصاحت الام :

- ان الله رحيم ..

ثم ذهبت تبحث عن المبخرة لتوقد بخورا

واستدار كوزماس الى زوجته التى كانت قد نزلت وجلست الى ركن من
الاريكة تستمع فى صمت :
- سوف تأتين معى يا كريسولا ..

ولكن كوستانديس دق الارض بعصاه وصاح :

- وماذا تريد من النساء بحق الله ؟ انهن وياہ انت تقول : الى الامام
وهن يقلن : قفوا واحيانا يستبد الطموح ببعضهن فيندفعن الى الامام معك
ثم ما يلبثن ان يلهثن فيستثرن اشفاقك ، هل تستطيع عندئذ ان تتركهن
خلفك فى الطريق ؟ .. هذا خطأ بالغ .. تأخذهن معك ؟ تأخذ معك وياہ ..
ولكنك انت السيد الامر .. انت الذى تقرر ، ولكننى قلت كلمتى ..

وقالت الام التى كانت قد ظهرت تحمل المبخرة :

- كوستانديس على حق .. لا تأخذها معك يا ولدى .. ترهقها الرحلة ..

وقالت الاخت فى خبث :

- خذها معك .. سوف تتحمل ..

وارتعدت « نعيمى » ان تبقى وحدها بلا حماية فى بيت كهذا البيت ،
وأحسست بثقل الموقف ، فودت لو تحولت الى شيء صغير كالحشرة حتى
تختفى تحت اغصان الريحان المزروع فى الفناء .. وقالت :

- سوف اذهب معك .. اريد ان اتعرف الى كريت ..

وغمغمت الاخت : « اذهبى .. ولا تعودى »

لم تكن تستطيع ان تتحملها ، وكانت تحبس انفاسها كلما اقتربت منها ..

بل لقد خصصت لها بعض الاكواب والاطباق والسكاكين والشوك حتى
لا تختلط بالآخرى ..

وهمست نعيماً وهى تنهض لتستعد :

- سوف اتحمل ..

ولكنها حين نهضت ، احست بالدوار ، واحست بالبيت يدور حولها ،
فاستندت الى الحائط وقد اغلقت عينيها .. كانت طوال ذلك اليوم تحس
بجسدها ثقيلًا .. يضطرب ويختلج ..

واحست بمن يلمس كتفها فى رقة ، ورأت زوجها يقف امامها وفى يده
كوب ماء ، وايتسمت وهى تمد يدها لتتناوله ، ولكنها تهاوت فى اغماء ،
واسرعت الام تحضر خل الورد تمسح به وجهها وعنقها وهى تقول فى
عاطفة صادقة :

- انها مرهقة ..

وقالت الاخت فى فحيح :

- لا شيء .. مجرد اغماء .. حتى انا ، يغمى على ..

واعانها كوزماس واتجه بها الى الفراش وحين افافت نعيماً وجدت الام
تنحنى فوقها فقالت :

- سامحيني يا امى .. انا مرهقة ..

وقالت الام وهى تربت فى حنان ، لأول مرة ، على شعرها :

- نامى يا ابنتى ..

وانحنى كوزماس يقبل عنقها ويقول هو ايضا :

- نامى يا كريسولا لا تذهبى معى ، تذرعى بالصبر ، فسوف اعود
سريعا ..

وهزت رأسها .. وقالت وقد اغلقت عينيها :

- اذهب .. تصحبك البركة ..

واسرع كوزماس الى المطران الذى كان فى قمة الهياج والغضب ..

- تلقيت الان فقط رد عمك .. هذا البربرى .. انه لن يستسلم كما يقول .
انه ليس من حقنا ان نتدخل فى شئونه ، ان المسيح سوف يباركك اذا انت
ذهبت اليه بنفسك .. قل له ان كريت فى خطر بسبب خطئه .. ادخل بعض
التعقل الى جمجمته ، افعل ما تستطيع ، ذلك ضرورى يا ولدى سوف افعل
مابوسعى ياسيدى .. سأذهب ..

وجلست نعيمى فوق السرير تنتظره وهى ترتدى قميص نومها الاصفر
وشعرها الاشقر العسلى ينسدل فى خصلات فوق كتفها جلست تستند الى
ركبتها وهى تفكر ، ما اقوى الحب ، كيف قادها الحب الى هنا من اخر
الدنيا .. الى هذه الغرفة حيث المذبح وحيث صلب المسيح - وهى ابنة رجل
الدين اليهودى ؟ .. اه لو لم ار ما رأيت وظلت روحى ورقة بيضاء لم يكتب
فوقها حرف .. اى سعادة هناك يمكن ان تكون هنا ؟ وتذكرت الليلة الماضية
حين تمددت فوق السرير الحديدي قبل ان تستسلم للنوم ، والريح .. تهب
من خلال النافذة المفتوحة تحمل اريج الريحان والاقحوان .. ولم يكن ثمة
كلب ينبع ولا خطو انسان .. وكانت الدنيا تبدو وراء النافذة تحت اشعة
القمر الناعمة ، لم يكن ثمة صوت الا صوت البحر يتناهى من بعيد كأنه
التنهيدات الناعمة المتصلة المنتظمة .. البحر الذى لا يستطيع مثلها ان
ينام ..

ما اعذبها ليلة .. وما اجدره بالثقة هذا الرجل الذى يرقد الى جوارى ..
ويرقد داخل قلبى ..

ودخل كوزماس واغلق الباب خلفه ، وجلس بالقرب منها وهو ينظر اليها
فى رقة تنتهى عن الوصف .. نظرة طويلة .. كأنها نظرة الوداع ..
وسألت نعيمى وهى تتشبث بيده ، وقد احست فجأة بان رأسها يحترق :

- هل ستذهب ؟

وقال زوجها فى قلق :

- نعيمى .. انت محمومة ..

وقالت نعيمى ، وهى تضحك :

- لا.. انها ليست حمى ياعزيزى ، مجرد حرارة عادية فيما اعتقد ..
مألوفة فى اسرتى ..

ثم قالت بعدها على الفور :

- تبدو كأنما تودعنى ..

وكانت توشك ان تقول الى الابد ..

وارتعشت وهى تكاد تبكى .. وتكاد الكلمات تنطلق من فمها : كيف
تتركنى وحدى فى هذا البيت ؟ ولكنها تماكنت نفسها .

- سوف اعود سريعا يا حبيبى .. اريد ان اسبل عينى جدى ..

وامسك بيد زوجته ، وبدأت الحياة أمامه بسيطة هينة ، الزمن كله تجمع
فى هذه اللحظة القصيرة التى امسك فيها بيد دافئة يد الانسان التى احبها
، كانت تلك اللحظة هى الابد كله ..

وحدقت نعيمى فى زوجها دون ان تتكلم .. ولكن كوزماس هو الذى صاح
هذه المرة :

لا تنظرى الى هكذا كما لو كنت اودعك الى الابد ..

ثم انحنى يقبل عينيها ، واحس بحرارة على طرف لسانه ..

وقالت نعيمى وهى ترخى رأسها الى الوسادة :

- بل انت الذى تنظر الى كذلك ..

وتناهى صوت كوستانديس من اسفل يرن :

- انت ياسيدى .. ان جدك يموت اسرع لقد ملأت امك الغرارة ، احسن
الله اليها .. سوف نأكل ونشرب فى الطريق ونحن ننطلق كالرياح اسرع فقد
اقترب المساء ..

وانحنى كوزماس وقبل صدر زوجته فى رقة وثقة كما يقبل المرء صورة
مقدسة ، وقال :

- وداعا ..

وهمست المرأة وهى تمسك برأسه بين يديها :

- وداعا ..

وظلا هكذا لحظات وهو منحن الى صدرها .. وعيناها مليئتان بالركة
والغفران معا .. وعادت تقول :

- وداعا ..

ونهض كوزماس .. وعاد يريد ان يطبع على فمها قبلة ، ولكنها وضعت
يدها فوق فمها وهى تقول :

- لا .. الوداع ..

● الفصل الثالث عشر ●

وجه كريت .. عبوس متقلب ، فهي في حقيقة الامر تحمل في ذاتها شيئا ما عتيقا ومقدسا ، مرا ومتكبرا .. منح الحياة لكل هاته الامهات اللاني يعصف بهن ملك الموت ، وكل هؤلاء الفرسان .

خرج الاثنان : «كوزماس» و«كوستانديس» من ميجالو كاسترو ووصلا الى حقول الكروم واشجار الزيتون .. كان الاول يسير في المقدمة ، والثاني يتبعه وهو يحمل عصا الرعى على كاهله . وكان المساء يقترب .. وصفحة الارض المنبسطة امامهم مرقطة باللونين الاصفر والارجواني مثل جلد فهد ، وجبال «سيلوريتيس» تقف بقمتها الثلجية مؤنسة قوية عطوفة مثل الجد ، وفي المقدمة منها جبال «لاسيثي» مؤنسة هي الاخرى تحت اشعة شمس الشتاء الرقيقة ، واسفل منها تمتد الحقول المحروثة حديثا ، بعضها بنى في لون القرفة ، والآخر حالك السواد ، وثمة مجموعات من اشجار الزيتون بأغصانها الفضية اللون تنتشر هنا وهناك ، وشجرة سرو وحيدة ، وصف من اشجار الكروم العارية من الأوراق يتدلى منها عنقود او اثنان باعواد جافة .

وحقق «كوزماس» حواليه في امعان ، ودق قلبه بعنف وهو يقول لنفسه : «هذه هي كريت ، هذه هي الارض التي انجبتني .. هذه هي امي» . عندما كان يفكر في كريت وهو في اقطار بعيدة ، كان ثمة صوت قاس ملح يدوي بداخله .. ولا يفتأ يسأله : «ماذا فعلت طوال هذه السنين ؟ .. الا تخجل من نفسك ؟ انت تحارب الهواء وتثير نفسك بالكلمات ، ولكنك تطرح جانبا اللحم والدم .. وتتغذى بالأوهام ، لست احبك» .. وهاهوذا يذرع ارض الجزيرة ، فتمتلىء ربتاه بأريج الصعتر .. الآن لا يستطيع الفكك منها .. الآن هو مدين لها بالاجابة ، ولكن اى اجابة ؟ انه لم ينجز شيئا ، بل انه هو نفسه لم

يكن شيئاً .. أكانت تلك ايدي وافخاذ وصدر ام انها مجرد قطع من اللحم ؟ انه اذن لسبة فى جبين جنس من البشر صلب لا يقهر . والى اين الآن هو ذاهب ؟ ما احط الدرك الذى هبط اليه : انه فى طريقه لكى يدفن عملاقا من اهله ولكى يقنع آخر بالاستسلام .. وأحس بقلبه يخفق بين ضلوعه ، واستدار الى «كوستانديس» كيما يسمع صوت رجل .

- كوستانديس .. حدثنى عن جدى العجوز «سيفاكاس» اقترب حتى اسمعك جيدا ..

ثم أعطاه سيجارة وضعها «كوستانديس» خلف أذنه وهو يقول :
- وماذا اقول يا سيدى ، نحن احياء ، بينما هو يموت ، اى شىء فى الدنيا لم يفعله ؟ اى طعام لم يأكله ؟ اى شراب لم يشربه ؟ وكم من الأتراك قتل .. غفر الله له . انتبه جيدا الى ما اقول : لقد كان يبتلع كتلة من الجبن فى قضميتين اثنتين حين يجىء الى الحظيرة ، ثم بعدها كان يقتل بعصاه أرنباً برياً ويقول لى : «كوستانديس .. اشو هذا الأرنب لى» .. وكنت اشويه له فبنتهى منه فى غمضة عين ولا يبقى منه ولا عظمة واحدة . لقد اكل وشرب كما اراد . حتى فى ليلة عرسه .. قالوا انه حطم ثلاثة اسرة ، لا تضحك يا سيدى ، فهذه هى الحقيقة .

ثم توقف لحظة ، وخلق عصابة الرأس وجفف بها العرق المتصبب من وجهه الداكن .. وعاد يقول وهو يضحك :

- هل سمعت بما فعله عندما تزوج من جدتك .

- كلا .. احك لى يا كوستانديس .

- كان اهلها يرفضون تزويجها منه . فقد كان فقيراً بينما كانوا هم اقوياء اغنياء من عليّة القوم ، وكان هو شعلة متوحشة لا يختلف عن مكان فيه عراك ولا يتوانى عن اقحام نفسه فى أية متاعب حين تحتم ، فيحمل بتدقيته .. ويندفع الى الجبال . لم يكن اذن من طراز أهل زوجته المسالمين الودعاء . ولكنه على أية حال بحث اليهم يطلب يدها ، كما طلبها له أيضا راعى كنسية السيد المسيح . وكانت الاجابة : لا ، لا .. نحن لا نريده . وكانت اجابة جدك ان قال : «أه .. فهذا اذن صنفكم .. حسن ، فسوف اريكم ايها المواشى ! وفى احدى الليالى ، قفز فوق صهوة فرسه واندفع بها الى قرية عروسه بلا شىء معه سوى صفيحة ملأى بالنفط وعلبة ثقاب بالاضافة الى شىء آخر ، خاتم خطوبة من الذهب ربط الى عصابة راسه .

واقترح القرية وهو يرش بالنفط بيوتها واحدا فى اثر الآخر ويصبح «ايها الفلاطون» .. سوف أشعل النار فى بيوتكم» وسمع الكل صوته .. فعفره ، وقفز كل واحد منهم من فراشه .. وخرج اهل العروس .. «بحق الرب يا كابتن سيفاكاس ، لا ترتكب مثل هذه الجريمة» وصاح هو «اعطونى لينو» .

- «ألا تخاف الله» .

- «لا تقحموا الله فى أعمالى ، اختاروا .. النار .. او الخاتم» .
وصاح والد العروس «سوف يعاقبك الله على هذا العمل ايها المجنون» .
وعاد هو يصيح : «النار .. او الخاتم» .

- «ألا تشفق على هذه القرية ؟»

- «النار .. او الخاتم» .

وكان الفلاحون قد تجمعوا فى تلك الاثناء وقد استبد بهم الغضب . اى مجنون هذا الذى يريد ان يجبرهم هكذا .. ؟ «الى السلاح يا اولاد» ولكن راعى الكنيسة جاء فى تلك اللحظات .. وصاح : «خافوا الله يا اخوتى .. وحكموا عقولكم» ثم استدار الى والد الفتاة وقال : «ايها العجوز مينوتيس ، ارسم علامة الصليب ، انه زوج ابنة مناسب ، فأعطها له» ووقف الاكثر حذرا فى صف القس حتى استسلم العجوز وقال : «سوف أعطيها لك ايها المجنون ، ولكن اخرج من هنا الآن على الفور» .

«بل اريدها الآن ، احضرها الآن» ..

وخرج الاب يلعن وقد أحضر ابنته تتبعها أمها وهى تبكى .
وانحنى جدك ، وحمل العروس تحت ذراعيه وأجلسها فوق عنق فرسه ، ثم أطلق لها العنان .. وتساعد الغبار تحت سنايكها ، واندفع الفلاحون والقسيس خلفه يلهثون حتى وصلوا الى بيتروكيغالو عند الفجر . حيث كان الزواج يتم . وصاح فيهم جدك «الآن تعودون أدراجكم ، وسوف نصف الموائد يوم الاحد القادم ونرحب بكم .. أما الآن ، فأنا مشغول ..» .
وتناول «كوستانديس» السيجارة من خلف أذنه وهو يقول :
ثم أشعل السيجارة مستخدما قطعة جافة من «عيش الغراب» كصوفان .
ووصل الاثنان الى واد عميق ضيق تنساب فيه المياه غزيرة فوق الصخور المختلفة الالوان ، وسأله «كوستانديس» :

- هل أنت عطشان ؟
 - كلا .. دعنا نتابع السير ، فالليل قريب .
 - أما أنا فأحس بالعطش .. قف .
 واستلقى فوق الصخور ، ودفن لحيته وشاربه فى الماء ، وبدأ يلحق الماء
 بلسانه كالنمر ، ، وخيل الى «كوزماس» لحظتها انه لن يبقى ماء يعد فى
 الجدول . وظل يراقب رجل الجبال المفترس ، وينظر فى اعجاب الى جسده
 الممشوق والمفتول والى شعره الاسود الفاحم المبلل بالماء .
 ونهض «كوستانديس» واقفا فى حركة واحدة ، وجفف لحيته ووضع
 عصاه على كاهله وهو يقول :
 - هنا .. على هذه الصخرة التى استلقيت فوقها وشربت ، قتلت
 «حسين» الالبانى كاره المسيحيين ، جلال الله عظامه بالقطران ، ولقد
 اقسمت يومها ان اشرب من هذا المكان كلما مررت بهذا الوادى .. سواء
 اكنت احس بالعطش ام لا .
 وسأله «كوزماس» :
 - وهل قتلته وحدك يا كوستانديس ؟

وكان «كوزماس» قد عرف بالحكاية من المطران فى اليوم السابق ، تلك
 الحكاية التى كانت السبب وراء هذه المذبحة التى تعرض لها اهل
 ميجالوكاسترو ..

وأجاب «كوزماس» :
 - بالطبع .. أنا وحدى ، وماذا عسى أن يكون غير ذلك ؟ رجل فى
 مواجهة رجل كما تتم الأمور دائما بين الرجال ، كنت قد عرفت أن الكلب
 سوف يمر بهذه الناحية بعد ان اشعل النار فى احدى قرانا - وسوف تراها
 - فقد اصبحنا قرييين منها .. وكان قد قتل كل الرجال فى القرية ، وأقسمت
 أنا أن أقتله .. فترصدت له هنا .. وقطعت رقبتة .
 ثم تابع السير وهو يصفر بفمه .

وكانت الظلال قد بدأت تسحب غطاءها على وجه الأرض ، ووصل
 الرجلان الى القرية المكتوبة حيث لم يكن هناك سوى بيتين او ثلاثة لا تزال
 حوائطها قائمة . وخرجت من بين الاطلال نساء مهلهلات الثياب .. وفتاة

تحاول اخراج فرع من اثناء مملوء بالريحان ظل كما هو وسط الاطلال ، ثم تلقى به الى «كوزماس» وهى تقول «مرحباً» .

ووصلا الى ميدان القرية ، فتجمع حولهما بعض الرجال المستنين وبينهم بضع نساء ما لبثن أن تراجعن بينما تقدم عجوز ضخمة بارز العظام فرفع قبعتها احتراما وتحدث باسم الباقيين فى القرية .

.. ليس لدينا مقعد نستطيع أن نقدمه لك لكى تجلس فوقه ، وليس عندنا كوب نملؤه لك ماء لتشرب أن كنت عطشان .. وليس لدينا خبز أن كنت جائعا .. فقد احرق الكلاب كل شىء .. عسى الله أن يحرقهم بناره .

وقالت امرأة عجوز :

.. وليس عندنا أيضا رجل مناسب ليتحدث اليك ..
ثم بدأت فى النحيب والعيول .. وشاركتها امرأتان أخريان .. فقال
العجوز :

تذرعن بالشجاعة أيتها النسوة .. ألم يحدث لنا مثل ذلك فى سنة ١٨٦٦ ؟ ورغم ذلك فقد بقى عدد قليل من الاطفال استطاعوا فيما بعد ان يجدوا الحياة فى القرية .. وطالما ان هناك رجلا واحدا وامراة واحدة ، فلن تموت كريت أبدا .

ثم استدار العجوز الى «كوستانديس» وقال :

.. بارك الله يدك أيها الفارس ، وعسى الله أن يدخلك جنته ومعك ذات
السكين التى ذبحت بها (حسين) .

واستدار «كوزماس» وقال :
.. هيا .. الى اللقاء .

فلم يعد يحتمل ذلك الرعب القاتل المائل أمامه ..
وفى صمت .. اسند الرجال المسنون ذقونهم فوق عصيهم وهم يتابعون
الأثنين بنظراتهم .. بينما مسحت النسوة العجايز الدموع ، ووقفت فتاة

امام اطلال بيتها وهى تحديق باعجاب فى «كوزماس» وهو يقفز فى فتوة من
صخرة الى صخرة .

وكانت الشمس قد بدأت تغيب حين وصلا الى بقعة صحراوية لا تقف
وسطها سوى بضعة اشجار من السنديان تنوح ، وضرب «كوستانديس»
البغل بعصاه يستحثه على السير .. وقال :
- يجب ان نسرع اذا كنا نريد ان نصل الى القرية التالية قبل ان يهبط
الظلام . وسوف نتوقف هناك عند «كوبيلينا» العجوز . انها خالتي .. وليس
لها منزل ، ولكن قبلها كبير وذلك يكفينى . انك لن تجد بيتا قائما فى تلك
القرية كذلك .. فقد اقتحمها الاشرار ، لعنة الله عليهم .

وبرزت امامهم عجوز نصف عمياء تحمل فوق ظهرها حملا من الخشب ..
وسألها «كوزماس» :

- كيف الحال عندكم يا سيدتى ؟
- كما هى الحال مع الكلاب يا ولدى ، آه لو ان الله سبحانه لم يحمل
الانسان اكثر مما يحتمل .
- هل هاجمكم الاتراك انتم ايضا ؟
ولكن «كوستانديس» اشار الى «كوزماس» فى عنف .. كى يتوقف :
- ماذا قلت يا ولدى ؟ .. ان سمعى ثقيل الحمد لله على أية حال .

- الى اللقاء يا سيدتى .. فعلينا ان نتابع سيرنا .
- هل أنت كريتى ؟
- نعم .
- باركك الله .. انجب اطفالا يا ولدى . ان كريتى أصبحت خاوية ،
فانجب لها اطفالا حتى لا يختفى الكريتيون من الدنيا .. ان كريتى سوف
تحتاج اليهم ايضا .

وقال «ستانديس» وهو يضرب البغل : «هيا بنا ..» .

وانطلق الاثنان .

- من حسن حظنا انها لم تقذفنا بالحجارة ، انها «كوستاندينا» العجوز
أرملة «الحاج» كما يسمونها . حين ترى المسكينه رجلا تفقد اتزانها وتلتقط

الحجارة وتقذفه بها .. انها تظن كل رجل تركيا .
وجمع بعض ثمار السنديان الملقاة على الأرض . فأكلها بينما
«كوزماس» يتطلع اليه فى دهشة .

- ليست هذه ثمار السنديان .. انها «كستناء» .. على الاقل نحن نسميها
كذلك حين يهبط الليل ولا نجد شيئا نأكله ، ثم لا نستطيع أن نميز فى
الظلام بين شيء وآخر .

واخيرا انتهيا الى ممر بين الجبال ، فقال «كوستانديس» وهو يشير
بيده :

- هذه هى القرية ..
ولم ير «كوزماس» سوى اكوام من الاطلال على سفح الجبل ، فقال :
- أين هى ؟ انى لا أرى شيئا ؟
- أمامك .. هذه الحجارة ، وبعد لحظات ترى الناس .. وهما قد احست
الكلاب بنا .

واندفعت بعض الكلاب من وسط الاطلال تنبح وقد برزت عظامها من
شدة الجوع . وقال «كوزماس» :

- ومن أين لهم بالزيت يا سيدى ؟ أو النفط ؟ انهم يتجمعون كالنوم وسط
هذه الاطلال عندما يهبط الليل .
وبرزت خمسة رؤوس او ستة من خلف صفوف الحجارة : «الى أين ؟» .
- الى العجوز «كوبيلينا» التى ستعد لنا فراشا وثيرا فى بيتها الملوكى ..

وأجاب «كوستانديس» :
وارتفعت الضحكات .. وقال احدهم :
- أمعك قضمة من طعام ؟
- نعم .. معنا بعض شيء .
- حسن ، فسوف تأكل كوبيلينا العجوز ايضا . ترى هل معكم ايضا
بعض الشراب ندفىء به أجسادنا ؟

- رذلك أيضا معنا ..

- حسن .. فسوف تدفء كوبييلينا العجوز جسدها هي أيضا ..

وعادت الضحكات ترتفع من جديد ، وقال «كوزماس» فى زهول :
«انهم يقدرين على الضحك» .. وتوقف «كوستانديس» وبدأ يحصى
اكوام الأطلال «أربعة ، خمسة ، ستة .. أه ، ذلك بيت خالتي . لن نحتاج
الى ان نطرق الباب .. فليس ثمة باب» .. ثم صاح :

- كوبييلينا .. أخرجى الى الشرفة .

خرجت من خلف الصخور امرأة عجوز هشة وسط اسمالها :

- أه وانت يا كوستانديس ؟ متى يا ترى تعرف العقل ؟ ومن هذا الذى

معك ؟

- افتحى الأبواب على مصاريحها ، واذهبى دجاجتين واعهدى بهما الى
الخادمة لتنظفهما . نريد احدهما مسلوقة والاخرى محمرة مع البطاطس ..
وافتحى صناديقك كذلك واخرجى الملاءات الحريرية واعدى لنا فراشا .. ما
اسعدنا بأن وصلنا .. متعك الله بمملكتك .

وأجابت العجوز وهى تتعثر نحوهما :

- سيكون كل شيء جاهزا على الفور أيها الريح العاصفة .
ورحبت بكوزماس الذى كان قد ترجل وبدأ يتعثر وسط الانقاض .
- مرحبا يا سيدى .. مرحبا يا ولدى . لا تعر سمعك لهذا الاحمق
«كوستانديس» لقد فرشت ركننا بالحشائش - وذلك افضل ما عندى .. تعال .

وافترشا الصخور ، وجمع «كوستانديس» بعض الاخشاب وأشعل نارا ،
بينما فتح «كوزماس» غرارة أخرج منها كل المؤن التى زودته بها أمه ،
وجلس العجوز الى جوارهما ويدعوا جميعا يأكلون . ورسمت العجوز علامة
الصليب .. وهجمت على الطعام .

- تعالوا كل مساء يا أولادى .. كل مساء ، حتى أجد أنا المسكينة شيئا
أكله . هل معكم شيء من النبيذ ؟

وأخرج «كوستانديس» زجاجة ما ليثت الافواه أن تناقلتها ، وظلت
العجوز تشرب وتشرب حتى برقت عيناها . كانت جميلة فى شبابها ولا
شك ، اما الآن فلم يعد باقيا سوى عيينين واسعتين لا معتين بنيتين .

وقال «كوستانديس» الذى كان قد انتشى بالشراب :

- ما رأيك يا عمتى ؟ .. هلا سمحتم لى بأن اغنى ؟
 واجابت العجوز - ضحية ملك الموت القريبة - :
 - اذنت لك .. غن ما دمت حيا ايها الاحمق !

وبدأ «كوستانديس» يغنى وهو يطم الأنغام ، بينما خالته تنصت وتقهقه
 وقد انفجرت شفتاها عن فم بلا أسنان :
 فى احدى امسيات الصيف .
 صحبت خالتي ثودورا الى المدينة ..

لقد أغرقنى جمالك فى دوامة ..
 أه لو كنت فتاة اخرى ..

ايها الطفل الصغير .. كن رجلا واختر طريقك فسوف أصبح خالك مرة
 اخرى .. يوما ما . واحسنت العجوز المأخوذة بأن حياة جديدة تدب فى
 اوصالها ، فبدأت تصفق بيديها وقد أحمر وجهها ، وأخذ «كوزماس» ينظر
 اليها فى امعان وهو يحدث نفسه : «ياللقوة التى يحملها هؤلاء فى حنايا
 صدورهم .. هذه هى كريت» .

وصاحت العجوز وهى تضحك : «الفقر أيضا يا ولدى .. ينبغي أن تكون
 له متعة ، إن المعاناة تستلزم الغناء والشراب حتى لا تتغذى على
 اجسادنا ، ونحن لن نسمح لهذا «الزبون» الثقيل بأن يجعل من اجسادنا
 وجبة طعام له .. بل سوف نأكله نحن» .

وعندما تهيأ الاثنان لمغادرتها فى الصباح ، التقطت العجوز قطعة من
 الحجارة ملطخة بالدماء من ساحة البيت وقدمتها الى «كوزماس» وهى
 تقول :

«هذه هى الهدية الوحيدة التى أملك أن أقدمها اليك ، احتفظ بهذه
 القطعة من الحجارة وتذكر معها كريت دائما .. ثم أشارت الى بقع الدماء
 الحمراء الداكنة وهى تقول : «هذه هى دماء أبنى» .

ومرة اخرى سار «كوستانديس» فى المقدمة وعصاه على كاهله .. يغنى بلا انقطاع ، بينما «كوزماس» وراءه ينظر الى مسقط رأسه الذى يمتد حواليه والذى يمارس الآن ولأول مرة - تجربة ادراك معناه الذى غاب عنه طويلا : ثائرة ، قاسية هذه الأرض .. ما أصعب فهمها ، انها لا تتيح لابنائها لحظة واحدة من الراحة او الرقة او الاسترخاء ، وان فيها لشيئا ما غير انسانى ، وان المرء ليحار فى أمرها ، اهى تحب ابناؤها أم تكرههم ؟ .. ولكن المؤكد انها تظل تقررهم حتى تسيل دماؤهم .

واستدار ينظر الى الى اكوام الصخور التى كانت قرية من قبل ، والتى كان يبدو خلالها بعض النسوة والاطفال . وتناهت الى سمعه اصوات وضحكات «اى قوة تكمن هنا ، ويالها من نفوس ، أربعة الاف سنة وهم يكافحون وسط هذه البرية والصخور .. يكافحون الجوع والعطش والتناحر والموت ، ولكنهم أبدا لم يركعوا ، ولم يشكوا ، بل ان الكريتى ليجد العزاء حتى وسط أعرق وأقسى حالات اليأس» .

وعندما أصبحت قرية الجلد على مرمى البصر ، كانت الشمس فى كبد السماء تماما وثمة ربيع جنوبية حارة تهب آتية من جزيرة العرب والبحر قد بدأت تبين صفحته خلف الجبال .

وكان بيت «سيفاكاس» العجوز يقف على أعلى ربوة فى القرية . متميزا بعصارات النبيذ وعصارات الزيت والحظائر والمخازن التى تمتلئ بالجرار فى صفوف والشرفات الواسعة حيث توضع البسط والوسائد فى اكوام تصل الى السقف فى اثناء الصيف ، وغرف النوم الفسيحة فى الطابق الاول . وكانت الابواب مفتوحة على مصاريعها ، والناس يدخلون ويخرجون بعد ان يسألوا عن احوال الفارس العجوز الذى ظل يكفاح ملك الموت سنين طويلة . وكانت زوجات ابناؤه .. وكان احفاده ، يصعدون ويهبطون وهم يحصون الجرار ويقيمون ما بداخل المخازن من الدقيق والزيت .. ويتممون على أباريق النبيذ فى قبو الخمر .. ويحصون كل شئ عددا : كم قطعة لحم معلقة فى عوارض السقف ؟ كم قالبا من الجبن ؟ وكانوا يعلنون بصوت مرتفع عن العدد من كل صنف والذى سيرثه كل جانب ، كانوا يرثون الجد

وهو لا يزال على قيد الحياة ، ومن بعيد صاح فيهم العجوز فى غضب :
«احملونى الى الفناء حتى لا أسمعكم» .

وأعدوا له فراشا فى الفناء ، فقال : «ضعونى فوق الأرض تحت شجرة
الليمون أريد أن ألقظ آخر أنفاسى هناك حيث تلمس الأرض جسدى وحيث
المس أنا الأرض ، وارفعونى عن الأرض قليلا بما يكفى لأن أرى كل شيء
حولى» .

ووضعوا خلف ظهره بعض الحشايا ، وجعلوا عصاه الى جانبه .. وكوب
ماء ليشرب «والآن دعونى وحدى .. اغربوا عن وجهى ، لا أريد بجانبى
سوى ثاراساكى» وأجال البصر حوله ليرى الحظائر والعصارات والنافوة
والأحواض وشجرتى السرو على يمين الباب وشماله . وتتسم الهواء ورائحة

أوراق الليمون .. والروث ، فأحس لحظتها بالبهجة وتحسس لحيته فى
ارتياح وسمع تنهيدة الى جانبه فاستدار ليرى شابا منتصب القامة موج
الشعر يقف الى جواره وينتظر .

- حسن .. من تكون ؟

- كوستانتينيس .

- ابن من ؟

- ابن ولدك نيكوليس .

- ولماذا تقف هكذا قريبا منى ؟

- موتك يستغرق وقتا طويلا يا جدى ، وأنا فى عجلة من أمرى .. أريد أن

أعود الى حظيرة الخراف .. أريد أن أنصرف .

- فأنصرف اذن ولا تنتظر هكذا بلا فائدة اذهب وأرع خرافك جيدا ، أما

أنا فسوف أموت على مهلى .

وانحنى الحفيد وقبل يد جده وهو يقول :

- لا .. لن أذهب الا اذا منحتنى بركتك ، اننى انتظر منذ الصباح الباكر

من أجل ذلك .

- حسن .. فانى امنحك اذن بركتى .. فاذهب ، ولكن استمع جيدا الى ما

اقوله : «اذهب الى الداخل أولا ومرهم بأن يحضروا الموائد فى الفناء

امامى حتى ياكل الفرسان الثلاثة هنا وحتى اراهم وهم ياكلون . الا يزالون ياكلون ؟» .

- بلى .. لا يزالون .. منذ الباردة مساء ، اعنى منذ وصلوا . اقسام لك يا جدى بأن افواههم لم تعرف الراحة منذ الباردة . انهم ينامون احيانا للحظات فيسند كل منهم راسه الى كتف الآخر ، ثم لا يلبثون ان يفيقوا ليستأنفوا طحن الطعام بأسنانهم . والمدرس احضر معه قيثارته ليعزف عليها امامهم .. والكل لا يكفون عن مضايقة النساء .

- ما الذى دهاك أيها الفارغ الرأس ؟ .. أصمت .. افعل ما أمرتك به . الموائد تتقل الى هنا حتى أراها ، وإذا لم يستطيعوا الحركة فساعدهم أنت يا كويستانتيس . ولا تضحك انهم فرسان ويستحقون الاحترام .. هيا .. وظهر «شاريديموس» .. وكان جده قد بعث به الى الكابتن ميخائيليس يحمل اليه اخبار احتضاره ، ورفع العجوز عينيه ، ورأى شاريديموس :

- اى اجابة تحملها الى ؟ هل سيأتى ؟
- ايه يقول لك «لا أستطيع ترك موقعى يا أبى ، سامحنى ، ولكننى لا أستطيع ان أترك موقعى ، امنحنى بركتك من بعيد .. ووداعا .. وعسى ان نلتقى قريباً» .

- انه على حق ، انه اخطأ مرة واحدة ، وقد تعلم منها ، انى امنحة بركتى من بعيد .

ورفع يده بيبارك الهواء ، ثم استدار الى «ثاراساكى» وقال :

- ثاراساكى يا صغيرى ، هل تفهم ما يجرى ؟

- نعم يا جدى .

- افتح عينيك جيداً يا ثاراساكى لترى كل شىء بوضوح ، وافتح اذنك

جيداً لتسمع كل شىء بوضوح ، لا يفتك شىء مما تسمع وترى .. الآن سوف يجيء ثلاثة جبال - الفرسان الثلاثة .

وبينما كان لا يزال يتكلم ، ظهر «ستافروليبوس» النجار بالبواب ، وكان الجد قد بعث فى طلبه ليأخذ مقاسات نعشه . واقترب فى ببطء وتردد ، وكان الجد قد اغلق عينيه قليلاً وتظاهر بأنه لم يره .. وانحنى الرجل وبسط ذراعياً فى حذر ليبدأ القياس ، وتساعل فى محاولة لتهدئه العجوز :

- كيف حالك يا كابتن سيفاكاس ؟ انت اليوم على ما يرام والحمد لله .
وسوف تهزم ملك الموت ولا شك .

ورأى العجوز كيف يحاول النجار ان يأخذ المقاسات فى حذر وهو يرتعش ، فابتسم فى كفه .. ثم أخذته الشفقة بالرجل فقال :

- لا تخف يا ستافروليبوس يا أحمق ، وأحضر مسطرتك وخذ المقاسات .

وقال النجار فى ذهول :

- ماذا قلت يا كابتن ؟

- ايها الغبى ، ابدأ عملك وخذ المقاسات .

وخيل الى الرجل ان العجوز يبحث عن عصاه فأجفل ، واخرج شريط القياس من حزامه ووضع بهذاء الجسد الضخم . وسأله العجوز :
- كم الطول ؟

- ستة أقدام تماما يا كابتن .

- اذن فقد انكمشت ، قس العرض كذلك .

وقاس «ستافروليبوس» العرض .. ثم توقف .

- هيا .. واسرع يا تعس ، اريده من خشب جيد ، الديك خشب جوز ؟

- بالتأكيد يا كابتن .

واستدار العجوز الى ثاراساكى .

- هل تستطيع تمييز خشب الجوز يا ثاراساكى ؟

- نعم يا جدى .

- حسن .. فتأكد اذن من انه لن يغشنا ، اريده من خشب الجوز ..

انصرف .

وكانت النسوة فى تلك الاثناء يحملن الموائد الى الفناء ويضعن فوقها اللحم المشوى والمشهيات واباريق النبيذ وكنؤس الشرب النجاسة ، وتحرك العجوز قليلا يراقبهن ، وطننت نحلطان حول رأسه الضخم كثيف الشعر ، وبدأ بعض النمل يجوس فوق صدره الذى يكسوه الشعر فيحس لدغذغته بالمتعة .. وسأل :

- اين الفرسان ؟

- هاهم قادمون يا جدى .

ولاح الثلاثة يسيرون فى بطء يسند كل منهم الآخر ، وقد انحرفت

رؤوسهم .. وابتلت شواربهم وتهدلت .. وانحلت أحزمتهم العريضة
الحمراء ، سراويلهم منتفخة من صوف سميك ، واحذيتهم مهلهلة .. وكل
واحد منهم يضع خلف اذنه زهرة اقحوان .

وهمس واحد منهم للآخرين :
- فلنتماسك ونحن نسير يا اخوتي ، حتى لا نجلب على أنفسنا العار .
وقال المدرس الأعرج ، وقد اسندوه بينهم :
- امسكوا بى جيدا حتى لا اسقط .

كان المسكين فى حالة يرثى لها من السكر . وقد تدلت فيثارته من
كتفة ، وكأنها حزام خراطيش ، والى يمينه سار الكابتن «مانداكاس»
شامخا فى طوله ، بلحيته القصيرة وعنقه القوى وعظامه الصلبة وأذنيه
العملاقتين وقد لمعت فى خاصرته غدارته الفضيّتان ، الى اليسار كان
الكابتن «كاستيرماس» القرصان وقد لوح هواء البحر وجهه ، بوجهة
الوحشى وعينيه الحولوين ، وعندما رأوا العجوز .. توقفوا .

وصاح «مانداكاس» وهو يزار بالضحك :
- الا تزال حيا يا سيفاكاس يا اخى ؟ ونحن الذين كنا نأكل ونشرب
ونقول : «كان الله به رحيمًا» .
وقال العجوز :

- ان تأكلوا وتشربوا المزيد يا فرسان ، لقد سمعت ان افواكم لم
تسترح منذ البارحة ، فمتى اذن تمتلئون حتى تنسوا المعدة فنستطيع ان
نتبادل الحديث كالرجال ؟

واستعد المدرس للكلام ، ولكن الكلمات تدرجت داخل فمه مثل قطع
من حجر الصوان . وغطى «كاستيرماس» وجهه بيديه وقال : «أهدأ ايها
المدرس . والا فسيرون الام آل حالنا» .

ثم اتجه بالحديث الى «سيفاكاس» فى صوت محترم ، وهو يضع يده
فوق صدره :

- طال عمرك يا كابتن سيفاكاس ، كم نحن سعداء بأن نزورك فى بيتك .
لقد اكلنا وشربنا ولسوف نأكل ونشرب المزيد فى صحبتك ، وبعدها سوف
نتبادل الحديث مثل الرجال كما تريد . فلا تتعجل .

وأجاب العجوز :

- لست أنا الذى أتعجل ، ولكنه غيرى .

- من ؟

- ملك الموت .

وقال الكابتن «مانداكاس» وهو يقتل شاربه :

- نحن ثلاث زعماء .. وبك يكتمل عددنا أربعة ، ولابد اذن ان ينتظر :

وتمايل الثلاثة معا مثل وحش ذى رؤوس ثلاثة واقدام ست ، وامسكوا بالمدرس من عنقه حتى لا يسقط فوق الارض . وكان الاحفاد وزوجات الابناء قد خرجوا وبدعوا يضحكون بصوت مرتفع لمشهد الإبطال السكارى ، ولكن العجوز «سيفاكاس» صاح فى غضب :

- علام تضحكون ؟ انهم فرسان ، رجال اشداء .. امسكوا بهم جيدا حتى لا يسقطوا .

وصاح الكابتن «كاتسيرماس» هادرا :

- اذا اقترب احد منى سحقت جمجمته .

وتخلص من زميليه ثم اتجه الى الموائد بخطوات واسعة .

واخيرا وصل الثلاثة ، وجلسوا فوق عروشهم ، وملأوا اكوابهم ، ورفع المدرس قيثارته عن كتفه ووضعها فوق ركبتيه ثم تناول قطعة من اللحم ليقوى بها نفسه قبل ان يداعب اوتارها .

وبينما كان يتناول قوس القيثارة ، وصل «كوزماس» فراه الجد وزوى ما بين حاجبيه حتى يعرف من يكون .

- من هذا الهزيل الواقف عند عتبة الباب ؟

واتجه نحوه «كوزماس» وهو يقول :

- حفيدك يا جدى .

- اى حفيد ؟

- ابن ولدك كويستاروس .. اول الاحفاد وصاح الجد مرحبا وهو يمد يده :

- مرحبا . تعال .. اقترب حتى أمنحك بركتى .. أين كنت طوال هذه

السنين ؟ ماذا كنت تفعل فى بلاد الفرنجة . ما الذى تعلمته هناك ؟ نعم .. لو كان لدى مزيد من الوقت لاسألك ولتجيب . ولكن زيت المصباح نضب

والدنيا بدأت تظلم .

وانحنى «كوزماس» ليلتقى البركة وظل الجد ممسكا بيده لا يريد ان يدهه بنهض واقفا على قدميه .

- يقولون انك تكتب ، فما هذا الذى تكتبه بحق الاله الذى تعبد ؟ سوف تصبح اذن مثل «كرياراس» الشاعر الذى يجوب القرى ويمر على الناس ويبيده طبق يجمع فيه النقود .

وبدا الجد يتفحصه بعينه الصغيرتين الحادثتين . اى صنف من الاحفاد هذا الشاب ؟ ائمة قيمة له أم لا ؟ وكيف اتفق ان بذرته اثمرت مثل حامل القلم هذا ؟

- متزوج ؟

- نعم .

- يقولون انك اخترت يهودية .

وقال «كوزماس» وهو ينظر الى العجوز فى قلق .

- نعم .

- ليس فى الامر خطأ ايها الاحمق . ان لهم هم ايضا ارواحا ، والذى خلقنا جميعا اله واحد .. انت اصبت : احببتها فأخذتها مثل فارس ، لا بأس مادامت محترمة وسيدة بيت وحسنة المنظر وتنجب اطفالا - لا تطلب فى المرأة اكثر من هذا .

- لقد اعتنقت المسيحية يا جدى . ان لها روحا طيبة وسوف تحبها .

- وهل هناك ثمة لحم ، يكسو عظامها ؟ .. فماذا ستفعل المرأة بالروح ؟ .. الجسد هو وحده الذى تنمو فيه البذرة . منذ متى تزوجتها ؟ .

- منذ عامين يا جدى .

- والاولاد ؟ ..

- ليس بعد ..

- أنت اذن «لست متعجلا» فماذا تفعلان اذن كل ليلة ، ايها

الأحمقان ؟ اننى أريد أولاد أحفاد من الصلب ، عليها أن تنجب كريتيين ..
اسمعنى جيدا : كريتيين لايهود ، وخذها نصيحة : احذر الكتب .

- انها حامل يا جدى .

-بركاتى .. فلتسمه « سيفاكاس » ، هل سمعت ؟ هكذا يقوم الموتى مرة
ثانية ، والآن اذهب .. تحرك جانبا .

ونظر الى « كاتيرينا » زوج ابنه والتي كانت تقف خلفه بذراعيها
مطويتين ، فقال لها :

- ضعى وسادة أخرى خلف ظهري ، أريد أن اجلس مستقيما حتى
أتكلم ، وهاتى لى بعض زهور الليمون لأشمها ، وعندما يتكلم الفرسان لا
أريد أن اسمع صوتا منكم ، أفسحى ، فأنا أريد أن أتحدث الى الكبار .

وكان الكبار فى تلك الأثناء قد انهمكوا مرة أخرى فى الأكل والشرب ،
وكان المدرس قد أسند رأسه الاسود الى جذع شجرة سرو وبدأ يغنى
بمصاحبة قيثارته والدموع فى عينيه :

وراء الحمام دخت طول اليوم نفدت ذخيرتى .

فنظر فى النهاية .. أسعد قلبى .

وقعت يا حمامتى ..

- وصفق الجد بيديه وصاح :

- والآن يا فرسان ، الا تزال بطونكم التعسة تحتاج الى المزيد ؟ الآن
كفى ، فامسحوا لحاكم واغسلوا أيديكم وشدوا أحزمتكم واقربوا .

ثم كلمات أريد ان أقولها ، فمن أجلها دعوتكم . وأنت أيها المدرس ،
ضع هذه القيثارة على كتفك ودع الحمام والذخيرة وكل شئ ، فقد كفانا
منها الآن .

ثم استدار الى النساء والأحفاد وقال :

- يا أولاد ، احضروا لهم ماء ليفتسلوا ، وبعض الطيب حتى تزول هذه الروائح العفنة منهم . نظفهم « وهندموهم » يا أولاد قبل أن يقتربوا منى .

وأحضرت القتليات الطيب ورششنه فوق الرجل العجوز ، وأحضرن خل الورد لكي يستنشقه الرجال فيفيقوا ، وعاونهم حتى اقتربوا من الجد ، وأصبح اثنان منهم الى يمينه وإلى يساره ، أما المدرس فقد جلس أمامه القرفصاء .

وفتح « سيفاكاس » العجوز ذراعيه يحيى الزعماء كما لو كان يراهم لأول مرة :

- ألف مرة مرحبا بكم فى بيتى المتواضع .. مرحبا بك ياكابتن « مانداكاس » أيها القرصان الشديد البأس فى أعالي البحار ، وبك أنت أيضا أيها الكابتن المدرس الذى حارب وسط ظلالنا والذى كتب أوراق الثورة .. وكتب ماكان ينبغى كتابته للأتراك والفرجة ..

وقال الثلاثة وقد وضع كل منهم يده فوق صدره :

- التحية لك ياكابتن سيفاكاس ..

وأرهقت الكلمات العجوز « سيفاكاس » ، فتنفس بعمق ، وشرب جرعة ماء ، ثم عاد مرة أخرى ليتكلم :

- يا اخوتي ، هل تذكرون كيف أننا كنا نحن الفرسان نجتمع عند كل ثورة تحت شجرة سنديان أو فى أحد الأديرة ونردد الاقسام . ويقبل كل منها الآخر لأننا كنا نخرج بعدها لنتلقى بالموت ؟ .. ان اجتماعنا اليوم شبيه بمثل هذه الاجتماعات وهو كما ترون يتم تحت شجرة ليمون العجوز « سيفاكاس » .. اعلموا أنني كنت منذ أيام وأيام أتهيا للرحيل ، ولكننى لم أرحل بعد ، لقد أدليت باعترافى .. ولكننى لم أرحل ، وإن أرحل أيها الفرسان قبل أن تتبادل نحن الأربعة الحديث .. هذه أيضا ثورة ، فماذا

سيكون قرارنا ايها الاخوة ؟ .. هل سمعتم ماقلت ؟ هل اذهانكم صافية ؟
هل تستطيعون الاستماع والكلام ؟ لم تراني اهدر كلماتي واضيعها عبثا ؟

وقال الثلاثة وهم يضعون ايديهم فوق صدورهم وكأنهم يقسمون :

- نستطيع ان نسمع .. وأن نتكلم .

- حسن ، فاستمعوا الى اذن ، لقد بلغت من العمر مائة عام ، وأنتم
جميعا تشهدون جميعا بأننى حاربت .. وعملت ، وبأننى سعدت وحزنت ،
وبأننى أدبت واجبى كرجل . وماقد حانت ساعتى ، فالأرض تفتح لى
بابها .. وهى تريد كما يبدو أن تبتلعنى ، حسن ، فلتبتلعنى ولتأخذ منى
بثأرها .. ولكنها لن تبتلعنى بأكملى أنظروا ماذا تركت ورائى .

ثم أشار الى ابنائه وأحفاده وحفيداته وأبناء أحفاده ..

- شعب بأكمله ، من أجل هذا فأنا لا أكرث بالموت ، فقد قهرته . ان
الشیطان قد نال منه أفضل مالمديه .. ولكن ثمة أمورا تقلقنى .

وتوقف قليلا وهو يتنهد ، ثم قال فى صوت ارتعش لأول مرة :

- لى زمان طويل ايها الفرسان وأنا لا استطيع النوم . ثمة دودة
تضايقنى ..

وعاد ينظر الى الفرسان واحدا بعد الآخر ، ثم أحنى رأسه وسأل فى
صوت مرتفع .

- هل سمعتم ماقلته ؟ انتبه . ان عينيك تتعسان ايها المدرس .

وقال المدرس فى غلظة :

- اننا منصتون . أى دودة ؟

- دودة تنهش فى لحمى ياخوتى ، انى لا أستعرض حياتى وأنظر الى

موتى .. واخل افكر وافكر : من أين جننا يا أولادى والى أين المصير ؟ ..
تلك هى الدودة التى تنهش فى لحمى .

وساد الصمت ، وارتعشت شفتاه ، وبدأ القلق يساور الفرسان الثلاثة .
وحك المدرس رأسه الأصلع وفتح فمه يتكلم ، ولكنه راجع نفسه .. فلم يكن
يعرف بالضبط ما الذى يمكن أن يقوله .

وعاد العجوز يسأل :

- ألم يفكر واحد منكم فى ذلك من قبل ؟ ألم تضايقكم هذه الدودة ابدا ؟

وأجاب الثلاثة :

- ابدا ..

- وأنا أيضا طوال حياتى .. والله يعلم . ولكنى لم أعد أستطيع النوم فى
الأيام الأخيرة . لمن كنت سأسرد أحزاني ؟ ان أحفادى صغار - فى
الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، وعقولهم ليست ناضجة بما فيه
الكفاية ، وما كان بمقدورهم أن يفهموا ما أقول . لو كان لدى البكر
« كوستاروس » حيا ، لكان الآن فى السبعين من عمره ولكن قد بدأ يفهم
مثل هذه الأمور . ولكنه أصبح رمادا فى « أركادى » . ومن أجل هذا قررت
أن أدعو الى هذا الاجتماع وأن أبعث فى طلب رفاق الشباب لاتكلم معهم
يامن أيديكم ملأى بالحبوب مثل سنابل القمح أيام الحصاد ، ولعلكم قد
توقعتم شيئا ما حين دعوتكم . تكلموا . افتحوا قلوبكم .. ولنتشاور معا
ونبحث الأمر فلست أريد أن أموت أعمى . أنت ياكابتن « مانداكاس » الذى
ستكلم أولا ، فأنت الأكبر سنا بعدى . كم كان عمرك فى سنة ١٨٢١ ؟

- احدى وعشرون سنة ياأخى سيفاكاس ، هل نسيت ؟

- وأنا كنت فى الثلاثين تقريبا .. اكبر منك بثمانى سنوات . أنت اذن
أول من يتكلم . فتكلم ، فأنت عشت وتمنطقت بالحزام سنين عددا . ماذا
تعلمت طوال هذه السنين ؟

ورفع الكابتن «مانداكاس» يده الى فمه .. ثم أخذ يتحسس لحيته الكثيفة فى بطنه .. واستغرقه تفكير عميق ، حتى قال فى النهاية :

- أمن أجل هذا دعوتنا ياكابتن سيفاكاس ؟ ذلك يعنى متاعب جمّة بالنسبة لنا أنت تطلب منا ثمنا باهظا فى مقابل النبيذ واللحم الذى قدمته لنا . مارايك أنت أيها المدرس ؟
وصاح العجوز :

- دع المدرس وشأنه .. كلمنى .. ألم تتعلم شيئا من كل السنين التى عشتها ؟؟ لاتف أو تدور ، تكلم بشجاعة مثل الرجال .

وأخرج الكابتن «مانداكاس» علبة الطباق من حزامه ولف لنفسه سيجارة ، ثم قال بعد هنيهة :

- أنت تضع السكين فوق حلقى أيها العجوز سيفاكاس ، ماذا أقول لك ؟ بل وكيف أبدا ؟ لقد عشت حياتى كلها مثل رجل أعمى ، تماما كما وصفت أنت نفسك .. ولكننى لا أندم عليها : كالأعمى كنت أغشى الكنيسة وأوقد الشموع وأركع أمام المذبح ، وكالأعمى بذرت وحصدت ، وطحنت وأكلت خبزى . والآن أنت تسألنى - فهلا منحتنى فرصة أعصر فيها ذهنى بحق الله .. حتى تخرج منه القطرات ؟ .. هل إنت فى عجلة شديدة من أمرك

- حسن ، سوف أصبر ، فاعصر ذهرك كما شاء ياكابتن «مانداكاس» ..

- ونادى الكابتن «مانداكاس» ابنه بالتبنى الذى كان يقف خلفه

- ياناكوس .. أحضر غرارتي .

وانتظر الكل فى صمت ، واستدار الجد الى «كوزماس» وقال :

- أحضر مقعدا واجلس حتى لاتتعب . واستمع جيدا . هل تفهم مانقول ؟

- افهم يا جدى ..

- واحضر « ياناكوس » الغرارة ووضعها امام ابيه بالتبني ، وبدأ العجوز « مانداكاس » يقلب يده داخلها حتى اخرج اناء زجاجيا واسع الفوهة ومكسوا بالجلد .

وسأله الجد وهو يشرب بعنقه :

- وماذا تضع داخل هذا الاناء ؟

وضحك الكابتن « مانداكاس » فقال الآخر فى غضب :

- أهذه اجابتك ؟ .. ماهذا الاناء ؟

وقال « مانداكاس » :

- بعض الناس يحتفظون فى غرارتهم بالخبز والنبيد واللحم عندما يخرجون الى السفر ، وأنا أفعل مثلهم ، ولكننى أخذ أيضا هذا الاناء الذى تراه ..

- ماذا بداخله ؟ لا أرى جيدا .

ورفع الكابتن « مانداكاس » الاناء قريبا من عينى « سيفاكاس » العجوز وسقطت فوقه أشعة المساء .. فبدأ أحمر متوهجا .

- أمازلت لاترى شيئا ؟

وقال الجد :

- قطع من اللحم تعوم فى الماء ..

- انها ليست قطعاً من اللحم أيها العجوز « سيفاكاس » ، انها اذان ، وهى ليست فى ماء ، ولكنها فى خمر . فى ذلك اليوم من عام ١٨٢١ عندما

اسقطنى أحد الأتراك فوق الأرض وقضم أذنا من أذنى الاثنين ، أقسمت أن أقطع أذنا من أذنى كل تركى أقتله ثم أضعها داخل هذا الاناء . ولكى أحكى لك قصة حياتى ياكابتن « سيفاكاس » فإنه يكفينى أن أنظر الى أذن بعد أخرى من هذه الأذان المحفوظة فى الخمر .. ثم أحكى لك قصتها . هذه الأذن مثلاً فى أسفل الاناء - هذه التى ينبت منها الشعر - هى أذن ذلك الوحش صياد الكريتيين « على بك » كان قد قتل أخى « يانا جيس » ثم عاد الى ضيعته فى « ريثيمنو » ليحتفل مع حريمه . ولنفس السبب أبقى المصابيح مضيئة فوق البرج . وفى ذات المساء جلست أنا فى المقهى التركى ودخنت « النرجيلة » وطلبت من التركى الذى يعد الفحم أن يحضر لى بعض الفحم الملتهب « لأن نرجيلتى توشك أن تنطفئ » .. ثم أسرعت على الفور أضمت فم النرجيلة جانباً ، وأعدو خارجاً وكان جناحين استقرا فى قدمى ، واندفعت وسط الحقول متجها الى ضيعة « على بك » .. وصعدت الدرج عدوا .. واندفعت الى غرفة نومه حيث كان يرقد مع زوجته ، وألقيت نفسى فوقه وفصلت رأسه عن عنقه ، ثم قطعت أذنه ولغفتها بمنديلى ، وعدت الى المقهى فى ذات اللحظة التى كان الرجل التركى يعود فيها حاملاً الفحم الملتهب . وأمسكت بفم النرجيلة وبدأت أدخن . ولم يلحظ أحد أننى غبت عن المقهى . وفى اليوم التالى - وعندما انتشرت أنباء مقتل « على بك » صاح الباشا « لابد أنه مانداكاس » ... ولكن الأتراك الذين كانوا فى المقهى أقسموا بأن الكابتن مانداكاس كان يدخن النرجيلة فى مقهى « حسن » طول المساء .

ثم اشار الى أذن أخرى وقال :

- أما هذه الأذن الغليظة الداكنة ذات الحلقة ، فهى لواحد من المغاربة كان يدعى « رمضان » .. وكان هو الآخر جزارا .. جلال الله عظامه بالقطران .. وأجهته ذات مساء وهو وحده على شاطئ « تريبيتى » خارج « سيجالوكاسترو » .. وقلت له « يارمضان .. ألا تخشى الله ؟ » وأجابنى الكلب « بل هو الذى يخشانى ، فأنا رمضان » .. وقلت له وأنا أستل خنجرى : « وأنا مانداكاس » .. أخرج خنجرك أنت الآخر » - « ولكن خنجرى ليس معى ، أنت تهاجمنى وأنا أعزل أيها الكافر » - « معى خنجران ، فاختر لك واحدا منهما » وألقيت اليه بالخنجر الذى اختاره فرمعه

عاليا ، وبدأ القتال بيننا فوق حصباء الشاطئ .. وظللنا نتقاتل ونتقاتل حتى هبط الليل . وكانت الدماء تسيل فوق أجسادنا والعرق يتصبب منها ونحن نغلى كالبركان . ثم نزلنا الماء حتى نبرد أجسادنا فصار الماء أحمر اللون . ولم نتكلم ، ولكننا فقط كنا نهدر كالثيران . ومر صديق لهذا المغربي أراد أن يساعده ، ولكن الرجل صاح فيه « سوف أقطعك كالسردين إذا أنت اقتربت ، دعنا وحدنا وانصرف » وقلت له لحظتها « مرحى يارمضان ، أنت فارس ولاشك » فأجابني قائلا « وأنت أيضا فارس .. ونحن الاثنان وحشان مفترسان » - « فلا بد أن يموت أحدهما اذن » .. واندفعت نحوه من جديد صارخا ، فأجفل ، ففقرزت مباشرة نحو عنقه وغرست خنجرى فى قصبته الهوائية كما لو كنت تذبح خنزيرا سميئا ، ثم أخذت أذنه بقلقتها .. وهامى ذى .

ثم مد أصابعه وقد ادفأته ذكريات أعماله البطولية .. وتابع الحديث :

- أما هذه الاذن التى بدأ لونها يتحول الى الأخضر ، فهى اذن الجزار « مصطفى » . وهذه التى فى الوسط اذن رجل البانى .. أما هذه الممزقة فهى لواحد من الائمة .. اللعنة عليه . لقد كان صوته أشبه بالجرس . وكان من الواجب على أن أقطع لسانه وأحفظه هنا أيضا . وهذه الاذن الى جوارها ، والمستديرة مثل المحارة فهى اذن « بيرتيف أفندى » ذلك الشاب الوقح .. الأنيق مثل الصورة المرسومة والذي كان يشبه القديس جورج . كان بمقدورى أن أصبر عليه ! لقد كان يمتطى صهوة جواده وينطلق فى أحياء الكريبيين ويغرى نساءهم . ولم تكن هناك واحدة تستطيع مقاومة سحر ذلك الكلب . وكان أمرهن يحزننى ، فاندفعت يوما الى داخل بيته ، وبقاقلنا داخل حجرة نومه . وكان هوش البناء أضعفته النساء ، فلم يبد مقاومة شديدة .. ومن ثم ، قطعت عنقه الرقيق وأخذت أذنه المستديرة .

ان هذا الاناء الزجاجى يحتوى على ثورات كريت . ولم يكن بمقدورى أن أجمع أذان الذين قتلتهم أثناء المعارك . ولكن .. ها هنا ثورات ١٨٢١ - ٣٤ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٧٨ .. اننى الآن صرت عجوزا .. فلم تأت الثورة الأخيرة بأذن جديدة تضاف الى هذه الأذان .. والحق اننى كنت وحشا ضاريا .. ارتكبت أظلم الأعمال ، وليسامحنى الله . كنت أندفع خارجا من

بيتي عندما تندلع كل ثورة وأدع أطفالى وحقول الكروم والأرض لم تحرث بعد .. ثم أمتطى صهوة جوادى والحق بقائدى الكابتن « كوراكس » (تعنى الغراب) .

وعندما تذكر ذلك الاسم الشهير « تنهد فجأة .. واستطرد يقول :

- لا أحسب أن الدنيا كلها سيخلق فيها رجل قوى مثله . من نكون نحن بالمقارنة به ؟ مجرد أشكال مضحكة . لم يكن أحد يجرؤ على المزاح أمامه .. ولم يسمعه أحدنا يضحك مرة . كانت عيناه مستديرتين سوداوين قاسيتين مثل عيني نسر ، ولم يكن يخطيء أبدا . لم يكن يشرب .. ولم يكن يسب أو يلعن ولم يكن يجرى وراء النساء .. وعندما كان يخرج الى المعركة ، كان يحرق جسد فرسه بمهمازه ويصب رصاصه فوق الأتراك . ولم يكن يدير رأسه حوله ليرى ما اذا كان أحد يتبعه ، ولم يكن يمعن النظر أمامه ليحصى عدد الطرابيش التركية ، ولم تكن تمسه أية رصاصة .. الحق أنه لم يكن رجلا .. لا .. وليسامحنى الله ، لقد كان ملاكا .

وعاد يتنهد .

- .. ولم يكن ينقصه سوى أجنحة الملاك وكان العجوز « سيفاكاس » يسمع وهو يتململ فوق الوسائد ، ولكنه أظهر صبرا محمودا وهو يشم أوراق الليمون . وأخيرا .. لم يعد يحتمل ، فصاح فى غضب :

- ضع هذا الاناء فى غرارته ياكابتن « مانداكاس » فليست هناك حدود لأعمال الرجال الوحشية . أجب الآن على سؤالى : ماذا تعلمت اذن من كل هذه الأذنان ؟ والام وصلت ؟ طالما أنك ترى حياتك كلها داخل هذا الاناء ، فقل لى اذن : أكان طريقك الذى سلكته صحيحا أم أنك تتدم على كل ما فعلت ؟

وصاح الكابتن « مانداكاس » وقد فقد أعصابه :

- أندم عليها ؟ لا . ولو أتيح لى أن أبدا كل شيء من جديد أيها العجوز سيفاكاس ، فسوف أتزوج نفس المرأة ، وأنجب نفس الأولاد ، وأقتل نفس الأتراك - وربما المزيد - وأرتدى نفس السراويل ، وأضع نفس الحزام

ونفس الحذاء .. لن أغير من كل ما فعلت قدر شعرة . وإذا أنا واجهت الله غدا ، فسوف أحمل معي هذا الاناء وأقول له سبحانه « اما إن تدعني أدخل الجنة ومعى هذا الاناء ، واما لاتدخلنى الجنة على الاطلاق »

وصاح « سيفاكاس » العجوز :

- أمن أجل ذلك كله ولدت ؟ .. كى تقتل ؟ أمن أجل هذا خلقك الله على الأرض ؟

- لا .. لاتحاول أن تلوى عنق كلماتى أيها العجوز سيفاكاس . أنا لست شرها للدماء .. كلا ، ولا أقتل حبا فى القتل . ولكننى ..

ثم أخذ يحك فروة رأسه ، وفجأة صاح :

- ولكننى كنت أحارب من أجل الحرية .

ثم استطرد وقد أحس بضرورة استكمال حديثه :

- بلى .. لقد سألتنى من أين جئنا ، وإلى أين المصير ، وعندما بدأت حديثى لم أكن أدرك بعد من أين وإلى أين - وأقسم بالليل الذى يوشك أن يهبط ويلفنا - ولكن بعد أن بدأنا الحديث فتشعب هنا وهناك ، بدأ ذهنى يصفو .. ياكابتن سيفاكاس : نحن جئنا من العبودية ، ونمضى الى الحرية .. لقد ولدنا عبيدا وحاربنا طوال حياتنا من أجل أن نصبح أحرارا . ونحن الكريتيين ، لايمكن أن نصبح أحرارا الا من خلال القتل . من أجل هذا قتلت أنا هؤلاء الأتراك . هذا جوابى .. أنت سألتنى ، وأنا أجبت .. أما الآن ، فقد تقدم بى العمر وأصبحت عجوزا : نحيت خنجرى جانبا .. وفتحت ذراعى ، الآن يستطيع ملك الموت أن يقبل .

ثم نادى ولده بالتبنى :

- ياناكوس .. ضع الغرارة مكانها .

وصاح الجد :

- هكذا تكون الكلمات .. بارك الله يدك ياكابتن مانداكاس ، لقد درت حولها طويلا ، ولكنك أدركت الحقيقة أخيرا . هكذا تكلمت .. لقد أدركت النهاية وأديت واجبك . ولكن ، هل تعتقد أنه ليس هناك سوى طريق واحد ؟ ثمة طرق أخرى ممكنة كما ستري . الآن تتكلم أنت ياكابتن كاتسيرماس .. أيها القرصان - هذا دورك ..

- لاتعجبني هذه الطريقة التي تعاملنا بها ياسيفاكاس .. مطلقا .. لقد دعوتنا الى بيتك هذا ، ولأنك أكبر منا قليلا فى السن ، فأنت تجعل من نفسك قائدا وتأمرونا بأن نجيب ، لا .

- لن أقول شيئا .

- لاتغضب أيها الأحقق العنيد . أنا لا أمارس معكم لعبة القيادة لأننى أكبر منكم سنا .. ولكن لأننى سأذهب الى باطن الأرض قبلكم فليس لدى وقت أضيعة . من أجل هذا سألتكم . أنا لا أريد أن أموت أعمى . اننى أسألكم العون يا أولادى .. أسألكم ماينير الأمر أمامى . الا تفهم ياكابتن كاتسيرماس ؟

- بلى .. أفهم ، فلا داعى لأن تصرخ . ولكنك لست سفينة وسط الأخطار أستطيع أن أتجه اليها وأنقذها بزورقى . لقد ناضلت فى البحر طول حياتى ، وذلك هو المكان الوحيد الذى أعرف طريقى خلاله . ليس فى وسعى أن أساعد أحدا فى غير هذا المكان ، فماذا تتوقع منى إذن ؟

وصاح الجد هادرا :

- اننى أغرق أيها القرصان .. والغريق يمسون به من شعر رأسه .

- شعرك أنت ياسيفاكاس وليس شعرنا نحن . أنت تقف الآن على أبواب الجحيم والخوف يمتلكك . أنت تسميه دودة .. وأنا أسميه الخوف . من أجل هذا أنت تسأل أصحابك : « ماهذا يا أولاد ؟ الى أين أمضى ؟ الى أين

أؤخذ ؟ » .. كيف لنا أن نعرف شيئاً من ذلك الذى يمكن أن يريحك ؟ لقد عشنا حياتنا كما اتفق ، وسوف نموت أيضاً كما اتفق ، كسفينة بلا دفة شراعها منتفخ بالهواء . أن الريح تلهب .. ونحن نمضى حيث اتجاهها ، أن الماء ليقترح علينا السفينة .. ونحن نلتصق بالمضخات نعمل عليها ليل نهار .. ولكن الماء يرتفع .. والمضخات صدى لا تعود تعمل بعد .. ثم اذا نحن فى قاع البحر . هذه هى حياة البشر مهما صرخت وصحت .. فما واجبنا نحن ؟ .. واجبنا أن نظل لصيقيين بالمضخات ليل نهار ، لا أن ييسط كل منا ذراعه ، ولا أن نشكو ، ولا أن ننن . لا ينبغي أبداً أن نستسلم ، وانما الذى ينبغي حقاً .. هو أن نظل نعمل بالمضخات ليل نهار .. هذا هو الذى تعلمته من الحياة .. ولك أن تقبله أو ترفضه .

ثم استدار بوجهه الوحشى الى الكابتن مانداكاس وقال :

— لم أكن مثلك ياسيدى مسمر بالارض وفوق عينيك غمامتان لاترى من خلالهما سوى الأتراك والمسيحيين ، فتقتل الأتراك وتقطع أذانهم وتحفظها فى الكحول .. وليس بوسعى أن احضر الآن اناء أخرجه وأعرضه أمام الجميع وأقول : « هذه هى حياتى » .. لقد قمت برحلات كثيرة ياكابتن مانداكاس وشاهدت الدنيا كلها . لقد نمت فى أحضان النساء من كل صنف ، أوغلت فى افريقيا حيث تنضج الحرارة الخبز .. زرت أكبر الموانئ واصغرها .. رأيت ملايين البشر من السود ، وملايين البشر من الصفر .. وكانت عيناى تنظران اليهم شذرا .. كنت فى البداية أحسب أن رائحتهم كلهم منتنة ، وكنت أقول لنفسى : « الكريتيون وحدهم هم أصحاب الرائحة الزكية .. والمسيحيون وحدهم من بين الكريتيين » .. ولكنى ما لبثت أن أدركت الحقيقة .. أدركتها شيئاً فشيئاً : نحن البشر جميعاً ننضح رائحتنا بنفس الطريقة ، ان كانت منتنة أو زكية .. فلعنة الله علينا جميعاً .

ثم القيت بنفسى الى دنيا القرصنة ، وجدت أن الدنيا لاتخرج عن كونها مجموعة من الألوانى : بعضها من نحاس وبعضها الآخر من طين ، وكلها تصطدم ببعضها البعض . فاذا كنت من نحاس يا كاتسيرماس فأنت اذن حسن الحظ ، والا فانك سوف تصبح شظايا ، وان أنت تحطمت فان شظاياك لن تلتئم مرة أخرى ، سوف تنتهى . وهكذا ، فقد صادقت بعض

الجزائريين ، ورفعنا معا الاعلام السوداء وألقينا مراسينا فى أركان البحر لننقض على السفن التجارية ، نقتل ونسلب ونهيب ونهيب ونخفى أسلابنا فى الجزر المهجورة . وقد حدث مرة - وأنتم جميعا تذكرون ذلك - أننى أفرغت فى « جاربوزا » سفينة محملة بالقرفة والقرنفل والمسك ، حتى تطيب رائحة كريت كلها . هل نسيت ياكابتن سيفاكاس ؟ لقد أرسلت الى عظمتك يومها غرارة مملوءة قرنفلًا وقرفة .

وقال العجوز :

- اكمل .. انته الى الخلاصة ، علام يشير ذلك كله ؟

- انه يشير الى ماتريد أن تفهمه . لم تكن نخشى الله أو الناس ، كنت أنا مسيحيا وكانوا هم مسلمين ، ولكننا لم نكن نسمع لسفينة بأن تمر بسلام سواء أكانت وجهتها مكة أو القدس ، كنا نهاجمها ونقتل الحجاج جميعا . لقد كنت وحشا ضاريا وسط وحوش ضارية ، وفعلت مثلما كان يفعل الجزائريون حلقت رأسى الا من ذؤابة فى الوسط مثل ذيل خنزير ، وجمعت من الريالات التركى وغير التركى . وكنت أختطف من كل سفينة امرأتين أو ثلاثا أستمتع بهن ثم ألقين بعد ذلك فى البحر . كنت وحشا مفترسا كما قلت لكم - أكثر منك وحشية ياكابتن مانداكاس . وإذا أنت سألتنى ياكابتن سيفاكاس عما اذا كنت أندم على ما فعلت لقلت لك : « لقد عشت حياة غنية مثل الفارس ، ولست أندم عليها . لقد جعلنى الله ذئبا فاكلت الحملان ، ولو كان قد خلقنى حملا لكانت الذئاب قد أكلتنى .. وبالحق كانت ستأكلنى . هكذا خلقت الدنيا ، فهل هذا خطئى أنا ؟ .. انه خطأه هو سبحانه الذى خلق الذئاب والحملان .

ثم أخذ يدير بصره فى صمت الى أصحابه وكأنه ينتظر تعقيبا ، ولكن احدا لم يتكلم ، فاستطرد يقول :

- والآن أيها الفرسان ترونى أصبحت عجوزا : لقد تقوس الخشب وتفككت الرباطات وتدفق الماء .. ووهنت المضخات ، وانحدر بى الحال لأعيش فوق اليابسة بالصفات الحميدة . أصبحت آدميا . لماذا ؟ لأننى لم أعد قادرا الآن على أن أفعل شيئا ، لقد غاضت قوتى وسقط شعبرى

واسناني . واصبح الذئب أجرب يعبث فيه القمل .. أصبحت آدميا . الى هذا الحال انحدرت . لم أعد أقتل ، ولم أعد أعوى .. أصبح صوتي كثفاء الحملان . وعندما أجلس في القرية أمام البئر وأرى الفتيات يملأن اوانيهن .. تلتهم عيناى الصيد ولكن معدتى تظل خاوية . وأحيانا تملأ الدموع عيني ، وتسألني الفتيات وضحكاتهن تجلجل : « لماذا تبكى يا جدنا » فأقول لنفسى : « لأننى سوف أموت - لعنة الله عليكن - وأترك ورأى فوق الأرض هذه الأجساد الجميلة » .. أقسم بالله ، لو أننى كنت ملكا .. لو أننى كنت « على باشا » لكنت جمعت لنفسى عددا من أجمل الفتيات فذبحتهن فوق قبرى حتى أخذهن معى .

وصاح الجد :

- أنت شره للدماء ياكابتن كاتسيرماس .. أيها الوحش الضارى .. اهدأ .

- لقد سألتنى .. وهاد أجبتك . لقد كان حتما أن أفتح الباب .. وقد فتحته ، هل أفزعك ذلك ياكابتن سيفاكاس ؟

وسدد الساخر ذو الفم الخالى من الاسنان .. نظراته الوحشية الى الجد .. ثم صاح :

- لقد فتح الباب المغلق وانطلقت الأرواح تسمعها .. « من أين جئنا ؟ » هكذا سألتنى . لقد جئنا من باطن الأرض ياكابتن سيفاكاس . « وإلى أين نمضى ؟ » هكذا أيضا سألتنى . نحن نمضى الى باطن الأرض ياكابتن سيفاكاس . وماوجبك إذن ؟ أن تأكل ، اذا كنت ذئبا ، وأن تؤكل اذا كنت حملا . واذا أنت سألتنى عن الله : فهو الذئب الأكبر - فانه يأكل الذئاب والحملان معا .

وصاح الكابتن « مانداكاس » وهو يبسط ذراعيه :

- لالتحد أيها القرصان العجوز ، لقد ذهبت الخمر بعقلك فلا تدري ماذا تقول . ان الذئب الأكبر هو ملك الموت وليس الله .

وضحك الكابتن « كاتسيرماس » وقال :

- ان الله وملك الموت واحد يابن عمى ، ولكن لماذا أجادلك وتجادلنى ؟
ان عقلك تغذى على البقول ولايعرف غير البقول »

ثم استدار الى الكابتن « سيفاكاس » :

- هذا ماكان ينبغي أن أقوله لك أيها العجوز سيفاكاس . وماكان ينبغي
لك أن تسألنى . مرهم الآن بأن يملثوا لى قدحا من النبيذ .

وقال العجوز لأحفاده :

- املثوا قدحه نبيذا ، لقد اعترف .. فليستُرح الآن .

وأحنى رأسه فى لحظات تأمل وتفكير ، ثم قال :

- أنا لست قاضيا .. ولا أملك اصدار الأحكام . ان الله قد سمعه ، فليكن
حكمه هو سبحانه .

ثم استدار الى المدرس الذى كان طوال الوقت يهز رأسه الأصلع
المدهب الى الامام والى الخلف :

- تكلم أيها المدرس .. وارفع رأسك هذه .

ورفع المدرس قيثارته من فوق كتفه ، وقال :

- طوال حياتى .. كنت أنكم ، والآن يضايقنى الكلام . لقد سألت عن
أمور صعبة ياكابتن سيفاكاس . ترى أى شيطان جعلك تفكر فى هذه الأمور
التي ليس لها مكان فوق هذه الأرض ؟

«سأله العجوز وهو ينظر اليه فى غضب :

- فهل نبقى صما ؟ أصم ، أعمى ، خصى ، مسالم ، أهذا ماتريده

لنفسك ؟ ولكن هذا يعنى أن يصبح الرجل مجرد رأس بهيمة أيها الأحمق .

- لا تغضب يا كابتن سيفاكاس ، ان السؤال ذاته له مكانه فوق الأرض ، فلك أن تسأل ماشئت طالما أنك لا تتعب من السؤال ، ولك أن تصوغ ماشئت طالما أنك لا تتعب من السؤال ، ولكن السؤال شيء والاجابة شيء آخر . وأنت تطلب منى الاجابة .

وأسند العجوز رأسه وهو يقول :

- أريد جوابا .

- أنت تريد الجواب يا كابتن سيفاكاس .. حسن ، فسوف يكون لك ماتريد .. سوف أجيبك بقيثارتى فهى فمى الحقيقى . وإذا أنت فهمت ماذا تقول فذلك خير المرام ، أما اذا لم تفهم ، فليس فى مقدورى أن أساعدك ، وسوف تموت اذن أعمى كما ولدت أعمى .

وقال الجد وهو يغلظ عينيه :

- اعزف على قيثارتك أيها المدرس وليساعدك الله .

وكانت السماء قد أظلمت ، وبدأت حبات المطر تتجمع فوق أوراق شجرة الليمون .. كما بدأ بعضها يداعب خد العجوز وشفتيه وجفنيه فينعشها ، وكان هو يلعبها بشفتيه فى عطش .

وأمسك المدرس بقيثارته وانحنى بالقوس فوقها فأصبح معها كلا لا يفصل ، وبدأ القوس يرقص فوق الاوتار الثلاثة ، وبدأت الأجراس الصغيرة ترن .. وأمتلا الفناء بالضحكات البهيجة كما لو كان فناء مدرسة يلعب فيه الأولاد ويطاردون بعضهم البعض خلال فترات الراحة مابين الدروس ، أو كما لو أن طيوراً فوق شجرة كثيفة الأغصان والأوراق تستيقظ عند الفجر وتغرد فى بهجة وهى تستقبل أشعة الشمس .

وظل القوس يقفز ويضحك ويرقص ، وأصبحت قلوب الكبار أطفالاً وطيوراً وجداول تترقق ، وبدأ الأحفاد وزوجات الأبناء يقتربون أكثر ، وأخذ

الشباب والفتيات يقومون ويقعدون معا .. وتشرب أعناقهم رغم حبات المطر المتساقطة وهم ينصتون .

وأحس الجد العجوز كما لو كان جسده الثقيل يفقد ثقله ، ويرتفع في الهواء ويسبح كالسحابة طائرا فوق شجرة الليمون وأشجار السرو كما لم يحدث له الا فى الأحلام ، أو كما حدث له مرة بعد أن عاد من الحرب وأغتسل من الدماء وارتدى ثيابا نظيفة ومضى الى الكنيسة يوم الأحد ، وهناك أحس كما لو أن جسده يسبح كالسحابة .. وحين كان فى طريق عودته الى بيته أحس كما لو أن قدميه لايلمسان الأرض على الإطلاق .

ولكن صوت القيثارة ما لبث أن تغير ، أصبح ضاريا غاضبا ، وبدأت أجراس القوس ترن كهذه الأجراس التى تعلق بعنق صقر مدرّب وهو ينطلق فى الهواء بحثا عن فريسته . كانت الأصوات الصادرة عن القيثارة أصوات رجال ، وتذكر الفرسان أيام شبابهم والحروب وأنات الرجال وهم يموتون وعويل النساء وهن يبكين موتاهن وصهيل الجياد وهى فوق أرض المعركة مطلخة بالدماء ولا فرسان فوق ظهورها . وكاد « الكابتن كانداكاس » أن يصيح : « أعد لى شبابى أو كف أيها المدرس » ، ولكن القيثارة مالبثت أن تغيرت أنغامها .. فعادت ناعمة رقراقة ابتسمت لها شفاء الفرسان فى سعادة .

وكان الصوت خلال الجو الندى الرطب أشبه بطنين النحل أو بخير جدول عميق ، أو بصوت حزين لامرأة عاشقة يتناهى من خلف الجبال .. هناك على شاطئ البحر المزيد ، أو بصوت البحر ذاته ومياهه تصطدم بالشاطئ أو تنحسر عنه فى أنين .. أو لعله كان أبعد غموضا وأكثر سحرا . أتيا من وراء الحياة ذاتها . من ضفة أخرى ، يحرر الأرواح من الأجساد فى عذوبة والم وحب ؟ أو لعله كان صوت الخالق نفسه تخفيه ظلمة الليل الرطب ، حيث سبحانه يدعو ويرفع اليه فى اغراء رقيق ، محبوبه الأبدى : روح الانسان ؟

وظل المدرس يعزف كالممسوس حتى بدا كما لو أن القوس ستصدر عن الأوتار شرارا ، وبدا أنه يغيب أكثر وأكثر وسط الظلام ، وكأن قيثارته هى

الموجود الوحيد القائم تحت شجرة الليمون .. يعزف لحنا جنائزيا ولكنه فى نحبيه يبدو نداء ذا اغراء .

واكتست شفتا الجد العجوز بابتسامة عريضة ، وهب جسده الخفيف الطائر فى وثبة واحدة من تحت شجرة الليمون الى أعلى سابحا فى الهواء ، ليحوم كالسحابة فوق البيت .. ثم ليتحول فى رفق الى حبات مطر تهبط الى الأرض لتغذى البراعم الصغيرة .

وأحس الجد فى أعماقه بأنه الموت قد أقبل .. « انه الموت ، وهذه هى الجنة ، أنا ماض الى الجنة ، بل لقد أصبحت داخلها . لك التحية ياربى »

وفتح عينيه .. ولم يرسوى الظلام . ولكن صوتا رفيقا ناعما ناداه وسط الظلام .. فأجابه : « أنا قادم اليك .. »

وأبقوه طوال الليل ممددا فى الفناء تغسله رحات المطر وكأنه جذع شجرة ضخمة ، وركع « كوزماس » الى جواره وقد أغلق عينيه ، وتقوقع « ثاراساكى » بجانبه ينظر اليه .. ويرى الموت لأول مرة عن كثب . ظل يحدق بعينين راعشتين فى الجد الذى أحبه كأشد مايكون الحب ، وبدأ له أن جده اكتسب قوة جديدة قاتمة ومشئومة ، وكأنه ينتظر فحسب كيما ينقض على الرجال ويجرهم معه الى باطن الأرض . وأحس للحظة بالرغبة فى أن يعدو بعيدا عن المكان ، ولكنه لم يجرؤ على الحركة ، فظل فى مكانه وقد صعقه الرعب .

وظلت أسرته حوله تنظر اليه ، وبقي الباب مفتوحا ، واهتزت القرية حين تناهت الانبياء بأن « سيفاكاس » العجوز قد أسلم الروح ، وبدأ الجميع يهرعون الى البيت كيما يودعوه .. وكل واحد منهم بعد الآخر يمر أمامه فيقبل فى صمت يده الممددة فوق الصخور .

وغسلته امرأتان بالنبيذ ، ولقفته فى كفن من قماش أبيض حريرى من بقايا زوجته المتوفاة « لينيو » كانت قد نسجته له من أجل هذه الساعة . ووضعت اثنتان من زوجات ابنائه مصباحا كبيرا بجانب رأسه وآخر مثله

عند قدميه ، وبدا وجه الميت على ضوءهما وقد اكتسب تعبيراً رقيقاً .

وقالت « كاتيرينا » :

- أليس من الأفضل أن ندخله ؟ ليس من المناسب أن ندعه هكذا فوق الأرض يبلله المطر .

ولكن « كوزماس » عارضها :

- أنه أراد أن يبقى هنا ويغسله المطر .

وهبت ريح جنوبية رقيقة منعشة ، وأحضر الأحفاد بعض كتل الأخشاب وأشعلوا نارا فى وسط الفناء لتدفئهم ، وارتفعت النيران فاجتذبت الحيوانات بضوئها ، وأطل البغل والحماران والفرس وثورا الحرارة برعوسهم من الحظائر وهى تتطلع فى دهشة الى ما يجرى داخل الفناء . أما الفرسان الثلاثة فقد تكوموا فوق الأرض وقد غلبهم الشراب والطعام فأسندوا ظهورهم الى جذوع شجرة الليمون وارتفع شخيرهم .

وصاحت النساء وهن يرفعن عن راسه عصابته :

- الى الملتقى ياسيفاكاس .. حيوا الميت .

وصاح الكبار وهم يمسكون بيده :

- حتى نلتقى ياكابتن سيفاكاس ، تمنياتنا لك برحلة سعيدة .

وألقت فوقه كل امرأة بعود من الريحان حتى يصحبه معه فى رحلته الى العالم الآخر ، ووضعت أم مكلومة لوح ابنها الميت وطباشيره عند راسه وقالت : « خذ معك هذا اللوح لابنى » اصنع هذا المعروف من أجلى ، ان اسمه ديمتراكيس ، لقد كان من جيرارك وسوف تعرفه قطعاً ، انه يضع فوق رأسه قبعة ذات شراة .. وقد مات حافى القدمين »

وقامت « كاتيرينا » وضعت غطاء ثقيلًا فوق الفرسان الثلاثة حتى

لايصيبهم برد ، ثم أمسكت بيد « ثاراساكي » :

- قم لتنام ياولدى ، ان الليل قد انتصف . ولكن « ثاراساكي » رفض وقال :

- اننى أحرس جدى ، ان والدى ليس هنا .. وأنا سأبقى مكانه .

وعلى ضوء لهب النيران ، اختلجت عيناه فى تصميم كما يحدث لأبيه وتراجعت أمه دون أن تقول شيئا . ولم يكن ثمة مايشير الى أن المطر سوف ينقطع انهماره ، وأحضرت « رينيو » وبقية الحفيدات القهوة لتعين الجالسين على البقاء مستيقظين . وكان الصمت يسود الغناء أحيانا . ثم لا تلبث اصوات الليل المختلطة العميقة أن تسمع : صغار الحيوانات ، والحشرات ، وطيور الليل ، والكلاب التى لاتكف عن النباح والماشية بأصواتها الخشنة .. وفجأة ، صاحت الديكة .. وانبلج الصباح .

وعندما ارتفعت الشمس الى الأفق ، استيقظ الفرسان الثلاثة وراوا الميت ممددا فوق الصخور وسط الغناء ، وادركوا ماحدث .. ولكنهم لم يتحركوا وظلوا فى أماكنهم وقد غلبهم النوم .

وقرب الظهيرة ، أحضر « ستافروليوس » النعش فوق كتفه ، وهرع اليه « ثاراساكي » كيما يطمئن الى أنه مصنوع من خشب الجوز .

وبعد الظهيرة بساعتين ، رفع الأحفاد النعش الذى يحمل جسد جدهم ، واتجهوا به نحو الباب .. ثم خارج الباب . وتحركوا فى بطنهم وهم يمرون به فى البداية حول بيوت الجيران ليودعها ، ثم توقفوا به عند كل مفترق طرق بالقرية وألقت الفتيات فوق الجسد الرياح والاقحوان كما لو كانت القرية كلها كما لو كانت أسرة واحدة حاسرة الرأس ساكنة ، وكما لو كان هو اله القرية يودعها ، وسارت معه فى بطنهم حتى تتيج له أن يودعها فى هدوئه المعتاد .. وفجأة ، وحين أصبحوا جميعا خارج القرية قريبين من ساحة القبر - فتحت السماء سدودها وانهمر المطر فى غزارة .

وصاح الفلاحون فى سعادة ، فقد ظلوا شهورا يحلمون بالمطر بعد أن

هدد الجفاف المحاصيل . ورفعوا وجوههم التى لوحتها الشمس الى السماء
الممطرة يشكرون الله فى لهفة .

وغمغم عجزو :

- لقد تحول الجد الى مطر .. انه يعود مرة اخرى الى قريتنا .

وقال آخر :

- كان يعلم بما يقلقنا ، لقد تحول الى ماء ليروى عطشنا .

ووصل الموكب الى المدافن التى بللها المطر ، وبدأ اثنان من الاحفاد
الاقوياء يحفران القبر ، وكشفت التربة الحمراء الخصبة عن قواقع
ومحارات كما لو أن تلك الجبال كانت يوما ما قاع البحر . واستمر هطول
المطر ، ثم أهبط الجسد فى سلام ورفق ، وبدأ الجمع المنتحب واحدا تلو
الأخر يلقي فوقه بحفنة تراب ، ثم عادوا الى بيوتهم .

كانوا يسرعون الخطى متلهفين الى الجلوس الى الموائد المثقلة ليمزقوا
الكبش الأسود الذى كان الجد قد أمر بذبحه عند وفاته .. وليشربوا بعض
النبيذ ويطلبوا الرحمة لروحه .

وجلس « كوزماس » فوق الأريكة العريضة وهو يحس بالضيق روح
وجسدا ، وأغلق عينيه يريد أن يستريح قليلا قبل أن يصعد الجبل وكان قد
طلب الى « شاريسديموس » أن يبحث له عن مصباح ضد العواصف وأز
يعد نفسه للرحلة حتى يصل الى مقر قيادة الكابتن « ميخائليس » قبل
صباح الغد . ولم ينم سوى لحظات قصيرة ولكنها كانت كافية لان يحلم
بأبيه الميت ، فقد راه كأوضح مايمكن أن يكون ، واقفا على سلم البيت
يتنهد لدخول غرفة نومه .. وكان قد رفع قدمه كيما يخطو الخطوة الأولى .
وأحس « كوزماس » بالرعب يتسلل الى قلبه فقد كانت زوجته نائمة فى
الطابق الأول .. وهاموذا أبوه الميت يصعد اليها وسوف يفزعها ولاشك .
فقفز هو وقال : « الى أين ذاهب ياأبى ؟ واستدار الرجل الميت بشاربه
المتدلى والندبة فوق خده الأيمن .. ونظر اليه فى ضراوة . وكان ثمة
غصابة للرأس سوداء تحيط بجبهته وتتدلى منها شرابات حمراء ، وكان ثمة

قطن فوق فمه يحبس الدماء من جرح به .

وحقق فى « كوزماس » وهو عابس الوجه .. كان غاضبا ولاشك . فقد كان يجز على أسنانه .. كما كان ثمة لهب أحمر يخرج من فتحتى أنفه وتمتد ذؤابته الى وجهه . وفجأة فتح فسقط القطن . وأصبح الجرح عاركا وصدر عنه أنين وحشى وهو يتحرك فى سرعة ليصعد السلم .

وصاح « كوزماس » : « أبى .. لا تؤذها . انها زوجتى » ثم خطا نحوه فى جراءة وصاح فيه للمرة الثانية : « انها زوجتى .. فلا تلمسها » ومد يده محاولا منع ابيه من متابعة صعود السلم ، ولكن الرجل تحول الى دخان ولم يعد « كوزماس » يسمع سوى وقع أقدام ثقيلة تصعد السلم .

واستيقظ « كوزماس » فى صيحة فزع ، وفتح عينيه فرأى الضيوف على مائدة الجناز ، وثمة طبق كبير يدخل اليهم والكبش فوقه يتصاعد منه البخار وقد وضع على ظهره وبرزت أقدامه الأربع فى الهواء .. كله حتى رقبته ورأسه وقرونيه كما لو كان لا يزال حيا . وانقض الفلاحون عليه كالصقور يمزقونه ، وجاء الأحفاد بأباريق النبيذ أيضا .. وتحولت وليمة الجناز الى عيد مبهج .. ليس بسبب النبيذ فحسب ، وإنما بسبب المطر المنهمر فوق الأرض العطشى ، ولأن ملك الموت . وهو يقوم بهذه الزيارة لم يمس أحدهم بسوء واكتفى بالعجز وحده ، وهكذا فقد أكلوا وشربوا واستبدت بهم البهجة . وأحسوا بالخدر فى سيقانهم ، وبالرغبة فى الرقص . كما أن النبيذ أيضا لم يظل أصم ، حتى « ستافروليبوس » النجار - ومطرب القرية - نسى نفسه وكاد أن يرفع عقيرته بأغنية حب ، ولكن الجيران أسرعوا يتحلقونه ويغلقون فمه . وبادر القس - لكى يمنع الفضيحة - فتناول جرعة من النبيذ يمسح بها حلقه .. وبدأ يلقي بترنيمة .

ووقف « كوزماس » وأخذ عمته « كاتيرينا » جانبا وقال :

- وهل تفيد الرسائل يا ولدى ؟ انه لن يفعل الا ما يريد ، حتى ولو علق العالم كله من رقبته . عسى الله أن يهدى يمينه .

- ألا يفكر فى ولده يا عمتى ؟

- ثق أن « ثاراساكى » هو الشيء الوحيد الذى يحبه عمك فى هذه الدنيا ، ولكن ذلك لن يجعله يدير وجهه ولو لحظة عما يريده . سوف يفعل ما صمم على أن يفعله . وليس ثمة أمل يا ولدى فى رجل لم يفكر فى نفسه .

ثم مسحت دموعها ولم تزد ..

واتجه « كوزماس » الى « شاريديموس » الذى كان يشارك فى البهجة وفى يده كلوة الكباش والدهن يسيل من لحيته الماعزية .. وقال :

- شاريديموس ، لقد أكلت وشربت بما فيه الكفاية ، واحتفلت جيدا بموت جدى ، فقم الآن اذن ، فنحن ذاهبان .

وعبس الخادم العجوز وقال :

- السماء تمطر والسحب مثقلة ، ولن أرى من طريقى الى أبعد من أنفى .

وقال الحفيد الأكبر فى لهجة أمره :

- سوف نذهب .. ينبغي أن نذهب .

وتنهذ « شاريديموس » وهويلعن حظه الذى يمنعه من استكمال متعته ، الآن بالذات . وقد أوشك اللهو أن يبدأ .

وقال « كوزماس »

- هيا .. هل أحضرت المصباح ؟

وكانت الترنيمة قد انتهت .. وسأل « ستافروليوس » القس :

- هل تسمح لى بأن أغنى أغنية عن لص ؟

ودون ان ينتظر الجواب ، رفع عقيرته بالغناء وصوته يطن داخل البيت :

متى ياترى تختفى النجوم ؟

ومتى يجيء فبراير ؟

حتى أخذ بندقيتى .. ؟

● الفصل الرابع عشر والأخير

لقى "شاريديموس" العجوز الضوء من مصباح العواصف في يده على
ممر الماعز الضيق الذي يتلوى صاعداً الجبل . ولم يكن قد أفاق بعد من
خدر النبذ ؛ كان يتعثر مرة بعد أخرى ، ثم ما لبث في النهاية أن سقط
بطوله فوق الأرض ، وأحس بالخجل ، فنهض وهو يحاول أن يتماسك ..
وغمغم يقول لنفسه : «لعنة الله على النبذ ، والماء أيضاً .. إلى الشيطان»
ثم استدار نحو «كوزماس» وقد كان يتوق إلى الحديث معه ، وتوقف فجأة
وهو يتصبب عرقاً :

- سيدي ، ان تفتح فمك ؟ انى أكاد أهوى إلى الأرض . لعل ذلك هو
السبب في أن ساقى ليستا ثابتتين .
- لا تثرثر ياشاريديموس ، فالسما تمطر ولا بد أن تسرع .

كان يريد أن يصل إلى حيث يريد عند الفجر دون أن يراهما الاتراك من
أماكنهم في السهل . واستثمر هطول المطر ، وفاضت شرايين الأرض ،
واندفعت المياه هادرة إلى الجداول ، وبرقت السماء من حين لآخر ..
وتناقلت الجبال اصدااء الرعد ، فاذا هي تلاشت سمعت أصوات رخات
المطر المنهمر وأمواهه المتجمعة المنحدرة إلى أسفل الجبل .

وقال عجوز الجبال وهو يجدد الرجاء : « استحلفك بالله ان كنت تؤمن
به ، ان تفتح فمك ياسيدي وتكلمني ، ما الذي يحدث في الدنيا هناك ؟ أهم
بشر مرضى مثلنا ؟ أم انهم شياطين ؟

ولكن «كوزماس» لم يكن راغياً في الحديث وظل يواصل التسلق وسط
الكلام وتحت المطر مصمماً على ألا يدنس هذه الساعة المقدسة بحديث
تافه وهو يحس بأن ثمة مشاعر جديدة أكثر حيوية أصبحت تملكه . كان

..يتحمل عنف هطول الأمطار في اصرار وشموخ كصخرة من صخور «كريت»
وهو يحس في أعماق أعماقه بذات احساس البهجة عند الصخور والتربة
وهي ترتوى من مياه الأمطار .

وكانت مياه الأمطار هذه رحمة من السماء بالنسبة للحرائق التي اشعلها
الجنود الأتراك في قرى اليونانيين وأديرتهم ، أو تلك التي اشعلها
المسيحيون في قرى الأتراك بادئين عملية التخريب . وكان هؤلاء يعودون
الى اطلال قراهم ليبدعوا من جديد في بناء بيوتهم حجرا فوق حجر .

وركعت «كريت» مرة اخرى امام الارهاب والعنف وهي تنزف دماها
وتحرق الأرم وكان الفرسان والمقاتلون يتجمعون داخل الكهوف أو في
الاديرة ليناقشوا الأمور ، فقد قرعوا منشور المطران مرة بعد اخرى حتى
ادركوا في النهاية : انه صوت اليونان ، وزاد غضبهم وهياجهم فسيبوا
ولعنوا ورفعوا أبصارهم الى السماء وهم يضمون قبضات أيديهم في
وعيد .. ولكنهم ما لبثوا ان خفضوا رؤوسهم ودسوا خناجرهم في
أحزمتهم ، ودفنوا اسلحتهم .. وعادوا الى بيوتهم وأعمالهم .

وعاد أبناء «ميجالوكاسترو» يفتحون متاجرهم في تجههم وصمت ، وعاد
الفلاحون يحرقون الأرض ويبذرونها ، وبدأت عجلة الحياة اليومية الثقيلة
تدور وتدور . كذلك عاد «الكابتن بوليكسيجيس» من الجبال وقد وضع حول
طربوشه عصابة سوداء واتجه الى «القديس ميناس» حامى المدينة ليزوره
ويوقد شمعة أمامه ، وليقف أمام مذبحه لحظات في ابتهاج ، ثم فتح دكانته
بعد ذلك واتخذ لنفسه ركنا قصيا منه حتى لا يرى احدا وهو يدخل نرجيلته
غارقا في أفكاره دون ان يغير انتباهها الى المزارعين العائدين عبر بوابة
«كاينا» حاملين معهم ما استطاعوا انتقاذه من اللبمون والبرتقال والنبيذ
والزيت . لم يكن يريد ان يرى شيئا ، ولم تعد شفتاه تبسمان ، وانما كانتا
تقضحان الفل الذي يعتل في صدره .. وتكشفان عن الأسف لهذا
الضعف الذي أغراه بترك الجبل : «لم يكن ينبغي أبدا ان استمع الى
اليونانيين أو الى المطران ، هذا الخنزير الوحش - الكابتن ميخائيليس -
على حق . كان ينبغي ان أبقى هناك ، وأن ألقى مصرعى هناك . أى طعم
للحياة الآن ؟ أريد ان الحق به مرة أخرى ؟

ولف أنبوبة النرجيلة حول عنقها واتجه الى عتبة الدكان وهو يتنهد . ومر به فى تلك اللحظة الأب «مانوليس» وثوبه الملىء ببقع الزيت يتطاير مع الريح . ولم يكن قد غادر «ميجالو كاسترو» ، بل ظل داخلها ، يدفن ، ويعمد ، ويبخر بيوت الناس ، ويملاً جيوبه ويضيف المزيد من الدهن الى عنقه . وكان لحظتها يحمل الكأس المقدسة والقباب ، وأمامه «مورزوفلوس» هادئاً شاحب الوجه يذرع الطريق وهو يحمل مصباحاً مضيئاً فى عز الظهيرة ، ورسم «بوليكسيجيس» علامة الصليب . كانت قد تناهت اليه الانباء الحزينة : كان الأب فى طريق عودته بعد مراسم دفن الكابتن «سيفاكس» ، فاطلقت سفينة حراسة تركية قذيفة على قارب التهريب الذى كان يستقله فاطاحت بقدميه الاثنتين وغمغم «بوليكسيجيس» : «بارك الله روحه ، لقد حمل نفسه ما يحمله الرجال» .

وتنهياً للعودة الى ركنه داخل الدكان حين لمح «فيندوسوس» يسير ملتحقاً ببطانية وهو يرتعش من البرد ويطوح ببديه ويحدث نفسه . كان طوال يومين قبل اليوم يعدو فى الشوارع كما لو كان يمارس من جديد عمله ؟ أو تراه يلقى خلف ظهره كل شىء مع الريح ، ويعود الكابتن «مياخيليس» ليؤكد له انه هو أيضاً رجل وأنه لن يسمح لأحد بأن يزيحه جانباً أو يطأه بأقدامه ؟ لقد قال له قبل يومين وهو يحمله رسالة الى المطران : «لا تعد ، فأنت فيندوسوس ، ولست أطلب منك شيئاً آخر ، فتصرف ان شئت كما يتصرف فيندوسوس» .

وظل «فيندوسوس» يفكر فى غضب فى تلك الكلمات . وأحس كأنما ألف شيطان يتحلقونه ، وبأن حاسة الشرف والكرامة تأخذ بتلابيبه ، فقدر العودة الى الجبل ليثبت للكابتن «مياخيليس» ما يريد أن يثبته . ولكنه عاد فتذكر زوجته وتذكر الحانة ، وجعله ذلك كله يضرب فى الشوارع من جديد .

وعندما وقعت عيناه على الكابتن «بوليكسيجيس» واقفاً على عتبة دكانه .. توقف . انتبه . هذا فارق مرموق ، ورغم ذلك فانه يضع ذيله بين ساقيه وأغلق فمه ، لماذا ؟ لأن ذلك فى مصلحة «كريت» ثم تجيء أنت أيها المقل «فيندوسوس» لتفلسف الأمور وتتصرف وحدك ؟ انتبه أيها

الأحمق ، ولا تحس لحظة بالخجل . ان قيادة المعارك عمل لا يقدر عليه الا الفرسان المقاتلون . ولكن حتى هؤلاء الفرسان المقاتلون يثبتون أحيانا أنهم أعلى من هذه المرتبة حين يأمرهم بالقاء السلاح فلنلق السلاح اذن ، ولنحدث قليلا الى الكابتن «بوليكسيجيس» لكى نبث الشجاعة الى صدورنا .. ان لى أطفالا ، ويجب ان أظل حيا أنا المسكين .

- طاب يومك ياكابتن ، لقد جئت من الجبل أحمل اليك «تحيات .. وقال وهو يدلف من باب الدكان :
وأشاح الكابتن «بوليكسيجيس» بيده وقال هادرا فى عنف :
- دعنى وحدى فى سلام ، وليتخطفك الشيطان .

كان ظهور «فيندوسوس» كفيلا بأن يحرك كوامنه ، فقد كان يحس بالخجل ، ولكن غضبه اثار هياج «فيندوسوس» لاشك ان هذا السيد العظيم يتصور ان فيندوسوس من الرجال الذين يسمحون للغير بأن يزوجهم أو بأن يطئوهم بأقدامهم .. أليس هذا ما يتصورونه ؟ .. حسن .. فسوف يريه اذن .

- أنا عائد الى الجبل . لن أغادر موقعى هناك ، واذا كان ثمة رسالة تريد أن ..
قالها دون أن يكون قد اتخذ فى ذلك قرارا قالها - ببساطة لكى يلذع الآخر .. وصاح الكابتن فى ضحكة مترفعة :
- أنت عائد الى الجبل ؟ أنت يا فيندوسوس ؟ .. انه من الجنون أن تفعل ذلك .

- نعم ، انه من الجنون ياكابتن . أنا أعرف ذلك ، ولكن . لا حياة بلا كرامة .. طاب يومك .

وقبل أن يجد الكابتن «بوليكسيجيس» الجواب ، خرج من الدكان . خرج بعد أن أصبحت كلماته قرارا حقيقيا : انه لا يعود تظاهرا وادعاء ، وانما هو يعود كيما يخجل ميخائيليس وبوليكسيجيس العظيمين ، واذا أراد الله بعد ذلك ، فسوف يعود ليرعى بيته ويزوج ابنتيه .

واتجه فى سرعة الى كنيسة القديس «ميناس» فودعه وأوقد شمعة .

وكانت الكنيسة خالية دافئة تفوح فى أرجائها رائحة البخور . وخيل اليه ان القديس «ميناس» الذى لوحته الشمس ، والذى يمتطى صهوة جواده مترسا بالدروع الفضية من قمة رأسه الى أخمص قدمه .. يتسم له ويحييه : «ارجوك رحلة طيبة يافيندوسوس ، أنت سائر على النهج الحق ، فلا تقلق . وسوف أعتنى أنا بزوجك وبأولادك ، وسوف اختار لابنتيك زوجين من أفضل الفرسان . الى اللقاء ياكابتن «فيندوسوس» .

ورسم علامة الصليب والبهجة تغمره ، ثم تناهت اليه أصوات جمع يتكلم ، ورأى من خلال نافذة قصر الأسقف ، القزم السمين «شاريلاوس» ماذا يفعل ياترى فى قصر الأسقف هذا اللص .. تاجر البضائع المسروقة .

ولم يكن «فيندوسوس» يعرف طبعا ما يريده المطران من الرجل ، لقد جاء القزم الى المقر بناء على دعوة منه ، وهما الآن يشربان القهوة معا . وهذا ما كان يريده منه المطران ؛ ان المسيحيين الذين كانوا قد هربوا الى «أثينا» والى «بيريوس» يعودون الآن ليجدوا بيوتهم وقد نهبها الأتراك الذين حطموا الصناديق والدواليب والمقاعد وجعلوها نهباً للنيران . حتى الأبواب أحرقوها ، فلم تبق سوى الحوائط قائمة تنتظر عودة أصحابها .. وأراد المطران أن يدعو هذا المالى الكبير «شاريلاوس» ليثير فى نفسه حاسة الشرف ويقنعه بأن يمنح أصحاب هذه البيوت قروضا بأرباح معقولة لكى يعيدوا بناء بيوتهم . وكان «شاريلاوس» قد جمع آلاف الجنيهات على حساب هذه الثورة باتخاذها جانب الباشا . كما انه جمع الكثير والكثير بالمقايضة على مجرد كسرة خبز .. أخذ الاقراط والقلادات والاحجار الكريمة والنقود الذهبية من المسيحيين الجوعى وامتلات خزائنه وفاضت بما بداخلها من ذهب ومجوهرات .

وحول القهوة ، بدأ المطران فى حذق يدير دفة الحديث الى الله ، ماذا يفيد المرء أن يكسب الدنيا كلها ويخسر روحه ؟ ثم تقدم الى هدفه خطوة اخرى - الى الوطن . كم من الأبطال خلدوا لأنهم ضحوا بأنفسهم من أجل الوطن . وهذه التضحية - لا ينبغي أن تنسى - لا يجب أن تقتصر فحسب على بذل الأرواح ، انها يمكن ان تكون متحققة أيضا ببذل الاموال ، ان هذا الذى يعطى ماله سوف يصبح خالدا هو أيضا .. وسوف يستحق لقب

«بطل» وبعدها يفتح الله السجل لكى يضع اسمه وسط اسماء الأبطال بحروف من ذهب .. وامام هذا الاسم عدد الجنيهاات التى وهبها من أجل المسيحيين .

وظل القزم الخبيث يحتسى قهوته رشفة رشفة ، ويدخن سيجارته ويتطلع عبر النافذة الى اطلال البيوت والى صفحة البحر المزد خلفها . وكانت كلمات المطران تنفذ من أذنه لتخرج من الاخرى بينما هو يقول لنفسه وهو ينفث الدخان من أنفه : «انه يحاول اقتناصى ، انه يحاول ان يغربنى بالشرف ليغرغ خزائنى . اه .. لشد ما أسف له ، فانا ند لا يستهان به لمحاولاته» .

وأطفا فى النهاية سيجارته فى الكوب البرونزى على أساس ان المطران قد انتهى مما كان يريد أن يقوله . وقال فى صوته حزينا منكسر : - ان كلماتك قدسية ياسيدى ، كل مرة اتهمت نفسى : أه لو كنت ذلك الرجل الذى يستطيع ان يحمل بذقيته ليهب حياته من أجل الوطن . وآه لو كنت على الأقل ذلك الرجل الغنى الذى يستطيع ان يعطى الأرامل ويدعم ولو قليلا قضية المسيحيين .. مادام الله سبحانه قد صب على لعنته وجعلنى كما ترائى ، ولكن الله سوف ينظر الى بعين رحمته يوم الحساب .. ولكننى مقلس ياسيدى .. لقد انتهيت . ان أعمالى توقفت .. وصدقنى ياسيدى حين أقول لك ذلك برغم أن الكثيرين يهينوننى ويصفوننى بأننى أستغل الفقراء .. ان الأرملة او اليتيمة تجيئنى ومعها خاتم أعرف يقينا انه لا يساوى قروشا معدودة لا غير ، ورغم ذلك فاننى أمنحهما مقابله ضعف ثمنه لأن قلبى يحترق لمراى حظهما العاثر . اننى أخرب نفسى بيدي .. وأنا أعرف ذلك جيدا . ولكننى بشر ياسيدى . أحس بالأسى لهم ، لقد بعث حقل كروم ومزرعة زيتون وضاع ثمنهما على هذا الطريق ياسيدى .. بل انى مضطر الى رهن بيتى الذى أعيش فيه .. والله شاهد . وانى لأسأل نفسى أحيانا : ماذا سيكون مصيرى ؟ لقد حطمتنى طبيئى ، وعندما دعوتنى الى هنا قفز قلبى من البهجة وقلت لنفسى : « ان الله سبحانه عادل ويجازى على خير العمل ، ان الأسقف يكرمنى بعد أن سمع بأعمالى الخيرة - وبعد أن سمع أيضا ولاشك بما أعانيه ، لقد ألهمه الله ذلك .. وسوف يمنحنى

بالقطع معونة من صندوق الأسقفية يمنع سقوطى الى الهاوية .. فقد سمعت ان حصيلة العام طيبة والحمد لله .

وابتلع المطران ريقه بصعوبة وهو يقول لنفسه : «هذا الوحش الخبيث الملعون» كان رأى القزم قد أصبح يضايقه ، فاحتسى قهوته فى جرعة واحدة وتحسس مسبحته فى عصبية ، وكان «شاريلاس» لا يزال جالسا فوق الأريكة عائد الساقين ، فنهض واقفا على ساقيه القصيرتين .. ونفض يده وهو يقول : «الجو بارد ، ماذا سيكون حالنا بلا وقود المدفئة وبلا ثياب وبلا طعام كاف ياسيدى المطران ؟ لقد اضطررت الى ان أبيع كل دجاجى ، ولكن ذلك مكننى من أن أكل بيضة كاملة كل صباح . نسأل الله أن يرفق بنا» .

وقبل يد المطران وتهدى للخروج وهو يقول :
- صل من أجلنا ياسيدى . أنصرف الآن بأذنك ، فانى أحس ببعض التعب - ولابد ان استريح .

وكان الأطفال لحظتها يخرجون من مدارسهم متدافعين صاخبين يملئون الجو صفيرا ، وكان «تيتروس» قد أبقاهم فى ذلك اليوم طويلا لأن عطلة المسيحيين كانت ستبدأ فى اليوم التالى وكان عليه أن يلقى عليهم درسا أخيرا ، وكان قد أصبح الآن قوى البنية ممثلا لوحته الشمس ، وكانت الفلاحة التى تزوجها تنتظر مولودها مما بعث البهجة الى نفسه . كان الكل من قبل يشيخون عنه ، وأصبح له الآن اليد العليا ، والويل للتلاميذ الذين يحاولون أن يسخروا منه .

وترك «فيندوسوس» التلاميذ يعدون فى الطريق ، وحين رأى «تيتروس» يخرج فى اثرهم لم يعرفه لأول وهلة .. ثم مالبث ان صاح :
- أيها المدرس .. لقد أكلت فيما يبدو خلاصة تنين فأصبحت أنت أيضا تنينا .

ثم قال فى اعتداد :
- أنا عائد الى الجبل ، هل تريد أن تبعث برسالة الى أخيك الكايتن «ميخائيليس» .

وسار معه «تيتيروس» وهو يشد على يده :
- أنت فارس يا فيندوسوس ، أغفر لى ، فلم أكن لاحظ ذلك من قبل طوال الفترة التى عرفتك فيها .
- أنا لم كن أبدا فارسا فى يوم من الأيام أيها الفارس المدرس . ولكن .. كيف الاصطبار ؟ لقد أصبحت فردا ، ان الذى يجلس مع رجل أعمى سرعان ما ترمش عيناه ، والكابتن ميخائيليس هو السبب ..
- أنا أيضا أؤدى واجبى . قل له ذلك ، قل له أن هذا هو طريقي .. قل له إن كل أغلال الأطفال الكريئين تلتف حول عنقى . اننى أوقظ كريت من خلالهم .. وأفعل ذلك بأقصى ما أوتيت من قوة - لقد تركت الجبل لكى أنفج كريت ، ومن أجل هذا أيضا يجب أن يهبط هو الآخر .. قل له ذلك .
- لا تقلق ، فسوف أخبره ، ولكننا لن نهبط ، وانتبه جيدا لما قلته .. الى اللقاء أيها المدرس .
- «فيندوسوس» أيها العجوز الطيب .

ثم تابعه بنظراته فى اعجاب وهو يمضى قدما فى شجاعة عبر بوابة المستشفى .

أما المطران فقد نادى الشمساس بمجرد أن خرج «شاريلاوس» من عنده وقال :

- أيها الشمساس ، أنا متعب ، وعلى فى نفس الوقت أن اذهب الى اركوندولا ، فسوف يكون الباشا هناك ، سوف نلتقى مرة أخرى لأول مرة بعد عدة أشهر . انه لن يحضر الى قصر الاسقفية ، وأنا لن اذهب الى مقره الباشوى .. لهذا فقد اتفقنا على أن نلتقى فى بيت «اركندولا» .

وسأله الشمساس الذى كان شابا قوى البنية أسود الشعر .. ابن فلاح ، صوته يرن مثل الجرس :

- مادمت متعبا .. فهلا أسرجت لك الحمار ؟
- وكان هذا الشمساس مشهورا بقوته ، وعندما كان يجلس الى جوار المطران ، فكان ثمة أسدا يحرس هذا الأخير . وكان الشعر الذى يغطى رأسه ولحيته كافيا لأن تحشى به وسادة .

- معك حق . باركك الله .. هذا البؤس المفزع أرهقنى .

ووضع الشمساس بطانية فوق ظهر الحمار ، ثم بسط فوقها قطعة من القماش ذات حواف مطرزة لأشجار سرو وصلبان ، ثم اقترب بالحمار من عتبة عالية ، وحمل المطران بيديه وأجلسه فوقه .

وكان الباشا قد فرغ لتوه من تناول وجبة طيبة - «مصمص» كل عظمة لدجاجة ، وشرب ابريقا كاملا من نبيذ «مالفيسيا» ثم نادى خادمه سليمان : - أيها الأحقق سليمان .. يجب أن أذهب لأرى هذا القس الكافر السمين حتى أظهر للمسيحيين وللأتراك معا أن القتال قد انتهى وأن الذئب والحمل قد غفر كل منهما للآخر ، جهز جوادى اذن ، فالظاهر اننى لن أستطيع الذهاب سيرا على قدمى . وتعال أنت معى ، فقد أكلت كثيرا وأحس بالنعاس .. فأمسك بى جيدا ونحن نقطع الطريق حتى لا أسقط .

ولكنه عندما هبط الدرج وتهايا لامتطاء صهوة الجواد ، ظهر أمامه كل من «بابايانيس» و«أفندينا» .. وقد تعانقا .. وغابا فى حالة من الوجد يتميلاان ويصيحان ويتناقشان .

كان «بابايانيس» يحتفل باليوم كما لو كان عيدا . ان واحدة من حفيداته قد أنجبت ولدا .. وأصبح يستطيع أن يحمل بين يديه أول أبناء أحفاده .. وكانت مناسبة كافية لأن يشرب . وعندما شرب .. وانتشى ، تذكر «أفندينا» فدعاه وأجلسه وقدم له الطعام والشراب .

وقال «أفندينا» وهو يتشمم الطعام فوق المائدة فى قلق :

- فلتقسم أولا بأنك لن تنتهك دينى .

- أقسم يا أفندينا .. فلا تخف . ليس هناك لحم خنزير .. وليس هناك نبيذ . ولسوف أكل معك ..

وقال أفندينا :

- لا بأس بالنبيذ ، أستطيع أن أشربه ، فالكل يشربونه .

- أنا لا أريد أن تحملنى أوزارك فتلتف حول عنقى يوم الحساب ، ولذلك فسوف نشرب بعض «السحلب» .

- لا .. لا ان السحاب لا يناسب معدتي يا باربايانيس .. سوف أشرب
النبيذ فهو لا يسبب لى ضررا . لحم الخنزير فقط هو الذى يسبب الضرر .

وهكذا أفرغ الاثنان زجاجة وانتشيا .

وقال «باربايانيس» فجأة :

- ما رأيك يا باربايانيس طالما اننى لن اضطر الى عبور أحد الشوارع ؟
- أستطيع ان أحملك فوق ظهري ، فلا تخف . حسن .. فاستمع الى :
أنت تركي ، وأنا مسيحي ، فهل تريد ان تقتلني ؟ أمامك السكين ..
فاذبحني .

وصاح أفندينا :

- لا وحق ديني . أبعد هذا السكين يا باربايانيس . أنت تجعل قلبي يكاد
يتوقف .

- حسن .. فأننا أيضا لا بد ان أذبحك . أليس من الأفضل اذن ان يصبح
كل الأتراك والمسيحيين مثلنا نحن الاثنين ، يعيشون كالأخوة ؟ ألم تر
أحيانا كلية تمنح ثديها لقطة بين صغارها ؟ حسن .. فهكذا ينبغي أن يكون
الحال فى كريت . هل تفهم ما أقصد ؟ .. أريد أن قول إننا - نحن -
الاثنين - يجب أن نذهب متشابكي الأذرع الى الباشا لنقول له : « أنظر
الينا يا باشا ، أنظر كيف فعل الأتراك والمسيحيون ، أفندينا هو تركيا ، وأنا
أمثل المسيحية . وقد صرنا أخوين ، فمر لنا ببعض الشراب » وسوف
ينفجر الباشا ضاحكا - هذا الرجل الطيب ، تخطفه الشيطان - وسوف
يقول : « قدموا لهما ما يريدان ، انى أباركهما » .. وسوف يخرج من دولابه
وساما لكل واحد منا ، فنحنى معا متشابكين - أنت الذى تمثل تركيا ، وأنا
الذى أمثل المسيحية - ونخرج بعدها عبر الشارع العريض .. الى الكنيسة
لنصلى ثم الى المسجد لنصلى أيضا . وبعدها نمضى الى مقهى حسين
أغا حيث يغنى شباب الأتراك وحيث ترتفع روح الرجال فى سعادة . هل
تفهمنى يا أفندينا ؟ .. هل توافق ؟

وقال «أفندينا» وهو يحس بالعرق البارد يتصبب من وجهه :

- وماذا عن المياه يا باربايانيس ؟

- قلت لك لا تخف ، فسوف أحملك فوق ظهري ، ثم انى تعلمت السباحة ، فانتظر الآن حتى أسلح نفسي - أعنى أن أحمل معى سيفى وترسى .

ورفع سيفا معلقا بالحائط ، وبحث فى درج المطبخ عن الترس الذى كان مجرد قطعة من الصفيح كتلك التى يعلقونها بالأشجار اتقاء للعين الشريرة ، ثم قال :

- الامام .. باسم المسيح وباسم محمد ، قل نفس الشيء يا أفندينا وسوف يصبح كل شيء على مايرام ياأحمق .

- ولكن لابد ان أقدم اسم محمد أولا ، فلنتوخ العذل .

- وماذا لو فعلت ؟ حسن .. هيا اذن .

وقال أفندينا :

- باسم محمد وباسم المسيح ..

ثم خطا الاثنان عتبة الدار مبتدئين بالقدم اليمنى .

واستدار «أفندينا» فى الطريق وسأل «باربايانيس» :

- ما رأيك يا باربايانيس ؟ هل نمر بعلى أغا لنأخذه معنا هو أيضا ؟ انه

ليس تركيا وليس يونانيا ، انه مجرد واحد كالأخرين ، فلنأخذه معنا حتى نبرز للباشا كل الأمة .

وصاح «باربايانس» الذى ود لحظتها لوقبل الدنيا كلها من فرط البهجة :

- ولم لا ؟

ووصلا الى حى الكابتن «ميخايليس» وقرعا بابا «على أغا» .. وسمعا

أصوت ارتطام كتل خشبية داخل الفناء .. وقال الصوت الحاد الصغير من الداخل :

- من هناك ؟

وصاح «باربايانس» :

- صديقان ياأعلى أغا ، فافتح .. لقد جئنا نحمل اليك السعد ..

- أنا خائف يا أولادى .. فاذهبا لحال سبيلكما .. أى اصدقاء ؟

وقال أفندينا يقدم نفسه :

- انه أنا ياأعلى أغا .. أفندينا «روث الخيل» .

وفتح الرجل الضئيل الباب .. وظهر متفضن الوجه . لقد ظل منذ هروب

المسيحيين يروح ويجيء هنا وهناك ؛ المسيحيون لا يثقون به ، والأتراك لا يقيمون له وزنا . وكان يخرج كل صباح الى الحقول ليجمع بعض الأعشاب يأكلها مغموسة بالزيت وينتظر اللحظة التي يتعقل فيها الرجال ويعود فيها الجيران الى بيوتهم حتى تعود زيارات المساء الحافلة بالطعام .

ورأى «باربايانس» الى أى درك من الدنيا هبط «على أغا» ، وأحس فجأة بأنه معجب بهذا التركي .. فقد أفزعه بؤسه الشديد . وسأله وهو يأخذه بين ذراعيه :

- ماذا أصابك يا على أغا ؟

- لقد أصبحت عجوزا يا باربايانس ، لم أعد أقدر حتى على احناء ظهري .. لم أعد قادرا على تقليب الأخشاب .

وسأله أفندينا :

- هل ستذهب معنا الى الباشا ؟

وصاح العجوز فى قزع :

- الى الباشا ؟ وماذا أفعل هناك ، .. لا .. لن أخرج من هنا .

وقال «باربايانس» يشرح الأمر :

- انه لصالحك يا على أغا ، سوف تحصل على وسام .

وصاح العجوز وهو يفلق الباب بعنف :

- استحلفكما بالله ان تمضيا الى حال سبيلكما وان تدعاني وشأني .

فقال «باربايانس» :

- دعه اذن يا أفندينا ، انه اشبه بالميت ، وهيا بنا .

ووصل الاثنان الى الميدان الرئيسى واتجها نحو بوابة الباشا .. وظهر الاحمقان فى نفس اللحظة التى كان الباشا فيها يهبط الدرج .

وصاح الاثنان عندما أبصرا به :

- يا أفندينا الباشا ، قف وفنا حقنا من الاعجاب .

وسألها الباشا وهو يضحك :

- ماذا يجول برأسى الدجاجتين ؟ وما هذه المسخرة ؟

وكان أفندينا قد عقد حواف سروال الخيش الذى يرتديه بعد أن تمزقت

خيوطه بينما وضع «باربايانس» السيف بين ساقيه .. وتقدم الاثنان ، وبدأ ممثل المسيحية يتكلم فى وقار :

- يا أفندينا الباشا ، لا تحسبنى الآن «باربايانس» بائع الكعك ، أنا الآن «مملكة المسيح» وهذا الرجل ليس أفندينا روث الخيل كما يسمونه ، وإنما هو «تركيا» لقد أكلنا عشب الخصام وأصبحنا أعداء ، ثم أكلنا الشهد فى النهاية وهذا الحال . وها نحن الآن قد أصبحنا أخوة يا أفندينا الباشا : ألا ترى ؟ أن كريت مثل الكلبة التى تستطيع أن تمنع ثديها لصغارها وتمنحه أيضا للقطط الصغار . ان اللين متوافر للجميع كما ترى .. وبعده ومعه الوفاق والحب والحياة المطمئنة والسعادة ، لقد أصبحت اليوم جدا أكبر ، فلتعمل من أجل الاصلاح اذن يا باشا .

وبعد أن أغرق الباشا فى الضحك صاح :
- يا سليمان .. هذا الرجل ليس أحمق . من يصدق الآن انه كذلك ؟ هذان الرجلان أكثر تعقلا - وحق دينى - من المطران ومنى أنا أيضا . قدم لهما شرابا وطعاما طيبين .

- ووساما يا أفندينا . اليس هناك أوسمة يا أفندينا الباشا ؟
وعال «باربايانس» معموما .
- ما هذا ؟ يكفيكما وسام واحد . لقد منحتك من قبل وساما .
- وماذا عن أفندينا ؟
وأشار الى صديقه الذى كانت سراويله تنزلق .
- أعطه خيطا ياسليمان حتى يثبت سرواله .

ثم صاح أمرا :
- كفى .. هذا هو كل ما عندى لكما من أوسمة .. فانصرفا اذن فأنا مشغول .

وعندما وصل الباشا الى بيت «أركوندولا» أسعده ان يجد حمار المطران مربوطا الى حلقة الباب ، فقال :
- لقد وصل المطران قبلى ، وهذا يعنى انه يعترف بأننى أنا الكبير هنا .
وانزله سليمان من فوق ظهر الجواد ، وسار عبر الفناء الواسع الممهّد والذى تنتثر خلاله أصص الزهور ، وأقبلت صاحبة البيت العجوز لترحب به

وقد شددت وسطها حتى بدت كمذراة الحبوب .. وبدأ أنفها وسط وجهها المطلى بالمساحيق منفرا مزعجا .

وكان المطران قد قام مرحبا ، وانحنى الباشا عندما دخل الى الحجرة ، ثم جلس فى مواجهته وأخرج مسبحته ، وانسحبت العجوز تاركة الرجلين الكبيرين وحدهما يناقشان الأمور المهمة التى تخص البلد .

وساد الصمت لحظة بينما كان المطران يدفع يديه فوق الموقد البرونزى أمامه ، فقد كاد يتجمد من شدة البرد . وتتأهب المطران بالتالى :

وأخيرا تكلم المطران حتى يفتح باب الحديث :
 - البرد شديد اليوم يا أفندينا الباشا .
 وأجاب الباشا وهو لا يزال يتثائب :
 - نعم .. فقد أقبل الشتاء يا أفندينا المطران .

ثم انحنى فوق الموقد .. وفتح فمه .. ولكن فى صعوبة بالغة :
 - سمعت ان دخان الفحم يسبب الدوار . أنا أحس بالدوار فعلا .
 وقال المطران وهو يتثائب بدوره :
 - نعم .. سمعت ذلك .. ولكن حين لا يكون الفحم كامل الاحتراق .
 وساد الصمت من جديد ، وأحس الباشا بالتعب وهو يبقى يديه ممدودتين فوق الموقد ، فأراحهما فوق ركبتيه وهو يجيل البصر حوله الى ساعة الحائط الكبيرة والى الاناء الأخضر الملىء بالورود الحمراء المخملية فوق دولاب رسم فوقه بالحفر ، والى جانبه تمثال لمغربى دى رأس مفرغ ملىء بأعواد الثقاب ، وفوق الباب صورته هو باللون الأحمر والذهبي والأسود تمثله وهو ينظر فى خيلاء وعظمة .. ولا تكاد الصورة تغفل قدر شعرة من الأصل . وبينما كان يتطلع الى الصورة معجبا بأناقته . أجفل فجأة ، فقد خيل اليه ان زر طربوشه يتحرك ، فقال فى رعشة :
 - يا أفندينا المطران ، خيل الى ان زر طربوشى يتحرك فى الصورة ،
 أيمن ان يحدث هذا ؟ ما رأيك ؟

وكان المطران يحس بالارهاق والضيق لأنه لم ينم كعادته بعد الظهر ..

ولكنه استجمع قواه .. وتطلع الى الصورة يفحصها - وعاد الباشا يسأل :
- أهذا يمكن يا أفندينا المطران ؟
- عم تتحدث يا باشا ؟
- عن زرد طربوشى الذى يتحرك فى الصورة .

وقال المطران وهو يستند بجسده الثقيل الى ظهر مقعده :
- لا .. هذا مستحيل يا أفندينا الباشا .

واستند الباشا بدوره الى ظهر مقعده وأغلق عينيه ، وحين رآه المطران
أغلق هو الآخر عينيه .

وبرز الديك من ساعة الحائط معلنا الوقت ، وهبت ريح شمالية حركت
الشجر بعنف فى الغناء ، ونقر عصفور زجاج النافذة ثم ما لبث ان طار
مذعورا حين سمع شخيرا مفزعا . وتسالت القطة الضخمة التى تعيش
بالبيت وقفزت الى حجر المطران وتقوقت تدفء نفسها ببطنه .. ونامت فى
اطمئنان .. وعاد الديك يبرز من داخل الحائط ليعلن الوقت مرة أخرى .

وضعت «أركوندولا» فى قلق .. أذنها الى الباب ، ولم تسمع حديثا ،
وانما سمعت أنفاسا منتظمة طويلة .. وشخيرا مطمئنا .. واحد ثقيل كأنه
صوت طبله ضخمة ، والآخر كزئير البوق . فقالت لنفسها : «سوف أعد لهم
بعض القهوة لتوقظهما» .

ثم اتجهت الى المطبخ لتضع الاناء فوق النار ، وما لبث الباشا ان سمع
صرير الباب ، ففتح عينيه ، ورأى صاحبة البيت العجوز تدخل حاملة
صينية مستديرة ، فقال ساخرا وهو يشير الى المطران النائم :
- لقد غلبه النوم ، لم يعد المسكين يصلح لهذا الأمر .. لقد شاخ .

وفتح المطران عينيه هو الآخر على رائحة القهوة وهى تتسلل الى أنفه ،
وقال وهو يعد يده الى الفنجان :
- لك الشكر من القلب أركوندولا ، كنت فى أشد الحاجة اليه ، فبينى
وبين النوم قيد شعرة .

ورشف الاثنان قهوهتهما بسعادة وبصوت عال ، بينما استدار المطران الى الباشا وهو يقول :

- ان محصول القمح يبشر بالخير هذا العام يا أفندينا الباشا .
- وقال الباشا فى يونانية ناقصة :
- والشخير أيضا يا أفندينا المطران .

ثم نهض واقفا وهو يقول :

- لقد أمضينا وقتا طويلا اليوم ، فلنكرر هذا اللقاء يوما آخر من أجل مزيد من التداول .

وقال المطران وهو يقف مستندا الى مقعده هو الآخر :

- بكل سرور يا أفندينا الباشا .

وكان ثمة جمع قد احتشد خارج البيت بعد أن عرف أن الزعيمين قد التقيا لأول مرة منذ عدة أشهر للتداول فى كيفية اقرار الوفاق فى البلد . ووقف الجمع ينتظر فى البرد .. ويرى الاثنين وهما يخرجان متشابكى الأيدي .

ومر « كاساباكيس » الطبيب .. وتوقف ، ورأى « أرسوتول » الصيدلى يقف منتظرا فسأله :

- ماذا يحدث ياسيد أرسوتول ؟ هل مات احد ؟

وقال أرسوتول :

- حذار يادكتور . ان الباشا والمطران بالداخل يتفاوضان حول كيفية اقرار الوفاق فى البلد . وقد رأهم البعض من خلال النافذة والأوراق أمامهما : كان المطران يكتب والباشا يتكلم وهو يلوح بيديه . لعلهما الآن يضعان أختامهما على الورق . كيف حال السيدة مارسيل ؟

وهز الطبيب كتفيه وهو يقول :

- دائما كما هى .. سوف أبعث بها الى أخى « كاتساباس » فى الريف حتى تغير الجو .

وكان يتكلم فى رضا ، لأنه نجح أخيرا فى إبعادها حتى يصبح هو وحده

مع الخادمة .. وبينما كان الجميع يتبادلون الأحاديث ، ظهر السيد « ديميتروس » قادما من القرى لأول مرة بعد سبعة أشهر من التجوال وفي يده مظلة من أجل أن يزيل - على حد تعبيره - الهم عن قلبه . ولم يكن طوال هذه الشهور السبعة يتكلم الا نادرا حتى ظن الفلاحون أن الجنيات قد سلبته القدرة على الكلام ، وأسبغوا عليه الشرف اذ سلوكه فى عداد الذين مسهم الجن ، وكانوا يمنحونه كسر الخبز فيأخذها ، ويلوكها دون أن يتوقف ، ويتابع السير الى قرية أخرى . وكان يضع المظلة أحيانا تحت إبطه ، ويفتحها أحيانا حسب حالة الطقس .

كان السيد « ديميتروس » يتابع تجواله والقلق يستبد به طوال الفترة التى كانت « كريت » تناضل فيها ملك الموت . أما وقد بدأ السلام يسود ، فقد وجد السلام أيضا فى أن يعود الى زوجته « بنيلوب » وقد تمزق حذاؤه وتمزقت ثيابه وضاعت قبعته وأصبح سرواله فضفاضا فوق جسده الذى زاد نحولا .. يتطاير فى الهواء مثل « جولة » امرأة .

ومر بالجمع وهو يعرج مستندا الى مظلته ، وقال الطبيب وهو يضحك :
- ما أشد ما هزل جسده .. ان سرواله يكاد أن يكون فارغا ..

وأجابه السيد « أرستوتل » وهو يهز رأسه المديب كالخياره :
- لا تقلق عليه ، فسرعان ما يملؤه من جديد . أين ما أصابه بجانب ما أصابنى أنا من سوء الحظ !!

وكان يفكر فى بقالته بالشارع العريض ، وفى أنه لم ينبج ولدا يرثه ، وكان يفكر أيضا فى شقيقاته الثلاث العوانس وثقوبهن فى باب البيت ، والتى من خلالها يمارسن متعتهن الوحيدة : رؤية الدنيا .

وقال الطبيب للقادم الجديد :
- مرحبا ياسيد « ديميتروس » ، كيف حالك ؟

وقال « ديميتروس » وهو يتابع السير :
- الشكر لله .. لقد كسرت قدمى .

وغمغم الصيدلى وهو يتابعه بنظره :
- لا يستمتع بالدنيا حقا الا المغفلون . أما العقلاء ، فالويل لهم ، كل
الويل .

وصاح الطبيب فجأة :
- أوه .. لقد نسيت ، يجب أن أنصرف .

- وماذا نسيت ؟ مريضا ؟

- نعم .. انها اليهودية التى جاء بها ابن أخ الكابتن ميخائيليس ، لقد
أجهضت .. فتاة جميلة شقراء - هل رأيته ؟

وقال الصيدلى فى سعادة خبيثة :
- فهذه لعبته الآن اذن .

ثم وقف على أطراف أصابعه ليرى ما يجرى فى فناء بيت « أركوندلا »
حتى يحكى التفاصيل لشقيقاته . ورأى الجمع المحتشد فى تلك اللحظة
المطران الضخم الابيض اللحية يخطوفى وقار عبر الفضاء بين صفيين من
أصص الورد متجها الى الباب وقد أمسك بيده يد الباشا ذى اللحية
الرمادية الخشنة . وأفسح الأتراك واليونانيون الطريق للآخرين بينما الباشا
يبتسم يمينا ويسارا على حين كان المطران متجهم الوجه عاقد الحاجبين
يستند فى ثقائل على عصاه الرسمية . كان يريد التخلص فى أسرع وقت
من الباشا ، وأسرع الشمساس يفك رباط الحمار ، بينما هرع سليمان
بالجواد .

كان « نعيمى » تتحمل الآلام فى بيت أسرة زوجها . لم يكن قد غمض
لها جفن طوال الليلة الماضية حيث ظلت تفكر فى زوجها وفى الجبل الذى
لا بد أنه كان يتسلقه فى تلك الأثناء ، وتفكر فى وليدها الذى ينمو داخل
بطنها ويضغط عليها بقسوة ، وأحست برعب غريب يمنعها من النوم ،
وبخطر ما فى الجو يهددها : جسم غير مرئى ، صوت لا صوت له ،
شبح ... أحسست بالعرق البارد يتصبب من جسمها وذلك الخاطر يقفز الى

ذهنها ، فنهضت واقفة حتى لا تختنق وفتحت النافذة فاندفع هواء الصباح المنعش . كان الصباح ينبثق .. وهبطت « نعيمى » فوجدت الأم العجوز منحنية توقد نار الفرن ، فقالت :

- أماه .. أحس بالتعب .. سأخرج لأشم الهواء .

وعندما نظرت إليها الأم أجفلت . كانت المسكينة ترتعش من الخوف وقد برزت عظامها وأحاطت بعينيها هالتان سوداوان . وسألتها فى اشفاق :

- وإلى أين تذهبين فى هذا الوقت المبكر من الصباح وفى هذا الجو البارد ياطفلتى ؟ سوف تزداد حالتك سوءا .

وترددت « نعيمى » أحست بالخجل من أن يفتضح ذلك الذعر القاتل الذى كان يملكها .. وأن تفضح حالتها حقيقة المكان الذى كانت تريد أن تتوجه إليه ..

وعادت العجوز تقول :

- ألا تعرفين الى أين تريدان الذهاب فى هذا الوقت ؟

- أعرف ياأمى . الى الكنيسة لأوقد شمعة .

وصاحت الأم :

- هل رأيته فى الحلم ياابنتى ؟

- نعم .

- ووجهت الأم بصرها الى السماء وذقتها يرتعش . كانت « نعيمى » ولاشك على حق . انه لم يعد يعد . انه لا يزال فى الجو .. يتسلل خلال الأبواب .. انه لا يزال يضمض شرا .

وأخيرا قالت فى صوت خافت كما لو كانت تخشى أن يسمعها العجوز الميت :

- اسمعى ياابنتى ، اذهبى الى الكنيسة وأوقدى شمعة من أجله .

وصلى من أجله حتى يشفق عليك . ولكنى أستحلفك بالله ألا تخبره بأن
حفيده - بأنك ...
لن أخبره يا أمى ..

- خذى هذا الوشاح والتقى به جيدا حتى لا يصيبك برد .

وكانت الكنيسة خاوية وثمره حزم متفرقة من الضوء تتسلل خلال النوافذ
الملونة وتوقظ القديسين ، والثريا ، وأعمدة الشمعدان البرونزية ، وإلى
اليمن من أعلى المذبح ، القديس « ميناس » على صهوة جواده ، وتناولت
« نعيمى » شمعة من فوق المنضدة واتجهت نحو مذبح السيدة العذراء
التي تعلق صوريتها المذبح الى جوار « الباب الجميل » ، ولم تجد فى نفسها
الجرأة على أن تخاطب العجوز الميت مباشرة ، وفصلت أن تتحدث الى
السيدة العذراء .. الأم ، .. كواسطة بينها وبينه .

وكان ضوء المصباح الفضى فى مواجهة تمثال السيدة العذراء يلقي
ضوءه الناعم على ذقنها المترفع وفوق عينيها اللوزيتين ، والعصابة
الحمراء حول رأسها .. والمطرزة بالنجوم الذهبية . وركعت « نعيمى » وهى
تنظر إليها .. وظلت راکعة لا تتكلم فترة من الوقت طويلة ، وكلما أمعنت
النظر .. هذا قلبها واستقر . كانت العذراء تمسك بابنها فى حرص بين
يديها وكأنها تخشى أن ينتزعه أحد : وكانت تسند خدها فى رفق الى خده
وتمسك بصليب خشبى أمامه كأنه اللعبة .

ووقفت « نعيمى » وأوقدت شمعة ، وقربت فاما من العذراء وبدأت
تحدثها . لم تكن قد تعلمت الصلوات بعد .. فحدثتها كما يمكن أن تتحدث
الى جارة طيبة طرقت بابها وهى فى محنة .

- « يا أمى » .. أنا نعيمى اليهودية ، جئت من أقصى الدنيا ، تركت دين
أبائى وأصبحت مسيحية . أنا فى محنة أيتها الأم .. فساعدنى ، قولى له
ألا يجيئنى بالليل ليعذبنى .. قولى له ألا يؤذنى . أنا لا أرجو لبيته سوى
الخير ، انى أحب ولده ، وليس لى فى الدنيا سعادة سواه . يا أمى ، سوف
أقول لك شيئا آخر ، ولكن : أرجو ألا تنقله اليه : سوف أصبح أما بعد

ثلاثة أشهر ، وأخشى أن يؤذى طفلى . لا تدعيه يفعل ذلك ، انى أركع عند قدميك يام أمهات الدنيا .. كونى رحيمة بى » .

ثم رفعت رأسها : « ورأت العذراء تنظر إليها فى حزن ويأس . وخيل إليها أن عينيها قد ملأتهما الدموع فجأة . وارتعشت « نعيمى » ، وانتزعت من أذنها القرط الذهبى - هدية كوزماس إليها - وعلقتة فوق المذبح وهى تقول فى همس :
- « هذا كل ما عندى أيتها العذراء المقدسة ، هذا القرط لك .. فكرى فى » .

وعندما عادت الى البيت رأتها « ماريا » فأشاحت بوجهها عنها فى عنف بينما اتجهت الأم العجوز نحوها تسألها :
- هل أوقدت شمعة من أجله يا طفلى ؟ هل سمعت صوتاً ؟ هل قال شيئاً ؟

وقالت « نعيمى » :
- أنا ذاهبة لأرقد يأمى ، فأنا متعبة .

وصعدت الدرج فى بطء وبأنفاس ثقيلة ، وتمددت فوق السرير الحديدى العريض الذى عانق فوقه المرحوم زوجته أيام كان حياً .

كان الجو خانقاً ، وكانت « نعيمى » تتنفس بصعوبة وعيناها مفتوحتان ، فقد كانت تخشى أن يقتحم عليها الرجل الميت المكان وسط الظلام أن هى أغلقت عينيها .

ودقت الساعة فى الطابق الأسفل ، ومن قمم المآذن تنهأ صوت المؤذن منغماً مؤثراً : الظهر . وأحست بمرارة داخل فمها فلم تنزل لتأكل وبقيت عيناها مثبتتين على النخلة التى ترتفع فى فناء بيت « أركوندولا » عالية فوق سطوح المباني . وهبت ريح عنيفة ، واهتزت ضلف النوافذ ، واصطدمت أوراق النخيل التى تشبه نصال السيوف . وعلى المذبح فى مواجهتها ، ارتعشت ذبالة المصباح الصغير - وبدا اللهب الخافت وكأنه

يود أن ينطلق خارج الزجاجة ، ولكن « نعيمى » كانت عاجزة عن القيام
لتملأ المصباح الذى يصارع الموت .. بالزيت .

وأرهقتها التحديق المتصل ، فأغلقت عينيها . ولم تدر ما اذا كان النوم
غلبها أم أنه قد خيل اليها ذلك ؟ ولكنها على أية حال .. أغلقت عينيها فى
ذعر وهى واثقة تماما من أن شخصا ما قد تسلسل الى الحجرة دون أن
يفتح بابها .. وبذلت « نعيمى » أقصى ما استطاعت من جهد لتتراجع الى
أبعد حافة السرير .. ثم فتحت عينيها . لا أحد .. ولكنها بالرغم من ذلك
كانت تحس بأن ثمة شخصا يقف أمامها بين قوائم السرير .

وهمست « نعيمى » وقد استبد بها الفزع « أنه هو » .. وعادت تحديق فى
الهواء وقد انطفأ لهب المصباح وغرق المذبح فى الظلال . وكانت كلما
أمعنت التحديق ، قوى احساسها بأن الهواء أمام السرير يتكثف
ويتجسد : فى البداية لمع مسدسان فضيان ، ثم عنق قوى وشارب أسود
مصبوغ بالشمع ، وعينان يعلوهما حاجبان كثيفان .. حتى أصبح رجلا تراه
العين .

وصرخت « نعيمى » :
- أيتها العذراء المقدسة . النجدة . أخرجيه من هنا .

ولكنه رفع يده على الفور ، وجذب الملاء ونحاها جانبا ، ثم هوى
بقبضة يده فوق جسد « نعيمى » .

وندت عن المسكينة صرخة حادة ، وتدحرجت من فوق السرير الى
الأرض .. وسمعتها الأم فأسرعت تصعد الدرج لتجد السيدة غارقة فى
بركة من الدماء . فصاحت :
- ماريا .. الطبيب . بسرعة .

وأبعدت الطفل الذى ولد ساكنا لا يتحرك ، وجعلت تمسح جسد
« نعيمى » بالروائح العطرية ، ثم أضاءت المصباح وجلست تنتظر وهى
تنتحب فى داخلها على حفيدها الذى ولد بلا حس ولا حركة . وما لبثت
« نعيمى » بوجهها الشاحب أن فتحت عينيها وألقت نظرة حيرى حولها .

أين هي ياترى ؟ وما هذه الدماء ، ومن الذى وجه اليها الضربة ؟ ومنذ متى يستبد هذا الألم الطاغى بأحشائها ؟ وزمت شففتيها حتى لا تصرخ ، ورأت الأم العجوز تتحنن فوقها مادة اليها ذراعيها ، فهمست تقول :
- الألم شديد يأمى .

وجلست الأم الى جانبها ترطب جسدها بالعطر وفكرها فى ابنها البعيد . ياترى يعرف ابنها الحبيب بهذه الكارثة ؟ وأين هو الآن ياترى فى هذه اللحظة ؟ أليكون فى صحن دار الجد ؟

ولكن « كوزماس » كان بعيدا جدا عن صحن دار الجد يتسلق الجبل وسط ظلام الليل وتحت الأمطار ، يتبعه فى صمت العجوز « شاريديموس » بجسده المنحنى ، بينما صورة جده وهو يموت والقيثارة تمنحه جواب سؤاله .. تتجسد أمام روحه فى جمال فائق .

وفجأة توقف « شاريديموس » ، فلم يعد يطبق مزيدا من الصمت ، ان الرحلة تعنى الحديث المتبادل والمجاملات .. ولكن هذا الرجل الذى يرتدى الملابس الافرنجية لا يتكلم ولا يضحك .

- لماذا أنت فى عجلة هكذا ياسيدى ؟ لترى الكابتن ميخائيليس ؟ عليه اللعنة الأفضل لك ألا تراه أبدا . وإذا كان لابد لك من أن تراه فليكن ذلك اذن دون عجلة كلما أمكن .. ولاقصر وقت ممكن . لقد أرسلنى جدك أول أمس لأبلغه أنه يموت وأنه ينتظر حضوره ليودعه . وعندما استدار ونظر الى نظرتة الوحشية كدت أن أخرج ما بجوفى .

- لا تنزعج ياشاريديموس ، انه عمى . ان دماؤه هي ذات الدماء التى تسرى فى عروقى ، وإست خائفا منه .

- فأنت اذن من القوة بما يمكنك من مواجهته ؟ أراهن أنك لم تكون بالقدر الكافى من القوة .

- بل سوف أكون . فلا تتكلم .. وأسرع .

كان « كوزماس » قد عقد العزم على ألا يدنس بالحديث تلك الساعة من الاجتماع الصامت ، لأنه كان يفكر فى جده - ذلك الجذع القوى الضارب فى الأرض - ويفكر أيضا فى ذلك الغصن المعقد من هذه الشجرة - الكابتن ميخائيليس الذى يمسك بين يديه ولاشك بمصير كريت . كيف ياترى يتحدث اليه ، وكيف يتسنى له أن يؤثر فيه ؟ وماذا سيقول له ؟ وأى شيطان يملكه ؟ لقد قال له المطران : « ان خطئه هو الذى تسبب فى ضياع دير السيد المسيح ، هو الآن يريد أن يمحو هذا العار . هذا هو السبب فى أنه لا يريد أن ينصت الى صوت الصواب . ولعله يريد أن يموت ليدفع ثمن خطئه » .

ويومها سأله « كوزماس » :
- فماذا لو كانت مصلحة كريت تقضى بغير مايراه ؟

وظل المطران صامتا لحظات وكأنه يزن الكلمات التى سينطق بها .. ثم قال بعد تردد :
- فليسامحنى الله ، ولكنى أؤمن بأن ثمة شيطانا تملك جسد عمك .. اسمه كريت .

كذلك فان عمه « تيتيروس » استأمنه على سر :
- ثمة لحظة سوداء فى حياته . أمر غامض حول الكابتن بوليكسيجيس وامرأة تركية . هناك لغط كثير حول هذا الأمر . ان قلبه قد تحول الى وحش يرفض الانصياع الى ماقد يمليه عقله .

وكان « شاريليس » القزم قد قال له ساخرا :
- انه يغار من أركادى .. من أجل هذا فإن الشرير قد أقنع نفسه بأنه يستطيع هو الآخر أن يفعل شيئا كبيرا ينظم الناس الأغنيات حوله .

« ربما كانوا جميعا على حق » هكذا كان « كوزماس » يحدث نفسه وهو يتابع صعود الجبل تحت الأمطار وينزلق أحيانا فوق الصخور المنحدرة . ترى كيف يستطيع اقناعه بأن يستفيد بوعد الباشا .. قيعود الى حيث يشاء بسلاحه وبأعلامه ؟ هل يركز على أن تلك رغبة المطران ؟ أو أن ملك اليونان

يطلب ذلك ؟ ألن يهز كتفيه بلا اكتراث ؟ ألم يعد يثق فى مخلوق على ظهر هذه الأرض ؟

وظل « كوزماس » غارقا فى أفكاره يقلب كل أوجه السبل فى الحديث الى هذا الوحش الضارى والتي يمكنه أن تهديه سواء السبيل ، وفى ذات الوقت ، كان القلق يمزقه من الداخل . أى نوع من الولد سوف يحمله جسد « نعيمى » الهزيل الذى أودعه تلك البذرة المربعة لسلالته ؟ .. كان التفكير فى هذا الأمر يثير فيه الرعدة .. ومرة أخرى قفزت به أفكاره الى أرض الفرنجة .. الى الظلم والعار والفقر الذى رآه هناك .. وأخيرا ، ماذا عن دوره هو ؟ فى أى مكان ياترى يستقر ليخوض معركة حياته ؟ كان ثمة مكان لجده .. ولأبيه .. ولعمه ، أما هو ؟ أين ياترى يحتل مكانه ليقول بعد بملء فيه : « هنا أحارب معركتى ، ولن يزعزحنى أحد » .. ولأول مرة ، أحس بأنه معلق فى الهواء .

وهذات السماء أخيرا بعد أن ألقت كل أحمالها فوق الجبال ، وهبت ريح باردة تدفع السحب امامها ، وبزغت النجوم فتوقف « شاريديموس » ونظر الى السماء فاحصا :

- لقد تجاوزت الوقت منتصف الليل ، لقد قطعنا مسافة طيبة ، فإن كنت تؤمن بالله ياسيدى فلنتوقف قليلا تحت هذه الصخرة . انها بعيدة عن مهب الريح . ونستطيع أن نشعل سيجارة .

- هل تعبت ياشاريديموس ؟

- نعم .. تعبت .. يجب أن تعرف أننى عجوز . وأن عظامى أصبحت ثقيلة .

والحق أن الخبيث لم يكن قد نعب على الإطلاق ، ولكنه كان يتحرق شوقا الى الحديث . وجلس الاثنان تحت الصخرة ، وقدم له « كوزماس » سيجارة .

والآن ، كيف يبدأ شاريديموس الحديث ؟ .. نظر الى السماء أولا . ما الذى يستطيع أن يقوله عنها ؟ .. ثم طرحها جانبا .. وفكر فى قريته . وفى « ميجالوكاسترو » وفى كريت كموضوعات ممكنة للحديث . ولكن ماذا

يمكن أن يقول عنها ولا يعرفه هذا الافرنجى معرفة كاملة ؟ موضوعات هي الأخرى لا تجدى . وفجأة ، توقف عند اسم أحد أعمامه « أندروليوس » سوف يحدثه أذن عن هذا العم فى معرض المقارنة به هو .. وفى معرض مقارنة الكابتن « ميخائيليس » به . ان الكابتن ميخائيليس بالنسبة لعمه هذا ليس أكثر من ذبابة . « وسوف أريه » .

وَجَذِبَ مِنْ سِجَارَتِهِ نَفْسًا مَمِيقًا أَتَى عَلَيْهَا كُلُّهَا حَتَّى احْتَرَقَتْ أَصَابِعُهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْقَ بِهَا .. وَاسْتَدَارَ إِلَى « كوزماس » :

.. هل تعرف ياسيدى ماهو أكبر وجش ضار فى هذه الدنيا ؟ قد تقول انه الأسد . أبدا . الرجل .. قد تسألنى : لماذا ؟ لأنه يقاتل ويقتل الأتراك مثل عمك ؟ أم لأنه يخترع الأسلحة بخيث الشياطين ويقتل الأسود ؟ لا هذا ولا ذاك . وسوف أفسرك الأمر . ان لى عما . انهم يسمونه - سامحهم الله - « أندروليوس » . وقد نشأ ضعيف البنية قسموه « الوهم » .. لأنه لم يكن يزد فى حجمه عن الحمصة . وكان يجرى هنا وهناك - لا ، لم يكن يجرى ، بل كان يقفز كما يقفز « نطاط الحشائش » ولا يكف عن الأنين والبكاء بسبب أذى رفقاءه له . وقال الأطباء ان عنده حصاة وأن موته مؤكد . ولكنه بالرغم من ذلك ياولدى - صدقنى - أصبح شيئا .. أصبح رجلا . كان يحمل فأسه ويخرج ، ويركع على أرض الجبل خارج قرية « فينيراتو » ، بانج . بانج . بانج .. ويبدأ فى كسر صخور الجبل بفأسه : عاما وعامين وثلاثة . وكان الفلاحون يملون به ويرونه ، فيهتزون من فرط الضحك ويقولون : « الجبل يا أندروليوس » .. وكان هو يجيب دون أن يرفع عينيه عن الفأس : « أجل .. وسوف أكله أكلا » .. وفى العام الثالث بدأ يبنى بيتا فى سفح الجبل : « خذها نصيحة منا يا أندروليوس » ، لا تبني بيتا ، فان من يبنى بيتا لابد أن يتزوج » - « وسوف أفعل هذا أيضا أيها النفاق » . وكان يقول للذين يسخرون منه : « سوف أتزوج وأنجب أطفالا يساعدونى فى قهر الجبل » وكان الفلاحون يضحكون : « ومن هذه المرأة التى ترضى بك يا "وهم" ؟ » .

فكان يجيب :

.. « عندما يكون ثمة زحام عند دكان الجزار ، فان شيئا من اللحوم لا

يتبقى . وحتى أنا سوف أجد زوجة .. وأكمل بناء البيت . ومرت به ذات يوم امرأة فلاحه قصيرة وسمينة وقيحة الوجه ، ولكنها كانت صغيرة . وتطلعت الى الفناء والمخزن والمطبخ وغرفة النوم ، فأحبت البيت . وقالت لاندروليبوس وهى تغمز له بعينها : « ما رأيك يا اندروليبوس ؟ ، وفهم عمى . وبالاختصار تزوجها . ونام معها ، وأحسن استخدام ليلته . ولكنه حين نظر الى الجبل فى صباح اليوم التالى وهو لا يزال أشبه بالنائم حمل فأسه وعاود الحفر : بانج ، بانج ، بانج . وكان يقطع فى كل يوم قطعة منه حتى اقام كومة جديدة من الصخور بنى منها بيتا آخر الى جوار الأول . وبه حجرة نوم أخرى . كما أنه وسع الفناء وبنى حظيرة للحيوانات :

- « هل تريد أن تبني مدينة » ؟ .

- « نعم .. والأقارب أضغ أطفالى ؟ » .

- أفلا تحس بالآلام فى الكلى ؟

- ما هذا الحديث عن الآلام أيها الجيف ؟ ، لا وقت لدى للآلام .

ومرت الأعوام . وأنجبت النساء أولادا : اثنين ، اثنين .. وظل هو يتابع العمل بفأسه . وأصبحت فى الجبل كهوف وحفر .. فقد كان اندروليبوس يأكله حقا .. ولم يعد يستطيع مفارقة الجبل . لقد شاب الآن شعره وهزل جسده أكثر وأكثر ، ولكن ساعديه أصبحا ذوى قوة خارقة . وأصبحت مخالفه أعرض وأطول - حتى لتصل الى ركبتيه - . أن من يراه لا يملك الا أن يضحك لشبهه بذلك النسنان الذى أحضره الباشا مرة الى « ميجالو كاسترو » . أن من يراه لا يملك الا أن يضحك . نعم .. ولكنه لا يملك الا أن يرتعش أيضا .. أن الفلاحين يحرصون على أن تكون ثمة مسافة بيته وبينهم ، فقد حدث يوما أنه مد مخالفه وقبض على أحد من الضاحكين عليه وعصر عظامه ومن يومها يعرج .. ولقد كبر أطفاله ، وكانوا هم أيضا يلقون بأنفسهم فوق الجبل بفئوسهم ويأكلون منه قطعة فقطعة .. وبينون .. تزوجوا وأنجبوا أطفالا . وشاخ عمى وهرم وثقل .. الفأس فى يده .. وذات مساء أحس وهو فى طريقه من الجبل الى البيت بأن نهايته حانت . أمرهم بأن يدفنوه فى الجبل وفأسه الى جواره ، ثم بسط ذراعيه .. ولفظ أنفاسه الأخيرة .. اذا أنت مررت يوما بقرية « فينيتراتو » ياسيدى ، فليدلك الناس على قرية « اندروليبوس » .. أن ما بناه عمى أصبح نموذجا يحتذى .

ثم سكت .. وأحس بالسعادة لأنه استطاع أن يؤثر في ذلك الأفرنجي .
وبرقت عيناه وبسط الظلام في رضا وانفعال .

– اسمع يا « شاريديموس » أنا أعرف وحشا آخر أكثر ضراوة وحجما من
الأسد ومن عمك « اندروليوس » .

– ومن هو ؟ .

– دودة القبر .

– اللهم احفظنا . لا تفكر في هذا الأمر بحق الله .

ورسم « شاريديموس » علامة الصليب وهو يغمغم قائلا : « لعننا
الله » .

ثم بصق .. وأمسك بعصاه وهو يقول في قلق : « فلنتابع السير
ياسيدى » .

مع غبش الفجر ، وصل « كوزماس » الى قمة « سيلينا » يتبعه
« شاريديموس » :

– امض أنت ياسيدى .. فإذا انتهيت من أداء ما جئت من أجله ..
نادتني . حتى نعود أدرأجنا معا . أفضل ألا أرى عمك فسامحنى .

ولم يكن الكابتن « ميخائيليس » قد نام طوال الليل ، فقد ظل واقفا في
موقعه يراقب دون أن يغمض له جفن ، وعند أول ضوء التقط نظارته المقربة
ليرى من خلالها موقعا تركيا في أثر آخر في أسفل الجبل كانت ترتفع في
كل ليلة عن سابقتها . وكان واضحا أن الأتراك ليسوا في عجلة من أمرهم .
وأنهم يدركون من الطلقات المتفرقة التي يطلقها المسيحيون أن ذخيرتهم
تتناقص باستمرار . ويدركون أيضا أن هؤلاء الذين تجمعوا على قمة الجبل
لم يعد لديهم إلا قليل من الخبز يتبلغون به . كان الحصار محكما لا يسمح
لإنسان أو حيوان بالتسلل إلا من ممر لصعود الماعز يعرفه ابن المنطقة
ويستطيع عن طريقه أن يصل بالليل الى عش النسر .

وظل الباشا يبعث رسائله الى الكابتن « ميخائيليس » ليقنعه بالطاعة . وكانت القسطنطينية قد بعثت اليه تقول إنه سيكون أفضل لتركيا أن يذل المتمردون من أن يقتلوا . لأن ذلك يعنى أن « كريت » ترضخ بمحض ارادتنا ، الأمر الذى تسقط معه كل دعاوى الفرنجة . وقد بعث الباشا فى مساء اليوم السابق برسالة الى الكابتن « ميخائيليس » تقول : « انى أمنحك آخر فرصة . استسلم غدا صباحا واعتزل بكل شرفك العسكرى . ولن أمسك بسوء . والا فانى أقسم بمحمد أننى سوف أسحقك سحقا » .

وقد ظل الكابتن « ميخائيليس » طوال الليل يقلب الامر على وجهيه ليرى ماذا يختار - ليس لنفسه - لأنه كان قد اختار لنفسه بالفعل ولكن من أجل زملائه . لم يكن هناك أمل فى الفوز : ولم يكن يريد أن يتحمل ضميره وزر مصيرهم . فليدع إذن كل واحد منهم يختار طريقه بمحض ارادته . وهكذا ، فقد أحاطهم فى ذات المساء بمضمون رسالة الباشا . فاخبروه بأنهم سيفكرون فى الأمر طوال الليل وسوف يكون جوابهم فى صباح اليوم التالى .

ولم يغمض لأحدهم جفن ليلتها . وعندما كانت الشمس تلمس الجبل بأشعتها عند الصباح . كان كل واحد منهم قد تسلل منفردا الى الكابتن . وهامم الان ينتشرون حوله شعثا غبرا قد اتسخت وتمزقت ثيابهم وغطتها بقع الدماء . ينتظرون أن يكون هو البادئ بالحديث . ولكنه ظل يحدق فى الصخور حتى يبدأ فى صدره ذلك القلب المثقل وحتى يكون صوته حين يتكلم .. هادئا وليس أشبه بالزئير . كانت الأفكار تتدافع الى أعماقه فى حدة البرق : ثار « أسا كى » : المرأة الشركسية .. دير السيد المسيح .. وآنحنى أخيرا ليلتقط حجرا ، وظل يضغط عليه وهو يلعن .. حتى سالت الدماء من يده .

كانت شفثاء وحاجباه يختلجان وهو ينظر حوله الى رفاقه . ثم أسفل الى الاتراك . ثم الى أعلى .. الى السماء غير المسكونة فوقه . وغمغم وهو يهز رأسه فى عنف « الحرية أو الموت » .. « الحرية أو الموت » .. أه أيها الكريتيون المساكين . بل الحرية والموت . هكذا كان ينبغى أن أكتب فوق الراية . هذه هى الراية الحقة لكل مقاتل : الحرية والموت .. الحرية .. والموت » .

وهذا قليلا .. فبعد سنين طويلة أدرك الحقيقة واتضح الأمور أمامه .
واحس بقوة تسرى في قلبه وهو يستدير في هدوء الى رفاقه ويقول :

- عرفت ما عرضه هذا الكلب علينا .. وأنتم رجال ، ونحن نناضل من أجل الحرية . ولكن صرحاء ، ليس لدينا بارود ولا رصاص ولا خبز . ولا أمل . الأتراك أمامكم في جيش بينما نحن خفنة .. فمن أراد منكم أن يذهب فليفعل : وأقسم لكم بسيفى الذى لن أسلمه الا لله أن ليس فى ذلك أدنى عار . أنا لن أذهب . هذا كل ما أردت أن أقوله لكم .

وساد الصمت لحظات لم يرفع فيها واحد رأسه ليتكلم .. وكانت الشمس قد ارتفعت عن الأفق قليلا عندما بدأت الطبول تدق كان الجنود الأتراك يحتشدون . وعاد الكابتن « ميخائيليس » يقول : « تكلموا فى حرية . واحزموا أمركم بسرعة » ..

وقال رجل أسود الشعر شاحب الوجه ربط بندقيته بخيط من الدوبارة :

- أنتم جميعا تعرفون أننى رجل وأننى لا أهرب أمام مخلوق .. ولست أخشى الآن أن أوصف بأننى بعيد عن الرجولة .. ولكننى أريد أن أوضح وجهة نظرى فى صراحة . أيها الكابتن .. اننا نفرق الآن بلا فائدة . لن نستفيد نحن ولا المسيحية . وسوف تثار « كريت » عن قريب مرة أخرى ولن نكون يومها أحياء لنسدد ضرباتنا باسمها . ان حياتنا الآن أكثر فائدة لكريت من موتنا . شرف أو عار ، لا يهمنى . فرصة أو دمار لكريت ، ذلك وحده الذى يشغل بالى .

وانضت اليه الكابتن « ميخائيليس » وقد أحنى رأسه ، ثم سأله :
- هل انتهيت يا « ناروس » ؟
- لقد تكلمت .

واستدار الكابتن « ميخائيليس » الى الآخرين :
- كل واحد بدوره . وهذا دورك يا « فوروجانوس » .

وتحسس « فوروجانوس » شناريه وهو يدير برأسه بعيدا ويقول :
- طوال الليل كان ثمة شيطانان يتصارعان فى أعماقى . أحدهما قال

لى : « ابتعد فليس ثمة أمل فى النصر » .. وعندما جاء الفجر كان أحدهما قد انتصر .

وقال الكابتن « ميخائيليس » وهو يجول بعينه فى عيون الآخرين :
- وأيهما ؟
- بالنسبة لك أنت ياكابتن « ميخائيليس » - فانتى ألحن الساعة التى عرفتكَ فيها .
- حسن .
- لن أذهب .

واستدار الكابتن « ميخائيليس » الى باقى الدائرة وحوله :
- وماذا عنك أنت يا « كاجابيس » ؟

وقال هذا وهو يتنهد :
- أنا .. أنا حديث عهد بالزواج ، عندى زوجة لم أجد الفرصة لأستمتع معها بالسعادة . ذلك يحرق صدرى .

وقال الكابتن فى اصرار :
- حسن .. دع النساء جانباً الآن .. ماذا يقول الرجل ؟ : اننا نسال الرجل .
- لعن الله السبابة التى قابلتك فيها ياكابتن « ميخائيليس » أنا أيضاً أقولها . انى أريد أن أذهب ولكننى أحس أمامك بالخجل لن أذهب .

واستدار الكابتن الى ابن أخيه الذى كان ينظف بندقيته ويحشوها بينما رفاقه يتكلمون :
- وانت يا « تودورس » ؟ .. ماذا تقول أيها الفتى الذى لم تنبت لحيته ؟

واستدار « تودورس » ينظر الى عمه متجهماً .. وقد امتلأ غضباً وأعجاباً وحسداً ، وقال :
- أتظن أنك أنت الوحيد الذى تملك الشجاعة . لمجرد أن لحيته نبتت ؟
لن أذهب .
- ولا أنا ..

وصاح اثنان آخران تلوث صدغاهما بالتراب :
- ونحن أيضا .

أما الآخرون : عشرون أو يزيدون قليلا ، فقد أحنوا رؤوسهم ولزموا الصمت .

وصاح الكابتن « ميخائيليس » :
- ليس أمامنا وقت كاف . إن الشمس ترتفع ، تكلموا ، هل تريدون الذهاب ؟ أنتم أحرار آذن ، فالى اللقاء .

وهمس « كراسو جورجيس » الى جاده ، ثم وقف وقد وضع يده فوق صدره ..

- سامحونى يا اخوتى ، ان لنا أخوات لم يتزوجن ، وأبناء لم يعملن وزوجات وأطفال . وموتنا لن يفيد أحدا . سوف نذهب .

وقال « ماستراباس » أيضا :
- سامحونى يا اخوتى .. نحن ذاهبون .

وصاح الكابتن « ميخائيليس » وهو ينهض واقفا :
- بوركتم .. بوركتم ياخواتى . الله يشهد انى لست ناقما عليكم . تحياتنا الى الناس أسفل الجبل . ولكن انصرفوا بسرعة ، كل واحد وشأنه ، ولا تدعوهم يرونكم . أسرعوا قبل أن ترتفع الشمس أكثر .

وقال العشرون كأنما نغم واحد :
- سامحونا .. وعسى الله أن يسامحكم .

وقال الكابتن « ميخائيليس » :
- لكم ما تريدون . ويلعن الله رجلا يقول فى حقكم كلمة واحدة ، عود حميد ..
وبقى خمسة ..

ونظر اليهم الكابتن « ميخائيليس » واحدا بعد الآخر ثم قال :

- نحن اذن ستة . هذا يكفى . بل اكثر من الكفاية . ان العقل يقول :
« نريد أن نذهب » .. ولكن القلب - والله معنا - لا يسمح .. لن نغادر هذا
المكان . سوف نموت فداء لكريت . فلتحكم كريت لنا أو علينا : نحن الذين
سنموت هنا ، نفعل خيرا مما فعله الذين سيعيشون . ان كريت ليست فى
حاجة الى أرباب بيوت .. انها تحتاج الى مجانيين مثلنا هؤلاء المجانين هم
الذين سيخلدون كريت .

ثم تطلع الى السماء . وكانت الشمس ترتفع حثيثا :
- أعدوا بنادقكم . وغيروا مزاغلكم حتى لا يكتشفوا قلة عددنا . باسم
الله .

وفى ذات اللحظة التى بدأ فيها المناضلون الستة يتفرقون ، وبينما كان
الكابتن « ميخائيليس » ينحنى أمام مزغله .. تنأثر الحصى خلفه ، ووصل
« كوزماس » . واستدار الكابتن « ميخائيليس » وأمعن النظر :
- من أنت ؟. أخفض رأسك اذا كنت لا تريد أن تخرقها رصاصة .

- أنا « كوزماس » . ابن أخيك ياكابتن « ميخائيليس » .

وزوى الكابتن ما بين حاجبيه وقد أدرك أى ربح حملته الى هناك فقال
فى فظاظة :
- زيارة نرحب بها . لماذا قطعت كل هذا الطريق الى هنا ؟. وماذا يريد
الثعلب فى السوق ؟

وعض « كوزماس » شففيه حتى لا تفلت من بينهما كلمة غاضبة ، ثم قال
فى ضحكة جافة :
- أنا لست ثعلبا . وليس هذا سوقا . أنا مثلك رجل ياكابتن
« ميخائيليس » ، أنا ابن أخيك .

- الذى يقاتل هو وحده الرجل . استلق بجانبى وقل لى لماذا جئت .
وأوجز ، فأنا مشغول .

ثم عاد يتطلع الى السماء .. كانت الشمس لحظتها تقترب من ارتفاعها
عند الظهيرة . وصاح رفاقه :

- استعدوا يا أولاد . احشوا بنادقكم . ولكن انتظروا اشارتى قبل أن تطلقوا النار .

وتناهت صيحات وحشية من أسفل الجبل . وأطل « كوزماس » من خلال فرجة وسط الصخور ورأى كتلا من الجنود الأتراك تتسلق الجبل .

وعاد الكابتن « ميخائيليس » يسأل دون أن ينظر الى ابن أخيه :
- تكلم . من الذى أرسلك ؟

.. وظل مسددا بصره الحاد نحو الأتراك . وأجاب « كوزماس » :
- كريت ..

وعندما انفجر الكابتن « ميخائيليس » هادرا :
- لا أريد شيئا من هذه الكلمات الضخمة أيها المدرس . تكلم كما يتكلم الرجال . ولا تقل لى إن كريت هى التى أرسلتك . هل سمعت ؟ كريت هى أنا .

وأدرك « كوزماس » على الفور أنه فى مواجهة رجل لا يستسلم .. ما الذى يجبره اذن على أن يمتحن نفسه بالتوسل اليه ؟ . ان الله نفسه لن يستطيع أن يغير ما بعقل هذا الرجل . لقد اتخذ قراره الحاسم . فلماذا يزحف اذن أمامه ؟ وقفز داخل خفايا صورة ذلك القلب الكريتى المترفع ، وأحس بالخجل من أسلوب الحديث المصنوع .

وعاد الكابتن « ميخائيليس » يهدر دون أن ينظر اليه
- حسن . فماذا تريد ؟

وقال « كوزماس » فى يأس :
- لا شيء .

وطرح جانبا كل الكلمات التى أعدها من قبل :
- فقد جئت اذن لتزور عمك ؟ ، ألف أهلا .
- جئت لأخبرك بأن جدى قد مات .

ووضع الكابتن « ميخايليس » بندقيته جانبا ، ورسم علامة الصليب وهو يقول :

- عسى الله أن يكون كريما معه ، لقد كان رجلا جديرا بالاحترام . كانت أعماله طيبة ، وكانت حياته غنية . والآن يرحل .. ليثام .. أما أنت ، فالى اللقاء نحن هنا فى حرب .

- اليس ثمة رسالة تريد أن أحملها ؟

- اذهب .

- لزوجك ، أو لولدك « ثاراساكى » ؟

ونفرت عروق الكابتن « ميخايليس » واضطربت نظراته . ورفع يده الملوثة بالبارود والدماء وهو يضعها فوق فمه .. وصاح هادرا :

- باسم الله .. الحرية أو الموت .

وسدد بندقيته ، وأطلقها . وتجاوبت بالطلقة الأصداء فى الجبال . وانهارت على القور رصاصات الاتراك تصفر صاعدة الى أعلى ، وبدأ مدفع صغير يهدير على المنحدر كالرعد ، واستقرت قذيفته خلف الكابتن « ميخايليس » وتطايرت الأحجار .

وندت صرخة ألم . واستدار الرفاق فوجدوا « كاجابيس » وقد تدرج فوق الصخرة التى كان يقف فوقها ، ليهبط عند قدمى الكابتن « ميخايليس » ، وحين حاول أن يفتح فمه ليتكلم ، انبثق منه سيل من الدماء منعه من الكلام .

وكانت الطبول اسفل تدوى .. وبدأت رؤوس الجنود تلوح وفى مقدمتهم « الدراويش » يحملون الراية الخضراء .

وصاح « تودورس » :

- دعوهم يستقبلونها يا أولاد .. اهبطوا الى الكلاب .

وارتفعت أكثر وأكثر أصوات أقدام الزاحفين . والقى الكابتن « ميخايليس » بنفسه فوق « كاجابيس » ليأخذه بين ذراعيه . واصطدم

« بكوزماس » الذى كان لا يزال مستلقيا الى جواره ، فصاح فيه :
- الاتراك هنا يامدرس ، اهرب بسرعة ولا تختلط بالرجال .

ولكن « كوزماس » لم ينهض . كان ينصت الى قلبه الذى راح يهدريه
جنبه .. والدماء والبارود يغطى وجهه . وأحس بأبيه .. ذلك القائد
المرعب .. يستيقظ داخل صدره . ومع جده .. وكريت أيضا .. وأحس بأر
هذه ليست أول معركة سيخوضها : فمنذ ألف سنة وهو يحارب ، ومنذ ألف
سنة قتل وبعث من جديد ألف مرة . وغلت الدماء فى عروقه ..

وتحسس الكابتن « ميخائيليس » جسد « كاجابيس » فى سرعة ليفحص
جرحه . وبرقت عينا الرجل لحظة ، ثم تجمدت نظراتهما . ومدد الكابتن
الجسد على الأرض وصاح :
- تذكروا « أركادى » ياخوتى . ولنمت جميعا كالرجال .

وبدأت أنفاس الاتراك اللاهثة تنتهى أصواتها ، وصاح « فورجانوس » :
وهو يحس برعشة فى صدره ومعدته : « لقد ضعنا » .

وصاح « تودورس » الذى كانت الدماء تسيل من جبهته وتكاد أن تعمى
عينيه : « أغلق فمك » .

ثم مسح الدماء بذراعه ورأى الاتراك أمامه فصاح :
- ياأولاد .. لن تصلح البنادق ، فالى خناجركم .

ثم استل خنجر أبيه ذى القبضة السوداء ، وألقى بنفسه فوق الدرويش
الذى يحمل علما ويلوح به فى جنون . ولم يكذ يقترب منه حتى سقط الى
الخلف وقد استقرت رصاصة فى رأسه .

وارتفع خلفهم صوت هادر على حين فجأة :
- الصحة والسعادة لكم يافرسان . لقد أدركتهم فى اللحظة المناسبة
ياكابتن « ميخائيليس » .

وصاح الكابتن وقد برقت عيناه :

- ماذا ؟ .. أهذا انت يا « فيندوسوس » اسحب ما قلته ياكابتن .
- انى اسحبه . سامحنى ياأخى . تعال هنا واخفض رأسك .

وخطا « فيندوسوس » خطوة واحدة ، ولكن رصاصة عاجلته . فهوى على الأرض .

ودمعت عينا الكابتن « ميخائيليس » وهو ينحنى ليقبل جبهة « فيندوسوس » ثم استدار فرأى « كوزماس » . فرفع قبضته وصاح :
- ابتعد ، لا تزال أمامك فرصة . ابتعد .

- لن أبتعد ثم انحنى بسرعة ليلتقط بندقية « كاجابيس » ويلعلق حزام الذخيرة حول عنقه .. ويخرج خنجره من غمده .. ونظر اليه الكابتن « ميخائيليس » فى دهشة :

- لن تذهب .
- لن أذهب .

وفجأة أدرك الكابتن « ميخائيليس » كل شيء . وتهلل وجهه وهو يأخذ رأس « كوزماس » بين يديه :
- حياك الله ياأبن أخى . فأنت أيضا تريد أن تضحى بنفسك بالكريت الخالدة .

وهبت عاصفة . واكتست السماء باللون الأحمر ، وبدأت السحب تتجسع وتناهت أصوات الطيور الجائعة .

وقفز « فوروجاتوس » وقد أحس بالعار لأنه كان جباناً اللحظة . وبدأ الموت أمامه لحظتها وكأنه الله الواحد الرحيم الذى يغسل كل عار ورسم علامة الصليب ، واستل مديته وصاح : « الحرية أو الموت » . ثم اندفع تاركاً الساتر الذى كان يحتوى به . وألقى بنفسه مكشوف الرأس بلا حماية ، فوق الأتراك . وأحاط به خمسة أو ستة منهم . فلقى بنفسه عليهم فى ضراوة ووحشية ولكنهم طرحوه أرضاً ، وجثم أحد الدراويش وذبحه كالحمل .

وعندما رأى الكابتن « ميخائيليس » ما حدث ، أصدر أوامره :

- لا يغادر أحدهم ساتره .

ولم يكن قد بقي من رفاقه سوى اثنين . احتميا وراء ساترين وظلا يسددان طلقاتهما فلا تخيب منها واحدة .

وكان الكابتن « ميخائيليس » يسدد طلقاته هو الآخر الى جبهة كل جندي يظهر امامه . وأصابته خده طلقة ، وأصابته أخرى جنبه وبدأت دماؤه تسيل دون أن يحس بالألم . وكان من حين آخر ينظر الى ابن أخيه وهو الى جانبه يطلق الرصاص في حماس : « حياك الله يا ابن أخى ، أن إباك ينهض من جديد » . « كوستاروس » يا أخى .. نعم ما أنجبت .. وصباح الآخر « نعم اللقاء ياعمى » . وأحس بالبهجة ، وبأنه يتحول الى شخص آخر . وتملكته نشوة سوداء مبهمه وهو يحس نفسه كأنما قد خف وزنه وتحرر . أو كأنما عاد فى تلك اللحظة وحدها الى بيته ووطنه . واختفت فى لحظات كل الافكار الافرنجية المثقلة . ومعها اختفت أمه وزوجته واختفى ابنه ، ولم يعد باقيا شامخا امامه الا شيء واحد فحسب : واجبه الأزلى .

وصباح هو الآخر وهو ينظر الى الأتراك :
- البحرية أو الموت ..

وهبط ظلام مفاجيء ، وهطلت الثلوج بشدة ، وتخللت أشعة الشمس الغارية السحب الحمراء فى السماء .
وتناهى صوت .
- لقاء سعيد ياكابتن « ميخائيليس » .

كان صوت مؤذن « ميغالو كاسترو » العجوز بعمامته الخضراء ، وهو يلوح فجأة من خلف الساتر .

وقال الكابتن « ميخائيليس » :
- لقاء سعيد يامؤذن .

ثم أرسل اليه رصاصة اخترقت منه تفاحة آدم ، وانبثقت الدماء وهوى المؤذن الى الأرض .

وصاح تركى ذو شعر اشقر :
- اقتلوهم .

واندفع الجنود يهدرون :
وقال الكابتن « ميخائيليس » لابن أخيه « كوزماس » :
- لا تتردد يا ابن أخى ، ليس ثمة أمل ، عاشت كريت .
- صدقت . ليس ثمة أمل ياعمى . عاشت كريت .

واستل كل منهما خنجره واندفع الى الامام . وكان الثلج قد بدأ يغمر
جثث القتلى الممدة فوق الأرض . كما أصبحت الطرايش بيضاء وانقض
نسران نحو الرجال المقتولين يتفحصان دوائرهم وقد اشربا عنقاهما .

ووسط خضم القتال المتلاحم بالأيدي .. افترق العم وابن أخيه . وأحاط
الأتراك بكوزماس ، وراه الكابتن « ميخائيليس » عن بعد . فاقترح سلسلة
الجنود الذين كانوا يحيطون به . واندفع ليخلص ابن أخيه وهو يصيح .
- انتظر لحظة يا ابن أخى .. أنا قادم اليك . ولكن الوقت كان قد فات .

وصاح واحد من أتراك المنطقة فى سخرية :
- انه قادم اليه بنفسه ياكابتن « ميخائيليس » . ثم ألقى عند أقدامه رأس
« كوزماس » .

وبسط الكابتن « ميخائيليس » يده ورفع الرأس المفصول من شعره
وكانه اللواء ، واكتسى وجهه بهالة من ضوء وحشى يفيض ببهجة لا
إنسانية : أكانت كبرياء ، أم تحديا .. أم استهانة بالموت ؟ أكانت حبا
لكريت لا حدود له ... ؟

وصاح الكابتن « ميخائيليس » هادرا :
- « الحرية أو »

.... ولكنه لم يكملها ، استقرت رصاصة داخل فمه ، واخترقت أخرى
صدغيه .. وتناثر مخه فوق الصخور .

هذه الرواية صورت

نجح الكاتب اليوناني
كارنتزاكيس أن يصنع من
الروائية نماذج حية ومعروفة ر
شهرته ككاتب . منها على
شخصية « زوربا اليوناني »
الكابتن ميخائيليس في رواية
« الحرية أو الموت » .

هذه ترجمة كاملة وأمينة له
الأدبي العملاق الذي كتبه ك
وترجمة سعد زغلول نصار .. وهو
المع نجوم الاذاعة والترجمة في
الذهبي ..

نجح الكاتب أن يصنع من جز
الصغيرة عالما رحبا ، بالغ ا
يمكنك أن تقابل فيه كافة النماذ
التي عاشت على صفحات هذه
تتصارع فيما بينها . وتحاول
لنفسها ظلا وسط هذه الصراعات
والعنيفة ..

الحرية أو الموت
رواية تتنبأ بكافة الصراعات
التي يشهدها العالم في نهاية
العشرين ..



نيقوس كازنتزاكيس

○ أشهر كاتب يوناني في القرن
العشرين .. عاش بين عامي
١٨٨٥ و ١٩٥٧
○ كتب الرواية والقصيدة
والمسرحية ..

○ درس الفلسفة بجامعة أثينا ثم
في باريس .. ورحل إلى بلاد
أوروبا لدراسة الفن والأدب ..
وعاد إلى اليونان ليعمل في
وظائف قيادية في وزارة الثقافة .
○ درس العقائد الشرقية لسنوات
طويلة .. وترجم الأعمال الكاملة
لداكنتي وجوته إلى اليونانية ..
وأوديسييا هويدريس إلى
الانجليزية . وتعتبر أعظم
أعماله ..

○ ذاعت شهرته من خلال رواية
« زوربا اليوناني » ١٩٤٦ .. وله
روايات أخرى مثل « العاطفة
اليونانية .. ١٩٥١ و « الأغراء
الآخر للسيد المسيح .. ١٩٥٢ .
○ كتب للمسرح « المسيح
يصلب من جديد » ..
○ تحولت أعماله إلى الفلام
سينمائية عالمية .. وترجمت
أغلبها إلى اللغة العربية

روايات الهلال تقدم

هاتف المغيب

بقلم
جمال الغيطاني

تصدر: ١٥ مايو ١٩٩٢

رئيس التحرير: مصطفى نبيل

رقم الايداع : ٣٠٨١ / ١٩٩٢
L . S . B . N
977 — 07 — 01bo — 2

المنظف الصناعي

نيون

ذو الرغوة الوفيرة
والرائحة الذكية



Bibliotheca Alexandrina



0207532

إنتاج :
شركة اسكندرية لادبيوت والصابون